

استغفر الله العبد والذليل

من حياة محمد عليه الصلاة والسلام

محمد

الدكتور  
محمد بن عبد الكريم الجزائري



ASSOCIATION MONDIALE DE L'APPEL ISLAMIQUE

اِسْتِخْرَاجُ الْعَبْرِ وَالْاِحْمَامِ  
مِنْ حَيَاةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ



اسم الكتاب : استخراج العبر والأحكام

من حياة محمد عليه الصلاة والسلام

المؤلف : الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

سنة الطبع: 1376 من وفاة الرسول ﷺ (2008 مسيحي)

طريق السواني - طرابلس

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

هاتف: 65 - 4808461

بريد مصور: 4800293

ص.ب: 2682 طرابلس - الجماهيرية العظمى

البريد الإلكتروني: Media@islmic-call.com

الرقم المحلي 376 / 2007 دار الكتب الوطنية - بنغازي

رقم الردمك 3 - 133 - 28 - 9959 - 978 ISBN

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتسجيل المرئي والمسموع  
والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من  
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

# استخراج العبر والأحكام من حياة محمد عليه الصلاة والسلام

الدكتور  
محمد بن عبد الكريم الجزائري



ASSOCIATION MONDIALE DE L'APPEL ISLAMIQUE



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم  
اللهم صلّ وسلم على سيّدنا محمد وآله!

## مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي أوزعنا أن نصدع بما أمرنا به ، ونهانا أن نحيد عن كتابه وسنة رسوله ، وجعل في حياة خاتم الأنبياء والمرسلين براهين العبر ، لمن اتّعظ وسلّك مسلكه واعتبر ، وأوجب أحكام شريعة الله الغراء ، على جميع المكلفين من سكّان الغبراء . والحمد لله الذي أمرنا أن نذود عن حياض الحقّ المبين ، ونتنصر لأهل الصدق واليقين ، ونقف بالمرصاد لمن افتري وتقولّ على من أرسل رحمة للعالمين ؛ حتى يضمحل الباطل وتنمحي صولته ، ويخسف صاحبه فتكشف عورته ، ويخسأ كلّ مفتر بافترائه مذموماً مدحوراً ، فيبقى طوال حياته منبوذاً مهجوراً . والصلاة والسلام على صاحب الخلق العظيم في الحضر والمهجر ، وفي المظهر والمخبر ، وفي السراء والضراء ، والشدة والرّخاء ، وعلى آله وأصحابه الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، الرّاجين بهما ثواب الله يوم الرّحاف والمحشر . وعلى التابعين وأتباع التابعين ، في كلّ جيل من أمة الإسلام إلى يوم الدين .

ويعد : فهذه براهين قطعية وحقائق ربّانية قد شاء الله بمشيئته أن نجبرها تحبيراً ونستدلّ بها استدلالاً ؛ حتى تكون حجة دامغة وصاعقة نازلة على كلّ من تطاول على نبينا محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - فسبّه وشتّمه ، وانتقصه في ذاته الطاهرة وصفاته العاطرة ، وأفعاله المعصومة بعصمة الله . وسيكون اعتمادنا في هذا البحث المبارك - إن شاء الله - على ما وصف الله به رسوله في كتابه المبين ، وعلى ما صحّ عنه - عليه الصلاة والسلام - : أقوالاً وأفعالاً قد حفظها له ثقات الرواة وعلماء التواريخ والسير زماناً ومكاناً ، وعلى استنباط العقل السليم ؛ بعد التروّي في نصوص الأخبار وتمحيصها ممّا يشوبها من الترهات . والله نرجو كلّ الرّجاء أن نحظى منه بالأجر الجزيل ، ومن رسوله نأمل الأسوة به في الحلّ والترحال ، وفي السراء والضراء ؛ من حيث جسارة الأقوال ، وبسالة الأفعال في كلّ ما يرضي الله ورسوله ؛ ما دام الإسلام ديناً كاملاً في نفسه مكتملاً لجميع الأديان السماوية ، وما دام صاحبه خاتماً برسالاته رسالات السّماء .

## الحكمة من اختتام

### رسالة السماء بمحمد؛ عليه الصلاة والسلام

إنَّ الحكمة الربَّانية لاختتام رسالات السماء بمحمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام! - قد ثبتت واقتضت باقتضاء كون عناصر مخلوقات الله محصورة بالأصالة في أربعة عناصر، وهي: الأجرام، والأفعال، والزَّمان، والمكان. ثم اقتضت حكمة الله تعالى أيضاً أن تكون من هذه العناصر الأربعة درجات؛ من حيث الفضل والصلاح السَّرمدان. بمشيئة الله، فاختار الأفضل والأصلح منها عنده فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾<sup>(1)</sup>. فاختاره للأشياء دلالة واضحة على ربوبيته ووحدانيته وكمال تدبيره وقدرته وحكمته؛ لا إله إلا هو فاطر السموات والأرضين، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير. خلق السموات واختار منها السماء العليا؛ حيث ملائكته المقربون، وخلق الجنة واختار منها الفردوس؛ حيث الأنبياء والصالحون، وخلق الأرضين واختار منها أرضنا هذه التي نحن عليها، ثم اختار منها البقاع المقدسة، واختار من البقاع المقدسة مكة المشرفة المكرمة، وأقسم بها فقال: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾<sup>(2)</sup>. وجعلها مناسك لعباده وحرماً لا يُسْفَك فيها دم، ولا يُعَصَّد بها شجر، ولا يُنْفَر لها صيد. وأوجب على عباده أيضاً أن يأتوها من القرب والبعد، و﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾<sup>(3)</sup>. فلا يدخلونها إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفين لرؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وخلق الله الأزمنة، واختار منها زمان الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام! - ثم اختار من زمانهم زمان محمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام! - وهو القائل: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يكون بعدهم قوم يخونون ولا يؤمنون ويشهدون ولا يستشهدون وينذرون ولا يوقون ويظهر فيهم السَّمن»<sup>(4)</sup>. والقرن - هنا - أهل زمان واحد. وخلق الله الأفعال واختار منها ما جاء مطابقاً لأوامره بها في صحفه وكتبه وعلى السنة أنبيائه ورسله. وخلق الملائكة واختار منهم المقربين إليه، ثم اختار من المقربين جبريل؛ عليه السلام! وخلق البشر واختار منهم الصالحين، ثم اختار من الصالحين

(1) سورة «القصص» الآية 68.

(2) سورة «البلد» الآية 1، 2.

(3) سورة «الحج» الآية 27.

(4) رواه البخاري ومسلم، عن عمران بن حصين.

الأنبياء، ثمَّ اختار من الأنبياء المرسلين، ثمَّ اختار من المرسلين أولي العزم - وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمَّد؛ على جميعهم الصَّلَاة والسلام! - ثمَّ اختار من أولي العزم محمَّد بن عبد الله - عليه الصَّلَاة والسلام! - وجعله خاتم أنبيائه ورسله. وليس السَّرَفِي هذا الاختيار يعود إلى ذوات الأجرام والأمكنة والأزمنة والأفعال؛ وإنما السَّرَفِي ذلك يعود إلى ما يقوم بكلِّ منها من صفات ربَّانيَّة وأعراض مُرضيَّة لدى الشرع الحكيم والعقل السَّليم. ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ الحكمة من اختتام رسالة السماء بنبيِّنا ورسولنا محمَّد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام! - تكمن في خمسة عناصر أساسية:

**العنصر الأول:** أخلاقه العظيمة المتمثلة في عصمة أقواله وأفعاله ونيَّاته أيضاً. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(1)</sup>.

**العنصر الثاني:** عموم رسالته النَّبُوَّة لجميع النَّاس قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾<sup>(2)</sup>.

**العنصر الثالث:** شمول رحمته للعالمين. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(3)</sup>.

**العنصر الرابع:** إعلاء شريعته على جميع الشرائع السماوية السابقة كيفما كانت أوامرها ونواهيها زماناً ومكاناً، ونسخ ما كان حقاً في بعض أحكامها المتبدلة بتبدل الأعصار، وإظهار بطلان ما كان باطلاً منها. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾<sup>(4)</sup>.

**العنصر الخامس:** تولَّى الله بنفسه حفظ القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(5)</sup>. وإذا بقي القرآن محفوظاً بحفظ الله إيَّاه ومحمياً بحماية الله له، فإن سائر الكتب السماوية التي تقدمته، قد اعترتها تغيير، ودخلها تبديل وزيادة ونقص في المبنى والمعنى. والسبب في ذلك أن الله لم يتول حفظها؛ بل أوكلها إلى الرِّبَّانِيِّين والأخبار،

(1) سورة «القلم». الآية 4.

(2) سورة «سبا». الآية 28.

(3) سورة «الأنبياء». الآية 107.

(4) سورة «الفتح». الآية 28.

(5) سورة «الحجر». الآية 9.

فأضاعوها. قال الله تعالى: ﴿وَالرَّابُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾<sup>(1)</sup>. أي: بما طُلبَ إليهم حفظه. والسُرُّ في هذه التفرقة العادلة أن جميع الصّحف والكتب السماوية ما عدا القرآن العظيم قد جيء بها على سبيل التوقيت، وأن القرآن الكريم قد جيء به على سبيل التأيد. وقد قضى الله أن يبقى كاملاً مكتملاً لغيره، وأن يبقى معجزة خالدة وحجة دامغة إلى أبد الأبدین.

وتوضح ما سلف ذكره أن دعوة جميع الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام! - تقوم على أساسين اثنين، وهما: العقيدة، والشريعة.

**فأما العقيدة** فمحلّها القلب؛ وهي: الإيمان بوحداية الله في ذاته وصفاته وأفعاله، والإيمان بما يجب له وما يستحيل في حقه، والإيمان بالملائكة وما يجب لهم وعليهم، وبما يجوز ويستحيل في حقهم، والإيمان بالكتب والصّحف المنزلة على الرسل - عليهم الصلاة والسلام! - والإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام! - وبما يجب لهم وعليهم، وبما يجوز ويستحيل في حقهم، والإيمان باليوم الآخر؛ وهو يوم الحساب والعقاب المعبر عنه بـ «يوم البعث»، والإيمان بقضاء الله وقدره: خيره وشره. فالعقيدة وحدة لا تتجزأ، ولا تتغير عند جميع الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام! - ولم يختلف فيها أيُّ منهم عن أخيه؛ من آدم أولهم إلى محمد إمامهم وخاتمهم؛ معصومة من النسخ. وقد أكّد الله في محكم تنزيله وحدة هذه العقيدة متّحدة المعنى عند جميع الأنبياء والمرسلين فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾<sup>(2)</sup>. والعقيدة هي المعبر عنها في القرآن العظيم بلفظة «الدين» تارة، وبلغة الإسلام تارة أخرى. قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾<sup>(3)</sup>.

فقد عبّر الله في هذه الآية المحكمة عن العقيدة بلفظة «الدين» مرتين. ويؤخذ من مضمون الآية الكريمة أيضاً: أن محمداً - عليه الصلاة والسلام! - قد جاء رسولاً مؤكداً لعقيدة من تقدموه من الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام! - فلم ينقص منها ولم يزد فيها؛ بل أبقى مضمونها

(1) سورة «المائدة». الآية 44.

(2) سورة «الأنبياء»، الآية 25.

(3) سورة «الشورى». الآية 13.

على ما هو عليه ، ليكون ذلك إيماناً سرمداً ؛ لا تبديل ولا تغيير فيه . ودين الله هو الإسلام : عقيدة وشريعة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾<sup>(1)</sup> . وقال أيضاً : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾<sup>(2)</sup> . أي : إن العقيدة هي الإسلام ، ومن يتخذ غير الإسلام عقيدة فلن يقبلها الله منه .

فعلى ضوء ما تقدم ذكره ، يتضح لنا جلياً أنّ ذوي الكتب السماوية كلّهم متصفون بصفة الإسلام الذي هو العقيدة الصحيحة ، وأنّ جميعهم عند الله والناس مسلمون ؛ ما داموا متمسكين بعقيدتهم السماوية ؛ سواء أكانوا يهوداً أم نصارى ، فإن غيروا في كتبهم أو بدلوها أو اعتقدوا غير مقتضاها ، خرجوا من الإسلام ، ولا يصحّ لهم أن يتصفوا به ؛ كما لا يجوز لهم أن نسميهم مسلمين ؛ ما داموا مارقين من مقتضيات الإسلام الذي هو العقيدة الإسلامية السرمدية ، تلك العقيدة هي التي جاء بها جميع الأنبياء والمرسلين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ مُنْقَضَةٍ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾<sup>(3)</sup> إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(4)</sup> وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَنْبِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ<sup>(5)</sup> . وقال : ﴿ هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾<sup>(6)</sup> . وقال - حكاية عن سحرة فرعون مع النبي موسى ؛ عليه السلام :- ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾<sup>(7)</sup> وَمَا نَقِمْ مِنْآ إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِغَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ<sup>(8)</sup> . وقال - حكاية عن النبي عيسى ؛ عليه السلام ! مع أنصاره الحواريين :- ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴾<sup>(9)</sup> . فهذا ما يتعلق بوحدة العقيدة لدى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم فيها إلى يوم الدين .

(1) سورة «آل عمران» . الآية 19 .

(2) سورة «آل عمران» . الآية 85 .

(3) سورة «البقرة» . الآية 130 ، 132 .

(4) سورة «الحج» . الآية 78 .

(5) سورة «الأعراف» . الآية 125 ، 126 .

(6) سورة «آل عمران» ، الآية 52 .

وأما الشريعة فمحلّها أقوال البشر وأفعالهم ؛ وهي تتمثل في ثلاثة عناصر أساسية : عنصر العبادات ، وعنصر المعاملات ، وعنصر الأخلاق . وكلّ عنصر من هذه العناصر يختلف في الكيفيّة والكميّة ؛ حسبما يقتضيه تشريع كلّ نبيّ مرسل في قومه ؛ من حيث البيئة والعصر وقدرات أهله واستعدادهم وبعبارة أوضح ؛ أي : من حيث مجتمعات البشر وأزمنتهم وأمكنتهم وأمزجتهم ، وقواهم جسداً وعقلاً . «وكلّ مُيسّر لما خلق له»<sup>(1)</sup> . فعلى هذا الأساس الطبيعيّ كانت شريعة كلّ رسول محصورة في قومه خاصّة بأمّته ؛ حسبما تقتضيه مصالحهم الدنيويّة ومصيرهم الآخرويّ ؛ وهذا ما يُفهم من جميع وظائف الشرائع السماويّة زماناً ومكاناً ، وما يُفهم أيضاً من حكمة الشدّة والسهولة ، والرّخصة والعزيمة ، والتّاسخ والمنسوخ في شريعة كلّ نبيّ مرسل ؛ فقد جاءت شريعة النّبيّ موسى - عليه السلام - شديدة مبنية على العزائم ؛ حسبما تقتضيه أحوال بني إسرائيل وبيئاتهم في زمانهم . وقد جاءت شريعة النّبيّ عيسى - عليه السلام - سهلة مبنية على الرّخص ؛ حسبما تقتضيه أحوال بني إسرائيل أيضاً وبيئاتهم آنذاك . وهذا ما أشار إليه القرآن العظيم - على لسان النّبيّ عيسى - عليه السلام - ! حيث أحلّ لقومه بأمر ربّه له ما كان محرّماً عليهم في التّوراة قبل بعثته ، قال عزّ من قائل : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾<sup>(2)</sup> . فبناء على ما تقدّم تفصيله اتّضح لنا جليّاً أن شرائع جميع الأنبياء والمرسلين كلّها مؤقتة ؛ ما عدا شريعة نبيّنا ورسولنا - عليه الصلاة والسلام - ! فإنّها دائمة مؤبّدة . وشأن كلّ مؤقت ناقص ، وشأن كلّ مؤبد كامل . وإذ تيقنا أن نبيّنا ورسولنا - عليه الصلاة والسلام - قد جاء مؤكّداً لعقيدة منّ تقدّمه من الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - فإنّنا نكون على أكمل يقين بأنّه قد جاء مكملّاً ومتّمّاً لشرائعهم على وجه العموم والإطلاق . قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾<sup>(3)</sup> . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ »<sup>(4)</sup> . فهذه - هي - الحكمة الربّانيّة لاختتام رسالة

(1) رواه البخاريّ وغيره ، عن عمران بن حصين .

(2) سورة «آل عمران» . الآية 50 .

(3) سورة «المائدة» . الآية 3 .

(4) رواه البخاريّ في الأدب الكبير وأبو داود وغيرهما ، عن أبي هريرة .

السَّمَاءَ بِسَيِّدِ الْوُجُودِ مُحَمَّدٍ بنِ عَبْدِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - قال الله تعالى ذكره: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾<sup>(1)</sup>.  
وقال رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: «أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع مشفع ولا فخر»<sup>(2)</sup>. وقال: «إنما بُعثتُ فاتحاً وخاتماً، وأُعطيتُ جوامعَ الكلام وفوائده، واختُصرتُ لي الحديث اختصاراً، فلا يهلككنكم المتهوكون»<sup>(3)</sup>. وقال: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بست: أُعطيْتُ جوامعَ الكلام، ونصرتُ بالرُّعب، وأُحلَّت لي الغنائم، وجُعِلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الأرض كافة، وخُتم بي النبيون»<sup>(4)</sup>. وقال منبهاً لكافة البشر: «مثلي ومثلُ الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً، فأحسنه وأجمله؛ إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء»<sup>(5)</sup>. ومما زاد في فضل محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام -! - أنه قد آمن به وصدق بما جاء به جميع من تقدّموه من الأنبياء والمرسلين، وأخبروا أنهم بأنهم مرسل إلى كافة الناس، وأنه رحمة للعالمين، وخاتم لجميع الأنبياء والمرسلين. وقد نصّ على هذا الخبر المشرف جميع الكتب السماوية التي أنزلت قبل القرآن العظيم. وعلى رأس هذه الكتب التوراة، والإنجيل، وقد نقل منها بعض النصوص المتعلقة بهذا الغرض أئمة من العلماء الثقات في كتبهم الموثوق بها بعد تحصيلها: كـ «دلائل النبوة» للإمام البيهقي، و«شمائل الرسول» للإمام ابن كثير، وغيرهما. ومما جاء صريحاً في محكم التنزيل - بالنسبة إلى هذا النبأ العظيم - قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾<sup>(6)</sup>.

(1) سورة «الأحزاب». الآية 40.

(2) رواه الترمذي، عن جابر بن عبد الله.

(3) رواه البيهقي، عن أبي قلابة.

(4) رواه الإمام مسلم والترمذي وغيرهما، عن أبي هريرة.

(5) رواه البخاري ومسلم، عن جابر بن عبد الله.

(6) سورة آل عمران، الآية «81».



وقوله - على لسان النبي إبراهيم ، عليه السلام !: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾<sup>(1)</sup> . وقوله - على لسان النبي عيسى ؛ عليه السلام !: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾<sup>(2)</sup> .

والله وليّ التوفيق فيما نحن - إن شاء الله - عاقدون العزم على المضى في تجسير ما بدت صورته جليّة في الأذهان ، والحكم على الشيء فرع عن تصوّره .

الدكتور

محمد بن عبد الكريم الجزائري

(1) سورة البقرة ، الآية «129» .

(2) سورة الصف ، الآية «6» .

## استجلال

هَلْ الرَّيِّعُ مُبْشَرًا بِمَحْمَدٍ  
نُورِ الْهُدَى أُنْخَرِمَ بِهِ مِنْ فَرْقَدٍ  
خَرَّتْ عُرُوشُ الرُّومِ عِنْدَ بُزْغِهِ  
نِيرَانِ قَارِسٍ أَطْفَأَتْ فِي الْمَوْقِدِ  
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ فِي تَنْزِيلِهِ  
وَسَلَامُهُ أَمْرٌ لِكُلِّ مَوْحِدٍ  
أَرْشَدَتْ خَلْقَ اللَّهِ يَا خَيْرَ الْوَرَى  
وَبِكَ اهْتَدَى فِي كُلِّ جِيلٍ مُهْتَدٍ  
ضَاءَ الْوُجُودِ بِنُورِ وَجْهِكَ وَأُنْمَحَى  
دَيُّجُورُ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ الْجَحْدِ  
لَوْلَاكَ مَا عَرَفْتُ قُرَيْشَ رَبِّهَا  
وَاللَّهِ بِهِدْيِ مَنْ أَحَبَّ بِأَحْمَدٍ  
قَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْوَحْيِ مَأْمُونًا لَهَا  
فِي كُلِّ شَيْءٍ رَغَمَ أَنْفِ الرُّصْدِ  
حَتَّى غَدَا اسْمُكَ بِالْأَمِينِ مُرَدَّدًا  
فِي كُلِّ نَفَرٍ بِاعْتِرَافِ الْحُسَدِ  
أَصْبَحْتَ بَعْدَ الْوَحْيِ مَظْهَرُ قُوَّةٍ  
أَضْحَيْتَ بِالْإِيَّانِ خَيْرَ مُؤَيَّدِ  
أَمْسَيْتَ فِي التَّارِيخِ أَسْوَدَ أُمَّةٍ  
قَوْلًا وَفِعْلًا قَاخِرًا بِالْهُجْدِ  
كَأَنْتَ حَيَاتُكَ فِي الْكَمَالِ نُمُودَجَا  
لِمَنْ ابْتَغَاهَا مِنْ مَسُودِ سَيِّدِ

كَانَتْ حَيَاتُكَ رَحْمَةً بِشَرِيَّةٍ  
عَمَّتْ جَمِيعَ الْخَلْقِ دُونَ تَقَرُّدٍ  
قَدْ جِئْتَ فِي عَصْرِ الظَّلَامِ مُبَدِّدًا  
جَيْشَ الضَّلَالِ وَمُرْشِدًا لِلشَّرِّ  
قَدْ جِئْتَ بِالْفُرْقَانِ تِبْيَانًا لِمَنْ  
أَصْغَى لآيَاتِ بَعْقِلٍ مُجْهَدٍ  
قَوِّمْتَ صَفْوَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ الدُّنْيَا  
جَنَّبْتَهُمْ شَرَّ اللَّعِينِ الْمَارِدِ  
عَرَفْتَهُمْ بِإِلَهِهِمْ وَنَفْسِهِمْ  
بَيَّضْتَ طِرْسًا فِي سِجْلِ أَسْوَدٍ  
بَشَّرْتَهُمْ بِالْفَوْزِ إِنْ هُمْ حَكَمُوا  
أَحْكَمَ شَرْعِ اللَّهِ دُونَ تَرَدُّدٍ  
زَوَّدْتَهُمْ حُبَّ الْإِلَهِ أَمَانَةً  
وَالْحُبُّ زَادُ الْمُؤْمِنِينَ السُّجْدَ  
وَرَبَّاهُمْ عِزًّا مَنِعًا خَالِدًا  
وَالْعِزُّ رَمَزُ الْمُسْلِمِينَ الدُّوْدَ  
زَهَّدْتَهُمْ فِي كُلِّ قَانٍ زَائِلٍ  
رَغَبْتَهُمْ فِي كُلِّ بَاقٍ أَخْلَدٍ  
شَوَّقْتَهُمْ لِلْخُلْدِ فِي فِرْدَوْسِهِ  
حَيْثُ التَّعْنَمُ بِالْجَوَارِي الْخُرْدِ  
عَلَّمْتَهُمْ صَبْرًا جَمِيلًا حَسْبَةً  
وَالصَّبْرُ مِنْ أَقْوَى سِلَاحِ الزُّهْدِ  
أَصْلَحْتَ دِينًا قَدْ بَدَأَ تَخْرِيفُهُ  
أَكْمَلْتَ شَرْعًا عَابِرًا بِمُؤَبَّدِ

آمَنْتَ بِالرُّسُلِ الْكَرَامِ وَمَا لَهُمْ  
 مِنْ مُعْجَزَاتٍ فِي زَمَانٍ أَبَعَدِ  
 قَدْ جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ نَصًّا وَاضِحًا  
 أَنَّ إِلَـهَ حَبَاكَ حَوْضَ الْوُرْدِ  
 قَدْ جِئْتَ حَقًّا خَاتِمًا وَمُقَضَّلًا  
 أَنْتَ الشَّافِعُ الْمُتَجَعِّلُ لِلْقَصْدِ  
 لِلْعَالَمِينَ غَدَوْتَ رَحْمَةً رَبَّنَا  
 مِنْ بَعْدِ ظُلْمٍ جَارِفٍ مُتَعَدِّ  
 قَدْ فُزْتَ بِالْمِعْرَاجِ وَالْإِسْرَاءِ فِي  
 وَقْتُ قَصْرِ يَالَهُ مِنْ مَشْهَدِ  
 هَاجَرْتَ مِنْ أَرْضٍ يَعْزُفُ أَقْهَا  
 مُسْتَصْحِبًا خَيْرَ الرَّفِيقِ الْأَمْجَدِ  
 وَنَزَلْتَ غَارًا قَدْ حَمَاكَ مِنَ الْعِدَى  
 وَاللَّهُ يُخِمِّي عَبْدَهُ مِنْ مُعْتَدِ  
 وَسَكَنْتَ أَرْضًا حِينَ طَابَ مَقَامُهَا  
 وَبَنَيْتَ فِيهَا مَسْجِدًا بِالْمَرْبَدِ  
 أَخِيَّتَ بَيْنَ مُهَاجِرٍ وَمُنَاصِرِ  
 فَتَوَحَّدَا بَعْدَ الْفِرَاقِ الْأَبَعَدِ  
 ثُمَّ انْطَلَقْتَ بِجَيْشِ كُلِّ مِنْهُمَا  
 تَغْزُو بِلَادَ الْمُشْرِكِينَ الْعُنَّادِ  
 حَتَّى انْتَصَرْتَ وَدَلَّ كُلُّ مُعَانِدِ  
 وَالْحَقُّ بَاقٍ تَحْتَ ظِلِّ مُهَنْدِ  
 وَفَتَحْتَ مَكَّةَ وَالْفَتْوحُ كَثِيرَةٌ  
 لَكِنَّ هَذَا الْفَتْحَ وَعَدُّ الْأَوْحَادِ

فِيهِ ارْتَدَى الْإِسْلَامُ قُوَّةً قَادِرٍ  
 فِيهَا غَدَا الْعُرَبُ أَنْ مَظْهَرَ سَوْدَدٍ  
 وَبِهَا طُغَاةُ الْعُرَبِ تَابُوا تَوْبَةً  
 نَالُوا بِهَا عَفْوَاً وَذُخْرًا فِي الْغَدِ  
 وَبِهَا أَتَمَّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَى  
 مَنْ دَانَ دِينَ الْحَقِّ قَبْلَ الْمَلْحَدِ  
 مَا السَّرُّ فِي يُتَمِّ النَّبِيِّ وَفَقْرِهِ  
 إِلَّا لِيُثَبِّتَ مَنْ بِأَحْمَدَ مُقْتَدِ  
 إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ غَدَا فِي رِيَّةِ  
 أَنَّ النَّبِيَّ رَعَاهُ حَامِي الْمَعْبَدِ  
 مَا خَابَ أَبْرَهَةَ بِسَاحِقِ جِيوشِهِ  
 إِلَّا لِإِرْهَاصِ بَدَا فِي الْمَوْعِدِ  
 فَلِحِكْمَةٍ وَضِعَتْ رِسَالَةُ رَبِّنَا  
 فِي طِينَةِ عَرِيَّةٍ بِالْمَحْتَدِ  
 يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ عُدَّ مَاذَا تَرَى  
 فَالَّذِينَ بُعْدَكَ كَالْعَرِيبِ الْمَطْرَدِ  
 فَالَّذِينَ بُعْدَكَ صَارَ مِصْعَدَ سَافِلِ  
 بَاعَ الضَّمِيرَ بِمَا بِهِ لَمْ يَصْعَدِ  
 فَالَّذِينَ بُعْدَكَ ظَلَّ مَصِيدَ عَابَثِ  
 بِئْسَ الْمَصِيدُ وَزُجَّ بِالْمُتَصِيدِ  
 قَالَلَّهِ يُشْهَدُ أَنَّ وَعَظَ دُعَاتِنَا  
 قَدْ ضَاعَ فِي شَيْئَيْنِ دُونَ تَقْيِيدِ  
 سُخْتُ الْمَكَاسِبِ رَغْبَةً فِي كُسْبِهِ  
 أَوْ كُرَهُ مَوْتِ رَهْبَةٍ مِنْ مِعْضَدِ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُقَاسِي دِينُنَا  
مِنْ ارْتِدَادِ الْمُسْلِمِينَ وَمُلْحِدِ  
قَالِمُسْلِمُونَ عَصَوْا أَوْامِرَ رَبِّهِمْ  
وَالْمُلْحِدُونَ غَزَوْا بِفِكْرِ مُفْسِدِ  
كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى النَّجَاةِ بِأَمَّةٍ  
ضَلَّكَ طَرِيقَ الْحَقِّ إِذْ لَمْ تَهْتَدِ  
إِنَّ النَّجَاةَ جَزَاءُ كُلِّ مَنْ اقْتَدَى  
بِرَسُولِنَا خَيْرِ الْأَنَامِ مُحَمَّدِ  
أَقْوَالُهُ أَفْعَالُهُ مَعْصُومَةٌ  
مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ شَرِيفِ الْمُقْصِدِ  
أَكْرَمَ بِهَا مِنْ عِصْمَةِ سَمَوِيَّةٍ  
مِنْ مَهْدِهِ حَتَّى تَوَى بِالْمُلْحِدِ  
قِفْ وَاعْتَبِرْهَا سِيرَةَ نَبَوِيَّةٍ  
حَقَّتْ بِيَمْنٍ ثُمَّ عِزٌّ سَرْمَدِ  
طُوبَى لِمَنْ قَدْ سَارَ فِي مَنَاجِلِهَا  
سَيْرًا حَثِيثًا صَادِقًا فِي الْمُقْصِدِ  
فِيهَا هَنَاءُ الْعَالَمِينَ وَفَوْزُهُمْ  
دُنْيَا وَآخِرَى يَالَهَا مِنْ سُودَدِ  
فِيهَا رَجَاءُ الْمُتَرَجِّينَ شَفَاعَةٌ  
يَوْمَ الْحِسَابِ قِيَالُهُ مِنْ مَشْهَدِ  
لَوْ عُذْتُ يَا خَيْرَ الْوَرَى لَوَجَدْتُنَا  
فِي حَيْرَةٍ وَمَهَانَةٍ وَتَهْدُدُ  
يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ عُدْمًا تَرَى  
قَالِمُسْلِمُونَ عَلَى لَهَيْبِ الْمَوْقِدِ

إِنَّ الْيَهُودَ مَعَ النَّصَارَى أَلْحَدُوا  
 فِي دِينِهِمْ كَيْدًا لَأُمَّةٍ أَحْمَدِ  
 إِنَّ الْقُنُوطَ أَمَاتَ فِينَا فَأَلَنَّا  
 وَالْيَاسُ حَلَّ بِنَا وَلَكَمْ نَسْتَرِشِدِ  
 الْحَقُّ غَابَ وَأَهْلُهُ فِي مَحْنَةٍ  
 وَالْجَوْرُ صَالَ وَأَهْلُهُ فِي أَرْغَدِ  
 يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ عُدْمًاذَا تَرَى  
 فَتَرَى الْيَهُودَ طَغَوْا وَلَكَمْ تَتَوَحَّدِ  
 قَدْ دَنَسُوا أَرْضَ الْفُتُوحِ بِرِجْسِهِمْ  
 وَاسْتَبَدَّلُوا أَرْجَاسَهُمْ بِالْأَثَلِدِ  
 إِنَّ الْخِيَانَةَ أَحْكَمَتِ أَطْنَابُهَا  
 فِي قَلْبِ كُلِّ مُنَافِقٍ مُتَوَدِّدِ  
 مَاذَا أَقُولُ أَيَا عِرَاقٍ رَشِيدِنَا  
 وَالْقَوْلُ لَا يُنْجِيكَ رَدْعَ الْمُعْتَدِي  
 قَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ لِلْعَيْنِ بَهْجَةً  
 هَا أَنْتَ فِي ذَا الْيَوْمِ أَخْزَى مَشْهَدِ  
 الْقُدْسُ ضَاعَ تَهَوَّدَتْ أَعْلَامُهُ  
 سُكَّانُهُ فِي ذِلَّةٍ وَتَشَرُّدِ  
 الْأَسْرُ وَالْتَفَتِيلُ فِيهِمْ سَلْوَةٌ  
 لِعَدُوِّهِمْ عَنِ الدِّينِ وَمَوْلِدِ  
 يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ عُدْمًاذَا تَرَى  
 فَالْمُسْلِمُونَ فِي بَعْضِهِمْ كَالْمِبرِدِ  
 فَتَّاحَرُوا وَتَحَاسَدُوا وَتَبَاغَضُوا  
 وَتَخَادَلُوا عِنْدَ الْعَدُوِّ الْأَنْكَدِ

وَتَدَابَرُوا وَتَقَاطَعُوا وَتَشَاتَتُوا  
فِي كُلِّ قُطْرٍ أَمْرُهُمْ لَمْ يَسُدَّ  
أَعْمَالُهُمْ قَوْضَى وَحَرْبٌ بَيْنَهُمْ  
أَفْوَالُهُمْ تُوجِي بِسُوءِ الْمَقْصِدِ  
تَقْلِيدُهُمْ أَعْمَى لِكُلِّ تَقَرُّجٍ  
قَوْلًا وَفِعْلًا كَالْقُرُودِ فِي الْيَدِ  
أَبَاؤُهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا طُعْمَةٌ  
لِلْكَفْرِ وَالْإِلْحَادِ مِنْذُ الْمَوْلِدِ  
حُكَّامُنَا قَدْ أَلْحَدُوا فِي دِينِهِمْ  
وَاسْتَأْسَدُوا وَتَنَمَّرَدُوا لِلْمُرْشِدِ  
وَتَفَرَّغُوا وَتَجَبَّرُوا وَتَحَجَّبُوا  
وَتَمَرَّكَزُوا وَتَسَمَّرُوا فِي الْمَقْعَدِ  
وَتَوَهَّمُوا أَنَّ الشُّعُوبَ مَسْوَوقَةٌ  
مِثْلَ الْقَطِيعِ وَهُمْ لَهُمْ بِالْمِرْصَدِ  
لَكِنَّ هَذَا الْوَهْمَ قَدْ أَفْضَى بِهِمْ  
حَتْمًا إِلَى خَسْرَانِهِمْ مَا فِي الْيَدِ  
رُحْمَاكَ يَا رَبِّي فَأَنْتَ مُجِيرُنَا  
مِنْ حَاكِمٍ مُتَجَبِّرٍ مُتَهَدِّدِ  
رُحْمَاكَ يَا رَبِّي فَأَنْتَ وَقَاؤُنَا  
مِنْ شَرِّ كُلِّ مُنَافِقٍ مُتَوَدِّدِ  
اللَّهُ أَكْبَرُ وَالصَّلَاةُ يَسْوَقُهَا  
حَادِي السَّلَامِ إِلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدِ  
المؤلف





## الفصل الأول

حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم!  
من ولادته إلى بدء نبوته



## شخصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

إنّ البحث في هذا الموضوع المبارك فيه ، وإنّ الدِّفاع عن بطله المؤرِّخ له ، كل منهما يستوجب منّا أن نسلِّط الضوء المنير على صاحب هذه الشخصية المعصومة بعصمة الله ، المصونة بصيانتها من المهد إلى اللّحد . ولعلّ بهذا الضوء المنير لها ، سيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه ، ويرتدع الكافر الملحد عمّا هو عليه ؛ من عناد مستمرّ ونكران مستبدّ ، فينكشف له أنّه قد زلّ به عناده ونكرانه ، وسُقِطَ في يده ، وباء بسخط الله وغضبه .

### نسبه الطاهر من جهة أبيه

جاء في كتاب «دلائل النبوّة» للحافظ أبي بكر ، أحمد بن الحسين البيهقي الشافعيّ مذهباً : أن الرّسول - عليه الصلاة والسلام !- خطب النّاس فقال : «أنا محمّد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قُصيٍّ ، بن كلاب ، بن مُرّة ، بن كعب ، بن لؤيٍّ ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النّضر ، بن كنانة ، بن خُزَيْمة ، بن مُدْرِكَة بن إلياس ، بن مُضَرّ ، ابن نزار ، بن مَعَدّ ، بن عدنان . وما افترق النّاس فرقتين إلّا جعلني الله في خيرهما ؛ فأخرجتُ من بين أبويّ فلم يُصنبي شيء من عهد الجاهليّة ؛ فخرجتُ من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ؛ من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمّي ، فأنا خيركم نسباً وخيركم أباً» .

هذا هو النسب المتفق عليه بين جمهور العلماء ، وما زاد على ذلك فهو محل خلاف

بينهم .

### من هو أبوه؟

هو : عبد الله بن عبد المطلب ، واسم أمّه : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

وكان عبد الله أصغر إخوته ، وكان أحبّهم إلى أبيهم عبد المطلب ، الذي سهر عليه رعاية وحناناً . وقد عُرف بين أترابه وأقرانه بعفته ونبله ، وحيائه وطهره ووفائه ، وبرّه بالديّة . وهو المفدى بين إخوته بمائة من الإبل ؛ قد شاء الله أن يكفّر أبوه بنحرها عن نذره إرضاءً لرّبّه وإنجاءً لولده وفلذة كبده عبد الله .

## قصة نذر عبد المطلب ونجاة ابنه:

قال محمد بن إسحاق بن يسار: «وكان عبد المطلب بن هاشم - فيما يذكرون - قد نذر حين لقي من قريش عند حفر «زَمْزَمَ»، ما لقي: لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعه، لينحرنَّ أحدهم لله عزَّ وجلَّ عند الكعبة. فلما توافوا - بنوه - عشرة: الحارث، والزبير، وحَجَل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعبَّاس، وحمزة، وأبو طالب، وعبدالله؛ وعرف أنَّهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره الذي نذر ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا له: كيف نصنع؟ فقال: يأخذ كل رجل منكم قدحاً<sup>(1)</sup> فيكتب فيه اسمه، ثم تأتوني، ففعلوا ثم أتوه، فدخل بهم على «هبل» في جوف الكعبة - وكان «هبل» عظيم أصنام قريش بمكة، وكان على بئر في جوف الكعبة، وكانت تلك البئر (هي) التي يُجمع فيها ما يُهدى للكعبة، وكان عند «هبل» سبعة أقداح - فَضُرِبَتِ الأقداح، فخرج القدح على عبدالله، فأخذ عبد المطلب بيده (أي: بيد ابنه عبد الله) وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى «إساف» و«نائلة»: - الوثنيين اللذين تَنَحَّرُ عندهما قريش ذبائحهم - ليذبحه، فقامت إليه قريش . . . وذكروا أن العبَّاس بن عبد المطلب اجتَرَّه من تحت رجل أبيه حتى خدش وجه عبدالله خدشاً، لم يزل في وجهه حتى مات. فقالت قريش وبنوه (أبناء عبد المطلب): والله لا تذبحه أبداً ونحن أحياء حتى نَعذر فيه؛ لئن فعلت هذا لا يزال رجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء النَّاس على ذلك. وقال المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم - وكان عبدالله بن عبد المطلب ابن أخت القوم: - والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه؛ فإن كان فداء فديناه بأموالنا . . . فقالت قريش وبنوه (أبناء عبد المطلب): لا تفعل، وانطلق إلى الحجاز<sup>(2)</sup>، فإن فيه عرَّافة يقال لها: «سُجَّاح» لها تابع، فسألها، ثمَّ أنت على رأس أمرك؛ فإنَّ أمرتك بذبحه ذبحته، وإنَّ أمرتك بغير ذاك ممَّا لك وله فيه فرج قبلت، فقال: نعم، فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها - فيما يزعمون - بخير، فركبوا حتى جاؤوها فسألوها وقصَّ عليها عبد المطلب شأنه وشأن ابنه وما كان نذر فيه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله، فخرجوا من عندها، ثمَّ عادوا إليها، فقالت: نعم، قد جاءني الخبر فكم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرة من الإبل - وكانت كذلك - فقالت: ارجعوا إلى بلادكم فقدّموا صاحبكم وقدّموا

(1) «قدحاً»: بكسر أوله وسكون ثانيه: - السَّهْم قبل أن يراش ويُصَلَّ؛ جمع قداح وأقداح.

(2) «الحجاز»: يراد به - هنا - المدينة المنورة، وضواحيها، لأن مقرَّ العرَّافة «سجَّاح» هناك.

عشرًا من الإبل، ثم اضربوا عليها القداح، فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم. فإذا خرجت القداح على الإبل فقد رضي ربكم، فأنحروها عنه، ونجا صاحبكم، فخرجوا حتى قدموا مكة. فلما أجمعوا<sup>(1)</sup> لذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله عزّ وجلّ... فلما قربوا عبد الله وعشرًا من الإبل... ثم ضربوا القداح فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا، فبلغت الإبل عشرين... ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا، فبلغت الإبل أربعين... ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا، فبلغت الإبل خمسين... ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا، فبلغت الإبل ستين... ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا، فبلغت الإبل سبعين... ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا، فبلغت الإبل ثمانين... ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا، فبلغت الإبل تسعين... ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرًا فبلغت الإبل مائة... ثم ضربوا فخرج السهم على الإبل، فقالت قريش ومن حضره: قد رضي ربك وخلص لك ابنك»<sup>(2)</sup>.

### زواج عبد الله من آمنة

بعد ما تمّ فداء عبد الله بنحر مائة من الإبل ونجا من الذبح، أخذَه أبوه عبد المطلب وتوجّه به إلى وهب بن عبد مناف، بن زهرة سيّد بني زهرة نسباً وحسباً يريد بذلك خطبة ابنته آمنة بنت وهب لتكون زوجة لعبد الله المفدى. وكانت آمنة أفضل بنات قريش نسباً ومحتداً، وعقّة وحصانة. وكان عبد الله مثلها فيما هي متّصّفة به. ولما وصل عبد الله مصحوباً بأبيه إلى الكعبة المشرفة، مرّ بامرأة تُدعى رُقيّة بنت نوفل، وتكنى بأمّ قتال؛ وهي أخت ورقة بن نوفل، فنظرت في وجه عبد الله وحدّقت فيه، لنور يشعّ في مُحيّاه، فسألته عمّا هو ذاهب إليه؟ فأجابها بأنّه في صحبة أبيه عبد المطلب، وهو معه حيثما حلّ، فقالت له: لك مثل الإبل التي نُحرت عليك؛ إن أنت وقعت عليّ حالاً، فقال لها: أنا تحت جناح أبي، وليس في استطاعتي أن أفارقه. وتابع الأب والابن سيرهما حتى أتيا منزل وهب بن عبد مناف، فدخلا عليه هناك، وخطب عبد المطلب لابنه عبد الله آمنة من أبيها وهب بن عبد مناف، فقبل أبوها، وتمّ الزواج برضى الطرفين. وكان

(1) «أجمعوا»: عزموا.

(2) كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي. تحقيق وتعليق محمد حميد الله. تركيا 1981م. ص 10 - 17.

عبدالله في سنّ الخامسة والعشرين آنذاك . وقام الزوج مع الزوجة في بيت أهلها ثلاثة أيام ؛  
حسبما جرت بذلك عادة العرب ؛ عندما يتمّ الزواج في بيت العروس ، ثم انتقل الزوجان إلى  
منزل عبد المطلب حيث استقرا آملين ؛ بيد أنّ استقرارهما لم يدم طويلاً ؛ بل سرعان ما انقطع بما  
قدّر الله أن يكون ما ليس لهما في الحسبان :

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ

تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

### وفاة عبدالله

قال الزُّهري : « أرسل عبد المطلب ابنه عبدالله إلى المدينة يمتارُ لهم تمرّاً فمات بالمدينة »<sup>(1)</sup> .  
ودُفن في دار رجل من بني عديّ بن النّجّار ، يُدعى النّابغة الجُعديّ . وكانت وفاته في السنّة التي  
فيها زواجه بأمنة بنت وَهَب ، وكان عمره إذ ذاك خمساً وعشرين سنة ؛ كما تقدم أعلاه . وكانت  
وفاته قبل ولادة ابنه وفلذة كبده محمّد - عليه الصلاة والسّلام - وترك بعد وفاته خمسة من الإبل ،  
وقطيعاً صغيراً من الغنم ، وجارية تُدعى أمّ أَيْمَن ، واسمها بركة ؛ وهي التي أضحت حاضنة  
رسول الله - عليه الصلاة والسلام !- بعد وفاة أمّه .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أنّ أحوال عبدالله بن عبد المطلب أحوال ابنه محمّد رسول الله - صلى  
الله عليه وسلّم !- نسباً وحسباً ، وهذا من حُسْن المصادفة التي جاءت بها مشيئة الله ، ليلتحم  
نسب الأب بنسب الأمّ ، وتتوثق عروة الارتباط بين النّسبين خلفاً عن سلف .

**العبرة الثانية :** أنّ مدفن أبي الرسول وأمّه في أرض أحواله وبين أجدادِ أمواتهم ، هو  
مدعاة لزيارته لهما هناك .

**والعبرة الثالثة :** أنّ صلة النّسب إلى الأحوال هي السّبب الأساسي في هجرة الرسول -  
عليه الصلاة والسّلام !- إلى مستقرّ أحواله الذين قد بذلوا النّفس والنّفيس من أجل حمايته  
ونصرته ونشر دعوته . ولعلّ ذلك كان السبب في تقديم الخالة على العمّة في استحقاق الحضانة ؛  
لأنّ الخالة أشدّ شفقةً وحناناً على أبناء أخواتها من عمّتهم . وهذا واضح عادة ومؤكّد بقول

(1) ابن الأثير ، عليّ . الكامل في التاريخ . بيروت 1965م . دار صادر للطباعة . ج 2 ص 10 .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «الخالة بمنزلة الأم»<sup>(1)</sup>. ومن هذا الحديث الشريف اعتبر الذهبيّ عقوق الخال كبيرة من الكبائر.

### من هو عبد المطلب؟

هو: أبو الحارث، شَيْبَة؛ سَمِيَ بذلك لِأَنَّهُ وُلِدَ وفي رأسه شَيْبَة، ويقال له: شَيْبَة الحمد لجوده، وأمه سلمى بنت عمرو بن زيد الخزرجية النجارية. كان يرفع من قوته للطير والوحوش ويطعمها في قمم الجبال، فمن ثم أصبح يُلقَّب بمطعم طير السماء، وبالشيخ الجليل، صاحب الطير الأبايل. وهو أول من تحت بـ «حراء»؛ فكان إذا دخل شهر رمضان صعد «حراء» وأطعم المساكين أيام الشهر كله، وهو الذي حفر بئر زمزم بعد ما كانت مطمورة من عهد جرهم. وكان مَفْزَع قريش وملجأهم وموئلهم في النواصب، وكانت السَّقاية والزبارة والسدانة والحجابه والرَّفادة والإفاضة والندوة كلها لها وتحت أمره. وهو الذي جعل باب الكعبة من ذهب. وقد حرَّم الخمر على نفسه في الجاهلية. وهو أول من خضب شعره بالسَّواد؛ فشاء الله أن تبقى سنة متبعة من تقريرات رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وقصة انتصاره لليهودي المظلوم تنبئنا عن نزاهته وشهامته، وأخذه بزماء الحق حيثما كان وبان، ووقوفه إلى جانب صاحبه كيفما كان جنسه ودينه<sup>(2)</sup>. وكانت وفاته بالعراق وعمره مائة وعشرون سنة.

### من هو هاشم؟

هو: عمرو، لُقِّبَ بهاشم، لِأَنَّهُ كان أول من هشَّم الشريد لقومه في أيام الجذب. وكنيته: أبو نضلة. وأمه عاتكة بنت مرة السُّلَمِيَّة. كان النور على وجهه كالهِلال؛ بل كان يقال له وللمطلب: البدران، لجمالهما. وكان لا يراه أحد إلا أقبل نحوه. وقد سأله قيصر الروم أن يتزوج ابنته، لما رأى في الإنجيل من صفة محمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام -. وكانت وفاته بغزة.

### من هو عبد مناف؟

هو: أبو عبد شمس، المغيرة. والسبب في تسميته بعبد مناف أن أمه دفعت به إلى صنم يدعى «مناف» بمكة، كانت أمه تدين به. واسم أمه حَبَى بنت حُكَيْل الخزاعية. وعبد مناف هو

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود، عن البراء، عن عديّ.

(2) انظر القصة بتمامها في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ج 2 ص 15.



الذي عقد الحلف بين قريش والأحابيش . وكان يقال له : قمر البطحاء ، لجماله وحُسن طلعتة . وكان له الكلمة العليا والأمر المطاع في قريش . وكان أبوه قُصي يقول : وكَدَ لي أربعة بنين ؛ فسميتُ اثنين بإلهي ؛ وهما : عبد مناف ، وعبد العُزَّى ، وواحدًا بداري ؛ وهو عبد الدَّار ، وواحدًا بي ؛ وهو عبد قُصي .

### مَنْ هُوَ قُصَيٌّ؟

هو : أبو المغيرة ، زيد ، وقُصي تصغير قُصي ؛ أي : بعيد ، لأنه بُعد عن قومه مع أمّه بأرض الشام . واسم أمّه فاطمة بنت سعد بن سَيْل . وكان قُصي في قومه محترماً مَجَلَّلاً ، ذا رأي نافذ ، مسموع الكلمة . وكانت قريش مُتِيمةً بأمره ؛ فما تنكح امرأة ولا رجل إلّا في داره وتحت سقفه ، ولا يتشاور قومه في أمر ينزل بهم إلّا في داره وبعمل إشارته ، ولا يعقدون لواءً للحرب إلّا في داره ويعقده على يد بعض أولاده ، وما تدرّعت جارية - إذا بلغت التدرّع - إلّا في داره . وكان أمره في قومه كالدين ؛ من حيث اتّباعهم له في شؤون حياتهم ومصيرهم بعد موتهم . وكانت إليه الحجابة والسّقاية والرّفاة والندوة واللّواء . فحاز شرف قريش بأكمله . وكان يسقي الحاجّ . والرّفاة هي : خرج تخرجه قريش في كلّ موسم حجّ من أموالها إلى قُصي ، فيصنع منه طعاماً للحاجّ يأكله الفقراء . وكان يقول لقومه : إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنّ الحاجّ ضيف الله وزوّار بيته ، وهم أحقّ الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحجّ ، ففعلوا فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام منى ، وبقي هذا الأمر جارياً على ذلك في الجاهليّة والإسلام . وأوّل بئر حُفرت بمكّة هي البئر التي حفرها قُصي هناك ، وسمّاها «العجول» . ومات بمكّة ، ودُفن بـ «الحجون» وبقيت قريش تزور قبره وتعظّمه .

### مَنْ هُوَ كِلَابٌ؟

هو : أبو زرعة ، حكيم ؛ لقّب بـ «كلاب» من المكابّة . يقال : كالت العدو ومكالبة وكلاباً ؛ إذا جاهرته بالعداوة . قال عبد الرحمن السُّقَيْلِيّ : «وقيل لأبي الرُّقَيْش الكلابيّ الأعرابيّ : لم تسمّون أبناءكم بشرّ الأسماء نحو كَلْبٍ وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنّما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا ؛ يريد أنّ الأبناء عدّة الأعداء

وسهام في نحورهم ، فاختاروا لهم هذه الأسماء»<sup>(1)</sup> . واسم أمّه هُند بنت سُريّر بن ثعلبة .  
وكلاب أول من حلّى السيوف بالنقد<sup>(2)</sup> .

### مَنْ هُو مُرَّةٌ؟

هو : أَبُو يَقْظَةَ ؛ مُرَّةٌ بن كَعْب ، واسم أمّه : محشية . واسم مُرَّة منقول من المرارة . قال عبد الرحمن السُّهَيْلِيُّ : «مُرَّةٌ منقول من وصف الخنظلة والعلقمة ، وكثيراً ما يسمّون بـ«حنظلة» و«علقمة» . ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة ، فيكون منقولاً من وصف الرجل بالمرارة ، ويقوِّي هذا قولهم : تميم بن مُرَّة . وأحسبه من المسمّين بالنّبات ، لأنّ أبا حنيفة ذكر أنّ «المُرَّة» بقلّة تقلع ، فتؤكل بالخلّ والزّيت ، ورقها يشبه ورق الهندباء» .

### مَنْ هُو كَعْبٌ؟

هو : أَهْصِيص ، كَعْب بن لُؤَيٍّ ، واسم أمّه ماوية القضاعية . وكان قدر كعب عند العرب عظيماً ، فلهذا أرخوا بموته إلى عام الفيل ، ثمّ أرخوا بالفيل . وكان يخطب النّاس أيام الحجّ ، وخطبته مشهورة ، يُخبر فيها النّاس ، ويذكرهم بمبعث النّبي - صلى الله عليه وسلم !- وأنّه من ولده ، ويأمرهم باتباعه والإيمان به . وهو أول من قال : «أمّا بعد» . وهو أول من جمع النّاس يوم العروبة<sup>(3)</sup> . وفي معنى اسمه يقول عبد الرحمن السُّهَيْلِيُّ : «وأمّا كعب فمنقول إمّا من الكعب الذي قَطَعَهُ من السّمن ، أو من كعب القدم ؛ وهو عندي أشبه ، لقولهم : ثبت ثبوت القدم . وجاء في خبر ابن الزّبير : أنّه كان يصلّي عند الكعبة - يوم قُتِل - وحجارة المنجنيق تمرّ بأذنيه ، وهو لا يلتفت كأنّه كعب راتب»<sup>(4)</sup> .

### مَنْ هُو لُؤَيٌّ؟

هو : أَبُو كَعْب ، لُؤَيٌّ بن غالب ، واسم أمّه عاتكة بنت يخلد بن النّضر بن كنانة ، وهي أولى العواتك اللواتي هن أمّهات رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من قريش . ولؤيّ تصغير لأيّ ؛ وهو البُطء ، والأناة ، وترك العَجَلَة . قال أبو أمامة :

(1) الرّوض الأثف . ج 1 ص 49 ، 50 .

(2) «النقد» : بالذهب والفضة .

(3) «العروبة» - بفتح العين المهملة - : الجمعة منذ جاء الإسلام .

(4) الرّوض الأثف . ج 1 ص 51 .

فَدُونَكُمْ بَنِي لَأَيِّ أَخَاكُمْ وَدُونَكُمْ مَالِكَايَا أُمَّ عَمْرُو  
والشاهد في قوله: «بَنِي لَأَيِّ»؛ يريد بذلك بني لُؤَيٍّ.

**مَنْ هُوَ غَالِبٌ؟**

هو: أَبُو تَيْمٍ، غَالِبٌ، واسم أمّه ليلَى بنت الحارث الهذليّ.

**مَنْ هُوَ فَهْرٌ؟**

هو: أَبُو غَالِبٍ، قُرَيْشٌ بن مالك. و«فَهْرٌ» لقب له، ومعناه: الحجر الطويل الصّلب  
النّاعم. واسم أمّه جندلة بنت عامر بن الحارث الجَرْهُمِيّ، وإليه تنسب قريش، وما كان فوقه  
فكنانيّ. وكان رئيس النّاس بمكّة وسيّدهم.

**مَنْ هُوَ مَالِكٌ؟**

هو: أَبُو الحارث، مالك بن النّضر، واسم أمّه عاتكة بنت عدّوان ومالك اسم فاعل؛ من  
ملك يملك.

**مَنْ هُوَ النَّضْرُ؟**

هو: أَبُو يَخْلُدٍ، قَيْسٌ، كُنِّيَ باسم ابنه «يَخْلُدٌ»؛ وإنما قيل له: النّضر لجماله ونضارة  
وجهه. وحُسْنُ طلّعه. واسم أمّه: بَرّة بنت مُرّ بن أدّ بن طابخة أخت تميم بن مُرّ. وقد رأى  
النّضر في منامه شجرة خضراء خرجت من ظهره، ولها أغصان من نور، فَجَذِبَتْ إلى السماء،  
فأولّت بالعزّ والسّودد.

**مَنْ هُوَ كِنَانَةٌ؟**

هو: أَبُو النّضر، كِنَانَةٌ بن خُزَيْمَةٍ، لُقِّبَ بـ«كِنَانَةٌ» لأنّه كان سترّاً على قومه كالكنانة أو  
الجعبة السّاترة للسّهام؛ بل هو كَنّ تَكُنّ قومه في ظلّه. واسم أمّه: عَوَانَةُ بنت سَعْدِ بن عِيلَانَ.  
وكان كِنَانَةٌ عظيم القدر، وحسن السمعة، يحجّ إليه العرب لعلمه وفضله.

**مَنْ هُوَ خُزَيْمَةٌ؟**

هو: أَبُو أَسَدٍ، خُزَيْمَةٌ بن مدركة، وأمّه سَلْمَى بنت أسلم بن الحاف بن قضاة. وخُزَيْمَةٌ  
تصغير خَزَمَةٍ؛ وهي واحدة الخزم؛ وهو شجر تتخذ من لحائه الحبال، ويصنع من أسافله خلايا  
النّحل، وله ثمر لا يأكله النّاس؛ ولكن تألفه الغربان وتستطيعه. وكان لخُزَيْمَةٍ مكارم وأفضال

بعدد الرّمال ، وهو الذي نصب «هبل» على الكعبة ؛ حتى كان هذا التّصّب يُدعى : «هبل خزيمة» .

### مَنْ هو مدرّكة؟

هو : أبو هُذَيْل ، عَمْرُو بن إِيَّاس ، واسم أمّه : خُنْدَف ؛ وهي ليلى بنت حُلْوَان بن عمران . والسَّبَب في لقبه بـ «مُدْرَكَة» أنّ أباه إِيَّاس خرج في نَجعة له فنُفرت إبله من أرنب ، فخرج إليه ابنه عَمْرُو فأدركها ، فسَمي مدرّكة وأخذها أخوه عامر فطبخها فسَمي طابخة ، وانقمع أخوه عُمَيْر في الخباء فسَمي قَمعة ، وخرجت أمهم ليلى تمشي ، فقال لها زوجها إِيَّاس : أين تُخْنَدِفِينَ؟ فسُميت خُنْدَف . والخُنْدَف ضرب من المشي .

### مَنْ هو إِيَّاس؟

هو : أبو عَمْرُو ، إِيَّاس بن مُضَر ؛ واسم أمّه رِيَّاب بنت جندة بن مَعَدّ . قال عبد الرحمن السهيلي : «ويُذَكَّر عن النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- أنّه قال : «لا تُسَبِّوا إِيَّاس ، فإنّه كان مؤمناً» . يُنظر في كتاب «المولد للواقدي»<sup>(1)</sup> . وإِيَّاس هو أوّل من أهدى البُدنَ للبيت . وقال عليّ ابن الأثير : «ولما توفي (إِيَّاس) حزنّت عليه خُنْدَف حزناً شديداً ، فلم تقم حيث مات ، ولم تظّلها سقف حتى هلكت ، فَضُرِب بها المثل . وتوفي يوم الخميس ، وكانت تبكي كلّ خميس من غدوة إلى الليل»<sup>(2)</sup> . وحرّمت الرّجال والطيب على نفسها ما دامت حيّة بعد إِيَّاس .

### مَنْ هو مُضَر؟

هو : أبو إِيَّاس ، عَمْرُو بن نزار ، واسم أمّه : سودة بنت عكّ ؛ ولُقّب بـ «مُضَر» من قول العرب : مُضَر اللَّبَن مُضَرّاً ومُضَرّاً ومُضَوّاً ؛ إذا حَمَضَ وابيضّ ، فهو ماضر . فلُقّب بذلك لشدة بياضه . وهو أوّل من سنّ للعرب حُداء الإبل . وكان أحسن النّاس صوتاً . قال عليّ بن الأثير : «ومُضَر أوّل من حدا ، وكان سبب ذلك أنّه سقط من بعيره فانكسرت يده ، فجعل يقول : «يا يداه ! يا يداه !» ، فأنته الإبل من المرعى . فلمّا صلح وركب حدا . وهو أوّل من قال - حينئذ - : «بَصْبَصْنِ إِذْ حَدَيْنَ بِالْأَذْنَابِ» . فذهبت مثلاً» . ومن حكّم كلامه : «من يزرع شراً يحصدّه ، وخير الخير أعجله ، واحملوا أنفسكم على مكروهاها فيما يُصلحها ، واصرفوها عن هواها فيما

(1) الروض الأنف . ج 1 ص 59 .

(2) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 29 - 32 .

يُفسدها». وكان ذا فِراسة وقيافة، وكان يتعبّد على دين إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وفي الحديث: «لا تسبُّوا مُضَرَ، فإنّه كان قد أسلم»<sup>(1)</sup>. وفي الخبر: «إذا اختلف الناس فالحقّ مع مضر».

### مَنْ هُوَ نِزَارٌ؟

هو: أبو إياد، نزار بن معدّ بن عدنان. واسم أمّه معانة بنت حوشم. واسمه مشتق من التّزر؛ وهو القليل. وقال صاحب الأغاني: «سمّي بذلك لأنّه كان فريد عصره».

### مَنْ هُوَ عَدْنَانٌ؟

هو: آخر جدّ من أجداد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فيما يخصّ نسبه الطاهر من جهة أبيه والمتفق على صحّته عند جمهور الرّواة والمؤرّخين؛ وما بعد عدنان مضطرب فيه، مرتاب في صحّته، بدليل أنّ الرسول - عليه الصّلاة والسّلام! - لم يتجاوز انتسابه إلى عدنان، وقال - بعد انتسابه إليه -: «من هنا كذب النّسّابون! كذب النّسّابون!»<sup>(2)</sup>. وأعرض عن رفع نسب عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم، لما فيه من التخليط وتغيير الألفاظ والصّيغ.

### نسبه. عليه الصّلاة والسّلام! من جهة أمّه

### مَنْ هِيَ أُمُّهُ؟

هي: آمنّة بنت وهب بن عبد مناف، بن زُهرة، بن كلاب، بن مُرّة، بن كعب، بن لؤيّ ابن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النّضر.  
وأُمّها: برة بنت عبد العزّى، بن عثمان، بن عبد الدّار، بن قُصيّ، بن كلاب، بن مُرّة، ابن كعب، بن لؤيّ، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النّضر.  
وأُمّ برة: أمّ حبيب بنت أسد، بن عبد العزّى، بن قُصيّ، بن كلاب، بن مُرّة، بن كعب، ابن لؤيّ، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النّضر.  
وأُمّ أمّ حبيب: برة بنت عوف، بن عُبيد، بن عويج، بن عديّ، بن كعب، بن لؤيّ، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النّضر.

(1) رواه ابن سعد، عن عبد الله بن خالد مرسلًا.

(2) أخرجه ابن سعد، وابن عساكر، والديلمي في مسند الفردوس.

وَأُمُّ بَرَّةَ بِنْتُ عَوْفٍ : قَلَابَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ ، بِنُ الْحَيَّانِ ، بِنُ هُذَيْلٍ .

وَأُمُّ قَلَابَةَ بِنْتُ الْحَارِثِ : هِنْدُ بِنْتُ يَرْبُوعٍ ؛ مِنْ ثَقِيفٍ .

وَأُمُّ وَهَبٍ جَدَّةُ الرَّسُولِ لِأُمِّهِ : عَاتِكَةُ بِنْتُ الْأَوْقَصِ بِنُ مُرَّةَ ، بِنُ هَلَالٍ ، بِنُ فَالِجٍ ، بِنُ ذِكْوَانَ ؛ مِنْ سُلَيْمٍ .

وَأَبُو وَهَبٍ (عَبْدُ مَنْأَفٍ) أُمُّهُ : زُهْرَةُ ، وَإِلَيْهَا يُنْسَبُ وَلَدُهَا دُونَ الْأَبِ .

### مَنْ هُنَّ أُمَّهَاتُهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ؟

هُنَّ : حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُوَيْبِ السَّعْدِيَّةِ ، وَثُوَيْبَةُ مَوْلَاةُ أَبِي لَهَبٍ ، عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- قَدْ أَرْضَعَتْهُ بِلْبَنٍ وَلَدُهَا مَسْرُوحٌ قَبْلَ أَنْ تَرْضِعَهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ ، زَوْجَةُ الْحَارِثِ بِنِ عَبْدِ الْعَزَى ؛ وَهُوَ أَبُو رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- مِنَ الرِّضَاعَةِ .

### مِنْ هُمْ إِخْوَتُهُ وَأَخَوَاتُهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ؟

هُمْ : مَسْرُوحٌ ، وَحَمْزَةُ بِنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَأَبُو سَلَمَةَ بِنُ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيِّ ؛ إِخْوَتُهُ بِلْبَنٍ ثُوَيْبَةُ . ثُمَّ عَبْدِ اللَّهِ بِنُ الْحَارِثِ ، وَأَنْبَسَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ ، وَجُدَيْمَةُ الْمَعْرُوفَةِ بِالشِّمَاءِ بِنْتُ الْحَارِثِ ؛ كُلُّهُمْ أَرْضَعَتْهُمْ أُمُّهُمْ حَلِيمَةُ بِنْتُ ذُوَيْبِ السَّعْدِيَّةِ بِلْبَنٍ اشْتَرَكُوا فِيهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- .

### مَنْ هُنَّ عَمَّاتُهُ؟

هُنَّ : صَفِيَّةٌ ؛ أُمُّهَا هَالَةُ بِنْتُ أَهْيَبٍ ، وَأُمُّ حَكِيمِ الْبَيْضَاءِ ، وَعَاتِكَةُ ، وَأُمِّيمَةُ ، وَأَرْوَى ، وَبَرَّةٌ ؛ فَهَؤُلَاءِ الْخَمْسُ أُمُّهُنَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ الْمَخْزُومِيِّ . أَمَّا صَفِيَّةٌ فَأُمُّهَا هَالَةُ بِنْتُ أَهْيَبٍ ؛ كَمَا تَقْدُمُ أَعْلَاهُ .

### أَبْنَاءُ عَمَّاتِهِ وَبَنَاتُهُنَّ؟

أ- هُمْ : عُبَيْدُ اللَّهِ بِنُ أُمِّيمَةَ ، تَنْصَرُّ بِالْحَبْشَةِ وَمَاتَ بِهَا عَلَى نَصْرَانِيَّتِهِ ، وَبَقِيَتْ زَوْجَتُهُ أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَزَوَّجَهَا النَّجَاشِيَّ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- .  
وَأَبُو سَلَمَةَ عَبْدِ اللَّهِ الْمُهَاجِرُ بِأَمْرَاتِهِ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَى الْحَبْشَةِ ، ثُمَّ رَجَعَ وَشَهِدَ بَدْرًا وَجُرْحَ يَوْمِ أُحُدٍ ، فَانْدَمَلَ جَرْحُهُ فَمَاتَ بِهِ سَنَةٌ ثَلَاثٌ مِنَ الْهَجْرَةِ ، فَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- أَمْرَاتَهُ أُمَّ سَلَمَةَ .

**وطلّيب أبو عُبَيْد**، شهد بدرًا واستشهد بـ «أجنادين».

**وعبد الله أخو أمّ سلمة**، كان شديد العداء للنبيّ - صلى الله عليه وسلم! - والمسلمين؛ وهو الذي أنزل الله فيه على لسانه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾<sup>(1)</sup>، ثم تاب وخرج مهاجرًا إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - عام الفتح، فأعرض عنه رسول الله مرةً بعد أخرى، فدخل على أخته أمّ سلمة فسألها أن تشفع له لدى زوجها رسول الله، فشفت له، فقبل رسول الله شفاعتها له، فأسلم، وشهد غزوة الطائف، ومات شهيدًا.

**والزبير بن صفيّة بنت عبد المطلب**، لم يتخلف عن آية غزوة غزاها رسول الله، وثباته يوم حنين يشهد له؛ كما يشهد له قول رسول الله: «لكلّ نبيّ حواري؛ وحواريّ الزبير». وقتلّه ابن جرموز بن عبد الله بموضع يُعرف بـ «وادي السباع»، فقال عليّ بن أبي طالب: بشر قاتل ابن صفيّة بالنار! وكان ذلك يوم «وقعة الجمل».

**ب - هنّ: أمّ حبيبة بنت أميمة**، زوجة عبد الرحمن بن عوف. وجمنة بنت أميمة، تزوّجها مصعب بن عمير، فقتل يوم أحد، فتزوّجها طلحة بن عبد الله التيميّ أحد العشرة. وكانت ممّن خاض في الإفك على أمّ المؤمنين عائشة، فجُلدت مع من جلد.

**وزينب بنت أميمة**، تزوّجها رسول الله بأمر من ربّه. قال عزّمن قائل: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾<sup>(2)</sup>.

### من هم أخواله؟

قال أبو محمد، عبد الله بن مسلم، بن قُتيبة: ولا نعلم أنّه كان لـ «آمنة» أخ فيكون خالاً للنبيّ - صلى الله عليه وسلم! - ولكن «بنو زهرة» يقولون: «نحن أخوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لأنّ آمنة منهم»<sup>(3)</sup>.

(1) سورة «الإسراء». الآية 90.

(2) سورة «الأحزاب». الآية 37.

(3) كتاب المعارف. تحقيق الدكتور ثروت عكاشة. القاهرة 1969م. مطبعة دار المعارف. ص 129.

## من هم أعمامه؟

هم : الزُّبَيْر بن عبد المطلب . وأبو طالب بن عبد المطلب ؛ واسمه : عبد مناف . والعبّاس ابن عبد المطلب . وضَرار بن عبد المطلب . وحمزة بن عبد المطلب . والمقوم بن عبد المطلب . وأبو لهب بن عبد المطلب ؛ واسمه : عبد العُزَّى . والحارث بن عبد المطلب . والغَيّداق بن عبد المطلب ؛ واسمه : حَجَل .

## من هم أبناء أعمامه؟

هم : عبدالله بن العبّاس . وهند بن المقوم . وتوفّل بن الحارث . ومُرّة بن حَجَل . وعمارة ابن حمزة . وعُتْبَة بن أبي لهب . وعبدالله بن الزبير وعليّ بن أبي طالب .

## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أنّ الله قد صان وحفظ نَسَب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من آية شائبة تشوب أصول آبائه وأجداده وأمّهاته وجدّاته : أصلاً بأ وأرحاماً ؛ من أبيه آدم وأمّه حوّاء حتى انتهى به إلى أبيه عبدالله وأمّه أمنة .

فهو سيّد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة على وجه العموم والإطلاق . فبطهارة نسبه ومكارم آبائه وأجداده واستقامة سلوكهم ، أيقن قياصرة زمانه وأكاسرة عهده أنّه نبيّ مرسل من لدن الله عزّ وجل . سأل ملك الروم أبا سفيان بن حرب عن صفات رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بقوله : كيف نسبه فيكم ؟ فأجابه أبو سفيان بقوله : هو فينا ذو نسب . فقال الملك : كذلك الرّسل تُبعث في أنساب قومها .

**العبرة الثانية :** أنّ قصّة فداء عبد المطلب ابنه عبدالله شبيهة بقصّة فداء إسماعيل بن النّبيّ إبراهيم الخليل عليهما السلام . فعلى هذا الأساس جاء قول رسول الله - عليه الصلاة والسلام !- : «أنا ابنُ الذّبيّحين»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الثالثة :** أنّ من حكمة الله الرّبّانيّة أن جعل خاتم الأنبياء والمرسلين من طينة العرب ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾<sup>(2)</sup> .

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک ، عن معاوية بن أبي سفيان .

(2) سورة «الأنعام» : الآية 124 .



## استخراج الأحكام

الحكم : هو إسناد أمر إلى آخر : إيجاباً أو سلباً ؛ وهو شرعاً : حكمُ الله المتعلق بأفعال المكلفين .

الحكم الأول : أن معرفة نسب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر واجب على أمته من وجهين اثنين .

أولهما : أن ذلك يزيدهم يقيناً بما كان عليه أجداده الطاهرون من استقامتهم ونبلهم وكرامتهم ومحمدة سلوكهم المقتدى به في مجتمعات أجيالهم المطرية لهم صغيراً عن كبير وخلفاً عن سلف بما هم أهل له عقلاً وشرعاً .

ثانيهما : أن الحفاظ على النسب القريب محبوب عقلاً وشرعاً ومطلوب بقدر ما يوصل به الرَّحْم . قال أبو محمد ، عليّ بن حزم الأندلسي - في كتاب النسب : « من علم النسب ما هو فرض عين ، ومنه ما هو فرض كفاية ؛ ومنه ما هو مستحب ؛ فمن ذلك أن يعلم أن محمداً رسول الله هو ابن عبدالله الهاشمي ، فمن ادّعى أنه غير هاشمي كفر ، وأن يعلم أن الخليفة من قریش ، وأن يعرف من يلقاه بنسب في رَحِم محرمة ، ليجتنب تزويج من يحرم عليه منهم ، وأن يعرف ما يتصل به ممن يرثه أو يجب برّه ، من صلة أو نفقة أو معاونة ، وأن يعرف أمّهات المؤمنين ، وأن نکاحهن حرام ، وأن يعرف الصحابة ، وأن حبّهم مطلوب ، وأن يعرف الأنصار ليحسن إليهم ، لثبوت الوصية بذلك ، ولأن حبّهم إيمان وبغضهم نفاق . ومن الفقهاء من يفرّق في الحرّة والاسترقاق بين العرب والعجم ؛ فحاجته إلى علم النسب أكّد . ومن يفرّق بين نصارى « بني تغلب » وغيرهم في الجزية وتضعيف الصدقة وما فرض عليهم عمر الديوان ؛ إلا على القبائل . ولولا علم النسب ما تخلص له ذلك ، وتبعه عليّ وعثمان وغيرهما »<sup>(1)</sup> . فعلى هذا الأساس وغيره مما يستوجب معرفة النسب شرعاً وعقلاً ، أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بتعلم علم النسب الموثوق به فقال : « تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرَّحِم محبة في الأهل ، مثرة في المال ، منسأة في الأثر »<sup>(2)</sup> .

(1) المناوي ، عبد الرؤوف . فيض القدير . بيروت . دار المعارف للطباعة . ج 3 ص 252 .

(2) رواه الإمام أحمد والترمذي ، عن أبي هريرة .

**الحكم الثاني :** جواز الافتخار بالنسب ؛ إذا كان الذين يُنتسب إليهم محلّ افتخار واعتزاز بما هم متّصفون به ؛ بل قد يكون الانتساب إليهم واجباً على الخلف تنوياً بعلو السلف . ولولا جواز ذلك ما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يفتخر بنسبه ويعتزّ بمن ينتسب إليهم من آبائه وأجداده ، فيقول : «إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم»<sup>(1)</sup> . ويقول -أيضاً :- «أنا محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ؛ إنّ الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل ، فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلني في خيرهم بيتاً . فأنا خيركم بيتاً ، وخيركم نفساً»<sup>(2)</sup> . وقال - كذلك :- «أنا ابن العواتك من سليم»<sup>(3)</sup> . وفي روايةٍ أخرى لابن عساكر : «أنا ابن الفواطم» . و«العواتك» : جمع عاتكة ؛ وهن جدّات رسول الله الاثنتا عشرة . اثنتان قريشيتان ، وواحدة من بني يخلد بن النضر ، وثلاث من سليم ، وعدوّيتان ، وهذليّة ، وقضاعيّة ، وأسديّة ، وأزديّة . وأمّا «الفواطم» : فجمع فاطمة ؛ فهن جدّات رسول الله أيضاً ، وهن خمس : قريشيّة ، وقيسيّتان ، ويمانيّتان . فالجموع سبع عشرة جدّة من الأب والأمّ .

### أسماءه عليه الصلّاة والسلام

**هو :** محمد . أحمد . حامد . محمود . أحميد . وحيد . ماح . حاشر . عاقب . طه . يس . طاهر . مطهر . طيّب . سيّد . رسول . نبيّ . رسول الرحمة . قيّم . جامع . مُقتف . مقفّ . رسول الملاحم . (أو نبيّ الملحمة) . رسول الرحمة . كامل . إكليل . مدثر . مزمل . عبد الله . حبيب الله . صفى الله . نجى الله . كليم الله . خاتم الأنبياء . خاتم الرسل . مُحي . منج . مُذكّر . ناصر . منصور . نبيّ الرحمة . نبيّ التوبة . حريص عليكم . معلوم . شهير . شاهد . شهيد . مشهور . بشير . نذير . مُنذر . نور . سراج . مصباح . هُدى . مهديّ . مُنير . داع . مدعوّ . مجيب . مجاب . حفيّ . عفوّ . وليّ . حقّ . قويّ . أمين . مأمون . كريم . مكرم . مكين . متين . مُبين . مؤمّل . وصول . ذو قوّة . ذو حرمة . ذو مكانة . ذو عزّ . ذو فضل . مطاع . مُطيع . قدّم صدق .

(1) رواه الإمام مسلم ، عن وأثلة بن الأسقع .

(2) رواه الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عباس .

(3) رواه الطبراني ، وسعد بن منصور ، عن شبابة بن عاصم .

رحمة. بُشْرَى. غَوْث. غَيْث. غياث. نعمة الله. هديّة الله. عُرْوَةُ وَثْقَى. صراط الله. صراط مُسْتَقِيم. ذكر الله. سَيْف الله. حزب الله. النّجم الثاقب. مصطفى. مُجْتَبَى. مُنْتَقَى. أُمِّيّ. مختار. أجير. جَبَّار. أبو القاسم. أبو الطاهر. أبو الطيّب. أبو إبراهيم. مُشَقَّع. شفيع. صالح. مُصلِح. مُهَيِّمَن. صادق. مُصدِّق. صدق. سيّد المرسلين. إمام المتّقين. قائد الغُرّ المحجّلين. خليل الرّحمن. بَرّ. مُبرّ. وجيه. نصيح. ناصح. كفيل. شفيق. مُقيم السّنة. وكيل. متوكّل. مقدّس. روح القدس. روح الحقّ. روح القسْط. كاف. مُكْتَفٍ. بالغ. مبلّغ. شاف. واصل. موصول. سابق. هاد. مُهتد. مقدّم. عزيز. فاضل. مُفضّل. فاتح. مفتاح. مفتاح الرحمة. مفتاح الجنّة. عِلْمُ الإيمان. عِلْمُ اليقّين. دليل الخيرات. مُصَحِّح الحسّنات. مُقِيل العثرات. صفوح عن الزّلاّت. صاحب الشفاعة. صاحب المقام. صاحب القَدَم. مخصوص بالعزيز. مخصوص بالمجد. مخصوص بالشرف. صاحب الوسيلة. صاحب السّيف. صاحب الفضيلة. صاحب الإزار. صاحب الحُجّة. صاحب السلطان. صاحب الرّداء. صاحب الدرجة الرفيعة. صاحب التّاج. صاحب المغفّر. صاحب اللّواء. صاحب المعراج. صاحب القضيب. صاحب البُرّاق. صاحب الخاتم. صاحب العلامة. صاحب البرهان. صاحب البيان. فصيح اللّسان. مُطَهَّرُ الجَنان. رؤوف. رحيم. أذن خير. صحيح الإسلام. سيّد الكوْنين. عَيْنُ النّعيم. عين العزّ. سَعَدَ الله. سَعَدَ الخَلْق. خطيب الأمم. عِلْمُ الهدى. كاشف الكُرب. رافع الرُّتب. عزّ العرب. صاحب الفَرَج<sup>(1)</sup>. صلى الله عليه وسلم.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** لقد جاء القرآن العظيم بأسماء صريحة العبارة لرسول الله، وبألقاب تتضمّن أوصاف المدح الرّبانيّ لشخصيّته ؛ عليه الصلاة والسلام ! ومن أفضل وأبرز هذه الأسماء المحمودّة : «محمّد»، و«أحمد».

**فالاسم الأوّل :** مقروء في أربع آيات .

**أولاهنّ :** ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾<sup>(2)</sup>.

(1) هذا ما جاء في كتاب «دليل الخيرات وشروق الأنوار، في ذكر الصلاة على النّبيّ المختار. لأبي عبد الله محمّد بن سليمان الجزوليّ ونقل أبو بكر، محمّد بن العرب عن بعض العلماء : أنّ لله ألف اسم، وللنّبيّ ألف اسم.

(2) سورة «آل عمران». الآية 144.

وثانيتها: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾<sup>(1)</sup>.

وثالثتها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾<sup>(2)</sup>.

ورابعتها: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(3)</sup>.

والاسم الثاني: مقروء في آية واحدة؛ وهي: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(4)</sup>.

العبارة الثانية: أن تسميته - عليه الصلاة والسلام - بمحمد، كانت إلهاماً من الله إلى جده عبد المطلب حتى يكون المسمى بها محموداً في السماء والأرض. وهذا تفاؤل وتيمن من الجد المرجحي من الله مبتغاه. وقد حقق الله رجاءه لمن حمد ربه حمداً كثيراً بكرة وأصيلاً، وحمده ملائكة الرحمن والمهتدون من الناس بما هو متصف به وبما استمر عليه من المهد إلى اللحد. قال أبو الفضل القاضي عياض اليعصبى: «قد سمّا الله تعالى في كتابه محمداً وأحمد. فمن خصائصه تعالى له، أن ضمن أسماء ثناء؛ فطوى أثناء ذكره عظيم شكره. فأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد. ومحمد صفة مفعّل مبالغة من كثرة الحمد. فهو - صلى الله عليه وسلم - أجل من حمد، وأفضل من حمد (بالبناء للمجهول)، وأكثر الناس حمداً. فهو أحمد الحمودين، وأحمد الحامدين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة، ليتم له كمال الحمد، ويتشعر في تلك العرصات بصفة الحمد، وبيعته ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون فشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من الحامد - كما قال صلى الله عليه وسلم - ما لم يعط غيره. وسمى أمته في كتب أنبيائه بـ «الحامدين» فحقيق أن يسمى محمداً وأحمد. ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته فن آخر...»<sup>(5)</sup>.

(1) سورة «الأحزاب». الآية 40.

(2) سورة «محمد». الآية 2.

(3) سورة «الفتح». الآية 29.

(4) سورة «الصف». الآية 6.

(5) الشفا، بتعريف حقوق المصطفى. بيروت. مطبعة دار الفكر. ج 1 ص 229.

**العبرة الثالثة :** أن أسماء الرسول وكناه وألقابه لا تخرج عن إطار الصفات المشبهة في دلالاتها حسناً ومحمدة ، ملازمة له ما دام حياً من المهد إلى اللحد . ولعلنا لسنا بمخطئين ؛ إن نحن أطلقنا عليها : «أسماء الرسول الحسنی» .

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن التسمية بأسمائه - عليه الصلاة والسلام - مندوبة مرغّب فيها شرعاً ؛ بما جاء في ذلك من أحاديث نبويّة ، منها قول مَنْ لا ينطق عن الهوى - صلى الله عليه وسلم !- : «تسمّوا باسمي ، ولا تكتّوا بكينيتي»<sup>(1)</sup> . وقوله : «ما ضرَّ أحدكم لو كان في بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة»<sup>(2)</sup> . وقال الإمام مالك بن أنس : «مّا كان في أهل بيت اسم محمدٍ إلّا كثرت بركته» . وروى الحافظ بن طاهر السلفي من حديث حميد الطويل ، عن أنس بن مالك مرفوعاً : «يُوقَف عبداً بين يدي الله عزّ وجلّ ، فيقول الله لهما : ادخلا الجنة ، فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار مَنْ اسمه محمد ولا أحمد» .

**الحكم الثاني :** أن التكنية بكنى الرسول منهيّ عنها شرعاً ؛ بدليل ما جاء في الحديث المذكور أعلاه - «ولا تكتّوا بكينيتي» - والسبب في ورود هذا الحديث الشريف ، أن رجلاً من الصحابة نادى بـ «البقيع» : يا أبا القاسم ! فالتفت إليه رسول الله ، فقال الرجل : يا رسول الله ! لم أعنك ؛ إنّما دعوت فلاناً ، فنطق رسول الله بالحديث المذكور . ولعلّ العمل بحديث التّهي عن التكنية هو مؤقّت ، بزمان كان فيه رسولُ الله حياً يرزق .

### ولادته عليه الصلاة والسلام

ولد محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - بمكة المكرمة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل ، الموافق لعشرين من شهر نيسان من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة للميلاد ؛ وبعد ما خلت أربعين سنة من ملك كسرى أنوشروان . فكان يوم ولادته - عليه الصلاة والسلام !- أسعد يوم طلعت فيه الشمس على أهل البسيطة . وقد أرّخ العرب لهذه الولادة المباركة بحادثة غزو أبرهة الحبشيّ الكعبة المشرفة يريد هدمها . وكان في غزوه مستصحباً عدداً من الفيلة ،

(1) أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجة والإمام أحمد ، عن أنس بن مالك .

(2) رواه ابن سعد ، عن عثمان بن واقد العمريّ .

وعلى رأسها فيل عظيم الجثة، لم يُر مثله بين الفيلة ضخامة، وكان يُدعى محموداً. ولخطورة هذا الحادث المشؤوم أرخ العرب به؛ فقال: «وُلد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الفيل». وقد ذكر الله هذا الحادث العظيم في كتابه العزيز، وخصه بسورة من سور القرآن العظيم؛ أسماها: «سورة الفيل»؛ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

وقد وردت عدة أحاديث نبوية فيما يخص يوم الإثنين؛ منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي قتادة: أن أعرابياً قال: يا رسول الله! ما تقول في صوم يوم الإثنين؟ فقال: «ذاك يوم وُلدت فيه، وأنزل عليّ فيه». وروى الإمام أحمد في مسنده، عن عبدالله بن عباس أنه قال: «وُلد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الإثنين، وقدم المدينة يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الإثنين».

### قصة أصحاب الفيل

قال عبد السلام هارون في تهذيب سيرة عبد الملك بن هشام: «ثم إن أبرهة (الحبشي) بنى «الْقُلَيْسَ» بصنعاء<sup>(1)</sup>؛ فبنى كنيسة لم يُر مثلها في زمانها بشيء من الأرض، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك - أيها الملك! - كنيسة لم يُن مثلها الملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حجّ العرب. فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النّساء<sup>(2)</sup> فخرج حتى أتى «الْقُلَيْسَ» فقعد<sup>(3)</sup> فيها، ثم خرج فلحق بأرضه. فأخبر بذلك أبرهة فقال: من صنع هذا؟ ف قيل له: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحجّ العرب إليه بمكة؛ لما سمع قولك: «أصرف إليها حجّ العرب»، غضب فجاء فقعد فيها، أي: إنها ليست لذلك أهلاً. فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيّأت وتجهّزت، ثم سار وخرج بالفيل معه، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم؛ حين سمعوا بأنّه يريد هدم الكعبة البيت الحرام. فخرج إليه رجل كان

(1) «صنعاء»: عاصمة القطر اليمني في عصرنا.

(2) «النّساء»: جمع ناسئ؛ وهم الذين كانوا ينسئون الشهور في الجاهلية، أي: يؤخرونها.

(3) «قعد»: تغوّط، أحدث.

من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: «ذُو نَفَرٍ»، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد أبرهة من هدمه وإخراجه، فأجابه إلى ذلك مَنْ أجابه، ثم عرض له فقاتله، فهُزِمَ ذُو نَفَرٍ وأصحابه وأخذ له ذُو نَفَرٍ فأتى به أسيراً. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له؛ حتى إذا كان بأرض «خثعم» عرض له نُقَيْلُ بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: «شهران»، و«ناهس»، ومَنْ تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ نقيل أسيراً، فخلّى سبيله وخرج معه يدّله حتى إذا مرّ بالطائف، خرج إليه مسعود ابن مُعْتَبٍ في رجال من ثقيف، فقالوا له: أيّها الملك! إنما نحن عبيدك، سامعون لك، مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيننا هذا الذي تريد. يعنون «اللات» - إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم، فبعثوا معه أبا رغال، حتى أنزله «المُخَمَّس». فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت قبره العرب؛ فهو القبر الذي يرجمه الناس بالمُخَمَّس. فلما نزل أبرهة المُخَمَّس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له: «الأسود بن مقصود» على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم؛ وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهتّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنّهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك، وبعث أبرهة «حُناطة الحميري» إلى مكة وقال له: سلّ عن سيّد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: إنّ الملك يقول لك: إني لم آت لحربكم؛ إنّما جئتُ لهدم هذا البيت. فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به. فلما دخل حُناطة مكة سأل عن سيّد قريش وشريفها، فقيل له: هو عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة؛ هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم - عليه السلام! - فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن يخلّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال حُناطة: فانطلق معي إليه، فإنّه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر، فسأله عن «ذُو نَفَرٍ»، وكان له صديقاً، حتى دخل عليه وهو في مَحْبَسِه فقال له: يا ذَانَفَر! هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له: ذونفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوّاً أو عشياً؟! ما كان عندي غناء في شيء مما نزل بك؛ إلّا أنيساً: سائس الفيل صديق لي، وسأرسل إليه فأوصيه بذلك وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدالك،

ويشفع لك عنده بخير؛ إن قدر على ذلك؛ فقال (عبد المطلب): حَسْبِي . فبعث ذو نَفرٍ إلى أنيس فقال له: إنَّ عبد المطلب سيّد قريش وصاحب عير مَكَّة يُطعم النَّاس بالسَّهل والوحش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وانفعه عنده بما استطعت، فقال: أفعل، فكلّم أنيس أبرهة فقال له: أيّها الملك! هذا سيّد قريش بيابك يستأذن عليك، وهو صاحب عير مَكَّة، وهو يطعم النَّاس في السَّهل والوحش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك فليكلمك في حاجته، فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم النَّاس وأجملهم وأعظمهم، فلَمَّا رآه أبرهة أجَلَّه وأعظمه، وأكرمه أن يُجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير مُلكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثمّ قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي . فلَمَّا قال ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتي حين رأيتك، ثمّ زهدتُ فيك حين كلّمتني؛ أتكلّمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلّمني فيه؟! قال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإن للبيت ربّاً سيحييه!! قال: ما كان ليمنع مني! قال: أنت وذلك . وردّ أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصابها له . وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مَكَّة والتحرّز في شَغَف الجبال والشعاب، تخوفاً عليهم من معرّة الجيش . ثمّ قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجُنْدِه فقال:

لَا هُمْ إِلَّا الْعَبْدُ دَيْمٌ

نَعُ رَحْلَهُ فَمَنْعَ رَحَالِكَ<sup>(1)</sup>

لَا يَغْلِبُ نَّ صَلِيُّ هُمْ

وَمَحَالُّ هُمْ غَدَاً مَحَالِكَ<sup>(2)</sup>

إِنْ كُنْت تَارِكٌ هُمْ وَقَبِلْتَ

فَمُرْنَا مَا بَدَا لَكَ

(1) «حلالك»: جمع حلة؛ وهم القوم المجتمعون .

(2) «محالك»: الشدة والقوة .

(2) «مجمع»: عازم .



ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعباً جيشه، وكان اسم الفيل «محموداً»، وأبرهة مُجمَعٌ لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجّهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفَيْل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك أو ارجع راشداً من حيث جئت؛ فإنك في بلد الله الحرام! ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل؛ وخرج نُفَيْل يشدّ حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بـ«الطبرزين»<sup>(1)</sup> ليقوم فأبى، وأدخلوا محاجن لهم في مرقه<sup>(2)</sup> فبزغوه<sup>(3)</sup> بها ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى مكة فبرك، فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبكسان<sup>(4)</sup>؛ مع كل طير منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس؛ لا تصيب منهم أحداً إلا هلك؛ وليس كلهم أصابت. وخرجوا هارين يتتدرون الطريق الذي منه جاؤوا، يتسابقون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل. وأصيب أبرهة في جسده فمات. قال ابن إسحاق: فلما بعث الله تعالى محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان مما يعدّ الله على قريش من نعمه عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم<sup>(5)</sup>. فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَبِ الْفِيلِ﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن الشهر واليوم اللذين وُكِّدَ فيهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلّ منهما له شأن عظيم عند مَنْ قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾<sup>(6)</sup>. ولولا ذلك ما بقي إحياء هذا الظرف الزمنيّ كذكرى سنويّة لدى المسلمين المحبّين لنبیهم زماناً ومكاناً إلى يوم الدين.

(1) «الطبرزين»: آلة من حديد معقّفة.

(2) «مراقبة»: أسفل بطنه.

(3) «فبزغوه»: فأدموه وشرطوه.

(4) «البكسان»: - بفتح أوله وثانيه -: الزرايزر، جمع زرزور: نوع من الطيور.

(5) تهذيب سيرة ابن هشام. القاهرة 1374هـ مطبعة دار سعد مصر. ج 1 ص 18 - 24.

(6) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي ص 42، الآية 68 سورة القصص.

**العبرة الثانية :** أن العرب بنخوتهم وعزتهم وكرامتهم قد رجموا قبر أبي رغال بعد موته ، لخيانته لوطنه واستسلامه لأبرهة الحبشي واستمروا في رجم قبره بـ «المُخَمَّس» إلى ما شاء الله أن يجموه .

**العبرة الثالثة :** عصيان الفيل أمر صاحبه وامتناعه أن يتوجّه إلى مكّة ممّا لا يخطر على بال .

**العبرة الرابعة :** أن الله قد استجاب دعاء عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة المشرفة ، يدعو ربّه المجيب دعوة الداعي إذا دعاه ؛ بل سرعان ما استجاب الدعوة ، فردّ كيد من أراد بالبيت شراً في نحره ، وحمل الله بيته من أذى هذا الغازي الظلوم ، وأبقاه هو وجيشه جثّاً ممزّقة طعمة للغربان هناك .

**العبرة الخامسة :** ما جاء عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها !- قالت : لقد رأيتُ قائد الفيل وسائسه أعميين مُقعدين يستطعمان بمكّة .

**العبرة السادسة :** عن يعقوب بن عُتبة بن المغيرة بن الأخنس قال : حدثتُ : أنّه أوّل ما رؤي في أرض العرب (مرض) الحصبة ، والجدرى ، ومرائر الشجر ؛ من العشر ، والحرملة ، وأشبه ذلك ، عام الفيل .

### ما بعد وضع آمنة حملها

وهكذا وضعت آمنة بنت وهب حملها المبارك فيه وفي حياته - عليه الصلاة والسلام !- ولما تم وضعها له ، أرسلت مُبشراً إلى جدّه عبد المطلب ، تبشره بالخبر السارّ ، فجاء مسرعاً يحدوه السرور وبلوغ الأمل ، فأخذ المولود بين يديه وتوجّه به صوب الكعبة المشرفة ؛ حيث نصب «هبل» منصوبٌ في جوفها ، فاقترب منه وأخذ يدعو الله لمن هو مرفوع بين يديه ، ويشكر ربّه على ما أنعم بنعمه التي على رأسها هذا المولود الميمون . ثمّ عاد أدراجه إلى حليّة ابنه فردّ إليها فلذة كبدها وهو به فخور النسل ، مطمئنّ النفس على مستقبل هذا المولود الذي سيكون منقذاً لكلّ غارق في حمأة مستنقع الجاهلية ؛ بل سيكون هدى لمن استهدى به ورحمة للعالمين إلى يوم الدين . ثمّ اتفق عبد المطلب مع أمّ المولود على أن يسميّه محمّداً ، عملاً بما أمرت به أمه أثناء حملها له ، ليكون المسمّى محموداً في السماء والأرض . وفي اليوم السابع للمولود أمر جدّه عبد المطلب بنحر جزور ، فأطعمهم شكراً لله وإكراماً لهذا المولود المتفائل به خيراً ، والذي شاء الله أن يبقى محروساً برعاية خالقه ، مكفولاً بحنان أمّه ، مرثياً بعين الرضى لجدّه محروساً في حجر

حاضنته أم أيمن ، مُغَدِّيًا بلبن مرضعه حتى الفطام . ثم شَبَّ على توحيد الله وعبادته بأخلص نيته وأصدق قوله وأصلح عمله ؛ حتى أتاه الله بيقين النبوة وأرسله للناس رحمة .

### من هي حاضنته؟

هي : أم أيمن ، بركة : أمة عبد الله بن عبد المطلب فورثها بعد موتها ابنه محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثم أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة بن زيد ، الذي ولاه رسول الله قبل موته بقليل إمارة الجيش ؛ وعمره لم يتجاوز العشرين سنة ، فانتصر على الروم بالشام انتصاراً باهراً ، وعاد بجيشه إلى المدينة مظفراً .

### من هن مرضعه؟

هن : أمه آمنة بنت وهب ؛ بيد أنها لم يحظ ثدياها سوى بمصّات معدودات من لبنها لولد بطنها كانت من نصيبه عند وضعها إياه ؛ وهي أولى مرضعاته .

ثانيتها : ثوية مولاة أبي لهب ، عبد العزى بن عبد المطلب . وكانت المرضعة ثوية قد أرضعت الرسول - عليه الصلاة والسلام !- بلبن ابنها مسروح أياماً قبل مجيء المرضعة حليلة السعدية . وقد أرضعت ثوية أيضاً بعد رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب ؛ كما أرضعت قبله عبد الله بن جحش . فأصبح الثلاث إخوة من الرضاع له . وتوفيت المرضعة ثوية سنة سبع من الهجرة النبوية . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قبل وفاتها يصلها ويكرمها طوال حياتها . وبعد وفاتها سأل عن ابنها مسروح أخيه في الرضاع ، ليصله ويكرمه وفاءً وإكراماً لأمه ، فأنبئ أنه مات قبل وفاة أمه ، فسأل عن قرابتها فلم يجد منهم أحداً حياً يرزق . ويقال : إن أبا لهب بن عبد المطلب أعتق ثوية جزاء لها حينما بشرته بمولد محمد ابن أخيه عبد الله بن عبد المطلب .

الثالثة : حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية : نسبة إلى قبيلة بني سعد بن بكر بن هوازن وكنيتها : أم كبشة ، واسم زوجها : الحارث بن عبد العزى وكنيته : أبو كبشة ، وهو أبو رسول الله من الرضاع . وأولاده من زوجته حليلة السعدية ، هم إخوة رسول الله في الرضاع وعددهم ثلاثة : أنيسة ، وعبد الله ، وخدامة المعروفة بـ «الشيماء» . وقد أرضعت حليلة أيضاً أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فأصبح بذلك أخاً في الرضاع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

## مفاجأة سارة لحليمة وأسرتها

قال محمد بن إسحاق: «سَمِعَ عن جعفر بن أبي طالب يقول: حَدَّثْتُ عن حليمة بنت الحارث أم رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- التي أرضعته؛ أنها قالت: قدمتُ مَكَّةَ في نسوة من بني سَعْدِ بن بكر، نلتَمَسُ بها الرُّضْعاءَ، وفي سنة شهباء<sup>(1)</sup>، فقدمت على أتان<sup>(2)</sup> قمرأ<sup>(3)</sup>، كانت أَدَمَتْ<sup>(4)</sup> بالركب. ومعِي صبي<sup>(5)</sup> لنا وشارف<sup>(6)</sup> لنا. والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبيِّنا ذلك، ما يجد في ثديي ما يُغْنِيهِ، ولا في شارفنا ما يَغْذِيهِ. فقدمنا مَكَّةَ، فوالله ما علمتُ مَتَا امرأةٍ إلَّا وقد عُرِضَ عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- فإذا قيل: إنَّه يَتِيْمُ تركناه وقلْن: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنَّما نرجو المعروف من أبي الولد؛ فأما أمه فما عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله ما بقي من صواحيبي امرأةٍ إلَّا أخذت رضيعاً؛ غيري. فلمَّا لم أجد غيره قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إنِّي أكره أن أرجعَ من بين صواحيبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فَلَا أَخْذَتَهُ، فقال: لا عليك، فذهبت فأخْذَتَهُ. فوالله ما أخْذَتَهُ إلَّا أَنِّي لم أجد غيره؛ فما هو إلَّا أن أخْذَتَهُ فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب أخوه حتى روى. وقام صاحبي (زوجي) إلى شارفنا تلك فإذا إنَّها الحافل، فحلب ما شرب وشربتُ حتى روينَا. فبتنا بخير لليلة. فقال صاحبي (زوجي): يا حليمة! والله إنِّي لأراكِ قد أخذتِ نَسَمَةً مباركة؛ ألم تري إلى ما بتنا به اللَّيْلَةَ من الخير حين أخْذناه؟ فلم يزل الله يزيدنا خيراً حتى خرجنا راجعين إلى بلادنا. فوالله لقطعت أتانِي بالركب حتى ما يتعلَّقُ بها حمار؛ حتى إنَّ صواحيبي ليقلن: ويُلْكِ يا بنت أبي ذؤيب! أهذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟! فأقول: نعم، والله إنَّها لهي، فيقلن: والله إنَّ لها لَشَأْنًا. حتى قدمنا أرض بني سعد. وما أعلم أرضاً من أرض الله عزَّ وجلَّ أجْدَبَ منها! فإنَّ غنمي كانت لتسرح ثم تروح شِباعاً لُبْنًا<sup>(7)</sup>، فنحلب ما شئنا، وما حولنا أحد تبضُّ له شاة بقطرة لبن، وإنَّ أغنامهم تروح جِباعاً؛ حتى إنَّهم

(1) «شهباء»: مُجْدَبَةٌ.

(2) «أتان»: جمع أتن؛ وهي الحمارة.

(3) «قمرأ»: بِيضَاءَ.

(4) «أَدَمَتْ»: جاءت بما تُدَمُّ عليه.

(5) «صبي»: هو عبد الله بن الحارث أبي كبشة بن عبد العزى.

(6) «شارف»: ناقة مُسِنَّة هَرَمَةٌ.

(7) «لُبْنًا»: - جمع لَبُون - ذات اللَّبَنِ الكثير في ضرعها.

ليقولون لرعيانهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤب فاسرحوا معها، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياعاً وما فيها قطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لُبناً، نحلب ما شئنا. فلم يزل الله عز وجل يُرينا البركة وتعرفها حتى بلغ (محمد - صلى الله عليه وسلم!) سَنَتِيهِ. وكان يشبّ شباباً لا يشبّه الغلمان. فوالله ما بلغ سَنَتِيهِ حتى كان غلاماً جَفراً<sup>(1)</sup>، فقدمنا به على أمّه ونحن أضنّ<sup>(2)</sup> شيء به ممّا رأينا فيه من البركة. فلما رآته أمّه، قلنا لها: يا ضنر<sup>(2)</sup> دعينا نرجع ببِئنا هذه السنة الأخرى، فإننا نخشى عليه أوباء مكة. فوالله ما زلنا بها حتى قالت: فنعم، فسرحته معنا، وأقمنا به شهرين أو ثلاثة<sup>(3)</sup>.

### ما جاء في شقّ بطنه

بقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بعد الفطام في رعاية مُرضعته حليلة الخنون. فلما ناهز الرابعة من السنين، شاء الله أن يخصّه بما أَراده له، فوجلت حليلة من هذه الخصيصة الرّبّانية وعزمت على ردّه إلى أهله بمكة. وما هذه الخصيصة سوى حادث حدث له وهو يرعى غنماً مع أخيه من الرّضاع خلف بيوت قبيلة بني سعد. وها هي حليلة نفسها تروي لنا تفصيل هذا الحادث بأمانة الرواية، فتقول: «فبينما نحن خلف بيوتنا وهو (محمد) مع أخ له من الرّضاعة في بهم لنا، جاءنا أخوه يشتدّ فقال: ذاك أخي القرشيّ قد جاء رجلاً عليهما ثياب بيض، فأضجعا فشقّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشدّ نحوه فنجدّه قائماً مُتّقعاً لونه، فاعتقه أبوه وقال: أي بُني! ما شأنك؟ قال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاني فشقّا بطني، ثمّ استخرجا منه شيئاً فطرحاه، ثمّ ردّاه كما كان» فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليلة! لقد خشيتُ أن يكون ابني قد أُصيب؛ انطلقني بنا فلنردّه إلى أهله قبل أن يظهر به ما يتخوّف. قالت: فاحتملناه، فلم يرع أمّه إلّا به، قد قدمنا به عليها، فقالت: ما ردّكما به؟ قد كنتما عليه حريصين، فقلنا: لا والله يا ضنر! إلّا أن الله عز وجلّ قد أدّى عنّا وقضينا الذي علينا. وقلنا: نخشى الأتلاف والأحداث، ردّه إلى أهله. فقالت: ما ذلك بكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره. فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ كلا، والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنّه لكائن لابني

(1) «جَفراً»: امتلاً لحماً واستكرش.

(2) «أضنّ»: أبخل وأشحّ.

(3) «الضنر»: المرضعة لولد من غيرها، والعاطفة عليه. والمراد بها هنا: الأمّ الشديدة الحنان على ولدها.

هذا شأن؛ ألا أخبركما بخبره؟ قلنا: بلى، قالت: «حملتُ به فما حملت حملاً قطّ أخف منه، فرأيتُ في النوم حين حملتُ به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوفاً ما يقعه المولود، مُعتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما»<sup>(1)</sup>. وكانت وفاة حليلة السعدية بعد الهجرة النبوية. فلما علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بوفاها، ذرفت عيناه؛ وهو مسرور بفتح مكة أي سرور!

### وفاة أمه آمنة

لما بلغ رسول الله ست سنوات من عمره المبارك، توفيت أمه الحنون آمنة بنت وهب بـ «الأبواء»<sup>(2)</sup> وهي راجعة مع ابنها من زيارة قبر زوجها عبدالله بن عبد المطلب. وبقي الابن اليتيم تحت رعاية الله وفي كفالة جده عبد المطلب وفي حضانة أمة أبيه أم أيمن. قال محمد بن إسحاق: «... قدمت آمنة بنت وهب أم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - برَسُول الله - صلى الله عليه وسلم - على أخواله من بني عدي بن النجار بالمدينة، ثم رجعت به حتى إذا كانت بـ «الأبواء» هلكت بها ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ابن ست سنين»<sup>(3)</sup>.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُخبر أصحابه بما رأت أمه وهي حامل به، ويخبرهم أيضاً بصحة حدث شق بطنه؛ وهو الصادق الصدوق فيما قاله ويقول. قال محمد بن إسحاق: «حدثني نور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم»<sup>(4)</sup>، وبُشِرى<sup>(5)</sup> أخي عيسى، ورأت أمي حين حملتُ بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بُصْرى من أرض الشام، واسترُضِعْتُ في بني سعد بن بكر؛ فبينما أنا مع أخ لي في بهم لنا، أتاني رجلان عليهما ثياب بياض، معهما طست من ذهب مملوءة ثلجاً، فاضطجعاني فشَقَّ بطني

(1) المبدأ والمبعث والمغازي. ص 28.

(2) «الأبواء»: قرية قرب المدينة، بينها وبين الجحفة ثمانية وعشرون ميلاً.

(3) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 42.

(4) فيه إشارة إلى الآية (129) من سورة «البقرة».

(5) فيه إشارة إلى الآية (6) من سورة «الصف».

ثم استخرجنا قلبي فشقاها فأخرجنا منه عَلكة سوداء فألقياها. ثم غسلا قلبي وبطني بذاك الثلج؛ حتى إذا أنقياه ردّاه كما كان. ثم قال أحدهما لصاحبه: زَنُه بعشرة من أمّته فوزنني بعشرة فوزنّتهم. ثم قال: زَنُه بمائة من أمّته، فوزنني بمائة فوزنّتهم. ثم قال: زَنُه بألف من أمّته، فوزنني بألف فوزنّتهم. فقال: دعه عنك؛ فلو وزنته بأمّته لوزنهم»<sup>(1)</sup>.

**العبرة الثانية:** أن النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - لم يدخل جوفه من لبن المرضعات إلّا من ذات العنصر الطاهر، والأصل الزكّيّ، والعقل السليم، والدين القويم، والخلق الكريم، والطبع الإنسانيّ، لأنّ العادة جارية على أنّ من ارتضع مُرضعة غلب عليه طبعها، وبدت في طباعه يعني أخلاقها. وفي الحديث الشريف: «الرّضاع يُغيّر الطّباع»<sup>(2)</sup>. ومَن عمل بمقتضى هذا الحديث الجوّنيّ؛ حين دخل بيته فوجد ابنه إمام الحَرَمَيْن يرضع ثدي غير أمّه، فاخطفه وعالجه حتى تقيّاً ذلك اللبن. وكان هذا الابن كلّما حصلت له كبوة في حياته، قال: هذه من تلك الرّضعة.

**العبرة الثالثة:** أن إرضاع حليمة رسول الله قد كان تطوّعاً وتفضلاً منها، فلم تتقاضَ من أهله أجره الرضاعة؛ لكنّ الله قد عوضها من خيره أضعافاً مضعّفة مقابلاً لما تفضّلت به من لبن ثديها على يتيم قريش. وهذا باعترافها - هي - وزوجها أبي كبشة؛ كما تقدّم ذكره.

**التوجيه الرابع:** أن أخذ أمانة ابنها لزيارة قبر أبيه بالمدينة، ليس من باب المصادفة؛ بل كان بمشيئة الله لحكمة ربّانية المراد؛ قد بدت واضحة في وفاتها ودفنها على مقربة من مدفن زوجها في أرض مهجر ابنهما ومدفنه أيضاً.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن أخذ الأجرة على الرضاعة جائز شرعاً. وهذا من تقارير رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - التي أقرّها في المجتمع الإسلاميّ؛ وهو من عوائد العرب في الجاهليّة؛ إذ كان شرفاؤهم ووجهاؤهم يلتمسون لمواليدهم في اليوم الثامن من ولادتهم مراضع من البوادي ويدفعون بهم إليهنّ، ليرضعنهم على أجر، ولا يعدن بهم إلى أهلهم نهائياً إلّا بعد الثامنة أو العاشرة من سنوات عمرهم. ولعلّ هذه العادة ما زالت سارية المفعول إلى اليوم. قال عبد

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي ص 28.

(2) رواه القضاعيّ، والديلميّ، وابن لال، عن عبدالله بن عباس، ورواه أبو الشيخ، عن عبدالله بن عمر.

الرحمن السهيلي: «والتماس الأجر على الرضاع لم يكن محموداً عند أكثر نساء العرب؛ جرى المثل: «تجوع الحرة ولا تأكل بثديها». وكان عند بعضهن لا بأس به»<sup>(1)</sup>.

**الحكم الثاني:** الإجماع على أن الرضاع يحرم ما يحرمه النسب، ويباح منه ما يباح من النسب؛ في كل ما يتعلق بالتناكح وتوابعه: أصولاً وفروعاً، لقوله تعالى: ﴿... وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّيْتِ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِمَّنْ الرِّضَاعَةِ﴾<sup>(2)</sup>. ولقوله - عليه الصلاة والسلام -: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»<sup>(3)</sup>. وحكمة التحريم تكمن في ما ينفصل من أجزاء المرضعة وزوجها - وهو اللبن - فإذا اغتذى به الرضيع صار جزءاً من أجزائهما، فينتشر التحريم بينهما.

**الحكم الثالث:** أن ما قام به الجدّ عبد المطلب من أمره بنحر الجزور واحتفاله في اليوم السابع من ولادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أضحى تقريراً نبوياً، وغدا مندوباً مرغباً في العمل به. وفي الحديث الشريف: «العَقِيقَةُ حَقٌّ: عن الغُلام شاتان مكافئتان، وعن الجارية شاة»<sup>(4)</sup>. والحكمة بتخصيص الحفل باليوم السابع من ولادة المولود، تكمن في الظنّ بأن سلامة بنيته وصحة خُلُقته وقبوله للحياة؛ كل ذلك لا يتوقّر إلاّ الآن يمضي على ولادته أسبوع الذي هو دور يومي؛ كما أنّ السنة هي دور شهريّ.

والأصل في العقيقة: شعْرُ كل مولود من الإنس والبهائم وإذا أُطلق اسمها دلّ على الشاة التي تذبح عند حلق شعْرِ المولود. ويقال: عَقَّ عن المولود.

### ظهور بعض التبشير برسول الله قبل ولادته

**التبشير الأوّل:** قال عبد الرحمن السهيلي: «وكان عبد المطلب قد رأى في منامه: كأنّ سِلْسِلَةً من فضّة خرجت من ظهره، لها طرف في السّماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثمّ عادت كأنّها شجرة؛ على كلّ ورقة منها نور، وإذا أهلُ المشرق والمغرب كأنهم يتعلّقون بها. فقصّها، فعُبرَتْ له بمولود يكون من صُلْبِهِ، يتّبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سمّاه (جدّه عبد المطلب) محمّداً؛

(1) الروض الأنف. ج 2 ص 177.

(2) سورة «النساء». الآية 23.

(3) رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما، عن عائشة أمّ المؤمنين.

(4) رواه الإمام أحمد، عن أسماء بنت يزيد.



مع ما حدثته به أمه حين قيل لها: إِنَّكِ حَمِلْتَ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِذَا وَضَعْتِيهِ فَسَمِيهِ مُحَمَّدًا<sup>(1)</sup>.

**التبشير الثاني:** ظهور نور النبوة على وجه عبدالله والد رسول الله؛ ذلك النور الذي رَغِبَ رُقَيْقَةُ بنت نَوْفَل أن تعرض نفسها عليه وتلتمس منه أن يقع عليها حالاً، فامتنع عبدالله. وهذا يُعَدُّ من صيانة الله لرسوله القائل: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ».

**التبشير الثالث:** توافر الأخبار الواردة في التوراة والإنجيل فيما يخص ظهور النبي العربي المنتظر؛ من حيث زمان مبعثه وتحديد صفاته. ومن تلك الأخبار ما أخرجه الإمام البخاري، عن عطاء بن يسار قال: «لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - قَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ؛ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيَّتْكَ الْمُتَوَكَّلُ، لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا سَخَّابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُجْزَى بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ؛ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمَلَّةَ الْعُوجَاءَ بِأَنْ يَقُولَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمِيًّا وَأَذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا»<sup>(2)</sup>.

### استخراج بعض الإرهاصات

**الإرهاصات:** جمع إرهاب؛ ما يصدُرُ عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - قبل النبوة من أمر خارق للعادة، دالٌّ على بعثة النبي قبل بعثته.

**الإرهاص الأول:** قال عبد الرحمن السَّهْلِيُّ - نقلاً عن تفسير بقي بن مخلد -: «إِنَّ إبْلِسَ لَعَنَهُ اللَّهُ<sup>(3)</sup> رَنَ أَرْبَعِ رَنَاتٍ: رَنَةً حِينَ لَعَنَ، وَرَنَةً حِينَ أُهْبِطَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَرَنَةً حِينَ وُكِّدَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَرَنَةً حِينَ أُنْزِلَتْ «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ»<sup>(4)</sup>.

**الإرهاص الثاني:** قال عبد الرحمن السَّهْلِيُّ: «وَرُوي عَنْ عِثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، عَنْ أُمِّهِ أَمِّ عِثْمَانَ الثَّقَفِيَّةِ، وَاسْمُهَا: فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَتْ: حَضَرَتْ وِلَادَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى

(1) الرِّوَضُ الْأَنْفُ. ج 2 ص 51.

(2) السَّيُوطِيُّ، عبد الرحمن. الخصائص الكبرى. القاهرة 1970م. مطبعة المدني. ج 1 ص 26.

(3) «رَنَ»: صَوْتٌ وَصَاحٌ.

(4) «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ»: سُورَةُ الْفَاتِحَةِ. قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: وَيُكْرَهُ أَنْ يُقَالَ: أُمُّ الْكِتَابِ.

الله عليه وسلم! - فرأيت البيت حين وُضع قد امتلأ نوراً، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع عليّ»<sup>(1)</sup>.

**الإرهاص الثالث :** عن عبدالله بن عباس قال : «دخل حديث بعضهم في حديث بعض : أن أمانة بنت وهب قالت : علقْتُ به - تعني : رسول الله - فما وجدتُ له مشقة حتى وضعتُ، فلماً فصل منِّي، خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ثم وقع إلى الأرض مُعْتَمِداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب قبضها، ورفع رأسه إلى السماء»<sup>(2)</sup>.

**الإرهاص الرابع :** قال القاضي عياض : «وقول الشفا أم عبد الرحمن بن عوف : لما سقط صلى الله عليه وسلم على يَدَيَّ واستهلَّ، سمعتُ قائلاً يقول : «رحمك الله» ! وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب؛ نظرتُ إلى قصور الروم»<sup>(3)</sup>.

**الإرهاص الخامس :** كان هشام بن عروة يُحدِّث عن أبيه، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : «كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها، فلماً كانت الليلة التي وُكِّد فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في مجلس قريش : يا معشر قريش ! هل وُلِدَ فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم : والله ما نعلمه، فقال : الله أكبر ! أما إذا أخطأكم فلا بأس، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : وُلِدَ هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات، كأنها عُرف فرس، لا يرضع ليلتين؛ وذلك أنَّ عَفْرِيَّتاً من الجن أدخل إصبعه في فمه فمنعه من الرضاع، فتصدَّع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه ! فلماً صاروا في منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله، فقالوا : قد والله وُلِدَ لعبد الله بن عبد المطلب غلام سمَّوه محمّداً، فالتقى القوم فقالوا : هل سمعتم حديث اليهودي؟ وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودي فأخبروه الخبر، قال : فاذهبوا معي حتى أنظرُ إليه، فخرجوا به حتى أدخلوه على أمانة، فقالوا لها : أخرجي إلينا ابنك، فأخرجته لهم، فكشفوا له عن ظهره فأروا تلك الشامة، فوقع اليهودي مغشياً عليه، فلماً أفاق قالوا له : ما لك؟ وملك ! قال : قد ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل، فرحتم بها يا معشر قريش ! والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب»<sup>(4)</sup>.

(1) الرّوض الأنف . ج 2 ص 149 .

(2) ابن كثير، إسماعيل . البداية والنهاية . بيروت، مطبعة المعارف . ج 2 ص 264 .

(3) الشفا بتعريف حقوق المصطفى . ج 1 ص 366 .

(4) ابن كثير، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 2 ص 267 .

**الإرهاص السادس :** عن عبدالله بن عباس قال : «خرجت حليلة تطلب النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- وقد وجدت البهْمَ ثَقِيلَ ، فوجدته مع أخته ، فقالت : أفي هذا الحرّ؟ فقالت أخته : يا أمّه ! ما وجد أخي حرّاً؛ رأيتُ غمامة تظلّل عليه ؛ إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت ؛ حتى انتهى إلى هذا الموضع <sup>(1)</sup> .

**الإرهاص السابع :** قال إسماعيل بن كثير : «لما كانت الليلة التي وُلد فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ارتجس إيوان كسرى ، وسقط منه أربع عشرة شرفة» <sup>(2)</sup> . ومن تلك الإرهاصات النبويّة : خمود نار فارس ؛ ولم تخمد قبل ذلك الخمود بألف سنة ومنها مغاض ماء ساوة (طَبْرِيّة) ، ومنها ما تعرفت به حليلة السعديّة وزوجها من بركاته - عليه الصلاة والسلام !- ودورور لبن ثديها له ولبن شارفها ، وخصب مرعى غنمها ، وسرعة شبابها - عليه الصلاة والسلام !- وحسن نشأته ومنها ما رآه «الموبدان» الفارسيّ : من إبل صعاب تقود خيلاً عِراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلاد فارس ، وغير ذلك ممّا جرى من عجائب الإرهاصات النبويّة قبل البعثة .

### رسول الله في كفالة جدّه

بعد وفاة أمنة بنت وهب ب «الأبواء» <sup>(3)</sup> ودُفنت هناك ، عاد ابنها - صلى الله عليه وسلم !- من زيارته أخواله بالمدينة إلى مكّة في صُحبة حاضنته أم أيمن الحبشيّة ، وهو حزين على فراق أمّه الحنون ؛ بيد أنّ صاحب القدر المحتوم قد شاء أن يحظى هذا اليتيم الصبور بكفالة جدّه عبد المطلب ، الذي طالما شارك الأمّ أمنة في رعاية ابنها وحنانها عليه ؛ وما كان ذلك من الجدّ لابنه إلّا أن يعوّضه ما فقد من حنان أبيه الذي لم يحظ برؤيته ، ولا بما حظي به صغار الأبناء من رعاية آبائهم وعطفهم ؛ بل مات عبدالله وترك محمّداً جنيّناً في بطن أمّه . فكان حظّه من عطف جدّه عليه وتكريمه إيّاه ، وتقديمه على ما سواه من أبناء صُلْبِه بما هو أهل له ، وأجدر أن يبقى ذلك مثلاً مرموقاً في جبين التاريخ الإسلاميّ والإنسانيّ أيضاً ؛ كما يبقى معمولاً به في سنن الاحتذاء والافتداء زماناً ومكاناً إلى يوم الدين . قال محمّد بن إسحاق : «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مع جدّه عبد المطلب بن هاشم . وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظلّ الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحدٌ من بنيّه إجلالاً له ؛

(1) المصدر السابق . ج 2 ص 275 .

(2) المصدر السابق .

(3) «الأبواء» : قرية من أعمال الفرع من المدينة المنورة ، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً .

فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- يأتي، وهو غلام جَفْرٌ، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه، ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب - إذا رأى ذلك منهم -: «دعوا ابني؛ فوالله إنَّ له لشأناً! ثمَّ يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسرّه ما يراه يصنع»<sup>(1)</sup>. وكان عبد المطلب يرقّ على رسول الله رقة لم يرقها على أبنائه، وكان يقربّه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا بنفسه، وإذا كان نائماً. وكان يقول لحاضنته بركة أمّ أيمن: يا بركة! لا تغفلي عن ابني، فأتي وجدته مع غلمان قريباً من السّدة، وإنَّ أهل الكتاب يزعمون أنّ ابني هذا نبيّ هذه الأمّة. وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلّا ويقول: عَليّ به، فيؤتى به إليه<sup>(2)</sup>. وهكذا كانت كفالة عبد المطلب ورعايته لحفيده محمّد المفضّل لديه على أبنائه من صلبه. فأغدق عليه جمّ رأفته به، وبذل له ما كان في وسعه من حنوّ وحنانه عليه، وهو أجدر وأحقّ بما كان له من جدّه الوقور.

### محمّد رسول الله في سوق مَجَنَّة

اجتمع الشعراء والخطباء في سوق «مَجَنَّة»<sup>(3)</sup> ليتباروا هناك بأشعارهم وأنثاءهم، وحضر محمّد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- ضمّن أترابه وأقرانه، للاستماع والإصغاء بقصد التدريب على فصاحة اللّسان وأسلوب البيان. فأخذ الشعراء والخطباء يتبارون بما هو ميسّر لهم وبما خلّقوا لأجله وكان رسول الله من المنصتين والمستمعين بإمعان لإلقاء الخطب وإنشاء الأشعار. وكان أترابه مهتمّين بما ينشدون من الأشعار حافظين لها على ظهر قلب، وكان هو على خلافهم فيما هم عليه؛ بل لم يعلق بذهنه ما دار بين المتبارين بأشعارهم وأنثاءهم سوى ما فاء به الخطيب قسّ بن ساعدة حين ما قال: «أيّها الناس! اسمعوا وعُوا، وإذا وعيتم فانتبهوا: إنّه من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمّهات، وأحياء وأموات، وجمع وشتات». وما كاد قسّ بن ساعدة ينتهي من خطبته حتى غلب البكاء رسول الله. ثمّ افتضّ الجمع، ورجع كلّ منهم إلى مكانه الذي أتى منه، وانصرف رسول الله صُحبة جدّه وهو يردّد عبارات قسّ بن ساعدة في ذهنه. ثمّ جاء الجمع بأبنائهم، فاجتمعوا بـ«دار الندوة» برئاسة عبد المطلب، والقصد من اجتماعهم هذا أن يخبروا أبناءهم في حفظهم لأشعار الشعراء وأنثاء الخطباء في سوق «مَجَنَّة» فأخذ كلّ من الأبناء يُنشد من تلك

(1) ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية، شرح الرّوض الأنف ج 2 ص 182.

(2) ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية.

(3) «مَجَنَّة»: اسم سوق بالظهران قرب جبل الأصفر.

الأشعار ويسرد من تلك الخطب على ظهر قلب . ولما جاء دور محمد رسول الله ، وجدوه لم يحفظ شيئاً من ذلك ، فتهامس القوم وبدأ أثر الخيبة على وجه جدّه ؛ ولكن سرعان ما فاجأهم الرسول بما لم يكن لهم في الحُسبان ؛ فسرد عليهم خطبة قسّ بن ساعدة من حفظه بأكملها ، فصاحوا إعجاباً بما سمعوا ! وتهلّل وجه جدّه الفخور بابنه محمد ، وأدرك حقيقة ما بحفيده : من سرّ ربّانيّ وهو في ربيع طفولته ! وأيقن أنّه قد حفظ أجلّ وخير ما قيل في جمع هذه السّوق ، وأنّه استحقّ منه أن يقول له : بوركت يا محمد !

### البشارة بنبوته

بعد مولده - عليه الصلاة والسلام -! بَسَّتَيْن ، انتصر سيف بن ذي يزن الحميريّ على الأحباش وأجلاهم من أرض اليمن ، وفرح العرب بهذا الانتصار وازدادوا به نَخْوةً وافتخاراً ، فوفدوا عليه بمختلف قبائلهم ، ليهتّوه . ومن جملة تلك القبائل قبيلة قريش برئاسة عبد المطلب ابن هاشم . وبعد التهتّة والإطراء للمتصر ، ظفر عبد المطلب بما لم يخطر له ببال ؛ ذلك أن الملك سيف بن ذي يزن بشره بنبوّة حفيده محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام -! وأمره بكتمان البشارة عن اليهود وعن الحاسدين من أبناء طينته . وقد ارتأينا أن نُنْقِلَ النصّ الكامل لما جرى بين الملك المنتصر والوافدين عليه ؛ رغم أنّ النصّ المنقول طويل النّفس ؛ بيد أنّ فوائده أجلّ ما يُعلّم ويُحَفِّظ للأجيال . قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن الحافظ أبي بكر محمد بن جعفر بن سهل الخزائطيّ ؛ في كتابه : «هاتف الجان» :

« . . . عن عبد الله بن عباس ، قال : لما ظهر سيف بن ذي يزن على الحبشة ؛ وذلك بعد مولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! بَسَّتَيْن ، أتته وفود العرب وشعراؤها تهتّته وتمدحه وتذكر ما كان من حسن بلائه ، وأتاه في مَن أتاه وفود قريش ، فيهم عبد المطلب بن هاشم ، فقدموا عليه صنعاء ؛ فإذا هو في رأس «غمدان» الذي ذكره أميّة بن أبي الصلّت :  
وَأَشْرَبَ هَيْنِئاً عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِعاً

في رأس غَمَدَانٍ دَاراً مِنْكَ مَحَلّاً

فدخل عليه الآذن فأخبره بمكانهم ، فأذن لهم ، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام ، فقال له : إن كنت ممن يتكلّم بين يديّ فقد أذنت لك ، فقال له عبد المطلب : «إنّ الله قد أحلّك - أيّها الملك ! - محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعظّمت

جُرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، في أكرم موطن، وأطيب معدن. فأنت - أبيت اللعن! - ملك العرب وربيها الذي تخبب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومقلها الذي يلجأ إليه العباد. وسلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف، ولن يخمد من هم سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه. ونحن - أيها الملك - أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي قد فدحنا. فنحن وفد التهنة، لا وفد المرزئة. فقال الملك: وأيهم أنت أيها المتكلم؟ قال: «أنا عبد المطلب بن هاشم»، قال الملك: ابن أختنا؟ قال: «نعم»، قال الملك: اذن فادناه، ثم أقبل عليه وعلى القوم؛ فقال: مرحباً وأهلاً، وناقاً ورحلاً، ومُستناخاً سهلاً، وملكاً ربّحاً<sup>(1)</sup>، يُعطى عطاءً جزّلاً، قد سمع الملك مقاتلكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم. فأنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم، والحياة<sup>(2)</sup> إذا طعنتم. ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف. ثم انتبه لهم انتبهاً، فأرسل إلى عبد المطلب، فأدنى مجلسه وأخلاه، ثم قال: يا عبد المطلب! إني مُفضّ إليك من سرّ علمي ما لو يكون غيرك لم أبح به؛ ولكّني رأيتك معدنه، فأطلعتك طليعه، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره: إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون، الذي اخترناه لأنفسنا وادّخرناه دون غيرنا خيراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الناس عامّة، ولرهلك كافة ولك خاصّة. فقال عبد المطلب: «أيها الملك! سرّ وبرّ! فما هو؟ فداؤك أهل الوبرزُ مرّاً بعد زمر»! قال الملك: إذن، ولُدّ بتهامة غُلام به علامة بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزّعامة إلى يوم القيامة. قال عبد المطلب: «أبيت اللعن! لقد أبْتُ بخبر ما أب به وافد، ولولا هيّة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سروراً». قال الملك ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد وُلِدَ فيه، واسمه محمد، يموت أبوه وأمّه، ويكفله جدّه وعمّه. ولدناه<sup>(3)</sup> مراراً، والله باعته جهاراً، وجاعل له منّا أنصاراً، يعزّبهم أوليائه، ويذلّ بهم أعداءه ويضرب بهم الناس عن غرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسّر الأوثان، ويُخمد النيران، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، ينهى عن المنكر ويبيطله.

(1) «ربحاً»: كثير عطاؤه.

(2) «الحياة»: العطاء بلا جزاء ولا منّ.

(3) «ناه»: ارتفع وعلا، ونوّه به.

فقال عبد المطلب: «أيها الملك عز جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك! هذا نجاري<sup>(1)</sup>، فهل الملك سارلي بإفصاح؟ فقد أوضح لي بعض الإيضاح». فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحُجَب والعلامات على التَّصَب، إنك - يا عبد المطلب! - لجدّه غير كذب. فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال الملك: ارفع رأسك ثلج صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً ممّا ذكرتُ لك؟ فقال عبد المطلب: «أيها الملك! كان لي ابن وكنت به معجباً، وعليه رفيقاً، فزوجته كريمة من كرائم قومه: أمنة بنت وهب، فجاءت بغلام، سمّيته محمّداً، فمات أبوه وأمّه، وكفلته أنا وعمّه». فقال ابن ذي يزن: إنّ الذي قلت لك كما قلت؛ فاحتفظ بابنك، واحذر عليه اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سيلاً، واطوما ذكرت لك دون هؤلاء الرّهط الذين معك؛ فإنّي لست آمن أن تدخلهم التّفاسة من أن تكون لكم الرئاسة، فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، فهم فاعلون أو أبناؤهم. ولولا أنّي أعلم أنّ الموت مجتاحي قبل مبعثه، لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته؛ فإنّي أجد في الكتاب النّاطق والعلم السّابق أنّ بيثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره. ولولا أنّي أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ على حدّاثه سنّه أمره ولأوطأت أسنان العرب عقبه؛ ولكنّي صارف ذلك إليك عن غير تفصيل بمن معك»<sup>(2)</sup>.

### وفاة عبد المطلب

لما أحسّ عبد المطلب بن هاشم بقرب أجله وختم فراقه لحياته، جمع بناته الست<sup>(3)</sup> وأمرهنّ أن يرثينه قبل الموت المحتوم، فامتثلن أمره وأرثنه كلّ واحدة منهنّ بشعر من قريحتها، فترك في نفوس سامعيه حسرة وفي قلوبهم حزناً وأسأل عيونهم دموعاً تترى. وكان أبوهن طريح الفراش يُصغي ويستمتع لرثاء بناته أباهن، وهو ما زال حيّاً يُرزق. ثمّ نادى ولده أبا طالب وأوصاه أن يقوم بعده مقامه بكفالة قرّة عينه محمّد - عليه الصلاة والسلام! - وأوكل إليه حفظه ورعايته وصيانيته. وبعد الوصاية شاء الله أن يقبض روح عبد المطلب إليه ويدخله في إطار الأموات؛ كما شاء أن يفارق حفيده محمّداً فراقاً لا عودة بعده، ويتركه في سنّ الثامنة من عمره

(1) «نجاري»: أصلي وأرومتي.

(2) ابن كثير، إسماعيل: البداية والنهاية. ج 2 ص 328 - 330.

(3) تقدم ذكر أسمائهن. وممن رثاه بالإضافة إلى بناته، حذيفة بن غانم العدويّ، ومطروود بن كعب الخزاعيّ. انظر مريثة عبد المطلب.

المبارك فيه؛ بيد أن هذا الفراق المبالغ فيه كان أشدّ وطأة وأعظم صدمة على محمد البار بجده الحنون عليه، وقد حزن لفقده حزناً شديداً؛ لا يضاهيه سوى حزنه على فراق أمّه له قبل سنتين لموت جدّه وكان كثير البكاء إبان موتهما، وكذلك عند ذكرهما قبل أن يبلغ سنّ الرشد. وكان كلّما ذكرهما بعد أن بلغ سنّ الرشد، بدت على محيّاه النّير بوادر الحزن العميق. وبكاؤه - وهو يُشيع جنازة جدّه إلى مقرّه الدائم - يُفتّت الأكباد، ويدمي القلوب ويجعل العيون عبّري!! صلى الله عليه وسلم.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** عزوفه - عليه الصلاة والسلام! - عن الشعر بالطبع والجلّة لاشتغال جُلّ الأشعار على ما هو مذموم أكثر من اشتغاله على ما هو محمود؛ وذلك أن امتداد غذائه من العواطف الجياشة أكثر من امتدادها من العقول الرّزينة. ولو كان الشعر كلّهُ محموداً في أعراف الناس، لما وصف عرب قريش رسول الله بالشاعر، ولما ردّ عليهم الله وصفهم هذا، ولما نفى عنه أن كان شاعراً، أو يكونه حاضراً أو مستقبلاً. فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾<sup>(1)</sup>.

**فإن قال قائل:** إنّ من الشعر ما هو حكمة تستضيء بنورها عقول البشرية؛ فلذلك جاء في الحديث الشريف: «إنّ من البيان سحراً، وإنّ من الشعر حكمة»<sup>(2)</sup>.

**قلنا:** إنّ «من» - هنا - للتبعض أي: من بعض الشعر؛ وليس كلّهُ. وقد دلّ على ذلك ما جاء واضحاً في حديث آخر؛ وهو: «الشعر بمنزلة الكلام: فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»<sup>(3)</sup>. والرسول - عليه الصلاة والسلام! - منزّه عن كل كلام قبيح على وجه العموم والإطلاق، ومعصوم بعصمة الله من المهد إلى اللحد.

**العبرة الثانية:** استسقاء عبد المطلب برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أخرج ابن سعد وابن أبي الدنيا والبيهقي والطبراني وأبو نعيم وابن عساكر من طرق، عن مخرمة بن

(1) سورة «يس». الآية 69.

(2) رواه أبو داود، عن ابن عباس.

(3) رواه البخاري في الأدب والطبراني في الأوسط، عن عبدالله بن عمرو بن العاص.



نوفل ، عن أمِّه رُقَيْقَةَ بنت صَيْفِيٍّ - وكانت لِدَّةً<sup>(1)</sup> عبد المطلب - قالت : تتابعت على قريش سنون جَذْبَةٌ أَقْحَلَتِ الجِلْدَ وأدَقَّتِ العِظْمَ ، فبينما أنا نائمة أو مهوَّمة<sup>(2)</sup> إذ هتف هاتف يصرخ بصوت صَحْلٍ<sup>(3)</sup> يقول : يا معشر قريش إنَّ هذا النبيَّ المبعوث منكم قد أظَلَّتْكم أيَّامه ، وهذا إِبَّانٌ مخرجه<sup>(4)</sup> . فحيَّ هلا بالحياة والخصب ألا فانظروا رجلاً منكم وسيطاً عظاماً جساماً<sup>(5)</sup> ، أبيض بضاً<sup>(6)</sup> ، أوطف الأهداف<sup>(7)</sup> ، سهل الخدين<sup>(8)</sup> ، أشم العرنيين<sup>(9)</sup> ، له فخر يكظم عليه ، وسنة يهدي إليه ، فليخلص هو ووُلْدُه ووُلْدُ ولده ، وليهبط إليه من كلِّ بطن رجل فليشِنُوا من الماء ، ولیمسُّوا من الطيب ، ثم ليستلموا الركن ، وليطوفوا بالبيت سبعاً ، ثم ليرتقوا أبا قُبَيْسٍ ، فليستسق الرجل وليؤمن القوم ، فَعِثْتُم ما شِئْتُم إذن ؛ قالت : فأصبحتُ مذعورة قد اقشعرَّ جلدي ، ووله عقلي ، واقتصصتُ رؤياي ، فقمتم في شعاب مكَّة ، فما بقي بها أبطحي إلا قالوا : هذا شية الحمد ، وتنامت إليه رجالات قريش ، وهبط إليه من كلِّ بطن رجل ، فشَنُوا من الماء ومسَّوا من الطيب ، واستلموا وطافوا ، ثم ارتقوا أبا قُبَيْسٍ حتى إذا استووا بذروة الجبل ، قام عبد المطلب ومعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وهو غلام قد أيفع أو كَرَبٌ<sup>(10)</sup> فقال عبد المطلب : اللهمَّ سادَّ الخلة وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلَّم ، ومسؤول غير مبخل<sup>(11)</sup> وهذه عبادك وإماؤك بعذرات حرمك (يعني أفنية حرمك) . يشكون إليك سنَّتْهم أذهبت الخفَّ والظلف . فامطرن غيثاً مغدقاً ومريعاً<sup>(12)</sup> ! فما راموا حتى انفجرت السماء

(1) «لدة» : ترباً .

(2) «مهوَّمة» : نعسانة .

(3) «صحْل» : بَحْ ، غليظ .

(4) «مخرجه» : خروجه وظهوره .

(5) «عظاماً جساماً» : عظيماً جسيماً .

(6) «بضاً» : رقيق الجلد .

(7) «أوطف الأهداف» : كثير شعر الحاجبين .

(8) «سهل الخدين» : فيهما استرسال ولين وانبساط .

(9) «أشم العرنيين» : رافع الأنف .

(10) «كرب» : قرب ودنا .

(11) «مبخل» : غير موصوف بالبخل .

(12) «مريعاً» : مخصباً ، مكلئاً .

بمائها، وألطف<sup>(1)</sup> الوادي بشجيجه<sup>(2)</sup>، فليسمعت شيخان قريش يقولون لعبد المطلب: هنيئاً أبا  
البطحاء هنيئاً!! وفي ذلك تقول رقيقة:

بَشِيَّةِ الْحَمْدِ أَسْقَى اللَّهَ بَلَدَتَنَا  
لَمَّا فَقَدْنَا الْحَيَا وَاحِلُوذَ الْمَطَرِ  
فَجَادَ بِالْمَاءِ جَوْنِي<sup>(3)</sup> لَهُ سَبَلٌ<sup>(4)</sup>  
سَحّاً فَعَاشَتْ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ  
مَنَامٍ مِنَ اللَّهِ بِالْمَيْمُونِ<sup>(5)</sup> طَائِرُهُ  
وَخَبِرُ مَنْ بَشَّرَتْ يَوْمَ بِهِ مُضَرُّ  
مُبَارَكُ الْأَمْرِ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِهِ  
مَا فِي الْأَنْامِ لَهُ عِدْلٌ وَلَا خَطَرُ<sup>(6)</sup>

العبرة الثالثة: أن ما حلّ بأصحاب الفيل ما هو سوى تعظيم لبيت الله الحرام وتكريم  
له؛ ولولا ذلك ما انتصر العرب الوثنيون على أصحاب الفيل وهم نصارى من أهل الكتاب.  
وهذا النصر المبين لا صنع للبشرية فيه.

### استخراج الأحكام

الحكم الأول: أن زيارة القبور مرغّب فيها شرعاً وعقلاً، بدليل أن رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم! - استأذن ربّه في زيارة قبر أمّه، فأذن له، فزاره، ثم أمر أمّته بزيارة القبور، لما فيها من  
تذكيرهم بما هم صائرون إليه جزماً وقطعاً، فقال: «زوروا القبور، فإنّها تذكركم الآخرة»<sup>(7)</sup>. وقال  
أيضاً: «زوروا القبور، ولا تقولوا هُجْراً»<sup>(8)</sup>. الهجر: الهذيان وقبيح القول.

(1) «ألطف»: ستر وغطى.

(2) «بشجيجه»: يسيله.

(3) «جوني»: سحاب أسود.

(4) «سَبَلٌ»: مطر غزير.

(5) «الميمون»: هو رسول الله.

(6) «خطر»: مثل فريد في الشرف والرفعة.

(7) رواه ابن ماجه، عن أبي هريرة.

(8) رواه ابن ماجه، عن زيد بن ثابت.

**الحكم الثاني :** أن أم النبي - صلى الله عليه وسلم - وأباه وجدّه، أمرهم في الآخرة موكول إلى الله عز وجل وليس من حق أي مخلوق أن يحكم بأنهم ماتوا مشركين بالله وأن مصيرهم مثل مصير عامّة المشركين . ونحن نميل كل الميل إلى عدم الخوض في هذا الخضمّ المتلاطم الأمواج الجارفة ، السّحيق الأعماق المظلمة ؛ بل لا يسعنا سوى أن نقف معتبرين بشاطئه الأيمن ، مستدلّين بدليلين اثنين :

**أولهما :** أن أم النبي وأباه وجدّه، هم من أهل الفترة؛ وهي : المدة من الزّمن الخالي من بعثة الرسل ، فهم إذن قد عاشوا في زمن لم يبعث الله فيه رسولا يُبلغهم ما أمره الله أن يُبلغهم إيّاه . فعلى هذا الأساس هم غير مكلفين وغير معذبين ، لقوله تعالى : ﴿ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَیْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۗ ۝۱ ﴾ .

**ثانيهما :** أن الحكم على أم النبي وأبيه وجدّه بأنهم ماتوا على إشراكهم غير الله في وحدانيته يُعتبر انتقاصاً لأرومة رسول الله وإيذائه في نسبه الطاهر ، وهذا إن كان على وجه العمد ، فهو كفر وصاحبه ملعون بصريح الآية : ﴿ إِنِّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝۲ ﴾ . ومما لا شك فيه أن الأم والأب والجدّ، هم الأساس لبناء صرح القرابة التي أمر الله نبيّه أن يسأل مشركي العرب مودّتهم فيها فقال : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّدِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝۳ ﴾ .

### محمد رسول في كفالة أبي طالب

وبعد أن فارق الحياة عبد المطلب ، بقي رسول الله موزّع الفكر بين ثلاثة خيارات ؛ وهي : إمّا أن يبقى في بيت جدّه على غرار ما كان عليه فيما مضى من إبان حياة جدّه ، وإمّا أن يتوجّه إلى بيت أبيه وأمه ؛ حيث إقامة بركة أم أيمن حاضنته وجاريته بالوراثة عن أبيه ؛ ولكن هذا الخيار يكلفه عملاً يكسب به أجراً يُنفقه فيما يقتضيه معاشه ومعاش أم أيمن ، وإمّا أن ينتقل إلى بيت عمّه أبي طالب ، عملاً بوصيّة جدّه عبد المطلب . وقد شاء الله أن يقع اختياره على الإقامة

(1) سورة الإسراء ، الآية 15 .

(2) سورة الأحزاب ، الآية 57 .

(3) سورة «الشورى» . الآية 23 .

ببيت عمّه أبي طالب شقيق أبيه عبدالله، تنفيذاً لوصيّة جدّه. وامثالاً لنصيحة حاضنته بركة أمّ أيمن. وكان أبو طالب أكثر إخوته عيالاً وأقلهم مالاً؟ ورغم ذلك فهو أوفرهم كرمًا ونُبلاً، وأعظمهم في قریش مكانة واحتراماً. وسرعان ما وجد محمد في عمّه ما فقدّه بموت جدّه؛ بل قد وجد فيه ما أنساه عمّا كان عليه في ماضيه؛ من حبّ، ورقة، وعطف، ورعاية وحنان، وكلّ ما يلائم مقامه في القرى، ويسائر خلقه العظيم. وهذا ما جعل ابن الأخ يميل كل الميل إلى عمّه أبي طالب، وزاده تعلقاً به في الحلّ والترحال.

قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن عمر الواقدي -: «لما توفي عبد المطلب، قبض أبو طالب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فحيثما كان يكن معه، وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحبّه حبّاً شديداً؛ لا يحبّ ولده مثله، لا ينام إلاّ إلى جانبه، ويخرج فيخرج معه، وصبّ<sup>(1)</sup> به أبو طالب صباة، لم يصبّ مثلها بشيء قطّ. وكان يخصّه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى، لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - شبعوا فكان إذا أراد أن يغذيهم قال: كما أنتم<sup>(2)</sup>؛ حتى يأتي ولدي، فيأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فيأكل معهم، فكانوا يفضلون من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك المبارك وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعناً ويصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - دهنياً كحياً. وعن عبدالله بن عباس: «كان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أوّل البكرة، فيجلسون ينتهبون، ويكفّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يده فلا ينتهب معهم. فلما رأى ذلك عمّه عزل له طعامه على حدة». وهكذا كانت محبة أبي طالب لابن أخيه أكثر من محبته أولاده.

### قصة اللّهيّ العائف

قال عبد الملك بن هشام: «قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عبّاد بن عبدالله بن الزبير: أن أباه حدّثه: أن رجلاً من لَهَب كان عائفاً<sup>(3)</sup>؛ فكان إذا قدم مكّة أتاه رجال من قریش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم. قال (ابن إسحاق): فأتى أبو طالب برسول الله - صلى

(1) «وَصَبَّ به»: أحبه حبّاً شديداً.

(2) أي: ابقوا على ما أنتم عليه.

(3) «عائفاً»: متكهنّاً بالطير أو بغيرها: من أثار الأقدام والأخفاف والحوافر في الرمال.

الله عليه وسلم! - وهو غلام مع مَنْ يأتيه، فنظر (العائف) إليه، ثم شغله عنه شيء، فلما فرغ قال: الغلام عليّ به، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيَّبه عنه، فجعل يقول: ويلكم! ردّوا عليّ الغلام الذي رأيته آنفاً؛ فوالله ليكوننّ له شأن. قال ابن إسحاق: وانطلق به أبو طالب»<sup>(1)</sup>. وفي هذا النصّ زيادة بعض الكلمات من كتاب «البداية والنهاية» لإسماعيل بن كثير. لإتمام المعنى المراد.

### قصة الرّاهب بحيرة

لقد شاء الله تعالى أن يبدي ما شاء إبداءه من الإرهاصات النبويّة تدريجاً وتمهيداً للمعجزات الإلهيّة، الدالّة على صدق محمّد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم! - فيما جاء به من لدن ربّه وربّ جميع الخلائق، ليلبغ ذلك الإنس والجنّ كافة. وفي القصّة التالية البرهان القاطع الدالّ على نبوة رسول الله حقّاً يقيناً. قال محمّد بن إسحاق: «ثمّ إنّ أبا طالب خرج في ركّب إلى الشام تاجراً، فلما نهياً للرّحيل وأجمع السّير صبّ<sup>(2)</sup> به رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأخذ بزمام ناقته وقال: «يا عمُّ إلى من تكلّني؟ لا أب لي ولا أم». فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجنّ به معي، ولا يفارقني، ولا أفارقه أبداً. فخرج به معه. فلما نزل الرّكّب بـ «بُصْرَى» من أرض الشام، وبها راهب يقال له: «بحيرا» في صومعة له، وكان أعلم أهل النّصرانيّة، ولم يزل في تلك الصومعة، إليه يصير علمهم عن كتاب فيهم - كما يزعمون - يتوارثونه كابراً عن كابر. فلما نزلوا ذلك العام بـ «بحيرا»، وكانوا كثيراً ما يمرّون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم؛ حتى إذا كان ذلك العام، نزلوا به قريباً من صومعته، فصنع لهم طعاماً كثيراً؛ وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه في صومعته؛ يزعمون أنّه رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في ركّب حين أقبلوا وغمامة تظلّه من بين القوم، ثمّ أقبلوا حتى نزلوا بظلّ شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة، وتهصّرت<sup>(3)</sup> أغصان الشجرة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى استظلّ تحتها. فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته، وقد أمر بالطعام فصنّع، ثم أرسل إليهم فقال: إنّني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش! وأنا

(1) السيرة النبويّة بشرح الرّوض الأنف. ج 2 ص 196.

(2) «صبّ به»: تعلق به شوقاً لملازمته وعدم فراقه.

(3) «وتهصّرت»: مالت، وانعطفت، وانجذبت.

أحبّ أن تحضروا كلّكم: صغيركم وكبيركم، وحرّكم وعبدكم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرا! إنّ لك اليوم لشأناً! ما كنت تصنع هذا لنا فيما مضى؛ وقد كنا نمرّ بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟! فقال له بحيرا: صدقت قد كان ما تقول؛ ولكنكم ضيف قد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً تأكلون منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من بين القوم، لحداثة سنّه، في رحل القوم، تحت الشجرة. فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده. فقال: يا معشر قريش! لا يتخلّف أحد منكم عن طعامي هذا؟ قالوا له: يا بحيرا! ما تخلّف أحد ينبغي أن يأتيك؛ إلّا غلام هو أحدث القوم سنّاً، تخلّف في رحالهم. قال: فلا تفعلوا؛ ادعوه فليحضّر هذا الطعام معكم، فقال رجل من قريش مع القوم: واللآت والعزّى إنّ هذا اللؤم بنا أن يخلّف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه، ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم. فلما رآه بحيرا جعل يلحظه شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده في صفته؛ حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرّقوا، قام بحيرا فقال له: يا غلام! أسألك بحق اللآت والعزّى إلّا أخبرتني عمّا أسألك عنه؛ وإنّما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال له: «لا تسألني باللآت والعزّى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قطّ بغضهما». فقال له بحيرا: فبالله إلّا أخبرتني عمّا أسألك عنه. قال: «سلني عمّا بدالك». فجعل يسأل عن أشياء من حاله: من نومه، وهيبته، وأموره. فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يُخبره، فوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، فنظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده. فلما فرغ منه أقبل على عمّه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً. قال: فإنّه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمّه حُبلى به. قال: صدقت؛ ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود؛ فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ كَيْبُلُغْنَه شراً، فإنّه كائن لابن أخيك - هذا - شأن، فأسرع به إلى بلاده. فخرج به عمّه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكّة؛ حين فرغ من تجارته بالشام<sup>(1)</sup> وكان عمره - عليه الصلاة والسلام! - إذ ذاك تسع سنوات.

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 53، 54، 55.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أن الله قد حمى نبيه محمداً - عليه الصلاة والسلام - من إجراء عيافة العائف عليه مثلما أجراها على أتراه ، وذلك بفضل صيانة الله له وحفظه من كلّ وَهْمٍ وحدسٍ يمسُّ شخصيته المنزهة عن كلِّ ما لا يليق بها خُلُقاً وخُلُقاً .

**العبرة الثانية :** أن أبناء أبي طالب يُصبحون بعد استفاقهم من نومهم غُمُصاً رُمُصاً شعثاً<sup>(1)</sup> . وأن النبيّ - عليه الصلاة والسلام - يستفيق من نومه صباحاً صقيلاً<sup>(2)</sup> ، دهيناً ، كحياً .

**العبرة الثالثة :** أن أبناء أبي طالب كلّما جلسوا على طعام أخذوا يتسابقون إلى انتهاب لقمة ؛ بيد أن رسول الله لا يفعل فعلهم وهو بينهم ؛ بل لا يمدّ يده إلى ذلك الطعام ، قناعةً منه . رُوِيَ عن بركة أم أيمن حاضنته أنها قالت : « ما رأيتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !- شكا جوعاً قطّ ولا عطشاً ، وكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة ؛ فربّما عرضنا عليه الغداء فيقول : لا أريد ؛ أنا شعبان<sup>(3)</sup> .

**العبرة الرابعة :** أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر ، من طريق عبد الله بن عباس ، ومن طريق مجاهد وغيره ، قالوا : كان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !- شبعوا ، وكان إذا أراد<sup>(4)</sup> أن يغديهم<sup>(4)</sup> أو يعشيهم<sup>(4)</sup> قال<sup>(4)</sup> : كما أنتم حتى يحضر ابني ، فيأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !- فيأكل معهم ، فيفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ؛ وإن كان لبناً شرب (الرسول) أولهم . ثم يتناول القعب<sup>(5)</sup> العيال فيشربون منه فيروون عن آخرهم من القعب الواحد ، وإن كان أحدهم لشرب قعباً وحده ، فيقول (أبو طالب للنبيّ) : إنك لبارك .

**العبرة الخامسة :** استسقاء أبي طالب بالنبيّ - عليه الصلاة والسلام - !- أخرج ابن عساكر في تاريخه ، عن جَلْهَمَة بن عرفة قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب !

(1) «غُمُصاً» : في أعينهم غَمَصٌ ؛ وهو ما سال منها من وسخ . «شعثاً» : شعرهم ملبّد مغبر .

(2) «صقيلاً» : صفّي الحيا ، حلّي الطلعة .

(3) السيوطي ، عبد الرحمن . الخصائص الكبرى . ج 1 ص 205 .

(4) ضمير الفاعل يعود على أبي طالب .

(5) «القعب» : القدح الضخم .

أقحط الوادي أجذب العيال، فهلّم واستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دُجن، تجلّت عنه سحابة قتما<sup>(1)</sup>. وحوله أغيامه فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بإصبعه الغلام وما في السماء قزعة<sup>(2)</sup>، فأقبل السحاب هاهنا، وهاهنا، وأغدق وأغدودق، وانفجر له الوادي، وأخصب البادي والنّادي ففي ذلك يقول أبو طالب:

وَأَيُّضٌ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ

ثَمَالُ الْيَتَامَى<sup>(3)</sup> عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مَنْ آلِ هَاشِمٍ

فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَقَوَاضِلِ

**العبرة السادسة:** قوله - عليه الصلاة والسلام! - للراهب بحيرا حينما أراد أن يسأله

فأقسم باللات والعزى: «فوالله ما أبغضتُ شيئا قطّ بغضهما».

### استخراج بعض الإرهاصات

**الإرهاص الأول:** أنّ بحيرا الراهب قد رأى بالعين المجردة غمامة تظلل رسول الله - صلى

الله عليه وسلم! - وتقيه من حرّ أشعة الشمس؛ كما قد رأى أغصان شجرة السّدر<sup>(4)</sup> قد تهاصرت عليه؛ حتى استظل تحتها.

**الإرهاص الثاني:** سجود الشجر والحجر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قبل

بعثته؛ قال بحيرا الراهب للرّكب الذي كان فيه رسول الله: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق

شجر ولا حجر إلّا خرّ ساجدا؛ ولا يسجد إلّا لنبي<sup>(5)</sup>. وهذا ما يؤيّده قوله - عليه الصلاة

والسلام! -: «إنّي لأعرف حجرا بمكة كان يسلمُ عليّ قبل أن أبعث؛ إنّي لأعرفه»<sup>(6)</sup>. قال بعض

العلماء: إنّ هذا الحجر هو الحجر الأسود.

(1) «قتما»: سوداء معبرة.

(2) «قزعة»: قطعة من السحاب.

(3) «ثمال اليتامى»: غيائهم القائم بأمرهم.

(4) «السّدر»: شجر النبق.

(5) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 2 ص 285.

(6) رواه مسلم، والترمذي، والإمام أحمد، عن جابر بن سمرة.



## حَفَظَ اللهُ لِرَسُولِهِ فِي صَغَرِهِ

قال محمد بن إسحاق: «فشبَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! والله تعالى يكلؤه ويحفظه، ويحوطه من أقدار الجاهليَّة، لِمَا يريد به من كرامته ورسالته؛ حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خُلُقاً، وأكرمهم حسباً وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حِلْماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تنزّهاً وتكرماً؛ حتى ما اسمه في قومه إلا «الأمين»، لِمَا جمع الله فيه من الأمور الصالحة. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فيما ذُكر لي يحدث عمّا كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليّته، أنّه قال: «رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان؛ كلنا قد تعرّى، وأخذ إزاره فجعله على رَقَبَتِهِ، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لَكَمَنِي لاكم ما أراه لكمّةً وجيعةً، ثمّ قال: شدّ عليك إزارك». قال: «فأخذته وشدّدته عليّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزاري عليّ من بين أصحابي»<sup>(1)</sup>.

وقد علق عبد الرحمن السهيليّ على هذا النصّ بقوله: «وهذه القصّة إنّما وردت في الحديث الصّحيح: في حين بنیان الكعبة؛ وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ينقل الحجارة مع قومه إليها، وكانوا يجعلون أزهرهم على عواتقهم، لتقيهم الحجارة، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! يحملها على عاتقه وإزاره مشدودة عليه، فقال العباس - رضي الله عنه -: يا بن أخي! لو جعلت إزارك على عاتقك، ففعل فسقط مغشياً عليه، ثمّ قال: «إزاري! إزاري!»، وشدّ عليه إزاره، وقام يحمل الحجارة. وفي حديث آخر: أنّه لما سقط ضمّه العباس إلى نفسه، وسأله عن شأنه؟ فأخبره: أنّه نُودي من السّماء: «أن اشدّد عليك إزارك يا محمد»! قال: «وإنه لأوّل ما نُودي» وحديث ابن إسحاق - إن صحّ - أنّه كان ذلك في صغره، إذ كان يلعب مع الغلمان؛ فَمَحَمَلُهُ على أنّ هذا الأمر كان مرّتين: مرّة في حال صغره، ومرّة في أوّل اكتهاله عند بنیان الكعبة»<sup>(2)</sup>. ومن حفظ الله له أيضاً ما رواه البيهقيّ، من حديث يونس بن بكير، عن عليّ بن أبي طالب أنّه قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! يقول:

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 57 - ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبويّة بشرح الروض الأنف. ج 2 ص 219.

(2) الروض الأنف. ج 2 ص 228.

«ما هممتُ بشيء مما كان أهل الجاهلية يهتمون به من النساء؛ إلا ليلتين كلتيهما عصمني الله عز وجل فيهما: «قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي: تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان؟ فقال: عليّ بذلك» قال: «فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفاً بالغرايل والمزامير فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، وضرب الله عز وجل على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة، سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت؟ فقيل: فلان نكح فلانة، فجئت أنظر، وضرب الله عز وجل على أذني. فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء. ثم أخبرته الخبر. فوالله ما هممتُ ولا عدتُ بعدهما لشيء من ذلك؛ حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته»<sup>(1)</sup>. وقد علّق إسماعيل بن كثير على نص هذه القصة بقوله: «وهذا حديث غريب جداً؛ وقد يكون عن عليّ نفسه»، ويكون قوله في آخره: «حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته مُقْحَمًا». ومهما كان من غرابة هذا الخبر، فإن الواقع المنقول مما كان عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من المهد إلى اللحد يجعله صحيحاً رواية ودراية.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن رسول الله - عليه الصّلاة والسلام! - كان قبل نبوته على ما بقي من إرث دين النبي إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل - عليهما السّلام! - ولم يشرك بالله قطّ، ولا عظم صنماً من الأصنام المعظمة لدى العرب. روى الحافظ البيهقي عن زيد بن حارثة أنّه قال: «كان صنم من نحاس يقال له: «إساف»<sup>(2)</sup> ونائلة» يتمسّح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وطفّت معه، فلما مررتُ مسح به، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «لا تمسه». قال زيد: فطفنا فقلتُ في نفسي: لأمسّنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «ألم تُنه عنه؟! قال البيهقي: زاد غيره (أي: غير الراوي) عن محمد بن عمرو بإسناده قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي، ص 59.

(2) وضعه على «الصفا» عمرو بن لحي.

قط؛ حتّى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه»<sup>(1)</sup>. وقد تقدّم ما يؤكّد هذا في قوله - عليه الصلاة والسلام! - حينما سأله بحيرا: «اللات والعزى، لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضتُ شيئاً بغضَهُما».

**العبرة الثانية:** أن رعايته - عليه الصلاة والسلام! - للغنم كانت لأمرين اثنين:

**أحدهما:** لاكتساب أجر يسدّ به حاجته وحاجة أهله، وهذا الأمر قد جاء مبيناً في قوله: «ما بعث الله نبياً إلّا رعى الغنم»<sup>(2)</sup>، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم؛ كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة»<sup>(3)</sup>. وفي رواية: «كنتُ أرعاها لأهل مكة بالقراريط»<sup>(4)</sup>. ومن نصّ الحديث الشريف فهمنا واعتبرنا أن ممارسة مهنة الرّعي عمل شريف؛ ولولا ذلك ما مارسه أنبياء الله وعلى رأسهم نبيّنا؛ على جميعهم الصلاة والسلام!.

**ثانيهما:** أن ممارسة عمل الرّعي في حقّ الأنبياء ما هو إلا تمرين لهم على ما خلّقوا لأجله، من ائتمانهم على رعاية الأمم والأخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم في عاجلهم وآجلهم. قال أحمد بن حجر العسقلاني: «قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرّن برعيها على ما يكلّفونه من القيام بأمر أمّتهم، ولأنّ في مخالطتها ما يحصل لهم الحِلْم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرّقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوّها من سَبْع وغيره: كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرّقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعادة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبوا كسرّها، ورفقوا بضعفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحمّلهم لمشقة ذلك أسهل ممّا لو كلّفوا القيام بذلك من أوّل وهلة، لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخُصّت الغنم بذلك، لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرّقها أكثر من تفرّق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرّقها، فهي أسرع انقياداً من غيرها. وفي ذكر النبيّ -

(1) ابن كثير إسماعيل، البداية والنهاية. ج 2 ص 288.

(2) رواه البخاريّ، عن أبي هريرة.

(3) رواه ابن ماجه، عن سويد بن سعيد، عن عمرو بن يحيى. والقراريط جمع قيراط؛ وهو: ربع سدس دينار، أو نصف عشرة.

(4) أي: كل شاة بقيراط.

صلى الله عليه وسلم!- لذلك بعد أن عُلِمَ كونه أكرم الخلق على الله لما كان عليه من عظيم التواضع لربه ، والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء!-<sup>(1)</sup> .

ولو أن رعاة المسلمين تدرّجوا فيما هو مُيسرٌ لهم وخُلِقوا لأجله ، وتمرّنوا على أفعال الخير قبل أن يرتقوا إلى مناصبهم ، كما وقعوا فيما لا تُحمد عقباه!!

**العبرة الثالثة :** أن كشف العورة من العار الذي يلحق الذمّ بصاحبه ؛ سواء كان ذلك في الجسد أو في الكلام . ورسول الله قدوة لأُمَّته في ستر ما لا يجوز إبدائه من باطن الجسد ؛ حيّاً كان صاحبه أو ميتاً . وهذا ما للنبيّ بفضل عصمة الله له ، وبما أصّله فيه من الحياء الربّانيّ السرمديّ فكان أشدّ النَّاس حياءً ، وأغضّهم بصراً عن العورات . عن أبي سعيد الخدريّ قال : «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أشدّ حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه»<sup>(2)</sup> . وقالت عائشة حليته : «ما رأيتُ فرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- قطّ» . وعن حليته أمّ سلمة أنّه : «كان إذا أتى امرأة من نسائه غضّ عينيه وقنّع رأسه ، وقال للتي تحته : «علّيك بالسكينة والوقار»<sup>(3)</sup> .

## استخراج الأحكام

**الحكم الأوّل :** أن ستر العورة المغلّظة عن أعين الناس واجب مفروض على كل مسلم ومسلمة ، وكشفها حرام على الناظر والمنظور ؛ بالنسبة إلى غير المختلي بنفسه . أمّا بالنسبة إليه ففي حكم كشفها قولان : أشهرهما الكراهة في كشفها ، والاستحباب في سترها . فهذا الحكم في غير الصلاة ؛ أما في الصلاة فتحرّم كشفها ثابت أبداً . والمراد بالعورة المغلّظة هما السّوءتان . وقد تكلّفت كتب الفروع الفقهيّة بما يقتضي هذا الموضوع جملةً وتفصيلاً . وإذا كان كشف العورة عند المسلمين عاراً وشناراً محظوراً شرعاً وعقلاً ، فإنّه عند الإفرنج العلمانيّين الملحدّين معتبر من صميم حضارتهم الفاخرة في العصر الحاضر!!

(1) فتح الباري ، بشرح صحيح البخاريّ . بيروت . دار إحياء التراث العربيّ . ج 4 ص 349 .

(2) رواه الطبراني! ، عن عمران بن حصين ، ورواه البزار ، عن أنس بن مالك . ورواه الترمذيّ في «الشمائل المحمّدية» .

(3) البيجوريّ ، إبراهيم . شرح الشمائل المحمّدية . القاهرة 1936م . مطبعة الاستقامة . ص 265 .

## شهود رسول الله لحرب الفجار

«الفجار» و«المفجرة»: من الفجور؛ وهو الفسق وصاحبه فاجر، جمع فجّار، وفجرة. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي حَيْمٍ﴾<sup>(1)</sup>. وقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾<sup>(2)</sup>. وسميت هذه الحرب بـ«حرب الفجار»، لأن وقوعها كان في الأشهر الحرم، التي تحرم العرب الحرب فيها، ويعتبرونها فجوراً وفسقاً. والأشهر الحرم أربعة، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(3)</sup>. ولما بلغ سنُّ رسول الله - عليه الصلاة والسلام -! أربع أو خمس عشرة سنة، هاجت حرب الفجار بين قبيلة قريش وبين قبيلة قيس، فشهد بعض أيامها، ووقف إلى جنب أعمامه يُنبئ عليهم، ولعله قد عرف الرمي والفروسيّة منذ تلك الحرب. قال عبد الملك بن هشام: «فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! أربع عشرة أو خمس عشرة سنة<sup>(4)</sup> - فيما حدثني أبو عبيدة النحويّ، عن أبي عمرو بن العلاء - هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان. وكان الذي هاجها أن عروة الرجال بن عتبة (الهوازني) أجار لطيمة<sup>(5)</sup> النعمان بن المنذر، فقال له البرّاض بن قيس (الكناني): أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق (كلّهم)، فخرج فيها عروة الرّحال، وخرج البرّاض يطلب غفلته، حتى إذا كان بـ«تيمّن ذي طلال»<sup>(6)</sup> بالعالية، غفل عروة، فوثب عليه البرّاض فقتله في الشهر الحرام، فلذلك سُمّي الفجار. . فأتى آت قريشاً فقال: إنّ البرّاض قد قتل عروة، وهم في الشهر الحرام بـ«عكاظ»، فارتحلوا، وهوازن لا تشعر، ثمّ بلغهم الخبر، فأتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثمّ التقوا بعد هذا اليوم

(1) سورة «الانفطار». الآية 14.

(2) سورة «عبس». الآية 42.

(3) سورة «التوبة». الآية 36.

(4) هذا هو القول المشهور. وقال محمد بن إسحاق: بلغ عشرين سنة.

(5) «اللطيمة»: غير تحمل البزّ: «الثياب» والعِطر.

(6) واد بعالية نجد.

أياماً. والقوم متساندون<sup>(1)</sup>. على كل قبيل : من قريش ، وكنانة رئيس منهم ، وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم . وشهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! بعض أيامهم ؛ أخرجه أعمامه معهم . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! : «كنت أُنبِّل على أعمامي» ، أي : أرد عنهم نبل عدوهم ؛ إذا رموهم بها . قال محمد بن إسحاق : « . . . وإِثْمَا سُمِّي : «يوم الفجار» بما استحلَّ هذان الحيَّان : كنانة ، وقيس عيلان فيه المحارم بينهم . وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس ، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة ؛ حتى إذا كانوا في وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس<sup>(2)</sup> .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أن الله قد صان نبيّه وحفظه من أن يشارك قريشاً في حرب ما أنزل الله بها من سلطان ؛ وإِثْمَا كان تارة يناول أعمامه التّبال ليرموا بها عدوهم ، وتارة يقيهم منها . قال عبد الرحمن السّهيلي : « . . . وإِثْمَا لم يقاتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! مع أعمامه ، وكان يُنبِّل عليهم ، وقد كان بلغ سنّ القتال ، لأنّها كانت حرب فجار ، وكانوا أيضاً كلّهم كفّاراً ، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلّا لتكون كلمة الله هي العليا<sup>(3)</sup> .

**العبرة الثانية :** أنّه كلّما تأجّجت نار الحرب بين طائفتين ، قيّض الله لإخماها رجل صلّح يصلح بينهما . وقد قيّض الله لإخماٍ نار حرب الفجار عتبة بن ربيعة ؛ وهو من إحداهما . قال عبد الرحمن السّهيلي : «وكان آخر أمر الفجار : أن هوازن وكنانة تواعدوا العام القابل بـ«عكاظ»<sup>(4)</sup> ، فجاءوا للوعد ، وكان حرب بن أمية رئيس قريش وكنانة ، وكان عتبة بن ربيعة يتيماً في حجره ، فضنّ : (بخل) به حربٌ وأشفق من خروجه معه ، فخرج عتبة بغير إذنه ، فلم يشعروا إلّا وهو على بعيره بين الصّقيّين ينادي : يا معشر مُضَرّ! علام تقاتلون؟ فقالت له هوازن : ما تدعو إليه؟ فقال : الصّلح ؛ على أن ندفع إليكم دية قتلاكم نَعْفُو عن دمائنا . قالوا : وكيف؟

(1) «متساندون» : متعاقدون ، متعاونون .

(2) السيرة النبوية بشرح الرّوض الأنف . ص 229 ، 230 .

(3) الرّوض الأنف . ج 2 ص 235 ، 236 .

(4) «عكاظ» : نخل في وادي بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكّة ثلاث ليال . كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له «الأثداء» . وبه كانت الفجار .

قال : نَدفع إليكم رهناً مَنّا ، قالوا : وَمَن لنا بهذا؟ قال : أنا ، قالوا : وَمَن أنت؟ قال : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . فرضوا ورضيت كنانة ، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً ؛ فيهم حكيم بن حزام بن خويلد . فلَمّا رأت بنو عامر بن صعصعة الرّهْن في أيديهم ، عفوا عن الدّماء وأطلقوهم ، وانفضّت حرب الفِجار . وكان يقال : لم يسُدْ من قريش مُملِقٌ<sup>(1)</sup> ؛ إلّا عتبة وأبو طالب ؛ فإنهما سادا بغير مال<sup>(2)</sup> . والحديث عن حرب الفجار طويل الذّيل ، واسع النّفَس ، فليُراجَع في مظانه ، وعلى رأس تلك المِظانّ : «بلوغ الأرب ، في أحوال العرب» ، لأبي المعالي محمود شكريّ بن عبد الله الألوسي<sup>(3)</sup> .

#### رسول الله يشهد حلف الفضول<sup>(4)</sup>

الحلف : جمع أحلاف ، والمراد به هنا : المعاهدة بين قبائل قريش على التعاضد والتّساعد في دفع الظلم عن المظلوم ، والانتصار إليه حتى يرتدع الظالم عن ظلمه ، ويأمن الضعيف من سطوة القويّ في جسده وماله . وقد حضر رسول الله - صلى الله عليه وسلّم !- عقد هذا الحلف المبارك فيه . وكان بعد نبوته يتمنّى أن يكون مثل هذا الحلف بين أمّته ؛ ويقول : «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ؛ ما أحبّ أن لي به حُمْرَ النّعَم ، ولو دُعيتُ به في الإسلام لأجبتُ» وسمّي هذا الحلف بـ «حلف الفضول» ، لأنّ الدّاعي إليه ثلاثة رجال من أشرف العرب ؛ كلّ واحد منهم اسمه : «فضل» . وهم : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث . قال عليّ بن الأثير : «ثمّ إنّ قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان ، لشرفه وسنّه ، وكانوا : بني هاشم ، وبني المطلب ، وبني أسد بن عبد العزّى ، وزُهرة بن كلاب ، وتيّم بن مرّة ، فتحالفوا وتعاهدوا أن لا يجدوا بمكّة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس ؛ إلّا قاموا معه ، وكانوا على ظلمه حتى تردّ عليه مظلّمته ، فسمّت قريش ذلك الحلف : «حلف الفضول» وشهده رسول الله - صلى الله عليه وسلّم !- فقال - حين أرسله الله تعالى :- «لقد شهدتُ مع عمومتي حلفاً في دار

(1) «مملِق» : فقير .

(2) الرّوض الأنف . ج 2 . ص 236 .

(3) توفي سنة 1342هـ = 1924م .

(4) كان قبل البعثة بعشرين سنة .

عبدالله بن جدعان؛ ما أحبّ أن لي به حُمْرَ النَّعَم؛ ولو دُعيتُ به في الإسلام لأَجبتُ»<sup>(1)</sup>.  
ويقول في هذا الحلف عَمْرُو بن عوف الجَرْهَمِيّ:  
إِنَّ الْفُضُولَ تَعَاهَدُوا وَتَعَاقِدُوا

أَلَا يَقِرُّ بِطَنٍ مَكَّةَ ظَالِمٌ  
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاهَدُوا وَتَوَاقَفُوا  
قَالَ جَارٌ وَالْمُعْتَرِ<sup>(2)</sup> فِيهِمْ سَالِمٌ

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن حلف الفضول أصبح عِيْنَة مباركة لدى الصحابة، فيستدلون بها على وجوب أخذ حق المظلوم المعتدى عليه من يد الظالم المعتدي. قال محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: «كان بين الحسين بن عليّ بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان منازعة في مال كان بينهما؛ والوليد يومئذ أمير على المدينة لعنه معاوية، فتحامل الوليد على الحسين في حقه لسلطانه. فقال له الحسين: أقسم بالله لتنصفني أو لأخذن سيفي، ثم لأقيمَنَّ في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ثم لأدعونّ بـ «حلف الفضول». فقال عبدالله بن الزبير - وكان حاضراً - وأنا أحلف بالله لو دعا به لأجبتّه حتى يُنصف من حقه أو نموت. وبلغ المِسُورَ بن مخرمة الزُهريّ فقال مثل ذلك. وبلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبدالله التيميّ فقال مثل ذلك. فلما بلغ الوليد ذلك أنصف الحسن من نفسه حتى رضي»<sup>(3)</sup>.

**العبرة الثانية:** أن وجهاء العرب في الجاهلية وأشرافهم لا يقرّون الظلم ولا يتجاهلونه، ولا يجتمعون على ضلالة؛ بل انتصروا للحق وانتزعوه من الظالم للمظلوم، وتناصروا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم؛ ممن دخلها من سائر الناس إلا كانوا معه، وكانوا على من ظلمه حتى يردّوا عليه مظلّمته، فسمّت قريش ذلك الحلف: «حلف الفضول»<sup>(4)</sup>. وأحكام هذا الحلف باقية في شريعة

(1) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 41.

(2) «المعتز»: الفقير.

(3) المصدر السابق: جزء 1 وصفحة 2. ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 2 ص 293.

(4) المصدر السابق: جزء 1 وصفحة 2.



الإسلام، ولم تبطله ما دام القرآن يُتلى والسنة تُستَقَصَى؛ بل ذلك معدود من تقارير رسول الله - عليه الصلاة والسلام!- المؤكدة بقوله: أَيْمًا حَلَفَ كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة<sup>(1)</sup>. وقوله: «شهدتُ حَلَفَ الْمُطَيِّينَ<sup>(2)</sup> وأنا غلام مع عمومتي؛ فما يسرني أن لي حُمَرَاءَ النعم وأني أنكته»<sup>(3)</sup>. وعلى هذا الأساس كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- من المطييين، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه!- من الأحلاف. فأخبر رسول الله أمته أنه باق على ما حضره من تحالف قومه الْمُطَيِّينَ. وإذا كان رؤساء قبائل العرب في الجاهلية ماتوا على ما هم عليه من إحقاق الحق لأهله، والتعاهد على الأخذ به والانتصار للمظلوم كيفما كان جنسه ولونه ودينه وحيثما كانت إقامته، والضرب على يد الظالم مهما علت رتبته وانتشرت سطوته، فإن رؤساء عرب اليوم قد اتفقوا وتعاهدوا على إذلال شعوبهم وإخضاعهم لأوامر ما أنزل الله بها من سلطان؛ كان ذلك بأمر من كفره الإفرنج، وباسم مكافحة الإرهاب المزعوم!! ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾<sup>(4)</sup>. وفي هذه «العبرة» حكم لانتصار المظلوم على الظالم أيضاً.

### سفر رسول الله إلى الشام تاجراً

لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- قبل هذه السفرة المباركة فيها، قد مارس مهنة التجارة ولم يخطر له بباله ذلك؛ بل كان عمله المبارك فيه، محصوراً في رَغْيِ الأغنام لأهل مكة على قراراتٍ معدودة؛ كما سبق ذكر ذلك آنفاً. وإخلاصه لعمل الرَغْيِ بما هو راعيه، زاد الناس ائتماناً به على ما هو عليه، وتيقنوا أنه محل ثقة في كل ما يوكل به إليه. ولا سيما أن خلقه العظيم قد أطلق ألسنة المكيين تلهج بصدقه وأمانته؛ حتى أسموه «الصادق الأمين». فعلى هذا الأساس الثابت الأركان، عرضت عليه امرأة ثرية؛ اسمها خديجة بنت خُوَيْلِد، أن يخرج في تجارة لها إلى الشام، وتعطيه ضِعْفَ ما تعطي غيره من تجارها المعتادين، فقبل هذا العرض المطروح عليه والمرغَّب

(1) رواه الحاكم، عن حُدَيْفَةَ.

(2) «المُطَيِّينَ»: المتطيين، جمع مُطَيِّبٍ. والتطيب استعمال الطيب. والأصل في ذلك أنه اجتمع بنو هاشم، وزُهْرَة، وتيمم في الجاهلية بمكة في المسجد عند الكعبة، في دار ابن جدعان، ثم ملؤوا جفنة طيباً، ووضعوها في المسجد عند الكعبة، وغمسوا أيديهم فيها ومسحوا الكعبة بها، فسموا «المُطَيِّينَ»، وتحالفوا على نصرة المظلوم، فسموا «الأحلاف».

(3) رواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن عوف.

(4) سورة «البقرة». الآية 107.

فيه ، فخرج صُحْبَةً غلام لها اسمه مَيْسَرَة ، قاصدين أرض الشام . وقد شاء الله أن يعود محمد إلى خديجة بعد رواج تجارتها وزيادة في رأس مالها على يديه ؛ ولم يكن ذلك في حُسْبَانِها ! فوفت له بما وعدته به ، وزادته أن عرضت نفسها عليه ، فتزوجها وهي في الأربعين من عمرها ، وهو في سنّ الخامسة والعشرين . قال محمد بن إسحاق : « وكانت خديجة بنت خُوَيْلِد امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إِيَّاه بشيء يجعله منه . وكانت قريش قومًا تجارًا . فلما بلغها (أي : خديجة) عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ما بلغها : من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ؛ فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ؛ مع غلام لها يقال له : مَيْسَرَة ، فقبله منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- . وخرج في مالها ذلك ومعه غلامها ميسرة حتى قدم الشام . فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب<sup>(1)</sup> من الرهبان ، فاطّلع الراهب إلى ميسرة فقال : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال له ميسرة : هذا رجل من قريش ؛ من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلّا نبيّ . ثمّ باع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري . ثمّ أقبل قافلاً إلى مكّة ومعه ميسرة . فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ ، يرى ملكين يظلاّنه من الشمس ، وهو يسير على بعيره . فلما قدم مكّة على خديجة بمالها باعت ما جاء به ؛ فأضعف أو قريباً . وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعمّا كان يرى من إضلال الملكين إِيَّاه . وكانت خديجة امرأة حزيمة ، شريفة ، لبيبة مع ما أراد الله عزّ وجلّ بها من كرامته . فلما أخبرها ميسرة عمّا أخبرها به ، بعثت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقالت له - فيما يزعمون - : يا بن عمّ ! إنّي قد رغبتُ فيك لقربتك مني ، وشرفك في قومك ، وسَطَّتْك<sup>(2)</sup> فيهم ، وأمانتك عندهم ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، ثمّ عرضت عليه نفسها . وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهنّ شرفاً ، وأكثرهنّ مالاً . كلّ قومها قد كان حريصاً على ذلك<sup>(3)</sup> منها لو يقدر على ذلك . . . فلما قالت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ما قالت ، ذكرَ ذلك لأعمامه ، فخرج معه

(1) «راهب» : اسمه : نَسْطُور .

(2) «وسَطَّتْك» : وَسَطَّكَ ، مصدر كالْعِدَّة ، والزُّنَّة : والوَسَط من أوصف المدح والتفضيل ؛ ولكن في مقامين

اثنين ، في ذكر النّسب ، وفي ذكر الشهادة .

(3) «على ذلك» : على الزواج منها .

منهم حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خُوَيْلِد بن أَسَد، فخطبها إليه، فتزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فولدت له - قبل أن ينزل عليه الوحي - وَلَدُهُ كُلُّهُمْ: زَيْنَب، وَأُمُّ كُلْثُوم، وَرُقِيَّة، وفاطمة، والقاسم، والطاهر، والطيب<sup>(1)</sup>. فَأَمَّا الْقَاسِمُ والطاهر والطيب فهلكوا قبل الإسلام. وبالقاسم كان يكنى؛ صلى الله عليه وسلم! فَأَمَّا بناته فأدركن الإسلام، وهاجرن معه، واتبعنه، وآمن به عليه السلام<sup>(2)</sup>. وقال عبد الملك بن هشام: «وأصدقها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عشرين بكرة<sup>(3)</sup>. وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ولم يتزوج غيرها حتى ماتت؛ رضي الله عنها<sup>(4)</sup>. وقد نقل عبد الرحمن السَّهْلِيُّ عن بعض المؤرخين ما يخالف قول محمد بن إسحاق، فيما يخصَّ مَنْ أبرم عقد الزواج من أهل الطرفين، فقال: «...». وذكر غير ابن إسحاق أنَّ خويلد بن أَسَد كان إِذْ ذَاكَ قد هلك، وأنَّ الذي أنكح خديجة - رضي الله عنها! - هو عمُّها عَمْرُو بن أَسَد؛ قاله المَبْرَدُ وطائفة معه. وقال أيضاً: إنَّ أبا طالب هو الذي نهض مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو الذي إِذْ ذَاكَ خطب خطبة النِّكاح. وكان ممَّا قاله في تلك الخطبة: «أما بعد: فإنَّ محمداً مِّنْ لا يوازن به فتى من قريش؛ إلَّا رجح به شرفاً وُبُلًا، وفضلاً وعقلاً؛ وإن كان في المال قُلًّا؛ فإنَّما المال ظلٌّ زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خُوَيْلِد رغبة، ولها فيه مثل ذلك». والذي قاله المَبْرَدُ هو الصحيح لما رواه الطبري، عن جُبَيْر بن مُطْعَم، وعن ابن عباس، وعن عائشة - رضي الله عنهم كلُّهم! - قال (ابن عباس): إنَّ عَمْرُو بن أَسَد هو الذي أنكح خديجة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأنَّ خُوَيْلِد كان قد هلك قبل «الفجار»<sup>(5)</sup>.

### مَنْ هِيَ خَدِيجَةُ؟

هِيَ: خديجة بنت خُوَيْلِد بن أَسَد، بن عبد العزَّى، بن قصيٍّ، بن كِلَاب، بن مُرَّة، بن كعب، بن لؤيٍّ، بن غالب، بن فِهْر، بن مالك، بن النَّضْر، بن كِنانة. وكُنيتها: أُمُّ هِنْد. وكانت في الجاهلية تُلقَّب بـ«الطاهرة». وأمُّها: فاطمة بنت زيد بن الأصمِّ، بن رَواحة؛ من بني عامر بن

(1) الصحيح أنَّ الطاهر والطيب هما لقبان لعبد الله المولود بعد النبوة.

(2) المبدأ والمبعث والمغازي. ص 60، 61.

(3) بكرة: فتية من الإبل، جمع أبكار.

(4) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 2 ص 233.

(5) الروض الأنف. ج 2 ص 238، 239. وللحديث عن الموضوع بقية عندما نتناول الكلام عن أولاده؛ عليه

الصلاة والسلام!

لؤي. يلتقي نسبها الطاهر أباً وأماً مع نسب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في قصي. وقبل زواجها برسول الله، تزوجت وأرملت مرتين اثنتين.

**زواجها الأول:** كان بعثيق بن عائذ المخزومي، فمات وترك لها ابناً اسمه عبد مناف بن عتيق.

**زواجها الثاني:** كان بأبي هالة، هند بن زُرارة، فمات وترك لها ثلاثة أبناء: هند، والطاهر، وهالة. وكان الأول من هؤلاء الأبناء ربيباً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكان هذا الابن يعتز ويفتخر بكونه ربيباً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فيقول: أنا أكرم الناس: أباً وأماً وأخاً وأختاً؛ أبي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأمي خديجة، وأختي فاطمة، وأخي القاسم. وترك أبو هالة لزوجته خديجة ثروة من المال عظيمة؛ بالإضافة إلى ثروتها الوافرة، فبذلك كانت تستأجر الرجال للتجارة في مالها، وتضاربهم بشيء تجعله لهم منه. وفصائل خديجة بنت خويلد في الجاهلية والإسلام قد سارت بها الركبان زماناً ومكاناً. وبقيت تاجاً في تاريخ ربات الخدور والحجال<sup>(1)</sup>، وفاء وإخلاصاً لزوجها رسول الله، وعفافاً في دينها، وصوناً لعرضها وكرامتها، واستقامة في سلوكها، وصدقاً في كل ما خلقت لأجله، فاهتدت بفضل الله إليه، وكانت أول من صدق برسالة الإسلام من المسلمات، واستمرت طوال حياتها المباركة سنداً ثابتاً لمن جاء بتلك الرسالة، وكانت تقوية لقلبه عند تلقيه الوحي من ربه. وكانت مرجع ثباته على تأدية رسالته وتبليغها بأمانة التبليغ من لدن من أمره بذلك. فكان جزاؤها على صدقها وإخلاصها لله ولرسوله، أن فازت برضاها عنها حيّة وميتة. ودليل هذا الرضى الرباني ما جاء في حديث أبي زرعة قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - «أتاني جبريل فقال: يا رسول الله! هذه خديجة أتتك ومعها إناء فيه طعام وشراب؛ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها من ربها السلام ومنّي». الحديث... وروى الحاكم عن حذيفة بن اليمان: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: «خديجة سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله وبمحمد». وفي مسند الحارث بن أبي أسامة، عن عروة بن الزبير - مرسلاً -: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: «خديجة خير نساء عالمها، ومريم خير نساء عالمها، وفاطمة خير نساء عالمها». وفي الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -

---

(1) «الحجال»: مفرد هاجلة بفتح أوله وثانيه؛ وهو الشيء السّاتر؛ شكله كالقبة، يُزَيَّن بالثياب والستور، ويضرب للعروس في جوف البيت.

«بشر خديجة ببيت في الجنة من قَصَب<sup>(1)</sup>، لا صخب فيه ولا نَصَب». وكان يلهج بالثناء والترحم عليها. وكانت عائشة تقول: لا يكاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها. وكان إذا ذبح شاة يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة». وهي أول من أسلم من المسلمين: ذكوراً وإناثاً. وتوفيت - رحمها الله! - لعشرين من رمضان الفضيل قبل الإسراء والمعراج، وقبل أن يفرض الله الصلاة على عباده؛ وهي بنت خمس وستين سنة، ودُفنت بـ «الحجون»، ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في قبرها، ولم يُصلَّ عليها صلاة الجنازة، لأنها لم تكن مفروضة آنذاك والحديث عن فضائل خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها! - لم ينته؛ بل ما زال مستمراً كلما اقتضى ذكر محامدها ووفائها لزوجها رسول الله في السراء والضراء، وإخلاصها لدينها: عقيدة وشريعة. وكانت خديجة قبل نبوة زوجها - عليه الصلاة والسلام! - كثيرة الاتصال بابن عمها: ورقة بن نوفل الراهب، الذي كان يُبشِّرُها بأنَّ نبيَّ هذه الأمة قد أزف وقت ظهوره؛ بل هو على وشك الظهور؛ حسبما قرأه في كتب الأولين وهو في أشدَّ انتظاره المرتقب. قال محمد بن إسحاق: «وقد كانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد - وكان ابن عمها، وكان نصرانياً، قد تتبّع الكتب وعلم من علم الناس: - ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب (النسطوري) وما كان يرى منه؛ إذ كان الملكان يُطلّانّه. فقال ورقة: لئن كان هذا حقاً - يا خديجة! - إنّ محمداً لنبيُّ هذه الأمة؛ قد عرفت أنّه كائن لهذه الأمة نبيٌّ يُنتظر هذا زمانه؛ أو كما قال. فجعل ورقة يستبطن الأمر ويقول: حتى متى؟ فكان - فيما يذكرون - يقول أشعاراً يستبطن فيها خبر خديجة ويستترئ ما ذكرت له»<sup>(2)</sup>.

### من هو ورقة بن نوفل؟

هو: ورقة بن نوفل، بن أسد، بن عبد العزى. وأمّه هند بنت أبي بكر، مُنْهَب بن عبد، ابن قُصيٍّ. وأخته أم قتال، رفيقة بنت نوفل. وقد تقدّم ذكرها ضمن حديثنا عن زواج عبدالله بن عبد المطلب. وورقة - هذا - قد تنصّر في الجاهلية وتنصّل من عبادة الأوثان. ويقال: إنه أسلم قبل البعثة. قال عبد الرحمن السّهيلي: «... وهو (أي: ورقة بن نوفل) أحد من آمن بالنبيّ - - صلى

(1) «من قَصَب»: من لؤلؤ مُجوّف، هكذا فسّره عبد الملك بن هشام.

(2) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 94.

الله عليه وسلم!- قبل البعث»<sup>(1)</sup>. واستدل السهيليّ على إسلام ورقة بما رواه الترمذيّ وغيره: أن النبيّ - صلى الله عليه وسلم!- رأى ورقة بن نوفل في المنام، وعليه ثياب بيض<sup>(2)</sup>؛ ولكن هذا الخبر وما في معناه، قد ضعفه المحققون من الرواة، بل ضعفه السهيليّ. ويقال: إن ورقة كان يذكر الله في سفره في الجاهليّة ويسبّحه. ومات - رحمه الله!- ولا عقب له. وسنعود إلى الحديث عنه عند ابتداء نزول الوحي؛ إن شاء الله.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن صدق محمد - صلى الله عليه وسلم!- تجلّى للناس قبل نبوّته في عمليّن اثنين: عمل رعيّ الغنم وحفظها، وعمل تجارته لخديجة وحفظ مالها وإيمائه بما لم يكن لها في الحُسبان. وشرف هاتين المهنتين هو الذي جعله يفتخر بهما بعد نبوّته، فيقول في الرعيّ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»<sup>(3)</sup>. ويُجيب من سأله: وأنت؟ فيقول: «نعم، كنت أُرعاها على قراريط لأهل مكّة»<sup>(1)</sup>. ويقول في التجارة: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيّين والصديقين والشهداء»<sup>(4)</sup>.

**العبرة الثانية:** أن اكتساب رزقه قبل نبوّته لم يكن إلا من عمل الرعيّ والتجارة. فكان بعد نبوّته يمدح جسارة التاجر وإقدامه في البيع والشراء، ويذمّ جنبه فيهما، فيقول: «التاجر الجبان محروم، والتاجر الجسور مرزوق»<sup>(5)</sup>.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن زواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- بخديجة كان بالوليّ، والصدّاق، والإشهاد؛ حسبما جرت به عادة العرب في الجاهليّة. وقد أقرّ الإسلام هذه العادة المحمودّة شرعاً وعقلاً، وجعلها من أركان النكاح المشروطة في صحّته. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: «لا نكاح إلا بوليّ، وشاهدين، ومهر؛ ما قلّ أو كثر»<sup>(6)</sup>. وفي رواية: «البغايا

(1) الروض الأنف. ج 2 ص 248، 249.

(2) نصّ الحديث في صحيح الترمذيّ، «عن الزهريّ، عن عروة، عن عائشة» تحت رقم (2390).

(3) رواه البخاريّ، عن أبي هريرة.

(4) رواه الحاكم والترمذيّ عن أبي سعيد الخدريّ.

(5) رواه القضاعيّ في مسند الشهاب، عن أنس بن مالك.

(6) رواه الطبرانيّ في الكبير، عن عبدالله بن عباس.

اللّاتِي يُزَوِّجْنَ أَنْفُسَهُنَّ؛ لَا يَجُوزُ نِكَاحُ إِلَّا بُولِيَّ وَشَاهِدَيْنِ وَمَهْرٍ: مَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ»<sup>(1)</sup>. وقال عبد الله بن أبي زيد القيروانيّ في رسالته المشهورة: «لَا نِكَاحُ إِلَّا بُولِيَّ، وَصَدَاقٌ، وَشَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ». وفي الموضوع استثناءات ضرورية مستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله؛ مفصّل حكمها في كتب فروع الفقه الإسلاميّ.

**الحكم الثاني:** أنّ تجارة المضاربة<sup>(2)</sup> كانت سارية المفعول في الجاهليّة، وهي بادية المعالم في استئجار خديجة تجّارها، ومن بينهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقد أقرّ الإسلام تجارة المضاربة، فأفرد لها الفقه الإسلاميّ فصلاً في باب الإجارة.

### مشاركة رسول الله في إعادة بناء الكعبة

فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - خمساً وثلاثين سنة، بدا لقريش أن يهدموا جدران الكعبة، التي كان رسم ارتفاعها فوق قامة الإنسان؛ أي: لا يتجاوز طولها. منذ عهد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام! - تسعة أذرع، وكانت بدون تسقيف، ثم أرادوا إعادة بناء جدرانها ورفعها أكثر ممّا كانت عليه وتسقيفها أيضاً. والسبب في ذلك ما أصاب رسم الكعبة على مرّ السنين: من العوادي التي أثرت في شكل رسمها، وصدعت جدرانها. ومن هذه العوادي «سَيْلَ عَرَمٍ»<sup>(3)</sup>، الذي جرف مكّة قُبَيْلَ مبعث محمد رسول الله؛ صلى الله عليه وسلم! وقد شارك رسول الله في إعادة بناء الكعبة؛ فكان ينقل إليها الحجارة على كتفيه وهما عاريتان؛ لا يقيهما شيء من الحجارة، فقال له عمّه العباس بن عبد المطلب: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة. فلما فعل ما أمره به عمّه، سقط مغشياً عليه. روى الإمام البخاريّ، عن جابر بن عبد الله: أنّه قال: «لَمَّا بُنِيَتِ الكعبة، ذهب النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وعبّاس ينقلان الحجارة، فقال عبّاس للنّبيّ - صلى الله عليه وسلم! -: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، ففعل فخرّ إلى الأرض وطمحت<sup>(4)</sup> عيناه إلى السّماء، ثم أفاق فقال: «إزاري! إزاري!». فشدّ عليه إزاره.

(1) رواه الطبرانيّ في الأوسط، عن عبد الله بن عباس.

(2) المضاربة: هي: عقد شركة في الرّبح بمال من شخص وعمل من آخر؛ وهي: إيداع - أولاً - وتوكيل عند عمله، وشركة إن ربح.

(3) «عرم»: واد ينحدر من ينبع.

(4) «وطمحت»: وارتفعت.

وفيما رواه البخاري أيضاً من حديث أبي طفيل: «فيما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينقل الحجارة معهم، إذ انكشفت عورته، فنودي: يا محمد! غطّ عورتك! فذلك في أوّل ما نودي، فما رُئيت له عورة قبل ولا بعد». وفي أثناء بناء الكعبة، وقع خلاف بين قبائل قريش فيمن هي أحق في وضع الحجر الأسود في موضعه، وكادت الحرب تشتعل بينهم؛ لولا أن قيّض الله نبيّه لفكّ اختلافهم، فجمع كلمتهم ووحد آراءهم، وأرشدهم إلى ما به غَدُوا راضين، وإلى حكمه هم قابلون. قال محمد بن إسحاق: «ثمّ جمعت القبائل من قريش الحجارة لبنائها (أي: الكعبة)؛ كل قبيلة تجمع على حديثها، ثم بنوا حتى بلغ البناء موضع الركن، فاخصموا في رفع الركن؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه دون الأخرى. فقالت كل قبيلة: نحن نرفعه، حتى تحازبوا وتحالفوا، وأعدّوا القتال. فقرّب بنو عبد الدار جفنة فملؤوها دماً، ثم تحالفوا - هم - وبنو عديّ بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم في تلك الجفنة فغمسوها في الدّم. . . . فمكثت قريش أربع ليال أو خمساً بعضهم من بعض. ثم إنّهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا. فزعم بعض أهل العلم والرواية: أن أبا أُمَيمة - وكان كبيراً وسيّداً أهل قريش كلّها - قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل من يدخل عليكم من باب المسجد. فلمّا توافقوا على ذلك ورضوا به، دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فلما رأوه قالوا: هذا «الأمين»، قد رضينا بما قضى بيننا. فلمّا انتهى إليهم، أخبروه الخبر. قال: «هلمّوا ثوباً» فأتوه به، فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الركن فيه بيديه. ثم قال: «لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثوب، ثمّ ارفعوا جميعاً»، فرفعوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيديه في موضعه، ثمّ بنى عليه. فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُسمّى في الجاهليّة «الأمين»؛ قبل أن يوحى إليه، وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة، ونزل عليه الوحي بعد بناء الكعبة بخمسة سنين، وهو ابن أربعين سنة. وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة بعد نزول الوحي، ثم هاجر إلى المدينة<sup>(1)</sup>. وقال عبد الملك بن هشام: «وكانت الكعبة في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تُكسّى القباطي<sup>(2)</sup> ثمّ كُسيّت البرود. وأوّل من كساها الديباج الحجّاج بن يوسف<sup>(3)</sup>».

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 86، 87، 88.

(2) «القباطي»: جمع قبطية: ثياب من كتان بيض رقاق، نسبة إلى القبط على غير قياس، كان نسجها بمصر.

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 2 ص 264.



## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** قال محمد بن إسحاق : «وكانت حية تخرج من بئر الكعبة ، التي كان يطرح فيها مما يهدى لها كل يوم ، فتشرق على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ؛ وذلك أنهم زعموا : قلّ ما كان يتقرّب من بئر الكعبة أحد ؛ إلاّ احزألت<sup>(1)</sup> ، وفتحت فاهها ، فكانوا يهابونها . وبينما هي يوماً تشرق على جدار الكعبة ؛ كما كانت تصنع ، بعث الله عزّ وجلّ عليها طائراً ، لا يدرون ما هو ، فاختطفها من مشرقها فذهب بها . فقالت قريش : إنّنا نرجو أن يكون الله عزّ وجلّ قد رضي ما أردنا»<sup>(2)</sup> .

**العبرة الثانية :** قال محمد بن إسحاق : «حدّث أن قريشاً وجدوا في الركن - أو في بعض المقام - كتاباً بالسريانية ، لم يدروا ما هو ؟ حتى قرأه عليهم رجل من يهود : «أنا الله ذوبكة»<sup>(3)</sup> ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك ، حنفاء ، لا يزولون حتى تزول أخشباها»<sup>(4)</sup> ، مبارك لأهلها في الماء واللبن .

**العبرة الثالثة :** عن سعيد بن حرب قال : شهدت عبدالله بن الزبير وهو يقلع القواعد التي أسّس إبراهيم - صلى الله عليه وسلم !- لبناء البيت ، فإذا على تربة صفراء عند الخطيم ، فقال ابن الزبير : هذا قبر إسماعيل - عليه السلام !- فوداه .

**العبرة الرابعة :** قال إسماعيل بن كثير : عن عبدالله بن بشر الزهري - يرفع الحديث إلى النبي - صلى الله عليه وسلم !- قال : وجد في المقام ثلاثة أصفح ؛ في الصفح الأول : «إنني أنا الله ذوبكة صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وباركت لأهلها في اللحم واللبن . وفي الصفح الثاني : «إنّي أنا الله ذوبكة ، خلقت الرّجيم وشققت لها من اسمي ؛ فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتّه» . وفي الصفح الثالث : «إنّي أنا الله ذوبكة ، خلقت الخير والشرّ وقدرتهما ؛ فطوبى لمن أجريت الخير على يديه ، وويل لمن أجريت الشرّ على يديه»<sup>(5)</sup> .

(1) «احزألت» : رفعت ذنبها .

(2) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 84 ، 85 ، 86 .

(3) «بكّة» : مكّة .

(4) «أخشباها» : جبلان مضافان إلى بكّة ، مفردهما أخشب .

(5) البداية والنهاية . ج 2 ص 303 .

**العبرة الخامسة :** أن أشراف قريش ووجهاءها قد أذعنوا لمحمد، وهو أصغرهم سنّاً وأقلّهم مالاً وتجربةً، ورضوا عن طيب نفس بحكمه بينهم فيما هم مختلفون رغم ما هم عليه؛ من نخوة الجاهلية وعزة العصبية واستنكاف القبليّة! وحكم محمد بينهم ما هو سوى إلهام الله إياه إلى ما به صرّم جبل التعصّب، وأذهب نزعات الاختلاف ونزغات العناد. وكيف لا، وهو دعوة النبي إبراهيم بقوله - حينما بنى الكعبة المشرفة -: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(1)</sup>.

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن قطع يد السارق كان في الجاهلية شرعاً معمولاً به، بدليل أن قريشاً قطعت يد دُوَيْك الذي وُجِدَ عنده الكنز المسروق من الكعبة. قال محمد بن إسحاق: «... وذلك أن نفراً من قريش سرقوا كنز الكعبة، وكان يكون في بئر جوف الكعبة، وكان الذي وُجِدَ عنده الكنز دُوَيْكُ مولى لبني مُلَيْح بن عَمْرٍو، من خزاعة، فقطعت قريش يده من بينهم».

**الحكم الثاني :** أن مهر الزانية، وبيع الرّبا وظلم النّاس، هي من المحرمات على عباد الله في الجاهلية. قال محمد بن إسحاق: «وأبو وَهَب عامر بن عائذ، هو الذي أخذ من الكعبة حجراً حين أرادت قريش هدمها، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال عند ذلك: يا معشر قريش لا تدخلوا فيها من كسبكم إلا طيباً؛ لا تدخلوا مهرَ بغيٍّ، ولا يبيع ربا، ولا مظلمة لأحد من النّاس»<sup>(2)</sup>. قال عبد الرحمن السّهيليّ شارحاً لقول محمد بن إسحاق: «وقوله: ولا يبيع ربا يدلّ على أن الرّبا كان محرماً عليهم في الجاهلية؛ كما كان الظلم، والبغاء: وهو الزّنا، محرماً عليهم، يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع إبراهيم؛ عليه السّلام! كما كان باقياً فيهم الحجّ والعمرة، وشيء من أحكام الطلاق، والعتق، وغير ذلك. وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾<sup>(3)</sup> دليل على تقدّم التحريم»<sup>(4)</sup>.

(1) سورة «البقرة». الآية 129.

(2) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 83، 84.

(3) سورة «البقرة». الآية 275.

(4) الروض الأنف. ج 2 ص 280.

## بشائر مبعثه عليه الصّلاة والسلام

إنّ بشائر النبوّة المحمّدية من لدن الله لكثيرة أنواعها . وقد شاء الله أن تكون هذه البشائر مكتوبة مقروءة في الكتب المنزلة على أنبيائه ؛ كما شاء أن يقيها وثيقة إلهية على مرّ الدهور ودليلاً ثابتاً بين الأدلّة التي لا يتطرق إليها ريب في صحّة ثبوت ما دلّت عليه . ومن تلك الكتب السماوية التي بشرت بنبوّة محمّد بن عبد الله - عليه الصّلاة والسلام !- سيّته : كتاب التوراة<sup>(1)</sup> . كتاب الإنجيل<sup>(2)</sup> . كتاب الزبور . كتاب شعيا عليه السلام ! كتاب شمعون ؛ عليه السلام ! وكتاب حزقييل ؛ عليه السلام ! ولا يخفى على كلّ باحث من المسلمين أنّ اليهود والنصارى قد حرّفوا وبدّلوا وغيّروا وحذفوا ما هو صريح في الدلالة على ذكر محمد ونبوّته . ورغم ذلك كلّه ، فإنّهم اتّفقوا على أشياء وترجموا عنها بالعربية ما يدلّ على نبوّة محمّد - صلى الله عليه وسلم !- استنباطاً واستخراجاً .

### التوراة

لقد ورد في كتاب التوراة ما هو صريح بمحمد ونبوّته . جاء فيها : جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير<sup>(3)</sup> ، واستعلن من فاران<sup>(4)</sup> ، ومجيئه من سيناء تكليمه لموسى ، وإشراقه من ساعير ، إنزاله الإنجيل على عيسى . وبالقرب من هذه الجبال قرية الناصرة ؛ حيث وُلد عيسى - عليه السلام !- واستعلن من جبال فاران إنزاله القرآن على محمّد - صلى الله عليه وسلم !- . ويقول ابن ظفر : قرأت في ترجمة للتوراة خطاباً لموسى - عليه السلام !- جاء فيه : «والله ربّك مُقيم نبياً من إخوتك ، فاستمع له كالذي سمعت ربّك في حوريت يوم الاجتماع» حين قلت : لا أعود أسمع موت الله ربّي لثلاً أموت ، فقال الله لي : نعم ما قالوا ، وسأقيم نبياً مثلك من إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ، فيقول لهم كلّ شيء أمره به ، وأيّما رجل لم يُطع من تكلم باسمي ، فإنّي أنتقم منه . فيرى ابن ظفر في ذلك دليلاً على نبوّة محمّد - صلى الله عليه وسلم !- فقلّبه : «إخوتهم» إشارة إلى أنّ موسى وقومه من بني إسحاق ، وإخوتهم بنو إسماعيل ، ومحمّد من أبناء إسماعيل . وقوله : «وأجعل كلامي في فمه» واضح في أنّ المقصود به محمد - صلى الله عليه وسلم !- لأنّ معناه : أنّ الله يوحى إليه بكلامه فينطق به ؛ أي : يوحى إليه بالقرآن الكريم فينطق به .

(1) «التوراة» : المعبر عنها بـ «العهد القديم» .

(2) «الإنجيل» : المعبر عنه بـ «العهد الجديد» .

(3) «ساعير» : جبال فلسطين .

(4) «فاران» : جبال مكّة .

وأما ما ورد في الإنجيل واتفقوا على ما تضمنه من التبشير بمحمد ونبوته، وارتضوا ترجمته، فهو ما يلي: منه قول عيسى - عليه السلام -: «إن أحببتوني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكُم بارقُليط<sup>(1)</sup> آخر، يكون معكم الدهر كله». وفي هذا القول تصريح بأن الله تعالى سيبعث للبشر بعد عيسى مَنْ يقوم مقامه ويحلّ محلّه في تبليغ رسالة ربّه وسياسة خلقه، وتكون شريعته باقية مخلّدة أبد الدهر ويكون، - هو - خاتم الأنبياء والمرسلين ولم يأت بعد عيسى - من الرّسل سوى محمد بن عبد الله؛ عليه الصّلاة والسّلام! ومنه قوله: «إنّ هذا القول الذي سمعتموه ليس هو لي؛ بل للأب الذي أرسلني أكلمكم بهذا وأنا معكم. فأما البارقُليط: روح القدس الذي يرسل أبي باسمي، فهو يُعلّمكم كلّ شيء، ويذكّركم جميع ما أقول لكم». ويرى ابن ظفر أنّ كلمة «أبي» مبدّلة ومحرفّة؛ وإن كانت غير منكّرة الاستعمال عند أهل الكتابين: (التّوارة، والإنجيل) إشارة إلى الربّ سبحانه، فهي عندهم لفظة تعظيم، يخاطب بها المتعلّم معلمه. ومن المشهور مخاطبة النّصارى عظماء دينهم بالأبَاء الرّوحانيّة. وأمّا قوله: «يُرسله باسمي»، فهو إشارة إلى شهادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لعيسى - عليه السلام! - بالصدق والرسالة وما تضمنه القرآن الكريم: منه مدحه وتنزيهه عمّا افتراه اليهود في أمره<sup>(2)</sup>. ومّا ارتضوا ترجمته من الإنجيل قول عيسى - عليه السّلام! - «إذ قال البارقُليط الذي أرسل إليكم من عند أبي روح الحقّ الذي يخرج من الأب، فهو يشهد لي، وأنتم تشهدون لي أيضاً لِكَيْتُوتَنَكم معي من أوّل أمري». فقوله: «روح الحقّ الذي يخرج من الأب»: كناية عن كلام الله المنزّل على الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم! - قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾<sup>(3)</sup>. وقوله: «يشهد لي»: تصريح بنبوّة محمد - صلى الله عليه وسلم! - إذ لم يشهد للمسيح بالنبوّة وبالتّزاها عمّا افترى عليه سوى القرآن. وما تزال الأمم تكذب المتّبعين للمسيح. واليهود يفترون العظائم من البهتان؛ حتى بعث الله محمّداً - صلى الله عليه وسلم! - فشهد للمسيح ممّا شهد به حواريوه الذين كانوا معه من أوّل أمره والمهتدون من أمّته. وفي ترجمة أخرى للإنجيل قوله: «البارقُليط لا يجيئكم ما لم أذهب؛ فإذا جاء وبخّ العالم على الخطيئة، ولا

(1) «البارقُليط»: الحكيم صاحب السرّ الربانيّ. والمراد به هنا: محمد بن عبد الله؛ عليه الصّلاة والسّلام!

(2) خير الدين، عبد العزيز. السيرة العطرة. ص 125؛ نقلاً عن نهاية الأرب. ج 17 ص 110.

(3) سورة «الشورى». الآية 52.

يقول من تلقاء نفسه ؛ ولكنّه يسمع ما يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب» . ومحمد رسول الله هو الذي ويخ العلماء من أهل الكتاب على كتمانهم للحق وتحريف الكلم عن مواضعه ، ويبيع الدين بالثمن البخس من عرض الدنيا ، وهو - صلى الله عليه وسلم !- الذي أخبر بالحوادث والغيوب . ومعنى «البارقليط» - فيما صحّ لدى ابن ظفر - أنه : الحكيم الذي يعرف السرّ . وفيما تقدم من حديث ما يدل على أنه محمد رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم !<sup>(1)</sup> .

## الزبور

وأما ما جاء في الزبور على لسان داود - عليه السلام !- فمنه قوله : «اللهم اجعل جاعد السنّة يحيا ، يُعلم النَّاس أنه بشر» . ومفهوم هذا أنّ الله تعالى أطلع داود - عليه السلام !- على ما يقول التّصاري في المسيح ، إذا أرسله ، من أنه إله معبود ، فدعا الله سبحانه وتعالى بأن يبعث محمداً - صلى الله عليه وسلم !- فيعلمهم أنّ المسيح بشر . ومنه قوله : «إنّه فاضت الرحمة على شفتيك ، من أجل ذلك أبارك عليك إلى الأبد ، فتقلّد السّيف ، فإنّ بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق ، فإنّ ناموسك وشرائعك مقرونة بهيئة يمينك ، والأمم يخروّن تحتك» . فالذي قرنت شريعته بهيئة يمينه وخرّت الأمم تحته ، هو محمد - صلى الله عليه وسلم !- . ولئن كان ما قدّمنا واضحاً كلّ الوضوح في معنى التنبؤ برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم !- إلّا أنّ العبارة التالية من الزبور تدلّ دلالة قاطعة على أنّ المقصود بهذه البشائر إنّما هو محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ ذلك أنّ الزبور ذكر رجلاً فقال : «فإذا جاز من البحر إلى البحر ، ومن عند الأنهار إلى منقطع البرّ ، وخرّ أهل الجزائر قدّامه على وجوههم ورُكبهم ولحس أعداؤه التراب لهيبته ، وجاءته الملوك بالقرايين ، ودانت له الأمم بالطاعة ، لأنّه يُخلّص الضعيف والمغلوب البائس ممن هو أقوى منه ، ويقوّي الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرحم المسكين ، ويصّلّي ويبارك عليه في كلّ وقت ، ويدوم ذكره إلى الأبد»<sup>(3)</sup> .

(1) ابن ظفر . خير البشر ص 19 - النوري : نهاية الأرب . ج 17 ص 111 . - خير الدين عبد العزيز . السيرة

العطرة . ص 131 .

(2) المصادر السابقة .

(3) المصادر السابقة .

## كتاب شعياء

وأما ما جاء في كتاب شعياء فمنه قوله : «عبدى الذى سرت به نفسى ، أنزل عليه وحيي ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور والأذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطي أحداً . مُشَقَّح يحمد الله حمداً جديداً ، يأتي من أقصى الأرض ، تفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكررونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل إلى الهوى ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبه الضعيفه ؛ بل يقوى الصديقين ، وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، على كتفيه علامة النبوة» . فهذا كله صريح فى البشارة بمحمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مضافاً إلى ذلك ما فيه من ذكر قيام دولة العرب فى قوله : «تفرح البرية وسكانها» . وأما قوله : «مُشَقَّح» فهو محمد ، لأن الشقح فى لغتهم معناه : الحمد<sup>(1)</sup> .

## كتاب شمعون

وأما ما جاء فى كتاب شمعون ، فمنه قوله : «جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلات السموات والأرض من تسبيحه وتسييح أمته» . وقد تقدم أن جبال فاران هي جبال مكة ، ومجيء الله هو مجيء كتابه .

## كتاب حزقييل

وأما ما جاء فى كتاب حزقييل ، فمنه القصة التى ذكر فيها ظهور اليهود وعزتهم وكفرانهم بنعم الله عليهم ، فشبَّههم فيها بالكُرمة فقال : «لم تلبث تلك الكُرمة أن قُطعت بالسَّخطة ، ورُمي بها على الأرض فأحرقت السَّمائم آثارها ؛ فعند ذلك غرس غرس فى البدو وفى الأرض المهملة العطشى ، فخرجت من أغصانها الفاضلة نار ، فأكلت تلك الكُرمة حتى لم يبق يوجد فيها قضيب» . فلا شك أن «أرض البدو المهملة العطشى» هي أرض العرب ، وأن غرس الله الذى غرسه فيها ، هو محمد - صلى الله عليه وسلم !- وقد أخزى الله به اليهود<sup>(2)</sup> .

(1) المصادر السابقة .

(2) المصادر السابقة .

## بعضُ ما تحدّث به رُهبان النصارى وأخبار اليهود

ورغم ما بدّل اليهود والنصارى من علماء أهل الكتاب في كتابهم ، وغيرُوا وحرّفوا وجوّرُوا وحذفوا وكتَمُوا ما فيها وعملوا ما في وسعهم على نكران نبوة محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام -! فإنّ بعضهم قد ارتضوا أن يصرّحوا بما هو حق مبین رغم نكران الكافرين الجاحدين ومن هؤلاء البعض الذين هداهم إلى هُدهاء ، فأسلموا وحسّن إسلامهم ، وهم : وهَب بن مَنبّه ، وكُعب الأُخبار ، وأبو ثعلبة بن أبي مالك ، وغيرهم . وقد تقدّم لنا أن أوردنا ما أوردناه ضمنّ الإِرهاصات التي سبق ذكرها فيما يخصّ الإعلان بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -! على ألسنة مَنْ هم بذلك متيقّنون : كسيف بن ذي يزن ، والراهب بحيرا ، والراهب نسطور ؛ ومع ذلك فقد بدا لنا أن نسرد بعض النصوص الواردة عن الثقات من العلماء الموثوق بهم في هذا الموضوع . قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق - : «وكانت الأخبار من اليهود والكهّان من النصارى ومن العرب ، قد تحدّثوا بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبعثه ، لما تقارب زمانه . أمّا الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى ، فمما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾<sup>(1)</sup> . وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾<sup>(2)</sup> . وقال الله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾<sup>(3)</sup> . وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾<sup>(4)</sup> قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾<sup>(4)</sup> . وفي صحيح البخاري ، عن ابن عباس قال : «ما

(1) سورة «الأعراف» . الآية 157 .

(2) سورة «الصف» . الآية 6 .

(3) سورة «الفتح» . الآية 29 .

(4) سورة «آل عمران» . الآية 81 .

بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق : لئن بُعث محمدٌ ، وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ، ولينصرنَّه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق : لئن بُعث محمدٌ ، وهم أحياء ليؤمننَّ به ولينصرنَّه وليتبعنَّه»<sup>(1)</sup> . وقد قال إبراهيم - عليه السلام !- : دعاءه لأهل مكة : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ ﴾<sup>(2)</sup> .

ولا أودّ أن أرخي عنان القلم في إطناب الحديث عن غرائب البشائر النبويّة ، لأمرين اثنين :  
أحدهما : الإطناب في ذلك يحيد بنا عن هدف الموضوع المعنون به الكتاب .

ثانيهما : أنّ تلك البشائر المكتوبة والمقروءة والمسموعة أكثر من كثير ؛ وقد توسّع في نقلها بأمانة النّقل أصحاب السّير وعلماء الرواية . وقد أصاب محزّ مرادنا عليّ بن الأثير بقوله : «والأخبار عن دلائل نبوّته - عليه الصلاة والسلام !- كثيرة ، وقد صنّف العلماء في ذلك كتباً كثيرة ؛ ذكروا كلّ عجيبة ، ليس هذا موضع ذكرها»<sup>(3)</sup> .

#### اعتزاله عن الناس واختلاؤه في غار حراء<sup>(4)</sup>

لما أشرف سنُّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على الأربعين سنة ، اختار لنفسه العزلة عن قومه والابتعاد عمّا هم فيه باختلائه في غار حراء<sup>(4)</sup> ؛ حتى لا يرى ما لا يرضيه ، ولا يشغل نفسه بما يخوض فيه قومه ، وحتى يتفرّغ لِمَا خُلِقَ لأجله : فيوحّد الله في نفسه ، ويتعبّده في خلوته حتى يأتيه اليقين الذي قد أتى إخوته أنبياء الله ورسله قبله ؛ عليه وعلى جميعهم الصلاة والسلام ! وبعزلته وخلوته يكون قد احتذى واقتفى سنّة أخيه النبيّ إبراهيم الخليل - عليه السلام ! قال الله تعالى - حكاية عنه - : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾<sup>(5)</sup> . فبالعزلة اعتصم النبيّ إبراهيم وبها استظهر على قومه ؛ عند جفائهم له وخذلانهم إياه بعبادتهم الأصنام ومعاندتهم للحق المبين ، فكفاه الله أمرهم ، وعصمه من شرهم ، وأتابه على ذلك بالموهبة الجزيلة ، وعوّضه التّصرة العاجلة والذرية الصالحة . وقال الله تعالى في قصّة موسى - عليه السلام !- : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ

(1) البداية والنهاية . ج 2 ص 306 .

(2) سورة «البقرة» . الآية 129 .

(3) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 47 .

(4) «حراء» : جبل من جبال مكّة ، على ثلاثة أميال منها .

(5) سورة «مريم» . الآية : 48 ، 49 .



﴿وَإِنْ لَّمْ تُوْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ﴾<sup>(1)</sup> . لقد فرغ النبي موسى - عليه السلام - إلى العزلة ؛ حين ظهر له عناد قومه في قبول الدعوة إلى الله وإصرارهم على منابذتهم للحق . وقال عز من قائل في قصة أهل الكهف : ﴿وَإِذْ أَعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾<sup>(2)</sup> . إذ كان أهل الكهف قوماً سئموا المقام بين ظهراني أنصار الباطل ، ففرّوا من فتنة الكفر وعبادة الأوثان ، فصرف الله عنهم شر أولئك الكفرة والمشركين ، ودسّر عنهم بأسهم ، ورفع في أفواه الصالحين ذكرهم . وقوم محمد - عليه الصلاة والسلام - لا يختلفون عن قوم إبراهيم وموسى وأهل الكهف ، في الكفر والإشراك بالله وحده لا شريك له . قال إسماعيل بن كثير : «وإنما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحبّ الخلاء والانفراد عن قومه ، لمّا يراهم عليه من الضلال المبين : من عبادة الأوثان والسجود للأصنام . وقويت محبته للخلو عند مقارنة إحياء الله إليه ؛ صلوات الله وسلامه عليه»<sup>(3)</sup> . وقال محمد بن إسحاق : «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجاور في حراء من كلّ سنة شهراً . وكان ذلك ممّا تحنّث به قريش في الجاهليّة ، فكان يجاور ذلك الشهر من كلّ سنة ؛ يطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جواره من شهره ذلك ، كان أوّل ما يبدأ به ، إذا انصرف من جواره ، الكعبة ؛ قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته»<sup>(4)</sup> .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** قال محمد بن إسحاق : «حدثني عبد المالك بن عبد الله ، بن سفيان ، بن العلاء ، بن حارثة الثقفيّ - وكان واعية - عن بعض أهل العلم : أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أراد الله عز وجلّ كرامته وابتدأه بالنبوة ، وكان لا يمرّ بحجر ولا شجر إلّا سلّم عليه ؛ وسمع منه ؛ فالتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فلا يرى إلّا الشجر وما حوله من الحجارة . وهي تحييه بتحية النبوة : السلام عليك يا رسول الله !» . وقال أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل : «وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(1) سورة «الدخان» . الآية 20 ، 21 .

(2) سورة «الكهف» . الآية 16 .

(3) البداية والنهاية . ج 3 ص 5 .

(4) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 101 .

وسلم !- يرى عجائب قبل بعثته . فمن ذلك ما في صحيح مسلم ، عن جابر بن سَمُرَةَ قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «إني لأعرف حجراً بمكة<sup>(1)</sup> كان يُسلم عليّ قبل أن أُبعث ؛ إني لأعرفه الآن»<sup>(2)</sup> .

**العبرة الثانية :** أن اعتزال رسول الله عن الناس واختلاءه في غار حراء ، لم يكن منه اتباعاً أو تقليداً لما تعود عليه بعض القرشيين في الجاهلية من التحنيث ؛ وإنما كان ذلك إلهاماً من الله له ، حتى يتفرّغ للتفكير في عالم الغيب ، ويتهيأ بقلبه وقالبه لما هو راجيه من ربّه في قرار نفسه ؛ على غرار من سبقوه من أنبياء الله ورسله إلى شحذ رجاء اليقين بوسيلة العزلة والخُلوة من حين إلى حين ، تلك سنتهم الخاصة بهم .

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن اعتزال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- واختلاءه في غار حراء ، كان قبل مبعثه وقبل إرساله الله إياه إلى أمته . وما كان من فعله قبل مبعثه ، ليس هو مشروعاً لأُمته ، ولا هو أمر من لدن الله يجب امتثاله . ولم يثبت عنه - عليه الصلاة والسلام !- أنه صعد إلى غار حراء ولا اختلى فيه بعد مبعثه ونبوته : كما أنه لم يثبت عن الصحابة ولا عن الخلفاء الراشدين أنهم نزعوا إلى الخلوة بنفوسهم إلى الاعتزال عن الناس . وفيما حكاه أبو أمانة باق دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً في نيات البشر وأقوالهم وأفعالهم .

قال أبو أمانة : «خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- للجهاد ، فمرّ رجل بغار فيه شيء من ماء فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار ويصيب ما حوله من البقل ، ويتخلّى عن الدنيا ، فذكر ذلك للنبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فقال له صلى الله عليه وسلم : «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ؛ ولكن بُعثتُ بالحنيفية السمحة . والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولمقام أحدكم في الصفّ خير من صلاته ستين سنة»<sup>(3)</sup> . ومهما كان شأن الحديث عن الخلوة ، فإن الشرع لم يأمر ولم ينه عنها . وهي عند الصوفية - رضي الله عنهم !- صفة أهل الصفوة ، وأمانة من أمارات الوصلة ، وهي للمريدين في ابتداء حالهم

(1) هو الحجر الأسود .

(2) البداية والنهاية . ج 3 ص 5 .

(3) ابن الجوزي ، عبد الرحمن . تلبس إبليس . المطبعة المنيرية . ص 28 .

مشروطة بشروط مقبولة عقلاً، جائزة شرعاً. والخلوة ما هي سوى وسيلة من وسائل التفكر والتدبر. قال أبو الفضل، أحمد بن عطاء الله: «ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة». وقال أبو القاسم، عبد الكريم القشيري: «ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحقيقه بأنسه. ومن حق العبد إذا أكثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره، ولا يقصد سلامته من شر الخلق؛ فإن الأول من القسمين نتيجة استصغار نفسه، والثاني شهود مزيته على الخلق، ومن استصغر نفسه فهو متواضع، ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر. ورئي بعض الرهبان قليل له: إنك راهب؟ فقال: لا؛ بل أنا حرس كلب: إن نفسي كلب يعقر خلق الله أخرجتها من بينهم ليسلموا منها. ومن آداب العزلة أن يحصل المعتزل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده لكي لا يستهويه الشيطان بوساوسه، ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدي به فرضه، ليكون بناء أمره على أساس محكم».

**الفصل الثاني**  
**حياة رسول الله ﷺ**  
**من بدء نبوته إلى بدء هجرته**



## بدء الوحي

جاء في صحيح الإمام البخاريّ، عن أمّ المؤمنين، عائشة - رضي الله عنها !- أنّها قالت : «أول ما بُدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه؛ وهو التّعبّد اللّيلي ذوات العدد قبل أن ينزع<sup>(1)</sup> إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها؛ حتى جاءه الحق<sup>(2)</sup> وهو في غار حراء؛ فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطّني<sup>(3)</sup> حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني»، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾<sup>(4)</sup>. فرجع بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها !- فقال: «زملوني! زملوني!»<sup>(5)</sup>. فزملوه حتى ذهب عنه الروع<sup>(6)</sup>، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر -: «لقد خشيت على نفسي»! فقالت خديجة: كلا!<sup>(7)</sup> والله ما يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرّحم، وتحمل الكل<sup>(8)</sup>، وتكسب المعدوم<sup>(9)</sup>، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، بن أسد، بن عبد العزى، ابن عمّ خديجة - وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانيّ؛ فيكتب من الإنجيل بالعبرانيّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت

(1) «ينزع»: يشاق.

(2) «الحقّ»: الأمر الحق.

(3) «غطّني»: خنقني.

(4) سورة «العلق». الآية 1، 2، 3، 4.

(5) «زملوني»: لقوني.

(6) «الروع»: الفزع.

(7) «كلاً»: معناها: النفي والإبعاد.

(8) «الكل»: من لا يستقلّ بأمره.

(9) «المعدوم»: الفقير.

له خديجة: يا بن عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى؛ يا ليتني فيها جذع! أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «أَوْ مُخْرَجِيْ هُمْ»؟! فقال: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب<sup>(1)</sup> ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

### حال رسول الله إبان فترة الوحي

لقد حزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حزناً شديداً حينما احتبس نزول الوحي عليه. فكان مراراً يغدو يتسلق شواهد الجبال كي يتردى من قممها؛ ولكن الله لطف به ونجّاه ممّا هو عازم عليه. ورؤي من طريق معمر، عن الزهري أنه قال: «وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال. فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه، تبدّى له جبريل فقال: يا محمد! إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه<sup>(2)</sup> وتقرّ نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل فقال له مثل ذلك»<sup>(3)</sup>. وجاء في صحيح البخاري: «أن جابر ابن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنهما! - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو يحدث عن فترة الوحي: «قال في حديثه: «بينما أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاء بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ففرقت<sup>(4)</sup> منه فرجعت فقلت: زملوني! زملوني»<sup>(5)</sup>! فذرّوه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الّمْدِّثِرُ﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾»<sup>(6)</sup>. قال أبو سلمة (الراوي): وهي الأوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدون؛ قال: ثم تتابع الوحي».

(1) «ينشب»: يلبث.

(2) «جأشه»: نفسه، وروح القلب إذا اضطرب عند الفزع.

(3) القسطلاني، أحمد. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. بيروت المطبعة الأميرية. ج 7 ص 427.

(4) «فرقت»: فحفت.

(5) «زملوني»: لقوني.

(6) سورة «المدثر». الآية 1 - 5.

## مدّة فترة الوحي

وردت في مدّة احتباس نزول الوحي ثلاث روايات :

**الرواية الأولى :** ثلاث سنوات . وبذلك قال الإمام أحمد ، وبه جزم محمد بن إسحاق .

**الرواية الثانية :** سنتان ونصف السنة . ذكر ذلك أبو العباس أحمد القسطلاني<sup>(1)</sup> .

**الرواية الثالثة :** ستة أشهر ؛ وهي التي حكاها البيهقي ؛ ولكنه قيدها بمدّة الرؤيا . وعن

عبدالله بن عباس : أن مدّة الفترة المذكورة كانت أياماً<sup>(2)</sup> . والذي نميل إليه كلّ الميل رواية البيهقيّ المحددة بستّة أشهر . والله أعلم .

## كيف كان ينزل الوحي على رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم ؟

جاء في صحيح الإمام البخاريّ : « . . . عن عائشة أمّ المؤمنين - رضي الله عنها !- أن الحارث

ابن هشام - رضي الله عنه !- سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال : يا رسول الله ! كيف

يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ؛ وهو

أشدّه عليّ ، فيَقْصَمُ<sup>(3)</sup> عني وقد وعيتُ عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً<sup>(4)</sup> فيكلّمني فأعي

ما يقول . » قالت عائشة - رضي الله عنها !- : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد

فيَقْصَمُ ، وإنّ جبينه ليتفَصَّدُ<sup>(5)</sup> عرقاً . » قال عبد الرحمن السّهيليّ : « فعلى هذا كان نزول الوحي

عليه - صلى الله عليه وسلم !- في أحوال مختلفة . فمنها النوم ؛ كما في حديث ابن إسحاق<sup>(6)</sup> ،

وكما قالت عائشة أيضاً : « أوّل ما بُدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- الرؤيا الصادقة »<sup>(7)</sup> .

وقد قال إبراهيم - عليه السّلام !- : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾<sup>(8)</sup> .

فقال له ابنه : ﴿ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ فدلّ على أنّ الوحي كان يأتيهم في المنام ؛ كما يأتيهم في اليقظة .

(1) إرشاد الساري ، لشرح البخاريّ . ج 1 ص 67 .

(2) ابن حجر ، أحمد العسقلانيّ . فتح الباري . ج 1 ص 23 .

(3) فينقطع

(4) « رجلاً » : مثل رحيّة بن خليفة الكلبيّ .

(5) « ليتفصد » : ليسيل عرقاً .

(6) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 101 .

(7) رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما .

(8) سورة « الصافات » . الآية 102 .



ومنها: أن يُنفث في رُوعه الكلامُ نفثاً؛ كما قال عليه الصّلاة والسلام: «إنّ روح القدس<sup>(1)</sup> نفث في رُوعي أنّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب»<sup>(2)</sup>. وقال مجاهد وأكثر المفسّرين في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا﴾<sup>(3)</sup>. قال: هو أن ينفث في رُوعه بالوحي. ومنها: أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس؛ وهو أشدّ عليه. وقيل: إنّ ذلك ليستجمع قلبه عند تلك الصّلصلة فيكون أوعى لما يستمع وألقن لما يُلقَى. ومنها: أن يتمثل الملك رجلاً؛ فقد كان يأتيه في صورة دحية بن خليفة، ويُرَوَّى أنّ دحية إذا قدم المدينة، لم تبقْ مُعَصْرٌ<sup>(4)</sup> إلّا خرجت تنظر إليه لفرط جماله. وقال ابن سلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تَحِيْرَةً أَوْ هَوًّْا﴾<sup>(5)</sup>. قال: كان اللهوُ يُنظرهم إلى دحية لجماله. ومنها: أن يترأى له جبريل في صورته التي خلقه الله فيها؛ له ستمائة جناح، يُنشر منها اللؤلؤ والياقوت. ومنها: أن يكلمه الله من وراء حجاب؛ إمّا في اليقظة؛ كما كَلَّمه في ليلة الإسراء، وإمّا في النوم؛ كما قال في حديث مُعَاذٍ الذي رواه الترمذي<sup>(6)</sup>. فهذه ستة أحوال<sup>(7)</sup>.

### كيف كانت حالاته عند نزول الوحي عليه؟

كان رسول الله - عليه الصلاة والسلام! - تعتربه عدّة حالات بشرية، مختلفة من تأثير الوحي في نفسه.

**منها:** أنّه كان يشتدّ حرارة في اليوم الشديد البرد؛ حتى يغمره العرق. قالت عائشة أمّ المؤمنين في حديث الإفك: «فوالله ما رام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه (الوحي)، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء»<sup>(8)</sup>؛ حتى إنّ كان يتحدّر منه مثل الجمان من العرق - وهو في يوم شات - من ثقل الوحي الذي نزل عليه.

(1) «القدس»: الطهر. وروح القدس: جبريل؛ عليه السلام!

(2) رواه أبو نعيم في الحلية، عن أبي أمامة.

(3) سورة «الشورى». الآية 51.

(4) «معصر»: المرأة إذا أدركت وبلغت شبابها.

(5) سورة «الجمعة». الآية 11.

(6) «الترمذي»: وغيره، عن عبد الله بن عباس، أوله: «أتاني ربي في أحسن صورة فقال...».

(7) الرّوض الأنف. ج 2.

(8) «البرحاء»: الشدة. ومن ذلك برحاء الحمي، أي شدتها.

**ومنها :** أنّه كان يُسمَع عند نزوله دويّ كدويّ النحل . عن عُروّة بن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : «سمعت عمر بن الخطّاب يقول : كان إذا أنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- الوحي يُسمَع عند وجهه دويّ كدويّ النحل»<sup>(1)</sup> .

**ومنها :** أنّه يعترّيه الكرب ويتغيّر وجهه بلون العبوس . عن عبادة بن الصامت أنّه قال : «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إذا أنزل عليه الوحي كَرَبَهُ ذلك وتربّد وجهه ، وكُنّا نعرف ذلك منه»<sup>(2)</sup> .

**ومنها :** أنّه كان يزداد جسمه ثَقَلًا عند نزول الوحي عليه . قال زيد بن ثابت : «كانت فَخْذُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على فخذي وأنا أكتب ، فلمّا نزل الوحي كادت فخذه ترَضّ فخذي»<sup>(3)</sup> .

**ومنها :** أنّه يحمرّ وجهه ويغطّ . عن عطاء بن يعلى بن أمية قال : «قال لي عمر : أيسرّك أن تنظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو يُوحى إليه ؟ فوقع طرف الثوب عن وجهه وهو يوحى إليه بـ «الجعرانة»<sup>(4)</sup> ، فإذا هو يحمرّ وجهه ، وهو يغطّ<sup>(5)</sup> كما يغطّ البكر»<sup>(6)</sup> .

**ومنها :** أن الوحي لم يفقده إحساسه بالكلية ؛ فقد ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أمّ المؤمنين : «لما نزل الحجاب وأنّ سودة (زوجة الرسول) خرجت ليلاً ، فقال عمر : قد عرفناك يا سودة ! فرجعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فسألته وهو جالس يتعشى والعرق<sup>(7)</sup> في يده ، فأوحى الله إليه والعرق في يده ، ثمّ رفع رأسه فقال : «إنّه قد أذن لكنّ أن تخرجن لحاجتك» فدلّ هذا على أنّه لم يكن الوحي يُغيّب عنه إحساسه بالكلية ، بدليل أنّه جالس ولم يسقط العرق أيضاً من يده ؛ صلوات الله وسلامه دائماً عليه»<sup>(8)</sup> .

---

(1) رواية الإمام أحمد ، والترمذي ، والسائي .

(2) رواه مسلم .

(3) رواه البخاريّ ومسلم .

(4) «الجعرانة» : منزل بين الطائف ومكّة ، وهي إلى مكّة أقرب .

(5) «يغطّ» : يردّد النفس في خياشمه .

(6) رواه مسلم .

(7) «العرق» : العظم الذي بقي عليه قليل من اللحم .

(8) ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 2 ص 23 .

**ومنها :** أنه كان إذا نزل عليه الوحي أمسك عن الكلام ولم يكلمه أحد من أصحابه . عن عكرمة ، عن عبدالله بن عباس أنه قال : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إذا أنزل عليه الوحي تربّد لذلك جسده ووجهه ، وأمسك عن أصحابه ولم يكلمه أحد منهم »<sup>(1)</sup> .

**ومنها :** أنه كلما ينزل عليه الوحي إلاّ ظنّ أنّ نفسه تفيظ منه . عن عبدالله بن عمرو بن العاص قلت : يا رسول الله هل تُحسُّ بالوحي ؟ قال : « نعم ، أسمع صلاصل ، ثمّ أثبتُ عند ذلك ، وما من مرة يوحى إليّ إلاّ ظننت أنّ نفسي تفيظ منه »<sup>(2)</sup> . هذه بعض العيّنات من الحالات النفسية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عند نزول الوحي عليه .

### **زمانُ ابتداء نزول الوحي على رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم !**

لقد اتفق أصحاب السير النبوية ورواة الأحاديث المحمدية وعلماء التفاسير القرآنية : أنّ ابتداء نزول الوحي القرآنيّ كان في شهر رمضان الفضيل . قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق : « فابتدئ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بالتنزيل في شهر رمضان . يقول الله عز وجلّ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾<sup>(3)</sup> . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾<sup>(4)</sup> وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾<sup>(5)</sup> تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾<sup>(6)</sup> سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾<sup>(7)</sup> . وقال الله تعالى : ﴿ حَمِّمْ ﴾<sup>(8)</sup> وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾<sup>(9)</sup> إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾<sup>(10)</sup> فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾<sup>(11)</sup> أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾<sup>(12)</sup> .

وقد اتفق علماء التفسير القرآنيّ ورواة الحديث النبويّ : أنّ ابتداء نزول القرآن كان في اليوم الوتر من العشر الأواخر لشهر رمضان . ثمّ تتابع نزوله في مدة ثلاث وعشرين سنة ؛ حسبما تقتضيه الوقائع والأحداث ومصالح الناس في التشريع السماويّ زماناً ومكاناً . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يوحى إليه طوال هذه المدة المباركة فيها ، إذ قد بُعث على رأس الأربعين ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة ؛ حيث أقام فيها عشر سنين ، ومات بها وهو ابن

(1) رواه أبو داود الطيالسي .

(2) رواه الإمام أحمد وغيره ، .

(3) سورة «البقرة» . الآية 185 .

(4) سورة «القدر» .

(5) سورة «الدخان» . الآية 1 - 5 .

ثلاث وستين سنة؛ بعدما ما بلغ الرسالة وأدى الأمانة آمم تبليغ وأحسن تأدية، فشمر على ساعد عزمه الصّارم، واستمسك بدعوة الإسلام الدائم عقيدة وشريعة، فدعا إليه القريب والبعيد والأحرار والعبيد، فأمن برسالته وصدق بما جاء به كل لبيب نجيب، أراد الله به أن يفوز بسعادة الإيمان ورضى الرحمن، واستمر في درب عصيان هذا الرسول الأمين ومخالفته كل جبار عنيد، أراد الله به أن يكون كافراً شقيماً. وكان أول من بادر إلى التصديق بهذا النبي زوجته خديجة بنت خويلد من حرائر النساء، ومن أحرار الرجال أبو بكر بن أبي قحافة، ومن الغلمان علي بن أبي طالب، ومن الموالي مولاه زيد بن حارثة. رضي الله عنهم أجمعين، وأرضاهم بنعيم جنّته، ويجوار أنبيائه ورسله!

### الآيات الأولى التي نزل بها الوحي

لقد تقدّم لنا أن ذكرنا رواية الإمام البخاري - فيما يخصّ بدء الوحي - عن عائشة أمّ المؤمنين: أن الآيات الأولى في النزول هي: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾<sup>(1)</sup>. وفي رواية أخرى، عن جابر بن عبد الله: أن الآيات الأولى في النزول هي: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾<sup>(2)</sup>. الآيات... قال إسماعيل بن كثير: «وقد ثبت في الصحيحين من حديث علي بن المبارك، وعند مسلم والأوزاعي كلاهما عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن: أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، فقلت: يقولون: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، فقال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: و﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾؟ قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - «إني جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادي، فنوديت فنظرت بين يدي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، فلم أر شيئاً، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو<sup>(3)</sup> على العرش في الهواء، فأخذتني رعدة (أو قال وحشة)، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾؛ حتى بلغ ﴿وَتَيَّابَكَ فَطَهَّرْ﴾»<sup>(4)</sup>.

(1) سورة «العلق». الآيات 1 - 3.

(2) سورة «المدثر». الآية 1، 2.

(3) «هو»: الملك جبريل؛ عليه السلام!

(4) البداية والنهاية ج 3 ص 17.

قال كاتب هذه السطور: وكلّ من الروايتين صحيح. فالرواية الأولى تعتبر أولى قبل فترة الوحي، والرواية الثانية تعتبر أولى بعد فترة الوحي.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن المراد بالقراءة المأمور بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. هو الأمر بتتبع ما يوحى إليه من الألفاظ والكلمات نطقاً؛ لا نظراً فيما كُتب، لأنه - عليه الصلاة والسلام! - لم تكن له معرفة بالكتابة ولا قراءة المكتوب، ولا ينبغي له ذلك؛ ما دام الله ارتضى له صفة الأمية من المهد إلى اللحد.

**العبرة الثانية:** أن الله أمر رسوله أن لا يساوي جبريل في قراءة ما جاءه به وفي تلاوة ما أنزله عليه بوساطة الروح الأمين؛ بل قد أمره أن ينصت ويستمع له حتى يفرغ من قراءة الوحي المنزل من لدن الله مُحكماً. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾<sup>(1)</sup>. وقال أيضاً: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾<sup>(2)</sup>. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾<sup>(3)</sup>. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ<sup>(4)</sup>. ف—هذه الآداب الربانية؛ كما أمر الله بها رسوله عند تنزيل الوحي عليه، أمر بها أيضاً أمته عند قراءة القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾<sup>(5)</sup>.

**العبرة الثالثة:** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد رفته عجوز من العين؛ وذلك كان قبل نبوته، فلماً نبأ ونزل عليه القرآن اكتفى به رقيةً وتعويذاً ورفض رقية العجوز الراقية. قال محمد بن إسحاق: «حدثني عبدالله بن أبي بكر، عن أبي جعفر قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - تصيبه العين بمكة، فتسرع إليه قبل أن ينزل عليه الوحي، فكانت خديجة بنت خويلد تبعث إلى عجوز بمكة ترقيه. فلماً نزل عليه القرآن، فأصابه من العين نحو مما كان يُصيبه، فقالت له خديجة: يا رسول الله! ألا أبعث إلى تلك العجوز ترقيق؟ فقال: «أما الآن فلا»<sup>(6)</sup>.

**العبرة الرابعة:** أن إقدام خديجة زوجة الرسول على نزع خمارها وتكشفها، جعل رؤية الرسول لجبريل تختفي؛ بعد أن كان يراه بالعين المجردة قال محمد بن إسحاق: «حدثني إسماعيل بن

(1) سورة «طه». الآية. 114.

(2) سورة «القيامة». الآية 16.

(3) سورة «الأعراف». الآية 204.

(4) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 104.

أبي حكيم مولى الزبير أنه حَدَّثَ عن خديجة بنت خويلد أنها قالت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما تثبته به فيما أكرمه الله به من نبوته : يا بن عم ! هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك (جبريل) هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال : «نعم» . فقالت : إذا جاءك فأخبرني . فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندها يوماً إذ جاءه جبريل ، فرآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : «يا خديجة ! هذا جبريل قد جاءني» . قالت : أترأه الآن؟ فقال : «نعم» ، قالت : اجلس إلى شقي الأيسر ، فجلس ، فقالت : هل تراه الآن؟ قال : «نعم» . قالت فاجلس إلى شقي الأيمن ، فتحول فجلس ، فقالت : هل تراه الآن؟ قال : «نعم» . قالت : فتحول فاجلس في حجرني ، فتحول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس . فقالت : هل تراه الآن؟ فقال : «نعم» . فَتَحَسَّرَتْ فَأَلْقَتْ خمارها ؛ ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس في حجرها ، فقالت هل تراه الآن؟ قال : «لا» ، قالت : ما هذا الشيطان ؛ إن هذا الملك يا بن عم ! فاثبت وأبشر ، ثم آمنت به وشهدت أن الذي جاء به الحق»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الخامسة :** أن شدة حب الرسول لمكة مسقط رأسه ، جعله يأسف على فراقه وخروجه منه . قال عبد الرحمن السهيلي - مبيناً لقول الرسول : «أَوْ مُخْرَجِيَّ هُمْ»؟ !- : «ففي هذا دليل على حب الوطن وشدة مفارقتة على النفس ، وأيضاً فإنه حرم الله وجوار بيته ، وبلدة أبيه إسماعيل ، فلذلك تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه ما لم تتحرك قبل ذلك ؛ فقال : «أو مخرجي هم»؟ ! والموضع الدال على تحرك النفس وتحرقها إدخال «الواو» بعد «ألف» الاستفهام ؛ مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه ، وذلك أن الواو ترد إلى الكلام المتقدم ، وتُشعر المخاطب بأن الاستفهام على جهة الإنكار ، أو التفجع لكلامه ، أو التألم منه»<sup>(2)</sup> .

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن مشروعية الصلاة كانت بعد بدء الوحي بقليل ، وكانت مفروضة على المسلمين ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي . قال محمد بن إسحاق : «وحدثني صالح بن كيسان ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : افترضت الصلاة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين في كل صلاة . ثم إن الله تعالى

(1) المصدر السابق . ص 113 .

(2) الروض الأنف . ج 1 ص 421 ، 422 .

أتمّها في الحضر أربعاً، وأقرّها في السّفر على فرضها الأوّل: ركعتين». وقد أورد أيضاً هذا القول: البخاريّ ومسلم، وأبو داود، ومالك بن أنس؛ رحم الله الجميع! وقال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن ابن إسحاق أيضاً -: «فأمّا أصل الصّلاة فقد وجب في حياة خديجة - رضي الله عنها! - كما سنبيّنه. قال ابن إسحاق: وكانت خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله، وصدّق بما جاء به. ثمّ إنّ جبريل أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حين افتُرِصَتْ عليه الصلاة، فهمز بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت له عين من ماء مُزَنٌ<sup>(1)</sup>، فتوضأ جبريل ومحمد - عليهما السلام! - ثمّ صلياً ركعتين وسجداً أربع سجّدت. ثمّ رجع النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وقد أقرّ الله عينه، وطابت نفسه، وجاءه ما يحبّ من الله، فأخذ بيد خديجة حتى أتى بها إلى العين فتوضأ كما توضأ جبريل، ثمّ ركعا ركعتين وأربع سجّدت، ثمّ كان هو وخديجة يُصليان سرّاً<sup>(2)</sup>.

**الحكم الثاني:** أنّ الأصل في استحباب صيام يوم الإثنين، مولد رسول الله فيه، ومبعثه فيه. جاء في صحيح الإمام مسلم: عن أبي قتادة أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سئل عن صوم الإثنين؟ فقال: «ذلك يوم وُلِدْتُ فيه، وأنزِلَ عَلَيَّ فيه».

**الحكم الثالث:** أنّ استفتاح قراءة القرآن بذكر اسم الله، واجب بنصّ القرآن في عدّة آيات. أولاهنّ في افتتاح سورة «العلق»<sup>(3)</sup>.

## مَنْ هُم السَّابِقُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ؟

### 1 - خديجة

أجمع رواة التاريخ الإسلاميّ وكتّابه، على أنّ أوّل مَنْ دخل في الدين الإسلاميّ من النّساء، خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله؛ صلى الله عليه وسلّم! قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق -: «وأمّنت خديجة بنت خُوَيْلِدٍ وصدّقت بما جاءه<sup>(4)</sup> من الله، وآزرتَه على أمره، وكانت أوّل من آمن بالله ورسوله، وصدّقت بما جاء منه. فخفف الله بذلك عن

(1) «مزن»: سحاب ذو ماء.

(2) البداية والنهاية. ج 3 ص 24.

(3) ثم في الآية الحادية والأربعين من سورة «هود». وفي الآية الثلاثين من سورة «النمل».

(4) الضمير يعود على رسول الله.

رسوله ، لا يستمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ؛ إلا فرّج الله عنه بها إذا رجّع إليها تثبته وتخفف عنه ، وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس رضي الله عنها وأرضاها»<sup>(1)</sup> .

## 2 - عليّ بن أبي طالب

هو : أوّل الغلمان السابقين إلى الإسلام ؛ وهو في العاشرة من ربيع عمره . قال محمد بن إسحاق : «ثم إنَّ عليّ بن أبي طالب جاء بعد ذلك (أي : بعد افتراض الصلاة) بيومين ، فوجدهما<sup>(2)</sup> يصليان ، فقال عليّ : ما هذا يا محمد؟ فقال النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- : «دين الله الذي اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله ؛ فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته وأن تكفر باللات والعزّى» . فقال له عليّ : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ؛ فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدث أبا طالب . فكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن يفشي عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : «يا عليّ ! إذا لم تسلم فاكم» . فمكث عليّ تلك الليلة ، ثم إنَّ الله أوقع في قلب عليّ الإسلام ، فأصبح غادياً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حتى جاءه فقال : ما عرضت عليّ يا محمد؟ فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزّى ، وتبرأ من الأنداد» . ففعل عليّ وأسلم . ومكث عليّ يأتيه على خوف من أبي طالب . وكنتم عليّ إسلامه ولم يظهر به . . . وكان ممّا أنعم الله به على عليّ أنّه كان في حجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قبل الإسلام»<sup>(3)</sup> . وقال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق : «وكان ممّا أنعم الله به على عليّ أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لعمة العباس - وكان من أيسر بني هاشم - «يا عباس ! إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق حتى نخفف عنه من عياله» . فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عليّاً فضمّه إليه ، فلم يزل مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حتى بعثه الله نبياً ، فاتبعه عليّ وآمن به وصدّقه»<sup>(4)</sup> .

(1) المصدر السابق . ج 3 ص 23 .

(2) أي : رسول الله وخديجة .

(3) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 118 .

(4) البداية والنهاية . ج 3 ص 25 .



### 3 - زيد بن حارثة

هو : أول الموالى السابقين إلى الإسلام ؛ وهو : زيد بن حارثة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد في سوق العبيد بـ «عكاظ» بأربعمائة درهم وهو غلام . فلما تزوج رسول الله خديجة وهبت له زيدا ، فتبناه رسول الله ، وأصبح يعرف بـ «زيد بن محمد» . قال عبدالله بن عمر : «ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ؛ حتى نزلت : ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾<sup>(1)</sup> . وكان أبو حارثة بن شراحيل الكعبي يبيكي على فقدته ابنه فيقول :

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أَذْرَ مَا فَعَلَ  
أَحْيَ فَيُرْجَى أَمْ أَتَى دُونَهُ الْأَجَلُ

ولما خيّر رسول الله بين أن يبقى عنده أو يلتحق بأهله ، اختار البقاء معه ، فزوجه مولاته أم أيمن ، فولدت له أسامة بن زيد . ثم زوجه زينب بنت جحش ؛ وهي بنت عمّة رسول الله أميمة بنت عبد المطلب . ولما طلق زيد زينب زوجه أم كلثوم بنت عقبة ، فولدت له زيد بن زيد ورقية . ثم طلقها وتزوج دُرّة بنت أبي لهب بن عبد المطلب ثم طلقها وتزوج هند بنت القوام . أخت الزبير بن العوام .

وكان رسول الله يُسميه : «زيد المحبّة» . وشهد بدرًا وما بعدها من الغزوات والسرايا . واستشهد في غزوة مؤتة وهو أمير . وسأني - إن شاء الله !- زيادة من الحديث عنه عند ذكره .

### 4 - أبو بكر الصديق

هو : أبو بكر ، عبدالله بن أبي قحافة ، أول أحرار الرّجال السابقين إلى الإسلام . فكان إسلامه أفضل من إسلام غيره ، وأنفع لجميع المسلمين ذكرانا وإنثاء ؛ إذ كان صدرًا معظمًا في قريش وشخصًا محببًا متألفًا في مجتمعه ، ورئيسًا مكرمًا بين قومه . وكان أحسن داعية إلى الإسلام بعد إسلامه . وكان ذا مال ، باذلاً إياه في طاعة الله ونصرة رسوله . قال محمد بن إسحاق : «ثم إن أبا بكر لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال : أحق ما تقول قريش يا محمد ؟ من تركك آلهتنا ، وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آبائنا ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «بلى ، إني رسول الله ونبيّه ، بعثني لأبْلَغَ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه

(1) سورة «الأحزاب» . الآية 5 .

للحق . أدعوك - يا أبا بكر! - إلى الله وحده لا شريك له ، ولا نعبد غيره ، والموالة على طاعته .  
وقرأ عليه القرآن . فلم يُقرّ ولم يُنكر . فأسلم وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقرّ بحق  
الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدّق . حدّثني محمّد بن عبد الرحمن بن عبد الله  
التميميّ : أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : « ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلّا كانت له  
عنه كبوة وتردّد ونظر ؛ إلّا أبا بكر ما عتم حين ذكرته له وما تردّد فيه »<sup>(1)</sup> . وقال عبد الرحمن  
السيوطي - نقلاً عما نقل عن مصعب بن الزبير وغيره : « أجمعت الأمة على تسمية أبي بكر  
بـ «الصدّيق» ، لأنه بادر إلى تصديق رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ولازم الصدق ، فلم  
تقع منه هناة ما ولا وقفة في حال من الأحوال . وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة .

منها : قصّة ليلة الإسراء والمعراج ؛ وثباته وجوابه للكفار في ذلك ، وهجرته مع رسول  
الله - صلى الله عليه وسلم !- وترك عياله وأطفاله ، وملازمته في الغار وسائر الطريق ، ثمّ كلامه  
يوم بدر ويوم الحُدَيْيَّة ؛ حين اشتبه على غيره الأمر في تأخّر دخول مكّة ، ثمّ بكاءه حين قال  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « إنّ عبداً خيّر الله بين الدّنيا والآخرة ، فاختار الآخرة » .  
ثمّ ثباته يوم وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وخطبته في النّاس وتسكينهم ، ثمّ قيامه في  
قصّة البيعة لمصلحة المسلمين ، ثمّ اهتمامه وثباته في بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام وتصميمه  
في ذلك ، ثمّ قيامه في قتال أهل الرّدة ومناظرته للصّحابة حتّى حجّهم بالدلائل ، وشرح الله  
صدورهم لما شرح له صدره من الحق - وهو قتال أهل الرّدة - ثمّ تجهيزه للجيش إلى الشام لفتوحه  
وإمداده بالإمداد ، ثمّ ختم ذلك بهمّ من أحسن مناقبه وأجلّ فضائله ؛ وهو استخلافه على  
المسلمين عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه !- وتفرّسه فيه ووصيّته ، واستيداعه الله الأمّة ، فخلفه  
عزّ وجلّ فيهم أحسن الخلافة ، وظهر لعمر الذي هو حسنة من حسناته وواحدة من فعلاته تمهيداً  
للإسلام ، وإعزازاً للدين وتصديقاً لوعد الله تعالى بأنّه يُظهره على الدين كلّهُ . وكم للصدّيق من  
مناقب ومواقف وفضائل لا تُحصى ! هذا كلام التّوّي »<sup>(2)</sup> . وقال محمّد بن إسحاق : « وكان أبو  
بكر رجلاً مألّفاً لقومه ، محبباً سهلاً . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من  
خير أو شرّ . وكان رجلاً تاجراً ذا خُلُقٍ ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 120 .

(2) تاريخ الخلفاء . تحقيق محمّد مُحمّي الدّين ، عبد الحميد . القاهرة 1952م . مطبعة السعادة . ص 27 ، 28 .

من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام مَنْ وثق به من قومه مِّن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه - فيما بلغني - الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة ابن عبيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف؛ رضي الله عنهم! فانطلقوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ومعهم أبو بكر، فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحق الإسلام. وكان هؤلاء الثفر الثمانية الذين سبقوا في الإسلام، صدّقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وآمنوا بما جاء من عند الله»<sup>(1)</sup>. ثم أخذ الإسلام ينتشر في الناس ويلج قلوب الذين هداهم الله إلى ما رضى لهم؛ حتى بلغ عددهم ثمانية وثلاثين مسلماً، فحينئذ ألح أبو بكر على رسول الله في الظهور بالإسلام، فقال الرسول: «يا أبا بكر! إنا قليل». وما زال أبو بكر يلح في الظهور بالإسلام، حتى ظهر رسول الله، وتفرّق المسلمون في نواحي المسجد؛ كلّ مسلم في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، داعياً إياهم إلى توحيد الله وتصديق رسوله. وهو أوّل خطيب في الإسلام. فثار المشركون على المسلمين بما فيهم أبو بكر، وضربوهم ضرباً شديداً. قال إسماعيل بن كثير: «وَوُطِّئَ أَبُو بَكْرٍ وَضُرِبَ ضَرْباً شَدِيداً، وَدَنَا مِنْهُ الْفَاسِقُ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفَتَيْنِ وَيَحْرِفُهُمَا فِي وَجْهِهِ، وَنَزَا عَلَى بَطْنِهِ حَتَّى مَا يُعْرِفُ وَجْهَهُ مِنْ أَنْفِهِ. وَجَاءَ بَنُو تَمِيمٍ يَتَعَادُونَ فَأَجْلَوْا الْمَشْرِكِينَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَحَمَلُوهُ فِي ثَوْبٍ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَنْزِلَهُ وَلَا يَشْكُونُ فِي مَوْتِهِ. ثُمَّ رَجَعَتْ بَنُو تَمِيمٍ فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ وَقَالُوا: وَاللَّهِ لئن مَاتَ أَبُو بَكْرٍ لَنَقْتُلَنَّ عَتَبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَرَجَعُوا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَجَعَلَ أَبُو قُحَافَةَ<sup>(2)</sup> وَبَنُو تَمِيمٍ يَكْلُمُونَ أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَجَابَ، فَتَكَلَّمَ آخِرَ النَّهَارِ فَقَالَ: «مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَمَسَّوْا مِنْهُ بِالسِّنْتِهِمْ وَعَذَلُوهُ ثُمَّ قَامُوا وَقَالُوا لَأُمِّهِ أُمُّ الْخَيْرِ: انْظُرِي أَنْ تَطْعَمِيهِ شَيْئاً أَوْ تَسْقِيهِ إِيَّاهُ. فَلَمَّا خَلَتْ بِهِ أَلَحَّتْ عَلَيْهِ وَجَعَلَ يَقُولُ: «مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ؟» فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكَ. فَقَالَ: اذْهَبِي إِلَى أُمِّ جَمِيلَ بِنْتِ الْحَطَّابِ فَاسْأَلِيهَا عَنْهُ، فَخَرَجَتْ حَتَّى جَاءَتْ أُمَّ جَمِيلَ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ يَسْأَلُكَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَتْ: مَا أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ وَلَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ؛ وَإِنْ كُنْتُ تُحِبِّينَ أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ إِلَى ابْنِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَمَضَتْ مَعَهَا حَتَّى وَجَدَتْ أَبَا بَكْرٍ طَرِيحاً دَنْفَاً<sup>(3)</sup>. فَدَنَتْ مِنْهُ أُمُّ جَمِيلَ وَأَعْلَنْتْ بِالصِّيَاحِ وَقَالَتْ: وَاللَّهِ إِنَّ قَوْمًا نَالُوا هَذَا مِنْكَ لِأَهْلِ فَسُقٍ وَكَفَرٍ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَنْتَقِمَ اللَّهُ لَكَ

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي، ص 121.

(2) «أبو قُحَافَةَ»: والد أبي بكر الصديق.

(3) «دنفًا»: مريضاً مثقلاً.

منهم . قال : «فما فعل رسول الله؟» قالت : هذه أمك تسمع<sup>(1)</sup> . قال : «فلا عليك منها» . قالت : سالم ، صالح . قال : «أين هو؟» قالت : هو في دار ابن الأرقم . قال : «فإن لله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله» . فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به متكئاً عليهما حتى أدخلتهما على رسول الله ، فأكبّ عليه رسول الله فقبله ، وأكبّ عليه المسلمون ، وورق له رسول الله رقّة شديدة ، فقال أبو بكر : بأبي وأمي يا رسول الله ! ليس بي بأس إلّا ما نال القاسق عتبة بن ربيعة من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها ؛ عسى الله أن يستقذّها بك من النار . فدعا لها رسول الله ودعاها إلى الله ، فأسلمت ، وأقاموا مع رسول الله شهراً وهم تسعة وثلاثون رجلاً<sup>(2)</sup> .

### إسلام أبي ذرّ الغفاريّ

هو : أبو ذرّ ، جُنْدَب بن جنادة بن سُفيان بن عُبيد من بني غفار روى الإمام البخاريّ ، عن عبد الله بن عباس قال : «لما بلغ أبا ذرّ مبعث النّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- قال لأخيه»<sup>(3)</sup> اركب إلى هذا الوادي ، فاعلم لي علّم هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ يأتيه الخبر من السّماء ، واسمع من قوله ، ثمّ اتّني . فانطلق الأخ حتى قدمه<sup>(4)</sup> وسمع من قوله . ثمّ رجع إلى أبي ذرّ فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، (وسمعت منه) كلاماً ما هو بالشعر . فقال (أبو ذرّ) : ما شفيتني ممّا أردت . فتزوّد أبو ذرّ ، وحمل شتّة له فيها ماء حتى قدم مكة ، فأتى المسجد فالتمس النّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض اللّيل ، فراه عليّ بن أبي طالب فعرف أنّه غريب ؛ فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح (أبو ذرّ) . ثمّ احتمل قريته وزاده (وتوجّه) إلى المسجد ، وظلّ ذلك اليوم ولا يراه النّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمرّبه عليّ فقال : أما نال<sup>(5)</sup> للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه ؛ لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى إذا كان يوم الثالث . فعاد عليّ إلى مثل ذلك ، فأقام معه ، ثمّ قال : ألاّ تحدّثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني

(1) أي : أخاف تطلع أمك على إسلامي . وهي مشركة .

(2) البداية والنهاية . ص 30 .

(3) «لأخيه» : أنيس - بضمّ أوله وفتح ثانيه - الغفاريّ .

(4) «قدمه» : الضمير يعود على الوادي .

(5) «نال» : حان وآن .

عهداً وميثاقاً لترشدنني فعلتُ، ففعل (عليّ) فأخبره (أبو ذرّ). قال (عليّ): فإنّه حقّ وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فإذا أصبحت فاتبعني فإنّي إن رأيتُ شيئاً أخاف عليك قمتُ كما تني أريق الماء، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يَقْفُوهُ حتى دخل على النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! -: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري». قال: والذي نفسي بيده لأصرّخن بها بين ظهرانيهم! فخرّج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس (بن عبد المطلب) فأكبّ عليه؛ قال: ويلكم! أُلستم تعلمون أنّه من غفار وأنّ طريق تجاركم إلى الشام؟ فأنقذه منهم. ثمّ عاد من الغد لملئها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبّ العباس عليه. ثم رجع أبو ذرّ إلى قومه، وبمجرّد رجوعه، أسلم أخوه أنيس، وأمه وكثير من قومه. وقد جاء خبر إسلام أبي ذرّ مبسوطاً في صحيح الإمام مسلم وغيره.

### إسلام خالد بن سعيد بن العاص

قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن البيهقيّ -: «كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص قديماً، وكان أوّل إخوته أسلم. وكان بدء إسلامه: أنّه رأى في المنام أنّه وقف به على شفير النّار، فذكر من سعتها ما الله أعلم به، ويرى في المنام كأنّ أتاه يدفعه فيها، ويرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أخذ بحقيقه<sup>(1)</sup> كي لا يقع، ففزّع من نومه فقال: أحلف بالله أنّ هذه الرؤيا حق، فلقني أبا بكر بن أبي قحافة فذكر ذلك له. فقال (أبو بكر): أريد بك خير: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فاتبعه، فإنّك ستبته وتدخل معه في الإسلام. والإسلام يحجزك أن تدخل فيها (أي: في النّار) وأبوك فيها، فلقني رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بـ «أجياد»<sup>(2)</sup> فقال: يا رسول الله! يا محمداً! إلام تدعو؟ قال: «أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه: من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممّن لا يعبد». قال خالد: فإنّي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّك رسول الله. فسّر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بإسلامه. وتغيّب خالد، وعلم أبوه بإسلامه فأرسل في طلبه، فأُتِيَ

(1) «الحَقُّوْ»: جمع أحقاء؛ وهو: الحَصْرُ.

(2) «أجياد»: جمع جيد؛ وهو: العنق، وهو هنا: جبل بمكة.

به ، فأثّبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه وقال : والله لأمنعك القوت . قال خالد : إن منعتني فإنّ الله يرزقني ما أعيش به ، وانصرف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فكان يكرمه ويكون معه»<sup>(1)</sup> .

## إسلام ضماد الراقي

هو : ضماد بن ثعلبة الأزديّ ، من «أزد شنوءة» . وله ذكر في حديث أخرجه الإمام مسلم ، والنسائي ، والبيهقيّ ؛ من طريق داود بن أبي هند ، عن عمرو بن سعيد ، عن سعيد بن جبّير ، عن عبد الله بن عباس قال : قدم ضماد مكة ، وهو رجل من «أزد شنوءة» ، وكان يركب من هذه الأرياح ، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إنّ محمّداً مجنون ، فقال : أين هذا الرجل ؟ لعلّ الله يشفيه على يدي . فلقيتُ محمّداً فقلتُ : إنّني أركب من هذه الرياح ، وإنّ الله يشفي على يدي من شاء ، فهلّم . فقال محمّد : «إنّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلّل فلا هاديّ له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» ؛ ثلاث مرّات . فقال ضماد : والله لقد سمعتُ قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعتُ مثل هؤلاء الكلمات ! فهلّمّ أبايك على الإسلام . فبايعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال له : «وعلى قومك» ، فقال : وعلى قومي . وروى مسدّد في مُسنده ، وابن حبان وغيرهما : أنّ ضماد الأزديّ كان صديقاً وأزواجه وذريّاته ، وجميع أتباعه ! وسيأتي - إن شاء الله !- ذكر كلّ واحد من أعيان الصحابة عند إسلامه في الوقت المناسب لذكر سبب إسلامه . وقد استوفى أبو نعيم ، أحمد ابن عبد الله في كتابه : «دلائل النبوة» الحديث عمّن أسلم من أعيان الصحابة ، واستقصى ذلك استقصاء لا ثِقاً بأصحابه . فجازاه الله خيراً وأثابه . وبعد إسلام هؤلاء السابقين إليه ، أخذ نبؤهُ ونبأ من جاء به يفتشو في مكة وأرجائها ، فأسلم ناس من قبائل العرب . وقد سرّد محمد بن إسحاق زهاء أربعين اسماً ما بين ذكور وإناث قد أسلموا وحسن إسلامهم . قال محمد بن إسحاق : «ثمّ دخل النَّاسُ أرسالاً من الرجال والنِّساء حتى فشا أمر الإسلام بمكة وتحدّث به»<sup>(2)</sup> . وظلّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يدعو إلى الإسلام مدّة ثلاث سنين سرّاً وخفياً . وكان المسلمون يقيمون شعائر دينهم مستخفين في الأماكن المعزولة عن الأنظار . قال محمّد بن

(1) البداية والنهاية . ج 3 ص 32 .

(2) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 124 - 128 .

إسحاق: «كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! إذا صلّوا ذهبوا إلى الشعاب واستخفوا بصلاتهم عن قومهم. فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! في شعب من شعاب مكّة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم واقتتلوا، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجّه، فكان أوّل دم هريق في الإسلام»<sup>(1)</sup>. وكان المشجوج المشرك عبدالله بن خطل.

### الأمر بتبليغ الرسالة والصدع بها

لما مضى على نزول الوحي برسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! ثلاث سنوات سرّاً، أمر الله رسوله أن يجهر بها ويظهرها في قومه وعشيرته، فقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(2)</sup>. وقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(3)</sup> وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(4)</sup>، ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْنَذِيرُ الْمُنِيرُ﴾. قال محمد بن إسحاق: «ثم إنّ الله تعالى أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم! أن يصدع بما جاء به، وأن يُبَادِيَ النَّاسَ بِأَمْرِهِ، وأن يدعو إلى الله تعالى. وكان ربما أخفى الشيء واستسربه إلى أن أمر بإظهاره (بعد) ثلاث سنين من مبعثه»<sup>(4)</sup>. فلما نزل الأمر بإنذار العشيرة والأقربين والجهر بالمأمور به، صمت رسول الله عن إظهار ذلك المأمور بالصدع به، إيتقاء لشرّ قومه واجتناباً لما هم به له كيّادون؛ حتى حذّره جبريل من مخالفة أمر الله.

قال محمد بن إسحاق: «عن ابن عباس، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما! قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله - صلى الله عليه وسلم!..: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم!..: «عرفتُ أنّي إن بدأتُ بها قومي رأيتُ منهم ما أكره، فصمتُ عنها، فجاءني جبريل فقال: يا محمد! إنّك إن لم تفعل ما أمرك ربك تعالى، عذّبك ربك» قال عليّ: فدعاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فقال: «يا عليّ! إنّ الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين،

(1) المصدر السابق ص 128.

(2) سورة «الحجر». الآية 94.

(3) سورة «الشعراء». الآية 214، 215.

(4) المصدر السابق ص 126.

فعرفتُ أَنِّي إِنِ بَدَأْتُهُمْ بِذَلِكَ رَأَيْتُ مِنْهُمْ مَا أَكْرَهُ، فَصَمْتُ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَنِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ عَذَّبَكَ رَبُّكَ. فَاصْنَعْ لَنَا - يَا عَلِيُّ! - شَاةً عَلَى صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَأَعِدْ لَنَا عَسًا<sup>(1)</sup> مِنْ لَبَنٍ، ثُمَّ أَجْمَعْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ». (قَالَ عَلِيُّ): فَفَعَلْتُ، فَاجْتَمَعُوا لَهُ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا أَوْ يَنْقُصُونَ؛ فِيهِمْ أَعْمَامُهُ: أَبُو طَالِبٍ، وَحَمْزَةُ، وَالْعَبَّاسُ، وَأَبُو لَهَبٍ الْكَافِرُ الْخَنِيثُ. فَقَدِمْتُ تِلْكَ الْجَفْنَةَ، فَأَخَذَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - حَذِيَّةً<sup>(2)</sup> فَشَقَّهَا بِأَسْنَانِهِ، ثُمَّ رَمَى بِهَا فِي نَوَاحِيهَا (أَي: نَوَاحِي الْجَفْنَةِ)، ثُمَّ قَالَ: «كُلُوا بِاسْمِ اللَّهِ». فَأَكَلَ الْقَوْمُ حَتَّى تَمَلَّؤُوا مِنْهُ (أَي: مِنْ الطَّعَامِ). فَمَا رُئِيَ ثُمَّ إِلَّا آثَارُ أَصَابِعِهِمْ وَاللِّسَانِ. وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَيَأْكُلُ مِثْلَهَا. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -: «اسْقَهُمْ يَا عَلِيُّ!» (قَالَ عَلِيُّ): فَجِئْتُ بِذَلِكَ الْقَعْبِ<sup>(3)</sup>، فَشَرَبُوا حَتَّى نَهَلُوا جَمِيعًا وَأَيَّمُ اللَّهُ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَشْرَبُ مِثْلَهُ! فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - أَنْ يَكَلِّمَهُمْ، بَدَرَهُ أَبُو لَهَبٍ إِلَى الْكَلَامِ فَقَالَ: لَهْدٌ مَا سَحَرَكُم صَاحِبُكُمْ<sup>(4)</sup>. فَتَفَرَّقُوا، وَلَمْ يُكَلِّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -: «يَا عَلِيُّ! عُدْ لَنَا بِمِثْلِ مَا كُنْتَ صَنَعْتَ لَنَا بِالْأَمْسِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ بَدَرَنِي إِلَى مَا قَدْ سَمِعْتَ قَبْلَ أَنْ أَكَلَّمَ الْقَوْمَ».

(قَالَ عَلِيُّ): فَفَعَلْتُ، ثُمَّ جَمَعْتُهُمْ لَهُ، فَصَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ، فَأَكَلُوا حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ، ثُمَّ سَقَيْتُهُمْ فَشَرَبُوا مِنْ ذَلِكَ الْقَعْبِ حَتَّى نَهَلُوا عَنْهُ. وَأَيَّمُ اللَّهُ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَيَأْكُلُ مِثْلَهَا وَيَشْرَبُ مِثْلَهَا. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ! وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ شَابًا مِنَ الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مَا جِئْتُمْ بِهِ؛ قَدْ جِئْتُمْ بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»<sup>(5)</sup>. وَزَيْدٌ فِي رِوَايَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبْرِيِّ: «... وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ؛ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي؟ وَرَغْمَ هَذَا الْإِكْرَامِ الْحَاقِمِيِّ وَالنَّصِيحَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَإِنَّ أَوْلَئِكَ الْقَوْمَ قَدْ أَصْرَوْا عَلَى رُكُوبِ رُؤُوسِهِمْ، وَاسْتَمَرُّوا فِي نَكَرَانِهِمْ وَتَنَكَّرَهُمْ لِلْحَقِّ الْمُبِينِ! ﴿إِنَّكَ

(1) «العس»: - جمع عسّاس -: القدح العظيم.

(2) «حذِيَّةٌ»: قطعة صغيرة من لحم.

(3) «القعب»: القدح الدّخَم.

(4) «لهْدٌ...»: عبارة تقول عند التعجّب من الشيء.

(5) المصدر السابق. ص 127، 128.



لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١﴾ . فلم يثن عناد قوم الرسول عزيمته الربانية في تبليغ رسالة ربه إلى الخاص والعام من عباد الله ، عملاً بما أمره الله به فقال : ﴿ يَتَأَيَّأُ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (٤) . أي : لمرجعك إلى دار الآخرة ؛ وهي دار القرار . وقال : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ﴿ ١١٠ ﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١١١ ﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ١١٢ ﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ ١١٣ ﴾ الَّذِي يَرْفَعُ حِينَ تَقُومُ ﴿ ١١٤ ﴾ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿ ١١٥ ﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ١١٦ ﴾ (٥) .

ولما أنزل الله هذه الآية من سورة «الشعراء» ، صعد رسول الله على «الصفاء» وأنذر قومه وعشيرته . روى الإمام أحمد ، عن سعيد بن جبير ، عن عبد الله بن عباس أنه قال : «لما أنزل الله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، أتى النبي - صلى الله عليه وسلم !- «الصفاء» فصعد عليه ثم نادى : «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه ؛ بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «يا بني عبد المطلب ! يا بني فهر ! يا بني كعب ! أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟» قالوا : نعم ، قال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» . فقال أبو لهب : تباً لك لسائر اليوم ! أما دعوتنا إلا لهذا؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴾ ﴿ ١١٧ ﴾ تَبَّتْ ﴿ ١١٨ ﴾ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿ ١١٩ ﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿ ١٢٠ ﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿ ١٢١ ﴾ وَأَمْرَأَتُهُ ﴿ ١٢٢ ﴾ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿ ١٢٣ ﴾ فِي جِيدِهَا ﴿ ١٢٤ ﴾ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿ ١٢٥ ﴾ . واستمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في الصّدْع بما أمر الله به ، وأخذ في

(١) سورة «القصص» . الآية 56 .

(٢) سورة «المائدة» . الآية 67 .

(٣) سورة «الزخرف» . الآية 44 .

(٤) سورة «القصص» . الآية 85 .

(٥) سورة «الشعراء» . الآية 215 - 220 .

(٦) «تَبَّتْ» : بُتِرَتْ وهلكت .

(٧) «وتبَّ» : هلك أبو لهب .

(٨) «وامراته» : أم جميل زوجة أبي لهب ؛ وهي أخت أبي سفيان بن حرب ، واسمها «أروى» . وكانت عوراء .

(٩) «في جيدها» : في عنقها .

نشر رسالة الإسلام سرّاً وعلانية، ليلاً ونهاراً، لا يصرفه صارف عن ذلك، ولا يردّه رادّ عن ذلك، ولا يتمكّن صادّ أن يصدّه عما هو مأمور بتنفيذه وإبلاغه للنّاس. فقد كان - عليه الصلاة والسلام! - يتبع النّاس بدعوته في أنديتهم ومحافلهم، وفي مواقف حجّهم؛ بل قد كان يدعو كلّ من لقيه من البشر؛ لا فرق عنده في ذلك بين حرّ وعبد، وقويّ وضعيف، وغنيّ وفقير؛ جميع عباد الله في إبلاغهم ما أمره الله بتبليغه شرّع<sup>(1)</sup> عقيدة وشريعة. وهم في التّغيب والترهيب سواء. ولم يكثرث بتسليط من تسلّط عليه وعلى ضعفاء أتباعه. وكان أشدّ تسلّطاً عليه وعلى أتباعه كلّ من له الكلمة العليا والأمر المطاع في قبيلته وحشمه. وعلى رأس أولئك الأشداء في التسلّط عليه وعلى أتباعه، هو عمّه أبو لهب عبد العزّى، وأبو جهل، عمرو؛ لعنهما الله!

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن الزوجة الصّالحة خير حظّ يحظى به الرّجل في الحياة الدّنيا. فهي التي تقف طوال اقترانها ببعْلِها إلى جنبه في السّراء والضّراء، وفي الشّدّة والرّخاء، فتخفّف عنه آلامه، وتهوّن عليه أحزانه، وتعينه على ما خلقه الله لأجله، وتشاطره في معترك حياته؛ ولذلك قال من لا ينطق عن الهوى: «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتّق الله في الشطر الباقي»<sup>(2)</sup>. والزوجة الصّالحة هي حسنة الدّنيا المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾<sup>(3)</sup>. وخديجة زوجة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كانت له طوال اقترانه بها الحسنة المثلى والرّزق المبارك له فيه. وهي الملجأ الحصين، والمرفأ الأمين عند رجوعه إليها وبثه لها شكواه؛ فكانت لباساً له بمعناه الكلّيّ الدقيق؛ رضي الله عنها وأرضاها! قال عبد الملك بن هشام: وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدّقت بما جاءه من الله، وآزرتة على أمره، وكانت أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقت بما جاءه منه. فخفف الله بذلك عن نبيّه - صلى الله عليه وسلم! - لا يسمع شيئاً ممّا يكرهه: من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه؛ إلّا فرّج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبّته وتخفف عنه، وتصدّقه، وتهوّن عليه أمر النّاس؛ رحمها الله تعالى<sup>(4)</sup>! وقد جازاها الله خير ما يجازي به عباده

(1) «شرع»: سواء.

(2) رواه الحاكم، عن أنس بن مالك.

(3) سورة «البقرة». الآية 201.

(4) السير النبويّة، بشرح الروض الأنف. ج 2 ص 416.

الصالحين؛ فحيّاها تحيّة الرّبّانيّة، وبنى لها بيتاً من اللؤلؤ المَجوّف في جنة النّعيم، لا صَحَب فيها ولا نَصَب. وقد تقدّم شيء من فضائلها عند ذكر زواجها برسول الله. وسيأتي الحديث عنها. إن شاء الله! عند ذكر زوجاته؛ عليه الصلاة والسلام!

**العبرة الثانية:** أن طاعة الأبناء للأبّاء كانت في الجاهليّة راسخة الجذور في مجتمعاتهم المشتركة. ولولا ذلك ما تردّد عليّ بن أبي طالب في قبول دعوة رسول الله؛ حين دعاه بها إلى الإسلام، فقال عليّ: «هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدث به أبا طالب». ولولا وجود هذه الطاعة بالسّجّة النّقية، ما أطاع عبدالله بن عبد المطلب أباه أن يكون ضحيّة لوفاء أبيه بنذره. ولولا ذلك ما أطاع إسماعيل أباه إبراهيم عليهما السلام! فسلم له نفسه ليزبحه، ولم يتردّد في قبوله تنفيذ رؤيا أبيه قال الله عزّ ذكره: ﴿فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأَتَّىٰ بَأْفَعَلٍ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(1)</sup>.

**العبرة الثالثة:** أن رسوخ الإيمان في قلب المؤمن يجعل صاحبه يفارق من هو أحبّ وأقرب إليه في الدّم والنسب؛ ولو كان ذلك القريب أباً أو أمّاً أوهما معاً. وهذا ما كان من زيد ابن حارثة؛ حينما فضّل البقاء مع رسول الله على العودة إلى أهله المشتاقين إليه وإلى حياته بين والديه. ومحبة زيد لله ورسوله فوق كلّ محبة لغيرهما، ولهذا كان رسول الله يسميه «زيد المحبة». ومن قدّم محبة أي شيء على محبة الله ورسوله، فليس له من الإيمان شيء وهذا ما فهمناه من صريح آيات الله وأحاديث رسوله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(2)</sup>. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»<sup>(3)</sup>. ومحبة الرّسول هي: إرادة طاعته وترك مخالفته؛ وذلك من واجبات الإسلام. وهذا الحديث من أحاديث جوامع الكلم، لأنّ فيه مجموع أصناف المحبة الثلاثة: محبة الإجلال؛ وهي محبة الأصل.

(1) سورة «الصافات». الآية 2، 1.

(2) سورة «التوبة». الآية 24.

(3) رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما، عن أنس بن مالك.

ومحبة الشفقة؛ وهي محبة الولد والوالد. ومحبة المجانسة؛ وهي للناس أجمعين. وشاهد الصدق على ذلك، بذل النفس في رضا المحبوب، وإيثاره على كل مصحوب.

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن العلاج بالرقية كان معمولاً به في الجاهلية، وقد أقره الإسلام، وأجاز للراقي أن يأخذ أجراً على عمل الرقية ممن رقه.

### مساومة المشركين لرسول الله في دينه وحذب أبي طالب عليه

لقد ضاق المشركون ذرعاً بمحمد ودعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما أساءهم ذكره آلهتهم بما تستحقه من كل ما هي عليه من تضليلها إياهم وآباءهم قبلهم. وقد دفع بهم ذلك أن يجتمعوا ويقرروا أن يفدوا وفدًا من وجهائهم إلى أبي طالب؛ لعله يمنح ابن أخيه محمدًا مما هو مستمر فيه، ويكفّه عما هو جاد في عيب آلهتهم وتسفيه آبائهم. قال محمد بن إسحاق: «فلما رأت قريش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يعتبرهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا عمّه أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فيهم عتبة بن ربيعة، وشيبة، وأبوسفيان... فقالوا: يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضللّ آبائنا؛ فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه فنكفيكه. وإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة. فقال أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّ رداً جميلاً، فانصرفوا. ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما هو عليه: يظهر دين الله ويدعو إليه. ثم إن قريشاً تأمروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين أسلموا، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعدّونهم ويفتنونهم عن دينهم. ومنع الله منهم رسوله بعمّه أبي طالب. وقد دعا أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، دعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدفع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا ما كان من أبي لهب وهو يحرّض بني هاشم»<sup>(1)</sup>. ثم مضى رسول الله واستمرّ في دعوته الإلهية والصدّع بدينه القويم سرّاً وعلانية؛ دون أن يكثرث للقليل والقال ممّا هو وارد من رواد الشرك من قومه. وهذا ما جعلهم

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 129.

يحقدون عليه ويخططون لِمَا يردّه عما هو ماضٍ ومستمرّ فيه بكلّ ما في استطاعتهم أن يكيدوا له . قال عبد الملك بن هشام : « ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على ما هو عليه : يُظهر دين الله ، ويدعو إليه ، ثم شرّي <sup>(1)</sup> الأمرُ بينه وبينهم ؛ حتى تباعد الرّحال وتضاعنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بينها ، فتدامروا فيه ، وحضّ بعضهم بعضاً عليه . ثم إنّهم مشوا إلى أبي طالب مرّة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب إنّ لك ستّاً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنّا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا ، وإنّا والله لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنّا أو ننازله وإياك ، في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، ثمّ انصرفوا عنه . فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم تُطبّ له نفساً بإسلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لهم ولا خذلانه <sup>(2)</sup> . وقال محمّد بن إسحاق : « حدّثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس : أنّه حدّث أنّ قريشاً حين قالت لأبي طالب هذه المقالة ، بعث إلي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال له : يا بن أخي ! إنّ القوم جاؤوني فقالوا : كذا وكذا - للذي قالوا له - وأذنوني قبل الحرب ، فأبق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق : أنا ولا أنت ؛ فكفّ عن قومك ما يكرهون من قولك هذا الذي فرق بيننا وبينهم . فظنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أنّه قد بدا لعمّه بداء ، وأنّه خاذله ومُسْلِمُهُ ، وضعف عن نصرته والقيام معه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « والله لو وُضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك في طلبه » ثمّ استعبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فبكى . فلمّا ولّى ، قال أبو طالب - حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : أقبل يا بن أخي ! فأقبل عليه ، فقال : امض على أمرك ، وافعل ما أحببت ؛ فوالله لا نُسلمك لشيء أبداً <sup>(3)</sup> . وقد أنشد في هذا المعنى أبياتاً هذا نصّها :

وَالله لَنْ يَصْلُوا إِلَيْهِ بِجَمْعِهِمْ

حَتَّى أَوْسَدَ فِي التَّرَابِ دَفِينَا

امض لأمركَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ

وَأَبْشِرْ وَقَرَّبَ بَدَاكَ مِنْكَ عِيُونَا

(1) «شرّي» : انتشر .

(2) السيرة النبويّة : بشرح الروض الأنف . ج 3 ص 45 .

(3) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي ص 135 ، 136 .

وَدَعَوْتَنِي وَعَلَّمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ

فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَدَمًا أَمِينًا

وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ

مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِّيَّةِ دِينًا

لَوْلَا الْمَلَأَمَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةٌ

لَوْ جَدْتَنِي سَمَحًا لَذَاكَ مُبِينًا

ولما تيقن المشركون عدم تخلي أبي طالب عن ابن أخيه، غَضِبُوا وقاموا من عنده غَضَابِي، وخطبوا النَّبِيَّ - عليه الصلاة والسلام - ! بقولهم: واللَّهِ لنشتمنَّك وإلهك الذي يأمرُك بهذا. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْطَلِقَ الْأَمَلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِطَلِقُ<sup>(1)</sup>.

### آخر محاولة قريش لإقناع أبي طالب كي يتخلى عن ابن أخيه

إنَّ جميع المحاولات التي مارستها قريش لإقناع أبي طالب حتى يتخلى عن نُصْرَةِ ابن أخيه محمدَ ويُسلمه إليهم، قد باءت بالفشل الذريع، ولم يبق في جعبة هؤلاء المحاولين سوى آخر محاولة؛ وهي: أن يعرضوا على أبي طالب استبدال عمارة بن الوليد بابن أخيه محمد بن عبد الله. قال محمد بن إسحاق: «ثم إنَّ قريشاً حين عرفت أنَّ أبا طالب أبى خذلان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له - فيما بلغني -: يا أبا طالب! قد جئناك بفتى قريش: عمارة ابن الوليد؛ جمالاً وشباباً ونهاداً<sup>(2)</sup>. فهو لك: نصره، وعقله، فاتَّخذه ولداً، لا تنازع فيه. وخلَّ بيننا وبين ابن أخيك هذا الذي فارق دينك ودين آبائك، وفرَّق جماعة قومه، وسفَّه أحلامهم؛ فإنَّما هو رجل برجل، لنقتله؛ فإنَّ ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة. فقال لهم أبو طالب: واللَّهِ ما أنصفتُموني؛ تُعْطُونِي ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكُم ابن أخِي تقتلونهُ!! هذا واللَّهِ لا يكون أبداً. أفلا تعلمون أنَّ النَّاقَةَ إذا فقدت ولدها لم تحنَّ إلى غيره؟ فقال له مُطْعَم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: لقد أنصفك قومك يا أبا طالب! وما أراك تريد أن

(1) سورة «ص». الآية 6-7.

(2) «نهادة»: بروزاً، وقوةً، وجلادة.

تقبل ذلك منهم . فقال أبو طالب لمطعم بن عديّ : والله ما أنصفتُموني ؛ ولكنك قد أجمعت<sup>(1)</sup> على خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدالك . فحقّب<sup>(2)</sup> عند ذلك ، وحميت الحرب ، وتنادى القوم ، ونادى بعضهم بعضاً<sup>(3)</sup> . قال إسماعيل بن كثير : «وأما أبو طالب فكان في غاية الشفقة والحنوّ الطبيعيّ ؛ كما سيظهر من صنائعه وسجاياه ، واعتماده فيما يحامي به عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وأصحابه ؛ رضي الله عنهم»<sup>(4)</sup> .

## اعتراف المشركين بنبوّة محمد في قرارة نفوسهم وإنكارهم لها في ظواهرهم

لقد سبّر المشركون ما جاءهم به محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم !- ممّا أنزله الله عليه ، فوجدوه حقاً مخالفاً تماماً لما عرفوه : من أشعار الشعراء ، وأخبار الخطباء ، ونفثات السحرة ، وتخالج المجانين ، وزمزمة الكهّان ؛ بل قد وجدوه فوق طاقة البشر : مبنى ومعنى . ورغم ذلك فإنّهم قد أنكروا ما أقرت به نفوسهم ، حسداً وعناداً قد تعودواهما إرضاءً لشياطينهم : ﴿ فَإِنِّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾<sup>(5)</sup> . روى الحاكم والبيهقيّ ، عن عبد الله بن عباس : «أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقرأ عليه القرآن ، فكأنّه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم ! إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال (الوليد) : لم ؟ قال : ليعطوكه ؛ فإنّك أتيت محمداً لتعرض ما قبّله . قال : قد علمت قريش أنّي من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه<sup>(6)</sup> قولاً يبلغ قومك أنّك منكّر له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار منّي ، ولا أعلم برجزها ، ولا بقصيده منّي ، ولا بأشعار الجنّ منّي . والله ما يُشبهه الذي يقول شيئاً من هذا . والله إنّ لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنّه لثمر أعلاه ، مُغْدَق أسفله ، وإنّه ليعلو ولا يعلو عليه ، وإنّه ليحطّم ما تحته . قال (أبو جهل) : «لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : قف

(1) «أجمعت» : عزمت .

(2) «فحقّب» : اشتدّ ، وعسر .

(3) المصدر السابق . ص 136 .

(4) البداية والنهاية . ج 3 ص 41 .

(5) سورة الحجّ . الآية 46 .

(6) الضمير يعود على رسول الله .

عَنِّي حَتَّى أَفَكَّرَ فِيهِ . فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ : إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ : يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ»<sup>(1)</sup> . فَنَزَلَتْ : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۖ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ۖ فَفَقِئِلْ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۖ لَا تُبْقَى وَلَا تُنْقَى ۖ لَوْ آحَۥ لِلْبَشَرِ ۖ عَلَيْنَا نَسْعَةُ عَشْرَ ۖ﴾<sup>(2)</sup> . هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش - لعنه الله وأخزاه !- حين خان ضميره وغير رأيه إلى ما عليه الشيطان اللعين ؛ بعد ما تبين له الحق المبين !!

وروى الإمام عبد بن حميد في مسنده ، عن جابر بن عبد الله أنه قال : «اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا (الأعلم) للرجل الذي فرق جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ، ولينظر بماذا يردّ عليه ؟ فقالوا : لا نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة . فقالوا : أنت يا أبا الوليد (أهل لذلك) ، فأثاه عتبة فقال : يا محمد ! أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! قال : فإن كنت تزعم أنّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبّتها ، وإن كنت تزعم أنّك خير منهم فتكلّم حتى نسمع قولك ؛ إنا والله ما رأينا سخلة<sup>(3)</sup> قط أشأم على قومك منك : فرقت جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ؛ حتى لقد طار فيهم أنّ في قريش ساحراً وأنّ في قريش كاهناً . والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحُبلى : أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى . أيّها الرجل ! إن كان إنما بك الحاجة ، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنما بك الباه<sup>(4)</sup> فاختر أيّ نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «فرغت ؟» قال : نعم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**

(1) ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 3 ص 61 .

(2) سورة «المدثر» . الآيات 11 - 30 .

(3) «سخلة» : المولود المحبب لأبويه .

(4) «الباه» : النكاح ، الجماع .



فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٢﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ <sup>(١)</sup> وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٥﴾ \* قُلْ أَبِئْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءُتَدَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٨﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩﴾ فَإِنِ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنَذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ <sup>(٢)</sup> . فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه (فيه) إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم. ثم قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال؛ غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعريّة لا تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة <sup>(٣)</sup>. فهذه القصّة جاءت بها عدّة روايات يؤيد بعضها بعضاً صحّة وثبوتاً.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن من حكمة الله الربّانية أن يبقى أبو طالب على دين قومه؛ حتى تكون كلمته مسموعة لديهم وأمره مطاعاً فيهم، فبذلك أمكنه أن يدافع عن ابن أخيه، وأن يحميه من أذاهم الذي سلطوا به على غيره ثمّ ليس لهم في قومهم رجل مثل أبي طالب من ذوي قرباهم، كي يرد عنهم ما هم به معذبون. قال إسماعيل بن كثير: «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أحبّ خلق الله إلى أبي طالب طبعاً، وكان يحنو عليه ويحنّ إليه، ويدافع عنه ويحامي،

(١) «الزكاة»: هي - هنا - طهارة النفس من الشرك، لأنّ إيجاب الزكاة إنّما أوجبه الله في السنة الثانية من الهجرة؛ ونزول الآية كان أوائل البعثة وقبل الهجرة.

(٢) سورة «فصلت». الآيات 1 - 13.

(٣) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 3 ص 62.

ويخالف قومه في ذلك . مع أنه على دينهم وعلى خلتهم ؛ إلا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حباً طبعياً لا شرعياً . وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسول الله من الحماية ، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولا جترؤوا عليه ، وكمدوا أيديهم وألستهم بالسوء إليه . ﴿ وَرَبُّكَ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾<sup>(1)</sup> . وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً . فهذان العمّان كافرين : أبو طالب ، وأبو لهب ؛ ولكن هذا يكون يوم القيامة في ضحضاح<sup>(2)</sup> من نار ، وذلك في الدرك الأسفل من النار ، وأنزل فيه سورة في كتابه تنلى في المنابر ، وتقرأ في المواعظ والخطب ؛ تتضمن أنه ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾<sup>(3)</sup> وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ<sup>(4)</sup> .

**العبرة الثانية :** أن الشمس آية مبصرة وأن القمر آية محوّة ، وأن اليد اليمنى أشرف من اليد اليسرى ، ولذلك خصّ رسول الله وضع الشمس باليمنى في قوله : « يا عم ! والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر . . . » قال عبد الرحمن السّهيلي : « . . . خصّ الشمس باليمن ، لأنها الآيّة المبصرة ، وخصّ القمر بالشمال ، لأنها الآيّة المحوّة » . وقد قال عمر بن الخطّاب - رحمه الله ! - لرجل قال له : إنني رأيت في المنام كأن الشمس والقمر يقتلان ومع كل واحد منهما نجوم ، فقال عمر : مع أيهما كنت ؟ فقال : مع القمر ، قال (عمر) : كنت مع الآيّة المحوّة ؛ اذهب ، فلا تعمل لي عملاً ، وكان عاملاً فعزله ، فقتل الرجل في « صفين » مع معاوية بن أبي سفيان<sup>(4)</sup> ، واسمه : حابس بن سعد . وخصّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - النّيرين حين ضرب المثل بهما ، لأنّ نورهما محسوس ، والنور الذي جاء به من عند الله - وهو الذي أرادوه على تركه - هو لا محالة أشرف من النور المخلوق . قال الله سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّأ أَن يُثَمَّرَ نُورُهُ ﴾<sup>(5)</sup> . فاقترضت بلاغة النبوة - لما أرادوه على ترك النور الأعلى - أن يقابله بالنور الأدنى ، وأن يخصّ أعلى النّيرين

(1) سورة « القصص » . الآية 68 .

(2) « ضحضاح » : قليل ، نزر .

(3) سورة « المسد » . الآية 3 ، 4 .

(4) ويفهم من قول عمر ، عن طريق الاستنتاج ، أن القمر : هو معاوية بن أبي سفيان ، وأن الشمس هو علي بن أبي طالب .

(5) سورة « التوبة » . الآية 32 .

- وهي الآية المبصرة - بأشرف اليدين ؛ وهي اليمنى بلاغة لا مثلها ، وحكمة لا يجهل اللبيب فضلها<sup>(1)</sup> .

**العبرة الثالثة :** أن الآيات التي نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، تضمنت الجزاء بالمثل لمن نزلت فيه ؛ وهي تهديد ووعد ، ولكل من كفر بالله وجحد نعمه التي أنعم بها عليه !! .

**العبرة الرابعة :** أن عتبة بن ربيعة يردّ الشبهات عن كلام الله ، وينصح قومه أن يتركوا محمداً وشأنه فيقول : «والله ما سمعت مثله قط ! والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ، ولا بالكهانة يا معشر قريش ! أطيعوني واجعلوها لي : خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه . فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ عظيم ؛ فإن تصبه العرب فقد كُفِّتُموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك - والله يا أبا الوليد - بلسانه ! قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم<sup>(2)</sup> . وقد مدح أبو طالب عتبة بن ربيعة على موقفه هذا بقصيدة ذكر فيها ما بدا له من مدحه إيّاه وارتضاه له<sup>(3)</sup> .

### ما لقي رسول الله وأصحابه من أذى قريش

لقد بلغت شدة عداوة المشركين من قريش لرسول الله وأصحابه منتهاها ؛ حتى أذوهم بأقوالهم الجارحة وأفعالهم السيئة أذى لا نظير له في إيلاام الأجساد وإذلال النفوس ؛ ما دام التاريخ البشري يبيد ذلك حقيقة بارزة في سياق الإعجاب والاستغراب عبرة للمعتبرين !!

قال محمد بن إسحاق : «ثم إن قريشاً اشتدّ أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سفهاءهم ، فكذبوه ، وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، مُبَادِلُهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ : من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إيّاهم على كفرهم»<sup>(4)</sup> . وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : اجتمعت قريش للمرة الثانية في الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله - صلى الله

(1) الروض الأنف . ج 3 ص 52 .

(2) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 188 ، 189 .

(3) انظر المصدر السابق . ص 189 .

(4) المصدر السابق . ص 189 .

عليه وسلم !- فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ؛ يقولون : أنت الذي تقول : كذا وكذا ؟ لما كان يقول : من عيب آلهم ودينهم ، فيقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «نعم» ، أنا الذي أقول ذلك . قال (عبدالله بن عمرو بن العاص) : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه ، فقام أبو بكر - رضي الله عنه !- دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ؟ ! ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط<sup>(1)</sup> .

قالت أم كلثوم بنت أبي بكر : «رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه ، مما جَبَذوه بلحيته ، وكان رجلاً كثير الشعر»<sup>(2)</sup> . وقال إسماعيل بن كثير : - نقلاً عن محمد بن إسحاق - : «عن عبدالله بن عباس أنه قال - في قصة طويلة الذيل جرت بين مشركي مكة وبين رسول الله - : «فلما قام رسول الله (من مجلسه) ، قال أبو جهل : يا معشر قريش ! إنَّ محمداً قد أبى إلّا ما ترون من عيب ديننا وشم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهم . وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ، فإذا سجد في صلاته فضخت<sup>(3)</sup> به رأسه ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . فلما أصبح أبو جهل - لعنه الله !- أخذ حجراً ، ثم جلس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ينتظره ، وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان قبلته الشام (بيت المقدس) ؛ فكان إذا صلى صلى بين الركنين : الأسود ، واليماني ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام . فقام رسول الله يُصَلِّي وقد غدت قريش فجلسوا في أندية ينتظرون . فلما سجد رسول الله ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه ، رجع منبهتاً منتقلاً لونه مرعوباً ، وقد ييست يدها على حجره حتى قذف بالحجر من يده ، وقامت إليه رجال من قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ ! فقال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه ، عرض لي دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته<sup>(3)</sup> ولا أنيابه لفحل قط ، فهم أن يأكلني . قال ابن إسحاق : فذكر لي : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : «ذلك جبريل ؛ ولو دنا منه لأخذه»<sup>(4)</sup> . روى البخاري والترمذي والإمام أحمد ، وصححه النسائي من طريق داود به : أن عبدالله بن عباس قال : «مر أبو جهل بالنبي - صلى الله عليه وسلم !- وهو يصلي ، فقال : ألم أنهك أن تصلي

(1) المصدر السابق . ص 118 .

(2) «فضخت» : كسرت وهشمت .

(3) «قصرته» : عُنُقَه .

(4) البداية والنهاية . ج 3 ص 43 .

يا محمد؟ لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً منّي . فانتهره النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فقال جبريل : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَدَّحُ الزَّيَّانَةِ ۖ ﴾<sup>(1)</sup> . والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب . وروى ابن جرير الطبري في تفسيره وتاريخه ، عن أبي هريرة أنه قال : « قال أبو جهل : هل يُعَفِّر وجه محمد بين أظهركم ؟ قالوا : نعم ، قال : واللآل والعزى لئن رأيته يُصَلِّي كذلك لأطأن على رقبته ولأُعقرن وجهه بالتراب . فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو يصلّي ليطأ على رقبته ، فما فاجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقيل له : ما لك ؟ ! قال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهو لا وأجنحة . قال أبو هريرة : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عُضُوءاً عُضُوءاً » . قال (ابن جرير الطبري) : - لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا - : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِفٌ ۖ ﴾<sup>(2)</sup> . إلى آخر السورة . وروى الإمام أحمد ، عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عباس قال : « ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- دعا على قريش ؛ غير يوم واحد ، فإنه كان يصلّي ورهط من قريش جلوس ، وسلا جزور قريب منه ، فقالوا : من يأخذ هذا السلا فيلقه على ظهره ؟ فقال عقبة بن أبي معيط : أنا ، فأخذه فألقاه على ظهره ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « اللَّهُمَّ عليك بهذا الملاء من قريش ! اللَّهُمَّ عليك بعقبة بن أبي معيط ! اللَّهُمَّ عليك بشيبة بن ربيعة ! اللَّهُمَّ عليك بأبي جهل بن هشام ! اللَّهُمَّ عليك بعقبة بن أبي معيط ! اللَّهُمَّ عليك بأبي بن خلف - أو أمية بن خلف » ! قال عبد الله بن عباس : « لقد رأيتهم قُتِلوا يوم بدر جميعاً<sup>(3)</sup> ، ثم سُحِبوا إلى القليب<sup>(4)</sup> ؛ غير أبي بن خلف - أو أمية بن خلف - فإنه كان رجلاً ضخمًا فتقطع<sup>(5)</sup> » . ويقول إسماعيل بن كثير . « وأنه - صلى الله عليه وسلم !- لما فرغ من صلاته ، رفع يديه يدعو عليهم ، فلما رأوا ذلك سكن عنهم الضحك<sup>(6)</sup> ، وخافوا دعوته ، وأنه - صلى الله عليه وسلم !- دعا على الملاء منهم جملة ، وعين في دعائه سبعة . وقع في أكثر الروايات تسمية ستة منهم ؛ وهم : عتبة ، وأخوه

(1) سورة «العلق» . الآية 17 ، 18 ، 6 ، 7 .

(2) «جميعاً» : الصحيح أن أبي بن خلف قُتِل يوم أحد .

(3) «القليب» : البئر .

(4) البداية والنهاية . ج 3 ص 44 .

(5) لأنهم عندما رمى عقبة السلا على ظهر رسول الله ، استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل إلى البعض من كثرة الضحك .

شبية ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وأبو جهل بن هشام، وعقبة بن أبي مُعيط، وأُمَيَّة بن خَلَف. قال ابن إسحاق: ونسيت السابع». قلت: وهو عمارة بن الوليد، وقع تسميته في صحيح البخاري<sup>(1)</sup>. هذا أقلّ من قليل ممّا قاساه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وعاناه من مشركي قريش، وعلى رأسهم أبو جهل عمرو بن هشام، وأبو لهب عبد العزّى لعنهما الله وأخزاهما وأمّا أصحابه - عليه الصلاة والسلام! - فقد لقوا من العذاب الشديد ما يعجز اللسان الفصيح عن وصفه والعقل الرزين عن تخيُّله؛ ولا سيّما أولئك المستضعفين: جاهاً، وحشماً!! قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق: «ثمّ إنهم عدّوا على من أسلم واتبع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكّة؛ إذا اشتدّ الحرّ؛ لاسيّما من استضعفوه منهم، يفتنونهم عن دينهم. فمنهم من يُفْتَن<sup>(2)</sup> من شدّة البلاء الذي يصيبهم، ومنهم من يَصْلُب<sup>(3)</sup> لهم ويعصمه الله منهم. فكان بلال مولى أبي بكر، لبعض بني جُمَح مولداً من موالدهم؛ وهو: بلال بن رباح. واسم أمّه: حمامة. وكان صادق الإسلام، طاهر القلب. وكان أُمَيَّة بن خَلَف يخرجّه إذا حميت الظّهيرة، ثمّ يأمر بالصّخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثمّ يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمّد - صلى الله عليه وسلم! - وتعبد اللات والعزّى، فيقول هو في ذلك: أحد! أحد!». وقال الذين عدّوا مع بلال بن رباح: فما من أحد من أصحاب رسول الله إلّا قد أعطى الفتنة؛ غير بلال، فإنّه قال: الأحد! الأحد. وقال محمّد بن إسحاق: «إنّ أبا بكر أعتق ممّن كان يُعَذَّب في الله عزّ وجلّ سبعة؛ أعتق بلالاً، وعامر بن فُهيرة والزّبيّة، وجارية بني عمرو بن مؤمل، والنهدية، وابنتها، وأمّ عُبَيْس. وذكر (عروة الراوي): أنّه مرّ بالنهدية ومولاتها تعذبها؛ تقول لها: والله لا أعتقك حتى يعتقك صباتك. فقال أبو بكر: أجل، يا أمّ فلان! قالت: فأعتقها إذن؛ فإنّها على دينك. قال أبو بكر: فَبَكَائِن؟ قالت: فبكذا وكذا. فقال قد أخذتها وأعتقها. ثمّ قال لها: رُدّي عليها طحينها. قالت: دعني أطحنه لها. . . وذهب بصر الزّبيّة، وكانت ممّن يعذب في الله عزّ وجلّ على الإسلام؛ فتأبى إلّا الإسلام. فقال المشركون: ما أصاب بصرها إلّا اللات والعزّى فقالت: كذا والله ما هو كذلك، فردّ عليها

(1) المصدر السابق. ج 3 ص 44.

(2) يفتن: يكفر.

(3) «يصلب»: يستعصي عليهم.

بصرها . . . وقال عبد الله بن الزبير: لما جعل أبو بكر يعتق أولئك الضعفاء بمكة، قال له (والده) أبو قحافة: أي بُني! لو أنك أعتقت رجلاً جلدًا يمنعونك ويقومون معك. فقال له: يا أبتى! إنما أريد ما أريد. فَيُحَدِّثُ أَنْ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿فَسَتَيْسَرُّهُ لِلسَّرِى﴾<sup>(1)</sup>. إلى آخر السورة. وحدثني رجال من آل عمار بن ياسر: أَنَّ سُمَيَّةَ أُمَّ عَمَّارٍ عَذَّبَهَا هَذَا الْحَيَّ مِنْ بَنِي الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَخْزُومٍ، عَلَى الْإِسْلَامِ؛ وَهِيَ تَأْبَى غَيْرَهُ، حَتَّى قَتَلُوهَا: طَعَنَهَا أَبُو جَهْلٌ بِحَرْبَةٍ فِي قَبْلِهَا؛ رَحِمَهَا اللَّهُ! وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - يَمُرُّ بِعَمَّارٍ وَأُمِّهِ، وَهُمَا يَعْذَبَانِ بِ«الْأَبْطَحِ»<sup>(2)</sup> فِي رَمَضَانَ مَكَّةَ فَيَقُولُ: «صَبِرَ آلُ يَاسِرٍ! مَوْعِدُكُمْ الْجَنَّةَ» وَكَانَ يَاسِرٌ عَبْدًا لِبَنِي بَكْرٍ، مِنْ بَنِي الْأَشْجَعِ بْنِ لَيْثٍ، فَاشْتَرَاهُ مِنْهُمْ؛ فَزَوَّجَهُ سُمَيَّةَ أُمَّ عَمَّارٍ، فَوَلَدَتْ عَمَّارًا. وَكَانَتْ سُمَيَّةَ أُمَةً لَهُمْ، فَأَعْتَقُوا سُمَيَّةَ وَعَمَّارًا وَيَاسِرًا. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَهُوَ يَكْبِي بِذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -: «مَا لَكَ؟ أَأَخَذَكَ الْكَفَّارُ فَغَطَّوكَ فِي الْمَاءِ، فَقُلْتَ: كَذَا وَكَذَا. فَإِنْ عَادُوا لَكَ فَقُلْ كَمَا قُلْتَ». . . . عَنْ سَعِيدِ بْنِ حَبِيبٍ قَالَ: قُلْتُ لَأَبْنِ عَبَّاسٍ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ! أَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَبْلُغُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَذَابِ مَا يَعْذَرُونَ بِهِ فِي تَرْكِ دِينِهِمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ وَاللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا لِيَضْرِبُونَ أَحَدَهُمْ وَيَجُوعُونَهُ وَيَعْطِشُونَهُ، حَتَّى مَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِسًا مِنْ شِدَّةِ الضَّرِّ الَّذِي بِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْطِيهِمْ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَحَتَّى يَقُولُوا: اللَّاتُ وَالْعُزَّى إِيْلَهُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَحَتَّى إِنْ أُلْجِئَ<sup>(3)</sup> لِيَمُرَّ بِهِمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا الْجُلُوعُ إِيْلَهُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، افْتِدَاءً مِنْهُمْ لَمَا يَبْلُغُونَ جَهْدَهُ. . . . عَنْ بَعْضِ آلِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: كُنَّا قَوْمًا يَصْبِيْنَا صَلَفَ<sup>(4)</sup> الْعَيْشِ بِمَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَشِدَّتِهِ. فَلَمَّا أَصَابَنَا الْبَلَاءُ اعْتَرَفْنَا لَذَلِكَ وَصَبَرْنَا لَهُ. وَكَانَ مَصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ أَنْعَمَ غِلَامَ بِمَكَّةَ وَأَجُودَ حُلَّةٍ مَعَ أَبِيهِ، ثُمَّ لَقِيَ رَأْيَتَهُ جَاهِدًا فِي الْإِسْلَامِ جَهْدًا شَدِيدًا؛ حَتَّى لَقِيَ رَأْيَتَ جِلْدِهِ يَتَخَشَفُ<sup>(5)</sup> تَخَشَفَ جِلْدَ الْحَيَّةِ عَنْهَا وَحَتَّى إِنَّا كُنَّا لَنَعْرُضُهُ عَلَى قَسِينَا فَتَحْمِلُهُ تَمَّ بِهِ مِنَ الْجَهْدِ، وَمَا

(1) سورة «الليل». الآية 5، 6، 7.

(2) «الأبطح» مسيل فيه دقائق الحصى.

(3) «الجلع»: حيوان كالخنفساء، يكثر في الموضع الندية والمستنقعات. جمع جعلان بكسر أوله وسكون ثانيه.

(4) «صلف العيش»: ضنكه وقليله.

(5) «يتخشف»: يبيس.

يقصر عن شيء بلغناه . ثم أكرمه الله عز وجل بالشهادة يوم أحد»<sup>(1)</sup> . وروى الإمام البخاري عن خَبَّاب أَنَّهُ قَالَ : « أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ! وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بِبُرْدَةٍ ، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً ، فَقُلْتُ : أَلَا تَدْعُو اللَّهَ ؟ فَقَعْدَ وَهُوَ مُحَمَّرُ الْوَجْهِ فَقَالَ : « قَدْ كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لِيَمِشَ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُوضَعُ الْمَنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ اثْنَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ . وَكَيْتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ » . زَادَ بَنَانُ الرَّائِي : « وَالذُّئْبُ عَلَى غَنَمِهِ » . وَفِي رِوَايَةٍ : « وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** بكاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حين رأى مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ سَلِيبَ النِّعْمَةِ الَّتِي كَانَ يَنْعَمُ بِهَا . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : « حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ قَالَ : حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ !- يَقُولُ : إِنَّا لَجُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- فِي الْمَسْجِدِ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ؛ مَا عَلَيْهِ إِلَّا بَرْدَةٌ لَهُ مَرْقُوعَةٌ بِقُرْوٍ . فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- بَكَى لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَبِمَا هُوَ فِيهِ الْيَوْمَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- : « كَيْفَ بَكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَى ، وَسُتِرَتْ جُذُرُ بَيْوتِكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ ؟ ! فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنْهُ الْيَوْمَ ؛ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ وَنَكْفِي الْمَوْتَةَ ؟ فَقَالَ : « أَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ »<sup>(2)</sup> .

**العبرة الثانية :** ما كان عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وأصحابه من شظف العيش أوائل المبعث النبوي قال سعد بن أبي وقاص : لقد رأيتني مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بمكة ، فخرجت من الليل أبول ، فإذا أنا أسمع قعقة شيء تحت بولي ، فنظرت فإذا قطعة جلد بغير ، فأخذتها فغسلتها ، ثم أحرقتها فرضضتها بين حجرين ، ثم استغفرتها ، فشربت عليها من الماء فقويت عليها ثلاثاً : أي : ثلاثة أيام .

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 174 .

(2) المصدر السابق . ص 174 .



**العبرة الثالثة :** عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثني من سمع علي بن أبي طالب -

رضي الله عنه !- يقول : خرجت في يوم شاتيء من بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ولقد أخذت إهاباً<sup>(1)</sup> . مقطوعاً ، فحويتُ وسطه فأدخلته في عنقي ، وشددتُ وسطي وحزمته بخوص النخل ؛ وإني لشديد الجوع . فلو كان في بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- طعام أطعمت منه . فخرجت ألتمس شيئاً فمررت بيهودي في مال له ، وهو يستقي ببكرة<sup>(2)</sup> له ، فاطلعت عليه من ثلثة في الحائط ، فقال : مالك يا عربي؟ هل لك في كل دلو بتمرة؟ فقلت : نعم ، فافتح الباب حتى أدخل . ففتح فدخلت فأعطاه دلوهُ . فلما نزعت دلوأ أعطاني تمرة ؛ حتى إذا امتلأت كفي أرسلت الدلو ، وقلت حسبي . فأكلتها وشربت . ثم جئت المسجد فوجدت رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم !

**العبرة الرابعة :** عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها !- قالت : كان ضجاعُ رسول الله -

صلى الله عليه وسلم !- أدمأ حشوه ليف . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ! قال : دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو مضطجع على خصفة<sup>(3)</sup> ، وأن بعضه لفي التراب ، متوسداً وسادة آدم ، محشوة ليفاً ، فوق رأسه إهاب معطون<sup>(4)</sup> ، معلق في سقف العلية ، وفي رواية منها شيء من قرط<sup>(5)</sup> .

**العبرة الخامسة :** عن سعيد المقبري قال : كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

حصير يفرشه بالنهار ؛ حتى إذا كان الليل احتجره في المسجد فصلّى فيه<sup>(6)</sup> . وعن عبد الله بن عباس قال : اضطجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ذات يوم على حصير ، فقام وقد أثر بجلده . فلما استيقظ جعلت أمسح عنه وأقول : ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً يقيك منه ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «وما أنا والدنيا؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها»<sup>(7)</sup> .

(1) «إهاباً» : جلدأ للحيوان قبل أن يذبح .

(2) «بكرة» : خشبة مستديرة في جوفها محور تدور عليه .

(3) «خصفة» : جلة تُعمل من الخوص ليحفظ فيها التمر ، ويطلق على كل ثوب غليظ جداً .

(4) «معطون» : يريح برائحة الدّيبغ .

(5) «من قرط» : من عشب .

(6) المصدر السابق . ص 175 ، 176 .

(7) المصدر السابق : الجزء والصفحة .

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن من أكره على الكفر فامثل قولاً وقلبه مطمئن بالإيمان، فهو باق على إيمانه. قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>.  
روى العوفي عن عبد الله بن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون؛ حتى يكفر بالله ومحمد - صلى الله عليه وسلم -! فوافقهم على ما أرادوه منه مكرهاً؛ فسب النبي - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! وذكر آلهتهم بخير. ثم جاء معتذراً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! فقال له الرسول: «كيف تجد قلبك؟» فقال مطمئناً بالإيمان. فقال له النبي: «إن عادوا فعد». فعلى هذا الأساس اتفق جميع المتفقهين من العلماء على أن المكره على الكفر أجاز الله أن يوالي، إبقاءً لمهجته، وأجاز له أن يأبى كما أبى بلال بن رباح. وما أصر عليه بلال أفضل وأزكى لمن أراد الشهادة.

**الحكم الثاني:** أن أول حكم حكم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الإسلام ما كان حقاً للإراشيّ الغريب على أبي جهل الظلوم. قال محمد بن إسحاق: «حدثني عبد الملك ابن أبي سفيان الثقفي قال: قدم رجل من «إراش» بإبل له إلى مكة فابتاعها منه أبو جهل بن هشام، فمأطله بأثمانها، فأقبل الإراشيّ حتى وقف على نادي قريش، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! جالس في ناحية المسجد، فقال: يا معشر قريش! من رجل يؤدّيني على أبي الحكم ابن هشام؟ فإني غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي؛ وأنا غريب ابن سبيل. فقال أهل المجلس: ترى ذلك الرجل؟ - يريدون رسول الله، ويستهزئون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من عداوة - اذهب إليه فهو يؤدّيك ما عليه. فأقبل الإراشيّ حتى وقف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! فقال: يا عبد الله! إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حقّي وأنا غريب ابن سبيل. وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدّيني عليه: يأخذ لي حقي منه، فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقي منه؛ رحمتك الله! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! انطلق إليه وقام معه. فلما رأوه قام معه قالوا للرجل من معهم: اتبعه فانظر ماذا يصنع. فخرج رسول الله، - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ فقال: محمد، فاخرج إليّ، فخرج

(1) سورة «النحل». الآية 106.

إليه وما في وجهه رائحة ، وقد انتقع لونه ، فقال له : « اعط هذا الرجل حقه » . فقال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذي له ، فدخل فخرج إليه بحقه يدفعه إليه . ثم أنصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وقال للإراشي : « الحق شأنك » . فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً ؛ فقد أخذ الذي لي . وجاء الرجل الذي بعثوا معه ، فقالوا له : ويحك ! ماذا رأيت ؟ فقال : عجباً من العجب : والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج ومعه روحه ، فقال : « اعط هذا الرجل حقه » . قال : نعم ؛ لا تبرح حتى أخرج إليه بحقه ، فدخل فخرج إليه بحقه ! فأعطاه إياه . ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل ، فقالوا له : ويلك ! مالك ؟ فوالله ما رأينا مثل ما صنعت . قال : ويلكم ! والله ما هو إلا ! أن ضرب عليّ بابي وسمعت صوته فمكّنت رعباً ، ثم خرجت إليه وإنّ فوق رأسي كَفْحَلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ؛ والله لو أبيت لأكلني<sup>(1)</sup> . وبالإضافة إلى هذا الحكم ، يمكن أن نستخرج من هذه القصة عبرة أخرى لمن يعتبر . والله أعلم .

### أسماء بعض المعذبين من المستضعفين

المعذبون من المسلمين المستضعفين ، هم أولئك الذين سبقوا إلى الإسلام ؛ ولا عشيرة لهم تحميهم ، ولا قوة لهم يدافعون بها عن أنفسهم ظلم المشركين المستمرّين في أذاهم لهم متى وجدوا إلى ذلك سبيلاً . ومن هؤلاء المستضعفين :

#### 1 - بلال بن رباح

هو : أبو عبدالله ، بلال بن رباح الحبشيّ ، مولى أبي بكر الصديق . كان أبوه رباح من سبّي الحبشة ، وأمّه حمامة سبّية أيضاً . وهو من مواليد السراة ، فصار لأمية بن خلف الجُمَحِي الذي قد بالغ في تعذيبه ما يجعل الولدان شيباً ! ! فلما رآه أبو بكر يُعَذَّب ، قال لأمية : ألا تتقي الله في هذا العبد المسكين ؟ فقال أمية : أنت أفسدته ، فأبعدته عني فقال أبو بكر : عندي غلام على دينك ، أسود ، أجلد من هذا المعذب في دينه ، أعطيك به . فقال أمية : قبلت ، فأعطاه أبو بكر إياه ، وأخذ بلالاً فأعتقه . فهاجر مع المهاجرين إلى المدينة المنورة ، وشهد كل المشاهد مع رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم ! رحمه الله !

(1) المصدر السابق ، ص 176 ، 177 .

## 2 - عمّار بن ياسر

هو: أبو اليقظان، عمّار بن ياسر العنسيّ. أسلم قديماً - هو - وأبوه، وأمّه؛ بعد إسلام بضعة وثلاثين رجلاً؛ أسلم - هو - وصُهِيبَ الرُّوميّ في يوم واحد؛ وذلك حينما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! في دار الأرقم بن الأرقم. وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم. وكانوا يخرجون عمّاراً وأباه وأمّه ويعذبونهم بحرّ الرمضاء<sup>(1)</sup>، فمرّ بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! وهم تحت العذاب، فقال لهم: «صبراً آل ياسر! فإنّ موعدكم الجنة». فمات ياسر - رحمه الله -! تحت التعذيب. وأغلظت امرأته سُميّة في القول لأبي جهل فطعنها بحربة في فرجها، فاستشهدت؛ رحمها الله! وهي أوّل شهيدة في الإسلام. وشدّد المشركون العذاب على عمّار بن ياسر بحرّ الرمضاء، وبوضع الصّخر على صدره، وبالتفريق في الماء. وشهد عمّار المشاهد كلّها مع رسول الله؛ صلى الله عليه وسلم! واستشهد بـ «صقّين» مع عليّ بن أبي طالب. وقد جاوز السّبعين من عمره؛ رحمه الله!

## 3 - خبّاب بن الأرت

هو: خبّاب بن الأرت التميميّ. أبوه سواديّ من كسّكر<sup>(2)</sup>. وقد سباه قوم من قبيلة ربيعة، وحملوه إلى مكّة؛ حيث باعوه من سباع بن عبد العزّي الخزاعيّ حليف بني زُهرّة. وسباع - هذا - هو الذي بارزه حمزة بن عبد المطلب يوم أُحُد؛ كما سيأتي الحديث عنه؛ إن شاء الله. وخبّاب - هذا - تميميّ. وقد قيل: إنّ إسلامه كان سادس إسلام ستّة، قبل دخول رسول الله دار الأرقم بن الأرقم. وقد عذبه المشركون عذاباً شديداً. فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء، ثمّ بالحجارة المحمّاة بالنار<sup>(3)</sup>، ويلوون رأسه، فلم يجبههم إلى ما أرادوه منه، وشهد المشاهد كلّها مع رسول الله. وكانت وفاته بالكوفة سنة ستّ وثلاثين للهجرة؛ رحمه الله!

(1) «الرمضاء»: شدة الحرّ والأرض أو الحجارة التي حميت من شدة وقع الشمس، بشعاعها عليها.

(2) كسّكر: جاء في «مراصد الاطلاع» لعبد المؤمن البغداديّ. حُزِفَ (الكاف والسين): كسّكر. معناه: كورة

واسعة وقصبتها واسط القصب التي بين الكوفة والبصرة، وكان قبل تحصيل الحجّاج واسطاً خسرو سابور. أو

خسابور: الذي هو قرية بينها وبين واسط خمسة فراسخ.

(3) هذه الحجارة هي المسماة بـ «الرّضف» مفردها رضفة.

#### 4 - صُهَيْبُ الرُّومِيِّ

هو : أبو يحيى ، صُهَيْبُ بن سنان الرُّومِيُّ ؛ ولم يكن رومياً بالأصالة ؛ وإنما نُسب إلى الروم ، لأنَّهم سبوه وباعوه . فهو من النَّمر بن قاسط . وقد كَتَّاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أبا يحيى قبل أن يولد له . وكان من المعذَّبين في الله عذاباً شديداً . ولما أراد الهجرة منعه مشركو قريش ، فافتدى نفسه منهم بجميع ما يملك من مال . وصهيب - هذا - هو الذي جعله عمر بن الخطاب عند موته إماماً يُصَلِّي بالمسلمين إلى أن يُسْتَخْلَفَ بعضُ أهل الشورى وكانت وفاته بالمدينة المنورة في شهر شوال من سنة ثمان وثلاثين للهجرة ؛ على عُمر بلغ سبعين سنة ؛ رحمه الله !

#### 5 - عامر بن فُهَيْرَة

هو : عامر بن فُهَيْرَة مولى الطفيل بن عبد الله الأزدي . والطفيل - هذا - أخ لعائشة أم المؤمنين من أمِّها : أم رومان . وإسلام عامر بن فهيرة كان قبل دخول رسول الله دار الأرقم بن الأرقم . وكان من المستضعفين المعذَّبين في الله ولم يرجعوا عن دين الإسلام ؛ بل ماتوا وهم مسلمون . وقد اشترى أبو بكر الصديق عامراً وأعتقه . وكان عامر - هذا - يرعى غنماً للذي أعتقه . وكان يروح بغنم أبي بكر إلى رسول الله وصاحبه حينما كانا في الغار : غار ثور ؛ وهما في طريقهما مهاجران إلى المدينة المنورة . وكان عامر - هذا - مهاجراً معهما ، وخادماً لهما في الوقت نفسه . وشهد مع رسول الله بدرأً وأحدأً ، واستشهد يوم بئر معونة وهو ابن أربعين سنة . ولَمَّا طُعِنَ كان آخر كلامه قوله : « فزتُ وربَّ الكعبة » . ولم يُعثر على جُثته ، لُيْدَفَنَ مع الشهداء . وقد قيل : إنَّ الملائكة دفنته ؛ رحمه الله !

#### 6 - أبو فُكَيْهَة ، أفلح

هو : أبو فُكَيْهَة ، أفلح ؛ كان عبداً لصفوان بن أمية بن خَلَف الجُمَحِيِّ ، وكان إسلامه مع إسلام بلال بن رباح الحبشي . وقد أمر سيِّده : أمية بن خلف أن تربط رجلاه بحبل ويُجَرَّ ، ثم يُلقَى في الرمضاء . وقد مرَّ به جَعْلٌ وهو في الرمضاء يُعَذَّب ، فقال له سيِّده : أليس هذا ربُّك ؟ فقال : الله ربِّي وربُّك وربُّ هذا ، فخنقه خنقاً شديداً . وكان أبي بن خلف أخو أمية يقول لأخيه : زِدْه عذاباً حتى يأتي محمداً فيخلصه من التعذيب بسحره . ولم يزل على تلك الحال ،

حتى ظنّوا أنّه قد فارق الحياة؛ ولكن لم يلبثوا طويلاً حتى فوجئوا بأنّه قد أفاق وعاد له إحساسه، فمرّ به أبو بكر فاشتراه وأعتقه، وهاجر مع المهاجرين. وتوفي وفاة طبعيّة قبل غزوة بدر الكبرى؛ رحمه الله!

## 7 - لبيبة جارية بني مؤمّل

هي : لبيبة جارية بني مؤمّل بن حبيب بن كعب . كان إسلامها قبل إسلام عمر بن الخطّاب ، وكان عمر - هذا - غارقاً في تعذيبها حتى تُفكّن ، فیدعها . وكان عمر يقول : إنني لم أدعك إلا سامةً ، فتجيبه بقولها : كذلك يفعل الله به إن لم تُسلم ، فاشترها أبو بكر وأعتقها ؛ رحمها الله !

## 8 - زنيّرة

هي : زنيّرة مولاة بني عديّ . وكان عمر بن الخطّاب وأبو جهل بن هشام يُعذّبانها ، وكان أبو جهل يمعن في تعذيبها حتى عميت ، فيقول لها : إنّ اللات والعزّى هما اللذان فعلا بك ما أنت عليه ، فتقول له : وهل يدري اللات والعزّى من يعبدهما ؟ ولكن هذا أمر من السماء ، وربّي هو قادر على ردّ بصري ؛ وقد أصبحت من الغد وقد ردّ الله لها بصرها ، فقال مشركو قريش : هذا من سحر محمد ، ثم اشترها أبو بكر وأعتقها ؛ رحمها الله !

## 9 - النّهديّة

هي : النّهديّة مولاة بني نهد ، ثم صارت لامرأة من عبد الدار ، ثمّ أسلمت . وكانت مولاتها تعذّبها وتقول لها : والله لا أقلع عن تعذيبك حتى يبتاعك بعض أصحاب محمد ، فابتاعها أبو بكر وأعتقها ؛ رحمها الله !

## 10 - أمّ عبّيس

هي : أمّ عبّيس أمة لبني زُهرة . فكان تعذيبها على يدي الأسود بن عبد يغوث ، فابتاعها أبو بكر وأعتقها ؛ رحمها الله ! وكان أبو جهل يأتي الوجهه الشريف من قريش ويقول له : كيف ترضى أن تترك دينك ودين أبيك ، وأبوك خير منك ؟ ! ويأتي التاجر من أبناء قومه ويقول له : ستكسد تجارتك ويهلك مالك ؛ إن أنت تركت دين آبائك . وكان يُغري بالضّعفاء حتى ينالهم العذاب .

## أسماء بعض المستهزئين برسول الله ومَن كان أشدهم عذاباً له

### 1 - أبو لهب

هو: أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب عمّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ورغم قرابة العمومة فإنّ هذا العمّ الشرير كان أكثر استهزاءً بأبن أخيه وبما جاء به من أمر ربه، وكان أشدّ عداوة وأعظم أذى لرسول الله، دائم التّكذيب له ولرسالته. فكان يطرح القذرة والتّن على باب رسول الله؛ رغم قرابة النسب وجوار السّكن. فكان رسول الله يزيل ذلك عن بابه وهو يقول: «أيّ جوار هذا يا بني عبد المطلب»؟! وانتصر حمزة بن عبد المطلب لابن أخيه محمّد الرسول؛ فرفع تلك العذرة وطرحها على رأس أخيه أبي لهب، فجعل يفضّها عن رأسه ويقول: صاحبي أحمق! ومات أبو لهب - لعنه الله! - عندما أنبئ بانتهاء المشركين بـ «بدر». وكان موته بسبب مرض يُعرف بداء «العَدَسَة»؛ وهي: بثرة تخرج في البدن كالطاعون قلّما يسلم المصاب بها.

### 2 - أبو جهل

هو: أبو جهل، عمّرو بن هشام المخزوميّ. كان أشدّ الأعداء عداوة لرسول الله، وأكثرهم أذىً له ولأصحابه وكنيته بالأصالة: أبو الحكم؛ وأبو جهل فتلك كنية كنّاه بها المسلمون. وهو الذي قتل سُمَيَّةَ أمّ عمّار بن ياسر. وأفعاله السيّئة مشهورة لدى الخاص والعامّ. وقد لقي حتفه - لعنه الله! - على يد ابني عفراء، وأجهز عليه عبدالله بن مسعود؛ وكان ذلك في غزوة بدر الكبرى.

### 3 - الأسود بن عبد يغوث

هو: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زُهرَة؛ وهو ابن خال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فكان من المستهزئين برسول الله وأصحابه. كان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه - مستهزئاً: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى! وكان يقول لرسول الله: أما كُلّمتَ اليوم من السماء يا محمد؟! فخرج من أهله فأصابه السموم<sup>(1)</sup> فأسودّ وجهه. فلمّا عاد إليهم لم يعرفوه وأغلقوا الباب في وجهه، فرجع متحيراً حتى مات عطشاً؛ لعنه الله.

---

(1) «السموم»: ريح شديدة الحرارة، تهبّ غالباً في أشهر الصيف

#### 4 - الحارث بن قيس

هو : الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سَهْم السَّهْمِيَّ . كان من المستهزئين والمؤذنين لرسول الله وأصحابه . وهو ابن امرأة تسمى الغَيْطَلَّة . وكان يأخذ حجراً فيعبده ، فإذا وجد حجراً أحسن من ذلك ترك الأوّل وعبد الثاني . وكان يقول : غرّ محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت . والله ما يهلكنا إلاّ الدهر . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> . وسبب موته أنّه أكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب الماء حتى مات ؛ لعنه الله !

#### 5 - الوليد بن المغيرة

هو : أبو شمس ، الوليد بن المغيرة ، بن عبد الله ، بن مخزوم . وكان يُلقَّب بـ «العدل» . بكسر أوّله وسكون ثانيه . لأنه كان يعدل قريشاً جميعها بالنسبة إلى كَسُو البيت . فقد كان يكسوه وحده ؛ بينما قريش تكسوه بجميع أفرادها . وهو الذي جمع قريشاً وقال لهم : إنّ الناس يأتونكم أيّام الحجّ فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه ؛ فمنكم من يقول : هذا ساحر ، ومنكم من يقول : هذا كاهن ، ومن يقول : هذا شاعر ، ومنكم من يقول : هذا مجنون ، وليس يُشبه بما هو عليه ممّا يقولون ؛ ولكن أصلح ما قيل فيه قولهم : ساحر ، لأنّه يفرّق بين المرء وأخيه وزوجته . وقال أبو جهل : لئن سبّ محمد آلهتنا سببنا إلهه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(2)</sup> . ومات الوليد بن المغيرة بعد ثلاثة أشهر من الهجرة النبويّة ، وبعد ما بلغ خمساً وتسعين سنة . ودُفن بمقبرة «الحجون» ؛ لعنه الله !

#### 6 - 7 - أمية وأخوه أبي

هما : أمية وأبي ابنا خلف . كانا شرّ ما عليه أحد من أذى لرسول الله وتكذيبه فيما جاء به من عند ربه . فهذا أبيّ قد جاء إليه بعظمٍ فخذ ففتته بيديه وفي يديه وقال لرسول الله : أنت تزعم أنّ ربك يحيي هذا العظم ، فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ <sup>(٧)</sup> وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ <sup>(٨)</sup> قُلْ

(1) سورة «الجاثية» . الآية 23 .

(2) سورة «الأنعام» . الآية : 108 .



يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٧٧﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٩﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٠﴾<sup>(١)</sup>. وصنع عقبة بن أبي معيط طعاماً ودعا إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فقال رسول الله لمن دعاه: « لا أحضر حتى تشهد أن لا إله إلا الله » فامتثل عقبة وفعل ، فقام الرسول معه مستجيباً لدعوته ، فقال له أمية بن خلف: « أنت الذي قلت: كذا وكذا؟ فقال له عقبة: إنما قلت ذلك من أجل أن يقبل محمد مني دعوتي إياه للطعام ، فنزلت هذه الآيات: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصِيُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ يَتَوَلَّىٰ لَيَتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴾ ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾<sup>(٢)</sup>. وقُتِلَ أمية ، لعنه الله يوم بدر كافراً ملعوناً قتله حبيب وبلال ؛ وأما أخوه أبي ، فقد لقي حتفه على يد رسول الله ؛ رماه يوم أحد بحربة فقتله لعنه الله ! ويا ويل من قتله رسول الله !

## 8 - أبو قيس بن الفاكهة

هو : أبو قيس بن الفاكهة بن المغيرة . كان يؤذي رسول الله ، ويعين أبا جهل على إذايته له . لقي حتفه على يد حمزة بن عبد المطلب يوم بدر ؛ لعنه الله !

## 9 - العاص بن وائل

هو : العاص بن وائل السهمي ، والد عمرو بن العاص . كان كثير الاستهزاء برسول الله والبغض له . وهو الذي - حين مات القاسم بن محمد رسول الله - قال : إنَّ محمداً أبتر ؛ لا يعيش له ولد ذكر . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾<sup>(٣)</sup> . مات بعد الشهر الثاني من الهجرة النبوية ؛ وعمره خمس وثمانون سنة . والسبب في موته أنه ركب حماره ، فلما بلغ شعباً من شعاب مكة ربض به حماره ، فُلِدَغَ في رجله ، فانتفخت حتى صارت مثل عنق البعير ، فمات ؛ لعنه الله !

(1) سورة «يس» . الآيات 77 - 83 .

(2) سورة «الفرقان» . الآيات 27 - 29 .

(3) سورة «الكوثر» . الآية .

## 10 - النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ

هو: أبو الفائد، النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، بن علقمة، بن كَلْدَةَ، بن عبد مناف، بن عبد الدار. كان أشدَّ المشركين تكذيباً لرسول الله، وأكثرهم أذىً له ولأصحابه. وكان من المطلعين على كتب الفرس والمخالطين لليهود والنصارى. ولما سمع بمبعث محمد نبياً قريباً، قال: إن جاءنا نذير لنكوننَّ أهدي من إحدى الأمم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۖ﴾ (١) أَشْتَكَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾ (٢). وكان يقول: إن ما أتاكم به محمد ما هو سوى أساطير الأولين؟ فأنزل الله تعالى بسبب قوله هذا عدة آيات. وكان مصير النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ أن يسقط أسيراً في يدي المقداد يوم بدر، وقد أمر رسول الله بضرب عنقه على يد علي بن أبي طالب بـ «الأثيل» (٣). لعنه الله!

## 11 - 12 - مُنَبِّهٌ وَأَخُوهُ نُبَيْهٌ

هما: مُنَبِّهٌ وَنُبَيْهٌ ابنا الحجاج السهمي. كانا مستمرين على نهج أعداء الله ورسوله والمسلمين جميعاً؛ من حيث إذايتهما لرسول الله وأصحابه، والطعن في شخص الرسول المعصوم وفي رسالته. وكانا يقولان لرسول الله: أما وجد الله من يبعثه رسولاً إلى الناس غيرك؟! مع أنه كان هنا من هو أسن منك وأيسر. فكان جزاء هذين المشركين الملعونين أن يلقيا حتفهما على يدي علي بن أبي طالب، صاحب «ذي الفقار» (٣) بمعركة بدر لعنهما الله!

## 13 - زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ

هو: زهير بن أبي أمية أخو أم سلمة لأبيها، واسم أمه عاتكة بنت عبد المطلب. كان يجهر بتكذيب رسول الله، ويظهر نفسه للناس أنه مكذب لما جاء به رسول الله من عند الله، ورادّ لوحي الله، وطاعن في شخص رسول الله؛ بيد أنه كان ممن أعان على نقض صحيفة الحصار المضروب على رسول الله وأهله؛ كما سيأتي. إن شاء الله! الحديث عنه قريباً. وقد اختلف الرواة في سبب موته؛ إلا أنه مات كافراً بالاتفاق. لعنه الله!

(1) سورة «فاطر». الآية 42، 43.

(2) «الأثيل»: موضع قرب المدينة بين بدر والصقراء؛ وهناك عين لآل جعفر بن أبي طالب.

(3) «ذي الفقار»: لقب لسيف علي البتار.

#### 14 - عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ

هو: أبو الوليد، عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ أَبَان، بن أَبِي عَمْرٍو بن أُمَيَّة، بن عبد شمس. كان أشدَّ الأعداء عداوة وأذىً لرسول الله وأصحابه. ومن أشدَّ عدوانه أنه عمد إلى مَكْتَل<sup>(1)</sup> فجعل فيه عَدْرَةً ووضع على باب رسول الله، فجاء طَلَيْبُ بْنُ عُمَيْرٍ - الذي أمّه أروى بنت عبد المطلب - فأخذه منه وضرب به رأسه، وأخذ بأذنيه، فشكا المضروب المأخوذ الضَّارِبَ إلى أمّه، فقال لها: إِنَّ ابْنَكَ طَلِيْبًا يَنْصُرُ مُحَمَّدًا، فأجابته بقولها: ومن أولى به مناصراً؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد. وكان مصير عَقْبَةَ الأَسْرُ بيدر، ثم قُتِلَ صَبْرًا على يدي عاصم بن ثابت الأنصاري، وصلبه، وهو أوّل قتيل يُصَلَّبُ في الإسلام. ولمَّا تيقَّن أنه سيقتل قال: يا محمد! مَنْ لِلصَّبِيَّةِ؟ فأجابه: بأن «لهم النار». لعن الله عَقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ.

#### 15 - الأَسْوَدُ بْنُ الْمَطْلَبِ

هو: أبو زمعة، الأَسْوَدُ بْنُ الْمَطْلَبِ، بن أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، بن قصي. كان من المستهزئين برسول الله وأتباعه. وكان - هو - وأصحابه ورفقاؤه كثيراً ما يتغامزون بالنبي وأصحابه، ويقولون لجمعهم - على وجه الاستهزاء برسول الله -: قد جاءكم من يملك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر! فيُصَفَّرُونَ به ويصفقون. فدعا رسول الله على أبي زمعة الأسود أن يعمى ويثكل ولده. فجلس أبو زمعة يوماً تحت شجرة ليستظل بها، فجعل جبريل يضرب وجهه وعيَّنه بورق الشجرة وشوكها حتى فقد بصره. وقُتِلَ - هو - وابنه بيدر كافرين. وكان قتله - هو - على يد أبي دُجَّانَةَ، وقتل ابن ابنه الحارث بن زمعة على يد علي بن أبي طالب، واشترك عليّ وحمزة في قتل ولد ابنه عَتِيبَ، لعنهم الله!

#### 16 - طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ

هو: أبو الرِّيَّان، طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ، بن نوفل، بن عبد مناف. كان يؤذي رسول الله ويشتمه، ويُسمعه ما لا يرضى سمعه، ويكذِّبه فيما جاء به من وحي ربّه. وقع في الأسر يوم بدر. وقتل صبراً على يد حمزة بن عبد المطلب. لعن الله أبا الرِّيَّان.

(1) «مكتل»: زَنْبِيلٌ يُصَنَعُ مِنَ الْخَوْصِ. وَالْخَوْصُ: وَرَقُ النَّخْلِ وَمَا شَاكَلَهَا.

## 17 - مالك بن الطلاله

هو : مالك بن الطلاله ، بن عمرو ، بن غبشان . كان من المؤذين لرسول الله والمستهزئين به . وكان متّصفاً بالحمق والسفاهة . وسبب موته أنّ الرسول دعا عليه ؛ فأشار جبريل إلى رأسه فامتلاً قيحاً ، فمات كافراً . لعنه الله !

## 18 - رُكّانة بن عبد يزيد

هو : رُكّانة بن عبد يزيد ، بن هاشم ، بن المطلب . كان من أشدّ أعداء الله عداوة لرسول الله وأكثرهم أذىً له . وكان مُبرّزاً في المصارعة ، فلم يصصره طوال حياته مُصارع قبل أن يلقي رسول الله . فلماً لقيه قال له : يا بن أخي ! لقد بلغني عنك أنّك نبيّ ولست بكذاب ؛ فإن صرعتني علمتُ أنّك صادق فيما جئتَ به . فصصره رسول الله ثلاث مرّات . وبعد الثالثة دعاه إلى الإسلام . فقال رُكّانة : لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة أن تقبل إليك ، فقال لها رسول الله : أقبلي فأقبلت تخذ<sup>(1)</sup> الأرض . فقال رُكّانة : ما رأيت سحراً أعظم من هذا ! مرّها فلترجع ، فأمرها فعادت إلى مكانها ، فقال : هذا سحر عظيم . لعنه الله .

فهؤلاء الأشخاص هم المغضوب عليهم الذين كانوا أشدّ الأعداء عداوة وأذى لرسول الله وأتباعه . وأمّا غيرهم من مشركي قريش ، فهم أقلّ وأرفق عداء للرسول وأصحابه : كشيبة ، وعُتْبة ، وأبي سفيان بن حرب ، والحكم بن أبي العاص ؛ ممّن أسلموا بعد إشرافهم وحسن إسلامهم . وسيأتي - إن شاء الله !- الحديث عن كلّ منهم . في محلّه بما فيه إقناع لمن يريد الاقتناع بأخبارهم .

## اعتراض المشركين على رسول الله وتعنّتهم في أسئلتهم إياه

تقدّم المشركون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بأسئلة على وجه خرق العوائد والإصرار على العناد ؛ وليس على وجه طلب الهدى والرغبة في الإرشاد . قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق :- «عن سعيد بن جبّير وعكرمة ، عن ابن عباس قال : اجتمع عليه<sup>(2)</sup> من أشرف قريش - وعدّد أسماءهم - بعد غروب الشمس عند الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه ، وخاصّموه حتى تُعذّروا<sup>(3)</sup> فيه . فبعثوا إليه : إنّ أشرف قومك

(1) «تخذ» : تشق .

(2) «عليه» : على أمر رسول الله وشأنه فيما جاءهم به من وحي ربّه .

(3) «تعذروا فيه» : يرفع عنكم اللوم فيه .

قد اجتمعوا لك ليكلّموك . فجاءهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سريعاً ؛ وهو يظنّ أنه قد بدا لهم في أمره بدءٌ . وكان عليهم حريصاً يحبّ رشدهم ، ويعزّ عليه عنّتهم - حتى جلس إليهم . فقالوا : يا محمد ! إنّا قد بعثنا إليك لنُعذّر فيك ، وإنّا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك . لقد شتمتَ الآباء ، وعبتَ الدّين ، وسفّهتَ الأحلام ، وشتمتَ الآلهة ، وفرّقتَ الجماعة ؛ وما بقي من قبيح إلاّ وقد جئتُ به فيما بيننا وبينك . فإن كنتَ إنّما جئتنا بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنّما تطلب الشرف فينا سودّناك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّاً<sup>(1)</sup> تراه قد غلب عليك - فرمما كان ذلك - بذلنا أموالنا في طلب الطبّ حتى نبرئك منه أو نعوذَ فيك . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « ما بي ما تقولون ؛ ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ؛ ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربّي ، ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به ، فهو حظّكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ ، أصبرُ لأمر الله ؛ حتى يحكم الله بيني وبينكم » . أو كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقالوا : يا محمد ! فإن كنت غير قابلٍ منّا ما عرضنا عليك ، فقد علمتَ أن ليس أحد من الناس أضيقُ بلاداً ولا أقلّ مالاً ولا أشدّ عيشاً منّا . قل لربّك الذي بعثك بما بعثك به ، فليُسيّرَ عنّا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا ، وليُيسّط علينا بلادنا وليُجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيما يُبعث لنا منهم قُصيّ بن كلاب ؛ فإنّه كان شيخاً صدوقاً ، فنسأله عمّا تقول ؛ أحق أم باطل ؟ فإن فعلت ما سألناك وصدّقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنّه بعثك رسولاً كما تقول . فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « ما بهذا بُعثتُ ؛ إنّما بُعثتُ من عند الله بما بعثني به ، فقد بلّغتكم ما أرسلتُ به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظّكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبرُ لأمر الله ؛ حتى يحكم الله بيني وبينكم » . قالوا : فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك ، فسَلْ ربّك أن يبعث لنا ملكاً يُصدّقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، ونسأله : فيجعل لنا جناتاً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضّة ، ويُغنيك عمّا نراك تبتغي ؛ فإنّك تقوم في الأسواق وتلتمس المعاش كما تلتمسه ، فقال لهم : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربّه هذا ، وما بُعثتُ

(1) «رَبِّيّاً» : الرّبّيّ - هنا :- الجنّيّ يعرض للإنسان ويطلعه على ما يزعم من الغيب .

إليكم بهذا؛ ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل. . فإنّا لن نؤمن لك إلّا أن تفعل. فقال: «ذلك إلى الله؛ إن شاء فعل بكم ذلك». فقالوا: يا محمد! أمّا علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ فقد بلغنا أنّه إنّما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنّا والله لا نؤمن بالرحمان أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد! وإنّا والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة؛ وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً<sup>(1)</sup>. فلمّا قالوا ذلك قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمّة رسول الله عاتكة بنت عبد المطلب - فقال: يا محمد! عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثمّ سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثمّ سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثمّ ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي منك بنسخة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنّك كما تقول. وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنّي لا أصدّقك، ثمّ انصرف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وانصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى أهله حزيناّ أسفاً لما فاته بما طمح فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مبادئهم إيّاه<sup>(2)</sup>.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أنّ صهيب بن سنان الرّوميّ قد افتدى نفسه بجميع ما يملك من المال، مقابل أن يسمح له المشركون بالهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، ولعل هذه العبرة هي وحدها درس زاجر لمن يبذل ماله من أجل أن تسمح له الدّول الكافرة بالإقامة في أرضها ودارها وبين شعوبها غريباً ذليلاً!! بل ذلك من أجل أن يُمنَح له تأشيرة الدخول إلى أرض الكفرة والملحدين؛ وتلك التأشيرة محدودة الإقامة!! وأكثر من هذه وتلك أنّه يبذل ماله ليرتدّ

(1) «قبيلاً»: ضامناً وكفياً.

(2) البداية والنهاية. ج 3 ص 50، 51.

عن دينه ويخون وطنه من أجل أن يتجنس بجنسيّة الكفرة الملحدين<sup>(1)</sup> ! ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾<sup>(2)</sup> .

**العبرة الثانية :** أن إعتاق أبي بكر سبعة من المسلمين المعذبين في الله وتحريرهم من ربة الرّق المشؤوم لفيه ترغيب وترهيب .

**فالترغيب** فيما اذخره الله لمن أعتق الرّقاب وحرّر النّسمات لوجه الله . قال مَنْ لا ينطق عن الهوى - عليه الصلاة والسلام :- « مَنْ أعتق رقبة مسلمة أعتق الله له بكلّ عُضْوٍ منها عُضْوًا منه من النَّار ؛ حتى قرّجه بفرجه »<sup>(3)</sup> . قال العلماء : ظاهر الحديث الشريف أن العتق يكفّر الكبائر ؛ وذلك لأنّ العتق له مزية على كثير من العبادات ، لأنّه أشق من الوضوء والصلاة والصوم ، لما فيه من بذل المال الكثير ، ولذلك كان الحجّ أيضاً يكفّر الكبائر .

**والترهيب :** بصليّ النار لمن عصى الملك الجبار ، واستعبد الأحرار ، وحال بينهم وبين دين الواحد القهار !! .

**العبرة الثالثة :** أن الحكمة من إعراض الله عن الإجابة عن جُلّ أسئلة المشركين يتبلور في أمرين اثنين :

**الأمر الأوّل :** أن أسألتهم كانت خارجة عن نطاق ما هو معقول الإجابة عنه ؛ بل قد كانت تحدياً للطبيعة الكونيّة والسّنن الإلهيّة ، التي - بحول الله وقوّته - لا يعترها تبديل ولا تحويل قال عزّ من قائل : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾<sup>(4)</sup> .

**الأمر الثاني :** أنّه قد سبق في علم الله أن هؤلاء السائلين مستمرّون في عنادهم وطغيانهم يعمهون ، ولن يُكتب لهم الإيمان . قال جلّ وعلا : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ \*

(1) انظر كتابنا «تبديل الجنسية ردّة وخيانة» ، باللّغتين : العربيّة والفرنسيّة .

(2) سورة «البقرة» . الآية 156 .

(3) رواه البخاريّ ومسلم والترمذيّ ، عن أبي هريرة .

(4) سورة «فاطر» . الآية 43 .

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا<sup>(1)</sup> مَا كَانُوا لِلْيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ جَاهِلُونَ<sup>(2)</sup>. وقال: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ<sup>(3)</sup>» وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ<sup>(4)</sup>. وقال: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ<sup>(5)</sup> وَءَاتَيْنَا نُوحًا مِثْرًا مَبْصُرَةً فَظَلَمُوا بِهَا<sup>(6)</sup> وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا<sup>(7)</sup>» إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المنزلة فيما يسألون وهم لا يؤمنون!! وفي سورة «الكهف» الخبر اليقين، والبرهان القاطع والحجة الدامغة على المشركين الشاكرين المرتابين فيما جاءهم به خاتم الأنبياء والمرسلين.

قال إسماعيل بن كثير - في تفسيره: «تفسير القرآن العظيم»؛ عند تفسيره لسورة «الكهف»:-

«وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجوا حتى أتوا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ووصفوا لهم أمره وبعض قوله؛ قالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال (الراوي): فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب؟ وسلوه عن رجل<sup>(5)</sup> طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالوا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد؛ قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن

(1) و«قُبُلًا»: مقابلة ومعانية.

(2) سورة «الأَنْعَام». الآية 109 - 111.

(3) سورة «يُونُس». الآية 96 - 97.

(4) سورة «الْإِسْرَاءِ». الآية 59.

(5) هو: ذو القرنين.



أمور وأخبروهم بها . فجاؤوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقالوا : يا محمد ! أخبرنا ، فسألوه عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « أخبركم غداً عما سألتكم عنه » ؛ ولم يستثن<sup>(1)</sup> ، فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام !- حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد « غداً » ، واليوم خمس عشرة [ ليلة ] قد أصبحنا فيها ، لا يُخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مكث الوحي عنه وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل - عليه السلام !- من الله عزّ وجلّ بسورة أهل الكهف ، فيها معاتبته إيّاه على حزنه عليهم وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطوّاف ، في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾<sup>(2)</sup> .

### الهجرة الأولى إلى الحبشة

أول هجرة في الإسلام هي هجرة المسلمين إلى الحبشة فكانت في رجب سنة خمس من مبعثه - عليه الصلاة والسلام !- برسالة النبوة ؛ وهي السنة الثانية من الأمر بإظهار الدعوة الإسلامية والصدّع بها قال محمد بن إسحاق : « فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ما انصبّ على أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية ؛ بمكانه من الله عزّ وجلّ ، ومن عمّه أبي طالب . وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء والشدة ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ؛ فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد - وهي أرض صدق - حتى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه » . فهاجر رجال من أصحابه إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرّوا إلى الله عزّ وجلّ بدِينهم ، واستخفى آخرون بإسلامهم . فكانت أول هجرة كانت في الإسلام »<sup>(3)</sup> . وبلغ عدد هؤلاء المهاجرين أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ؛ وفي مقدّمتهن عثمان<sup>(4)</sup> بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وروى محمد الواقديّ : أن خروجهم من مكة كان ما بين ماش وراكب حتى انتهوا إلى شاطئ البحر<sup>(5)</sup> ، فاستأجروا سفينة بنصف دينار إلى الحبشة .

(1) « لم يستثن » : لم يقل : إن شاء الله .

(2) سورة « الإسراء » . الآية 85 .

(3) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 154 .

(4) عثمان بن عفان هو أول مهاجر بأهله ؛ بعد النبي لوط .

(5) « شاطئ البحر » : مرسى سفن مكة قبل مرسى جدة المعروفة بـ « الشقيّة » .

فأقاموا في مهجرهم شهرين أو يزيد؛ أي: شعبان ورمضان بكاملهما أو ما زاد عليهما من أيام شهر شوال. وكان على هؤلاء المهاجرين، عثمان بن مظعون.

### عودة المهاجرين إلى مكة

كان السبب في عودة المسلمين المهاجرين إلى أرض مكة، أنه قد بلغهم في مهجرهم أن أهل مكة قد أسلموا، وأن الوليد بن المغيرة، وأبا أحيحة، سعيد بن العاص قد سجد كل منهما خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فعلى هذا الأساس قرّروا أن يرجعوا إلى وطنهم، لأن ما بلغهم من نبأ إسلام قريش بمكة جعلهم في مأمن من أذى المشركين؛ إن هم عادوا إلى مسقط رؤوسهم. فخرجوا من الحبشة في شهر شوال للسنة التي هاجروا فيها، وهم عائدون إلى وطنهم المفدى. ولما وطئت أقدامهم ضواحي مكة، التقوا أحد الركبان من قبيلة كنانة، فسألوهم عن أحوال المسلمين هناك؟ فأنبؤوهم: «أن دار ابن لقمان على حالها»؛ بل المسلمون هناك يلاقون من أشدّ عنت المشركين وأذاهم لهم أكثر من ذي قبل. فسقط في أيدي العائدين، وتبين لهم أن ما بلغهم من نبأ إسلام قريش، هو نبأ مكذوب وعار من الصحة. فهم إذن بين أمرين اثنين: إمّا أن يعودوا أدراجهم إلى الحبشة فيكونوا في أمان وسلام، وإمّا أن يغامروا بأنفسهم فيدخلوا مكة، فيصبروا على أذى المشركين كما صبروا عليه قبل أن يهاجروا. وفي النهاية انقسموا زمرتين: زمرة فضلت أن تعود مهاجرة إلى الحبشة، على رأسها عبدالله بن مسعود. وزمرة اختارت أن تدخل مكة بالجوار، وتخوفوا أن يدخلوها بغير جوار. ومكنوا خارجها بضواحيها؛ حتى أجارهم من أجارهم. فمنهم أبو سكرة بن عبد الأسد، فقد دخلها بجوار من خاله أبي طالب وأم أبي سكرة برة بنت عبد المطلب. ومنهم عثمان بن مظعون، فقد دخلها بجوار من الوليد بن المغيرة؛ بيد أن هذا الجوار لم يدم إلا أقلّ من قليل! رغبة في جوار الله. قال محمد بن إسحاق: «لما رأى عثمان ما يلقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وأصحابه من الأذى، وهو يغدو ويروح بأمان الوليد ابن المغيرة قال والله إن غدوّي ورواحي آمنأ بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابه وأهل بيتي يلقون من البلاء والأذى في الله عز وجلّ ما لا يصيني لنقص كثير في نفسي. فمشى إلى الوليد ابن المغيرة، وهو في المسجد، فقال له: يا عبد شمس! وفّت ذمتك. قد كنت في جوارك وقد أحببت أن أخرج منه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! ولي به وبأصحابه أسوة. قال الوليد: فلعلك - يا بن أخي! - أوديت وانتهكت؟ فقال: لا؛ ولكنّي أرضى بجوار الله تعالى،

ولا أريد أن أستجير بغيره . قال : فانطلق إلى المسجد فارددْ عَلَيَّ جِواري علانية كما أجزتك علانية ، فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد : هذا عثمان بن مظعون قد جاء ليردَّ عَلَيَّ جِواري . فقال عثمان : صدق ، وقد وجدته وفيًّا ، كريم الجوار ، وقد أحببتُ أن لا أستجير بغير الله ، وقد رددت عليه جواره ، ثم انصرف عثمان بن مظعون . وكَبِيد الشاعر بن ربيعة بن جعفر بن كلاب القَيْسِيّ ؛ كان في مجلس قریش يُنشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال كَبِيد : «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ» فقال عثمان : صدقت ، فقال لَبِيد : «وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ» . فقال عثمان : كذبت ، فالتفت إليه القوم وقالوا للبيد : أعد علينا ، فأعاد لَبِيد ، وأعاد عثمان بتصديقه مرّة وتكذيبه مرّة . وإِثْمًا يعني عثمان - إذا قال : كذبت - يعني نعيم الجنة لا يزول . فقال لَبِيد : والله يا معشر قریش ! ما كانت مجالسكم هكذا ، فقام سفيه إلى عثمان ولطم عينه فاخضرت ، فقال له من كان حوله : والله يا عثمان ! لقد كنت في ذمّة منيعة وكانت عينك غنيّة عما لقيت ، فقال عثمان : جوار الله آمن وأعزّ ، وعيني الصحيحة فقيرة إلى ما لقيتُ أُخْتُها ، ولي برسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة وبمن معه أسوة . فقال الوليد : هل لك في جِواري ؟ فقال عثمان : لا أَرَبَ لي في جِوار أحد ؛ إلا جِوار الله .

### الهجرة الثانية إلى الحبشة

ولمّا عاد بعض المهاجرين من الحبشة إلى مكة بعد الهجرة الأولى ، ازداد أذى المشركين عليهم وعلى من أسلم لله واتبع رسوله ، واشتدّ العنت على المسلمين في أرضهم وعُقر دارهم ، أذن لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يخرجوا من أرضهم مهاجرين إلى أرض الحبشة للمرّة الثانية ، ويلتحقوا بمن سبقهم إلى هناك وتبقى هناك من إخوانهم في الدين . فشق على عثمان بن عفّان أن يفارق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ! فهجرتنا الأولى وهذه الثانية إلى النّجاشي ولست معنا . فقال رسول الله : «أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» . قال عثمان فحسبنا يا رسول الله . روى الإمام البيهقيّ : عن أبي حمزة أنس بن مالك أنّه قال : خرج عثمان بن عفّان ومعه امرأته رُقِيّة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله خبرهما ، فقدمت امرأة من قریش فقالت : يا محمّد ! قد رأيتُ خَتَنَكَ ومعه امرأته . قال : «على أيّ حال رأيتهما؟» قالت : قد حمل امرأته على حمار من هذه الدّبابة وهو يسوقها . فقال رسول الله : «صحبهما الله» . ثم خرج من

مكة ضعفاء المسلمين أرسالاً من مهاجرين إلى الحبشة؛ حيث اجتمعوا سالمين آمنين مطمئنين على دينهم وأنفسهم. وبلغ عددهم هناك اثنين وثمانين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة قرشية، وسبعاً غرائب. وفي رواية أخرى: كانوا اثنين وتسعين رجلاً، وثمانية عشرة امرأة، وسبعة من الأبناء الصغار؛ بالإضافة إلى المولودين من المسلمين المهاجرين هناك. وهم خمسة ذكور، وأربع إناث: محمد بن أبي حذيفة. وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب. وسعد بن خالد بن سعيد بن العاص. وعبدالله بن المطلب بن أبي أزهري بن عبد مناف. وموسى بن الحارث، وعائشة بنت الحارث. وزينب بنت الحارث وفاطمة بنت الحارث وزينب بنت أبي سلمة. وكان في مقدمة هؤلاء المهاجرين الهجرة الثانية جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب وحليته أسماء بنت عميس بن النعمان. وقد ذكر أصحاب السير النبوية كل فرد من هؤلاء المهاجرين باسمه وقبيلته التي ينتمي إليها<sup>(1)</sup>. وقد أقلق المشركين بمكة استقرار من هاجر وأقام بالحبشة وحز في نفوسهم وران على قلوبهم فدفع بهم ذلك أن يجتمعوا في شأن هؤلاء الفارين بدينهم المهاجرين في أرض الله، فيقرروا أن يزودوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة بهدايا ثمينة، ويرسلوهما إلى ملك الحبشة أوصحة النجاشي وبطارقته، ييغون بتلك الهدايا قرابة من أجل طرد المسلمين المهاجرين من أرض المملكة النجاشية وإعادتهم إلى أرض الجاهلية. قال محمد بن إسحاق: «... عن أم سلمة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم! - أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في منعة من قومه وعمه؛ لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه. فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه». فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار: أمنا على ديننا ولم نخش منه ظملاً. فلما رأت قريش أن قد أصبنا داراً وأمناً، أجمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشي فينا، ليخرجنا من بلاده وليردنا عليهم. فبعثوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته؛ فلم يدعوا منهم رجلاً إلا هيئوا له هدية على ذي حدة وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم. ثم ادفعا إليه هداياه وإن استطعنا أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا.

(1) ابن إسحاق، محمد. كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 205 - 208.

فقدما عليه ، فلم يبق بطريق من بطارقه إلا قدماً إليه هديته وكلّماه ، وقالوا له : إِنَّا قَدَمْنَا عَلَى هَذَا الْمَلِكِ فِي سَفْهَاءٍ مِنْ سَفْهَاتِنَا ، فَارْقُوا أَقْوَامَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ، فَبِعِثْنَا قَوْمَهُمْ فِيهِمْ ، لِيَرُدَّهُمُ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ . فَإِنْ نَحْنُ كَلَّمْنَاهُ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يَفْعَلَ . فَقَالُوا : نَفْعَلُ . ثُمَّ قَدَمْنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ الْأُدْمُ : (الجلود المدبوغة الناعمة ، جمع أديم) . فَلَمَّا أَدْخَلَا عَلَيْهِ الْهَدَايَا قَالَا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ فَتِيَةً مِّنَّا سَفْهَاءٌ فَارْقُوا دِينَ قَوْمَهُمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُّبْتَدِعٍ لَا نَعْرِفُهُ ، وَقَدْ لَجَّوْا إِلَى بِلَادِكَ ، فَبِعِثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ عَشَائِرَهُمْ : آبَاؤَهُمْ ، وَأَعْمَامَهُمْ ، وَقَوْمَهُمْ ، لَتَرُدَّهُمْ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ فَتَمْنَعُهُمْ بِذَلِكَ . فَغَضِبَ (النَّجَاشِيُّ) ، ثُمَّ قَالَ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَرُدَّهُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى أَدْعُوهُمْ وَأَكَلِمَهُمْ وَأَنْظُرَ فِي أَمْرِهِمْ . إِنَّهُمْ قَوْمٌ لَجَّوْا إِلَى بِلَادِي وَاخْتَارُوا جَوَارِي عَلَى جَوَارِ غَيْرِي ؛ فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولُونَ رَدَدْتَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتَهُمْ ، وَلَمْ أَدْخُلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ ، وَلَمْ أَنْعَمْهُمْ عَيْنًا . فَأَرْسَلُ إِلَيْهِمُ النَّجَاشِيَّ فَجَمَعَهُمْ - وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رِيْعَةَ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيَّ كَلَامَهُمْ - فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُ النَّجَاشِيِّ اجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالُوا : مَا تَقُولُونَ ؟ فَقَالُوا : مَاذَا نَقُولُ ؟ نَقُولُ : وَاللَّهِ مَا نَعْرِفُ وَمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِنَا وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنْ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ . فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ، كَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ؟ فَارْقَتُمْ دِينَ قَوْمِكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ ! فَمَا هَذَا الدِّينَ ؟ فَقَالَ جَعْفَرُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ! كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشَّرْكِ : نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ ، وَنَسْتَحِلُّ مُحَارِمَ بَعْضِنَا مِنْ بَعْضٍ فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَغَيْرِهَا ؛ لَا نَحِلُّ شَيْئًا وَلَا نَحْرُمُهُ . فَبِعِثَ اللَّهُ إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا ؛ نَعْرِفُ وِفَاءَهُ وَصَدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ . فَدَعَانَا إِلَى أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَنُصَلِّ الرِّحْمَ ، وَنُحْسِنَ الْجَوَارِ ، وَنُصَلِّيَ ، وَنُصُومَ ، وَلَا نَعْبُدَ غَيْرَهُ . فَقَالَ (النَّجَاشِيُّ) : هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ تَمَّا جَاءَ بِهِ ؟ - وَقَدْ دَعَا أَسَاقِفَتَهُ فَأَمَرَهُمْ فَنَشَرُوا الْمَصَاحِفَ حَوْلَهُ - فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ : نَعَمْ ، قَالَ : هَلُمَّ ، فَاتْلُ عَلَيَّ مَا جَاءَ بِهِ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ «كَهْيَعَص»<sup>(1)</sup> ، فَبَكَى - وَاللَّهِ - النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ . ثُمَّ قَالَ : هَذَا الْكَلَامُ لِيُخْرِجَ مِنَ الْمَشْكَاءِ<sup>(2)</sup> الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى . فَانْطَلَقُوا رَاشِدِينَ ؛ لَا ، وَاللَّهِ لَا أَرُدَّهُمْ

(1) «كهيعص» : سورة «مريم» .

(2) «المشكاة» : كوة في الجدار غير نافذة يوضع فيها المصباح .

عليكما، وَلَا أَنْعَمَكُمَا عَيْنًا. فخرجا من عنده. فقال له عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهِ لَا تَبَيَّنَ  
غَدًا بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خُضْرَاءَهُمْ: لِأَخْبَرْتَهُ أَنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ إِلَهَهُ الَّذِي يَعْبُدُهُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ عَبْدٌ،  
فقال له عبدالله بن أَبِي رَبِيعَةَ - وَكَانَ أَتَقَى الرَّجُلَيْنِ -: لَا تَفْعَلْ. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، دَخَلَ عَلَيْهِ  
فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: فِي عَيْسَى قَوْلًا عَظِيمًا فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنْهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ  
(قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ): وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلَهَا، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ لَهُ فِي عَيْسَى  
إِنْ هُوَ سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَقُولُ - وَاللَّهِ - الَّذِي قَالَهُ اللَّهُ فِيهِ - وَالَّذِي أَخْبَرْنَا نَبِيَّنَا أَنْ يَقُولَهُ فِيهِ.  
فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، وَعِنْدَهُ بَطَارِقَتُهُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي  
طَالِبٍ: نَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ وَرُوحُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ. فَدَلَّى  
النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ عُودًا بَيْنَ إصْبَعَيْهِ فَقَالَ: مَا عَدَا عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ مِمَّا قُلْتَ هَذَا  
الْعُودُ، فَتَنَاخَرَ<sup>(1)</sup> بِطَارِقَتِهِ، فَقَالَ: وَإِنْ تَنَاخَرْتُمْ - وَاللَّهِ - أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ «سَيُومٌ» بِأَرْضِي.  
و«السَّيُومُ»: الْآمَنُونَ. وَمَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ! وَمَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ! وَمَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ! - ثَلَاثًا - مَا أَحَبَّ أَنْ  
لِي دَبِيرًا وَأَتِي أَدَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ. و«الدَّبِيرُ» بِلِسَانِهِمْ: الذَّهَبُ فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّْي الرِّشْوَةَ  
حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَأَخَذْتُ الرِّشْوَةَ - أَنَا - فِيهِ، وَلَا أَطَاعَ النَّاسُ فِيَّ فَأَطَاعَ النَّاسُ فِيهِ. رَدُّوا عَلَيْهِمَا  
هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا، وَاخْرَجَا مِنْ بِلَادِي. فخرجا مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاء به.  
فأقمنا مع خير جار في خير دار. فلم ينشب أن يخرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه.  
(قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ): فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا حَزَنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ فَرَقًا<sup>(2)</sup> أَنْ يَظْهَرَ<sup>(3)</sup> ذَلِكَ الْمَلِكُ عَلَيْهِ،  
فِيَأْتِي مَلِكٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ يَعْرِفُهُ (مَنْ كَانَ قَبْلَهُ). فَلَعَلَّنَا نَدْعُو اللَّهَ وَنَسْتَنْصِرُ لِلنَّجَاشِيِّ.  
فخرج إليه سائراً. فقال أصحاب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بعضهم لبعض: مَنْ (هُوَ)  
رَجُلٌ يَخْرُجُ فَيَحْضُرُ الْوَقْعَةَ حَتَّى يَنْظُرَ عَلَى مَنْ تَكُونُ؟ فَقَالَ الزَّيْبِرُ بْنُ الْعَوَامِ - وَكَانَ مِنْ أَحَدَثِهِمْ  
سَنًا -: أَنَا. فَتَفَخَّخُوا لَهُ قَرْبَةً، فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ خَرَجَ يَسْبِغُ عَلَيْهَا فِي النَّيْلِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ  
شَقِّهِ الْآخِرِ وَإِلَى جَنْبِ التَّقَاءِ النَّاسِ، فَحَضَرَ الْوَقْعَةَ، فَهَزَمَ اللَّهُ ذَلِكَ الْمَلِكَ وَقَتْلَهُ، وَظَهَرَ النَّجَاشِيُّ  
عَلَيْهِ. قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَجَاءَ الزَّيْبِرُ فَجَعَلَ يَلْمَحُ إِلَيْنَا بِرَدَائِهِ وَيَقُولُ: أَلَا أَبْشَرُوا فَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ

(1) «التناخر»: التصويت بالخياشيم والمناخر.

(2) «فرقاً»: خوفاً وتخوفاً.

(3) «يظهر»: ينتصر.

النجاشي. فوالله ما علمنا (أبدأ) فرحنا بشيء قط كَفَرَحْنَا بظهور النَّجَاشِيِّ. ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة وأقام من أقام»<sup>(1)</sup>.

### إسلام النَّجَاشِيِّ ووفاته وصلاة الغائب عليه

فلما سمع النَّجَاشِيُّ ما سمع من جعفر بن أبي طالب صدَّقه فيما حدَّثه به ، واطمأنت نفسه وثلج صدره ؛ لا سيَّما قراءته صدرأ من سورة «مريم» عليه ؛ تلك القراءة التي أثرت في نفسه وأثارت قلبه بنور الإسلام ، فاهتدى بها إليه وأسلم ؛ بيد أنه أخفى إسلامه وكنمه عن رعيته ؛ ولكن هذا الإخفاء قد انكشف لهم في تأمينه المهاجرين إلى أرضه وترحيبه بهم في مملكته ، فخرجوا عليه وعصوه فيما كانوا له طائعين مطيعين ! قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق :- . . .  
اجتمعت الحبشة فقالوا للنَّجَاشِيِّ : إنك فارقت ديننا وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه ، فهياً لهم سَفْناً وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزِمْتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا . ثم عمداً إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، ويشهد أنَّ عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم . ثم جعله في قبائه<sup>(2)</sup> عن المنكب الأيمن ، وخرج إلى الحبشة وصقوا له . فقال : يا معشر الحبشة ! ألسن أحقَّ النَّاسِ بكم؟ قالوا : بلى . قال : فكيف أنتم بسيرتي فيكم؟ قالوا : خير سيرة . قال : فما بكم؟ قالوا : فارقت ديننا وزعمت أنَّ عيسى عبد الله ورسوله . قال : فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا : نقول هو ابن الله . فقال النَّجَاشِيُّ - ووضع يده على صدره على قبائه :- وهو يشهد أنَّ عيسى بن مريم ، ولم يزد على ذلك ؛ وإنَّما يعني . ما كتب ، فرضوا وانصرفوا . فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فلما مات النَّجَاشِيُّ صَلَّى عليه واستغفر له<sup>(3)</sup> . وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه !- أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- نعى النَّجَاشِيَّ لأصحابه في اليوم الذي مات فيه ، وخرج بهم إلى المصلَّى فصَفَّ بهم وكَبَّرَ أربع تكبيرات . قال عبد الرحمن السَّهْلِيُّ : «وصلَّى عليه بـ»البقيع« ، رُفِعَ إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه وهو بالمدينة فصلَّى عليه . وتكلَّم المنافقون فقالوا : أَيْصَلَّى على هذا العِلْجِ ؟ ! فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 194 - 197 .

(2) «القباء» : ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويُنْمَطَقُ عليه .

(3) البداية والنهاية . ج 3 ص 77 .

أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ<sup>(1)</sup>. وروى الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة». وفي رواية لبعض الرواة: أنه كان عبداً صالحاً، كيبياً زكياً، عادلاً عالماً؛ رضي الله عنه وأرضاه! وكانت وفاته - رحمه الله - بعد فتح «خير» سنة سبع من الهجرة. وبعد وفاته قدم المدينة بقية من كانوا مهاجرين بالحيشة وفيهم جعفر بن أبي طالب. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «والله ما أدري بأيهما أنا أسرُّ: بفتح خَيْر أم بقدم جعفر بن أبي طالب».

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين قالت: لما مات النجاشي، كان يُتحدثُ أنه لا يزال يُرى على قبره نور.

**العبرة الثانية:** أن قول النجاشي: «ما أخذ مني الرشوة؛ حين ردّ عليّ ملكي، فأخذُ (أنا) الرشوة فيه، وما أطاع النَّاسَ فيّ فأطيع النَّاسَ فيه». فهذا يبدو سافراً المقصد واضح المعنى في حديث عائشة أم المؤمنين؛ حين قالت: «إنَّ أباه (أي: أبا أصحمة النجاشي) كان ملك قوم، ولم يكن له ولد إلا النجاشي»، وكان للنجاشي عمّ له من صُلْبِه اثنا عشر رجلاً وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة فيما بينها: لو أنّا قتلنا أبا النجاشي وملّكنا أخاه، فإنّه لا ولد له غير هذا الغلام (أصحمة النجاشي)، وإنّ لأخيه من صلبه اثني عشر رجلاً، فيتوارثون ملكه من بعده، بقيت الحبشة بعده دهرًا. فغدوا على أبي النجاشي (اسمه أبجر) فقتلوه، ونشأ النجاشي مع عمّه. وكان لبيباً حازماً من الرجال - فغلب على أمر عمّه ونزل منه بكلّ منزلة. فلمّا رأت الحبشة مكانه منه، قالت فيما بينها: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه، وإنّا لنتخوّف أن يملّكه علينا، وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين (انتقاماً لأبيه). لقد عرف أنّا نحن قتلنا أباه. فمضوا إلى عمّه فقالوا له: إمّا أن تقتل هذا الفتى، وإمّا أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنّا قد خفناه على أنفسنا. قال الملك (عمّ النجاشي) لهم: ويلكم! قتلتُ أباه بالأمس وأقتل ابنه اليوم!! بل أخرجته من بلادكم. قالت عائشة أم المؤمنين: فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجّار بستمائة درهم<sup>(2)</sup> فقذفه التاجر في سفينة فانطلق به، حتى إذا كان العشيّ من ذلك اليوم، هاجت سحابة

(1) سورة «آل عمران». الآية 199.

(2) وفي رواية بسبعمائة، وفي أخرى بمائة فقط.



من سحائب الخريف ، فخرج الملك العم يستمطر تحتها ، فأصابته صاعقة فقتلته . قالت (عائشة أم المؤمنين) : ففزعَت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحَمَّقٌ<sup>(1)</sup> ليس في ولده خير ، فخرج على الحبشة أمرهم . فلما ضاق عليهم ما هم فيه من ذلك ، قال بعضهم لبعض : تعلموا والله أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره ، هو الذي بعتموه غدوة ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة ، فأدركوه الآن . قالت (عائشة أم المؤمنين) : فخرجوا في طلبه وطلب الرجل الذي باعوه منه حتى أدركوه (قبل خروجه من أرض الحبشة) ، فأخذوه ممن باعوه منه . ثم جاؤوا به ، فأقعدوا عليه التاج ، وأقعدوه على سرير الملك ، فملكوه . فجاءهم التاجر الذي كانوا باعوه منه ، فقال لهم : إما أن تعطوني مالي ، وإما أن أكلّمه في ذلك . قالوا : لا نعطيك شيئاً . قال : إذن والله أكلّمه . قالوا : دونك إياه . (قالت عائشة أم المؤمنين) : فجاء فجلس بين يديه فقال : أيّها الملك ابعت غلاماً من قوم بالسوق بستمائة درهم ، فأسلموا إليّ غلامي وأخذوا دراهمي ، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي . قالت (عائشة أم المؤمنين) : فقال لهم النجاشي : لَتُعْطُوهُ دراهمه أو ليضعن غلامه يده في يده فليذهبن به حيث شاء . قالوا : بل نعطيه دراهمه . قالت (عائشة أم المؤمنين) : فلذلك يقول (النجاشي) : «ما أخذ الله منّي رشوة حتى يردّ عليّ ملكي ، فأخذ (أنا) الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه . قالت (عائشة أم المؤمنين) : وكان ذلك أوّل ما خَبَر صلابته في دينه وعدله في حكمه»<sup>(2)</sup> .

### العبرة الثالثة : أن هناك رواية أخرى سوى رواية عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها !-

تلك الرواية تفيدنا أنّ النجاشي تغيب طويلاً عن وطنه ، بسبب بقائه في قبضة سيده التاجر العربي الذي اشتراه ممن باعوه إياه ، فذهب إلى الجزيرة العربية ؛ حيث استعمله راعياً لمواشيه ، ومكوّثه في خدمة سيده سنح له أن يتعلّم اللغة العربية ، ويفهم ما تلا عليه جعفر بن أبي طالب من آيات سورة «مريم» ، فيخشع لما تلي عليه فتفيض عيناه دمعاً وتخضّل لحيته بدموع بكائه . قال عبد الرحمن السهيلي : «وقد بين (الراوي) في حديث آخر : أن سيده كان من العرب ، وأنّه استعبده طويلاً ؛ وهو الذي يقتضيه قوله (أي : قول الراوي) : فلما مرج<sup>(3)</sup> على الحبشة أمرهم وضاق

(1) «مُحَمَّقٌ» : جميع أولاده مصابون بالطيش والخفّة وقلة العقل .

(2) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 197 - 199 . البداية والنهاية ج 3 ص 75 ، 76 - سيرة ابن هشام بشرح

الروض الأنف . ج 3 . ص 249 ، 250 .

(3) «مرج» : اشتد اضطرابه .

عليهم ما هم فيه . فهذا يدل على طول المدّة في مغيبه عندهم . وقد رُوي أن وقعة بدر حين انتهى خبرها إلى النجاشي ، علم بها قبل أن يعلم بها من كان عنده من المسلمين فأرسل إليهم ، فلمّا دخلوا عليه إذ هو قد لبس مسحاً<sup>(1)</sup> وقعد على التراب والرّماد ، فقالوا له : ما هذا أيّها الملك ؟! فقال : إنّنا نجد في الإنجيل : أنّه سبحانه إذا أحدث بعبد نعمة وجب على العبد أن يحدث لله تواضعاً ، وإنّ الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة ؛ وهي : أنّ النّبّيّ محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد أبلغني أنّه التقى هو وأعداؤه بوادٍ ويقال له : بَدْر ، كثير الأراك ، كنتُ أرعى فيه الغنم على سيدي ، وهو من بني ضَمْرَة ، وأنّ الله هزم أعداءه فيه ، ونصر دينه . فدلّ هذا الخبر على طول مكثه في بلاد العرب . فمن هنا - والله أعلم - تعلّم من لسان العرب ما فهم به سورة «مريم» حين تُلّيت عليه حتى بكى وأخضل لحيته . ورُوي عنه أنّه قال : إنّنا نجد في الإنجيل : «أنّ اللّعة تقع في الأرض إذا كانت إمارة الصبيان»<sup>(2)</sup> . وأدهى من هذا وأمرّ أن الإمارة في زماننا هي بأيدي صبيان العقول الطائشة والأفكار المنحرفة ، والأجسام المتخمّة .

**العبرة الرابعة :** إكرام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لوفد النجاشي في المدينة المنورة . روى البيهقي عن أبي غالب ، عن أبي أمامة قال : قدم وفد النجاشي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقام يخدمهم ، فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله ! قال : «إنّهم كانوا لأصحابي مكرّمين ، وإنّي أحبُّ أن أكافئهم» .

**العبرة الخامسة :** أنّ للنجاشي ولداً يكنى أبا نيزر . ولما توفي أبوه أصبح بعد ذلك عبداً مملوكاً في يد أحد تجّار العرب ، فاشتراه عليّ بن أبي طالب من ذلك التاجر وأعتقه ، إكراماً لأبيه الذي أحسن للمسلمين المهاجرين إلى مملكته ، وأبقاه في كفالته ومؤنّته ، ولما سمع أهل الحبشة بآبائهم ملكهم وهو موجود في أرض العرب ، أرسلوا وفداً ليأخذوه ويجعلوه ملكاً عليهم مكان أبيه النجاشي ؛ ولكنّ أبا نيزر أبى إلّا أن يبقى مسلماً بين المسلمين ، وفضّل ما هو عليه على ملكهم الذي راودوه عليه وابتغوه له !! قال محمد بن إسحاق : «حدثني والدي إسحاق بن يسار قال : رأيت أبا نيزر بن النجاشي ؛ فما رأيت رجلاً قطّ عربياً ولا عجمياً أعظم ولا أوسم منه . وجده عليّ بن أبي طالب مع تاجر بمكّة فابتاعه منه وأعتقه مكافأة للنجاشي ، لما كان ولي من أمر جعفر وأصحابه . فقلت لأبي : أكان أبا نيزر أسود

(1) «مسحاً» : كساء من شعر ؛ وهو هنا : لباس الرهبان .

(2) الرّوض الأنف . ج 3 ص 260 .

كسواد الحبشة؟ فقال: لو رأيته لقلت: رجل من العرب»<sup>(1)</sup>. وقال محمد بن إسحاق أيضاً: «حدثني عبدالله بن الحسن: أن أمّه فاطمة بنت الحسين حدثته قالت: قدم على أبي نيزر بن النجاشي - وكان عليّ بن أبي طالب أعتقه - ناسٌ من الحبشة فأقاموا عنده شهراً ينحرو لهم عليّ بن أبي طالب ويصنع لهم الطعام. فقالوا له: إن أمر الحبشة قد مرجّ عليهم فانطلق معنا نملكك عليهم، فإنك ابن من قد علمت. فقال: أما إذ أكرمني الله بالإسلام ما كنت لأفعل. فلما يشسوا منه رجعوا وتركوه. وكان أيما رجل؛ غير أنه كان رجلاً يتلمّز ويصيب الخمر»<sup>(2)</sup>.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن قول النجاشي - وهو واضع يده على ما كتبه بين صدره وقبائه -: «إن عيسى ابن مريم ولم يقل إنّه رسول الله، ليس قوله هذا من الكذب الصّراح؛ وإنّما هو في المعاريض مندوحة وفسحة وسعة عن الكذب المشروع، لجلب المصالح ودفع المضار». وهذا ما فهمناه من قوله - عليه الصلاة والسلام -: «ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس؛ فيُنمي»<sup>(3)</sup> خيراً أو يقول خيراً»<sup>(4)</sup>. وقوله: «كلّ الكذب يكتبُ على ابن آدم؛ إلّا رجلاً كذب بين مُسلمين ليُصلح بينهما»<sup>(5)</sup>. والكذب ليس هو حرام لذاته؛ بل هو بالنسبة إلى ما يترتب عليه: خيراً أو شراً، صلاحاً أو فساداً. وقد أصاب الإمام الغزالي محزّ الحقيقة حيث قال: «الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح؛ إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً، وواجب إن كان المقصود واجباً؛ كما أن عصمة دم المسلم واجبة فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم، فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه إلّا بالكذب فالكذب مباح»<sup>(6)</sup>.

(1) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي ص 202.

(2) المصدر السابق الصفحة نفسها.

(3) «فينمي»: فيبلغ خيراً على وجه الصلاح.

(4) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، عن أمّ كلثوم بنت عقبة. ورواه الطبراني عن شدّاد بن أوس.

(5) رواه الترمذي والإمام أحمد عن أسماء بنت زيد.

(6) أبو حامد، محمد الغزالي. إحياء علوم الدين. إستانبول. دار الدعوة للطباعة والنشر. ج 3 ص 134.

**الحكم الثاني :** أن علماء الفقه الإسلامي قد اختلفوا في حكم مشروعية الصلاة على الميت الغائب عن بلده: فذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد وجمهور السلف إلى مشروعيّتها. وذهب الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، والإمام أحمد بن تيمية وأصحابهم مذهباً إلى عدم مشروعيّتها مطلقاً؛ بل لا يصلّي على الغائب إلا إذا وقع موته بأرض ليس فيها من يصلّي عليه. وترجم بهذا الراوية المحدث أبو داود، وهو الصحيح، بدليل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لم يثبت أنه صلى على ميت مات غائباً في بلد فيها من يصلّي عليه، وصلاته - صلى الله عليه وسلم! - على النجاشي معلولة بأنه لم يكن من يصلّي عليه بمكان موته. وهي الأصل في الصلاة على الغائب في الدين الإسلامي منذ موت النجاشي والصلاة عليه.

### قصة الغرائق<sup>(1)</sup> أكذوبة مدسوسة!

لقد غرق من غرق: من رواة الأحاديث النبوية، وكتاب السير الحمديّة، وأصحاب التفسير القرآنيّة، في حماة هذه القصة المقحمة إقحاماً مزوراً تزويراً، لا يقبله عقل سليم ولا دين قويم. وما ذلك إلا مكيّدة مدبرة من زنادقة البشر، لمن لا ينطق عن الهوى فيما أمره الله بتبليغه كما أوحى به إليه مبنئ ومعنى. وقد تصدّى لتفنيد هذه الفرية السافرة وإبطالها بعض المحققين من علماء السلف والخلف؛ بيد أنهم لم يبلغوا في ذلك مبلغ العلامة المدقق المحقق أبي الفضل القاضي عياض اليعصبى؛ من حيث استنباط البراهين القاطعة واستخراج الحجج الدامغة، وردع المفتريين وإقناع المرتابين. و«قطعت جهيّزة قول كلّ خطيب». قال - رحمه الله! - ونور مثواه: «وقد توجّهت<sup>(2)</sup> ههنا لبعض الطّاعنين سؤالات؛ منها ما روي<sup>(3)</sup>: أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - لما قرأ سورة «النجم» قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمَنُوءَ الثَّالِثَةِ <sup>(٤)</sup> <sup>الْأُخْرَىٰ</sup>، قال: تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتها لترتجى. ويروى: لترضى. وفي رواية إن شفاعتها لترتجى، وإنها لمع الغرائق العلى. وفي أخرى: والغرائقة العلى تلك الشفاعة ترتجى. فلما ختم السورة، سجد وسجد معه المسلمون والكفار؛ لما سمعوه أثنى على آلهتهم.

(1) «الغرائق» -: جمع غرنوق، بضم الغين المعجمة والتّون، وبكسرهما وفتح النون، وبضمّها وفتح النون وسكون الراء والياء، وبكسرهما وسكون الراء كقنديل -: هو بالأصالة طير من طيور الماء، أبيض اللون، طويل العنق. وقيل: إنه الكرّكي. ويقال للشابّ الناعم الممتلئ شباباً وحسناً. وقد استُعمِر للأصنام التي كان المشركون يزعمون أنها تقرّبهم من الله!

(2) وقعت وصدرت.

(3) ومن الرواة: ابن جرير الطبري، وابن المنذر: وغيرها عن سعيد بن جبّير.

(4) سورة «النجم». الآية 19، 20.

وما وقع في بعض الروايات : أن الشيطان ألقاها على لسانه ، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم !- كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه ، وفي رواية أخرى : أن لا ينزل<sup>(1)</sup> عليه شيء يُنقِرهم عنه وذكر هذه القصة وأن جبريل - عليه السلام !- جاءه فعرض عليه السورة . فلما بلغ الكلمتين<sup>(2)</sup> ، قال له : ما جئتُك بها تين ، فحزنَ لذلك النبي - صلى الله عليه وسلم !- فأنزل الله تعالى تسليّة له قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾<sup>(3)</sup> . وقوله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ آلِذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۚ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا ﴾<sup>(4)</sup> وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ إِذَا لَا أَذَقْنَكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾<sup>(5)</sup> . فاعلم - أكرمك الله !- : أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين :

أحدهما : في توهين أصله<sup>(5)</sup> .

الثاني : على تسليمه .

أما المأخذ الأول : فيكيفك أن هذا حديث لم يُخرجه أحد من أهل الصحة<sup>(6)</sup> ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ؛ وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . وصدق القاضي أبو بكر بن العلاء<sup>(7)</sup> المالكيّ حيث قال : « لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير » . وتعلق بذلك الملحدون ؛ مع ضَعْفِ ثِقَلَتِهِ واضطراب روايته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته ؛ فقايل يقول : إنّه قالها في الصلاة ، وآخر يقول : قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل ، حدث نفسه فسها ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ؛ وأن النبي - صلى الله عليه وسلم !- لما عرضها على جبريل ، قال : ما هكذا أقرأتكَ ، وآخر يقول : بل ، أعلمهم الشيطان : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم !- قرأها فلما بلغ النبي - صلى الله عليه وسلم !- ذلك قال : « والله ما

(1) يتمنى أن لا ينزل .

(2) أي : قوله : « تلك الغرائق العلى . . . » .

(3) سورة «الحج» . الآية 52 .

(4) سورة «الإسراء» . الآية 73 - 75 .

(5) ضعف أصله : رواية ودراية .

(6) أصحاب الكتب الستة .

(7) هو : أبو بكر ، محمد بن العربيّ صاحب : «أحكام القرآن» .

هكذا نزلت»؛ إلى غير ذلك من اختلاف الرواة. وما حُكيَتْ هذه الحكاية عنه<sup>(1)</sup> من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب<sup>(2)</sup>. وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شُعْبَةَ<sup>(3)</sup>. عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس. قال - فيما أحسب<sup>(4)</sup> الشك في الحديث<sup>(5)</sup> -: أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - كان بمَكَّة وذكر القصة. قال أبو بكر البزار<sup>(6)</sup>: هذا الحديث لا نعلمه. يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم! - بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا<sup>(7)</sup>، ولم يُسند عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله<sup>(8)</sup> عن سعيد بن جُبَيْر؛ وإنما يُعرف عن الكلبي<sup>(9)</sup>، عن أبي صالح<sup>(10)</sup>، عن ابن عباس. فقد بين لك أبو بكر - رحمه الله! - أنه لا يُعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا. وفيه من الضعف ما نبه عليه البزار؛ مع وقوع الشك فيه؛ كما ذكرناه من أنه الذي لا يوثق به، ولا حقيقة معه. وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره، لقوّة ضعفه وكذبه؛ كما أشار إليه البزار - رحمه الله! - والذي منه في الصحيح: أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - قرأ: «والتّجَم»، وهو بمَكَّة، فسجد معه المسلمون والمشركون والجنّ والإنس. هذا توهينه من طريق النقل. فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته - صلى الله عليه وسلم! - ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة<sup>(11)</sup>. أما من تنبيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر، أو أن يتسور<sup>(12)</sup> عليه الشيطان، ويُسَبَّه<sup>(13)</sup> عليه القرآن، حتى يجعل فيه ما ليس منه، حتى يُنبّهه جبريل - عليه السلام! - أن كلّ ممتنع في حقه - صلى الله عليه وسلم! - أو يقول ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم! - من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر، أو سهواً، وهو معصوم من هذا كلّهُ. وقد قرّرنا بالبراهين والإجماع

(1) «عنه»: كابن جرير الطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(2) أي: صحابي.

(3) «شعبة»: ابن الجراح، وهو إمام جليل.

(4) «أحسب»: أظن.

(5) «في الحديث»: في أصله ومرتبه؛ لا في سنده.

(6) «البزار»: نسبة إلى عمل بزر الكتّان بلغة البغداديين.

(7) «هذا»: الحديث المسند إلى ابن عباس.

(8) «يرسله»: يرويه مُرسلاً والحديث المرسل: ما سقط من سنده الصحابي.

(9) هو: أبو النضر، المفسر، الراوي، النسابة.

(10) هو: باذان، يروي عن مولاته أم هانئ، عن علي بن أبي طالب.

(11) الخصلة الدنيئة القبيحة.

(12) «يتسور»: يتسلق ويتصعد؛ كناية عن التسلط والترفع.

(13) «ويُسَبَّه»: ويلبس.

عصمته - صلى الله عليه وسلم! - من جريان الكفر على قلبه أو لسانه؛ لا عمداً، ولا سهواً؛ أو أن يتشبه عليه ما يليقه الملك مما يلقي الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو يقول على الله؛ لا عمداً ولا سهواً، ما لم ينزل عليه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾ ۖ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا ۖ إِذَا لَا أَذَقْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٣).

**وجه ثان:** وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً؛ وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام متناقض الأقسام، ممتزج المدح والذم، متخاذل التأليف والنظم. ولما كان النبي - صلى الله عليه وسلم! - ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل؛ فكيف بمن رجع حلمه، واتسع في باب اللسان ومعرفة فصيح الكلام علمه؟!.

**وجه ثالث:** أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأوّل وهلة وتخليط. العدو على النبي - صلى الله عليه وسلم! - لأقل فتنة وتغييرهم (٤) المسلمين والشماتة (٥). بهم الفينة (٦) بعد الفينة، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين صولة (٧)، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة؛ كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء؛ حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء، ردة وكذلك ما روي في قصة القضية (٨) ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ولا تشغيب (٩) للمعادي حينئذ أشد من

(١) التقول: كناية عن الافتراء والكذب.

(٢) سورة «الحاقة». الآية ٤٤ - ٤٦.

(٣) سورة «الإسراء». الآية ٧٥.

(٤) إلحاق بالمسلمين ما هو عار عليهم.

(٥) إظهار العدو فرحه بما يصيب عدوه من نوائب الدهر.

(٦) حيناً بعد حين.

(٧) الاستطالة والقهر.

(٨) القضاء والتعاضّي في أمر الحديبية. وقد قصّها الله في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آلَ رُؤَيْبَاَ آلَتِيَّ أَرْبَابَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفَرَاءِ ۖ وَنَحْوُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾. سورة «الإسراء». الآية ٦٠.

(٩) تهيج الشر والفتنة.

هذه الحادثة لو أمسكت ، فما رُوي عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم نسبها بنتُ شفة تدلّ على بطلها واجتثاث أصلها . ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجنّ هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

**وجه رابع :** ذكر الرواة هذه القضية أنّ فيها نزلت : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ...﴾ الآيتين . . . وهاتان الآيتان تردّان الخبر الذي روّوه ، لأنّ الله تعالى ذكر أنّهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنّه لولا أن ثبت له كاد يركن إليهم . فمضمون هذا ومفهومه أنّ الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً . فكيف كثيراً؟! وهم يرون في أخبارهم الواهية : أنّه زاد على الركون والافتراء مدح آلهتهم ، وأنّه قال - صلى الله عليه وسلم !- افترت على الله وقلت ما لم يقل !!

وهذا ضدّ مفهوم الآية ؛ وهي تضعف الحديث لو صحّ ، فكيف ولا صحة له؟! وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(1)</sup> . وقد روي<sup>(2)</sup> عن ابن عباس : كلّ ما في القرآن (من لفظ) «كاد» (وما يُصرّف منه) ، فهو : ما لا يكون<sup>(3)</sup> . قال الله تعالى : ﴿يَكَادُ سَنَآ بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾<sup>(4)</sup> . ولم يذهب . و«أكاد أخفيها»<sup>(5)</sup> . ولم يفعل . قال القشيري القاضي : وطلبت منه قريش وثقيف<sup>(6)</sup> إذ مرّ بالهتهم<sup>(7)</sup> أن يقبل<sup>(8)</sup> بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كان ليفعل . قال ابن الأنباري<sup>(9)</sup> : ما قارب الرسول ولا ركن . وقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخر ما ذكرناه من نصّ الله على عصمة رسوله سفسافها . فلم يبق في الآية إلّا أنّ الله تعالى امتنّ على رسوله بعصمته وتثبته بما كاده به الكفار وراموا من فتنته . ومرادنا من ذلك تنزيهه وعصمته - صلى الله عليه وسلم !- وهو مفهوم الآية .

(1) سورة «النساء» . الآية 113 .

(2) الراوي : هو ابن أبي حاتم وغيره من المحدثين .

(3) ما لا يقع .

(4) «سنّا» : ضوء ونور .

(5) «أخفيها» الضمير يعود على «الساعة» .

(6) «ثقيف» : قبيلة مشهورة بالطائف .

(7) بأوثانهم وأصنامهم .

(8) أن يتوجه بوجهه .

(9) هو : أبو بكر ، محمد بن القاسم النحوي ؛ كان من أعلم الناس بالأدب والنحو في القرن الثالث للهجرة .



وأما المأخذ الثاني : فهو مبنيّ على تسليم الحديث - لو صحّ - وقد أعاذنا الله من صحته ؟ ولكن على كلّ حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة : منها الغث والسمين <sup>(1)</sup> . فمنها ما روى قتادة ومقاتل : أن النبي - صلى الله عليه وسلم !- أصابته سنة عند قراءته هذه السورة <sup>(2)</sup> ، فجرى الكلام على لسانه بحكم النوم . وهذا لا يصحّ ؛ إذ لا يجوز على النبي - صلى الله عليه وسلم !- مثله في حالة من أحواله ، ولا يخلقه الله على لسانه ، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة ، لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو . وفي قول الكلبي : أن النبي - صلى الله عليه وسلم !- حدّث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه <sup>(3)</sup> ، وفي رواية ابن شهاب ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن <sup>(4)</sup> قال : قال : وسها ، فلما أخبر بذلك قال : إنّما ذلك من الشيطان . وكلّ هذا لا يصحّ أن يقوله النبي - صلى الله عليه وسلم !- لا سهواً ولا قصداً ، ولا يتقوله الشيطان على لسانه . وقيل : لعلّ النبي - صلى الله عليه وسلم !- قاله أثناء تلاوته : على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ؛ كقول إبراهيم - عليه السلام !- : «هَذَا رَبِّي» <sup>(5)</sup> ، على أحد التأويلات ، وكقوله : «بل فعله كبيرهم هذا» <sup>(6)</sup> . بعد السكّت <sup>(7)</sup> وبيان الفصل بين الكلامين ، ثمّ رجع إلى تلاوته . وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدلّ على المراد ، وأنّه ليس من المتلو <sup>(8)</sup> ، وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر <sup>(9)</sup> ، ولا يُعترض على هذا بما روي : أنّه كان في الصلاة ؛ فقد كان الكلام فيها - قبل - غير ممنوع . والذي يظهر ويترجّح في تأويله عنده <sup>(10)</sup> وعند غيره من المحقّقين - على تسليمه - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم !- كان كما أمر ربّه يرتّل القرآن ترتيلاً ، ويُفصّل

(1) الغث : الضعيف الرقيق ممّا لا يُجدي نفعاً . والسمين : القوي المقبول الذي يدفع الشبهة دفعاً . وكلا اللفظين كناية .

(2) سورة «النجم» .

(3) محاكياً لصوته ونطقه به .

(4) المخزوميّ العرشيّ التابعي .

(5) سورة «الأنعام» . الآية 77 ، 78 .

(6) سورة «الأنبياء» . الآية 63 .

(7) «السكّت» : الوقفة الخفيفة بين آية وأخرى .

(8) «المتلو» : من كلام الله .

(9) «أبو بكر» : محمد بن العربيّ الفقيه .

(10) «عنده» : عبد أبي بكر ، محمد بن العربيّ .

الآي تفصيلاً في قراءته؛ كما رواه الثقات عنه<sup>(1)</sup>. فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، محاكياً نعمة النبي - صلى الله عليه وسلم! - بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنّوها من قول النبي - صلى الله عليه وسلم! - وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله وتحقّقهم من حال النبي - صلى الله عليه وسلم! - في ذمّ الأوثان وعيها ما عُرف منه. وقد حكى موسى بن عقبة في مغازيه نحو هذا<sup>(2)</sup>، وقال: إنّ المسلمين لم يسمعوها<sup>(3)</sup>؛ وإنّما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم، ويكون ما روي من حزنه - صلى الله عليه وسلم! - لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(4)</sup>. فمعنى «تَمَنَّى»: تلا. قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾<sup>(5)</sup>. أي: تلاوة وقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾. أي: يذهب ويُزيل اللبس به ويحكم آياته. وقيل: معنى الآية: هو ما يقع للنبي - صلى الله عليه وسلم! - من السهو إذا قرأ فينتبه لذلك ويرجع عنه. وهذا نحو قول الكلبي في الآية<sup>(6)</sup>: إنه حدّث نفسه وقال: «إذا تمَنَّى» أي: حدّث نفسه. وفي رواية أبي بكر بن عبد الرحمن نحوه. وهذا السهو في القراءة إنّما يصحّ فيما ليس طريقه تغيير المعاني وتبديل الألفاظ وزيادة ما ليس من القرآن؛ بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة؛ ولكنّه لا يُقرُّ على هذا السهو؛ بل يُنبّه عليه ويذكّر به للحين؛ على ما سنذكره في حكم ما يجوز عليه من السهو وما لا يجوز. ومّا يظهر في تأويله أيضاً أنّ مجاهدًا روى هذه القصّة: «والغرائقة العلى». فإن سلّمنا القصّة<sup>(7)</sup>. قلنا: لا يبعد أنّ هذا كان قرآنًا. والمراد بـ«الغرائقة العلى»، وأن شفاعتهنّ لتُرتجى: الملائكة على هذه الرواية؛ وبهذا فسّر الكلبي الغرائقة أنّها الملائكة، وذلك أنّ

(1) «عنه»: عن النبي؛ عليه الصلّاة والسلام.

(2) نحو ما ذكر عن المحققين.

(3) أي: مقالة الشيطان.

(4) سورة «الحج». الآية 52.

(5) سورة «البقرة». الآية 78.

(6) الآية 19، 20 من سورة «النجم».

(7) لكنّه مُنكر، لانصباب الاستفهام الإنكاري عليه.

الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله ؛ كما حكى الله عنهم وردّ عليهم في هذه السورة بقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ . فأنكر الله كل هذا من قولهم . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح<sup>(1)</sup> . فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر ألتهتهم ولبس عليهم الشيطان ذلك وزينه في قلوبهم وألقاه إليهم ، نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلاً للإلباس ؛ كما نُسخ كثير من القرآن ورُفعت تلاوته . وكان في إنزال الله تعالى ذلك حكمة ، وفي نسخه حكمة ، ليضلّ به من يشاء ويهدي من يشاء . وما يضلّ به إلا الفاسقين<sup>(2)</sup> . و﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ<sup>(3)</sup> . وقيل : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما قرأ هذه السورة وبلغ ذكر « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ، خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها ، فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ، ليخلطوا في تلاوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ويشتعوا عليه على عادتهم وقولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾<sup>(4)</sup> . ونُسب هذا الفعل إلى الشيطان ، لحمله لهم عليه ، وأشاعوا ذلك وأذاعوه ، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قاله ، فحزن لذلك من كيدهم وافترائهم عليه ، فسلاّه الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية<sup>(5)</sup> . . . . . وبين للناس الحق من ذلك من الباطل . وحفظ القرآن وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو ؛ كما ضمنه تعالى من قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾<sup>(6)</sup> . ومن ذلك ما روي من قصة يونس - عليه السلام - أنه وعد قومه العذاب عن ربه . فلما تابوا<sup>(7)</sup> كشف عنهم العذاب ، فقال : لا أرجع إليهم كذاباً أبداً فذهب قومه العذاب عن ربه .

(1) لكنّه مُنكر ، لانصباب الاستفهام الإنكاري عليه .

(2) اقتباس من سورة « البقرة » . الآية 26 .

(3) فتخشع وتطمئن .

(4) سورة « الحج » . الآية 53 ، 54 .

(5) سورة « فصلت » . الآية 26 .

(6) سورة « الحج » . الآية 52 .

(7) سورة « الحجر » . الآية 9 .

(8) « تابوا » : قيل كانت توبتهم يوم الجمعة في عاشوراء .

مغاضباً<sup>(1)</sup>. فلماً علم - أكرمك الله !- أن ليس في خبر من الأخبار الواردة في هذا الباب أن يونس - عليه السلام !- قال لهم : إن الله مُهلكهم ؟ وإنما فيه<sup>(2)</sup> : أنه دعا عليهم بالهلاك ، والدعاء ليس بخبر يُطلب صدقه من كذبه ؛ لكنّه قال لهم : إن العذاب مُصَبِّحكم وقت كذا وكذا . فكان ذلك كما قال . ثم رفع الله تعالى عنهم العذاب وتداركهم . قال الله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾<sup>(3)</sup> . وروى البخاري : أنهم رأوا دلائل العذاب ومخايله<sup>(4)</sup> ؛ قال ابن مسعود ، وقال سعيد بن جبّير : غشاهم العذاب كما يُغشي الثوب القبر . فإن قلت : فما معنى ما روي : أن عبد الله بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثم ارتدّ مشركاً<sup>(5)</sup> . وصار إلى قريش فقال لهم : إني كنت أُصرّف محمداً حيث أريد ؛ كان يُملي عليّ : ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، فأقول : أو عليم حكيم ؟ فيقول : «نعم ؛ كُلُّ صواب» . وفي حديث آخر فيقول : «اكتب كيف شئت» . ويقول : «اكتب عليمًا حَكِيمًا» فيقول : اكتب سميعاً بصيراً ؟ فيقول له : «اكتب كيف شئت» وفي الصحيح<sup>(6)</sup> : عن أنس - رضي الله عنه !- : أن نصرانياً كان يكتب للنبيّ - صلى الله عليه وسلم !- بعد ما أسلم ، ثم ارتدّ ، وكان يقول : ما يدري محمّد إلا ما كتبتُ له .

فاعلم - ثبتنا الله وإياك على الحقّ ، ولا جَعَلَ للشيطان وتليسه الحقّ بالباطل إلينا سبيلاً !- أن مثل هذه الحكاية - أولاً<sup>(7)</sup> - لا تُوقَع في قلب مؤمن ريباً ؛ إذ هي حكاية عمّن ارتدّ وكفر بالله ؛ ونحن لا نقبل خبر المسلم المتّهم ؛ فكيف بكافر افتري هو ومثله على الله ورسوله ما هو أعظم من هذا ؟ ! والعجب لسليم العلم أن يشغل بمثل هذه الحكاية سرّة ، وقد صدرت من عدوّ كافر مُبغض للدين مفتر على الله ورسوله . ولم يرد عن أحد من المسلمين ولا ذكر أحد من الصحابة أنّه شاهد ما قاله وافتراه على نبيّ الله : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا

(1) «مغاضباً» : من الغضب الذي هو ظاهرة لثوران دم القلب .

(2) فيه : أي : في الباب من الأخبار الصحيحة .

(3) سورة يونس . الآية : 98 .

(4) «مخايله» : جمع مخيلة مظانّه ومعالمه .

(5) ثم أسلم وحسن إسلامه .

(6) صحيح البخاري .

(7) «أولاً» : قبل النظر في معناها ومرماها والبحث في صحّة خبرها وطرق روايتها .

يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١﴾. وما وقع من ذكرها<sup>(٢)</sup> في حديث أنس - رضي الله عنه - وظاهر حكايته لها<sup>(٣)</sup>، فليس فيه ما يدل على أنه شاهدها<sup>(٤)</sup>. ولعله حكى ما سمع. وقد علل البزار حديثه ذلك وقال: رواه ثابت عنه، ولم يتابع عليه. ورواه حميد عن أنس قال: وأظن حميداً إنما سمعه من ثابت. قال القاضي أبو الفضل (عياض). وفقه الله! -: ولهذا، والله أعلم، لم يخرج أهل الصحيح حديث ثابت ولا حميد. والصحيح حديث عبد الله بن عزيز بن رفيع، عن أنس - رضي الله! - الذي خرّجه أهل الصحة وذكرناه، وليس فيه عن أنس قول شيء من ذلك من قبل نفسه؛ إلا من حكايته عن المرتد النصراني. ولو كانت صحيحة لما كان فيها قدح ولا توهيم للنبي - صلى الله عليه وسلم! - فيما أوحى إليه، ولا جواز للنسيان والغلط عليه، والتحريف فيما بلغه، ولا طعن في نظم القرآن، وأنه من عند الله؛ إذ ليس فيه - لو صح - أكثر من أن الكاتب قال له: «عليم حكيم» أو كتبه. فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم! -: «كذلك هو»، فسبقه لسانه أو قلمه لكلمة أو كلمتين مما نزل على الرسول قبل إظهار الرسول لها؛ إذ كان ما تقدم مما أملاه الرسول يدل عليها، ويقتضي وقوعها بقوة قدرة الكاتب على الكلام ومعرفته به وجودة حسه وفطنته؛ كما يتفق ذلك للعارف إذا سمع البيت (من الشعر) يسبق (فهمه) إلى قافيته، أو مبتدأ الكلام الحسن<sup>(٥)</sup> إلى ما يتم به، ولا يتفق ذلك في جملة الكلام<sup>(٦)</sup>؛ كما لا يتفق ذلك في آية ولا سورة. وكذلك قوله - صلى الله عليه وسلم! - إن صح؟: «كل صواب». فقد يكون هذا فيما فيه من مقاطع الآي وجهان وقراءتان أنزلتا جميعاً على النبي - صلى الله عليه وسلم! - فأملى إحداهما، وتوصل الكاتب بفطنته ومعرفته بمقتضى الكلام إلى الأخرى، فذكر للنبي - صلى الله عليه وسلم! - فصوبها له النبي - صلى الله عليه وسلم! - ثم أحكم الله من ذلك ما أحكم ونسخ ما نسخ؛ كما قد وجد

(١) سورة «النحل». الآية ١٠٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الفصح المنسجم نثراً.

(٦) أي: لا يقع ذلك في الكلام بتمامه والذي يدل فاتحته على خاتمته.

ذلك في بعض مقاطع<sup>(1)</sup> الآي، مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وليست في المصحف (العثماني). وكذلك كلمات جاءت على وجهين في غير المقاطع قرأ بهما معاً الجمهور وثبتا في المصحف (العثماني)، مثل: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى آلِ عِطَامٍ كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾<sup>(3)</sup>. و (نُنْشِرُهَا) و ﴿يَقْصُ الْحَقُّ﴾<sup>(4)</sup>. و (يقضي الحق). وكل هذا لا يوجب ريباً، ولا يُسبب للنبي - صلى الله عليه وسلم - غلطاً ولا وهماً. وقد قيل: إن هذا يحتمل أن يكون فيما يكتبه<sup>(5)</sup> عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس غير القرآن؛ فيصف الله سبحانه كيف شاء<sup>(6)</sup>. وقد اتضح جلياً من هذا النص الطويل النفس أنه لا يجوز لأي مسلم وأية مسلمة الميل بالقول بهذه القصة المفترى بها على من لا ينطق عن الهوى؛ - صلى الله عليه وسلم - قال الفخر الرازي: «هذه القصة باطلة وموضوعة ولا يجوز القول بها». وقال البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل». وقد دلّ على وضع هذه القصة اللقيطة وإفترائه كتابُ الله المحكم التنزيل. قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِلَغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(7)</sup>. وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(8)</sup>. وقال: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(9)</sup> وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾. وقال: ﴿سَنَقِرُّكَ فَلَا تَنْسَى﴾<sup>(١٤)</sup> إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ

(1) «مقاطع الآي»: - جمع مقطع - وهي: أواخر الكلام وفواصله.

(2) سورة «المائدة». الآية 118.

(3) سورة «البقرة». الآية 259.

(4) سورة «الأنعام». الآية 57.

(5) الضمير يعود على الكاتب.

(6) الشفا بتعريف حقوق المصطفى. مطبعة دار الفكر. ج 2 ص 124 - 135.

(7) سورة «المائدة». الآية 67.

(8) سورة «الحجر». الآية 9.

(9) سورة «الحاقة». الآية 43 - 46. و«الوتين»: عرق في العنق، إذا قطع مات صاحبه.

يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى<sup>(١)</sup>. وقال: ﴿وَالنَّجْمِ<sup>(٢)</sup> إِذَا هَوَىٰ<sup>(٣)</sup>﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ<sup>(٤)</sup> وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ<sup>(٥)</sup> إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ<sup>(٦)</sup> عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ<sup>(٧)</sup> ذُو مِرَّةٍ<sup>(٨)</sup> فَاسْتَوَىٰ<sup>(٩)</sup> وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ<sup>(٩)</sup>. إلى غير ذلك من الآيات.

### إسلام حمزة بن عبد المطلب

كان إسلام حمزة بن عبد المطلب سنة ست بعد المبعث النبوي، وقبل ثلاثة أيام لإسلام عمر بن الخطاب؛ رضي الله عنهما! وكان السبب في إسلام حمزة أن أبا جهل، عمرو بن هشام قد سوّلت له نفسه الخبيثة أن يعترض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويؤذيه، فيُسمعه ما هو مكروه عقلاً وعرفاً وشرعاً. فبلغ ذلك عمّه حمزة حينما عاد من الصيد، فقَصَّدَ أبا جهل دون تريث وانتقم منه لابن أخيه بما كان في مقدوره ووسعه ممّا يستحقّه هذا المعتدي الأثيم. قال محمد ابن إسحاق: «فحدثني رجل ممن أسلم - وكان واعية -: أن أبا جهل اعترض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند «الصفّا» فأذاه وشتّمه، ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له، فلم يكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومولاة لعبد الله بن جُدعان التيميّ في مسكن لها فوق «الصفّا» تسمع ذلك ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد لقريش عند الكعبة فجلس معهم ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له - كان صاحب قنص يرميه ويخرج له - فكان إذا رجع من قنصه لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك

(1) سورة «الأعلى». الآية 6-7.

(2) «النجم»: الثريا.

(3) «هوى»: سقط..

(4) ما سلك طريقاً غير طريق الحقّ ولا علم بالحقّ وعدل عنه قصداً.

(5) ما يقول قولاً عن هواه، ولا عن غرض نفس قد نواه.

(6) إتّما يقول ما أمره ربّه بتبليغه الناس كاملاً موفوراً، من غير زيادة ولا نقصان. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص: قال: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله بشر يتكلّم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله، فقال: «اكتب»، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحقّ.

(7) هو جبريل؛ عليه السلام!

(8) صاحب قوّة.

(9) سورة «النجم». الآية 1-7.

لا يمرّ على ناد من قريش إلّا وقف وسلم وتحدث معهم . وكان أعزّ قريش وأشدّهم شكيمة . وكان يومئذ مشركاً على دين قومه . فلما مرّ بالمولاة قالت له : يا أبا عُمارة ! لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمّد من أبي الحكم<sup>(1)</sup> آنفاً ؛ وجده هاهنا جالساً فأذاهُ وشتمه وبلغ منه ما يكره ، ثمّ انصرف عنه ، ولم يكلمه محمّد ، فاحتمل حمزة الغضب ؛ لما أراد الله عزّ وجلّ به من كرامته ، فخرج سريعاً لا يقف على أحد ؛ كما كان يصنع . فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس وضربه بها ضربة شجّه بها شجّة منكّرة . وقامت رجال قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه ، فقالوا : ما نراك يا حمزة إلّا قد صبأت ! قال حمزة : وما يمنعي منه ؟ وقد استبان لي منه ذلك ، وأنا أشهد أنّه رسول الله ، وأنّ الذي يقوله حقّ . فوالله لا أنزع<sup>(2)</sup> . فامنعوني إن كنتم صادقين . فقال أبو جهل : دَعُوا أبا عماره ، فإنّي والله لقد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً . وتمّ حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من قوله . فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد عزّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفّوا عن بعض ما كانوا يتناولون<sup>(3)</sup> (منه)<sup>(4)</sup> .

### إسلام عمر بن الخطّاب

كان إسلام عمر بن الخطّاب في شهر ذي الحجّة سنة ستّ بعد المبعث النبويّ ، وبعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة أيام . وكان عدد المسلمين والمسلمات قبل إسلامه تسعة وثلاثين من الذكور وإحدى عشرة امرأة . وروى ابن أبي خيثمة عن عمر نفسه أنّه قال : لقد رأيته وما أسلم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلّا تسعة وثلاثون رجلاً فكملتهم أربعين ، فأظهر الله دينه وأعزّ الإسلام . وقد انتعش الإسلام واشتدّ عضد المسلمين بإسلام عمر وجهره به أمام مشركي قريش دون أن يخشى منهم ما هو ماض فيه ، ولا ما هم ناقدون عليه . روى الإمام البخاريّ عن عبد الله بن مسعود أنّه قال : ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر . وفي رواية البكائيّ

(1) «أبي الحكم» : كنية أبي جهل بالأصالة قبل أن يُكنّيه المسلمون «أبا جهل» .

(2) لا أقلع عن الإسلام .

(3) ينالون .

(4) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 151 .



وابن أبي شيبة والطبرانيّ أنّه قال : والله ما استطعنا أن نصليّ حول الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر . وقد روى ابن سعد من حديث صُهيب الروميّ أنّه قال : لما أسلم عمر ، قال المشركون : أنصف القوم منّا<sup>(1)</sup> . وإسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه !- قد كان استجابة إلهيّة لدعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «اللهم آيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو عمر بن الخطاب» ! فكان هذا التأييد الربّانيّ من حظ عمر الفاروق . والحمد لله .

## كيف كان إسلام عمر؟

قال محمد بن إسحاق : «عن عبدالله بن عامر ، بن ربيعة ، عن أمّه ليلي قالت : كانت عمر بن الخطاب من أشدّ الناس علينا في إسلامنا . فلما ذهبنا للخروج إلى أرض الحبشة ، جاءني عمر بن الخطاب وأنا على بعيري نريد أن نتوجّه ، فقال : إلى أين يا أمّ عبدالله؟ فقلت له : أذيتمونا في ديننا؛ فنذهب إلى أرض الله عزّ وجلّ حيث لا نُؤذَى في عبادة الله . فقال : صحبكم الله! فذهب ، ثمّ جاءني زوجي عامر بن ربيعة ، فأخبرته بما رأيته من رقة عمر ، فقال : أترجين أن يسلم عمر؟ ! فقلت : نعم ، فقال : والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب . ثمّ إنّ قريشاً بعثت عمر بن الخطاب - وهو يومئذ مشرك - في طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في دار في أصل «الصفاء» ، ولقيه النّحام - وهو نعيم بن عبدالله بن أسد ، أخو بني عديّ بن كعب ، وعمر متقلّد سيفه ، فقال : يا عمر! إلى أين تراك تعمّد؟ فقال : أعمد إلى محمد؛ هذا الذي سقّه أحلام قريش وسقّه آلهتنا ، وخالف جماعتنا . فقال له النّحام : والله لبئس المشي مشيتك يا عمر! ولقد فرطت هلكة بني عديّ بن كعب ، أو تراك تنفلت من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً؟ فتحاورا حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال له عمر : إنّي لأظنّك قد صبأت ولو أعلم ذلك لبذأت بك . فلما رأى النّحام أنّه غير منته ، قال : فإنّي أخبرك أنّ أهلك وأهل خنّك<sup>(2)</sup> قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه في ضلالتك . فلما سمع عمر تلك المقالة يقولها ، قال : وأيّهم؟ قال : خنّك وابن عمّك وأختك<sup>(3)</sup> . فانطلق عمر حتى أتى أخته - وكان رسول الله - صلى الله

(1) روى البكائيّ عن مشعّر بن كدام ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عبدالله بن مسعود ، أنّه قال : إنّ إسلام عمر كان فتحاً ، وإنّ هجرته كانت نصراً ، وإنّ إمارته كانت رحمة . ولقد كنّا ما نصليّ عند الكعبة حتى أسلم عمر؛ فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة ، وصليّنا معه .

(2) الحنّ - بفتح الحاء والتاء :- كلّ من كان من قبل المرأة لزوجها ، كأبيها وأخيها . وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت ، جمع أختان ، والأنثى ختنة .

(3) اسمها : فاطمة بنت الخطاب .

عليه وسلم !- إذا أتته طائفة من أصحابه من ذوي الحاجة نظر إلى أولي السعة فيقول : «عندك فلان ، فليكن إليك» . فوافق ذلك ابن عمّ عمر وختنه زوج أخته سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل ، فدفع إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خَبَاب بن الأرت مولى ثابت بن أمّ أنمار حليف بني زهرة . وقد أنزل الله عزّ وجل : ﴿ طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾<sup>(1)</sup> . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- دعا ليلة الخميس فقال : «اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام» . فقال ابن عمّ عمر وأخته : نرجو أن تكون دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لعمر ! فأقبل عمر حتى انتهى إلى باب أخته ليُغيّر عليها ما بلغه من إسلامها ، فإذا بخَبَاب بن الأرت عند أخت عمر يدرس عليها : (سورة) «طه» ويدرس عليها : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾<sup>(2)</sup> . وكان المشركون يدعون الدراسة : «الهيّمة» . فدخل عمر . فلما أبصرته أخته عرفت الشرف في وجهه ، فخبّأت الصحيفة ، وراغ<sup>(3)</sup> خَبَاب فدخل البيت . فقال عمر لأخته : ما هذه الهيّمة في بيتك ؟ قالت : ما عدا حديثاً نتحدّث به بيننا ، فعذلها<sup>(4)</sup> وحلف أن لا يخرج حتى تُبين شأنها . فقال له زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل : إنك لا تستطيع أن تجمع الناس على هواك يا عمر ! وإن كان الحقّ سواء ، فبطش به عمر ووطئه ووطئاً شديداً وهو غضبان ، فقامت إليه أخته تحجز عن زوجها ، فدفعها عمر بيده فشجّها ، فلما رأت الدم قالت : هل تسمع يا عمر ؟! أ رأيت كلّ شيء بلغك عني مما تُذكر من تركي آلهتك وكفري باللات والعزّى ، فهو حقّ ؛ أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله . فأتمر بأمرك واقض ما أنت قاض . فلما رأى ذلك عمر سُقط في يديه فقال لأخته : أرني ما كنت تدرسين ، أعطيك موثقاً من الله لا أمحوها حتى أردّها إليك ولا أرتبك فيها<sup>(5)</sup> . فلما رأت ذلك أخته ورأت حرصه على الكتاب ، رجّت أن تكون دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- له ، فقالت : إنك نجس ، و﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾<sup>(6)</sup> . ولست أملك على ذلك ، فاغتسل غُسلَك من الجنابة وأعطني موثقاً تطمئنّ إليه نفسي ، ففعل عمر . فدفعت إليه

(1) سورة «طه» . الآية 1 - 3 .

(2) سورة «التكوير» . الآية 1 .

(3) «وراغ» : وذهب بسرعة .

(4) «فعذلها» : فلامها ووبّخها وأتّبها .

(5) الارتباك في الأمر : الوقوع فيه ولم يكد التخلص منه .

(6) سورة «الواقعة» . الآية 79 .

الصَّحِيفَةُ - وكان عمر يقرأ الكتاب - فقرأ: «طه...» حتى إذا بلغ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَدَّى﴾. وقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ حتى بلغ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ﴾ فأسلم عند ذلك عمر، فقال لأخته وختنه: كيف الإسلام؟ قالوا: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وتخلع الأنداد، وتكفر باللات والعزى. ففعل ذلك عمر. وخرج خَبَّاب بن الأرت من مخبئه - وكان في البيت داخلًا - فكبر خَبَّاب وقال: أبشر يا عمر بكرامة الله؛ فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - دعا لك أن يعزَّ الإسلام بك. قال عمر: فدلّني على المنزل الذي فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال له خَبَّاب بن الأرت: أنا أخبرك، فأخبره أنه في الدار التي في أصل «الصفاء». فأقبل عمر، وهو حريص على أن يلقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقد بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أن عمر يطلبه ليقته، ولم يبلغه إسلامه. فلما انتهى عمر إلى الدار استفتح<sup>(1)</sup>. فلما رأى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عمر متقلداً بالسيف أشفقوا<sup>(2)</sup> منه. فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وجل<sup>(3)</sup> القوم قال: «افتحوا له؛ فإن كان الله عز وجل يريد بعمر خيراً أتبع الإسلام وصدق بالرسول، وإن كان يريد غير ذلك لم يكن قتله علينا هيئاً». فابتدره رجال من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ورسوله الله يوحى إليه. فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حين سمع صوت عمر وليس عليه رداء حتى أخذ بمجمع قميص عمر وردائه، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «ما أراك منتهياً يا عمر؛ حتى ينزل الله بك من الرّجز<sup>(4)</sup> ما أنزل بالوليد بن المغيرة». ثم قال: «اللهم اهْدِ عمر». فضحك عمر، فقال: يا نبي الله! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. فكبر أهل الإسلام تكبيرة واحدة سمعها من كانوا وراء الدار. والمسلمون يومئذٍ بضعة وأربعون رجلاً<sup>(5)</sup> وإحدى عشرة امرأة<sup>(6)</sup>.

(1) «استفتح»: طلب أن يفتح له الباب.

(2) «أشفقوا»: خافوا.

(3) «وجل القوم»: خوفهم وفزعهم.

(4) العذاب والذنب.

(5) تقدّم قول عمر أن بإسلامه تمّ عدد المسلمين أربعين رجلاً؛ وهو الأصحّ.

(6) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 160 - 163.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أن تحمّل رسول الله أذى أبي جهل وشمته إيّاه ، ولم يردّ عليه ببنت شفة ، ما هو إلا استدراج لأبي جهل في غيّه ، وما هو سوى إظهار لقدرة الرسول على الصبر الجميل وكظم الغيظ ؛ حتى يكون ذلك سنة حسنة لأُمته . وقد نهى الله عن سبّ من لا يرعوي عن غيّه ؛ حتى لا يكون ذلك سبباً في ازدياد غيّه وإمعاناً فيما هو عليه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾<sup>(1)</sup> . وصدق من قال :

فَلَوْ كُفِّلُ كُلِّبُ عَوَى أَلْقَمَتُهُ حَجَرًا

لَأَصْبَحَ الصَّخْرُ مُتَقَالًا بَدِينَار

**العبرة الثانية :** أن التضرّع إلى الله لمن شك في إيمانه وتَرَدَّدَ في إسلامه لا بدّ أن يُخرج صاحبه من الشك إلى اليقين ، ومن التردّد إلى الثبات على ما هداه الله إلى ما فيه خيره وصلاحه . قال محمد بن إسحاق : « ثم رجع حمزة بعد إسلامه إلى بيته ، فأتاه الشيطان فقال : أنت سيّد قريش اتّبع هذا الصّابئ وتركت دين آبائك ، للموت كان خيراً لك ممّا صنعت ، فأقبل على حمزة بثّه<sup>(2)</sup> . فقال حمزة : ما صنعت ؟ اللّهم إن كان رشداً فاجعل تصديقَه في قلبي ؛ وإلا فاجعل لي ممّا وقعت فيه مخرجاً ! فبات ليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان وتزيينه عبادة الأوثان حتى أصبح . فغدا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فقال : يا بن أخي ! إنّي وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه . وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو ، أرشد هو أم غيّ شديد ؟ ! فحدّثني حديثاً ، فقد اشتيت يا بن أخي أن تحدّثني . فأقبل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فوعظه وذكره ، وخوفه وبشره . قال : فألقى الله عزّ وجلّ في نفسه الإيمان بما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فقال : أشهد أنّك صادق شهادة الصادق العارف . وأظهر يا ابن أخي دينك ؛ فوالله ما أحبّ أن لي ما أظلّته السماء وأتني على ديني الأوّل . فكان حمزة ممّن أعزّ الله به الدّين » .

(1) سورة « الأنعام » . الآية 108 .

(2) « بثّه » : شدّة حزنه .

**العبرة الثالثة :** أن صراحة الحق المبين كانت من أخلاق عرب الجاهلية، سارية المنطوق بين وجهاء قريش رغم إشراكهم بالله ! ولولا ذلك ما أقرّ أبو جهل بسوء قوله واعترافه بظلمه لرسول الله ؛ حينما ضربه حمزة بن عبد المطلب بقوسه وشجّه شجّة منكّرة ، فقامت قبيلته تدافع عنه ، فهدأها بقولته المشهورة : «دعوا أبا عُمارة ، فإنّي والله لقد سببتُ ابن أخيه سبّاً قبيحاً»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الرابعة :** عن شُرَيْح بن عُيَيْد قال : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد ، فقمّت خلفه ، فاستفتح سورة «الحاقة» ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن ! فقلت : هذا والله شاعر ؛ كما قالت قريش ، فقرأ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾<sup>(2)</sup> . قلت : كاهن على ما في نفسي ، فقرأ : ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ إلى آخر السّورة ، فوقع الإسلام في قلبي كلّ موقع ، فهذا النصّ وأمثاله من النصوص الواردة في تاريخ حياة عمر ، يدلّ دلالة قاطعة على أن عمر قد كان قبل إسلامه متأثراً بما سمعه من كلام الله تأثراً أحدث في قلبه رقةً وفي نفسه شفقة على المسلمين المهاجرين بدينهم فقال عند ترحلهم : «صحبكم الله»<sup>(3)</sup> .

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن كلّ من صدّق من المسلمين بقصّة الغرائق المدسوسة على رسول الله المعصوم في نيّاته وأقواله وأفعاله بعصمة الله ، فهو محكوم عليه بالارتداد والكفر ، فتجب توبته وإلاّ طبّق عليه كلّ ما يطبّق على المرتدين وجوباً زماناً ومكاناً . وهذا الحكم بادي الدلالة واضح الحجة والبرهان في كتاب الله وسنة رسوله . وقد بيّن لنا ذلك تبييناً لا مزيد عليه العلامة التّحرير أبو الفضل القاضي عياض اليعصبّي ؛ رحمه الله ! وجعل الجنة مثواه ! .

**الحكم الثاني :** أن القرآن المكتوب لا يجوز مسّه لغير المتطهّر من الجنابة والحدث ، لقوله - عليه الصّلاة والسّلام !- : «لا يمسّ القرآن إلّا طاهر»<sup>(4)</sup> . وأمّا المطهّرون في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ

(1) ابن اسحاق ، محمّد : كتاب المبدأ والمبعث والمغازي ص 153 .

(2) سورة «الحاقة» . الآية 40 - 41 .

(3) المصدر السابق ص 160 .

(4) رواه الطبراني والدارقطني عن عبد الله بن عمر .

لَقُرْءَانٍ كَرِيمٍ ﴿٢٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٢٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٢٩﴾<sup>(١)</sup>. فهم الملائكة<sup>(٢)</sup>، لأنهم مطهرون خلقه، والآدميون متطهرون؛ إذا تطهروا، أي: أدخلوا نفوسهم في الطهور - بضم الطاء - كالمثقة إذا أدخل نفسه في الفقه. وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup>. وقوله: ﴿هُنَّ فِيهَا زَوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾<sup>(٤)</sup>. (فَتَطَهَّرْنَ) يدل على الزوجات الآدميات في الدنيا، و﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ يدل على الزوجات من حور العين في الآخرة. وإلى هذا المدلول ذهب الإمام مالك بن أنس في كتابه «الموطأ». وقال ابن جرير الطبري، عن قتادة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا يمسه عند الله إلا المطهرون. فأما في الدنيا فإنه لا يمسه الجوسي النجس، والمنافق الرجس. وعن عبدالله بن عباس: فإنه كان لا يبيح قراءة القرآن للمحدث مطلقاً، وهذا ما قرره محمود الزمخشري في تفسير «الكشاف». ولفظ الآية خبري. ومعناها طلبي. والمراد بـ «القرآن» في الحديث النبوي المذكور أعلاه، هو المصحف الشريف. وقد استدلل العلماء على هذا المراد بنهي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يسافر إلى بلاد كفر بالقرآن؛ روى الإمام البخاري والإمام مسلم وأبو داود وابن ماجه، عن عبدالله بن عمر: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو. وحكم وجوب التطهر لمس القرآن قد جرى على عمر بن الخطاب أمراً وامتنالاً.

### قرار المشركين لحصار بني هاشم وبني المطلب

لقد استاء مشركو قريش واكتأبوا وتألّموا حينما رأوا أن الإسلام قد بدأ يفشو وينتشر في الناس، وأن عدد المسلمين في نموّ وازدياد، وأن قوتهم اشتدت، وأن إيمانهم قد رسخ في قلوبهم، وهم عليه ثابتون، وبه سعداء فرحون، وبجبله متمسكون، وبصبرهم معتصمون، فدفع ذلك المشركين أن يقاطعوا بني هاشم وبني المطلب؛ مسلميهم ومشركيهم مادياً ومعنوياً، فيفرضوا عليهم حصاراً، به يمنعونهم من الاتصال بغيرهم؛ فكتبوا ما أقرّوه واتفقوا عليه في صحيفة وعلّقوها في جوف الكعبة المشرفة. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره من كتاب السيرة

(١) سورة «الواقعة». الآية ٧٧ - ٧٩.

(٢) وبهذا القول قال عبدالله بن عباس، وأنس بن مالك، وعكرمة، وجابر بن زيد، وسعيد بن جبّير، ومجاهد وغيرهم.

(٣) سورة «البقرة». الآية ٢٢٢.

(٤) سورة «النساء». الآية ٥٧.

التبوية والتواريخ البشرية قصة هذا الحصار الظالم أهله بإسهاب مفصّل وتلخيص مجمل . وقد وقع اختيارنا على تلخيص عليّ بن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» فقال : «ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد وأن المسلمين قووا بإسلام حمزة وعمر ، وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من النجاشي بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وأمنهم عنده ، ائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا يُنكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يُنكحوا إليهم ، ولا يبيعوهم ولا يتاعوا منهم شيئاً . فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك . ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم . فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب <sup>(1)</sup> ، فدخلوا معه في شعبه <sup>(2)</sup> واجتمعوا وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش ، فلقي هنداً بنت عتبة فقال : كيف رأيت نصري اللات والعزى؟ قالت : لقد أحسنت . فأقاموا على ذلك الحصار ستين أو ثلاثاً حتى جُهدوا ؛ لا يصل إلى أحد منهم شيء إلا سراً . وذكروا أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه قمح يريد به عمته خديجة ، وهي عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في «الشعب» فتعلّق به وقال : والله لا تبرح حتى أفضحك . فجاء أبو البختريّ بن هشام فقال : ما لك وله؟ عنده طعام لعمته ، أفتمنعه أن يحمله إليها؟ ! خلّ سبيله . فأبى أبو جهل ، فنال منه فضربه أبو البختريّ بلحنيّ جمل فشجّه ووطئه ووطئاً شديداً ، وحمزة ينظر إليهم ، وهم يكرهون أن يبلغ النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- ذلك ، فيشمت بهم المسلمون . ورسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يدعو الناس سراً وجهراً ، والوحي متتابع إليه . فبقوا ثلاث سنين . وقام في نقض الصحيفة نفر من مشركي قريش ، وكان أحسنهم بلاءً فيه هشام بن عمرو بن هشام بن عبد مناف لأمه . فكان يأتي بالبعير قد أوقره <sup>(3)</sup> طعاماً ليلاً ، ويستقبل به الشعب ويخلع خطامه <sup>(4)</sup> فيدخل الشعب . فلما رأى ما هم فيه وطول المدة عليهم ، مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزوميّ أخي أمّ سلمة ، وكان شديد الغيرة على النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- والمسلمين ، وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير ! أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأحوالك حيث علمت؟ ! أما إنني

(1) كان انحيازهم اختياراً وتطوعاً وحميةً بدافع قرابة النسب ؛ رغم أنهم باقون على شركهم !!

(2) هو : شعب أبي طالب المعروف بـ «شعب أبي يوسف» .

(3) «أوقره» : حمّله حملاً ثقيلاً .

(4) «خطامه» - بكسر أوله - : زمامه ؛ وهو ما يوضع على خَطَمَ الجمل ليُقَادَ به . والخطم : الأنف ، والمنقار أو مقدّمهما .

أَحْلَفَ بِاللَّهِ لَوْ كَانُوا أَخْوَالَ أَبِي الْحَكَمِ - يَعْنِي : أَبَا جَهْلٍ - ثُمَّ دَعَوْتَهُ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مَا أَجَابَكَ أَبَدًا . فَقَالَ : فَمَا أَصْنَعُ ؟ وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مَعِيَ رَجُلٌ آخَرٌ لَنَقَضْتُهَا . فَقَالَ : قَدْ وَجَدْتَ رَجُلًا ، قَالَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : أَنَا ، قَالَ : أَبْغِنِي ثَالِثًا ، فَذَهَبَ إِلَى الْمَطْعَمِ بِنِ عَدِيِّ بْنِ نُوْفَلٍ ابْنِ عَبْدِ مَنَافٍ فَقَالَ لَهُ : أَرْضَيْتَ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانُ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأَنْتَ شَاهِدُ ذَلِكَ مُوَافِقٌ فِيهِ ؟ ! أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَكُنْتُمُوهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَجِدَنَّاهُمْ إِلَيْهَا مِنْكُمْ سِرَاعًا . قَالَ : مَا أَصْنَعُ ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ قَالَ : قَدْ وَجَدْتَ ثَانِيًا ، قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : أَنَا . قَالَ : أَبْغِنِي ثَالِثًا . قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ . قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ . قَالَ : أَبْغِنِي رَابِعًا . فَذَهَبَ إِلَى أَبِي الْبَخْتَرِيِّ بْنِ هِشَامٍ وَقَالَ لَهُ : نَحْوًا مَّا قَالَ لِلْمَطْعَمِ . قَالَ : وَهَلْ مِنْ أَحَدٍ يُعِينُ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : أَنَا ، وَزُهَيْرٌ ، وَالْمَطْعَمُ . قَالَ أَبْغِنِي خَامِسًا . فَذَهَبَ إِلَى زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمَطْلَبِ بْنِ أَسَدٍ ، فَكَلَّمَهُ وَذَكَرَ لَهُ قَرَابَتَهُمْ ، قَالَ : وَهَلْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مَعِينٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَسَمِّيَ لَهُ الْقَوْمُ ، فَاتَّعَدُوا «خَطْمَ الْحَجُونِ» الَّذِي بِأَعْلَى مَكَّةَ فَاجْتَمَعُوا هُنَاكَ ، وَتَعَاهَدُوا عَلَى الْقِيَامِ فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ . فَقَالَ زُهَيْرٌ : أَنَا أَبْدُوْكُمْ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَا إِلَى أَنْدِيتِهِمْ وَغَدَا زُهَيْرٌ فُطَافَ بِالْبَيْتِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : يَا أَهْلَ مَكَّةَ ! أَتَأْكُلُ الطَّعَامَ وَتَلْبَسُ الثِّيَابَ وَبَنُو هَاشِمٍ هَلَكُوا لَا يَتَاعُونَ وَلَا يَتَنَافَعُونَ مِنْهُمْ ؟ ! وَاللَّهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تَشُقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ الظَّالِمَةَ . قَالَ أَبُو جَهْلٍ : كَذَبْتَ وَاللَّهِ لَا تَشُقُّ . قَالَ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ : أَنْتَ وَاللَّهِ أَكْذَبُ ؛ مَا رَضِينَا بِهَا حِينَ كُتِبَتْ . قَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ : صَدَقَ زَمْعَةُ لَا نَرْضَى مَا كُتِبَ فِيهَا . قَالَ الْمَطْعَمُ بْنُ عَدِيِّ : صَدَقْتُمَا وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ . وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ . قَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَذَا أَمْرٌ قُضِيَ بَلِيلٌ ، وَأَبُو طَالِبٍ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ . فَقَامَ الْمَطْعَمُ إِلَى الصَّحِيفَةِ لِيَشْقَهَا فَوَجَدَ الْأَرْضَةَ قَدْ أَكَلَتْهَا ؛ إِلَّا مَا كَانَ : «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، كَانَتْ تُفْتَحُ بِهَا كُتُبُهُمْ ، وَكَانَ كَاتِبُ الصَّحِيفَةِ مَنصورُ بْنُ عَكْرَمَةَ ، فَشَلَّتْ يَدُهُ ، وَقِيلَ : كَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ مِنَ الشَّعْبِ أَنَّ الصَّحِيفَةَ لَمَّا كُتِبَتْ وَعُلِّقَتْ بِالْكَعْبَةِ ، اعْتَزَلَ النَّاسُ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمَطْلَبِ ، وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبُو طَالِبٍ وَمَنْ مَعَهُمَا بِالشَّعْبِ ثَلَاثَ سَنِينَ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ الْأَرْضَةَ فَأَكَلَتْ مَا فِيهَا مِنْ ظِلْمٍ وَقَطِيعَةٍ رَحِمَ وَتَرَكْتَ مَا فِيهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى <sup>(1)</sup> . فَجَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَعْلَمَهُ بِذَلِكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ

(1) هذا عكس ما نقله محمد بن إسحاق ؛ إذ قال : «إن الله عز وجل أرسل برحمته على صحيفة قريش الأرضة ، فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أكلته ، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان» كتاب المبدأ والمبعث والمغازي ص 142 ، 143 .



عليه وسلم !- لعمه أبي طالب ذلك ، كان أبو طالب لا يشكّ في قوله - عليه الصلاة والسلام !- فخرج من الشعب إلى الحرم ، فاجتمع الملائكة من قريش وقال (أبو طالب) : إنّ ابن أخي أخبرني أنّ الله أرسل على صحيفتكم الأرضة فأكلت ما فيها من قطعة لحم وظلم ، وتركت اسم الله تعالى . فأحضروها ، فإن كان صادقاً علمتم أنكم ظالمون لنا قاطعون لأرحامنا ، وإن كان كاذباً علمنا أنكم على حق وأتينا على باطل . فقاموا سراعاً وأحضروها فوجدوا الأمر كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وقويت نفس أبي طالب ، واشتدّ صوته وقال : قد تبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة ، فنكسوا رؤوسهم ، ثم قالوا : إنّما تأتوننا بالسحر والبهتان ، وقام أولئك الثّغر في نقضها ؛ كما ذكرنا<sup>(1)</sup> . وكان هذا الحصار المشؤوم والأثيم بعد هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة . ودام عليهم ثلاث سنين بدءاً من شهر المحرم سنة سبع<sup>(2)</sup> من البعثة النبوية إلى السنة العاشرة<sup>(3)</sup> منها . وكان أشدّ ما عانوه في هذا الحصار الأليم قطع الميرة عليهم طوال مدة مكوثهم فيه !!

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أنّ صبر المسلمين على ما عانوه وقاسوه لا يوازيه أيّ صبر كان من صبر البشر قديماً وحديثاً . قال عبد الرحمن السّهيلى : «وفي الصحيح : أنّهم جُهدوا حتى إنهم كانوا يأكلون الخَبْطَ<sup>(4)</sup> وورق السّمُر ، حتى إن أحدهم ليضع<sup>(5)</sup> كما تضع الشاة وكان فيهم سعد بن أبي وقاص ؛ روي أنّه قال : لقد جُعْتُ حتى إنّني وطئتُ ذات ليلة على شيء رطب ، فوضعت في فمي وبلعته وما أدري ما هو إلى الآن ! . . . وكانوا إذا قدمت العير مكة ، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام لعياله ، فيقوم أبو لهب عدوّ الله فيقول : يا معشر التجار ! غالوا على أصحاب محمد ، حتى لا يدرکوا معكم شيئاً ، فقد علمتم ما لي ووفاء ذمتي ، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع المحاصر إلى أطفاله وهم يتضاغون

(1) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 87 .

(2) نقله محمد بن إسحاق وجزم به موسى بن عقبة .

(3) وبه قال محمد بن عمر الواقدي .

(4) «الخَبْطُ» : ما سقط من ورق الشجر بالخبط والتفص .

(5) أي يخرج من بطنه عند تغطّيه بعر يابس كما يخرج من بطن الشاة لعدم غذائه بالمألوف .

من الجوع ، وليس في يديه شيء يُطعمهم به ، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وغرياً<sup>(1)</sup> .

**العبرة الثانية :** أن مصير ما كتبه مشركو قريش في صحيفة المقاطعة والحصار ، قد كان طعمة سائغة لإحدى الحشرات المسماة بالأرضة . وذلك عبرة لمن اعتبر .

**العبرة الثالثة :** أن محنة الحصار قد شملت مشركي بني هاشم وبني المطلب تطوعاً واختياراً ، بدافع أنفة النسب وحمية القرابة لمن أسلم منهم واحتمل تلك المحنة بدافع سلطان الدين .

### نزول الآيات المُرْهبة لمن آذى رسول الله

لقد تمادى مشركو قريش في إذايتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بعد أن فكّوا عنه وعن أصحابه الحصار المضروب عليهم في شعب أبي طالب ظلماً وعدواناً . وفي الوقت نفسه تتابع نزول الوحي القرآني على رسول الله فيما يقتضيه الحال والمقال .

**فنزل في عبد العزى أبي لهب وزوجته أروى أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب :** ﴿ تَبَّتْ<sup>(2)</sup> يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ<sup>(3)</sup> مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ<sup>(4)</sup> سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ<sup>(5)</sup> وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ<sup>(6)</sup> فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ<sup>(7)</sup> ۚ ۞ ﴾ . قال عبد الملك بن هشام : «نقلًا عن محمد بن إسحاق :- «إن أم جميل «حمالة الحطب» حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر<sup>(8)</sup> من حجارة ، فلما وقفت عليهما ، أخذ الله ببصرها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ؟ والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ؛ أما والله إنني لشاعرة ، ثم قالت :

(1) الروض الأنف . ج3 ص 354 ، 355 .

(2) «تَبَّتْ» : خسرت وهلكت ؛ كناية عن خسران كسب اليدين وهلاك صاحبهما .

(3) «الحطب» : شوك الحطب .

(4) «من مسد» : من ليف إذا أحكم فتلته وضمفره . وهو المعروف في الشمال الإفريقي بـ «الحلفاء» .

(5) سورة «المسد» . الآية 1 - 5 .

(6) «فهر» - جمع فهرة :- الحصى . الحصباء .

# مُذَمَّمٌ عَصِيْبٌ وَأَمْرُهُ آيَةٌ وَدِينُهُ قَلْبٌ<sup>(1)</sup>

ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله ! أما تُراها رأيتك ؟ فقال : « ما رأيتني ؛ لقد أخذ الله ببصرها عني » . وكانت قریش إنما تسمي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « مُذَمَّمًا » ، ثم يسبونهُ ، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يقول : « ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قریش ؛ يسبون ويهجون مذمماً وأنا محمد »<sup>(2)</sup> ! !

ونزل في أمية بن خلف ؛ حينما همز رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ولزه : ﴿ وَلِئَلَّ كُلُّ مُهْمَزَةٍ لَمَزَةٍ ﴾<sup>(3)</sup> الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿ حَسَبُ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾<sup>(4)</sup> نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِذَةِ ﴾ ﴿ إِنِّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴾<sup>(5)</sup> ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾<sup>(6)</sup> ﴿<sup>(7)</sup>

ونزل في أبي جهل ؛ حين وطئ رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَتَّبِعُ عَبْدًا ﴾<sup>(8)</sup> إِذَا صَلَّى ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ ﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾<sup>(9)</sup> ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا<sup>(10)</sup> بِالنَّاصِيَةِ ﴾ ﴿ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾<sup>(11)</sup> ﴿ كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾<sup>(12)</sup> . فانتهى أبو جهل ولم يعد . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « والله لئن عاد لتأخذنه الزبانية » . ولقي أبو جهل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال : « والله يا

(1) «قلينا» : أبغضنا .

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 3 ص 287 .

(3) غماز ، عيار .

(4) «الحطمة» : الأكل ، الذي لا يشبع ؛ كناية عن جهنم .

(5) «موصدة» : مغلقة مطبقة .

(6) هم يُعَذِّبُونَ بعمد من نار دائمة التعذيب لهم .

(7) سورة «الهمزة» . الآية 1 - 9 .

(8) «عبدًا» : هو رسول الله .

(9) هو : أبو جهل .

(10) «لنسفعًا» : لنقبضن .

(11) «الزبانية» : شرط من الملائكة ، مكلفون بتعذيب العصاة وأمر الله وبدفعهم في النار يوم القيامة .

(12) سورة «العلق» . الآية 9 - 19 .

محمد! لتتركن سب آلهمتنا أو لنسبن إلهك الذي تعبده، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾<sup>(1)</sup>. قال محمد بن إسحاق: «فذكر لي إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كف عن سب آلهمتهم، وجعل يدعوهم إلى الله»<sup>(2)</sup>.

**ونزل في النضر بن الحارث؛** حينما كان يعارض رسول الله في مواعظه بحديثه عن ملوك الفرس وغيرهم، ويقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين كتبها كما أكتبها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾<sup>(3)</sup>، وقالوا أساطير الأولين أكتبناها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلاً<sup>(4)</sup>، قل أنزل الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً<sup>(5)</sup>.

**ونزل في النضر بن الحارث أيضاً:** ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(6)</sup>. وفيه نزل كذلك: ﴿وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾<sup>(7)</sup> يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم<sup>(8)</sup>. قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق -: «وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من قريش، فتكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾<sup>(9)</sup> لو كانت هتولاء إلهة ما وزدوها وكل فيها خلدون<sup>(10)</sup> لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون<sup>(11)</sup>»<sup>(12)</sup>.

**ونزل في العاص بن وائل السهمي -** حينما قال: إن رسول الله هو رجل أبت، لا عقب له، فلو مات انقطع ذكره واسترحتم منه -: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾<sup>(13)</sup> فصل لربك وأخز<sup>(14)</sup>

(1) سورة «الأنعام». الآية 108.

(2) المصدر السابق. ج 3 ص 288.

(3) سورة «الفرقان». الآية 4-6.

(4) سورة «القلم». الآية 15.

(5) سورة «الجاثية». الآية 7، 8.

(6) «حصب جهنم»: كل ما أوقدت به نار ما.

(7) سورة «الأنبياء». الآية 98-100.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ<sup>(1)</sup>. وفيه أيضاً نزل ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِعَاقِبَتِنَا وَقَالَ لَأُوتِرَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا<sup>(2)</sup>. قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق -: «كان خَبَّاب بن الأرت صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قَيْنًا<sup>(3)</sup> بمكة يعمل السيوف، وكان باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له؛ حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خَبَّاب! أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه: أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو خدم أو ثياب؟ قال خَبَّاب: بلى. قال: فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خَبَّاب! حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خَبَّاب أثر عند الله مني ولا أعظم حظاً في ذلك، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِعَاقِبَتِنَا...﴾<sup>(4)</sup>.

ونزل في أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۖ﴾ يَتَوَلَّى لِيَّتِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ۖ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا<sup>(5)</sup>. قال عبد الملك ابن هشام: «كان أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط متصافيين حسناً بينهما. فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وسمع منه، فبلغ ذلك أبياً فأتى عقبة فقال: ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه؟! ثم قال: وجهي من وجهك حرام أن أكلمك - واستغلظ من اليمين - إن أنت جلست إليه أو سمعت منه أو لم تأته فتتفل في وجهه. ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي معيط لعنه الله! فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ...﴾ وقد تقدم لنا أن ذكرنا وسردنا الآيات القرآنية التي نزلت في أبي بن خلف؛ حين أنكر على الله إحياء الموتى للحساب والعقاب يوم القيامة.

(1) سورة «الكوثر». الآية 1 - 3.

(2) سورة «مريم» الآية 77 - 80.

(3) «قَيْنًا» - جمع أقيان، وقيون: الحداد، ثم أطلق على كل صانع.

(4) سورة «مريم». الآية 77.

(5) سورة «الفرقان». الآية 27 - 29.

**ونزل في الوليد بن المغيرة** - حين قال : أينزل ما ينزل على محمد ولم ينزل عليّ وأنا كبير قریش وسيدها ولم ينزل على أبي مسعود عمرو بن عمير الثقفي وهو سيد ثقيف ونحن عظيمي القريتين ! ! : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيتَيْنِ عَظِيمٍ ۖ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْخًا ۖ وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ ﴾ (1).

**ونزل في الأسود بن المطلب** ومن معه - حين اعترضوا رسول الله ، وهو يطوف بالكعبة ، فقالوا له : هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد من آلهتنا : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ (2) . وقال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق - : «ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قوماً إلى الإسلام وكلمهم ، فأبلغ إليهم ، فقال زمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، والأسود بن عبد يغوث ، وأبي بن خلف ، والعاص ابن وائل : لو جعل معك يا محمد ! ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۖ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ۖ ﴾ (3) .

ومرّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فيما بلغني بالوليد بن المغيرة ، وأمّية بن خلف ؛ وأبي جهل بن هشام ، فغمزوه واستهزؤا به ، فغاضه ذلك ، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من أمرهم : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾ (4) .

ومع هذا كله فقد كان رسول الله - عليه الصلاة والسلام !- صابراً مصطبراً على أذى المشركين له ولأصحابه ، مبلّغاً إليهم ما أمره الله بتبليغه سرّاً وعلانية ؛ حسبما يقتضيه حال كل مخاطب ومقامه في مجتمعه : رفعة وانحطاطاً . وكان - عليه الصلاة والسلام !- في منتهى اللباقة والآداب مع جميع الناس . قال محمد بن إسحاق : «قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على أمر الله محتسباً ، مؤدياً إلى قومه النصيحة على ما كان فيهم من النائرة (5) والأذى والاستهزاء . وكان عظماء

(1) سورة «الزخرف» الآيتان 31 ، 32 .

(2) سورة «الكافرون» . الآية 1 - 6 .

(3) سورة «الأنعام» . الآية 8 ، 9 .

(4) سورة «الأنبياء» . الآية 41 .

(5) «النائر» : الثورة والهيجان .

المستهزئين برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة وغيره من العلماء، قال: كان المستهزئون برسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: الأسود بن عبد يغوث بن وهب، والأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن الطلائع أحد خُزاعة. فكانوا يهزؤون برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ويغمزونه فأتاه جبريل عليه السلام! - فوقف به عند الكعبة وهم يطوفون بها، فمرّ به الأسود بن يغوث، فأشار جبريل إلى بطنه فمات حيناً. ومرّ به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي. ومرّ به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى جرح في كعب رجله قد أصابه قبل ذلك بيسير، فانتقض<sup>(1)</sup> به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص رجله، فركب إلى الطائف على حمار، فربض<sup>(2)</sup> به شبرقة<sup>(3)</sup> فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته. ومرّ به الحارث بن الطلائع، فأشار إلى رأسه، فامتحض<sup>(4)</sup> قيحاً حتى قتله. ففيهم أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾<sup>(5)</sup>.

### ما نزل من الآيات القرآنية في الأمر بملازمة المستضعفين والنهي عن الإعراض عنهم

قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق -: «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث، وصُهيب، وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق؟ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا.

**فأنزل الله تعالى فيهم:** ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup> وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا

(1) «فانتقض»: فسد.

(2) «فربض»: فوقع وعثر.

(3) «الشبرقة»: بكسر أوله وسكون ثانيه -: الخفيف المنفرد من النبات هنا. ويطلق على القطعة من الثوب الممزق.

(4) «فامتحض»: شرب.

(5) سورة «الحجر». الآية 95.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾ (١).

ونزل في ابن أم مكتوم (٢). الأعمى - حيث عبس رسول الله في وجهه وأعرض عنه، وأقبل على عتبة بن ربيعة طامعاً في إسلامه -: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَعَهُ الْذِكْرِ ﴿٤﴾ أَمْ أَمَّا مِنْ أَسْغَنِي ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكِّرُهُ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ (٣). قال محمد بن إسحاق: «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - جالساً وعنده عتبة ابن ربيعة، وابن أم مكتوم الأعمى، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله! علّمني القرآن، فعَبَسَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في وجهه، وصرفه عنه كراهية أن يُزهد إقباله عليه عتبة في الإسلام. فيقول (عتبة): إنما يتبع هذا (الرسول) العميان والمساكين، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾. إلى قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾. فلم يعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمثل ذلك (٤). وقال عبد الملك بن هشام: «وقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يكلمه، وقد طمع في إسلامه؛ فبينما هم في ذلك إذ مرّ به ابن أم مكتوم الأعمى، فكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وجعل يستقرئه القرآن، فشق ذلك منه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى أضجره؛ وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه. فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾. أي: إنما بعثتك بشيراً ونذيراً، لم أخصّ بك أحداً دون أحد، فلا تمنعه ممن ابتغاه، ولا تتصدّين به لمن

(١) سورة «الأَنْعَام». الآية ٥٢ - ٥٤.

(٢) «ابن أم مكتوم»: اسمه: عبدالله العامريّ، أحد بني عامر بن لؤيّ.

(٣) سورة «عَبَسَ». الآية ١ - ١٦.

(٤) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص ٢١٤.



لا يريد»<sup>(1)</sup>. ومّا يلاحظ أن المفسّرين اختلفوا في اسم الرّجل الذي طمع رسول الله في إسلامه؛ فمنهم من قال: هو عتبة بن ربيعة، ومنهم من قال: هو الوليد بن المغيرة، ومنهم من قال: هو أبيّ بن خلف، ومنهم من أطلق ولم يعن اسم الرّجل؛ بل جعله واحداً من عظماء المشركين أو فيمن زاد على واحد منهم. ومهما كان من أمر، فإنّ الله تعالى قد أمر رسوله فيما أرسله به أن لا يخصّ بالتبشير والإنذار واحداً دون الآخر؛ بل هو مأمور أن يساوي بين الشريف والوضيع، والغنيّ والفقر، والقويّ والضعيف، والسيدّ والمسود، والذكر والأنثى، والصغير والكبير. و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدُنُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(2)</sup>. وكانت الآيات القرآنية تنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حسب الوقائع الواقعة والأحداث الحادثة زماناً ومكاناً. قال محمّد ابن إسحاق: «كلّ شيء نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون وما يثبت به الرسول؛ فإنّما نزل بمكة، وما كان من الفرائض والسنن؛ فإنّما نزل بالمدينة»<sup>(3)</sup>.

### قدوم وفد الحبشة على رسول الله وإسلامهم

ولما شاع وذاع خبر نبوة محمد بن عبد الله - عليه الصّلاة والسلام! - وثبتت رسالته الرّبانيّة ورأى أهل الحبشة سلوك أصحابه المهاجرين إليهم سلوكاً حسناً محموداً في أقوالهم وأفعالهم، اشتاقوا حينئذ إلى رؤية صاحب هذه الرسالة المحمديّة، ليتحقّقوا ما وصلهم من النّبأ العظيم، فأرسلوا إلى مكّة المكرّمة وفداً مؤلفاً من رهبانهم وقساوستهم، ليستفسروا هذا الرسول الجديد نبأه في الناس، ويسألوه عمّا وجدوه مكتوباً في كتبهم المقدّسة؛ ممّا هو دالّ على النّبوة المتمثلة في الشخص المنتظر ظهوره، والمرقب في أبناء البشر أمره. قال محمد بن إسحاق: «ثمّ قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى، - حين ظهر خبره - من الحبشة. فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه، فكلموه وسألوه - ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة - فلمّا فرغوا من مساءلتهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عمّا أرادوا، دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى الله وتلا عليهم القرآن. فلمّا

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 3 ص 95، 296.

(2) سورة «البقرة». الآية 272.

(3) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 256.

سَمِعُوا فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ ، ثُمَّ اسْتَجَابُوا وَأَمْنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ ، وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا كَانَ يَوْصَفُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ . فَلَمَّا قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ ، اعْتَرَضَهُمْ أَبُو جَهْلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالُوا : خَيِّبَكُمْ اللَّهُ مِنْ رَكْبٍ ! بَعَثَكُمْ مَنْ وَرَاءَكُمْ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ تَرْتَادُونَ لَهُمْ لَتَأْتَوْهُمْ بِخَبَرِ الرَّجُلِ ، فَلَمْ تَطْمَئِنَّ مَجَالِسُكُمْ عِنْدَهُ حَتَّى فَارَقْتُمْ دِينَكُمْ وَصَدَقْتُمُوهُ بِمَا قَالَ لَكُمْ ! مَا نَعْلَمُ رَكْبًا أَحَقَّ مِنْكُمْ ، أَوْ كَمَا قَالُوا لَهُمْ ، فَقَالُوا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَا نَجَاهِلُكُمْ <sup>(1)</sup> ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَلَا نَأْلُوا أَنْفُسَنَا خَيْرًا <sup>(2)</sup> . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ أَيْضًا : «سَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ عَنِ الْآيَاتِ : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣٢﴾ (وَسَأَلْتُهُ عَنْ) قَوْلِهِ (تَعَالَى) : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ <sup>(4)</sup> . فَقَالَ (الزُّهْرِيُّ) : مَا زِلْتُ أَسْمَعُ عُلَمَاءَنَا يَقُولُونَ : نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ <sup>(5)</sup> .

### قصة أبي هريرة وإسلامه

قال محمد بن إسحاق : «عن أبي العالية قال : لما أسلم أبو هريرة ، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «مَنْ أَنْتَ؟» فقال : من «دوس» ، فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده على جبينه ، ثم نقضها فقال : «مَا كُنْتُ أَرَى مِنْ «دوس» <sup>(6)</sup> أَحَدًا فِيهِ خَيْرٌ» . . . حدثني بعض أصحابي عن أبي هريرة قال : كان اسمي في الجاهلية : عبد شمس بن صخر ، فسُمِّيتُ فِي الْإِسْلَامِ : عبد الرحمن . وَإِنَّمَا كُنْتُ بـ «أبي هريرة» . أَنِّي كُنْتُ أُرْعَى غَنَمًا لَهُ ، فَوَجَدْتُ أَوْلَادَ هِرَّةٍ وَحْشِيَّةً ، فَجَعَلْتُهَا فِي كُمِّي . فَلَمَّا أُرْحَتُ عَلَيْهِ غَنَمُهُ ، سَمِعْتُ أَصْوَاتَهُنَّ فِي

(1) «لا نجاهلکم» : لا نسا فهکم ، ولا نبدي لکم أننا جهلاء ولسنا بجهلاء .

(2) کتاب المبدأ والمبعث والمغازي . ص 119 ، 200 .

(3) سورة «المائدة» . الآية 82 ، 83 .

(4) سورة «الفرقان» . الآية 63 .

(5) المصدر السابق . ص 201 .

(6) «دوس» : قبيلة من قبائل اليمن .

صَفْنِي<sup>(١)</sup>. فقال: ما هذا يا عبد شمس؟! فقلتُ: أولاد هِرَّةٍ وجدُّتها، قال: فأنتَ: أبو هُريرة، فلزمتني بعد... وكان (أبو هُريرة) وسيطاً في دوس؛ حيث يجب أن يكون منهم»<sup>(٢)</sup>.

### قصة إسلام أمّ شريك الدّوسية

قال محمد بن إسحاق: «عن أبي هريرة قال: كانت امرأة من «دوس». يقال لها: أمّ شريك، أسلمت في رمضان، فأقبلت تطلب من يصحبها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فلقيت رجلاً من اليهود، فقال لها: ما لك يا أمّ شريك؟ قالت: أطلب رجلاً يصحبني إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: فتعالِي أنا أصحبك، قالت: فانتظرنِي حتى أملاً سقائي ماء، قال: مَعِي ما تريدين من ماء، فانطلقت معهم (أي: مع المسافرين)، فساروا يومهم حتى أمسوا، فنزل اليهودي، ووضع سفرته فتعشى، وقال: يا أمّ شريك تعالي إلى العشاء، فقالت: اسقني من الماء فإنّي عطشى، ولا أستطيع أن أكل حتى أشرب. فقال: لا أسقيك حتى تهوّدي، قالت: لا جزاك الله خيراً؛ غرّرتني ومنعتني أن أحمل ماءً. قال: لا، والله لا أسقيك منه قطرة حتى تهوّدي. فقالت: لا، والله لا أهوّد أبداً؛ بعد أن هداني الله للإسلام. فأقبلت إلى بغيرها فعقلته ووضعت رأسها على رُكبته فنامت. قالت: فما أيقظني إلّا برد دَلُوٍ قد وُضع على جبیني، فرفعت رأسي إلى دلو (فيه ماء) أشدّ بياضاً من اللَّبن، وأحلى من العسل، فشربت منه حتى رويت، ثم نضحت على سقائي حتى ابتلّ، ثم ملأته، ثم رُفِع بين يدي وأنا أنظر حتى توارى عني في السماء. فلما أصبحت، جاء اليهودي فقال: يا أمّ شريك! فقلت: قد، والله سقاني الله، قال: من أين؟ أنزل من السماء؟ قلت: نَعَمْ، والله قد أنزله الله عليّ من السماء، ثم رُفِع بين يدي حتى توارى عني في السماء. ثم أقبلتُ حتى دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقصصْتُ عليه القصة، فخطب إليها<sup>(٣)</sup> رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: يا رسول الله! لستُ أَرْضَى بنفسي لك؛ ولكنّ بضْعِي<sup>(٤)</sup> لك، فزوّجني مَنْ شئتَ. فزوّجها

(١) «الصَّفْنَن»: وعاء من جلد؛ يجعل فيه أهل البادية زادهم، جمع أصفان.

(٢) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 266.

(٣) «فخطب إليها»: فطلبها للزّواج. فدلّ هذا على أن هذه القصة كانت بعد وفاة خديجة زوجة رسول الله، التي لم يخطب في حياتها آية امرأة كانت.

(٤) «بضْعِي»: - يضم أوله وسكون ثانيه -: الزّواج، جعد الزّواج. المهر. وقد يكتنى به عن فرج المرأة. جمع بضوع وأبضاع.

زياداً، وأمر لها بثلاثين صاعاً، وقال: «كُلُّوا وَلَا تَكِيلُوا». وكان معها عُكَّةٌ<sup>(1)</sup> سَمَنَ هدية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم!- فقالت لجارية لها: أبلغني هذه العُكَّةَ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وقولي له: أمّ شريك تُقرئك السلام، وتقول لك: هذه عُكَّةٌ سَمَنَ أهديناها لك، فانطلقتُ بها، فأخذوها ففرّغوها، وقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: «عَلَّقُوهَا وَلَا تُوكُوهَا»<sup>(2)</sup>، فعلقوها في مكانها، فدخلت أمّ شريك فنظرت إليها مملوءة سَمَنًا، فقالت: يا فلانة! أليس أمرتك أن تنطلقني بهذه العُكَّةَ إلى رسول الله؟- صلى الله عليه وسلم!- فقالت: قد والله انطلقتُ بها كما قلت، ثمّ أقبلتُ بها أَصَوَّبُها<sup>(3)</sup> ما يقطر منها شيء؛ ولكنه قال (رسول الله): «عَلَّقُوهَا» فعلقتهما في مكانها. وقد أوكتها أمّ شريك حين رأتها مملوءة. فأكلوا منها حتى قَنِيت. ثم كالوا الشعير، فوجدوه ثلاثين صاعاً لم ينقص منه شيء»<sup>(4)</sup>.

### قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي وعائلته

قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق: «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- على ما يرى من قومه، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة بما هم فيه، وجعلت قريش، حين منعه الله منهم، يحذرونه الناس، ومنّ قدم عليهم من العرب. وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث: أنه قدم مكة - ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها - فمشى إليه رجال من قريش - وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً - فقالوا له: يا طفيل! إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا»<sup>(5)</sup>، وقد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا؛ وإنّا نأمله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمته. قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذنيّ حين غدوت إلى المسجد - كُرسُفاً<sup>(6)</sup> من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله - صلى الله

(1) «عُكَّةٌ»: - بضم أوله وفتح ثانيه مشدداً -: وعاء صغير للسمن. جمع عكك وعكاك.

(2) «ولا توكوها»: ولا تسدّوا فمها.

(3) أميلها وأقلبها على فمها.

(4) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 264، 265.

(5) «أعضل بنا»: أعيانا أمره.

(6) «كرسفا» - بضم أوله وسكون ثانيه وضمّ ثالثه -: قطناً.

عليه وسلم! قائم يصلي عند الكعبة؟ قال: فقمْتُ منه قريباً، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله. قال: فسمعتُ كلاماً حسناً. قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي!! والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعي أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته. قال: فمكثتُ حتى انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلتُ عليه، فقلت: يا محمد! إن قومك قالوا لي: كذا وكذا - للذي قالوا - فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددتُ أُذني بكرسُفٍ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعتُهُ قولاً حسناً، فأعرضَ عليّ أمرُك. قال: فعرض عليّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدلَ منه. قال: فأسلمتُ، وشهدتُ شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله! إني امرؤُ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً». قال: فخرَجْتُ إلى قومي، حتى إذا كنتُ بُشَيَّةً تُطلَعُني على الحاضر<sup>(1)</sup>. وقع نور بين عينيّ مثلُ المصباح، فقلت: اللَّهُمَّ في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنّها مثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم. قال: فتحولَ فوق في رأس سوطي. قال: فجعل الحاضر يترأون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية. قال: حتى جئتهم فأصبحتُ فيهم. قال: فلما نزلتُ أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً. قال: فقلت: إليك عني يا أبت! فلست منك، ولست مني. قال: ولم يا بُني؟! قال: قلت: أسلمتُ، وتابعتُ دين محمد - صلى الله عليه وسلم -! قال: أي بُني! فديني دينك. قال: فقلت: اذهب، فاغتسل، وطهر ثيابك، ثم تعالَ حتى أعلمك ما علّمتُ. قال: فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه. قال: ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام، فأسلم. قال: ثم أتتني صاحبتِي، فقلت: إليك عني، فلست منك، ولست مني، قالت: لم؟! بأبي أنت وأمّي. قال: قلت: قد فرّق بيني وبينك الإسلام، وتابعتُ دين محمد - صلى الله عليه وسلم -! قالت فديني دينك. قال: قلت: فاذهبي إلى «حمى ذي الشرى»<sup>(2)</sup> فتطهري منه. قال: قالت: بأبي

(1) «الحاضر» - جمع حضور، وحُضُر، وحَضَار: سكّان الحَضَر، والنازلون على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه.

(2) «ذي الشرى»: صنم لقبيلة «دوس». و«الحمى»: موضع حموه لصنمهم «ذي الشرى»: به وشَلٌ: قليل من ماء يهبط من جبل.

أَنْتَ وَأُمِّي! أَنْخَشِي عَلَى الصَّبِيَّةِ مِنْ «ذِي الشَّرَى» شَيْئاً، قَالَ: قُلْتُ: لَا، أَنَا ضَامِنٌ لَذَلِكَ، فَذَهَبَتْ فَاغْتَسَلَتْ، ثُمَّ جَاءَتْ فَعَرَضَتْ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ، فَأَسْلَمَتْ. ثُمَّ دَعَوْتُ دَوْساً إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَبْطَؤُوا عَلَيَّ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنَّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسِ الزَّنَا، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْساً، ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ وَارْفُقْ بِهِمْ». قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى هَاجَرَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - إِلَى الْمَدِينَةِ. وَمَضَى «بَدْرٌ» وَ«أُحُدٌ» وَ«الْخَنْدَقُ». ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بِمِنِ اسْلَمَ مَعِي مِنْ قَوْمِي، وَرَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بـ «خَيْبَرٍ»، حَتَّى نَزَلْتُ الْمَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتاً مِنْ دَوْسٍ، ثُمَّ لَحَقْنَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بـ «خَيْبَرٍ»، فَأَسْهَمَ لَنَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ لَمْ أَزَلْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - حَتَّى إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ابْعَثْنِي إِلَى «ذِي الْكُفَّينَ»<sup>(1)</sup>، حَتَّى أَحْرِقَهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ طُفَيْلٌ يوقِدُ النَّارَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ:

يَا ذَا الْكُفَّينَ<sup>(2)</sup> كَسْتُ مِنْ عِبَادِكَ      مِيلَادُنَا أَقْدَمُ مِنْ مِيلَادِكَ  
إِنِّي حَشَوْتُ النَّارَ فِي فُؤَادِكَ

قَالَ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فَكَانَ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فَلَمَّا ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، خَرَجَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَسَارَ مَعَهُمْ، حَتَّى فَرَّغُوا مِنْ طُلَيْحَةَ<sup>(3)</sup>، وَمِنْ أَرْضِ نَجْدٍ كُلِّهَا. ثُمَّ سَارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ - وَمَعَهُ ابْنُهُ عَمْرُو بْنُ الطُّفَيْلِ - فَرَأَى رَوْيَا وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْيَمَامَةِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَوْيَا، فَاعْبُرُوا هَالِي: رَأَيْتُ أَنَّ رَأْسِي حُلِقَ، وَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ فَمِي طَائِرٌ، وَأَنَّهُ لَقِيتُنِي امْرَأَةً، فَأَدْخَلْتَنِي فِي فَرْجِهَا، وَأَرَى ابْنِي يَطْلُبُنِي طَلَباً حَثِيئاً، ثُمَّ رَأَيْتُهُ حُبَسَ عَنِّي، قَالُوا: خَيْرٌ. قَالَ: أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فَقَدْ أَوَّلَتْهَا، قَالُوا: مَاذَا؟ قَالَ: أَمَّا حُلِقَ رَأْسِي فَوَضَعُهُ، وَأَمَّا الطَّائِرُ الَّذِي خَرَجَ مِنْ فَمِي فَرُوحِي، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ الَّتِي أَدْخَلْتَنِي فَرْجِهَا، فَالْأَرْضُ تُحْفَرُ لِي، فَأُغَيَّبُ فِيهَا، أَمَّا طَلَبُ ابْنِي إِيَّايَ ثُمَّ حَبَسَهُ عَنِّي، فَإِنِّي أَرَاهُ

(1) «ذِي الْكُفَّينَ»: صَنْمٌ لِقَبِيلَةِ دَوْسٍ وَقَبِيلَةِ خَزَاعَةَ.

(2) «يَا ذَا الْكُفَّينَ»: بَغَاءٌ مَخْفِقَةٌ بِضُرُورَةِ الْوِزْنِ.

(3) «طُلَيْحَةَ»: قَبِيلَةٌ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ.

سيجهد أن يصيبه ما أصابني . فقتل (الطفيل) رحمه الله شهيداً باليمامة ، وجرح ابنه جراحة شديدة ، ثم استبل<sup>(1)</sup> منها ، ثم قتل عام اليرموك<sup>(2)</sup> في زمان عمر - رضي الله عنهما - شهيداً :

## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** قال عبد الرحمن السُّهَليّ : «قوله - تعالى !: ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ ولم يقل : في عنقها ، والمعروف أن يُذكر العنق إذا ذكر الغُلّ أو الصَّعَّ<sup>(3)</sup> ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ . ويُذكر الجيد إذا ذكر الحُلِيّ أو الحسن ؛ فإنما حَسُنْ هاهنا ذكر الجيد في حكم البلاغة ، لأنها : (أم جميل) امرأة ، والنساء تحليّ أجياهنّ ، وأم جميل لا حُلِيّ لها في الآخرة إلاّ الحبل المَجْعول في عنقها ؛ فلما أقيم لها ذلك مقام الحُلِيّ ذكر الجيد معه ، فتأمله ؛ فإنّه معنى لطيف . . . وانظر كيف قال : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ ﴾ ، ولم يقل : وزوجته ؛ لأنها ليست بزوجة له في الآخرة ، ولأنّ التزويج حلية شرعية ، وهو من أمر الدين يجردها من هذه الصّفة ؛ كما جرّد منها امرأة نوح وامرأة لوط<sup>(4)</sup> ، فلم يقل : زوج نوح ، وقال لآدم : ﴿ أَتَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾<sup>(5)</sup> ، وقال لنبية - عليه السلام !: ﴿ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ ﴾<sup>(6)</sup> ، وقال : (وأزواجه أمهاتهم) ، إلّا أن يكون مساق الكلام في ذكر الولادة والحمل ونحو ذلك ، فيكون - حينئذ - لفظ للمرأة لائقاً بذلك الموطن ؛ كقوله - تعالى !: ﴿ وَكَانَتْ أَمْرَأَتِيْ عَاقِرًا ﴾<sup>(7)</sup> ، ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِيْ صَرَقَةٍ ﴾<sup>(8)</sup> ؛ لأنّ الصّفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع ؛ لا من حيث كانت زوجاً .

(1) «استبل» : برىء وصحّ .

(2) «اليرموك» : واد بناحية الشام كانت به حرب للمسلمين مع الروم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه .

(3) «الصّنع» : الضرب بالكف المبسوطة على العنق .

(4) فيه إشارة إلى قول الله - تعالى :- ﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَأَتَ نُوحَ وَأَمْرَأَتَ لُوطَ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ ﴾ .

(سورة «التحریم» . الآية 10) .

(5) سورة «البقرة» . الآية 35 .

(6) سورة «الأحزاب» . الآية 28 - 32 .

(7) سورة «مريم» . الآية 5 .

(8) سورة «الذاريات» . الآية 29 .

**العبرة الثانية :** أن عبد العزى بن عبد المطلب كان يكتى بأسماء أبنائه : عتبة ، ومعتب ، وعُتَيْبَة ، وكُنِّي بـ «أبي لهب» لإشراق في وجهه . وجميع أولاده من زوجته أروى أم جميل ، التي كانت عوناً له على كفره وجحوده وإشراكه وعناده ؛ كما تكون عليه في عذابه وعقابه وخلوده في نار جهنم يوم القيامة !! وكانت لأم جميل قلادة من ذهب فاخرة ، فأنفقتها في عداوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار قال الأحوص الأنصاري الشاعر :

كُلُّ الْحَبَالِ حَبَالُ النَّاسِ مِنْ شَعَرٍ      وَحَبْلُهَا وَسَطُ أَهْلِ النَّارِ مِنْ مَسَدٍ

ومن العبرة لمن يعتبر : أن الله قد أخذ ببصر أم جميل يوم جاءت بفهرها في يدها تريد أن تضرب به رسول الله ، فلم تره وهو شاخص أمامها ، جالس مع أبي بكر الذي قالت له : «أين صاحبك؟ لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه» .

**العبرة الثالثة :** أن الله قد أنزل في كل من أذى رسول الله وأساء له ولأصحابه ، ما يكفي من الآيات القرآنية ، وما يكون منها ردعاً وزجراً لمن أنزلها فيهم ؛ كما تكون عبرة لمن يعتبرون بها خلفاً عن سلف من الأمة المحمدية .

**العبرة الرابعة :** أن آيات القرآن الكريم وتلاوتها قد أثرت في نفوس من هداهم الله إلى دين الإسلام ، فاهتدوا بمجرد سماعها . ومن هؤلاء المهتدين وقدُ الحُبْشَة برُهبانهم وقسيسيهم . وعلى خلاف هؤلاء المهتدين ، أولئك الضالون عن سبيل الله ، فلم تتأثر نفوسهم الشقية فيما أنزل الله فيهم من الآيات الزاجرة ، فظلوا على كفرهم وعنادهم وعلى رأسهم : أبو لهب ، عبد العزى بن عبد المطلب ، وأبو جهل ، عمرو بن هشام ، لعنهما الله وأخزاهما في الدنيا والآخرة .

**العبرة الخامسة :** أن إسلام أم شريك الدوسية ، ورسوخ إيمانها الصادق بالله رباً وحده لا شريك له ، وبمحمد نبياً ورسولاً ، قد حماها من حيلة اليهودي ونجأها من كيده ، وتوكلت على الله فرزقها بما لم يكن لها في الحسبان : من ماء أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، فروت منه رباً لا عطش بعده !! ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾ (1) .

(1) سورة «الطلاق» . الآية 3 .



**العبرة السادسة : أن في قصة إسلام طُفَيْل بن عَمْرٍو الدَّوسِيّ ثلاثة أمور؛ تدعو إلى**

العبرة لمن يعتبر :

**أحدها :** علامة النور الذي بدا بين عيني طُفَيْل كالمصباح ، ثم انتقل إلى رأس سَوَظَه ،  
فراه أهل دَوْس كالقنديل المعلق في سوطه !! .

**ثانيها :** أن دوساً كاد الهلاك ينزل بهم ؛ لولا دعاؤه - عليه الصلاة والسلام - : ( اللهم اهدِ  
دوساً) . وكلا الأمرين قد كانا بدعائه - عليه الصلاة والسلام - !<sup>(1)</sup>

**ثالثها :** أن الرؤيا التي رآها طُفَيْل في منامه ، قد جاء تعبيره وتفسيره لها صحيحاً ثابتاً؛ بعد  
استشهاده - هو - وابنه في معركتي الجهاد لإعلاء كلمة الله ، رحمهما الله ، وأسكنهما فسيح جنانه .

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن أي لفظ لا يشبه لفظاً آخر إلا على غير ما دل عليه ؛ فإنه لا ينصرف  
عقلاً وشرعاً إلى غير مدلوله . قال عبد الرحمن السُّهَيْلِيّ : «وذكر (عبد الملك بن هشام) قول  
النبي - صلى الله عليه وسلم - : «أَلَا تَعْجَبُونَ لِمَا يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي مِنْ أَدَى قُرَيْشٍ ؛ يَسُبُّونَ  
وَيَهْجُونَ مُذَمَّماً ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ»<sup>(2)</sup> ! وأدخل النَّسَوِيُّ هذا الحديث في كتاب الطلاق في باب : «من  
طَلَّق بكلام لا يشبه الطلاق ، فإنه غير لازم» . وهو فقه حَسَن لقول النبي - صلى الله عليه  
وسلم - : «أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا يَدْفَعُ اللَّهُ عَنِّي مِنْ أَدَى» . فجعل أذاهم مصروفاً عنه ، لما سبوا مذمماً  
لا يشبه أن يكون اسماً له ، فكذلك إذا قال (الزوج) لها (أي : لامرأته) : كُلِّي واشربي ، وأراد به  
الطلاق لم يلزمه ، وكان مصروفاً عنه ؛ لأنّ مثل هذا الكلام لا يشبه أن يكون عبارة الطلاق» .

**الحكم الثاني :** أن ذكر الأشخاص بأوصافهم المتصفين بها حقيقة ، ليس هو من  
المحذور شرعاً ، بل هو جائز ، ما لم يكن القصد من ذكر ذلك الاستهزاء والتعير ، وما إلى ذلك  
مما يؤدي أصحابها . فعلى هذا الأساس ذكر الله - تعالى - عبد الله بن أمّ مكتوم بما هو عليه  
خُلُقُه ، فقال : ﴿أَنْ جَاءَهُ أَلَّا عَمِيَ﴾ . ولم يقصد بذلك الاستهزاء المُقَيِّت والازدراء الأثيم ؛

(1) ودعاؤه - عليه الصلاة والسلام - لطفيل : «اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً» . والآية هي النور الذي ظهر كالمصباح بين  
عينيه ، ثم انتقل إلى رأس سوطه ، فراه أهل دَوْس حينما بدا لهم بيد صاحبه كالقنديل معلقاً على رأس ذلك  
السوط !!

(2) رواه الشيخان .

تَمَا تَعُوذُ عَلَيْهِ الْجَاهِلُونَ . قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى !- : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ <sup>(1)</sup> أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ <sup>(2)</sup> . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّهَيْلِيُّ : « وَفِي ذِكْرِهِ إِيَّاهُ <sup>(3)</sup> بِالْعَمَى مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِشَارَةِ اللَّطِيفَةِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى مَوْضِعِ الْعُتْبِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ ، فَذَكَرَ الْمَجِيءَ مَعَ الْعَمَى ، وَذَلِكَ يُنبِئُ عَنْ تَجَشُّمِ كُلْفَةٍ . وَمَنْ تَجَشَّمَ الْقَصْدَ إِلَيْكَ عَلَى ضَعْفِهِ ، فَحَقَّقَ الْإِقْبَالَ عَلَيْهِ ؛ لَا الْإِعْرَاضَ عَنْهُ . فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- مَعْتُوبًا عَلَى تَوَلَّيْهِ عَنِ الْأَعْمَى ، فَغَيْرُهُ أَحَقُّ بِالْعُتْبِ ؛ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ آمَنَ بَعْدُ ، أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ . الْآيَةُ . . . وَلَوْ كَانَ قَدْ صَحَّ إِيمَانُهُ ، وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُ ، لَمْ يَعْرِضْ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- وَلَوْ أَعْرَضَ لَكَانَ الْعُتْبُ أَشَدَّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْبِرَ عَنْهُ ، وَيُسَمِّيَهُ بِالْأَسْمِ الْمَشْتَقِّ مِنَ الْعَمَى ، دُونَ الْأَسْمِ الْمَشْتَقِّ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ ، لَوْ كَانَ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَإِنَّمَا دَخَلَ فِيهِ بَعْدَ نَزُولِ الْآيَةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- : اسْتَدْنِنِي <sup>(4)</sup> يَا مُحَمَّدُ ! وَلَمْ يَقُلْ : اسْتَدْنِنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَعَ أَنَّ ظَاهِرَ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْهَاءَ فِي ﴿ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ عَائِدَةٌ عَلَى الْأَعْمَى الْكَافِرِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمَ لَهُ ذِكْرُ بَعْدٍ ، وَ« لَعَلَّ » تُعْطِي التَّرَجِّيَّ وَالْإِنْتَظَارَ ، وَلَوْ كَانَ إِيمَانُهُ قَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَ هَذَا ، لَخَرَجَ عَنْ حَدِّ التَّرَجِّيِّ وَالْإِنْتَظَارِ لِلتَّرَجِّيِّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ <sup>(5)</sup> .

### الحكم الثالث : أَنَّ سَدَّ الذَّرَائِعِ وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْفَقْهِ وَأُئِمَّةِ

الاجتهاد المطلق ؛ لِأَنَّ ارْتِكَابَ الذَّرِيعَةِ يَفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى مَا هُوَ مُحَرَّمٌ شَرْعًا ، وَمِنْ ذَلِكَ سَبُّ الْمُسْلِمِينَ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ ، فَيُفْضِي ذَلِكَ بِالْمُشْرِكِينَ إِلَى سَبِّهِمُ اللَّهِ . قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ <sup>(6)</sup> . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّهَيْلِيُّ :

(1) « قَالَ » : مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(2) سُورَةُ « الْبَقَرَةِ » . الْآيَةُ 67 .

(3) « إِيَّاهُ » : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ .

(4) « اسْتَدْنِنِي » . وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ : أَرَشَدْنِي . وَرِوَايَةُ ابْنِ إِسْحَاقَ : عَلِمْنِي الْقُرْآنَ .

(5) السُّهَيْلِيُّ ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ . رِوَايَةُ الْأَنْفِ ، ج 3 ص 329 ، 330 .

(6) سُورَةُ « الْأَنْعَامِ » . الْآيَةُ 108 .

«وهذه الآية أصل عند المالكية في إثبات الذرائع ومراعاتها: في البيوع وكثير من الأحكام، وذلك أن سب آلهم كان من الدين. فلما كان سبياً إلى سبهم الباري - سبحانه! - نهى عن سب آلهم، وكذلك ما يخاف منه الذريعة إلى الربا، ينبغي الزجر عنه. ومن الذرائع ما يقرب من الحرام، ومنها ما يبعد منه، فتقع الرخصة والتشديد على حسب ذلك»<sup>(1)</sup>. والذريعة: هي ما كان وسيلة وطريقاً إلى الشيء. وفي عُرْف الفقهاء: هي عبارة عما أفضت إلى فعل محرّم. وقد قتل هذا الموضوع بحثاً، ودقّق فيه تدقيقاً كافياً عن غيره، الإمام أبو العباس أحمد بن تيمية في كتابه القيم: «إقامة الدليل، على إبطال التحليل».

### وفاة أبي طالب

توفي أبو طالب بن عبد المطلب قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين<sup>(2)</sup>، وعمره بضعة وثمانون سنة<sup>(3)</sup>، وبموته عظمت المصيبة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وازدادت إساءة مشركي قريش له ولأصحابه، ونالوا منه ما لم يقدروا على نيله إبان حياة عمّه أبي طالب الحامي له من أذاهم المتتابع عليه بعد وفاة هذا العمّ الوافي لابن أخيه من شرّ أشرار المشركين بالله، الجاحدين لرسالة رسوله!!

قال محمد بن إسحاق: «... فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً. ولما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ذلك التراب، دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يقول لها: «لَا تَبْكِي يَا بَنِيَّةُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعٌ أَبَاكَ». ويقول بين ذلك: «مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئاً أَكْرَهُهُ، حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ»<sup>(4)</sup>.

(1) روض الأنف. ج 3 ص 313، 314.

(2) باتفاق جلّ أصحاب السير النبوية.

(3) ابن الأثير، عليّ. الكامل في التاريخ. ج 2 ص 90.

(4) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي، ص 221، 223.

## هل أسلم أبو طالب أم مات على شركه وكفره؟

لقد اختلف علماء التفسير ورواة الحديث في إسلام أبي طالب وكفره؛ فمنهم من يقول: مات مسلماً، ومنهم من يقول: مات مشركاً كافراً. والمشهور من أقوال هؤلاء وأولئك أنه قد مات على شركه وكفره. ونحن نميل كل الميل إلى تفويض حقيقة ما مات عليه إلى الله علام الغيوب وغافر الذنوب. وليس في وسعنا إلا أن ننقل ما وصلنا مما قيل في ذلك دون أن نحكم بإسلامه أو بكفره. قال محمد بن إسحاق: «فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكذيبهم بالحق، قال: «لَقَدْ دَعَوْتُ قَوْمِي إِلَى أَمْرٍ مَا اسْتَطَعْتُ<sup>(1)</sup> فِي الْقَوْلِ»، فقال عمّه: أَجَلْ لَمْ تَشْطَطْ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! عند ذلك، وأعجبه قول عمّه: «يَا عَمُّ! بَكَ عَلَيَّ كَرَامَةً، وَيَدُّكَ عِنْدِي حَسَنَةً، وَكَسْتُ أَجْدَ الْيَوْمَ مَا أَجْزَيْكَ بِهِ؛ غَيْرَ أَنِّي أَسْأَلُكَ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَحُلُّ لِي بِهَا الشَّقَاعَةُ عِنْدَ رَبِّي: أَنْ تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، تُصِيبَ بِهَا الْكَرَامَةَ عِنْدَ الْمَمَاتِ، فَقَدْ حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الدُّنْيَا، وَتَنْزِلُ بِكَلِمَتِكَ هَذِهِ الشَّرَفَ الْأَعْلَى فِي الْآخِرَةِ». فقال له عمّه: والله يا بن أخي! لولا أن ترى قريش أنما ذعرني الجزعُ، وتعصدك بعدي سبّة تكون عليك وعلى بني ابنك غضاضة، لقلت الذي تقول، وأقررت بها عينك، لما أرى من شدة وجدك ونصحك لي. ثم إن أبا طالب دعا بني عبد المطلب، فقال: إنكم لن تزالوا بخير ما سمعتم قول محمد وآبعتهم أمره. فاتبعوه وصدقوه ترشدوا. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! عند ذلك -: «أَتَأْمُرُهُمْ بِالنَّصِيحَةِ وَتَدْعُهُمْ لِنَفْسِكَ؟!». فقال عمّه: أَجَلْ، لو سألتني هذه الكلمة وأنا صحيح لها، لا تبتعتك على الذي تقول؛ ولكنني أكره الجزع عند الموت، وترى قريش أتني أخذتها عند الموت وتركتها وأنا صحيح<sup>(2)</sup>. فأنزل الله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(3)</sup>. وقال محمد بن إسحاق - أيضاً: «عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أمية، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! لأبي طالب: «يَا عَمَاهُ! قُلْ! لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، فقال أبو جهل: فوالله يا أبا طالب!

(1) «اشتططت»: الشطط، البعد وتجاوز الحد في القول والفعل.

(2) «وأنا صحيح»: فيه دلالة واضحة على أنه قال هذا القول وهو مريض مَرَضَ الموت.

(3) سورة «القصص». الآية 56.

أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال له أبو طالب - آخر ما كلمهم -: «هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عن ذلك»، فأنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (٢). وقال محمد بن إسحاق - كذلك -: «عن ابن عباس قال: لما أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أبا طالب في مرضه، فقال له: يا عم! قل لا إله إلا الله، استحل بها لك الشفاعة يوم القيامة». قال (أبو طالب): والله يا بن أخي لولا أن يكون سبب عليك وعلى أهل بيتك من بعدي؛ يرون أنني قتلتها جزعاً حين نزل بي الموت لقتلتها. لا أقولها إلا لأشرك بها. ولما ثقل أبو طالب رثي يحرك شفتيه، فأصغى إليه العباس (بن عبد المطلب)، ليستمع قوله، فرفع العباس عنه فقال: يا رسول الله! قد والله قال الكلمة التي سألته، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «لَمْ أَسْمَعْ» (٣)، وقال محمد بن إسحاق: «عن يزيد الرقاشي قال: قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: يا رسول الله! أبو طالب ونصرتك لك وحيطته عليك، أين منزلته؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «هُوَ فِي ضَحَضَاحٍ (٤) مِنْ نَارٍ». فقيل: وإن فيها لضحضاهاً وغمراً (٥)؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «نَعَمْ؛ إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ النَّارِ مَنْزِلَةً لِمَنْ يُحْدَى (٦) لَهُ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْ وَهَجِهَا دِمَاعُهُ حَتَّىٰ يَسِيلَ عَلَىٰ قَوَائِمِهِ (٧) ... قال

(1) سورة «التوبة». الآية 113، 114.

(2) المصدر السابق بصفحاته.

(3) «الضحضاح»: القليل من كل شيء.

(4) «الغممر»: الكثير العمق.

(5) «يُحْدَى»: يُصْنَعُ وَيُعْمَلُ.

(6) وفي الصحيح: «أن العباس قال لرسول الله - عليه الصلاة والسلام! -: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال رسول الله: «نَعَمْ، وَجَدْتُهُ فِي غَمَرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَىٰ ضَحَضَاحٍ». في الصحيح - أيضاً - من طريق أبي سعيد: أن رسول الله - عليه الصلاة والسلام! - قال: «لَعَلَّهُ تَنَفَّعَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَلْغُ كَعْبِيهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاعُهُ».

سنان: فبلغني أنه يرى ينادي: أن لا يُعَذَّبَ أحدٌ عذابه؛ من شدة ما هو فيه»<sup>(1)</sup>. وقال محمد بن إسحاق - مرة أخرى -: «عن علي بن أبي طالب قال: لما مات أبو طالب أتيتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقلت: إنَّ أبا طالب عمَّكَ الكافر قد مات. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «اذْهَبْ فَوَارِهِ». فقلتُ: والله لا أواريه، فقال: «فَمَنْ يُوَارِيهِ إِنْ كَمْ تُوَارِهِ؟ فَانْطَلِقْ فَوَارِهِ، ثُمَّ لَا تُحَدِّثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي». فانطلقتُ فواريته. ثم رجعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: «انْطَلِقْ فَاغْتَسِلْ، ثُمَّ أَتْنِي». ففعلتُ، ثم أتيتَه. فلما أن أتيتَه، دعا لي بدعوات؛ ما أحبَّ أن لي بهنَّ ما على الأرض من شيء». ويُروى أن علياً رثى أباه أبا طالب حين موته بقصيدة تسيل الدَّموع، وتدمي القلوب، ذكرها بنصّها محمد بن إسحاق في كتابه: «المبدأ والمبعث والمغازي». صفحة 224.

### وفاة خديجة بنت خُوَيْلِد رضي الله عنها

قال محمد بن إسحاق: «ثمَّ إنَّ خديجة بنت خُوَيْلِدَ وأبا طالب ماتا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - المصائب بهلاك خديجة وأبي طالب. وكانت خديجة وزير صدق على الإسلام؛ كان (رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يسكن إليها»<sup>(2)</sup>. قال عبد الرحمن السُّهَيْلِيُّ: «وذكر الزُّبَيْرُ في حديث أسنده: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - دخل على خديجة، وهي في الموت، فقال: «مَا أَرَى مِنْكَ يَا خَدِيجَةُ! وَقَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ فِي الْكُرْهِ خَيْرًا»<sup>(3)</sup>، أَشْعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْلَمَنِي أَنَّهُ سَيَزَوِّجُنِي مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ مَرِيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ، وَكُلُّنَا أَخْتٌ مُوسَى، وَأَسِيَّةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ»، فقالت: الله أعلمك بهذا يا رسول الله؟ فقال: «نَعَمْ»، فقالت: بالرفاء والبنين»<sup>(4)</sup>. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كلما ذُكِرَتْ خديجة بعد موتها أكثر وأطنب من ذكر فضلها وصدقها وإخلاصها له ولما جاء به من لدن ربه.

(1) والمصدر السابق بصفحاته. وقد عرضنا عن نقل هذه القصيدة هنا، اتباعاً لأسلوبنا في عدم نقل ما ورد من الأشعار في سيرة رسول الله عليه السلام؛ وذلك لعدم الجزم بصحتها.

(2) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 227.

(3) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. (سورة النساء.

الآية 19).

(4) روض الأنف. ج 4. ص 32، 33.

وقد تقدّم لنا أن ذكرنا ما تيسّر ذكره من حسناتها؛ وذلك عندما تمّ اقترانها وزواجها برسول الله عليه الصلاة والسلام. وبعد وفاتها تزوّج عليه الصلاة والسلام سودة بنت زمعة، ودخل بها وهي مسلمة، وعاهد على عائشة وهي بنت ستّ، وبنى بها وهي بنت تسع.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن عصبية أبي طالب، وتشبّهه بما كان عليه آباؤه وأجداده قد أعماه عن طريق الهدى، وحال بينه وبين الإسلام، فمات مشركاً كافراً، فلم ينفعه يوم القيامة تحزبه لابن أخيه محمد - عليه الصلاة والسلام! - وانتصاره له، ووقوفه إلى جنبه بدافع قرابة الدّم والنسب! وليس بدافع أخوة الإيمان والإسلام اللذين أخرجته منهما عصبية القومية. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصِيَّةٍ»<sup>(1)</sup>.

**العبرة الثانية:** أن إيمان عليّ - رضي الله عنه! - قد جعله يتمتع أن يوارى جثة أبيه أبي طالب بعد وفاته، فلولا إلحاح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في ذلك عليه، ما واره، لأنّ رسوخ دين الإسلام في قلب هذا الابن المهتدي، كان مفضلاً ومقدماً عنده على عاطفة القرابة وبرّ الأبوة ما دام الأب مشركاً وكافراً بالله وحده لا شريك له. قال عزّ من قائل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(2)</sup> قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْتَرَفَتْ مِنْهَا وَتَحْزَنُ كَسَادُهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَصُّوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(3)</sup>.

**العبرة الثالثة:** قال عبد الرحمن السّهيلي: «ومن باب النظر في حكمة الله، ومشكلة الجزاء للعمل، أن أبا طالب كان مع رسول الله بجملته متحزباً له؛ إلاّ أنه مثبتٌ لقدميه على ملّة عبد المطلب، حتى قال عند الموت: أنا على ملّة عبد المطلب، فسُلّط العذابُ على قدميه خاصّة، لتبته إياهما على ملّة آبائه. ثبتنا الله على الصّراط المستقيم»<sup>(3)</sup>.

(1) رواه الطبراني، عن عبد الله بن عباس.

(2) سورة «التوبة». الآية 24.

(3) روض الأنف. ج 4 ص 28.

**العبرة الرابعة :** أن الله قد نهى رسوله أن يستغفر لعمه بسبب شركه وكفره ؛ ولو كان

ذا قرى محبباً إليه ، ومع هذا النهي الرباني نجد رسول الله قد استغفر لقومه ؛ رغم أنهم مشركون كافرون ، فقال : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» . وذلك حين جرحوا وجهه ، وأسقطوا رباعيته ، وأسالوا دمه ، وقتلوا كثيراً من أصحابه وعلى رأسهم عمه حمزة بن عبد المطلب في معركة «غزوة أحد» . وقد أوضح لنا عبد الرحمن السهيلي مقتضى دعاء الرسول لقومه ، ونهى الله له عن الاستغفار لعمه فقال : «ولا يصح أن تكون الآية نزلت في عمه ناسخة لاستغفاره يوم أحد ؛ لأن وفاة عمه كانت قبل ذلك بمكة ، ولا ينسخ المتقدم المتأخر . وقد أجيب عن هذا السؤال بأجوبة : أن قيل : استغفاره لقومه مشروط بتوبتهم من الشرك ، كأنه أراد الدعاء لهم بالتوبة ؛ حتى يغفر الله لهم . ويقوي هذا القول رواية من روى : «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» . وقد ذكرها ابن إسحاق ؛ رواها عنه بعض رواة الكتاب بهذا اللفظ . وقيل : مغفرة تصرف عنهم عقوبة الدنيا من المسخ والخسف ، ونحو ذلك . ووجه ثالث ، وهو : أن تكون الآية تأخر نزولها ، فنزلت بالمدينة ناسخة للاستغفار للمشركون ، فيكون سبب نزولها متقدماً ونزولها متأخراً ؛ لا سيما وهي في «سورة براءة» ، وبراءة من آخر ما نزل ، فتكون على هذا ناسخة للاستغفارين جميعاً»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الخامسة :** أن أبا طالب قد أوصى قومه - في مرض موته - برسول الله خيراً .

وأوصاهم أن يتبعوه فيما يأمرهم به ؛ مع أنه مات على شركه وكفره ! قال عبد الرحمن السهيلي : «وحكي عن هشام بن السائب أو ابنه أنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش ، فأوصاهم ، فقال : يا معشر قريش ! أنتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المأثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلکم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حزب ، وعلى حربكم ألب»<sup>(2)</sup> ، وإنني أوصيكم بتعظيم هذه البنية<sup>(3)</sup> ؛ فإن فيها مرضاة للرب ، وقواماً للمعاش ، وثباتاً للوطاة . صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ؛ فإن في

(1) المصدر السابق ، ج 3 ص 29 .

(2) «ألب» : القوم يجتمعون على عداوة غيرهم .

(3) «البنية» : الكعبة المشرفة .



صلة الرَّحْمِ مَنْسَأَةً<sup>(1)</sup> في الأجل ، وسَعَةً في العدد . وَاَتَرَكُوا الْبَغْيَ<sup>(2)</sup> والعقوق ؛ ففِيهِمَا هَلَكَةُ الْقُرُونِ<sup>(3)</sup> قبلكم ، أَجَبُوا الدَّاعِيَ ، وَأَعْطُوا السَّائِلَ ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا شَرَفَ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ . عَلَيْكُمْ بِصَدَقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا مَحَبَّةَ فِي الْخَاصِّ ، وَمَكْرَمَةً فِي الْعَامِ . وَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِمُحَمَّدٍ خَيْرًا ؛ فَإِنَّهُ الْأَمِينُ فِي قَرِيشٍ ، وَالصَّدِيقُ فِي الْعَرَبِ ، وَهُوَ الْجَامِعُ لِكُلِّ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ ، وَقَدْ جَاءَ بِأَمْرِ قَبْلِهِ الْجَنَانُ<sup>(4)</sup> ، وَأَنْكَرَهُ اللَّسَانُ ، مَخَافَةَ الشَّنَّانِ<sup>(5)</sup> . وَأَيُّمَ اللَّهِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى صَعَالِيكَ<sup>(6)</sup> الْعَرَبِ ، وَأَهْلِ الْبَرِّ فِي الْأَطْرَافِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ النَّاسِ قَدْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَعَظَّمُوا أَمْرَهُ ، فَخَاضَ بِهِمْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ، فَصَارَتْ رُؤُسَاءُ قَرِيشٍ وَصَنَادِيدُهَا أَذْنَابًا ، وَدُورُهَا خِرَابًا ، وَضَعْفَاؤُهَا أَرْبَابًا . وَإِذَا أَعْظَمُهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَحْجُوهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ ، أَحْظَاهُمْ عِنْدَهُ ، قَدْ مَحَضَّتْهُ<sup>(7)</sup> الْعَرَبُ وَدَادَهَا ، وَأَصَفَتْ لَهُ فُؤَادَهَا ، وَأَعْطَتْهُ قِيَادَهَا ؛ دُونَكُمْ<sup>(8)</sup> يَا مَعْشَرَ قَرِيشِ ابْنِ أَبِييَكُمْ ، كُونُوا لَهُ وُلَاةً وَلَحْزِبِهِ حِمَاةً . وَاللَّهُ لَا يَسْلُكُ أَحَدٌ مِنْكُمْ سَبِيلَهُ إِلَّا رَشِدًا ، وَلَا يَأْخُذُ أَحَدٌ بِهِدْيِهِ إِلَّا سَعْدًا . وَلَوْ كَانَ لِنَفْسِي مُدَّةٌ ، وَلَأَجَلِي تَأْخِيرٌ ، لَكَفَفْتُ عَنْهُ الْهَزَاهُزَ<sup>(9)</sup> ، وَلَدَفَعْتُ عَنْهُ الدَّوَاهِيَ ، ثُمَّ هَلَكَ<sup>(10)</sup> .

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن التَّهْيِي عن استغفار المسلمين للكافرين باقٍ في إطار التحريم إلى يوم القيامة ؛ ولو كان المستغفر له من ذوي الأرحام والقربى والنسب . وكذلك لا يجوز للمسلمين أن يعزّوا الكافرين في موتاهم أو يمشوا في جنائزهم . قال الله - تعالى !- مخاطباً نبيّه - عليه الصلاة والسلام !- : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ - إِنَّهُمْ كَفَرُوا

(1) «منسأة»: تأخيراً وإمداداً في العمر .

(2) «البغي»: الظلم .

(3) «القرُون»: الأجيال .

(4) «الجنان»: القلب وجَنَان كل شيء : جوفه .

(5) «الشَّنَّان»: أشدّ البغض والحقد .

(6) «صعاليك العرب»: فُتَاكِهِمْ . والأصل في معنى الصُّعْلُوك : الفقير .

(7) «محضته»: أخلصت له .

(8) «دونكم»: اسم فعل ، بمعنى خُذُوا .

(9) «الهزاهز»: الفتن والشدائد . لا واحد لها من لفظها .

(10) روض الأنف : ج 3 ص 30 ، 31 .

يَا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿١﴾ . وقال رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: لا بنته فاطمة ، حين عزّت قوماً من الأنصار عن ميتهم - : «لَعَلَّكَ بَلَغْتَ مَعَهُمُ الْكُدْيَ» ؟ فقالت : لا ، فقال : «لَوْ كُنْتُ مَعَهُمْ (ب) الْكُدْيَ مَا رَأَيْتُ الْجَنَّةَ حَتَّى يَرَاهَا جَدُّ أَبِيكَ» . وعن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - ونحن في سفر ، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب ، فصلّى ركعتين ، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله ! مالك ؟ قال : «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الْاِسْتِغْفَارِ لَأُمِّي ، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ . وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثَ : نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا ، فَتُذَكَّرُكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَصْحَايِ بَعْدَ ثَلَاثَ ، فَكُلُّوْا وَأَمْسِكُوا مَا شِئْتُمْ ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الْأَشْرِيَةِ فِي الْأَوْعِيَةِ ، فَاشْرَبُوا فِي أَيِّ وَعَاءٍ شِئْتُمْ ، وَلَا تَشْرَبُوا سَكْرًا» (٢) .

**الحكم الثاني :** أن من قال بإسلام أبي طالب من الشيعة وغيرهم ، كان اعتمادهم على شهادة العباس بن عبد المطلب ؛ حينما أصغى لأبي طالب عند الغرغرة وهو يحرك شفتيه بالشهادتين . ولم يدروا أن اعتمادهم هذا غير مقبول شرعاً لأمرين اثنين :

**الأمر الأول :** أن شهادة العباس كانت قبل إسلامه ، وشهادة الكافر غير مقبولة في دين الإسلام .

**الأمر الثاني :** أن باب التوبة مغلق عند الغرغرة والاحتضار ؛ فلا ينفع أبا طالب ما حرك به شفتيه عندما حضره الموت المحتوم . والصحيح من الأثر قد أثبت لأبي طالب الوفاة على الكفر والشرك . ومن هذا الأثر الصحيح أن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - رفض شهادة عمه العباس ، وقال له : «لَمْ أَسْمَعْ» ؛ وذلك حينما شهد العباس لأبي طالب بالإسلام .

### لفتة من أبي لهب لم تدم

لما توفي أبو طالب ، خلا الجوّ للمشركين ، ووجدوا فُسْحَةً لإيذاء رسول الله بكل ما في استطاعتهم من أنواع الأذى ، وتمادوا في ذلك دون أن يكفهم عن ذلك ناه عن منكر فعلوه ، أو يُنصتوا لصوت ضمير طالما عَصَوْهُ!! فلما رأى أبو لهب ما يقاسيه محمدٌ ابن أخيه من قومه ، حزّ

(١) سورة «التوبة» . الآية 84 .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده .

ذلك في نفسه فدفعت به عاطفة الدّم وقرابة النسب، ونخوة الافتخار بنَصْرَ المظلوم على الظّالم في عُرْف العرب؛ بل أراد أن يتظاهر برغبته في الوقوف إلى جنب رسول الله مثل وقوف أبي طالب قبله، فجاء رسول الله فخطبه بقوله: يا محمد! امض لما تريد، واستمرّ فيما كنت صانعاً إبان حياة عمك أبي طالب؛ لا، واللّات والعزّى، لا يوصل إليك حتى أموت. فلبث رسول الله أياماً قلائل في مأمن؛ لا يعترض له أحد من المشركين في دعوته، وذلك مهابة لأبي لهب، لا غير؛ ولكن وشاية الواشي، وعدم ثبات أبي لهب، كلّ منهما ساهم في رجوع أبي لهب عن رأيه، فرفع حمايته عن محمد، وتركه في حماية ربه وعصمته إياه من الناس. وكانت الوشاية: أن جاء أبو جهل بن هشام وعقبة بن معيط أبا لهب، فقالا له: آخبرك محمد ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال أبو لهب: يا محمد! أين مدخل عبد المطلب؟ قال: «مَعَ قَوْمِهِ» فقال أبو جهل وعقبة: يزعم محمد أن عبد المطلب في النَّار! ثم قالوا: يا محمد! أيدخل عبد المطلب النَّار؟ فقال: «نَعَمْ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى مِثْلِ مَا مَاتَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ دَخَلَ النَّارَ». فقال أبو لهب: والله ما برحت لك عدوّاً أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب في النَّار. وعاد أبو لهب إلى شدة عداوته وإساءته للنبي صلى الله عليه وسلم.

### خروج رسول الله من مكة إلى الطائف

قال عبد الملك بن هشام، وإسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق -: «فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأذى ما لم تكن نالته منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف<sup>(1)</sup> (يصحبه زيد بن حارثة) يلتمس من «ثقيف» النصرة والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى، فخرج إليهم وحده... ولما انتهى إلى الطائف، عمد إلى نقر من «ثقيف» - وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عُمير، ومسعود بن عمرو بن عُمير، وحبيب بن عمرو بن عُمير بن عوف بن عُقْدَة بن غيرة بن عوف ابن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح - فجلس إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاهم إلى الله، وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على

(1) «الطائف»: قال السهيلي - في كتابه «روض الأنف» - ج 4 ص 45 -: «وأن الدهون رجل من الصّدف، من حضرموت نزلها، فقال لأهلها: ألا أبنّي لكم حائطاً يطيف ببلدكم؟ فبنّاه، فسُمّيَت: «الطائف».

ما خالفه من قومه ؛ فقال له أحدهم : هو يَمْرُطُ<sup>(1)</sup> ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ؛ وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ ! وقال الثالث : والله لا أكلّمك أبداً ؛ لئن كنت رسولاً من الله - كما تقول - لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطْراً مِنْ أَنْ أَرَدَّ عَلَيْكَ الْكَلَامَ ، وَلئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أَنْ أَكَلِّمَكَ . فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم - فيما ذكر لي - : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . وكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أَنْ يبلِّغ قومه عنه فيذرهم<sup>(2)</sup> ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعُتْبَةَ بن ربيعة وشَيْبَةَ بن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف مَنْ كان يتبعه ، فعمد إلى ظِلِّ حَبَلَةٍ<sup>(3)</sup> مِنْ عَنَبٍ فجلس فيه . (وكان) ابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف . وقد لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فيما ذكر لي - المرأة التي من بني جُمَح ، فقال لها : «مَاذَا لَقِينَا مِنْ أَحْمَاكَ؟»<sup>(4)</sup> فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- قَالَ - فيما ذكر لي - : «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقَلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَيَّ مَنْ تَكَلُّنِي؟ إِلَيَّ بَعِيدَ يَتَجَهَّمُنِي؟»<sup>(5)</sup> أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ؛ وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ يُنْزَلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَحُلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» . فَلَمَّا رَأَاهُ ابْنَا رَبِيعَةَ - عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ - تَحَرَّكَتْ لَهُ رَحْمُهُمَا فَدَعَا غَلاماً لهما نصرانياً ، يُقَالُ لَهُ : «عَدَّاسُ» ، فَقَالَا لَهُ : خُذْ قِطْفًا مِنَ الْعَنَبِ فَضَعَّهُ فِي هَذَا الطَّبَقِ ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ ، فَقُلْ لَهُ يَأْكُلْ مِنْهُ . فَفَعَلَ عَدَّاسُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُلْ ، فَلَمَّا وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- فِيهِ يَدَهُ ،

(1) «يَمْرُطُ» : يطوي ، ويجمع ، وينزع ، ويزيل .

(2) «فيذرهم» : فيغضبهم عليه ويغريهم به ، ويحرش بينهم .

(3) «حَبَلَةٍ» : فرع وغصن من شجر العنب . أي : الكرْم .

(4) قال موسى بن عقبة : «أغروا به سفهاءهم فرجموا عراقبيه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء» . وقال

التميمي : «إذا أذلقتهم الحجارة ، قعد إلى الأرض ، فيأخذون بعضديه ، فيقيمونه فإذا مشى رجموه وهم

يضحكون» .

(5) يستقبلني بوجهه كره .

قال: «بِاسْمِ اللَّهِ»، ثُمَّ أَكَلَ، فنظر عدّاس في وجهه، ثم قال: والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ بِلَادٍ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ؟ وَمَا دِينُكَ؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل «نَيْنَوَى»<sup>(1)</sup>. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أَمِنْ قُرْبَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُؤْنَسُ بِنِ مَتَّى؟» فقال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن مَتَّى؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ذَاكَ أَخِي؛ كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ»، فأكبَّ عدّاس على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقبل رأسه ويديه وقدميه. قال (ابن إسحاق): يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك. فلمّا جاءهما عدّاس، قالوا له: ويلك يا عدّاس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيديّ ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلاّ نبيّ، قالوا له: ويحك يا عدّاس! لا يصرفنك عن دينك؛ فإنّ دينك خير من دينه<sup>(2)</sup>. قال إسماعيل بن كثير: «وقد ذكر موسى بن عقبة نحواً من هذا السياق؛ إلاّ أنّه لم يذكر الدّعاء؛ وزاد: «وقعد له أهل الطائف صفّين على طريقه، فلمّا مرّ جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلاّ وضخوهما»<sup>(3)</sup> بالحجارة، حتى أدموه، فخلص منهم وهما يسيلان الدّماء، فعمد إلى ظلّ نخلة حائط وهو مكروب، وفي ذلك الحائط عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابنا ربيعة، فكره مكانهما، لعداوتهما الله ورسوله...»<sup>(4)</sup>. وروى الإمام أحمد، عن أبي جبل العدواني، عن أبيه: أنّه أبصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مشرق ثقيف، وهو قائم على قوس - أو عصا - حين أتاهم يبتغي عندهم النّصرة، فسمعه يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾<sup>(5)</sup> حتّى ختمها. قال: فوعيتها في الجاهليّة وأنا مشرك، ثمّ قرأتها في الإسلام. قال: فدعنتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرّجل؟ فقرأتها عليهم، فقال مَنْ معهم من قُرَيْشٍ: نحن أعلم بصاحبنا؛ لو كنّا نعلم ما يقول حقّاً لا تبعناه. وقد ثبت في البخاريّ ومسلم من طريق عبد الله بن وهب، عن عروة بن الزّبير: «أنّ عائشة حدّثته أنّها قالت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من

(1) «نينوى» - بفتح النون وسكون الياء، وفتح النون، والواو المقصورة .

(2) السيرة النبوية . بشرح روض الأنف . ج 4 ص 33 - 36.

(3) «وضخوهما» : سايروهما .

(4) البداية والنهاية ج3، ص 135-136 .

(5) سورة «الطارق» . الآية 1 .

أُحْدُ؟ قال: «مَا لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ كَانَ أَشَدُّ مِنْهُ «يَوْمَ الْعَقَبَةِ»، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِ«قَرْنِ الثَّعَالِبِ»<sup>(1)</sup>، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ! - فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمَعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ لَكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. ثُمَّ نَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، لِتَأْمُرَنِي، مَا شِئْتَ؛ إِنْ شِئْتَ نَطْبِقُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

### الجن يستمع لقراءة رسول الله ودخوله مكة مستجيراً

ثم قفل رسول الله من الطائف راجعاً إلى مكة، وفي مرجعه مرقية «نخلة» فبات بها ليلته، فقام في جوف الليل يصلي ويقرأ القرآن في صلاته جهراً، فصرف الله إليه نَفَرًا من الجن من أهل «نصيبين»، فاستمعوا قراءته، فأمنوا. وعادوا إلى قومهم مؤمنين مصدقين مهتدين إلى طريق الرشاد، فأنزل الله فيهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ<sup>(2)</sup>». وأنزل فيهم - أيضاً -: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الْرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا<sup>(3)</sup>». الآيات... ثم تابع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سيره إلى مكة. ولما وصل مشارفها، استجار أهلها فرفضوه؛ إِلَّا مُطْعَمَ بْنَ عَدِيٍّ فقبل أن يجيره رغم معارضة قومه، فدخل رسول الله مكة في جواره. قال إسماعيل بن كثير: «... ثم دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مكة مرجعه من الطائف في جوار مُطْعَمَ بْنَ عَدِيٍّ، وازداد قومه عليه حقاً وغيظاً وجراً وتكذيباً وعناداً، والله

(1) «قرن الثعالب»: هي ميقات أهل نجد لتقاء مكة على يوم وليلة.

(2) سورة «الأحقاف». الآيات 29 - 31.

(3) سورة «الجن». الآية 1 - 2.

المستعان وعليه التكلان . وقد ذكر الأمويّ في مغازيه : أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بعث أريقط إلى الأخنس بن شريق ، فطلب منه أن يجيره بمكة ، فقال : إنّ حليف قريش لا يجير على صميمها . ثمّ بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره فقال : إنّ عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب بن لؤي ، فبعثه إلى مطعم بن عدي ليجيره فقال : نعم ، قل له : فليأت . فذهب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فبات عنده تلك الليلة . فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستّة - أو سبعة - متقلّدي السيوف جميعاً فدخلوا المسجد وقال (مُطعم) لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : طُفّ ، واحتبوا بحبائل سيوفهم في المطاف ، فأقبل أبو سفيان إلى المطعم فقال : أمّجير أو تابع ؟ قال : لا ، بل مجير ، قال : إذن لا تخفر . فجلس معه حتى قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- طوافه . فلما انصرف انصرفوا معه ، وذهب أبو سفيان إلى مجلسه . فمكث (رسول الله) أياماً ، ثمّ أذن له في الهجرة . فلما هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلى المدينة ، توقّى مطعم بن عديّ بعده بيسير ، فقال حسان بن ثابت : والله لأرثيته ، فقال فيما قال :

فَلَوْ كَانَ مَجْدٌ مَخْلَدُ الْيَوْمِ وَاحِداً	مَنْ النَّاسِ نَجَّى مَجْدُهُ الْيَوْمَ مُطْعَمًا
أَجَرْتَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا	عَبَادَكَ مَا لَبَّى مُحَلٌّ وَأَحْرَمًا
فَلَوْ سُنْتُ عَنْهُ مَعْدٌ بِأَسْرَهَا	وَقَحْطَانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا
لَقَالُوا هُوَ الْمُؤَفِّي بِخُفْرَةِ <sup>(1)</sup> جَارِهِ	وَذَمَّتْهُ يَوْمًا إِذَا مَا تَجَشَّمَا <sup>(2)</sup>
وَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فَوْقَهُمْ	عَلَى مِثْلِهِ فِيهِمْ أَعَزَّ وَأَكْرَمًا
إِبَاءً إِذَا يَأْبَى وَالْكِينَ شَيْمَةً	وَأَنُومَ عَنْ جَارٍ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا

قلتُ : ولهذا قال النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- يوم أسرى بدرٍ : «لَوْ كَانَ مُطْعِمٌ بِنِ عَدِيّ حَيًّا ثُمَّ سَأَلَنِي فِي هَؤُلَاءِ النُّبَّاءِ لَوَهَبْتُهُمْ لَهُ»<sup>(3)</sup> .

(1) «خفرة» : بوفاء العهد .

(2) «تجشما» : تكلف المشقة .

(3) البداية والنهاية . ج 3 ص 137 ، 138 .

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن التجاء - عليه الصلاة والسلام -! بدعائه إلى الله ، هو ذريعة أبدية لدفع كل مكروه لمن وثق بالله كاشف الكرب ، ومزيل الهموم . قال عز من قائل : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءَلَّهُمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾<sup>(1)</sup> . وقال : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾<sup>(2)</sup> . وقال من لا ينطق عن الهوى - صلى الله عليه وسلم -: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»<sup>(3)</sup> . وقال : «الدُّعَاءُ سَلَاحُ الْمُؤْمِنِ ، وَعِمَادُ الدِّينِ ، وَنُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» .

**العبرة الثانية:** أن صبر رسول الله على كل ما أصابه وآلمه في ذهابه إلى الطائف . وعودته منه إلى مَسْقَطِ رأسه ، لم يجعله ضجراً ولا متألماً مما أَرَادَهُ الله وقدره ، ولم يحل بينه وبين ما أمره الله بتبليغه ؛ ذلك التبليغ الذي بفضله وفق الله عداساً النصراني أن يدخل في إطار الإسلام بقلبه وقالبه .

**العبرة الثالثة:** أن ألفاظ دعائه - عليه الصلاة والسلام -! كلها تضرع لله والتجاء إليه وحده لا شريك له في كل ما يبتغيه ويرتجيه ممن لا مبتغى ولا مرتجى سواه ؛ وليس في هذا الدعاء المبارك المستجاب آية لفظة فيها ما هو مكروه لمن يستحقه جزاء إساءته لرسول الله وإيذايته إياه . بل ما كان ممن هو «على خلق عظيم» - رغم ما ألم به من مكاره قومه - إلا أن قال : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»<sup>(4)</sup> .

وقال - عندما قال له ملك الجبال : قد بعثني إليك ربك ، لتأمرني ما شئت ؛ إن شئت نطبق عليهم الأخشبين - : «أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» .

**العبرة الرابعة:** أن سماع الجن لتلاوة القرآن الكريم وإيمانهم بمن أنزل عليه ، جعل رسول الله يدعو لمدينتهم بالخير العميم فقال : «رُفِعَتْ لِي «نَصِيبِينَ»<sup>(5)</sup> حَتَّى رَأَيْتُهَا قَدَعَوْتُ اللَّهَ

(1) سورة «النمل» . الآية 62 .

(2) سورة «غافر» . الآية 60 .

(3) رواه الحاكم والإمام أحمد أو غيرهما ، عن النعمان بن بشير .

(4) رواه الحاكم وأبو يعلى ، عن علي بن أبي طالب .

(5) هي : مدينة بالشام .



أَنْ يَعَذَّبَ نَهْرُهَا، وَيَنْصُرَ شَجَرُهَا، وَيَطِيبَ ثَمَرُهَا»<sup>(1)</sup>. وَجِنِّ نَصِيصِينَ هُم أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ جَنْسِ الْجِنِّ بِسْمَاعِ الْقُرْآنِ.

## استخراجُ الأحكام

**الحكمُ الأولُ:** أن قبول رسول الله لقطف العنب من طرف عبّية وشيّبة وأكله منه وهما مشركان، فيه دلالة واضحة على جواز قبول الهدية من المشركين الكافرين. ولعل تلك الهدية كانت هي الأولى من طرف المشركين لرسول الله؟

## معجزة<sup>(2)</sup> الإسراء والمعراج

قال الله عز وجل: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>(3)</sup>. وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿٢﴾ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٥﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿٦﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿٧﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿٨﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿٩﴾﴾<sup>(4)</sup>. فهذه الآيات المحكمات قد دلّت دلالة اليقين على صحّة معجزة الإسراء والمعراج؛ وذلك أن الله أسرى بعبدّه محمد - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس في ليلة واحدة ذهاباً وإياباً. وقد اختلف السلف والخلف في هذه المعجزة؛ هل كانت رؤيا منامية بالروح فقط؟ أو كانت رحلة يقظية بالروح والجسد معاً؟ ونحن نميل كل الميل إلى الاستفهام الثاني، وسندلي بشهادتنا الصادقة وأدلتنا القاطعة وبراهيننا الساطعة على ميلنا هذا الموفق؛ إن شاء الله؛ ولكن بعد ما ننقل نصوصاً صحيحة الرواية والسند، قويّة الحجّة، طويلة النفس.

قال أبو الحسن عليّ بن الأثير: «اختلف الناس في وقت المعراج ف قيل: كان قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل بسنة واحدة واختلفوا في الموضوع الذي أسري برسول الله - صلى الله عليه

(1) السّهيلي، عبد الرحيم. روض الأثف. ج 4. ص 57.

(2) «المعجزة»: أمرٌ خارق للعادة، داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوة النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنّه رسول الله.

(3) سورة «الإسراء». الآية 1.

(4) سورة «التجم». الآية 10 - 18.

وسلم !- منه فقيل : كان نائماً بالمسجد في «الحجر» ، فأُسرِي به منه . وقيل : كان نائماً في بيت أم هانئ بنت أبي طالب ؛ وقائل هذا يقول : المسجد الحرام كله مسجد . وقد روى حديث المعراج جماعة من الصحابة بأسانيد صحيحة . قالوا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- «أتاني جبرائيل وميكائيل فقالا : بأيهم أمرنا؟ فقالا : أمرنا بسيدهم . وأخرجني جبرائيل من المسجد وإذا أنا بدابة ؛ وهي البراق ، وهي فوق ، الحمار ودون البغل ، يقع خطوه عند منتهى طرفه<sup>(1)</sup> ، فقال (جبرائيل) : اركب ، فلماً وضعت يدي عليه تشامس<sup>(2)</sup> واستصعب . فقال جبرائيل : يا براق ! ما ركبك نبي أكرم على الله من محمد ، فانصب (البراق) عرقاً وانخفض لي حتى ركبت ، وسار بي جبرائيل نحو المسجد الأقصى ، فأتيت بإنائين : أحدهما لبن ، والآخر خمر ، فقيل لي : اختر أحدهما ، فأخذت اللبن فشربته ، فقيل : أصبت الفطرة ؛ أما إنك لو شربت الخمر لغوت أمّتك بعدك . ثم سرنا فقال لي (جبرائيل) : انزل فصل ، فنزلت فصليت ، فقال لي : هذه «طيبة»<sup>(3)</sup> ، وإليها المهاجر . ثم سرنا فقال لي : انزل فصل ، فنزلت فصليت ، فقال : هذا «طور سيناء» حيث كلم الله موسى . ثم سرنا فقال : انزل فصل ، فنزلت فصليت ، فقال : هذا «بيت لحم» حيث ولد عيسى . ثم سرنا حتى أتينا «بيت المقدس» . فلماً انتهينا إلى باب المسجد أنزلني جبرائيل وربط البراق بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء . فلماً دخلت المسجد إذا أنا بالأنبياء حوالى . وقيل : «بأرواح الأنبياء الذين بعثهم الله قبلي ، فسلموا عليّ ، فقلت : يا جبرائيل ! من هؤلاء؟ قال : إخوانك من الأنبياء ؛ زعمت قريش أن لله شريكاً ، وزعمت النصارى أن لله ولداً ، سل هؤلاء النبيين هل كان لله - عز وجل !- شريك أو ولد؟ فذلك قوله - تعالى !- : ﴿وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾<sup>(4)</sup> . فأقروا بالوحدانية لله - عز وجل !- . ثم جمعهم جبرائيل وقدمني فصليت بهم ركعتين . ثم انطلق بي جبرائيل إلى الصخرة فصعد بي عليها ، فإذا معراج إلى السماء لا ينظر الناظرون إلى شيء أحسن منه ، ومنه تخرج الملائكة ، أصله في صخرة بيت المقدس ، ورأسه ملتصق بالسماء ، فاحتلني جبرائيل ووضعني على جناحه وصعد بي إلى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا؟ قال : جبرائيل ، قيل : ومن معك؟ قال :

(1) «طرفه» : عينه لا يجمع ، لأنه مصدر بالأصالة .

(2) «تشامس» : منع ظهره من الركوب .

(3) «طيبة» : المدينة المنورة .

(4) سورة «الزخرف» . الآية 45 .

محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! ففُتِحَ، فدخلنا فإذا أنا  
 برجل تامّ الخلقه عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، فإذا  
 نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى. فقلت: مَنْ  
 هذا؟ وما هذان البابان؟ فقال (جبرائيل): هذا أبوك آدم، والباب الذي عن يمينه باب الجنة، فإذا  
 نظر إلى مَنْ يدخلها من ذريته ضحك، والباب الذي عن يساره باب جهنم؛ إذا نظر إلى مَنْ  
 يدخلها من ذريته بكى وحزن. ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال:  
 جبرائيل. قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قيل: حيّاه الله!  
 مرحباً به ونعم المجيء جاء! ففُتِحَ لنا، فدخلنا فإذا بشابين، فقلت: يا جبرائيل! مَنْ هذان؟ فقال:  
 هذان عيسى بن مريم، ويحيى بن زكرياء. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: مَنْ  
 هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قيل  
 مرحباً به! ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل قد فضل الناس بالحسن، قلت: مَنْ هذا يا  
 جبرائيل؟ قال: هذا أخوك يوسف. ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟  
 قال: جبرائيل. قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم قيل: مرحباً به  
 ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل، فقلت: مَنْ هذا؟ قال: إدريس رفعه الله مكاناً علياً.  
 ثم صعد بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: وَمَنْ معك؟  
 قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا  
 رجل جالس وحوله قوم يقصّ عليهم، قلت: مَنْ هذا؟ قال: هذا هارون والذين حوله بنو  
 إسرائيل. ثم صعد بي إلى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبرائيل. قيل:  
 وَمَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء!  
 فدخلنا، فإذا أنا برجل جالس فجاوزناه، فبكى الرجل، فقلت: يا جبرائيل! مَنْ هذا؟ قال: هذا  
 موسى. قلت: فما باله يبكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أنني أكرم على الله من آدم، وهذا الرجل  
 من بني آدم قد خلّفني وراءه. ثم صعد بي إلى السماء السابقة فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال:  
 جبرائيل. قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ونعم  
 المجيء جاء! فدخلنا، فإذا رجل أشمط<sup>(1)</sup> جالس على كرسي على باب الجنة وحوله قوم بيض

(1) «أشمط»: شعر رأسه أبيض يخالطه سواد.

الوجوه أمثال القراطيس<sup>(1)</sup>، وقوم في ألوانهم شيء، فقام الذين في ألوانهم شيء فاغتسلوا في نهر وخرجوا وقد صارت وجوههم مثل وجوه أصحابهم. فقلت: من هذا؟ قال: أبوك إبراهيم، وهؤلاء البيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا، فتاب الله عليهم، وإذا إبراهيم مستند إلى بيت، فقال: هذا «البيت المعمور» يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه. قال (رسول الله): وأخذني جبرائيل فاتهمنا إلى «سدرة المنتهى» وإذا نبَّهًا مثل قلال «هَجَرَ»<sup>(2)</sup>، يخرج من أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران؛ فأما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفُرات. قال (رسول الله): وغشيها من نور الله ما غشيها، وغشيها الملائكة كأنهم جراد من ذهب من خشية الله، وتحولت حتى ما يستطيع أحد أن ينعتها، وقام جبرائيل في وسطها، فقال جبرائيل: تقدم يا محمد- فتقدمت وجبرائيل معي إلى حجاب، فأخذني ملكٌ وتخلَّف عني جبرائيل. فقلت: إلى أين؟ فقال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾<sup>(3)</sup>. وهذا منتهى الخلائق- فلم أزل كذلك حتى وصلتُ إلى «العرش»، فاتَّضحَ كلُّ شيء عند العرش، وكلُّ لساني من هيبة الرحمن. ثم أطلق الله لساني فقلت: التَّحِيَّاتُ المباركات والصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لله، وفرض الله عليّ وعلى أمتي في كل يوم وليلة خمسين صلاة. ورجعت إلى جبرائيل فأخذ بيدي وأدخلني الجنة فرأيت القصور من الدُّرِّ والياقوت والزُّبرجد، ورأيت نهراً يخرج من أصله ماء أشدَّ بياضاً من اللَّبَنِ وأحلى من العسل؛ يخرج على رضراض<sup>(4)</sup> من الدُّرِّ والياقوت والمسك، فقال (جبرائيل): هذا هو الكوثر الذي أعطاك ربك. ثم عرض عليّ النَّارَ، فنظرت إلى أغلالها وسلاسلها وحيَّاتها وعقاربها وما فيها من العذاب. ثم أخرجني فانحدرنا حتى أتينا موسى، فقال: ماذا فُرضَ عليك وعلى أمتك؟ فقلت: خمسين صلاة. قال: فإنِّي قد بلوت بني إسرائيل قبلك وعالجتهم أشدَّ المعالجة على أقلِّ من هذا فلم يفعلوا، فارجعْ إلى ربك فاسأله التَّخْفِيفَ. فرجعت إلى ربيّ وسألته، فخفَّفَ عني عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع واسأله التَّخْفِيفَ. فرجعت فخفَّفَ عني عشراً، فلم أزل بين ربيّ وموسى حتى جعلها خمساً،

(1) «القراطيس»: الصحائف التي لا يخالط بياضها شية.

(2) «هجر»: ناحية البَحْرَيْنِ كُلِّهَا هَجَرَ. وقيل: هي قرية من قرى المدينة المنورة.

(3) سورة «الصافات». الآية 164.

(4) «رضراض»: ما دق من الحصى يجري عليه الماء.

فقال: ارجع فاسأله التّخفيف، فقلت: إنّي قد استحييت من ربّي وما أنا براجع فتوديت: إنّي قد عرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة والخمس بخمسين، وقد أمضيت فريضتي وخففت على عبادي. ثمّ انحدرت أنا وجبرائيل إلى مضجعي». وكان كلّ ذلك في ليلة واحدة. فلمّا رجع إلى مكّة علم أنّ الناس لا يصدّقونه، فقعّد في المسجد مغموماً، فمرّ به أبو جهل، فقال له: كالستهزئ! هل استفتدت اللّيلة شيئاً؟ قال: نعم، أُسرّي بي اللّيلة إلى «بيت المقدس». قال (أبو جهل): ثمّ أصبحت بين ظهرائنا؟ فقال: نعم، فقال: أنخبر قومك بذلك؟ فقال: نعم. فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي! هلمّوا! فأقبلوا فحدثهم النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فمن بين مصدّق ومكذّب ومصفّق وواضع يده على رأسه. وارتدّ الناس ممّن كان آمن به وصدّقه. وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: إنّ صاحبك يزعم كذا وكذا! فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق؛ إنّي لأصدّقه بما هو أبعد من ذلك: أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فسُمّي: أبو بكر «الصدّيق» من يومئذ. قالوا: فأنعت لنا المسجد الأقصى. قال: «فذهبت أنعت حتّى التّبس عليّ». قال: «فجئ بالمسجد، وإنّي أنظر إليه، فجعلت أنعت». قالوا: فأخبرنا عن غيرنا. قال: «قد مررت على عير بني فلان بـ «الروحاء»<sup>(1)</sup> وقد أضلّوا بعيراً لهم وهم في طلبه، فأخذت قدحاً فيه ماء فشربته، فسألوه عن ذلك، ومررت بعير بني فلان وفلان فرأيت ركباً وقعوداً بـ «ذي مرّ» ففرّ بكرهما مني، فسقط فلان فانكسرت يده، فسألوهما». قال: «ومررت بعيركم بـ «التّنعيم»<sup>(2)</sup> يقدمها جمل أورق»<sup>(3)</sup> عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم من طلوع الشّمس». فخرجوا إلى «الثّنية» فجلسوا ينظرون طلوع الشمس ليكذبوه، إذ قال قائل: هذه الشمس قد طلعت. فقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق كما قال. فلم يفلحوا وقالوا: إنّ هذا سحر مبین»<sup>(4)</sup>.

وقال القاضي عبد الجبار الهمداني: «باب آخر: وهو أنّه - صلى الله عليه وسلم! - أُسرّي به في ليلة واحدة من «المسجد الحرام» إلى «المسجد الأقصى». ثمّ عاد من ليلته إلى «مكّة» ومدة السفر

(1) «الروحاء»: قرية على نحو أربعين ميلاً من المدينة المنورة، نزل بها تبع حين رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة فأقام بها وأراح فسمّاها «الروحاء».

(2) «التّنعيم»: موضع بمكّة خارج الحرم على طريق المدينة.

(3) «أورق»: ما في لونه بياض إلى سواد.

(4) الكامل في التاريخ ج 2 ص 51 - 57.

في ذلك مقدار شهرين، أي: ذهاباً وإياباً، وهذا لا يفعله الله إلاّ للأنبياء في زمان الأنبياء. ولما عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - تحدّث بذلك في أهله، فقالت له أمّ هانئ، بنت أبي طالب: لا تحدّث بهذا، فوالله لا يصدّقك الناس، وليكفّرَن بك مَنْ آمَن بك، وليكذبَنك مَنْ صدّقك، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنّ ربّي أمرني أن أخبر النّاس بذلك، وأنّ أبا بكر يصدّقني ويشهد لي». فخرج وأخبر قريباً بذلك، فسرّهم هذا، وقالوا: الآن يظهر كذبه وينقطع الناس عنه، قوموا بنا إلى صاحبه ابن أبي قُحافة<sup>(1)</sup>، لنخبره بما قال صاحبه - وكان أبو بكر ثقیل الوطأة على قريش وأعداء رسول الله؛ فإنّه كان يدعو إلى ثبوته، ويخطب بآياته، وكان وجيهاً في النّاس، عالماً بقريش باين<sup>(2)</sup> الفضل فيهم، فكانوا يقصدونه بالمكاره لهذه الخصال التي كانت تضربهم، وقد استدعى خيارهم ووجههم إلى الإسلام، وأنفق ماله في نوائب الإسلام ونصرته، وكانوا يطلبون شيئاً يصدّه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ويمنّعه من اتّباعه - فأتوه وقالوا له: يا أبا بكر! ما زال صاحبك حتى أتى بكذبة خرج بها من أقطارها. قال أبو بكر: حاشاه، وما هي؟ قالوا: زعم أنّه أسري به في ليلة إلى «بيت المقدس». فقال أبو بكر: إن كان قال ذلك فقد صدق. قالوا: يا أبا بكر! أتصدّقه في هذا والعر تطرد في ذهابها شهراً وفي رجوعها شهراً، أبلغه في ليلة واحدة؟! قال أبو بكر: إنّه ليُخبرني أنّ الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة واحدة فأصدّقه، ويُعدّ السّماء عن الأرض أكثر من بُعد بيت المقدس من مكّة؛ قوموا بنا إليه نسأله عن ذلك، فأتوه، فقال له أبو بكر: ما شيء بلغني عنك يا رسول الله! إنك أتيت «بيت المقدس» في ليلتك؟ فقال: «نعم يا أبا بكر: صليتُ بكم في هذا الوادي، فأتاني آت، فأيقظني وأخرجني، وجاء بدابة فقال: اركب، فأرْقَصْت<sup>(3)</sup>، فقال لها جبريل: اسكني، فما حملتُ خيراً منه، فسارت بي، وإذا حوافرها تقع مدى بصرها، وكنت إذا أتيتُ صعوداً قصرت قوائمه، وإذا أتيتُ حدوداً طالت قوائمه، فأتيتُ «بيت المقدس» - وذكر صلاته ودخوله إليه ورجوعه - فقال له أبو بكر: يا رسول الله! هل تستطيع أن تصف لنا «بيت المقدس»؟ فقال: «نعم». فوصف مدخله، والمسجد، وسقوفه، وما فيه شيئاً شيئاً - وكان إذ ذاك في أيدي الرّوم، وكان مُلكُ الشّام لهم، وبعضه في أيدي اليهود - فقال أبو بكر: أسمعون؟ - وكان فعل ذلك أبو بكر ليعرف النّاس صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم! فيما ادّعى - فقالت قريش: فإنّ

(1) «ابن أبي قحافة»: هو أبو بكر الصّدّيق.

(2) «باين الفضل»: ظاهراً مشهور به.

(3) «أرْقَصْت»: نفرت. والأصل في الرّفص: رَغِي الإبل وحدها، والراعي ينظر إليها من بعيد.

لنا غيراً بالشام أعرفتَ خبرها؟ فقال: «نعم، مررتُ بهم في ذهابي، وهم في موضع كذا، وقد نَدَّ لهم بعير من حسنِ دابَّتي فدلَّلتُهم عليه، ورجعتُ عليهم وهم نيام وقدح فيه ماء وقد خمروه، فنزلت وكشفتُه وشربتُ وخمرتُه». ثم قال (رسول الله): «وآية أخرى أنَّهم يردون عليكم يوم كذا وقت طلوع الشمس، وتقدم غيرهم من ثنية كذا، فيقدمها جمل أورك عليه غرارتان، إحداهما برقاء<sup>(1)</sup>، والأخرى سوداء». فأرصدت قريش لذلك اليوم، فقال قائلهم: هذه الشمس قد طلعت، وقال آخر: وهذه العير قد أقبلت وأمامها الجمل الأورك وعليه الغرارتان كما وصف. وسألوهم عن البعير الذي ندَّ، وعن القدح الذي كان فيه الماء، فأخبروهم بذلك كما وصف، وأنَّهم وجدوا القدح فارغاً بعد أن كان فيه ماء. فتأمَّل ما في هذه من الآيات والمعجزات والعلامات الواضحات البيِّنات، التي لو لم تكن إلَّا هذه لكفت وأغنت في الدلالة على نبوِّته. فمنها مصيره ورجوعه في ليلة واحدة، ومنها إخباره بالوقت الذي ترد فيه عير قريش على أيِّ سبيل ترد، فكم في هذا من الغيوب.

فإن قيل: ومَن سلَّم لكم أنَّ هذا قد كان على ما وصفتم لنا، وكيف علمتم هذا، وما طريق العلم به؟ قيل له: قبل كلِّ شيء قد علمنا أنه - صلَّى الله عليه وسلَّم! - قد احتجَّ بالإسراء، وجعله قرآناً يُتلى<sup>(2)</sup>، وقد سمع هذا جميع أعدائه: من قريش، واليهود، والنصارى، وهم معه، وجيرانه، وأشدَّ النَّاس عليه، وأحرصهم على عثرة تكون له أو عيب يكون فيه، وهنالك أصحابه ومَن اعتقد صدقه ونبوِّته، ولم يتَّبعه إلَّا لأنَّه نبيٌّ صادق وعاقل، لا يحتجَّ على عدوِّه ووليِّه بما لا يقوم برهانه، ثم لا يرضى أو يأتي في ذلك بقرآن يُتلى ويضيفه إلى ربِّه، ويستطيل بذلك على عدوِّه ووليِّه، وليس معه في ذلك إلَّا الدَّعوى الخالية من كلِّ الحجج؟ هذا لا يفعله عاقل، وعقل رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم! - عند عدوِّه - فضلاً عن وليِّه - فوق العقول. وأخرى أنَّ مَن فعل هذا على ما يدَّعيه الخصم لا يتَّبعه أحد، ولا يصدِّقه أحد؛ بل يرجع عنه مَن قد اتَّبعه إذ ليس معه إلَّا الدَّعوى على ما يدَّعيه الخصم، وكلَّ أحد يمكنه أن يدَّعي أنه قد أُسرِّي به في ليلة واحدة من البصرة إلى «بيت المقدس» أو من العراق إلى بلاد الهند وما تبيَّن بما هذه سبيله، فتعلم أنَّ الحجَّة بذلك قد قامت واتَّضحت. وأخرى ما جرى بين قريش وبين رسول الله - صلَّى

(1) «برقاء»: اجتمع فيها سواد وبياض.

(2) فيه إشارة إلى قوله - تعالى! - ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾.

الله عليه وسلم!- وبين قريش وأبي بكر الصديق، وما كان في ذلك من طول المراجعة، ومن عني بذلك يعلم أن الأمر كما حكينا ووصفنا علماً يقيناً لا يرتاب به؛ كما يعلم فرار المهاجرين إلى أرض «الحبشة»، وإخراج قريش عمرو بن العاص وعمار بن الوليد بن المغيرة في طلبهم، وما كان لهم مع النجاشي من المخاطبات والمراجعات، إلى أن صارت العقبة للمسلمين. وكما يعلم خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- إلى المواسم وعرضه نفسه على القبائل، وما كان له من المحاربات والمراجعات والمخاطبات. وكما يعلم خروجه إلى «الطائف» وعرضه نفسه، وما كان له معهم من المراجعات والمخاطبات. وكما كان له مع قريش بمكة في حفل بعد حفل، ومرة بعد مرة. وفي مشيهم إلى أبي طالب، ليكفّه عن مخالفتهم وتجهيلهم وذكر آلهتهم، وما تعاهدوا عليه: من عداوته وعداوات أصحابه، ومن التجريد في قصدهم بالمكارة، وما كتبه في ذلك. وفي ترك مبايعتهم ومناكحتهم ومعاملتهم، وما أشبه ذلك من الخطوب التي كانت منهم. فمن رسخ فيما هذا سبيله، عرف قصة الإسراء وما كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم!- في ذلك مما تقدم ذكره، ومن لم يكن هذه سبيله لم يعلم، ولكل أحد سبيل إلى أن يعلم ذلك. فتأمل رحمة الله ما في ذلك. وقول أم هانئ، واحتجاج قريش في أن المسير في ذلك يكون في شهرين فكيف تم في ليلة واحدة؟ ومطالبتهم بالحجة في ذلك، ثم مسألتهم عن غيرهم التي بالشام، ثم مصيرهم إلى المكان في الوقت الذي ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: أن العير ترد فيه، وتفقدهم صورتها وما تقدمها، ثم مسألتهم أهل العير عن القدح، لتعرف عقول قريش وشدة فطنتها وعنايتها بأمر النبي والتفقد لأحواله. وانظر كيف قد سألوا عن ذلك مما يمكن العاقل أن يسأل عنه ويتكلم فيه. وانظر إلى فطنة أم هانئ بنت أبي طالب وخوفها مما يخاف مثله، وأن هذا الأمر إن لم تقم على الدعوى به حجة لم يصدق أحد؛ بل يكذب من صدق به، ويكفره من آمن به، لتعلم كذب الحداد، وأبي عيسى الوراق، والحصري، وابن الرواندي، وهؤلاء علماء «الإمامية» ورؤسائهم، وعليهم يعولون، وإلى كتبهم يرجعون. ولكل هؤلاء كتب يطعنون فيها على الأنبياء، ويدعون على قريش والعرب الجهل والبلادة والغباء وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- خدعهم وسخر منهم. وهذه الكتب منقوضة؛ وقد نقضها غير واحد من المعتزلة. والمطاعن على الأنبياء كلهم؛ إنما هي من جهة هؤلاء الشيع، والإمامية تواليهم وترجع إلى أقوالهم. فاعرف هذا؛ فإنه من العجائب، وبك إلى معرفته أشد



الحاجة . فمن كتب الحدّاد في هذا الشأن : «الجاروف» وكتابه : «الأركان» . وكتاب الحصري : «في تسوية أصحاب الكلام بالعوام» وكتاب : «الزّمرّة» ، وكتاب : «غريب المشرقي» ، وكتاب أبي عيسى الورّاق : «حنين البهائم» ، وكتاب «التّاج» في القدم لابن الراوندي . و«الفريد» ، و«التّصفّح» ، وكتاب «نعت الحكمة» في الطعن في حكمة الله ، وكتاب «الدّامغ» ؛ يطعن فيه في القرآن ، وغير ذلك من كتبهم .

وفضّحتهم في هذه الكتب واضحة ، وليس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أعداء مثلهم . والشّيع تتولاّهم ، لأنّهم عملوا كُتباً لهم في الطعن في المهاجرين والأنصار . فمن هذا العجب ، أن قوماً يدّعون أنّهم من المسلمين يوالون هؤلاء ، ويرجعون إلى كتبهم ! فتبين رحمة الله الحال في ذلك ، لتعلم أنّه لا يطعن على المهاجرين والأنصار إلّا من يطعن على الأنبياء - صلوات الله عليهم !- وإنّما تسترّ هؤلاء الملاحدة والزنادقة بالتّشيع والإمامة ليستوي لهم الطّعن على الأنبياء ، وتشكيك المسلمين في الدّين»<sup>(1)</sup> . قال محمّد بن عبد الكريم الجزائري - عفا الله عنه وغفر له !- : لقد بدا لي أن أوجز كلمتي هنا في خمس نقاط أساسيّة المرجع والاستدلال :

**النقطة الأولى :** في معنى «الإسراء» و«المعراج» . لقد أخطأ اللغويّون ؛ حيث ظنّوا أنّ فعليّ «سرى» و«أسرى» واحد في المعنى وفي التعدية بالباء ليس غير . والدليل على خطئهم من وجهين اثنين :

**الوجه الأوّل :** أنّ جميع القراء قد اتفقوا في التلاوة على صيغة «أسرى» في قوله - تعالى !- : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾<sup>(2)</sup> ؛ كما اتفقوا في التلاوة - أيضاً - على صيغة «يسري» في قوله - تعالى !- : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾<sup>(3)</sup> . فلو كان معنى الصيّغتين واحداً لجاءت التلاوة بالوجهين في كلتا الآيتين ؛ أي : «أسرى» و«سرى» ، و«يسري» و«يسري» .

**الوجه الثاني :** أنّ جميع المؤرخين وأصحاب السّير النّبويّة قالوا بأفواههم وكتبوا بأقلامهم : «ليلة الإسراء» ، ولم يُقلّ عن أيّ منهم أنّه قال أو كتب : «ليلة السرى» . والفرق بين صيغة «أسرى» وبين صيغة «سرى» أنّ الصيغة الثانية لازمة ؛ أي : بمعنى ذهب ليلاً ، وأنّ الصيغة الأولى متعدية بنفسها في المعنى إلى مفعول . وتقدير معنى الآية الكريمة : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى﴾

(1) تثبت دلائل النّبوة . بتحقيق عبد الكريم عثمان . بيروت . دار العربيّة للطبع والنشر والتوزيع . ص 46 - 52 .

(2) سورة «الإسراء» . الآية 1 .

(3) سورة «الفجر» ، الآية 4 .

البراقَ ﴿بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾. أي: «جعل الله البراق يسري بعبد» محمد «لَيْلًا». وقد حُذِفَ المفعول به من الآية الكريمة، لقوة الدلالة على المعنى المراد، والاستغناء عن ذكره؛ إذ المقصود من الآية الكريمة ذكر اسم محمد، لا ذكر اسم البراق الذي أمر بالسَّير بالنبِيِّ - صلى الله عليه وسلم! - من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس. والباء في لفظة «بِعَبْدِهِ» للمصاحبة، والتنوين في لفظة «لَيْلًا» للتبويض والتأكيد؛ أي: قد تمَّ عمل الإسراء في جزء مجهول من الليل؛ لا في الليل كله. والمسجد الأقصى هو بيت المقدس، ووُصِفَ بـ «الأقصى»، لأنه لم يكن - حينئذ - وراءه مسجد آخر. وقد أشيع الحديث عن هذا الموضوع ابن قيم الجوزية في كتابه النِّفيس: «بدائع الفوائد»، وعبد الرحمن السُّهيلي في كتابه المفيد: «روض الأنف»

أما لفظة «المعراج» فقد حدّد اللُّغَوِيُّونَ معناها بـ «السُّلَّم». وفي نظرنا أنّ هذا المعنى غير مطابق لحقيقة «المعراج» الذي صعد فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى السموات السَّبع. والسبب في عدم المطابقة أنّ وضع الأسماء بإزاء مسمياتها الحسّية والمعنوية متوقّف على شرطين اثنين:

أولهما: تواضع النَّاس على هذا الوضع.

ثانيهما: معرفة وظائف تلك المسمّيات قبل وضع أسمائها. وهذان الشرطان مفقودان في معراج المعجزة؛ فلم يتواضع النَّاس على وضعهم اسماً بإزائه، لأنهم لم يروه، ولم يعرفوا وظيفته سوى مرّة واحدة عن طريق السَّماع.

ومهما كان من أمر فإنَّ الأسلم والأصوب أن نقف عند حدّ تفسير الرسول - صلى الله عليه وسلم! - لهذه اللفظة الرّبّانية؛ قال محمد بن إسحاق: «وحدّثني مَنْ لا أتهم، عن أبي سعيد الخُدْريّ - رضي الله عنه! - أنّه قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم! - يقول: «لَمَّا فَرَعْتُ مِمَّا كَانَ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ أَنِّي بِالْمَعْرَاجِ - وَلَمْ أَرْ شَيْئاً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ؛ وَهُوَ الَّذِي يَمُدُّ مِيتَكُمْ عَيْنَهُ إِلَيْهِ إِذَا حُضِرَ - فَأَصْعَدَنِي صَاحِبِي فِيهِ؛ حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ؛ يُقَالُ لَهُ: «بَابُ الْحَقِّقَةِ». فَقَوْلُهُ: «إِذَا حُضِرَ»، أي: إذا حضره الموت. وقوله: «صَاحِبِي»، أي: جبريل عليه السَّلام.

النقطة الثانية: تاريخ الإسراء والمعراج.

لم يتفق رواة السّيرة النبوية وكتاب التاريخ الإسلاميّ على تحديد تاريخ ليلة الإسراء والمعراج. فمنهم من قال: إنّ ذلك قد كان قبل الهجرة بأعوام، ومنهم من قال: بأيّام، ومنهم

من يروي أنّهما قد كانا بثلاث سنين قبل الهجرة، ومنهم من يجزم بأنهما وقعا قبل الهجرة بسنة واحدة. وحجة أصحاب القول الأوّل أنّ خديجة زوجة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد صلّت معه، وتوفيت قبل الهجرة بخمس سنوات؛ والمعروف تاريخياً أنّ الصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج. وفي إمكاننا أن نردّ على صاحب هذا القول بأن الصلاة قد فرضها الله في بداية بعثته - صلى الله عليه وسلم! - ركعتين في الغداة وركعتين في العشيّ، وأنّها اكتملت واستقرّت على ما هي عليه الآن وإلى يوم القيامة، ليلة الإسراء والمعراج. والدليل على ذلك أنّ النبي - صلى الله عليه وسلم! - قد صلى في بيت المقدس قبل عروجه إلى السموات السبع، وأنّ الآيات القرآنية تؤكد أنّ الصلاة قد كانت مفروضة قبل ليلة الإسراء والمعراج. والصحيح أن حادث الإسراء والمعراج قد تمّ ليلة السابع والعشرين من شهر رجب قبل الهجرة النبويّة بسنة واحدة. وهذا ما ذهب إليه جُلّ المحقّقين والثقات: من علماء الرواية والتاريخ الإسلاميّ.

### النقطة الثالثة: مكان الإسراء والمعراج: لا خلاف بين علمائنا في أنّ المعراج قد تمّ في

بيت المقدس وأنّ الإسراء قد كان من الحرم المكيّ الشريف؛ وإنّما الخلاف بين العلماء في المكان المحدّد من الحرم. فمنهم من حدّده بالمسجد الحرام، اعتماداً على ظاهر الآية الأولى من سورة «الإسراء»: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾، واعتماداً أيضاً على ما جاء من الأحاديث المروية في الكتب الصحاح. ومنهم من حدّد المكان ببيت أمّ هانئ هُنْد بنت أبي طالب؛ اعتماداً على قولها: «مَا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم! - إِلَّا وَهُوَ فِي بَيْتِي نَائِمٌ عِنْدِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي بَيْتِي» وقد أوّل هذا الفريق لَفْظَتِي المسجد الحرام - في الآية الكريمة - بمطلق الحرم، لإحاطته بالمسجد والتباسة به، أو لأنّ الحرم كلّ مسجد. وبيت أمّ هانئ جزء من هذا الحرم. وفي إمكاننا - نحن الخلف - أن نجتمع بين ظاهر الآية الكريمة والأحاديث الشريفة وبين قول أمّ هانئ: بأنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد نام ليلة الإسراء والمعراج في بيت أمّ هانئ، وفي أثناء الليل انتقل من هناك إلى المسجد الحرام؛ حيث أُسْرِيَ به إلى المسجد الأقصى، ومن هناك عُرِجَ به إلى السموات السبع، ثمّ عاد إلى بيت أمّ هانئ بعد إتمام الإسراء والمعراج.

### النقطة الرابعة: هل الإسراء والمعراج قد كان يقظة أو مناماً؟ لقد انقسم العلماء في هذه

النقطة إلى ثلاث طوائف:

**الطائفة الأولى :** قد جزمت بأنهما كانا مناماً ، واستدلّت على جزمها بأربعة أدلة :

**الدليل الأول :** قوله - تعالى !- ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾<sup>(1)</sup> ؛

فقلت هذه الطائفة : إنّ الرؤيا لغة هي ما يراه النَّائم في نومه .

**الدليل الثاني :** قول عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها !- : « ما فُقدَ جسد رسول الله -

صلى الله عليه وسلم !- ولكنَّ الله أسرى بروحه » .

**الدليل الثالث :** قول معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه !- : « كانت رؤيا من الله -

تعالى !- صادقة » .

**الدليل الرابع :** ما رواه الإمام البخاريّ ، عن أنس بن مالك في حديث طويل النَّفس .

**الطائفة الثانية :** قد جزمت بأنّ الإسراء والمعراج قد وقعا مرتّين : إحداهما في النوم ،

والثانية في اليقظة ؛ بل هناك من ذهب إلى وقوعهما ثلاث مرّات !! وهكذا طريقة أرباب النقل دون تمحيص ، وأهل الظّاهر دون تسليم لأصحاب الباطن فإذا تخالف السياق في بعض الروايات جعلوها مرّة أخرى !! ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾<sup>(2)</sup> .

**الطائفة الثالثة :** قد جزمت بأنّهما قد كانا يقظةً بالروح والجسد معاً . واستدلّت على

جزمها بثلاثة أدلة مقنعة لمن أراد الحقيقة :

**الدليل الأول :** أنّ معنى الرؤيا في الآية الكريمة مرادف لمعنى الرؤية البصريّة ، وأنشدوا

في ذلك بيتاً من الشعر العربيّ لعبيد بن حصّين الرَّاعي ، هذا نصّه :

وَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا ، وَهَشَّ فُؤَادُهُ      وَبَشَّرَ قَلْبًا كَانَ جَمًّا بَلَابُلُهُ

أي : وكبّر عند الرؤية البصريّة . و«البلابل» : جمع بلبل ؛ وهو الحزن ، والوسواس ،

والاضطراب ، وشدة الهمّ .

**الدليل الثاني :** أن قوله - تعالى !- : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ ،

يقتضي معناه أنّها رؤية بصرية في اليقظة ؛ إذ لو كانت رؤيا مناميّة ما افتنّ الناس بها ؛ حتى إنّ كثيراً من المسلمين قد ارتدّوا عن دينهم آنذاك ، بسبب حادثة الإسراء والمعراج . فلو كانت هذه الحادثة رؤيا نوم ، ما استبعدوا هؤلاء المرتدّون عن دينهم ، ولا ارتابوا في صحتها ، لأنّ أيّ واحد

(1) سورة «الإسراء» . الآية 60 .

(2) سورة «البقرة» . الآية 156 .

من البشر في إمكانه أن يرى في نومه ما ليس في إمكانه أن يراه في يقظته ؛ إذ قد يرى النَّائم نفسه تخترق آفاق المشرق والمغرب ، وتحلّق في السماء ، في بضع دقائق أو لحظات .

**الدليل الثالث :** قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عندما أنكر بعض العرب

حادث الإسراء والمعراج بقظة :- «آية ذلك أني مررتُ بعير بني فلان بوادي كذا وكذا ، فأنفرهم حسَّ الدّابة (أي : البراق) ، فندّ لهم بعير ، فدلّكُهم عليه ؛ وأنا موجهٌ إلى الشام . ثمّ أقبلتُ حتى إذا كنتُ بـ «ضجنان»<sup>(1)</sup> مررتُ بعير بني فلان ، فوجدتُ القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء ، قد غطّوا عليه بشيء ، فكشفتُ غطاءه ، وشربتُ ما فيه ، ثمّ غطّيتُ عليه كما كان . وآية ذلك أن غيرهم - الآن - تصوب من «البيضاء» : ثنية التّنعيم يقدمها جمل أورو ، عليه غرارتان : إحداها سوداء ، والأخرى برقاء» . ولما وصل العير إلى مكّة ، سألهم المنكرون عمّا أخبرهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فاعترفوا بالخبر وأكّدوا صحّته .

وبعد عرض أقوال هؤلاء الطوائف الثلاث ، فنحن نميل كلّ الميل إلى قول الطائفة الثالثة ، ونعتقد اعتقاداً جازماً أن معجزة الإسراء والمعراج قد تمّت بالروح والجسد معاً . وحجّتنا في ذلك - زيادةً على ما تقدّم ذكره - ما صرّح به عزّ من قائل في كتابه المبين ؛ حيث قال : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ، ولم يقل : أسرى بروحه ؛ حسبما جاء في خبر عائشة ومعاوية - رضي الله عنهما !- لأنّ الرّوح لا يفارقُ جسد صاحبه إلّا عند موته . ولا داعي إلى حمل الآية المحكّمة على المجاز ما دام المقصود قد تمّ وحصل بصريحها . وحجّتنا في ذلك - أيضاً - أنّ العقل البشريّ عاجز عن إدراك أسرار المعجزات الرّبّانية التي أكرم الله بها أنبياءه ؛ إذ لو أدركها البشر لا تنفى عنها اسم «معجزة» ، لأنّ معناها إعجاز البشر عن الإتيان بها أو بمثلها على وجه العموم والإطلاق زماناً ومكاناً . وما هو كذلك فهو خارج عن نطاق الزّمان والمكان ، اللذين لا يمكن أن يتجاوزهما العقل والتفكير . ولعلّ إحضار الله عرش «بلقيس» في أقلّ من ارتداد طرف العين ، هو حجة دامغة على الزّمانيين أيضاً . قال الله - تعالى !- : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾<sup>(2)</sup> .

(1) «ضجنان» - بفتح أوّله وثانيه :- جبل بـ «تهامة» .

(2) سورة النمل . الآية 40 .

**النقطة الخامسة:** رؤية النبي - عليه الصلاة والسلام! - لربه ليلة الإسراء والمعراج . جاء في رواية مسروق : أن عائشة - رضي الله عنها! - قد أنكرت رؤية النبي - عليه الصلاة والسلام! - لربه ليلة الإسراء والمعراج ، فقالت : «ومن زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية» . واحتجت بقوله - تعالى! - ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾<sup>(1)</sup> . وقد ذهب جُلُّ الصحابة والعلماء إلى إثبات هذه الرؤية وصحتها ؛ بيد أنها رؤية بلا كيف ولا انحصار . والذي نعتقه وندين به أن النبي - عليه الصلاة والسلام! - قد رأى - ليلة الإسراء والمعراج - ربه بعين رأسه يقظة . وفي صحيح مسلم والترمذي أن النبي - عليه الصلاة والسلام! - قد رأى ربه حقاً . وأما احتجاج عائشة - رضي الله عنها! - بقوله - تعالى! - : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ، فإنه مردود ، لأن عدم الإدراك لا ينافي الرؤية البصرية ، فكثيراً ما يرى الإنسان أشياء دون أن يدرك حقيقتها . فكيف إذن يمكن إدراك حقيقة ذات الله بمجرد الرؤية البصرية؟! فمعنى الإدراك لا تشمله رؤية البصر . فالأول يقتضي الإحاطة بالشيء على ما هو عليه ، وهذا محال في حق الله الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>(2)</sup> . فلذلك قال الله - تعالى! - ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ، ولم يقل : لا تراه الأبصار . ويرحم الله محمد بن مسلم الزهري ؛ إذ يقول : - في هذه المناسبة - : «ليست عائشة أعلم عندنا من ابن عباس» . وأعظم حكمة يمكن استخلاصها من معجزة الإسراء والمعراج ، تكمن في تمحيص المؤمنين وغلبة ضعفاء الإيمان منهم . فمنهم من ازداد بهذه المعجزة إيماناً مع إيمانه ، ومنهم من ارتد عن دينه . وقبل أن نضع نقطة النهاية لكلمتنا هذه ، نود أن نتوجه بقصيدة ستكون خاتمة المطاف لأفكارنا وشواعرنا ، هذا نصها :

وَالْخَوْضُ فِيمَا يَفُوقُ الْعَقْلَ حَرَمَانُ	الْعَجْرُ مَنْ عَنِ الْإِدْرَاكِ عِرْقَانُ
قَدْ كَانَ فِيهِ وَفِي الْإِسْرَاءِ رَضْوَانُ	لَا تَعْجَبَنَّ مِنْ عُرُوجِ دَامٍ مُعْجَزَةٍ
سَيَقَتْ إِلَيْنَا وَرَبُّ الْخَلْقِ رَحْمَانُ	قَدْ كَانَ فِيهِ وَفِي الْإِسْرَاءِ مَرَحْمَةٌ
فِي سُورَةِ «النَّجْمِ» وَ«الْإِسْرَاءِ» تَبَيَّنُ	يَكْفِيكَ مَا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ مُجْتَلِباً
لِلْمُؤْمِنِينَ وَخَيْرُ الزَّادِ إِيْمَانُ	قَدْ كَانَ مَسْرَى رَسُولِ اللَّهِ مُمْتَحَناً
بِهَاتِبَاهِ عَلَى الْأَنَامِ عُرْبَانُ	وَفِي الْعُرُوجِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مَفْخَرَةٌ

(1) سورة «الأَنْعَامِ» . الآية 103 .

(2) سورة «الشُّورَى» . الآية 11 .

آيَا بُرَاقُ سَعِيدٌ أَنْتَ مُغْتَبِطٌ  
 قَدْ آمَ بِالْقُدُسِ رُسُلُ اللَّهِ مَكْرَمَةٌ  
 حَتَّى تَبُوءَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً  
 أَدْنَتْهُ مِنْ رَبِّهِ وَالْكَيفُ نَجْهَلُهُ  
 حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ صَلَاةُ الْخَمْسِ وَاجِبَةٌ  
 حَيْثُ اسْتَفَادَ بَعْضُ الرُّسُلِ تَجْرِبَةً  
 يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ وَالْوَحْيِ بِلَا رَيْبٍ  
 إِلَيْكَ أَشْكُو وَظَنِّي خَابَ فِي بَشَرٍ  
 إِلَيْكَ أَشْكُو بَنِي الْإِسْلَامِ فِي زَمَنٍ  
 إِلَيْكَ أَشْكُو دُعَاةَ الدِّينِ مُنْذَهَشًا  
 إِلَيْكَ أَشْكُو وَلَاةَ الْأُمَرَاءِ قَدْ تَبَذَّلُوا  
 إِلَيْكَ أَشْكُو وَعَارُ الْقُدُسِ يَسْلُبُنَا  
 إِلَيْكَ أَشْكُو ضِيَاعَ الْقُدُسِ فِي خَلْفٍ  
 قَدْ ظَلَّ فِيهِمْ شَتَاتُ الصَّفِّ يَنْهَكُهُمْ  
 وَرَاحَ فِيهِمْ غُرَابُ الشُّؤْمِ يُبْعِدُهُمْ  
 أَدْعُوكَ يَا رَبُّ. حَقًّا. أَنْتَ مَلَجُؤُنَا  
 حَتَّى يَفُكَّ قَيْدَ الْقُدُسِ مُتَّصِرًا  
 يَا خَيْرَ هَادٍ لَخَلْقِ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي  
 إِنِّي غَرِيبٌ وَجُلُّ الْإِنْسِ يُوحِشَنِي  
 اللَّهُ أَكْبَرُ وَالتَّكْبِيرُ تَذَكُّرَةٌ  
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ يَصْحَبُهَا

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أن معجزة الإسراء والمعراج ، كانت من الله سبراً واختباراً لعباده على وجه العموم ؛ كما كانت تمحيصاً للمؤمنين على وجه الخصوص ؛ فمن أراد الله بهم خيراً ،

بِمَنْ حَمَلَتْ وَحَمَلُ الضَّيْفِ قُرْبَانُ  
 ثُمَّ ارْتَقَى فِي السَّمَاءِ يَحْدُوهُ وَجْدَانُ  
 أَدْنَتْهُ مِنْ رَبِّهِ وَالْقَلْبُ يَقْظَانُ  
 سُبْحَانَ مَنْ لَهُ فِي الْكَوْنِ سُلْطَانُ  
 وَالشَّكُّ فِيهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ كُفْرَانُ  
 وَهُمْ وَفُودٌ وَكُلُّ الْوَفْدِ يَقْظَانُ  
 إِلَيْكَ أَشْكُو وَمَنْ شَكَّوْا يَخْجَلَانُ  
 خَانُوا الرُّسُولَ وَهُمْ لِلْكَفْرِ أَعْوَانُ  
 رَامُوا الشُّكُوكَ وَمَا لِلشَّكِّ بَرَهَانُ  
 قَدْ شَاعَ فِيهِمْ مِنَ الْأَطْمَاعِ أَلْوَانُ  
 وَحْيِ السَّمَاءِ وَبَذَلُ الْوَحْيِ خُسْرَانُ  
 عِزًّا عَرِيقًا عَلَيْهِ حَضُّ قُرْآنُ  
 قَدْ قَامَ فِيهِمْ مَقَامَ الْحَزْمِ تُكْلَانُ !!  
 وَحَلَّ فِيهِمْ مَكَانَ الْعَوْنِ خَذْلَانُ !!  
 عَنْ كُلِّ سَامٍ وَهُمْ لِلذَّلِّ عَنَوَانُ !!  
 وَمَا سِوَاكَ لِشَعْبِ الْقُدُسِ مَعْوَانُ  
 وَيَنْشُرُ الْعَدْلَ وَالْإِسْلَامَ مِيزَانُ  
 إِنِّي غَرِيبٌ بِدَارِ الْكُفْرِ حَيْرَانُ  
 رَحْمَاكَ يَا رَبُّ وَالْإِسْلَامُ سُلْوَانُ  
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالتَّسْبِيحُ شُكْرَانُ  
 لَفْظُ السَّلَامِ وَخَيْرُ الذِّكْرِ قُرْآنُ

ازدادوا بها إيماناً مع إيمانهم، ومن أراد الله بهم شرّاً، نكصوا على أعقابهم وارتدّوا بعد إيمانهم<sup>(1)</sup>. قال محمد بن إسحاق: «وكان في مسراه وما ذكر منه بلاء وتمحيص، وأمر من الله - عزّ وجل! - في قدرته وسلطانه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وبيان لمن آمن وصدّق، وكان من أمر الله على يقين»<sup>(2)</sup>.

**العبرة الثانية:** أن معجزة الإسراء والمعراج قد خصّ الله بها رسوله محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام! - وبها قد كرّمه وفضّله وبيّله، وبها حظي عنده وعند الملائكة المقربين بما لم يحظ به جميع من تقدّمه من الأنبياء والمرسلين.

**العبرة الثالثة:** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لم يأخذ برأي أم هانئ حينما قالت له: «لا تحدّث بهذا، فوالله لا يصدّقك الناس، وليكفّرنّ بك من آمن بك وليكذبنّك من صدّقك»! فقال لها رسول الله - عليه الصلاة والسلام! -: «إنّ ربّي أمرني أن أخبر الناس بذلك». فلم يكتّم ما خصّه الله به؛ رغم أنّه يعلم علم اليقين أنّه معرض لتكذيب المشركين إيّاه واستمرارهم في استهزائهم به وسخرهم منه؛ بل قد راح يصف مسراه وعروجه وصفاً دقيقاً مطابقاً للواقع لمن لا يؤمنون به ولمن لا يصدّقونه فيما جاءهم به. وقول أم هانئ - يذكّرنا بقول أبي طالب فيما مضى: «أبق على نفسك وعليّ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق» فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «يا عمّاه! والله لو وَضَعُوا الشَّمْسَ في يَمِينِي وَالْقَمَرَ في شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ».

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** كلّ الفرائض قد فرضها الله على عباده بأرضه، وبوساطة جبريل المكلف بحمل وحيه إلى رسوله؛ إلّا الصلّاة فقد فرضها الله في السماء السابعة، وأوحى بها إلى رسوله مباشرة منه إليه بلا وساطة جبريل. وهي خمس صلوات في اليوم والليّلة، وثوابها بقدر خمسين صلاة. وكانت قبل الإسراء والمعراج ركعتين ركعتين، ثم لما فرضت الخمس فرضت حضراً على

(1) وقد أنزل الله في هؤلاء المرتدين قوله: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ». (سورة الإسراء... الآية 60).

(2) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 271.



ما هي ، ورُخص أن يُصَلِّي ركعتين : كما كان الأمر قبل الإسراء والمعراج ؛ ما عدا صلاة المغرب فإنها ثلاث ركعات حضراً وسفراً .

**الحكم الثاني :** كيف جاز لرسول الله أن يشرب من ماء مملوك بالإحراز والحيازة ؛ دون أخذ الإذن من مالكة ؟ قال عبد الرحمن السُّهَيْلِيُّ : « فصل ؛ وفيه شربه (عليه الصلاة والسلام) ! من إناء القوم ، وهو مُغطى ، والماء وإن كان لا يملكُ والناسُ شركاءُ فيه ، وفي النار ، والكَلأ ؛ كما جاء في الحديث ؛ لكن المُستقى إذا أحرزه (صاحبه) في وعائه ، فقد ملكه ، فكيف استباح النبي - صلى الله عليه وسلم ! - شربه وهو ملكٌ لغيره ، وأملاك الكفار لم تكن أبيحت يومئذٍ ، ولا دماؤهم ؟ ! »

**والجواب :** أن العرب في الجاهلية كان في عُرْف العادة عندهم إباحة الرُّسل لابن السبيل فضلاً عن الماء ، وكانوا يعهدون بذلك إلى رعاثهم ويشترطون عليهم عند عقد إجارتهم : أن لا يمنعوا الرُّسل ، وهو اللُّبن ، من أحد مرّ بهم ، والمحكمُ في العُرْف في الشريعة أصولٌ تشهد له . وقد ترجم البخاريُّ عليه في « كتاب البيوع » ، وخرَّج حديث هند بنت عتبة <sup>(1)</sup> ، وفيه : « خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَكَذَلِكَ بِالْمَعْرُوفِ » <sup>(2)</sup> .

### مُعْجَزَةُ انشِقَاقِ الْقَمَرِ

قال الله - تعالى :- ﴿ أَقْرَبْتَ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۖ ﴾ <sup>(3)</sup> . أجمع المسلمون - خلفاً عن سلف - : أن انشقاق القمر قد وقع حقيقةً مرئيةً بمكة ؛ على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - <sup>(4)</sup> . وقد جاءت بذلك أحاديث متواترة ، من طرق متعدّدة ، تفيد القطع عند كلٍّ من يمعن النظر فيها رواية ودراية ؛ وهي مروية عن جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم ! - منهم : أنس بن مالك ، وجُبَيْر بن مُطعم ، وحذيفة بن اليمان ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله ابن مسعود . قال عبدالله بن عباس : « اجتمع المشركون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - فقالوا : إن كنت صادقاً فَشَقُّ لَنَا الْقَمَرِ فَرَقَّتَيْنِ ، فقال لهم : « إِنْ فَعَلْتَ تُؤْمِنُونَ ؟ » قالوا : نعم ،

(1) هي : زوجة أبي سفيان وأم الخليفة الأمويّ معاوية بن أبي سفيان . توفيت سنة 14 هـ .

(2) روض الأثاف . ج 3 ص 436 .

(3) سورة « القمر » . الآية 1 - 3 .

(4) وكان ذلك قبل الهجرة النبوية وبعد الهجرة إلى الحبشة .

فسأل ربّه أن يُعطيه ما قالوا، فانشقّ القمر فرقتين، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ينادي: «يَا فَلَانُ! يَا فَلَانُ! (1) . اشْهَدُوا» (2) . وقال عبدالله بن عباس: «انشقّ القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - شَقَّتَيْنِ، فقال رسول الله: «اشْهَدُوا» (3) . وعن عبدالله بن عباس: انتهى أهل مكّة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقالوا: هل من آية نعرف بها أنّك رسول الله؟ فهبط جبريل فقال: يا محمد! قل لأهل مكّة أن يحتفلوا هذه الليلة فَسَيَرُونَ آية إن انتفعوا بها، فأخبرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بمقالة جبريل، فخرجوا ليلة الشقّ: ليلة أربع عشرة، فانشقّ القمر نصفين: نصفاً على «الصفّ» ونصفاً على «المروة»، فنظروا، ثم مسحوا أعينهم، ثم نظروا، فقالوا: يا محمد! ما هذا إلا سحر واهب، فأنزل الله: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» (4) . وقال أبو الحسن، عليّ النيسابوري: «عن عبدالله بن مسعود، انشقّ القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقالت قريش: هذا سحرٌ بن أبي كبشة، سحر كم، فاسألوا السُّفَّارَ، فسألوهم، فقالوا: نعم، قد رأيناه، فأنزل الله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ» (5) . وقال ابن جرير الطبري - في تفسيره -: «قوله - تعالى! -: «اقْتَرَبَتِ: افتعلت، من القُرب. وهذا من الله - تعالى ذكره! - إنذار لعباده بدنو القيامة، وقُرب فناء الدُّنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأحوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها غافلون ساهون. وقوله: ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾؛ يقول جلّ ثناؤه: وانفلق القمر. وكان ذلك - فيما ذكر - على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو بمكّة قبل هجرته إلى المدينة - صلى الله عليه وسلم! - وذلك أن كفار أهل مكّة سألوه آيةً، فأراهم - صلى الله عليه وسلم! - انشقاق القمر آيةً وحجّةً على صدق قوله، وحقيقة نبوّته. فلمّا أراهم ذلك أعرضوا، وكذبوا وقالوا: «هَذَا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ» سحرنا محمد، فقال الله - جلّ ثناؤه! -: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ». وينحو الذي قلناه في ذلك جاءت الآثار، وقال به أهل التأويل». وقد

(1) وفي رواية: «يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن الأرقم فاشهدوا» .

(2) رواه البخاريّ بمعناه .

(3) رواه البخاريّ ومسلم .

(4) رواه أبو نعيم في «الحلية» .

(5) النيسابوري، عليّ. أسباب النزول، ص 229 .

أورد ابن جرير الطبري سيلاً من الآثار تثبت صحة خبر انشقاق القمر حقيقة وثبوت انشقاقه فعلاً. وعن عبدالله بن عباس: «انفلق فلقتين، فلقة ذهبت، وفلقة بقيت». وقال عبدالله بن مسعود: «رأيت حراء بين فلقتي القمر». وخطب حذيفة بن اليمان بـ«المدائن»، ثم قال: «ألا إن الساعة قد قربت، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم - صلى الله عليه وسلم! - هذا قول أكثر المفسرين. وقد أكد وقوع هذا الانشقاق فعلاً مضمون الآية الثانية من سورة «القمر»؛ وهي: «وإن يروا آية يَعْزِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ». وللدرد على من أنكر هذه المعجزة الربانية نكتفي برودود عبد الجبار الهمداني فقال: «باب آخر؛ وهو ما كان بمكة من انشقاق القمر؛ فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مربكة في ليلة قمراء ومعه نفر من أصحابه، فاجتاز نفر من المشركين<sup>(1)</sup>، فقالوا له: يا محمد! إن كنت رسول الله كما تزعم، فاسأل ربك أن يشق هذا القمر، فسأل الله ذلك، فشقه، فقال المشركون: سَاحِرُوا بصاحبكم من شتم فقد سرى سحره من الأرض إلى السماء. فنزلت القصة في ذلك. وهذا من الآيات العظام والبراهين الكرام على صدقه ونبوته - صلى الله عليه وسلم! -.

**فإن قيل:** ومن أين لكم أن القمر قد انشق له كما ادعيتم؟ أتعلمون ذلك ضرورة أم بدلالة؟ أو ليس النظام<sup>(2)</sup> قد شك في هذا وقال: لو كان قد انشق لعلم بذلك أهل الغرب والشرق لمشاهدتهم له؟ وهذا شيء سيكون عند قيام الساعة ومن أشراف القيامة، فبأي شيء تردون قوله<sup>(3)</sup>، وتبينون غلطه إن كان قد غلط؟ قيل له: ما نعلم ذلك ضرورة؛ ولكن نعلمه بدلالة، فمن استدلل عرف، ومن لم يستدل لم يعرف، ومن قصر عن الاستدلال والنظر غلط؛ كما غلط إبراهيم النظام. فوجه الدلالة على ذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد احتج بذلك على المسلمين والمشركين، وتلا هذا القول عليهم من سورة «القمر»: ﴿أَفَتَرَبَّ السَّاعَةِ﴾. ولم يكن ليُقدّم ويحتج على العدو والولي بما لا حاجة فيه، ويشير إلى أمر ظاهر يشار إليه ويشاهده الناس، فلو أراد أن يكذب ويُردّ قوله ما زاد على هذا؛ هذا لا يقع من عاقل، ولا يختاره محصل

(1) منهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن غفوث، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث ونظراؤهم.

(2) «النظام»: هو إبراهيم بن سيار أبو إسحاق أحد أئمة المعتزلة إليه تُنسب فرقة «النظامية»، توفي سنة 232 هـ.

(3) «قوله»: ضمير الغائب يعود على إبراهيم النظام.

كائناً مَنْ كان، فكيف يقع مَنْ يدّعي النبوة والصدق، وهو أشدّ حرصاً بالناس كلّهم على تصديقه واتباعه؟ فلو أراد أن يكذبوه ويردّوا قوله ما زاد على هذا، وهذا لا يذهب على متأمّل.

**فإن قيل:** فما تنكرون على من قال: إنه - صلى الله عليه وسلم! - ما احتجّ بهذا على نبوته؟

**قيل له:** لا فرق بين من ادّعى ذلك أو ادّعى في جميع ما أتى به من القرآن وغيره أنّه ما احتجّ بشيء من ذلك على صدقه ونبوته. ومما يزيدك علماً بذلك ويبيّن لك غلط النظام وجهل كلّ مَنْ دَبَّ عن ذلك، قوله - تبارك وتعالى -: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ <sup>(١)</sup> وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ. فانظر كيف قال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، وأخبر عن أمر قد كان ومضى، ثمّ قال على نسق الكلام: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فجاء بأمر قد كان وانقضى ومضى، فنسق على الماضي بالماضي؛ ولو كان على ما ظنّ النظام لقال: اقتربت الساعة وانشق القمر، أو كان يقول: وسينشق القمر، فلمّا لم يقل ذلك وقال: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، علمت أنّه أخبر عن شيءين واقعين؛ قد وقعا وكانا وحصلا. ثمّ قال على نسق الكلام: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾. فأخبر أنّها آية مرئية وحجة ثابتة. ثمّ قال على نسق الكلام: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ <sup>(٢)</sup> حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ <sup>(٣)</sup>. وهذا لا يقال فيما لم يقع ولم يكن. فتأمّل هذا التقرّيع والتعنيف، لتعلم أنّه أمر قد كان، ولا يسوغ أن يقال في أمر لم يكن، ولم يقع هذا القول. وأيضاً فإنّ ما يقع في القيامة وعند قيام الساعة، لا يكون حجة على المكلفين، ولا يعتفون في ترك النظر والتأمّل له، فإنّ التكليف حينئذ زائل مرتفع. فأما قول النظام: فلم لا يشاهد هذه الآية كلّ الناس؟ فليس هذا بلازم، لأنّ الناس لم يكونوا من هذا على ميعاد؛ وإنّما هو شيء حدث ليلاً وما كان عندهم خبر بأنّه سيحدث وسيكون في وقت كذا فينظرونه، وإذا كان كذلك فقد بطل ما ظنّه. يزيدك بياناً أنّ القمر قد ينكشف كلّّه، فلا يرى ذلك من الناس إلّا الواحد بعد الواحد والنفر اليسير لتوهم، فكيف بانشقاق القمر الذي انشق، ثمّ التأمّن من ساعته بعد أن رآه أولئك القوم الذين طلبوه، وأيضاً فقد يجوز أن يحجبه الله - عزّ وجلّ! - لمصالح العباد إلّا عن أولئك القوم، لأنّه قد يجوز أن يكون في بعض البلاد من المكذّبين والمحتالين في تلك الساعة مَنْ لو رأى لقال: إنّما انشقّ شهادة لي على صدقي، ولا يكون ما ذكره النظام قد جاء في ذلك من هذا الوجه أيضاً، وبطل ما توهمه. ومدار الأمر أن يكون هذا أمراً قد

(١) سورة «القمر». الآية 4-5.

كان . وقد ذكرنا الدلالة على كونه فلا عذر لمن شكّ فيه . ومن الدلالة أيضاً أنّ ذلك قد كان ، أنّ الصحابة - بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! قد تذكّروه ، فما فيهم من شكّ ولا ارتاب ولا توقّف ؛ بل وقع إجماع منهم على كونه ووقوعه ، فلا معتبر بمن جاء بعدهم ممّن خالفهم ، وقد ذكر انشقاق القمر عليّ بن أبي طالب ، وعبدالله بن مسعود ، وجُبَيْر بن مطعم ، و(عبدالله) بن عمر ، و(عبدالله) بن عباس ، وأنس بن مالك ، وخطب النَّاسَ حذيفة بن اليمان بـ «المدائن» ، وذكر فيه انشقاق القمر . وكانوا يقولون خمسٌ قد مضين : الرُّوم<sup>(1)</sup> ، والقمر<sup>(2)</sup> ، والدَّخَانُ<sup>(3)</sup> ، والبطْشَةُ<sup>(4)</sup> ، واللِّزَامُ<sup>(5)</sup> ؛ يتذكّرون هذا بينهم ، رحمة الله عليهم . وقد ذكرنا ما في العقل من الحجّة في ذلك ، وهي تلزم كلّ عاقل بلغته الدعوة ؛ سواء كان من المسلمين أو من غيرهم ، وفي ذلك أتمّ كفاية . ثمّ ذكرنا تذاكر الصحابة بذلك ، وهي دلالة أخرى ، إذ لا يجوز أن يقول عاقل بحضرة جماعة وقد أقبل على من يحدثه : قد كنّا في وقت كذا حتى حدث كذا وكذا - ويستشهد بالذي حدث بحضرتهم ، ويدّعي عليهم وما عندهم علم - فيمسكون عن تكذيبه والردّ عليه . ثمّ ذكرنا الإجماع السابق من الصّحابة ، ليتأكّد ذلك على كلّ من كان من أهل الصلاة<sup>(6)</sup> .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أنّ انشقاق القمر قد شوهد في كثير من بقاع الأرض ؛ حتى إنّ سكّان بلاد الهند قد بنوا بناء وأرّخوه بليلة انشقاق القمر . قال محمود شكري الألوسيّ : «وقد رأيت في «تاريخ اليميني» أنّ السلطان محمد بن سبكتكين الغزنوي رأى في بعض غزواته لبلاد الهند الوثنية لوحاً من الصّخر على بعض قصور بلادهم منقوشاً فيه : «أنّه تمّ بناؤه ليلة انشقاق القمر» . وفي ذلك عبرة لمن يعتبر» .

(1) «الروم» : انتصار الرّوم على الفرس ؛ بعد غلبة الفرس عليهم ، وقد تنبأ بذلك القرآن في سورة «الروم» .

(2) «القمر» : معجزة انشقاق القمر .

(3) «الدخان» : فما ورد حوله في سورة «الدخان» .

(4) «البطْشَةُ» : وقعة بدر ، لقوله - تعالى - : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (سورة «الدخان» .

الآية 16) .

(5) «اللِّزَامُ» : وقعة بدر أيضاً ؛ ذكره ابن الأثير في كتابه «النهاية» ج 4 ص 56 .

(6) الهمذاني : تثبيت دلائل النّبوة . ص 55 - 59 .

## عرض رسول الله نفسه على القبائل في المواسم

قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق :- «... فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يعرض نفسه في المواسم - إذا كانت - على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه، حتى يُبين عن الله ما بعثه به . وهكذا استمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في عرض نفسه على القبائل فيقف على منازلهم ويقول: «يَا بَنِي فَلَان ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، يَا مَرْكُمُ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ: مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَتَصَدَّقُوا بِي، وَتَمْنَعُونِي، حَتَّى أُبَيِّنَ عَنِ اللَّهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ». وكان «خلفه رجل أحول وضياء، له غديرتان، عليه حلة عذنية، فإذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من قوله، وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يَا بَنِي فَلَان ! إِنَّ هَذَا إِنَّمَا يَدْعُوكُمْ أَنْ تَسْلَخُوا اللَّاتِ وَالْعُزَى مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَحُلَفَاءَكُمْ مِنَ الْجَنِّ مَنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ أَقْيَشٍ، إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبَدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَلَا تَطِيعُوهُ، وَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ»<sup>(1)</sup>. . . وما هذا الرجل سوى عبد العزى بن عبد المطلب المعروف بأبي لهب، لعنه الله وأخزاه .

ومن القبائل الذين أتاهم في منازلهم قبيلة كندة، وفيهم سيد لهم اسمه مُلَيْح، فدعاهم رسول الله إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فردوا عليه دعوته ولم يقبلوا ما جاءهم به! وسار على وتيرتهم بنو حنيفة فلم تكن قبيلة من قبائل العرب أقبح عليه رداً منهم! وعرض نفسه على قبيلة بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، فقال له رجل منهم اسمه بَيْحَرَةُ بْنُ فَرَّاسٍ: وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ هَذَا الْفَتَى مِنْ قَرِيشٍ، لَأَكَلْتُ بِهِ الْعَرَبَ. ثم قال: أَرَأَيْتَ إِنْ نَحْنُ تَابَعْنَاكَ عَلَى أَمْرِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيْكُونُ لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم !-: «الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، فقال له بَيْحَرَةُ: أَقْنُهُدِ نَحُورَنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللَّهُ كَانَ الْأَمْرُ لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرِكَ، وأبوا عليه ما جاءهم به. قال ابن إسحاق: «فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاءهم به من

(1) السيرة النبوية بشرح رؤف الأنثى. ج 4 ص 37-39.

الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقدام يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف إلا تصدّى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده»<sup>(1)</sup> .

### لقاء رسول الله رهطاً من قبيلة الخزرج<sup>(2)</sup> عند العقبة<sup>(3)</sup>

قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق : «فلما أراد الله - عز وجل - إظهار دينه ، وإعزاز نبيه - صلى الله عليه وسلم - ! وإنجاز مواعده له ، خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! في الموسم الذي لقيه نقر من الأنصار»<sup>(4)</sup> ، فعرض نفسه على قبائل العرب ؛ كما كان يصنع في كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً . قال لهم : «مَنْ أَنْتُمْ؟» قالوا : نقر من الخزرج ، قال : «أَمِنْ مَوَالِي<sup>(5)</sup> يَهُودَ؟» قالوا : نعم ، قال : «أَفَلَا تَجْلِسُونَ أَكَلَمَكُمْ؟» . قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام : أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا - هم<sup>(6)</sup> - أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا قد عزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أطل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! أولئك النقر ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلموا ؛ والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة والشر فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا»<sup>(7)</sup> . وهم سبعة نفر من الخزرج : أسعد بن زُرارة بن عُدس أبو أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة ؛ وهو ابن عفراء ؛

(1) السيرة النبوية بشرحروض الأنف . ص 40 .

(2) «الخزرج» : الرياح الباردة .

(3) «العقبة» : مكان بـ «منى» ، عنده «جمرة العقبة» .

(4) «الأنصار» : جمع ناصر ، على غير قياس : كصاحب وأصحاب ، وشاهد وأشهاد .

(5) أي : حلفاءهم .

(6) «هم» : العرب المشركون .

(7) المصدر السابق . ج 4 ص 43 - 45 .

كلاهما من بني النَجَّار، ورافع بن مالك بن عَجْلان، وعامر بن عبد خارثة بن ثعلبة بن غنم؛ كلاهما من بني زُرَيْق، وقُطَبة بن عامر بن حديدة بن سواد؛ من بني سَلَمَة<sup>(1)</sup>، وعقبة بن عامر بن نابی؛ من بني غنم، وجابر بن عبد الله بن رباب؛ من بني عُبَيْدة. قال ابن اسحاق: «فلما قدموا المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ودَعَوْهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -»<sup>(2)</sup>.

### بيعة العقبة الأولى

قال محمد بن إسحاق: «حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً<sup>(3)</sup>، فلحقوه<sup>(4)</sup> بـ «العقبة»؛ وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفترض عليهم الحرب. . . عن عباد بن الصّامت، قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على بيعة النساء؛ وذلك قبل أن تُفترض الحرب: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفترقه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. (فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «فَإِنْ وَقَّيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ - عزّ وجلّ! - إِنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ» فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - معهم مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ. . . وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يُسمّى المُقْرِئَ بالمدينة: مُصْعَبُ. وكان منزله على أسعد بن زُرارة بن عُدَس، أبي أُمَامَة<sup>(5)</sup>. وكان مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ يَصْلِي بِمَنْ أَسْلَمَ بالمدينة، «وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض»<sup>(6)</sup>.

(1) «سلمة»: بفتح أوله وكسر ثانيه.

(2) المصدر السابق، ج 4، ص 43-45.

(3) كلهم من الخزرج؛ ما عدا أبا الهيثم، ملك بن التَّيَّهان، وعَوَيْمًا بن ساعدة؛ فإنهما من الأوس. وفي عدد هؤلاء الرجال الخزرجيون السبعة الذين ذكرناهم بأسمائهم في اللقاء الأول.

(4) «فلحقوه»: ضمير الغائب يعود على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -.

(5) المصدر السابق، ج 4، ص 74.

(6) المصدر السابق، ج 3، ص 74.



## إسلام سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر

قال أبو الحسن ، عليّ بن الأثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق بشيء من الاختصار -: «فخرج بمُصْعَب بن عُمَيْرٍ أسعدُ بن زُرارة ، فجلسا في دار بني ظَفَر ، واجتمع عليهما رجال ممن أسلم . فسمع بمُصْعَب سَعْدُ بن معاذ وأُسَيْدُ بن حُضَيْر ؛ وهما سيّدا بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك . فقال سعد لأُسَيْد : انطلق إلى هذين اللّذين أتيا دارنا فازجرهما وانهما فإنه لولا أسعدُ بن زُرارة - وهو ابن خالتي - لكفّيتك ذلك . فأخذ أُسَيْدُ حرّته ، ثم أقبل عليهما . فقال : ما جاء بكما تسفّهان ضعفاءنا ؟ ! اعتزلا عتاً . فقال مُصْعَب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره . فقال : أنصفت . ثم جلس إليهما ، فكلّمه مصعب بالإسلام ، فقال : ما أحسن هذا وأجلّه ! كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدّين ؟ قالوا : تغسل وتطهّر ثيابك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلّي ركعتين ، ففعل ذلك وأسلم . ثم قال لهما : إنّ ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنكما أحد من قومه ، وسأرسله إليكما ؛ وهو سعد بن معاذ . ثم انصرف إلى سعد وقومه ، فلمّا نظر إليه سعد قال : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ! فقال له سعد : ما فعلت ؟ قال كلّمت الرّجلين ، والله ما رأيت بهما بأساً ، وقد حدّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه . فقام سعد مغضباً مبادراً ، لخوفه ممّا ذكر له ، ثم خرج إليهما . فلمّا رآهما مُطمئنين ، عرف ما أراد أُسَيْد ، فوقف عليهما وقال لأسعد بن زُرارة : لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمّت هذا منّي ، فقال له مُصْعَب : أو تقعد فتسمع ؛ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره . فجلس ، فعرض عليه مصعب الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقال لهما : كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدّين ؟ فقالا له ما قالّا لأُسَيْد ، فأسلم وتطهّر ، ثم عاد إلى نادي قومه ومعه أُسَيْدُ بن حُضَيْر . فلمّا وقف عليهما قال : يا بني عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيّدنا وأفضلنا . قال : فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . قال : فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلّا مسلماً أو مسلمة . ورجع مُصْعَبُ إلى منزل أسعد ، ولم يزل يدعو إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها رجال ونساء مسلمون ؛ إلّا ما كان من بني أُمَيّة بن زيد ، ووائل ، وواقف ، فإنّهم أطاعوا أبا قيس بن الأسَلْت ، فوقف لهم عن الإسلام حتى هاجر النّبِيّ - صلى الله عليه وسلم - . ومضت «بدر» و«أُحُد» و«الخنْدَق» ، وعاد مُصْعَبُ إلى مكة»<sup>(1)</sup> .

(1) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 97 ، 98 .

## الإذن بإباحة الجهاد

قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق : «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل بيعة العقبة (الأولى)، لم يؤذن له في الحرب، ولم تُحلل له الدماء؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنّوهم عن دينهم، ونفّوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه، ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم: منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه. فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيّه - صلى الله عليه وسلم - وعذبوا ونفّوا من عبده ووحدّه وصدق نبيّه، واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم - فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء - قول الله تبارك وتعالى<sup>(1)</sup>: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(2)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوكٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ<sup>(3)</sup> . وقد عدّ بعض علماء التفسير هذه الآيات الثلاث مكيّة النزول. ومن هؤلاء العلماء أبو بكر محمد بن العربي في كتابه: «أحكام القرآن». وبالاكتفاء على قول ابن العربي والذين معه يزول الإشكال، ويتّضح المقصود من أن هذه الآيات المحكمات تفيد إباحة الجهاد والرخصة في القتال، ولا تفيد وجوب الجهاد والأمر بالقتال الذي قد أمر به الله وأوجبه على المسلمين في آيات أخرى مدنيّة، نزلت في هذا الشأن بعد هجرته عليه الصلاة والسلام، وعدم وجوب القتال على المسلمين قبل الهجرة، يُعدّ رحمة بهم من الرحمن الرحيم؛ وذلك لأمرين اثنين:

**أولهما:** قلّة عددهم وعتادهم؛ بالنسبة إلى عدد وعتاد عدوهم.

(1) السيرة النبويّة؛ بشرح «روض الأنف». ج 4 ص 146، 147.

(2) سورة «الحجّ». الآيات: 39-41.

**ثانيهما:** أن نفوسهم لم تستكمل الاستعداد المطلوب شرعاً للجهاد في سبيل الله . وذلك حكمة من الله ؛ من حيث التشريع التدريجي لتعويد النفوس على الأمور الصعبة . وهل هناك أمر أصعب من الجهاد لإعلاء كلمة الله ؟ وحاصل ما في الأمر أن الجهاد بالسلاح قد أذن الله به للمسلمين على وجه الإباحة قبيل هجرته - عليه الصلاة والسلام !- أي : أباحه لهم بعد ما كان محرماً عليهم . ثم أوجبه عليهم بعد الهجرة ؛ حينما قوي إيمانهم ، وصلب عودهم ، واشتدت عزيمتهم ، ورسا بنیان صفوفهم . وهذا ما سنشيع الحديث عنه - إن شاء الله !- في موضعه الخاص به وبحكمه . وقد شرع الله للمسلمين الجهاد ، وبين لهم حكمه ، فقال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْنَتُمْهُمْ فَشْدُوا الَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَمَّا الْفِتْيَانُ الَّتِي أَعْتَلْتُمُ الْكُفْرَ فَإِنَّهُمْ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) . وقال - أيضاً - : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ۚ أَلَا تَفْقَهُونَ ۚ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ مُبَارِكُونَ ۚ فَخَرَجَ الرَّسُولُ وَهُمْ بَدَءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَخَشَوْهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ فَتِلَاوَةُ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ وَتَخْزِيرُهُمْ وَنَصْرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَكُفْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) . والمراد بأئمة الكفر في الآية الكريمة ، هم من كانت لهم الكلمة العليا والأمر المطاع في مشركي قريش ، وفي مقدمتهم أبو جهل . قال إسماعيل بن كثير : «فكان قتل أبي جهل على يدي شاب من الأنصار ، ثم بعد ذلك وقف عليه عبدالله بن مسعود ومسك بلحيته وصعد على صدره ؛ حتى قال له (أبو جهل) : لقد رقيت مرتقى صعباً يا رُوَيْعِي الغنم ! ثم بعد هذا جز رأسه واحتمله حتى وضعه بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فشفى الله به قلوب المؤمنين . فكان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة أو أن يسقط عليه سقف منزله ، أو يموت حتف أنفه . والله أعلم» (٣) .

(١) سورة «محمد» . الآية 4 .

(٢) سورة «التوبة» . الآيات 12 - 15 .

(٣) ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية ج 3 ص 196 .

## بيعة العقبة الثانية

لَمَّا فشا الإسلام في الأنصار، اتَّفَق جماعة منهم على المسير إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مستخفين لا يشعر بهم أحد، فساروا إلى مكة في موسم ذي الحجة مع كفار قومهم، فاجتمعوا به وواعدوه أوسط أيام التشريق بـ «العقبة». فلَمَّا كان الليل خرجوا مع مُضيِّ ثلثه مستخفين يتسلَّلون حتى اجتمعوا بالعقبة وهم سبعون رجلاً<sup>(1)</sup> وامرأتان: نُسيَّة بنت كعب أم عُمارة، وأسماء أم عمرو بن عديّ من بني سَلَمَة وجاءهم رسول الله ومعه عمّه العباس بن عبد المطلب، وهو لا يزال كافراً؛ ولكنه أحبّ أن يتوثق لابن أخيه، وكان أوّل من تكلم فقال: يا معشر الخزرج! إنّ محمداً منا حيث قد علمتم في عزٍّ ومنعة، وإنّه قد أبى إلاّ الانقطاع إليكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ومانعوه فأنتم وذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه، فمن الآن فدعوه، فإنّه في عزّة ومنعة. قال الأنصار: قد سمعنا ما قلت؛ فتكلّم يا رسول الله وخُذ نفسك وربك ما أحببت. فتكلّم وتلا القرآن ورغب في الإسلام، ثمّ قال: «تمنعوني ممّا تمنعون به نساءكم وأبناءكم». ثمّ أخذ البراء بن معرور بيده، ثمّ قال: والذي بعثك بالحق لنمنعك ممّا تمنع منه أُرُونا، فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أهل الحرب. فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التَّيهان فقال: يا رسول الله! إنّ بيننا وبين الناس حبّالاً، وإنّا قاطعوها - يعني: اليهود - فهل عسيت إن أظهرك الله عزّ وجلّ أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: «بل، الدّم، الدّم، والهدم، الهدم؛ أنتم منّي، وأنا منكم، أسالم من سالتهم، وأحارب من حاربتهم». وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أخرجوا إليّ اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم». فأخرجوهم: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس». فقال رسول الله: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي». قالوا: نعم. وقال لهم العباس بن عبادة بن نَضْلَة الأنصاري: يا معشر الخزرج! هل تدرون علام تباعون هذا الرجل! تباعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبةً، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن؛ فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له، فخذوه؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله؟ قال: «الجنة». قالوا: أبسط يدك، فبايعوه. وما قال العباس بن عبادة ذلك إلاّ ليشدّ العقد له

(1) قال عبد الملك بن هشام وإسماعيل بن كثير: هم ثلاثة وسبعون رجلاً وعدد أسماء هم.

عليهم . وقيل : بل ؛ قاله ليُوخِرَ الأمر ، ليحضر عبدالله بن أبيّ بن سلول (الخزرجي) <sup>(1)</sup> ، فيكون أقوى لأمر القوم . فكان أول من بايعه أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، وقيل : أبو الهيثم بن التَّيهان ، وقيل : البراء بن معرور . ثم تتابع القوم فبايعوا . فلماً بايعوه صرخ الشيطان من رأس «العقبة» : يا أهل الجبابب <sup>(2)</sup> ! هل لكم في مُدَمَّم <sup>(3)</sup> والصُّبَّة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «أَمَا وَاللَّهِ لَأَفْرَغَنَّ لَكَ أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ» . ثم قال : «ارْقُضُوا إِلَيَّ رَحَالَكُمْ» . فقال له العباس بن عباد : والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لَنَمِيلَنَّ غداً على أهل «منى» بأسِافنا . فقال : «لَمْ تُؤْمَرْ بِذَلِكَ» . فرجعوا . فلماً أصبحوا جاءهم جَلَّة قريش فقالوا : قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حيٍّ من أحياء العرب أبغضُ إلينا أن تشب بيننا وبينهم الحرب منكم . فَحَلَفَ مَنْ هُنَاكَ مِنْ مُشْرِكِي الْأَنْصَارِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٍ . فلماً سار الأنصار من مَكَّة ، قال البراء بن معرور : يا معشر الخزرج ! قد رأيت أن لا أستدبر الكعبة في صلاتي . فقالوا له : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يستقبل الشام ، فنحن لا نخالفه ، فكان يصلي إلى الكعبة ، فلماً قدم مَكَّة سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عن ذلك ، فقال : «لَقَدْ كُنْتُ عَلَى قَبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتُ عَلَيْهَا» . فرجع إلى قبلة رسول الله . فلماً بايعوه ورجعوا إلى المدينة ، كان قدومهم في ذِي الْحِجَّة ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بِمَكَّةَ بَقِيَّةَ ذِي الْحِجَّة ، والمحرم ، وصفر ، وهاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول ، وقدمها لاثني عشرة ليلة خلت منه . وقد كانت قريش لما بلغهم إسلام مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَنْصَارِ اشْتَدُّوا عَلَى مَنْ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وحرصوا على أن يفتنهم ، فأصابهم جهد شديد ، وهي الفتنة الآخرة ؛ وأما الأولى فكانت قبل هجرة الحبشة . وكانت البيعة في هذه العقبة على غير الشروط في العقبة الأولى ؛ فَإِنَّ الْأُولَى كَانَتْ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاء <sup>(4)</sup> ، وهذه البيعة كانت على حرب الأحمر والأسود . ثم أمر النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم !- أصحابه

(1) هو رأس المنافقين في الإسلام من أهل المدينة ، المشهور بابن سلول ، وسلول جدته لأبيه ، من قبيلة خُزاعة . مات سنة 9 هـ .

(2) «الجبابب» : جاء في القاموس المحيط : الجبابب : الطُّبْل ، وجبال مَكَّة أو أسواقها ، ومنحدر بمنى تلقى به الكروش ، والضَّخَام من الإبل ؛ ولعل القصد بذلك الضخام من الإبل وقد فسرها ابن هشام بالنازل .

(3) يقصد به رسول الله - عليه الصلاة والسلام !- وقد تقدم حديثنا عن هذا اللقب المرفوض شرعاً وعرفاً ، عند ذكر أم جميل زوجة أبي لهب ، لعهما الله وأخزاهما في الدنيا والآخرة .

(4) «على بيعة النساء» : مثل بيعة النساء ، الخالية من التزامهن وإلزامهن بالحرب ، مثل التزام الرجال وإلزامهم بها منذ البيعة الثانية إلى يوم الدين .

بالهجرة إلى المدينة، فكان أول من قدمها أبو سَلَمَة بن عبد الأسد، وكانت هجرته قبل البيعة بسنة، ثم هاجر بعده عامر بن ربيعة حليف بني عديّ مع امرأته ليلى بنت أبي حَشَمَة، ثمّ عبد الله ابن جحش ومعه أخوه أبو أحمد وجميع أهله، فأغْلَقَتْ دارهم، وتتابع الصحابة، ثم هاجر عمر ابن الخطّاب، وعباس بن أبي ربيعة فنزلا في بني عَمْرُو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام، والحرث بن هشام إلى عِيَّاش بن أبي ربيعة بالمدينة، وكان أخاهما لأُمّهما، فقالا له: إنّ أمّك قد نذرت أنّها لا تستظلّ ولا تمتشط. فرق لها وعاد. وتتابع الصحابة بالهجرة إلى أن هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -<sup>(1)</sup>.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أنّ انتشار الإسلام وقيامه قد كانا بالموعظة الحسنة والكلمة الطيبة، وترك الاختيار ومطلق الحرية لمن دعي إليه، وهذا ما أثبتته رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بلين دعوته وطيب كلماته في مختلف قبائل العرب المشركين؛ رغم عنادهم وغلظتهم، واستمرارهم فيما كان عليه آبائهم من عبادة الأوثان والإشراك بالديان. وقد اتّبع سنة رسول الله في مضمار دعوته، أولئك الدعاة من أصحابه. منهم: مُصْعَب بن عُمَيْر؛ حينما قال لأُسَيْد بن حُضَيْر المشرك: أوّ تجلس فتسمع؛ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره، فقال أُسَيْد: أنصفت، ثم جلس، فكلّمه مصعب بالإسلام، فقال: ما أحسن هذا وأجلّه، فأسلم وحسن إسلامه! وبهذا النّمط من الأسلوب النبويّ أسلم سَعْد بن معاذ على يد مُصْعَب بن عُمَيْر أيضاً! وبهذا الأسلوب كذلك دخل الناس في دين الله أفواجا. وظاهرة هذا الدّخول المتواتر من أهل المدينة المنورة، سببها أن الدعوة الإسلامية كانت بالتي هي أحسن، والصّدّع بها كان خالياً من آية بادرة توحّي بإرغام النّاس عليها. وهذا ما حفظه لنا تاريخ الإسلام بأمانة الرواية الصادقة في أمرين اثنين:

**الأمر الأوّل:** أنّ بيعة الأنصار الأولى من الرّجال عند العقبة لرسول الله، كانت على بيعة النّساء. ومعنى «بيعة النّساء»: أنّ أصحابها ليسوا مأمورين بالدّفاع عن الدّعوة الإسلامية ونشرها بأيّة وسيلة كانت من وسائل الإرغام على الدخول في دين الإسلام.

(1) المصدر السابق. ج 2 ص 98 - 101.

**الأمر الثاني :** امتناع رسول الله عن استعمال القوة في دعوته ؛ وذلك حينما قال له سعد ابن معاذ : والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لنميلنّ غداً على أهل منى بأسيفنا ، فقال له : «كَمْ نُؤْمَرُ بِذَلِكَ» .

**العبرة الثانية :** أن التاريخ البشري لم يكتب لسواد الناس على وجه العموم والإطلاق ؛ وإنما يكتب للرؤساء والملوك والوجهاء والقادة وكل من كانت له الكلمة العليا والأمر المطاع في أقوامهم وشعوبهم . فعلى هذا الأساس ، كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يبدؤون في دعوتهم إلى الإسلام برؤساء قبائل العرب وأشرفهم ، لأنهم مسموعو الكلمة ، مطاعون فيما يأمرهم به أقوامهم . وهذا ما نلاحظه جلياً في قول سعد بن معاذ لقومه - حينما اهتدى إلى الإسلام - : «يا بني عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمري فيكم؟» قالوا : سيدنا وأفضلنا . قال : «فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام ؛ حتى تؤمنوا بالله ورسوله» . قال الراوي : فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة ؛ إلا مسلماً ومسلمة . ولعل الحكمة في جعل رسول الله النّقاء على من بايعوه من أهل المدينة ، يعود إلى الائتمار بأمرهم . و«الناس على دين ملوكهم»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الثالثة :** أن ما أَرادَه الله بأهل المدينة المنورة قد جاء مُخيّباً لتخمينات اليهود ومخالفاً لما كانوا ينتظرونه من إرسال الله نبياً منهم ، فيتبعونه ويقتلون معه العرب قتل عاد وإرم ! ولكنهم قد سقطَ في أيديهم بإرسال الله نبياً من العرب الشرفاء ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾<sup>(2)</sup> .

**العبرة الرابعة :** أن الوفاء بالعهد كان من شيم العرب ؛ بل كان فيهم صفة مشبهة ملازمة لهم من المهد إلى اللحد ؛ رغم أنّهم مشركون . وهذا ما فهمنا من قول البراء بن معرور لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا<sup>(3)</sup> ، فبايعنا يا رسول الله ! فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر ؛ فاعترض قوله أبو الهيثم ابن التيهان بقوله : يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرجال حباً ؛ والمراد بالحبال هنا العهود التي بينهم وبين اليهود .

(1) هذه الحكمة قالها عبد الرحمن بن خلدون ؛ نقلاً عن الفيلسوف «أرسطو» .

(2) سورة «الأنعام» . الآية 124 .

(3) كناية عن نسائهم وأنفسهم .

**العبرة الخامسة:** أن تحديد عدد النّقاء باثني عشر نقيّاً، كان من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - اقتداءً بميثاق نّقاء قوم موسى بن عمران - عليه السلام! - قال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾<sup>(1)</sup>.

**العبرة السادسة:** أن الرسول - عليه الصلاة والسلام! - كان لا يصفاح النساء عند المبايعة. قال عبد الملك بن هشام: «إنما كان يأخذ عليهنّ، فإذا أقررن، قال: «أَذْهَبْنَ فَقَدْ بَايَعْتُنَّ».

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن المبايعة التزام من المبايع بما بايع به وقبول من المبايع له بمضمون صيغة البيعة. وهذا ما دلّ عليه وأثبتته مفهوم المنطوق في قول البراء بن معرور في بيعته لرسول الله: والذي بعثك بالحق لنمنعنك ممّا تمنع منه أُرزنا، وقول رسول الله - وهو يتبسّم - لمن بايعوه: «الدّم الدّم! الهدم الهدم!»<sup>(2)</sup> أنتم منّي وأنا منكم؛ أسالم من سألتم، وأحارب من حاربتم».

**الحكم الثاني:** أن اختيار النّقاء لم يكن من رسول الله - عليه الصلاة والسلام! - بل قد كان من جبريل - عليه السلام! - قال عبد الرحمن السّهيّلي: «وروي عن الزّهرّي أنّه قال: قال النّبيّ - عليه السلام! - للأوس والخزرج - حين قدّم عليهم النّقاء -: «لَا يَغْضِبَنَّ أَحَدُكُمْ فَإِنِّي أَفْعَلُ مَا أَوْمَرُ بِهِ»، وجبريل إلى جنبه يشير إليهم: واحداً بعد واحد. وروي في «المعطيّ» عن مالك ابن أنس أنّه روى في حديث النّقاء عن شيخ من الأنصار، قال: قال مالك وكنت أعجب كيف جاء هذا: رجلان من قبيلة، ورجل من أخرى حتى حدّثت بهذا الحديث: وأنّ جبريل هو الذي ولاهم وأشار على النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بهم»<sup>(3)</sup>.

**الحكم الثالث:** أن الغسل للكافر إذا أسلم ليس بواجب؛ بل مستحبّ، وليس على الكافر إذا أسلم أن ينوي رفع الجنابة، لأنّها لا حكم لها في حقّه زمان كفره. والسبب في ذلك أن الأمر بالغسل من الجنابة لاستباحة الصلاة، والكافر لا يصلّي؛ وإن صلّى لا تُقبل منه صلاته، لأنّ قبولها منه مشروط بإيمانه. فعلى هذا الأساس إن أمر مُصعّب بن عُمر لسعد بن معاذ ولأسيّد ابن حضير بالاغتسال عند إسلامهما، كان استحباباً لهما، وليس واجباً عليهما.

(1) سورة «المائدة». الآية 12.

(2) قال عبد الملك بن هشام: أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم.

(3) روض الأثف. ج 4 ص 124.



**الحكم الرابع :** أن صلاة البراء بن معرور تجاه الكعبة قبل نزول الوحي بذلك كانت صلاة مقبولة رغم تركه قبلة بيت المقدس ، لإقرار رسول الله له على ذلك ، ولم يأمره بإعادة صلاته ؛ بل لم يزد على قوله له حين سأله : « كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ كَوُ صَبَرْتَ عَلَيْهَا » . والسبب في عدم أمره بإعادة صلاته التي صلاها إلى الكعبة قبل نزول الوحي بذلك أنه كان متأولاً . وإلى هنا أضع نقطة النهاية للفصل الثاني من حياته المباركة ؛ - عليه الصلاة والسلام ! - ما دام القرآن يُتلى والسنة تُستقصى ، والعقل سليم في صاحبه .

## **الفصل الثالث**

**حياة رسول الله من بدء هجرته إلى وفاته  
عليه الصلاة والسلام**



## ما هي الهجرة؟

الهجرة: من هاجر مهاجرة وهجرة. ولها مدلولان اثنان بالنسبة إلى موضوعنا. أحدهما لغوي، والثاني اصطلاحياً.

فالمدلول اللغوي: يتفرّع إلى معنيين اثنين:

أحدهما: الترك والقطع، والصرم، والإهمال للشيء، والإعراض عنه، وكلّ ما في معنى ذلك.

ثانيهما: مطلق الخروج من أرض إلى أخرى. قال مرتضى الزبيدي - في «تاج العروس» - مازجاً كلامه بكلام محمد الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط: «هجره يهجره هجراً بالفتح، وهجراناً بالكسر: صرّمه وقطعه. والهجر ضدّ الوصل - وهجر الشيء يهجر: تركه، وأغفله، وأعرض عنه». ومنه حديث أبي الدرداء: «لا يسمعون القرآن إلّا هجراً»؛ يريد الترك له، والإعراض عنه. والهجرة - بالكسر والضمّ - الخروج من أرض إلى أرض أخرى، وقد هاجر. قال الأزهري: وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدويّ من باديته إلى المدن؛ يقال: هاجر الرجل إذا فعل ذلك. وكذلك كلُّ مُخْلِ لمُسْكَنه منتقل إلى قوم آخرين سكنه فقد هاجر قومه. انتهى النّصّ.

أمّا المدلول الاصطلاحيّ الشرعيّ: فقد حدّده أبو بكر، محمّد بن العربيّ بقوله: «الهجرة: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام». ثم حدّده مرّة أخرى بقوله: «الهجرة عند الإطلاق. هي الخروج من بلد الكفر إلى دار الإيمان». ثمّ أردف قائلاً: «والأسماء إنّما تحمل على مدلولها. والهجرة في الشريعة أشهر من أن تحتاج إلى بيان أو تختصّ بدليل». وإذا كان مدلول الهجرة الشرعية معروف ومشهور لدى محمّد بن العربي وأقرانه، فإنّ هناك من سواد المسلمين من لا يفقهون مدلولها وهدفها؛ ولا سيّما في عصرنا الحاضر، الذي قد أصبح الدّين فيه غربيّ الدلالة والمفهوم، وغدّت شعائره مجهولة المقاصد، محرّفة الغايات؛ بدافع الديمقراطية الإلحادية والتقدّم بها إلى وراء!! وذلك ما دفع بنا أن نصوغ تعريفاً جديداً؛ لعله يكون فيه - إن شاء الله -

بصيص من الأمل يستضيء به من لم تسبق له فكرة عن الهجرة الشرعية ولم تكن له في الحسبان . وقد وفقنا الله أن نجمل هذا التعريف في العبارة التالية : «الهجرة الشرعية هي : خروج المسلم المكلف القادر من أرض الحرب إلى أرض الإسلام ، فراراً بالكليات الستّ ، أو جهاداً في سبيل الله . فقولنا : «خروج المسلم» ، احترازاً من خروج الكافر أو الملحد . وقولنا «المكلف» ، احترازاً من غير المكلف ؛ كالصبيّ ، والمجنون . وقولنا : «القادر» ، احترازاً من العاجز عجزاً شرعاً : كالمرضى ، والمكره . وقولنا : «من أرض الحرب إلى أرض الإسلام» ، احترازاً من الخروج والنزوح من أرض الإسلام إلى أرض الحرب أو من أرض الإسلام إلى أرض الإسلام أيضاً ، أو من أرض الحرب إلى أرض الحرب كذلك . ونحن بأرض الحرب : أرض الكفر والشرك والإلحاد والظلم . وسميت هذه الأرض «أرض الحرب» ، لأن أهلها في حرب دائم وعداوة مستمرة مع المسلمين . ونعني بأرض الإسلام : أرض الإيمان والعدل . وقولنا : فراراً بالكليات الستّ ، احترازاً من الفرار بضدّها . والكليات الستّ هي : الدين أولاً ، والنفس ثانياً ، والعقل ثالثاً ، والنسل رابعاً ، والمال خامساً ، والعرض سادساً . فالدين أوّل المراتب ، والعرض آخرها . فحفظ العرض واجب ما لم يعارضه حفظ المال . وحفظ المال واجب ما لم يعارضه حفظ النسل . وحفظ النسل واجب ما لم يعارضه حفظ العقل . وحفظ العقل واجب ما لم يعارضه حفظ النفس . وحفظ النفس واجب ما لم يعارضه حفظ العرض ، وقولنا : أو جهاداً في سبيل الله ، احترازاً من الخروج للقتال في غير سبيل الله ولغير إعلاء كلمة الله . فمن خلال تعريفنا هذا يتّضح للقراء والسامعين حيّاً أنّ الهجرة قد شرّعت لغرضين اثنين :

**أحدهما : الفرار بالكليات الستّ .**

**ثانيهما : الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته .**

وهذا ما أشبعنا الكلام عنه في كتابنا : «الهجرة من الأقطار الإسلامية إلى الأقطار

الإفريقية في ميزان الإسلام» .

### **الحكم الشرعيّ في الهجرة**

لا ارتياب في أنّ الهجرة الشرعية تعتريها الأحكام الخمس : الوجوب ، والتدب ،

والحرمة ، والكراهة ، والإباحة .

## الحكم الأول: الوجوب

تجب الهجرة عندما يصبح المسلم مضطهداً في دينه ، عاجزاً عن دفع الأذى عن نفسه وعقله ونسله وماله وعرضه ودينه . والأصل في وجوب الهجرة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ أَتَمَّ لِمَن ظَلَمُوا أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْسَ لَكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٧٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٧٨ قَالُوا لَيْسَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ۝٧٩ ﴾ \* وَمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١﴾ . ومن الملحوظ في هذه الآيات الكريمات ترهيب وترغيب ، وتبشير وإنذار .

فالترهيب والإنذار لمن ترك الهجرة عند وجوبها عليه شرعاً ، والترغيب والتبشير لمن هاجر في سبيل الله ، وامثل أوامر الله ورسوله ونواهيها في السراء والضراء والشدة والرخاء حسب المستطاع : قصداً وقولاً وفعلًا . قال نصر الدين عبدالله البضاوي في تفسيره : « وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه » . وعن النبي - صلى الله عليه وسلم ! : « مَنْ فَرَّ بدينه من أرض وإن كان شبراً من الأرض وجبت له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ؛ - عليهما الصلاة والسلام ! » . وقد وردت عدة أحاديث نبوية في وجوب الهجرة من أرض الكفر والظلم إلى أرض الإسلام والعدل ، وفي وجوب الابتعاد عن الكفرة ومعاشرتهم ومساكنتهم . وقد أوردنا ذلك روايةً ودرايةً في كتابنا : « الهجرة من الأقطار الإسلامية إلى الأقطار الإفرنجية في ميزان الإسلام » ؛ باللغتين : العربية والفرنسية .

## الحكم الثاني: الندب

وتندب الهجرة من دار الإسلام إلى دار الإسلام ؛ متى كانت الدار المهاجر إليها أكثر حرية وعدالة وتطبيقاً للشريعة الإسلامية .

## الحكم الثالث: الحرمة

وتحرم الهجرة من دار تمكن المسلمون فيها من تأدية دينهم وتطبيق شريعتهم بحرية كاملة ، إلى دار لا يتمكنون فيها من تأدية دينهم وتطبيق شريعتهم بحرية .

(1) سورة «النساء» . الآية 97-100 .

## الحكم الرابع: الكراهة

وتكره الهجرة من دار إسلام إلى دار إسلام أخرى؛ متى كانت الدار المهاجر إليها أقل حرية وعدالة وتطبيقاً للشريعة من الدار المهاجر منها.

## الحكم الخامس: الإباحة

وتباح الهجرة من دار الإسلام إلى دار إسلام أخرى؛ متى استوت هذه بتلك في الحرية الدينية والعدالة الإسلامية. أما إذا لم تستويا في ذلك، فالهجرة إلى الدار الأكثر حرية وعدالة تكون أحسن، وأفضل الهجرة إليها والمقام بها سنناً.

## هجرة الأنبياء

### أ - هجرة النبي إبراهيم

لعل أول هجرة شرعية سجلتها لنا التاريخ؛ هي هجرة النبي إبراهيم الخليل - عليه السلام! - حينما هاجر من أرض العراق إلى أرض الشام، إذ هاجر بـ «سارة» امرأته وابنة عمه وبابن أخيه لوط - عليه السلام! - وذلك لما خاف إبراهيم على نفسه من قومه قال الله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(1)</sup>. أي: إِنِّي مُهَاجِرٌ مِنْ أَرْضِ قَوْمِي إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي رَبِّي. وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾<sup>(2)</sup>. أي: وقال إبراهيم: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي رَبِّي مُهَاجِراً إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ، وَسَيَهْدِينِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَمَرَنِي بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهِ؛ وَهُوَ الشَّامُ؛ حَيْثُ انْفَرَدَ فِيهِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الهجرة إلى أرض الشام.

### ب - هجرة النبي موسى

وهاجر النبي موسى - عليه السلام! - من مصر إلى مدين حينما خاف من قومه وإذابة فرعون. قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَنْمُو سَيِّئُ الْمَلَأُ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢٢﴾. أي:

(1) سورة «العنكبوت». الآية 26.

(2) سورة «الصافات». الآية 99.

(3) سورة «القصص». الآية 20 - 22.

وجاء رجل من آل فرعون مؤمن بما آمن به موسى ؛ فجاء من آخر المدينة ومن أبعد مكان فيها يسرع في مشيه عن طريق أقرب من طريقهم المعتادة فقال : يا موسى ! إن وجهاء القوم من آل فرعون يتشاورون فيك ليقتلوك ويقتلوك ، فاخرج من المدينة إني لك من الناصحين ؛ من حيث أمري لك بالخروج . فخرج موسى منها خائفاً يتلفت من أجل لحوق طالب وراءه يطلبه .

### ج - هجرة المسلمين إلى الحبشة

كانت أول هجرة في الإسلام هجرة جماعة من مكة إلى الحبشة برئاسة عثمان بن مظعون وبأمر رسول الله ؛ - صلى الله عليه وسلم - . وقد تقدم لنا أن ذكرنا هذه الهجرة بما فيه كفاية .

### هجرة رسول الله وأصحابه من مكة إلى المدينة

وقد تمت هذه الهجرة على مرحلتين اثنتين :

**المرحلة الأولى :** هجرة الصحابة - رضي الله عنهم - . وأول صحابي هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف . قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق : « فلما انصرف عنه - صلى الله عليه وسلم - القوم الذين بايعوه البيعة الأولى بالعقبة ، بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن مناف بن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ؛ فكان يُسمى المقرئ بالمدينة مصعب . وكان منزله على سعد بن زرارة بن عدس بن أمامة . قال محمد بن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه كان يُصلي بهم ؛ وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض » . وبعد هجرة مصعب كانت هجرة أبي سلمة المخزومي مباشرة . قال عبد الملك بن هشام : « فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المهاجرين من قريش من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، واسمه عبد الله ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة الثانية بسنة . وكان قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة من أرض الحبشة . فلما أذنته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً . وقد تبين لنا من خلال نص ابن هشام أن أبا سلمة عبد الله المخزومي ، هو أول المهاجرين من مكة إلى المدينة ؛ وليس مصعب ابن عمير ، لأن هذا الأخير لم يكن من المضطهدين في دينهم بمكة » .



**المرحلة الثانية :** هي هجرة رسول الله - عليه الصلاة والسلام !-، ولحق به كل من آمن به وصدق برسالاته . وهذه الهجرة هي التي بقيت فرضاً مفروضاً على كل مكلف ومكلف من المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة . وهي التي انقسم فيها المسلمون إلى ثلاث طوائف :

فطائفة تقاعست عنها وعزّ عليها أن تفارق مسقط رأسها ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ أَنْفُسُهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ <sup>(1)</sup> .

وطائفة أرادت الهجرة ؛ ولكنها وجدت نفسها عاجزة مستضعفة ، لا حول لها ولا قوة ، فأنزل الله فيها : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ <sup>(2)</sup> فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ۝ <sup>(2)</sup> .

وطائفة قد هاجرت ، وفارقت مسقط رأسها على حبها له حباً جمّاً ؛ وذلك امتثالاً لأمر الله وابتغاء لمرضاته ، فأنزل الله فيها : ﴿ وَمَنْ يَهِجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا <sup>(3)</sup> كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ مَخْرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ <sup>(4)</sup> .

وباسم هذه الطائفة المخلصة في هجرتها ، أخذ الرواة والمؤرخون ينقلون ويسجلون كل ما وصلهم مما دار على محور الهجرة والمهاجرين . قال علي بن الأثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق بشيء من الاختصار :- « لما تتابع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بالهجرة ، أقام - هو - بمكة ينتظر ما يؤمر به من ذلك ، وتخلّف معه علي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق . فلما رأت قريش ذلك ، حذروا خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ، فاجتمعوا في «دار الندوة» ؛ وهي دار قصي بن كلاب ، وتشاوروا فيها ، فدخل معهم إبليس في صورة شيخ . وقال : أنا من أهل نجد سمعتُ بخبركم فحضرتُ وعسى أن لا تعدموا منّي رأياً . وكانوا : عتبة ، وشيبة ، وأبا سفيان ، وطعيمة بن عدي ، وحبيب بن مطعم ، والحارث بن عامر ، والنضر بن الحارث ، وأبا البختري بن هشام ، وربيع بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، وأبا جهل ، ونُبَيْهَا ، ومُبَيْهَا ابني

(1) سورة «النساء» . الآية 97 .

(2) سورة «النساء» . الآية 98 - 99 .

(3) «مراعماً» : متحولاً ومذهباً في الأرض .

(4) سورة «النساء» . الآية 100 .

الحجاج، وأمّية بن خلف، وغيرهم. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما كان، وما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه، فأجمعوا فيه رأياً، فقال بعضهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب الشعراء قبله. فقال النجدي (إبليس): ما هذا لكم برأي؛ لو حبستموه يخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينزعه من أيديكم. فقال آخر: نخرجه وننفيه من بلدنا ولا نبالي أين وقع إذا غاب عنا. فقال النجدي (إبليس): ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقته؟! لو فعلتم ذلك لحلّ على حيّ من أحياء العرب، فيغلب عليهم بحلاوة منطقته، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم ويأخذ أمركم من أيديكم. فقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كلّ قبيلة فتى نسيباً، ونعطي كلّ فتى منهم سيفاً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه؛ فإذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل كلّها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ورضوا منا بالعقل<sup>(1)</sup>. فقال النجدي (إبليس): القول ما قال الرجل: هذا الرأي؛ فتفرّقوا على ذلك. فأتى جبريل النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فقال: لا تبت الليلة على فراشك. فلما كانت العتمة<sup>(2)</sup> اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيشون عليه. فلما رآهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لعلّي بن أبي طالب: «نم على فراشي واتّشح ببردي الأخضر، فَنَمَ فِيهِ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُصُ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ». وأمره أن يؤدّي ما عنده من وديعة وأمانة وغير ذلك. وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذ حفنة من تراب فجعله على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من القرآن: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ<sup>(3)</sup>. ثم انصرف فلم يروه، فاتاهم أت فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً. قال: خيِّكم الله! خرج عليكم ولم يترك أحداً منكم إلا جعل على رأسه التراب وانطلق لحاجته! فوضعوا أيديهم على رؤوسهم فراوا التراب، وجعلوا ينظرون فيرون عليّاً نائماً وعليه برد النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فيقولون: إن محمداً لنائم، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. فقام عليّ

(1) «بالعقل». الدّية.

(2) «العتمة»: ثلث الليل الأوّل بعد مغيب الشفق.

(3) سورة «يس». الآيات 1 - 9.

عن الفراش، فعرفوه، وأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾<sup>(1)</sup>. وسأل أولئك الرهط علياً عن النبي - صلى الله عليه وسلم! فقال: لا أدري، أمرتموه بالخروج فخرج. فضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه، ونجى الله رسوله من مكرمهم وأمره بالهجرة، وقام عليّ يؤدّي أمانة النبي - صلى الله عليه وسلم! - ويفعل ما أمره به، وقالت عائشة: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لا يخطئه أحد طرفي النهار أن يأتي بيت أبي بكر: إمّا بكرة أو عشية، حتى كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله بالهجرة فاتاناً بالهاجرة، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل جلس على السرير وقال: «أُخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». قال: يا رسول الله! إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ». قال أبو بكر: الصُّحْبَةُ يا رسول الله! قال: الصُّحْبَةُ، فبكى أبو بكر من الفرح، فاستأجرا عبدالله بن أريقط، من بني الدّيل بن بكر، وكان مشركاً، يدلّهما على الطريق، ولم يعلم بخروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - غير أبي بكر، فأما عليّ فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أن يتخلف حتى يؤدّي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الودائع التي كانت عنده ثمّ يلحقه. وخرجا من خَوْخَة<sup>(2)</sup> في بيت أبي بكر في ظهر بيته، ثمّ عمداً إلى غار «ثور»<sup>(3)</sup> فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبدالله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثمّ يأتيهما ليلاً، وأمر عامر بن فُهَيْرَة موله أن يرعى غنمه نهاره ثمّ يأتيهما بها ليلاً، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بطعامهما مساءً، فأقاما في الغار ثلاثاً. وجعلت قريش مائة ناقة لمن رده عليهما، كان عبدالله بن أبي بكر إذا غدا من عندهما، اتّبع عامر بن فُهَيْرَة أثره بالغنم حتى يُعَقَى عليه. فلما مضت الثلاث وسكن الناس، أتاهما دليلهما ببيعريهما، فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أحدهما بالثمن فركبه، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسُفرتَهما<sup>(4)</sup>. ونسيت أن تجعل لها عصاماً فحلّت نطاقتها فجعلته عصاماً<sup>(5)</sup> وعلّقت السّفرة به،

(1) سورة «الأنفال». الآية 30.

(2) «خوخة»: كوة تؤدّي الضّوء إلى البيت.

(3) «ثور»: جبل بمكة فيه الغار المذكور.

(4) «السّفرة»: طعام المسافر.

(5) «عصاماً»: حبلاً تُشدّ به السّفرة وتعلق بظهر حاملها.

وكان يقال لأسماء: «ذات النطاقين»<sup>(1)</sup> لذلك. ثم ركبوا سارا، وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فُهَيْرَة يخدمهما في الطريق، فساروا ليلتهم ومن الغد إلى الظهر، ورأوا صخرة طويلة، فسوى أبو بكر عندها مكاناً، ليقيل فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وليستظلّ بظلها، فنام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وحرسه أبو بكر حتى رحلوا بعد ما زالت الشمس. وكانت قريش قد جعلت لمن يأتي بالنبي - صلى الله عليه وسلم! - دية، فتبعهم سُرَاقَةُ بن مالك بن جُعْشَم المَدَلْجِيّ، فلحقهم وهم في أرض صَبْلة، فقال أبو بكر: يا رسول الله! أدركنا الطلب! فقال: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»<sup>(2)</sup>. ودعا عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فارتطمت فرسه إلى بطنها وثار من تحتها مثل الدخان، فقال: ادع لي يا محمد! ليخلصني الله ولك عليّ أن أردّ عنك الطلب، فدعا له فتخلص، فعاد يتبعهم، فدعا عليه الثانية فساخت قوائمه فرسه في الأرض أشدّ من الأولى، فقال: يا محمد! قد علمت أنّ هذا من دعائك عليّ، فادع لي ولك عهد الله أن أردّ عنك الطلب، فدعا له فخلص وقرب من النبي - صلى الله عليه وسلم! - وقال له: يا رسول الله! خذْ سهماً من كنانتي وإنّ إبلي بكأن كذا فخذ منها ما أحببت. فقال: لا حاجة لي في إبلك. فلما أراد أن يعود عنه قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: كيف بك يا سُرَاقَةُ إذا سُورَتْ بسواري كسرى؟ قال: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم. فعاد سُرَاقَةُ، فكان لا يلقاه أحد يريد الطلب إلّا قال: كُفَيْتُمْ، ما هاهنا، ولا يلقى أحداً إلّا ردّه. قالت أسماء بنت أبي بكر: لما هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أتاننا نفر من قريش فيهم أبو جهل، فوقفوا على باب أبي بكر فقالوا: أين أبوك؟ قلت: لا أدري، فرفع أبو جهل يده فلطم خدي لطمة طرح قُرْطِي، وكان فاحشاً خبيثاً. ومكثنا ملياً لا ندري أين توجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى أتى رجل من الجنّ من أسفل مكة والناس يتبعونه يسمعون صوته ولا يرون شخصه وهو يقول:

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ      رَفِيقَيْنِ حَلًّا خِيَمَتِي أُمَّ مَعْبَدٍ<sup>(3)</sup>  
هُمَا نَزَلَا بِالْهَدْيِ وَاعْتَدَيَا بِهِ      فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدٍ

(1) «النطاق»: ما تشدّ به المرأة وسطها من حبل فترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة؛ ويطلق على الإزار الذي فيه نُكَّةٌ تانز به المرأة.

(2) فيه إشارة إلى الآية الأربعين من سورة التوبة: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا».

(3) منادى محذوف حرف النداء.

لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ<sup>(1)</sup> مَكَانُ قَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدٍ

قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا أن وجهه كان إلى المدينة. وقدم بهما دليلهما قُباء، فنزل على بني عَمْرُو بن عوف لاثني عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الإثنين؛ حين كادت الشمس تعتدل، فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على كُثُوم بن الهذم، أخي بني عَمْرُو بن عوف، وقيل: نزل على سَعْد بن خَيْثَمَة، وكان عَزَبًا، وكان ينزل عنده العُزَاب من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم! - وكان يقال لبيته: «بيت العُزَاب». والله أعلم.

نزل أبو بكر على خُبَيْب بن إساف بـ «السُّجج»، وقيل: نزل على خارجة بن زيد، أخي بني الحارث بن الخزرج. وأما علي فإنه لما فرغ من الذي أمره به رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - هاجر إلى المدينة، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى قدم المدينة وقد تفتّرت قدماه، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم! -: «ادْعُوا لِي عَلِيًّا». قيل: لا يقدر أن يمشي. فأتاه النبي - صلى الله عليه وسلم! - واعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وتقل في يديه وأمرهما على قدميه، فلم يشكهما بعد حتى قُتل. ونزل بالمدينة على امرأة لا زوج لها<sup>(2)</sup>، فرأى إنساناً يأتيها كل ليلة ويُعطِيها شيئاً، فاستراب بها، فسألها عنه فقالت: هو سهل بن حنيف، قد علم أنني امرأة لا زوج لي، فهو يكسر أصنام قومه ويحملها إليّ ويقول: احتطبي بهذه. فكان عليّ يذكر ذلك عن سهل بن حنيف بعد موته. وأقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بـ «قُباء» يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدها؛ وهو المعروف بمسجد قُباء. وقد جدد بناءه عبد الحميد الأول في القرن الثاني عشر للهجرة، وقد أقيمت في وسطه قبة على مباركته - عليه الصلاة والسلام! - وهذا المسجد هو أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه. ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من قُباء يوم الجمعة. وقيل أقام بها أكثر من ذلك. والله أعلم. وأدركت الجمعة رسول الله في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي ببطن الوادي، فكانت أول جمعة بالمدينة، وأول خطبة خطبها في صلاة الجمعة هناك. جاء فيها حَسْبَ المنقول: «الحمد لله، أحمده وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً، عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور

(1) «أمّ معبد»: اسمها عاتكة بنت خالد من خزاعة.

(2) مسلمة.

والموعظة على فترة من الرّسل، وقلة من العلم، وضلالة من النّاس، وانقطاع من الزّمن، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل. من يُطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً. أوصيكم بتقوى الله؛ فإنّه خير ما أوصى به المسلم المسلم، ثمّ أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجَل ومخافة من ربّه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت؛ حين يفتقر المرء إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أنّ بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد. ولقد صدق قوله وأنجز وعده، لا خلف لذلك؛ فإنّه يقول: عزّ وجلّ: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السرّ والعلانية؛ فإنّ من يتق الله يُكفّر عنه سيّئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وأن تقوى الله يوقي مقتته ويوقي سخطه، وأن تقوى الله يُبيّض الوجه ويرضي الرّب ويرفع الدرجة. خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علّمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حقّ جهاده؛ هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة، ولا قوّة إلاّ بالله. فأكثرُوا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم؛ فإنّه من يصلح بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين النّاس، ذلك بأنّ الله يقضي على النّاس، ولا يقضون عليه، ويملك على النّاس ولا يملكون منه. الله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العظيم». قال ابن عبّاس: وُلد النبيّ -صلى الله عليه وسلم- يوم الإثنين، واستنّبى يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الإثنين، وهاجر يوم الإثنين، وقُبضَ يوم الإثنين. واختلف العلماء في مقامه بمكة بعد أن أُوحى إليه؛ فقال أنس بن مالك وابن عبّاس -رضي الله عنهما-: من رواية أبي سَلَمَةَ عنه وعائشة: إنّهُ أقام بمكة عشر سنين، ومثلهم قال -من التابعين- ابن المسيّب، والحسن، وعمر بن دينار. وقيل: أقام ثلاث عشرة سنة، قاله ابن عبّاس من رواية أبي جمرة، وعكرمة أيضاً. ولعل الذي قال أقام عشر سنين أراد بعد إظهار الدعوة؛ فإنّه بقي سنين يسيرة. ومّا يقوِّي هذا القول قول صرمة بن أبي أنيس الأنصاريّ -شعراً:-

نَوَى فِي فُرَيْشٍ بَضْعَ عَشْرَةَ حَجَّةً يُدْكَرُ لَوَيْلَى صَدِيقاً مُوَاتِيَا

فهذا يدل على مقامه ثلاث عشرة سنة، لأنه قد زاد على عشر سنين، فلو كان خمس عشرة سنة لصحّ الوزن، وكذلك ستّ عشرة سنة وسبع عشرة سنة. وحيث لم يستقم الوزن بأن يقول ثلاث عشرة، قال: «بضع عشرة». ولم يُنقل في مقامه زيادة على عشر سنين إلا ثلاث عشرة وخمس عشرة. وقد رُوِيَ عن قتادة قول غريب جداً؛ وذلك أنه قال: نزل القرآن على النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بمكة ثمانين سنين. ولم يوافق غيرُه»<sup>(1)</sup>.

### فرحة الأنصار بقُدوم رسول الله

قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق -: «... عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عوف بن ساعدة، قال: حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قالوا: كما سمعنا بمخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من مكة، وتوَكَّفنا<sup>(2)</sup> قدومه، كنّا نخرج، إذا صلّينا الصّبح، إلى ظاهر حرّتنا ننتظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا؛ وذلك في أيام حارة. حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - جلسنا كما كنّا نجلس، حتى إذا لم يبق ظلّ دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حين دخلنا البيوت، فكان أوّل مَنْ رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنّا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلَةَ! هذا جدّكم قد جاء. قال: فخرجنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو في ظلّ نخلة، ومعه أبو بكر - رضي الله عنه! - في مثل سنّه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قبل ذلك، وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظلّ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك. ثم ركب رسول الله ناقته<sup>(3)</sup> وأطلق زمامها، فتابعت سيرها من قباء إلى المدينة، وكلّ ما مرّت بحيّ اعترضها أهل الحيّ طالبين من راعيها إلحاح أن ينزل عندهم في العدد والعدّة والمنّة وهم يأخذون بزمام الناقة لتقف، فيقول لهم رسول الله: «خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ». وتكرّر ذلك الطلب

(1) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 101 - السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 4 ص 158.

(2) التوكّف: التوقّع والانتظار، والتسكُّط.

(3) وهي: القَصْواء.

منهم؛ كما تكرر قول الرسول لهم؛ حتى أتت الناقة براكبها دار بني مالك بن النجار، بركت بمريد<sup>(1)</sup> لغلامين يتيمين، اسم أحدهما: سهل، وثانيهما سهيل، وهما في حجر معاذ بن عفراء. ولما بركت تلك الناقة بقي رسول الله على ظهرها ثابتاً ولم ينزل، فوثبت وسارت به غير بعيد، ثم التفتت إلى خلفها ورجعت إلى مركبها أول مرة بالمريد، فبركت فيه، ونزل عنها رسول الله، فاحتمل رحله أبو أيوب خالد بن زيد، فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله، وسأل عن المريد لمن؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو سهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، فاتخذ رسول الله مسجداً؛ وهو أول مسجد بالمدينة. وقال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن الإمام أحمد بن حنبل -: «عن ثابت، عن أنس بن مالك، قال: أتني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئاً؛ قال: حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وصاحبه أبو بكر. فكنا في بعض خراب المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا أميين مطاعين. فأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق لَفَوْق البيوت يترأينه ويقلن: أيهم هو؟ أيهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به. قال أنس: فلقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قبض؛ فلم أرى يومين شبيهين بهما. وفي الصحيحين من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق، عن البراء، عن أبي بكر في حديث الهجرة، قال: وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله! الله أكبر جاء محمد! الله أكبر جاء محمد! الله أكبر جاء رسول الله. فلما أصبح انطلق وذهب حيث أمر... ويقول ابن عائشة<sup>(2)</sup>: لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - المدينة، جعل النساء والصبيان يقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا	مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوُدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا	مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعٌ <sup>(3)</sup>

(1) هو: كل موضع خُبِسَتْ فيه الإبل؛ وهو هنا: موضع يُجْمَع فيه التمر ويقال له - أيضاً -: المحبس؛ والجرين. يجعل فيه التمر والزرع للتيين أيضاً.

(2) هو أبو عبد الرحمن، عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي البصري؛ يقال له: ابن عائشة، لأن أمه عائشة بنت طلحة بن عبيد الله. توفي سنة 228 هـ.

(3) البداية والنهاية. ج 3 ص 196، 197.



## ما هي الأشياء التي بادر بإنجازها رسول الله؟

لقد اتفق رواة الأحاديث النبوية وكتاب السيرة المحمدية أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد بادر بإنجاز ثلاثة أمور مهمة وجديرة ببدء إنجازها بمجرد نزوله بالمدينة المنورة .

**الأمر الأول :** بناء مسجده ، فعمل فيه هو بذاته ، ليرغب المسلمين في نيل الثواب بالعمل فيه ، فدأب المهاجرون والأنصار على العمل فيه حتى قال أحدهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل لئذاك منا العمل المضلل  
وكان جميعهم يرددون إبان عملهم قولهم :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة  
فيقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - : «لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار» . وكان علي بن أبي طالب - يومئذ - يرتجز :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيه قائما وقاعدا  
ومن يرى عن الغبار حائدا

قال عبد الملك بن هشام : «سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر ، عن هذا الرجز؟ فقالوا : بلغنا أن علي بن أبي طالب ارتجز به ، فلا يدري ، أهو قائله أم غيره»<sup>(1)</sup> . وقال محمد الزركشي : «قال الزهري : بركت ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عند موضع مسجده ؛ وهو<sup>(2)</sup> يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين ، وكان مربدا لسهل وسهيل : غلامين يتيمين من الأنصار ، وكانا في حجر أسعد بن زرارة<sup>(3)</sup> ، فسأم<sup>(4)</sup> رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فيه ، فقالا : (اليتيمان) : بل نهبه لك يا رسول الله ! فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير<sup>(5)</sup> ، وكان جدارا<sup>(6)</sup> ليس له سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس . وبهذا

(1) السيرة النبوية . ج 4 ص 235 .

(2) الضمير يعود على «موضع مسجده» .

(3) وفي رواية ابن اسحاق هما في حجر معاذ بن عفراء .

(4) «فسام» : فساوم .

(5) دفعها أبو بكر من ماله .

(6) محوطا ومصونا بجدار .

احتج الحنفية على صحة التصرف من غير البالغ . وكان يصلي فيه ويجمع<sup>(1)</sup> أسعد بن زرارة؛ قبل مقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكان فيه شجر غرقد<sup>(2)</sup>، ونخل، وقبور للمشركين . فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بالقبور فنبشت، وبالنخل والشجر فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريبا من ثلاثة أذرع، ثم بنوه باللبن، وجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يبنى معهم، وينقل اللبن والحجارة بنفسه، ويقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة». وجعل قبلته من اللبن، وقيل من حجارة، وجعلها إلى بيت المقدس . وقال الحافظ الذهبي: هذه القبلة كانت في شمال المسجد، لأنه - عليه السلام! - صلى سبعة عشر شهرا إلى بيت المقدس، فلما حولت القبلة بقي حائط القبلة الأولى مكان «أهل الصفة»<sup>(3)</sup> . انتهى . وجعل له ثلاثة أبواب: بابا في مؤخره، وبابا يقال له: «باب الرحمة»، والباب الذي يدخل منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وجعل عمده الجذوع، وسقفه بالجريد، وبنى بيوتا إلى جانبه . ولما فرغ من بنائه بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد؛ وهو مكان حجرته اليوم . وقال الحافظ شمس الدين الذهبي في «بلبل الروض»: لم يبلغنا أنه - عليه السلام! - بنى له تسعة أبيات حين بنى المسجد، ولا أحسبه بعد ذلك؛ إنما كان يريد بيتا واحدا حينئذ لسودة أم المؤمنين . ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى بعائشة في شوال سنة اثنتين، وكأنه - عليه السلام! - بناها في أزمان مختلفة . وقال السهيلي: «قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت النبي - صلى الله عليه وسلم! - وأنا غلام مراهق وأناال السقف بيدي . وكان لكل بيت حجرة، وكانت حجره من أكسية من شعر مربوطة في خشب عرعر»<sup>(4)</sup> .

وورد أن بابه كان يقرع بالأظافر؛ أي: لا حلق له، فلما توفيت أزواجه خلطت البيوت والحجر بالمسجد في زمان عبد الملك بن مروان . وفي صحيح البخاري، عن ابن عمر قال: كان المسجد على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مبنيا باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر - رضي الله عنه! - شيئا، وزاد فيه عمر - رضي الله عنه! - وبناه على

(1) «ويجمع»: يقيم فيه صلاة الجمعة .

(2) الغرقد: شجر العوسج إذا نما وعظم .

(3) هم فقراء المهاجرين الذين ليس لهم مساكن يأوون إليها، فأووا إلى ظل هذا المكان بالمسجد .

(4) العرعر: شجر السرو .

بنائه في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - باللبن والجريد، وأعاد عمده خشباً. ثم غيره عثمان - رضي الله عنه! - فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة<sup>(1)</sup>، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالساج. وقال خارجة بن زيد: بنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مسجده سبعين ذراعاً في ستين ذراعاً أو يزيد. قال أهل السير: جعل عثمان طول المسجد مائة وستين ذراعاً، وعرضه مائة وخمسين، وجعل أبوابه ستة كما كانت في زمن عمر. ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك فجعل طوله مائتي ذراع، وعرضه في مقدمه مائتين، وفي مؤخره مائة وثمانين. ثم زاد فيه المهدي مائة ذراع من جهة الشام فقط؛ دون الجهات الثلاث. قال النووي - رحمه الله! -: فينبغي الاعتناء بما كان في عهده - صلى الله عليه وسلم! - فإن الحديث الوارد في فضل الصلاة في مسجده إنما يتناول ما كان في زمانه<sup>(2)</sup>.

قال محمد بن إسحاق: «وكانت أول خطبة خطبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن - نعوذ بالله أن نقول على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ما لم يقله: أنه قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس! فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليضعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه - وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه -: ألم يأتك رسولي فبلغك، وأتيتك مالا وأفضلت عليك؟! فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمره فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»<sup>(3)</sup>.

«ثم خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مرة أخرى، فقال: «إن الحمد لله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينته الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما

(1) «القصة»: الجص، الجير.

(2) الزركشي، محمد. إعلام الساجد، بأحكام المساجد، القاهرة 1402هـ. مطبعة دار الكتاب المصري. ص

(3) ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية بشرح «روض الأنف». ج 4 ص 239.

سواه من أحاديث الناس؛ إنه أحسن الحديث وأبلغه أجبوا ما أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم؛ فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفي، وقد سماه الله خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد، الصالح الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقاته، وصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم»<sup>(1)</sup>.

والجدير بالانتباه إليه أن هذا المسجد أصبح منذ ذلك العهد يسمى بـ «المسجد النبوي»، وهو ثاني مسجد بناه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - والمسجد الأول هو: «مسجد قباء» المتقدم الذكر. وقد أسسه رسول الله لبي عمرو بن عوف وعمل فيه بنفسه بوضعه حجراً في قبلته. ثم انتقل إلى المدينة المنورة. وعندما وطئت قدماه أرضها المباركة فيها وفي أهلها، أدركه وقت الصلاة؛ أي: صلاة الجمعة فصلاها في بني سالم بن عمرو بن عوف وخطب فيها خطبتين. فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة.

**الأمر الثاني:** كتاب في عقد الألفة بين المهاجرين والأنصار، وفي موادة اليهود ومصالحتهم. قال عبد الملك بن هشام وإسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق -: «وكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي - صلى الله عليه وسلم! - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب»<sup>(2)</sup>، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم؛ إنهم أمة واحدة من دون الناس؛ المهاجرون من قريش على ريعتهم<sup>(3)</sup>، يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم<sup>(4)</sup> بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى؛ بل كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعدة على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها

(1) ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية بشرح روض الأنف، ج4، ص239.

(2) «يثرب»: اسم للمدينة في الجاهلية. سميت باسم رجل من العماليق نزل بها، فعرفت باسمه ولما سكن بها رسول الله، سماها طيبة والمدينة.

(3) «على ريعتهم»: على شأنهم وعاداتهم؛ من أحكام الديات والدماء.

(4) «عانيهم»: أسيرهم.

بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً<sup>(1)</sup> بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ؛ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم<sup>(2)</sup> ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ؛ ولو كان ولد أحدهم ؛ ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ؛ وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ؛ إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ؛ وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط<sup>(3)</sup> مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود<sup>(4)</sup> به ؛ إلا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً ، ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف<sup>(5)</sup> ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا

(1) «مفرحاً» : مثقلاً بالدين .

(2) «دسيعة ظلم» : الدسيعة : العطية الجزيلة .

(3) «اعتبط» : الاعتبار : القتل ظلماً ؛ عن قصاص .

(4) القود : القصاص ، أي : قتل النفس بالنفس .

(5) الصرف - هنا - : الفدية .

محاريين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين؛ لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم: مواليهم وأنفسهم؛ إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ<sup>(1)</sup> إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف؛ إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم؛ وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف؛ وإن البردون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم؛ إن بطانة يهود كأنفسهم؛ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد - صلى الله عليه وسلم -. وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته؛ إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبردون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاريين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم -. وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قریش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه، فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين؛ إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس: مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وإن البردون الإثم؛ لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة؛ إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر وأتقى، ومحمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

**الأمر الثالث:** المواخاة بين المهاجرين والأنصار. لقد حظي المهاجرون والأنصار بحظوة رابطة الأخوة الإسلامية؛ تلك الأخوة التي لم تنفصم عراها المستحكمة بإرادة الله وقدرته؛ ما دام

(1) «لا يوتغ»: لا يوبق ويهلك.

المتآخون في الله راضين بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً . فعلى أساس هذا الرضى المبين والإيمان المتين ، بادر رسول الله - عليه الصلاة والسلام !- بعد ما تلا حق به من أسلم من أهل مكة ، ولم يتخلف بها منهم إلا مفتون أو محبوس إلى استحكام جبل أخوة التآلف والارتفاق بين المهاجرين والأنصار على وجه الخصوص ، وبين أصحابه على وجه العموم . قال محمد بن إسحاق : «وأخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال - فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل - : «تآخوا في الله أخوين أخوين» ، ثم أخذ بيد علي ابن أبي طالب فقال : «هذا أخي» ، فكان رسول الله . . . وعلي بن أبي طالب أخوين . وكان حمزة ابن عبد المطلب . . . وزيد بن حارثة - مولى رسول الله أخوين - وإليه أوصى حمزة يوم أحد<sup>(1)</sup> - وكان جعفر بن أبي طالب - ذو الجناحين<sup>(2)</sup> - ومعاذ بن جبل أخوين . وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين . وعمر بن الخطاب وعثمان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح وسعد بن معاذ ابن النعمان أخوين . والزيبر بن العوام وسلامة بن سلامة أخوين . وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين . وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد وأبي بن كعب أخوين . ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين . وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين . وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو أخوين . وكان حاطب ابن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين : وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين . وبلال مولى أبي بكر وأبو رويحة عبد الله أخوين . فهؤلاء من سمي لنا ممن كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أخى بينهم من أصحابه»<sup>(3)</sup> . وهكذا قدر الله أن تتشرف المدينة بمحمد - عليه الصلاة والسلام !- وبأصحابه ، كما اختارها الله أيضاً أن تكون مهجراً ومستقراً لهم ، ومعقلاً لأولياء الله وأحبابه وموقداً دائماً لجسد رسول الله الطاهر حياً وميتاً . وفي فضل المدينة المنورة وردت أحاديث صحيحة وكثيرة ؛ ليس محل سرد نصوصها هنا . وقد أجمع المسلمون - على عهد عمر بن الخطاب - واتفقوا أن يكون ابتداء التاريخ الإسلامي من السنة الأولى للهجرة النبوية ؛ كما أجمعوا واتفقوا على أن يبدأوا بأول شهر المحرم من تلك السنة ، وهو منصرف المسلمين من حجهم ، وهو أول شهور

(1) وذلك حين عزم على قتال المشركين وتوجه إلى المعركة التي استشهد فيها .

(2) يطير بهما في الجنة . قال عبد الملك بن هشام : «وكان جعفر عبد المطلب غائباً بأرض الحبشة» .

(3) ابن هشام ، عبد الملك ، السيرة النبوية ، بشرح «روض الأنف» . ج 4 ص 244 . ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 3 ص 226 .

العرب . قال إسماعيل بن كثير : « اتفق الصحابة - رضي الله عنهم !- في سنة ست عشرة - وقيل سنة سبع عشرة ، أو ثمانى عشرة - في الدولة العمرية على جعل ابتداء التاريخ الإسلامى من سنة الهجرة ؛ وذلك أن أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه !- رفع إليه صك - أي : حجة - لرجل على آخر ، وفيه « إنه يحل عليه في شعبان » . فقال عمر : أي شعبان ؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية ، أو الآتية ؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تاريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك . فقال قائل : أرخوا كتاريخ الفرس ، فكره ذلك - وكانت الفرس يؤرخون بملوكهم : واحدا بعد واحد - وقال قائل : أرخوا بتاريخ الروم - وكانوا يؤرخون بملك إسكندر بن فليس المقدوني - فكره ذلك . وقال آخرون أرخوا بمولد رسول الله . وقال آخرون : بل بمبعثه ، وقال آخرون : بل بهجرته . وقال آخرون : بل بوفاته عليه السلام . فمال عمر - رضي الله عنه !- إلى التاريخ بالهجرة ، لظهوره واشتباره . واتفقوا معه على ذلك . وقال البخاري في صحيحه . . . : عن سهل بن سعد قال : ما عدوا من مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم !- ولا من وفاته ؛ ما عدوا إلا من مقدمه المدينة . حدثنا ابن أبي الزناد عن أبيه قال : استشار عمر في التاريخ فأجمعوا على الهجرة . وقال أبو داود الطيالسي : عن قرّة بن خالد الدوسي ، عن محمد بن سيرين قال : قام رجل إلى عمر فقال : أرخوا ، فقال : ما أرخوا ؟ فقال : شيء تفعله الأعاجم : يكتبون : في شهر كذا من سنة كذا . فقال عمر : فأرخوا ، فقالوا : من أي السنين نبدأ ؟ فقالوا : من مبعثه ، وقالوا : من وفاته ، ثم أجمعوا على الهجرة ، ثم قالوا : وأي الشهور نبدأ ؟ قالوا : رمضان ، ثم قالوا : المحرم ؛ فهو منصرف الناس من حجهم ، وهو شهر حرام ، فاجتمعوا على المحرم . وقال ابن جرير : إن ابن عباس كان يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ <sup>(1)</sup> : هو المحرم فجر السنة . وروى عن عبيدة بن عمير قال : إن المحرم شهر الله ، وهو رأس السنة : يكسي البيت ، ويؤرخ به الناس ، ويضرب فيه الورق <sup>(2)</sup> . وقال الإمام أحمد بن حنبل . . عن عمرو بن دينار قال : إن أول من أرخ الكتب يغلى بن أمية باليمن ، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قدم المدينة في ربيع الأول ، وأن الناس أرخوا لأول السنة (أي : أول المحرم) ، وروى محمد بن إسحاق عن الزهري ، وعن محمد بن صالح عن الشعبي أنهما قالا : أرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم ، ثم أرخوا من بنيان إبراهيم وإسماعيل البيت ، ثم أرخوا من

(1) سورة «الفجر» . الآية 1 ، 2 .

(2) «الورق» - بكسر الراء وفتحها - : الفضة . والمراد بضربها جعلها عملة رسمية .



موت كعب بن لؤي، ثم أُرخوا من الفيل، ثم أُرخ عمر بن الخطاب من الهجرة؛ وذلك سنة سبع عشرة - أو ثمانى عشرة - وقد ذكرنا هذا الفصل محرراً بأسانيد وطرقه في «السيرة العمرية» ولله الحمد. والمقصود أنهم جعلوا ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وجعلوا أولها من المحرم فيما اشتهر عنهم. وهذا هو قول جمهور الأئمة<sup>(1)</sup>.

### أهم وقائع السنة الأولى من الهجرة النبوية

في هذه السنة الأولى من الهجرة النبوية أسلم عبدالله بن سلام بن الحارث اليهودي وكان اسمه «الحصين»، وأسلمت معه عمته خالدة بنت الحارث أيضاً، فسماه رسول الله عبدالله بعد إسلامه. وفيه نزل قوله - تعالى -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ مَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(2)</sup>. وفيه نزل - أيضاً - قوله - تعالى -: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾<sup>(3)</sup>. وشهد مع عمر بن الخطاب فتح بيت المقدس والجابية. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية، اتخذ سيفاً من خشب<sup>(4)</sup> واعتزلها وأقام في المدينة المنورة إلى أن توفي - رضي الله عنه! - سنة 43 من الهجرة النبوية. وروي عنه خمسة وعشرون حديثاً من الأحاديث النبوية. روى الإمام أحمد عن محمد بن جعفر، عن عوف بن زرارة، عن عبدالله بن سلام، قال: «لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - المدينة، انجفل الناس<sup>(5)</sup>، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب. فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». قال إسماعيل بن كثير: «وفي سياق البخاري من طريق عبد العزيز عن أنس، قال: فلما جاء النبي - صلى الله عليه وسلم! - جاء عبدالله بن سلام، فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنتك جئت بحق، وقد علمت يهود أنني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعوهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أنني قد أسلمت، فإنهم إن

(1) البداية والنهاية. ج 3 ص 206، 207.

(2) سورة «الأحقاف». الآية 10.

(3) سورة «الرعد». الآية 43.

(4) وذلك امتثال لقوله - عليه الصلاة والسلام! - «إذا كانت الفتنة بين المسلمين، فاتخذ سيفاً من خشب». (رواه

الترمذي وابن ماجه، عن أهبان).

(5) «انجفلوا»: انقلعوا وذهبوا بسرعة.

يعلموا أنني قد أسلمت، قالوا في ما ليس في . فأرسل نبي الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى اليهود، فدخلوا عليه . فقال لهم : «يا معشر اليهود! ويلكم! اتقوا الله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنني رسول الله حقا، وأني جئتكم بحق فأسلموا» . قالوا: ما نعلمه، قالوا ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم! - قال: «فأي رجل فيكم الحصين بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا . قال: «أفرأيتم إن أسلم»، قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم . قال: «يا بن سلام! اخرج عليهم» فخرج، فقال: يا معشر يهود! اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق . فقالوا: كذبت . فأخرجهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - هذا لفظه . وفي رواية: فلما خرج عليهم شهد شهادة الحق، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه، فقال: يا رسول الله! هذا الذي كنت أخاف . وقال البيهقي . . . عن أنس، قال: سمع عبدالله بن سلام بقدم النبي - صلى الله عليه وسلم! - وهو في أرض له - فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم! - فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني جبريل أنفا» . قال: جبريل؟ قال: «نعم»! قال: عدو اليهود من الملائكة . ثم قرأ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾<sup>(1)</sup> . قال: «أما أول أشرط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق تسوقهم إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع<sup>(2)</sup> الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد» . فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله . يا رسول الله! إن اليهود قوم بهت<sup>(3)</sup>، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني . فجاءت اليهود، فقال: «أي رجل الحصين فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا . قال: «أرأيتم إن أسلم؟» قالوا: أعاذة الله من ذلك . فخرج عبدالله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله . قالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه . قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله»<sup>(4)</sup> .

(1) سورة «البقرة» . الآية 97 .

(2) «نزع»: أشبهه .

(3) «بهت»: ذوا بهتان وافتراء وخداع .

(4) البداية والنهاية . ج 3 ص 210 ، 211 .

**وفي السنة الأولى من الهجرة توفي كلثوم بن الهدم الأوسي ، وكان شيخا كبيرا ،**  
وأسلم قبل الهجرة النبوية ، وهو أول من مات من المسلمين بعد الهجرة . وبعد قليل في السنة نفسها  
توفي أبو أمامة أسعد بن زرارة أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة الثانية على قومه بني النجار ، وهو  
أول من بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ليلة العقبة الثانية - على أحد الأقوال - وفي هذه  
السنة مات أبو أحيحة بالطائف ، والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي بمكة وكلهم ماتوا على  
شركهم وكفرهم . وفي هذه السنة ولد عبدالله بن الزبير ؛ وهو أول مولود من المهاجرين ولد  
بالمدينة . قال البخاري . . . : «عن أسماء (بنت أبي بكر) أنها حملت بعبدالله بن الزبير ؛ قالت :  
فخرجت وأنا متم<sup>(1)</sup> فأتيت المدينة ، فنزلت بقاء ، فولدت بقاء ، ثم أتيت به رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم !- فوضعه في حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ، ثم تفل في فيه ، فكان أول شيء دخل  
جوفه ريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثم حنكه بتمرة ، ثم دعا له وبرك عليه . فكان أول  
مولود ولد في الإسلام»<sup>(2)</sup> . وفي هذه السنة هاجرت سودة بنت زمعة ، ولحقت بزوجه رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم !- ومعها بناته ؛ ما عدا زينب فإنها بقيت بمكة مع زوجها أبي العاص بن الربيع .  
وفي هذه السنة هاجر عيال أبي بكر الصديق صحبة ابنه عبدالله وطلحة بن عبيدالله . وفي شوال من  
هذه السنة بنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بعائشة وهي بنت تسع سنين ؛ وكان قد عقد  
عليها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة زوجته خديجة وهي بنت ست سنين . عن عبدالله بن  
عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : «تزوجني رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في شوال وبنى  
بي في [ 15 ] شوال ، فأني نساء رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- كانت أحظى عنده مني؟»<sup>(3)</sup> .  
وفي هذه السنة شرع الأذان والإقامة في الصلوات المفروضة .

### ما معنى الأذان؟

الأذان لغة : مطلق الإعلام . قال عز من قائل : ﴿وَأَذِّنْ مِنْ رَبِّكَ إِلَهُكَ إِلَى النَّاسِ  
يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾<sup>(4)</sup> أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ<sup>(5)</sup> . أي : إعلام من الله ورسوله .

(1) «متم» : حامل شارفة على الوضع .

(2) رواه البخاري ، عن أسماء بنت أبي بكر وزوجة الزبير بن العوام ، رضي الله عن الجميع .

(3) ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 3 ص 330 ، 331 .

(4) عيد الأضحى ، والحج المفروض .

(5) سورة «التوبة» . الآية 3 .

وقال أيضا: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَرْبَعًا لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(1)</sup>. أي: فأعلم من الملائكة. وقال - كذلك -: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾<sup>(2)</sup> وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾<sup>(3)</sup>. أي: وأعلم. وبهذا المعنى جاء قول الشاعر:

أذنتنا بيننا أسـماء      ليت شعري متى يكون اللقاء

أي: أعلمت بفرقتها. والأذان شرعا: إعلام بوقت الصلاة المفروضة بالفاظ مخصوصة. وستأتي صيغتها؛ إن شاء الله.

### مشروعيته

لقد ثبتت مشروعية الأذان بالكتاب والسنة والإجماع. فمن الكتاب قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾<sup>(4)</sup>. أي: وإذا أذنتم للصلاة. وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾<sup>(5)</sup>. أي: إذا أذن للصلاة. ومن السنة قوله - عليه الصلاة والسلام -: «عندما أتاه رجلان يريدان السفر..» «إذا أنتما خرجتما فأذنا، ثم أقيما، ثم ليؤمكما أكبركما»<sup>(6)</sup>.

### مستنده

الذي نعتقه ونؤمن به أن الأذان يستند في شرعيته وصيغته على الرؤيا التي جاء بها عبد الله ابن زيد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «جاء في سنن أبي داود: «... عن أبي عمير بن أنس، عن عمومة له من الأنصار، قال: اهتم النبي - صلى الله عليه وسلم!- للصلاة؛ كيف يجمع الناس لها؟ فقليل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها، أذن بعضهم بعضا، فلم يعجبه ذلك، قال: فذكر له «القنec»<sup>(7)</sup>؛ يعني: «الشبور»<sup>(8)</sup>. وقال زياد: شبور اليهود. فلم يعجبه ذلك،

(1) سورة «الأعراف». الآية 44.

(2) «رجالا»: مشاة.

(3) سورة «الحج». الآية 27.

(4) سورة «المائدة». الآية 58.

(5) سورة «الجمعة». الآية 9.

(6) رواه البخاري وغيره، عن مالك بن الحويرث.

(7) «القنec»: الشبور، وكلاهما يدلان على بوق اليهود، ويقال لكل منها الصور، والقرن.

(8) هو: عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الأنصاري.

وقال: «هو من أمر اليهود». قال: فذكر له الناقوس، فقال: «هذا من أمر النصاري»، فانصرف عبدالله بن زيد (بن عبد ربه) وهو مهتم، لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأري الأذان في منامه. قال: فغدا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأخبره، فقال له: يا رسول الله! إنني لبين نائم ويقظان إذ أتاني آت فأراني الأذان. قال: وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه! - قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يوما. قال: ثم أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم! - فقال له: «ما منعك أن تخبرني؟» فقال: سبقني عبدالله بن زيد فاستحييت، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «يا بلال! قم فانظر ما يأمرك به عبدالله بن زيد فافعله». قال: فأذن. قال أبو بشر: فأخبرني أبو عمير أن الأنصار تزعم أن عبدالله بن زيد، لولا أنه كان - يومئذ - مريضا لجعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مؤذنا. انتهى النص. هذا هو المستند المعول عليه في شرعية الأذان؛ وهو القول المشهور عند المحققين من العلماء والرواة المدققين شرعا ونقلًا. وأما الروايات التي تذهب إلى أن الأذان شرع ليلة الإسراء والمعراج، فقد حكم عليها علماء الحديث بالضعف رواية ودراية؛ بدليل أن الأذان مؤذن بالحرية المطلقة في أداء عباد الصلوات. وهذا أمر لم يتأت للمسلمين إلا بعد هجرتهم من مكة المكرمة - حيث كانوا مضطهدين في دينهم - إلى المدينة المنورة - حيث أصبحوا أحرارا فيه، منتصرين بإخوانهم الأنصار الذين منهم عبدالله بن زيد الأنصاري، صاحب الرؤيا الصادقة في صيغة الأذان وترتيب ألفاظه، التي شاع وذاع الصدع بها خمس مرات في اليوم والليلة، فأضحى الأذان سنة مؤكدة لجماعة طلبت غيرها لأداء الصلاة. وقد أشبعنا الحديث عما يتعلق بالأذان والإقامة في كتابنا «الصلاة في ميزان الإسلام»، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا ليرضيه مما خبرناه في صفحات ذلك الكتاب المكتوب بعون الله المعين.

### السرايا<sup>(1)</sup> الثلاث الأولى في الإسلام، إحدى الغزوات

وعلى رأس سبعة أشهر للسنة الأولى من الهجرة النبوية في شهر رمضان، عقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لعمه حمزة بن عبد المطلب لواء أبيض في ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عير قريش، فلقي أبا جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل من قريش، فحجر

(1) «السرايا»: جمع سرية؛ وهي من خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو أربعمائة. وما زاد على ذلك سمي جيشا، وما زاد على الألف يسمى جرارا. وقد اصطلح المؤرخون المسلمون على إطلاق اسم السرية على قوة عسكرية بقيادة أحد رجال الصحابة دون رسول الله.

بينهم مجدي بن عمرو الجهني<sup>(1)</sup> ، فلم يقع بينهما قتال . وكان الحامل للواء المسلمين أبو مرثد الغنوي . وفي هذه السنة - أيضا - عقد لواء أبيض لعبدة بن الحارث بن المطلب في ستين رجلا من المهاجرين<sup>(2)</sup> ، وكان المشركون مائتين بقيادة أبي سفيان بن صخر بن حرب . فوقع بينهم الرمي بالنبال دون المسايقة . وكان أول رام من المسلمين بسهمه في سبيل الله ، هو سعد بن أبي وقاص . وكان المقداد بن عمرو ، وعتبة بن غزوان مسلمين باقين بمكة ولم يهاجرا إلى المدينة . فخرجا في رجال أبي سفيان يتوصلا بخرجهما مع المشركين إلى ما هما عازمان عليه . فلما التقيا بالمسلمين انحازا إليهم . وكان الحامل للواء المسلمين مسطح بن أثاثة . وفي هذه السنة - كذلك - عقد لسعد بن أبي وقاص لواء أبيض يحمله المقداد بن الأسود<sup>(3)</sup> . وسار بعشرين رجلا من المهاجرين على أقدامهم إلى «الخرار»<sup>(4)</sup> ، فلم يلق حربا . قال إسماعيل بن كثير - نقلا عن أبي عبد الله ، محمد الواقدي :- «وفيها - يعني السنة الأولى في ذي العقدة - عقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسعد بن أبي وقاص إلى «الخرار» . لواء أبيض ، يحمله المقداد بن الأسود ، فحدثني أبو بكر بن إسماعيل ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد عن أبيه ، قال : قال خرجت في عشرين رجلا على أقدامنا - أو قال في أحد وعشرين رجلا - فكنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحنا «الخرار» صبح خامسة ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عهد إلي أن لا أجاوز «الخرار» ، وكانت العير قد سبقتني قبل ذلك بيوم»<sup>(5)</sup> . فهذه السرايا الثلاث قد كانت في غصون ثلاثة أشهر بأمر رسول الله ، ولم يمض على إقامته بالمدينة سوى بضعة أشهر ، ولم يكن المقصود بها سوى المضايقة لقريش في متاجرها وإزعاجها في تنقلاتها ، وليست أمرا من الله بوجوب الجهاد وإعلان الحرب عليها . وفي شهر صفر المتمم للسنة الأولى من الهجرة ، خرج رسول الله بنفسه غازيا وخلف على المدينة سعد بن عباد وكان جميع من خرج معه من المهاجرين ، وليس فيهم أحد من الأنصار . وكان حامل لوائه حمزة بن عبد المطلب . لكنه وجد

(1) كان حليفا للفريقين ، فتوسط بينهما فلم يقع قتال .

(2) وكان ذلك في شوال على رأس ثمانية أشهر .

(3) وكان ذلك في ذي العقدة على رأس تسعة أشهر .

(4) «الخرار» - بتشديد الراء : شدة صوت خرير الماء ؛ وهو - هنا - موضع بالحجاز قرب الجحفة .

(5) البداية والنهاية . ج 3 ص 234 .

عير قريش قد فاتته، فعاد أدراجه ولم يلق كيذا. وفي هذه الغزوة وادع بني حمزة من كنانة: وكانت غيبته عن المدينة خمس عشرة ليلة. وفي هذه السنة أيضا تزوج علي فاطمة الزهراء.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن الصحابي الجليل صهيب بن سنان بن مالك، قد تخلى عن جميع ما يملك بمكة من المال الكثير في مقابل أن تسمح له قريش بالهجرة إلى المدينة؛ حيث مهجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأصحابه. قال عبد الملك بن هشام: «وذكر لي عن أبي عثمان النهدي، أنه قال: بلغني أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإنني جعلت لكم مالي قال (الراوي): فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: «ريح صهيب! ربح صهيب!»<sup>(1)</sup>. ومما يجدر الانتباه إليه أن صهيبا هذا ليس هو روميا بالأصالة كما هو جار على ألسنة النسابين؛ بل هو عربي قح أبا وأما. وإنما نسب إلى الروم، لأنهم سبوه صغيرا، فنشأ بينهم، فاشتراه منهم أحد من عرب بني كلب، وقدم به مكة، فابتاعه عبد الله بن جدعان التيمي، ثم أعتقه، فأقام بمكة يحترف التجارة فربح منها مالا وفيرا. فلما ظهر الإسلام أسلم وحسن إسلامه<sup>(2)</sup>.

**العبرة الثانية:** أن تربص المشركين برسول الله - عليه الصلاة والسلام! - ليلة هجرته قد كان عليهم خسرانا مبينا، وكان تربص الله بهم وقاية لرسوله فأصبح في حمايته ناجيا آمينا. فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾<sup>(3)</sup>. وأنزل الله أيضا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾<sup>(4)</sup> ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾<sup>(5)</sup>.

(1) السيرة النبوية، بشرح «روض الأنف». ج 4 ص 173.

(2) توفي بالمدينة سنة 38هـ. وروي عنه 307 من الأحاديث النبوية.

(3) سورة «الأنفال». الآية 30.

(4) وقد قال رسول الله: ليس من أحد أمن علي في أهل ومال من أبي بكر.

(5) سورة «الطور». الآية 30، 31.

**العبرة الثالثة :** أن امتناع رسول الله عن ركوب الناقة الجدعاء التي هيأها له أبو بكر، لم يزل حتى يتقن أنها مبتاعة له بثمن معلوم ومدفوع من طرف أبي بكر، وأن امتناعه عن قبوله مريد سهل وسهيل كهدية لبناء مسجده لم يزل أيضا حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير دفعها أبو بكر من ماله الخاص . فهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على التوخي والتحري فيما هو لله أن يكون حلالا طيبا وسيلة وقصدا ، لا شبهة في مبناه ومعناه .

**العبرة الرابعة :** أن أبا بكر قد أخذ جميع ما يملك من ماله عندما هاجر صحبة النبي - صلى الله عليه وسلم !- ولم يترك لعياله شيئا . قال عبد الملك بن هشام - نقلًا عن محمد بن إسحاق - عن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : لما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه . قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت : قلت : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا . قالت : فأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ! ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا ترك لكم هذا فقد أحسن . وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئا ؛ ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الخامسة :** قال البيهقي : «عن أبي معبد الخزاعي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خرج ليلة هاجر من مكة إلى المدينة : هو ، وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي ، فمروا بخيمتي أم معبد الخزاعية ، وكانت أم معبد امرأة برزة<sup>(2)</sup> جلدة<sup>(3)</sup> ، تحتبي وتجلس بفناء الخيمة ، فتطعم وتسقي ، فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئا من ذلك ، وقالت لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، وإذا القوم مرملون<sup>(4)</sup> مستنون<sup>(5)</sup> . فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فإذا شاة في كسر<sup>(6)</sup> خيمتها فقال :

(1) السيرة النبوية ، بشرح «روض الأنف» . ج 4 ص 186 .

(2) «برزة» : طعنت في السن ؛ فهي تبرز للرجال ولا تحتجب عنهم .

(3) «جلدة» : جزلة .

(4) «مرملون» : نافذو الزاد .

(5) «مستنون» : داخلون في سنة الجذب والقحط .

(6) «كسر خيمتها» : جانب بيتها .



«ما هذه الشاة يا أم معبد؟» فقالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم . قال : «فهل بها من لبن؟» قالت : هي أجهد من ذلك . قال : «أأأذن لي أن أحلبها؟» قالت : إن كان بها حلب فاحلبها فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بالشاة فمسحها وذكر اسم الله ومسح ضرعها وذكر اسم الله ، ودعا بإناء لها يريض الرهط فتفاجت<sup>(1)</sup> واجترت ، فحلب فيه ثجا<sup>(2)</sup> حتى ملأه وأرسله إليها ، فسقاها وسقى أصحابه ، فشربوا عللا بعد نهل ، حتى إذا رووا شرب آخرهم ، وقال «ساقى القوم آخرهم» . ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء فغادره عندها . ثم ارتحلوا . قال : فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعززا عجافا يتساوكن هزلى ، لا نقي بهن . فلما رأى أبو معبد اللبن عجب ، وقال : من أين لك هذا يا أم معبد؟! والشاة عازب حيال ، ولا حلوب في البيت؟! قالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا ، ومن حديثه كيت وكيت . فقال : صفيه لي فوالله إنني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه . فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضأة ، حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعب ثجلة<sup>(3)</sup> ولم تزر به صعلة<sup>(4)</sup> ، وسيم قسيم ، وفي عينه دمع ، وفي أشفاره عطف ، وفي صوته صحل ، أحور ، أكحل ، أزج أقرن ، في عنقه سطح ، وفي لحيته كثائة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ، ولا هذر ، كأن منطق خرزات نظم تنحدرن ، أبهى الناس وأجملهم من بعيد وأحسبهم من قريب ، لا تنساه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ؛ فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا . له رفقاء يحفون به ، إن قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود ، لا عابس ولا معتد . قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي تطلب ، ولو صادفته لالتسمت أن أصبح به ، ولأجدن إن وجدت إلى ذلك سبيلا . فأسلم أبو معبد وزوجته ولحقا برسول الله إلى المدينة<sup>(5)</sup> .

**العبرة السادسة :** أن أخوة الإسلام هي التي دفعت ببلال بن رباح الحبشي أن يوصي بديوانه بعد مماته إلى أبي رويحة أخيه في الدين قال محمد بن إسحاق : «فلما دون عمر بن الخطاب الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام ، فأقام بها مجاهدا ، فقال عمر لبلال :

(1) «فتفاجت» : فرجت بين رجليها .

(2) «ثجا» : سائلا .

(3) «الثجلة» : عظم البطن .

(4) «الصعلة» : صغر الرأس .

(5) ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 3 ص 192 .

إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رويحة؛ لا أفارقه أبدا، للأخوة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم!- عقد بينه وبينني، فضم إليه، وضم ديوان الحبشة إلى خثعم، لمكان بلال منهم؛ فهو في خثعم إلى هذا اليوم بالشام»<sup>(1)</sup>.

**العبرة السابعة:** أن أول مسجد في الإسلام وضع لتقوى الله وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، هو «مسجد قباء» وهو جدير بإقامة الصلوات فيه، لأنه فيه رجال طاهرون روحا وجسدا، وهم لذلك محبوبون، وبأساس مسجدهم على التقوى من أول يوم راضون. وهذا واضح جدا في قول الله - تعالى!- ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ<sup>٢</sup> فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾<sup>(2)</sup>. روى أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة في صحيحه، عن عويمر بن ساعدة أنه - صلى الله عليه وسلم!- أتى الأنصار في مسجد قباء فقال: «إن الله - تعالى!- قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدهم، فما هذا الطهور الذي تتطهرون به؟» قالوا: والله يا رسول الله! ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أديارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا. وفي حديث رواه البزار، فقالوا: نتبع الحجارة بالماء. فقال: «هو ذاك، فعليكموه».

**العبرة الثامنة:** أن مبرك الناقة في المكان الذي بني فيه مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- كان إلهاما من الله إياها؛ وليس لأي من البشر دخل فيه. وهذا واضح جدا في قوله - عليه الصلاة والسلام!- لمن كانوا يعترضونها: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها».

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن ابتياع سهل وسهيل لمريدهما بعشرة دنانير؛ رغم أنهما قاصران ولم يبلغا سن الرشد، فيه دليل واضح على صحة تصرف غير البالغ فيما يملك. وبهذا احتج الأحناف وأقره في مذهبهم.

**الحكم الثاني:** أن نبش قبور الموتى ونقل رفاتهم إلى مكان آخر، جائز شرعا للضرورة، بدليل أن رسول الله أمر بنبش قبور المشركين، ونقل رفاتهم إلى مكان آخر وبنى في مكانهم مسجده الشريف.

(1) ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية، شرح «روض الأنف». ج 4 ص 462.

(2) سورة «التوبة». الآية 108.

## أعداء الإسلام والمسلمين بالمدينة

إذا كان للإسلام والمسلمين بالمدينة أنصار وأعوان من عرب الأوس والخزرج نصروهم وعزروهم وحالوا بينهم وبين كل مكروه، فإن هناك من نصبوا إليهم العدواة والبغضاء من أحبار اليهود ومنافقي العرب بغيا وضمنا وحسدا من أنفسهم، لما خص الله محمدا - عليه الصلاة والسلام - بما فضله على خلقه؛ وهو ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾<sup>(1)</sup>. فأما أعداء هؤلاء من اليهود: هم يهود بني النضير؟ ويهود بني ثعلبة، ويهود بني قينقاع، ويهود بني قريظة، ويهود بني زريق، ويهود بني حارثة، ويهود بني عمرو، ويهود بني النجار. وأما أعداء أولئك من المنافقين: هم منافقو بني ثعلبة، ومنافقو بني حبيب، ومنافقو بني ضبيعة، ومنافقو بني لوزان، ومنافقو بني أمية؛ ومنافقو بني عبيد، ومنافقو بني النبيت، ومنافقو بني ظفر، ومنافقو بني عبد الأشهل، ومنافقو بني النجار، ومنافقو بني جشم من الخزرج، ومنافقو بني عوف من الخزرج أيضا. وقد اتفق أحبار اليهود ومنافقو العرب على نصب العدواة لحمد وأصحابه والعمل على الكيد لهم بما في وسعهم وطاقتهم من الشرور. وقد أظهروا الإسلام جنة وتعوذا وأبطنوا الكفر والنفاق «لحاجة في نفس يعقوب». ولكن الله قد أطلع نبيه على ما هم عليه، فطردهم من مسجده شر طرد؛ قد بقي وصمة عار في جبينهم، وسيئة منهم لا تغتفر!! قال عبد الملك بن هشام - نقلا عن محمد بن إسحاق -: «وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوما في المسجد منهم ناس فرأهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخرجوهم من المسجد إخراجا غنيفا، فقام أبو أيوب، خالد بن زيد بن كليب، إلى عمرو بن قيس، أحد بني غنم بن مالك بن النجار - كان صاحب آلهتهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه، حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول: أخرجني يا أبا أيوب من مريد بني ثعلبة؟! ثم أقبل أبو أيوب أيضا إلى رافع بن وديعة، أحد بني النجار، فلبيه بردائه، ثم نثره نثرا شديدا، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد، وأبو أيوب يقول له: أف لك منافقا خبيثا: أدراجك<sup>(2)</sup> يا منافق من مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقام عمارة بن حزم إلى زيد

(1) سورة «الأنعام». الآية 124.

(2) «أدراجك»: عد أدراجك، وارجع من الطريق التي جئت منها.

ابن عمرو - وكان رجلا طويل اللحية - فأخذ بلحيته فقادها بها قودا عنيفا حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عمارة يديه فلدمه<sup>(1)</sup> بهما في صدره لدمه خر منها . قال : يقول : خدشتني يا عمارة ! قال : أبعدك الله يا منافق ! فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وقام أبو محمد ، رجل من بني النجار ، كان بدريا ، وأبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار إلى قيس بن عمرو ابن سهل ، وكان قيس غلاما شابا ، وكان لا يعلم في المنافقين شاب غيره ، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد . وقام رجل من بلخدره بن الخزرج ، رهط أبي سعيد الخدري يقال له : عبدالله بن الحارث ، حين أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بإخراج المنافقين من المسجد إلى رجل يقال له : الحارث بن عمرو ، وكان ذا جمعة ، فأخذ بجمته فسحبه بها سحبا عنيفا ، على ما مر به من الأرض ، حتى أخرجه من المسجد . قال : يقول المنافق : لقد أغلظت يا بن الحارث ! فقال له : إنك أهل لذلك ، أي عدو الله ! لما أنزل الله فيك ، فلا تقربن مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - فإنك نجس . وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زوي بن الحارث ، فأخرجه من المسجد إخراجا عنيفا ، وأفف<sup>(2)</sup> منه ، وقال : غلب عليك الشيطان وأمره . فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين ، وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بإخراجهم<sup>(3)</sup> . وأنزل الله فيهم ما أنزل في سورة «البقرة» وسورة «التوبة» من القرآن العظيم .

## السنة الثانية من الهجرة

### غزوة بواط<sup>(4)</sup>

قال إسماعيل بن كثير : « قال ابن إسحاق : ثم غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - في شهر ربيع الأول - يعني من السنة الثانية - يريد قريشا . قال ابن هشام : واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون . وقال الواقدي : استخلف عليها سعد بن معاذ . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - في مائتي راكب ، وكان لواؤه مع سعد بن أبي وقاص ، وكان مقصده أن

(1) «فلدمه» : فضربه بطن كفيه .

(2) «وأفف» : ألقى طرف ثوبه على أنفه وقال : أف أف استقدارا .

(3) ابن هشام ، عبد الملك . السيرة النبوية . بشرح «روض الأنف» . ج 5 ص 322 .

(4) «بواط» : جبال ضبة بينها وبين المدينة ثلاثة برد .

يعترض لعير قريش . وكان فيه أمية بن خلف ومائة رجل وألفان وخمسمائة بعير . قال ابن إسحاق : حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى <sup>(1)</sup> (الأولى) .

### غزوة بدر <sup>(2)</sup> الأولى

وفي أوائل السنة الثانية من الهجرة ، أغار كرز بن جابر الفهري على إبل ومواش لأهل المدينة كانت ترعى بـ «الجماء» <sup>(3)</sup> ، فاستولى عليها واستاقها ، فخرج في طلبه رسول الله بعد ما استخلف على المدينة زيد بن حارثة . وكان علي بن أبي طالب هو الحامل للواء رسول الله في هذه الغزوة . ولما بلغ الرسول بدرا ، وجد كرزاً قد فر ولم يدركه ، فعاد إلى المدينة .

### غزوة العشيرة <sup>(4)</sup>

في شهر جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، بلغ رسول الله أن قافلة قريش خرجت من مكة قاصدة الشام للتجارة وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب ، فخرج بمائتين من المهاجرين ليعترضها وكان الحامل للواء في هذه الغزوة عمه حمزة بن عبد المطلب ، وكان المستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي . فلما وصل الرسول بمن معه إلى المكان المقصود علم أن تلك القافلة قد مرت قبل وصوله بأيام . وفي هذه الغزوة عمل الرسول ما عمله في غزوة الأبواء السابقة الذكر : فوآدع بني مدلج من سكان تلك الناحية على ما وادع عليه خلفاءهم من بني ضمرة ، ثم عاد إلى المدينة بعدما أقام شهراً كاملاً بالعشيرة ؛ حيث درس حالة قريش ، واستقصى أخبارها مما لها وعليها .

### سرية عبدالله بن جحش

قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق - : «وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبدالله بن جحش بن رثاب الأسدي في رجب مقفله من «بدر الأولى» ، وبعث معه

---

(1) البداية والنهاية . ج 3 ص 242 .

(2) «بدر الأولى» : ويقال لها - أيضاً - : «غزوة سفوان» ، و«بدر» : اسم بئر بمكة لبني عبد الدار .

(3) «الجماء» : جبل من المدينة على ثلاثة أميال .

(4) «العشيرة» : ويقال له - أيضاً - : «ذو العشيرة» ؛ وهو موضع بين مكة والمدينة من ناحية «بنع» .

ثمانية رَهْطٍ<sup>(1)</sup> من المهاجرين<sup>(2)</sup> ليس فيهم من الأنصار أحد. . وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً. فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل «نخلة» بين مكّة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلّم لنا من أخبارهم. فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بما في الكتاب. وقال: قد نهاني أن أستكره أحداً منكم؛ فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلْيُطْلَقْ، ومن كره ذلك فلْيَرْجِعْ؛ فأما أنا فامض لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فمضى ومضى معه أصحابه ولم يتخلّف منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق «الفرع» يقال له: «بحران»، أضلّ سعد بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غزوان بغيراً لهما كانا يعتقبانها، فتخلّفا في طلبه، ومضى عبدالله بن جحش في بقية أصحابه حتى نزل «نخلة»، فمرت عير قريش فيها عمرو بن الحضرمي، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة. فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمَار، لا بأس عليكم منهم، وتشاور الصحابة فيهم؛ وذلك في آخر يوم من رجب، فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلنّ الحرم فلَيَمْتَنِعَنَّ به منكم، ولئن قتلتموهم لَتَقْتُلُنَّهُمْ في الشهر الحرام، فتردّد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجّعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل مَنْ قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبدالله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبدالله فأعجزهم، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعين والأسيرين حتى قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال لهم: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»، فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة:

(1) «رهط»: جمع أرهط وأرهاط؛ وهم الجماعة من ثلاثة إلى عشرة. ورهط الرجل: قومه.

(2) وهم: واقد بن عبدالله بن عبد مناف التيمي. وأبو حذيفة بن عتبة، وعكاشة بن محصن، وعتبة بن غزوان، وسعد بن أبي وقاص، وعامر بن ربيعة، وخالد بن الثكير، وسهل بن البيضاء الفهري، فهؤلاء سبعة، وثامنهم أميرهم عبدالله بن جحش الأسدي.

إِنَّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا فِي شِعْبَانٍ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ - تَفَائِلُ بِذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -: عَمَرُو الْحَضْرَمِيَّ قَتَلَهُ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَمَرُو «عَمَرَتِ الْحَرْبُ»، وَالْحَضْرَمِيَّ «حَضَرَتِ الْحَرْبُ»، وَوَاقِدُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ «وَقَدَّتِ الْحَرْبُ»، فَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ لَا لَهُمْ. فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى! - عَلَى رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(1)</sup>. أي: قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه؛ غير تائبين ولا نازعين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾. الآية... فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - العير والأسيرين، وبعث قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «لَا تُفْدِيكُمْوهُمَا حَتَّى يَقْدَمَ صَاحِبَانَا» - يعني: سعد بن أبي وقاص، وعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ - فَإِنَا نَخْشَاكُمْ عَلَيْهِمَا: فَإِن تَقَتَّلُوهُمَا نَقْتُلْ صَاحِبَيْكُمْ»، فَقَدِمَ سَعْدٌ وَعُتْبَةُ، فَأَفَادَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - مِنْهُمْ. فَأَمَّا الْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ فَأَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَأَقَامَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - حَتَّى قُتِلَ «يَوْمَ بَثْرِ مَعُونَةَ»<sup>(2)</sup> شَهِيداً. وَأَمَّا عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَلَحِقَ بِمَكَّةَ، فَمَاتَ بِهَا كَافِراً<sup>(3)</sup>. وقد جاءت هذه السريّة المباركة بأول قتيّل من المشركين على أيدي المسلمين في الإسلام؛ كما جاءت بأولى غنيمة في الإسلام غنمها المسلمون من الكفّار. والحمد لله.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أنّ مغاضبة عليّ بن أبي طالب لزوجته فاطمة الزهراء كانت السّبب في تكتيته بـ «أبي التراب»؛ وذلك في السنة الثانية من الهجرة. جاء في صحيح البخاري: أنّ عليّاً

(1) سورة «البقرة». الآية 217.

(2) موضع بين أرض بني عامر وحرّة بني سُلَيْم، عندها كانت قصّة الرجيع.

(3) البداية والنهاية. ج 3 ص 48 - 250.

خرج مغاضباً فاطمة، فجاء المسجد فنام فيه، فدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فسأل عنه؟ فقالت: خرج مغاضباً، فجاء إلى المسجد فأيقظه وجعل يمسح التراب عنه ويقول: «قُمْ أَبَا تُرَاب! قُمْ أَبَا تُرَاب!».!

**العبرة الثانية:** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. كان - في جميع غزواته - يستخلف أحد الصحابة على المدينة، لينوب عنه فيما هو أهل له.

**العبرة الثالثة:** أن الجهاد لإعلاء كلمة الله لم يكن على عهد رسول الله إيجاباً، بل كان تطوعاً وعن رضى وطيب نفس وهذا ما فهمنا من أمره لعبدالله بن جحش: «أن لا يستكره من أصحابه أحداً على القتال في سبيل الله».

**العبرة الرابعة:** أن الأصل في خُمُس غنائم الجهاد، هو ما حازه عبدالله بن جحش الأسديّ لله ولرسوله، فأقرّ الله ذلك المقدار، وجعله فرضاً مفروضاً من غنائم الجهاد. قال محمد ابن عمر الواقديّ: «عن محمد بن عبدالله بن جحش، قال: كان في الجاهليّة المربع<sup>(1)</sup>؛ فلما رجع عبدالله بن جحش من «نخلة» خمس ما غنم، وقسم بين أصحابه سائر الغنائم، فكان أول خُمُس في الإسلام حتى نزل بعد: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾<sup>(2)</sup>. وقال محمد ابن إسحاق: «وقد ذكر بعض آل عبدالله بن جحش: أن الله - عز وجل! - قسم الفيء حين أحله، فجعل أربعة أخماس لمن أفاءه الله، وخُمساً إلى الله ورسوله، فوقع على ما كان عبدالله بن جحش صنع في تلك العير»<sup>(3)</sup>. قال ابن هشام: «وهي أول غنيمة غنمها المسلمون. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من قتله المسلمون، وعثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون»<sup>(4)</sup>.

**العبرة الخامسة:** أن الله قد أعذر عبدالله بن جحش وأصحابه فيما استحلوه؛ من قتل وأسر وغنم في الأشهر الحرم، وزادهم ما تمنّوه عليه من ثواب المجاهدين فوضعهم من ذلك على أعظم الرجاء فيه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(5)</sup>.

(1) «المربع»: الربع لرئيس الغنائم.

(2) سورة «الأففال». الآية 41 - الواقديّ محمد. كتاب المغازي. تحقيق مارسدني جونس. ج 1 ص 17، 18.

(3) السيرة النبويّة، بشرح روض الأنف. ج 5 ص 66.

(4) المصدر السابق.

(5) سورة «البقرة». الآية 218.



## استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** وجوب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة كان في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة النبوية . وفي حكم وجوب ذلك أنزل الله قوله : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> . وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !- يتمنى في نفسه هذا التحويل المبارك فيه ، ويرجوه من الله بفارغ الصبر ، زمان أن كان يستقبل في صلواته بيت المقدس ، ويجعل الكعبة بينه وبين ذلك البيت .

**الحكم الثاني :** وجوب صيام شهر رمضان في تلك السنة نفسها . وفي حكم وجوب صيام هذا الشهر الفضيل ، أنزل الله قوله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ <sup>(2)</sup> أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ <sup>(3)</sup> شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ <sup>(4)</sup> . وقد ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عباس : أن رسول الله - حين قدم المدينة - وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسألهم عن ذلك ، فقالوا : هذا يوم نجى الله فيه موسى ، فقال : «نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ» ، فصامه وأمر الناس بصيامه . ورؤي عن معاذ بن جبل : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !- كان قبل وجوب صيام رمضان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر . وفي شهر رمضان من هذه السنة فرض الله على الصائمين زكاة الفطر . قال علي بن الأثير : « وفيها (أي : السنة الثانية من الهجرة) ، أمر (رسول الله) الناس بإخراج زكاة الفطر قبل الفطر بيوم أو يومين . وفيها خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !- إلى المصلى ، فصلى بهم صلاة العيد ، وكان ذلك أوّل خروجه

(1) سورة «البقرة» . الآية 144 .

(2) سورة «البقرة» . الآية 183 ، 185 .

خرجها، وحملت بين يديه «العنزة»<sup>(1)</sup>، وكانت للزبير وهبها له النجاشي، وهي اليوم للمؤذنين في المدينة»<sup>(2)</sup>.

**الحكم الثالث:** وجوب زكاة الأموال في هذه السنة نفسها، فقد أوجب الله على الأغنياء ما أوجبه في أموالهم ما هو حق مشروع للفقراء والمساكين ومن في حكمهم فقال: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾<sup>(3)</sup>.

**الحكم الرابع:** أن تحريم القتال في الأشهر الحرم باقٍ على ما هو عليه في شرع الله إلى يوم القيامة.

قال عبد الرحمن السهيلي: «... وذلك أن تحريم القتال في الأشهر الحرم كان حكماً معمولاً به من عهد إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وكان من حرمان الله ومما جعله مصلحة لأهل مكة، قال الله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْتَيْدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(4)</sup>. وذلك لما دعا إبراهيم لذريته بمكة، إذ كانوا بوادٍ غير ذي زرع أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، فكان فيما فرض على الناس من حج البيت قواماً لمصلحتهم ومعاشهم، ثم جعل الأشهر الحرم أربعة: ثلاثة سرداً، وواحداً فرداً؛ وهو رجب، أما الثلاثة فليأمن الحجاجُ وارين إلى مكة، وصادرين عنها شهراً قبل شهر الحج، وشهراً بعده قدر ما يصل الرَّاكِب من أقصى بلاد العرب، ثم يرجع، حكمة من الله، وأما رجب فللعُمَّارِ يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال، ونصفه للإياب، إذ لا تكون العمرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحج، ألا ترى أننا لا نعتز من بلاد المغرب، فإذا أردنا عمرة فإنما تكون مع الحج، وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً، فكانت الأقوات تأتيهم في المواسم، وفي سائر العام تنقطع عنهم ذوبانُ العرب وقطاعُ السُّبُل؛ فكان في رجب أمان للسالكين إليها مصلحة لأهلها، ونظراً من الله لهم دبره وأبقاه من ملّة إبراهيم لم يُغيّر حتى جاء الإسلام، فكان القتال

(1) «العنزة»: عصا في رأسها سنان كسنان الرمح. ويقال لها - أيضاً -: الحربة.

(2) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 115.

(3) سورة «التوبة». الآية 60.

(4) سورة «المائدة». الآية 97.

فيه محرماً كذلك صدرأ من الإسلام، ثم أباحت آية السَّيف، وبقيت حرمة الأشهر الحرم لم تُنسخ، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ <sup>(1)</sup> فتعظيم حُرْمَتِهَا باقٍ؛ وإن أُبيح القتال، وقد روى عطاء أن تحريم القتال فيها حكم ثابت لم يُنسخ <sup>(2)</sup>.

### غزوة بدر الكبرى

وفي يوم الإثنين الثامن من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة النبوية، خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمسلمين إلى اعتراض أبي سفيان العائد بعير قريش التجارية من الشام إلى مكة، وهي محملة بأموالهم، وفيها ثلاثة وأربعون قرشياً؛ بينهم مخزومة بن نوفل، وعمر بن العاص. ولما تحيّن رسول الله عودة أبي سفيان بعير قريش من الشام، ندب المسلمين إلى اعتراضه وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها». فأسرع بعضهم وتثاقل البعض، ظناً منهم أن ما ندبهم رسول الله إليه لم يكن بقصد الحرب والقتال.

وقبيل خروج رسول الله بالمسلمين إلى ما عزم عليه، بعث طلحة بن عبيد الله، وسعد بن زيد، كي يتحسّسا خبر عير قريش. وكان جملة عدد المسلمين في هذه الغزوة ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً؛ سبعون مهاجراً والباقيون من الأنصار، ولأوّل مرّة يشترك الأنصار مع المهاجرين، ولم يتخلف من المهاجرين في هذه الغزوة سوى أربعة أشخاص: عثمان بن عفّان ظلّ يمرض زوجته رقية بنت رسول الله حتى توفيت، وعمر بن أمّ مكتوم ليصلي إماماً بالنّاس، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن زيد اللذين بعثهما رسول الله ليتحسّسا نبأ عير قريش؛ بالإضافة إلى أبي لبابة الذي رده رسول الله من «الروحاء» إلى المدينة واستعمله عليها. وكان عدد خيول المسلمين اثنين أو ثلاثة فقط، وعدد إبلهم سبعين بعيراً يتناوبون الركوب عليها. وكان للمسلمين في هذه الغزوة لواء أبيض ورايتان سوداوان؛ فاللواء مع مُصعب بن عمير، وإحدى الرايتين مع عليّ بن أبي طالب، والأخرى مع سعد بن معاذ الأنصاري.

(1) سورة «التوبة». الآية 36.

(2) روض الأنف. ج 5 ص 81.

## نجاة أبي سفيان بالغير واستنفاذه لقريش!!

فلما علم أبو سفيان باستعداد المسلمين لاعتراضه وهو عائد بقافلته من الشام إلى مكة، حاد عن الطريق المعتاد، وسلك بقافلته وغيره مسلك الساحل مواصلاً سيره إلى مكة فأفلت وخطّ رحاله ناجياً. وفي طريقه إلى مكة كان يتحسّس أخبار الرسول، ويسأل كلّ من يلقاه من الركبان في طريقه قرّفاً وتخوّفاً على نفسه وغيره، فلما أُنبئ بما أعدّه له الرسول لملاقاته، استأجر ضمضم بن عمرو الغفاريّ، وبعثه إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى الدفاع عن أموالهم التي في رعايته وتحت أمره وهو في طريقه إلى مكة. فامتلئ ضمضم أمر أبي سفيان، واستنفر قريشاً. قال محمد الواقدي: «... فأجمعوا أمرهم، فبعثوا ضمضمًا، وكان في الغير، وقد كانت قريش مرّت به وهو بالساحل مع بُكرّان له فاستأجروه بعشرين مثقالاً، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشاً أنّ محمداً قد عرض لغيرهم، وأمره أن يجدّع بغيره إذا دخل، ويحوّل رحله، ويشقّ قميصه من قبله ودُبُرّه، ويصيح: الغوث! الغوث!»<sup>(1)</sup>. قال عبد العزيز خير الدين - نقلاً عن سيرة ابن هشام ونهاية الأرب: «فما أن سمع النَّاسُ نداء ضمضم حتى تجهّزوا سراعاً، فكانوا جميعاً إمّا خارج لحماية ماله، وإمّا باعث رجلاً مكانه، وخرجت قريش جميعاً لم يتخلف من أشرافها أحد؛ إلّا أن أبا لهب بن عبد المطلب تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة مقابل أربعة آلاف درهم كانت ديناً عليه لأبي لهب؛ كما كان أميّة بن خلف قد قرّر القعود لكبر سنّه، فجاءه عقبه ابن أبي مُعَيْط وهو جالس في المسجد بين قومه، ووضع بين يديه جمجرة ومكحلة وقال: يا أبا عليّ استجمر واستكحل؛ فإنّما أنت من النساء، فقال أميّة: قبّحك الله وقبّح ما جئت به! ثم تجهّز وخرج مع النَّاس، فلم يتخلف عنهم قادر على القتال. ولما فرغ أهل مكة من جهازهم ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناف بن كنانة من حرب، وخشوا أن يهاجموهم من خلفهم، وكانوا يشنون عن عزمهم لولا أن وعدهم سُراقَة بن مالك المدلجيّ - وكان من أشراف كنانة - بأن لا يأتيهم منهم شيء يكرهونه، فخرجوا سراعاً»<sup>(2)</sup>. وقال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمّد بن إسحاق -: «ولما رأى أبو سفيان أنّه قد أحرز غيرَه، أرسل إلى قريش: إنكم إنّما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع

(1) كتاب المغازي. بتحقيق الدكتور مارسدن جونس. بيروت ج 1 ص 27، 28.

(2) السيرة النبوية العاطرة. القاهرة. دار النصرة للطباعة. ص 302.

حتى نرد بدرًا - وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً، فننحرُ الجُزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابونا أبدأً فامضوا. وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي - وكان حليفاً لبني زُهرة - وهم بـ «الجُحفة»؛ يا بني زُهرة! قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم: مَخْرمة بن نوفل؛ وإنما نفرتم لتمنعوه وماله؛ فاجعلوا لي جُبْنها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا - يعني أبا جهل - فرجعوا، فلم يشهدوا زُهري واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً. ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس؛ إلا بني عدي بن كعب لم يخرج منهم رجل واحد فرجعت بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، فلم يشهد بدرًا من هاتين القبيلتين أحد، ومشى القوم، وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة. فقالوا: والله لقد عرفنا يا بني هاشم، وإن خرجتم معنا أن هواكم مع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع. وقال طالب:

لَا هُمْ إِمَّا يَغْزُونَ طَالِبَ      فِي عُصْبَةٍ مُحَالِفٌ مُحَارِبُ  
فِي مَقْنَبٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَانِبِ      فَلْيَكُنِ الْمَسْلُوبُ غَيْرَ السَّالِبِ  
وَلْيَكُنِ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي خلف العَقَنَقْل وبطن الوادي وهو يَلِيل، بين بدر وبين العَقَنَقْل، الكثيب الذي خلفه قريش، والقلب بـ «بدر» في العدو الدنيا من بطن يَلِيل إلى المدينة. قلت: وفي هذا قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ<sup>(1)</sup> وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخَفَلْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا<sup>(2)</sup>﴾. الآيات. وبعث الله السماء وكان الوادي دهساً<sup>(3)</sup> فأصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه منها ماء لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا منه. قلت: وفي هذا قوله - تعالى -: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ

(1) أي: من ناحية الساحل.

(2) سورة «الأفقال»، الآية 42.

(3) «دهساً»: كيناً سهلاً، ليس برمل ولا تراب ولا طين.

الْأَقْدَامَ<sup>(1)</sup> . فذكر أنه طهرهم ظاهراً وباطناً، وأنه ثبت أقدامهم، وشجع قلوبهم، وأذهب عنهم تخذيل الشيطان وتخوفه للنفوس ووسوسته الخواطر، وهذا تثبيت الباطن والظاهر، وأنزل النصر عليهم من فوقهم في قوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاصْبِرُوا فَوْقَ الْآعْنَاقِ<sup>(2)</sup> وَأَصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ<sup>(3)</sup> ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ كُمْ فَذَوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ<sup>(4)</sup> . وكانت عدة قريش زهاء ألف مقاتل؛ منهم ستمائة دارع، ومعهم مائة فرس عليها مائة درع، وسبعمائة بعير، وبهذه العدة والعدد سلكوا طريق بدر للقاء المسلمين وقد وثقوا من أنفسهم واطمأنوا إلى كثرتهم! ثم أرسل الله المطر فحال دون بلوغهم موارد الماء .

### اتخاذ جيش المسلمين المكان المناسب

وتحرك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجيشه يبادر قريشاً إلى موارد الماء حتى جاء أدنى مورد من بدر فنزل به، فقال الحباب بن المُنذر: يا رسول الله! أرايت هذا المنزل منزلاً أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال الحباب: يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور<sup>(5)</sup> ما وراءه من القلب<sup>(6)</sup>، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لقد أشرت بالرأي» وأمر بتنفيذه. فلما تم بناء الحوض، ارتأى سعد بن معاذ بناء عريش<sup>(7)</sup> يقيم فيه رسول الله فقال: يا نبي الله! نبتني لك عريشاً تكون فيه وتكون عندك ركائبك، ثم تلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحيينا وتمنيانا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك<sup>(8)</sup> فلحقّت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنا أقوام ما نحن بأشدّ لك حباً منهم، ولو

(1) سورة «الأنفال»، الآية 11 .

(2) أي: على الرؤوس .

(3) أي: لئلا يستمسك منهم السلاح .

(4) سورة «الأنفال». الآية 12، 14 .

(5) «نغور»: ندفن ما وراءه من آبار .

(6) «القلب»: جمع قلب؛ وهو البئر، يذكر ويؤنث .

(7) «العريش»: شبه الخيمة يستظل به .

(8) «ركائبك»: جمع ركوب؛ وهو ما خصص للركوب من الدواب .

ظَنُّوا أَن تَلْقَى حَرْباً مَا تَخْلُقُوا عَنْكَ ، يَمْنَعُكَ اللَّهُ بِهِمْ ، يَنَاصِحُونَكَ ، وَيَجَاهِدُونَ مَعَكَ ، فَأَتَنِي النَّبِيُّ عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَنَى الْعَرِيشَ فَكَانَ فِيهِ . وَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- جَيْشَ قَرِيشَ يَصُوبُ مِنْ كَثِيبِ الْعُقَنْقَلِ إِلَى الْوَادِي ، قَالَ : «اللَّهُمَّ هَذِهِ قَرِيشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخِيَالِهَا وَفَخَرَهَا تَحَادُّكَ وَتَكْذَبُ رَسُولُكَ ؛ اللَّهُمَّ فَتَنْصِرْكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ أَحْنَهُمْ<sup>(1)</sup> الْغَدَاةَ » .

### دبیب الخلاف بین قریش

قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق - : «عن أشياخ من أهل العلم من الأنصار، قالوا: لما اطمأن القوم (أي قریش) بعثوا عُمَيْرَ بْنَ وَهَبِ الْجُمَحِيِّ فقالوا: احْزُرْنَا أصحاب محمد، قال (عُمَيْرُ) : فاستجالَ بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم، فقال ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون ؛ ولكن أمهلوني حتى أنظر ألقوم كمين أو مدد؟ قال : فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم، فقال : ما وجدت شيئاً؛ ولكنني قد رأيتُ - يا معشر قریش !- البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإن أصابوا منكم أعدداهم فما خير العيش بعد ذلك ! قَرُّوا رأيكم . فلما سمع حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال : يا أبا الوليد ! إنك كبير قریش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال : وما ذاك يا حَكِيمُ؟ قال : ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال : قد فعلت، أنت عليّ بذلك؛ إنما هو حليفي، فعليّ عقله وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظليّة<sup>(2)</sup> (وهو أبو جهل)، فإني لا أخشى أن يشجر<sup>(3)</sup> أمر الناس غيره . ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً، فقال : يا معشر قریش ! إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمّه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب؛ فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون . قال حَكِيمُ : فانطلقتُ حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل<sup>(4)</sup> درعاً له من جرابها، فهو يُهَنِّئُهَا

(1) «أحْنَهُمْ» : أهلُهم .

(2) الْحَنْظَلِيَّةُ : هي أم أبي جهل، أسماء بنت مخربة .

(3) الشجر : الإضطراب والتنازع بين الناس .

(4) «نثل» : استخرج .

(أي: يهيئها)، فقلت له: يا أبا الحكم! إنَّ عُتْبَةَ أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال، فقال: انتفخ والله سَحْرُهُ<sup>(1)</sup> حين رأى محمّداً وأصحابه، كلاً، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمّد، وما بعُتْبَةُ ما قال؛ ولكنّه قد رأى أنّ محمّداً وأصحابه أكلتة جزور، وفيهم ابنه، فقد تخوّفكم عليه. ثمّ بعث إلى عامر بن الحضرميّ، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالنّاس، وقد رأيت ثارك بعينك، فقم فانشد خُفرتك ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرميّ، فاكتشف، ثم صرخ: واعمرّاه، واعمرّاه، فحميت الحرب وحقّب النّاس، واستوسقوا<sup>(2)</sup> على ما هم عليه من الشرّ، وأفسد على النّاس الرّأي الذي دعاهم إليه عُتْبَةُ. فلمّا بلغ عُتْبَةُ قول أبي جهل: «انتفخ والله سَحْرُهُ»، قال: سيعلم مُصَفِّرُ أَسْنَتِهِ مَنْ انتفخ سَحْرُهُ، أنا أم هو؟! ثمّ التمس عُتْبَةُ بَيْضَةً<sup>(3)</sup> ليدخلها في رأسه، فما وجد في الجيش بَيْضَةً تسعه من عظم هامته، فلمّا رأى ذلك اعتجر<sup>(4)</sup> على رأسه ببرد له<sup>(5)</sup>. فمن هذا النّص علمنا أن رأي أبي جهل ابن هشام هو السائد في قومه.

– بدء القتال الجدّي يوم الجمعة السّابع عشر من رمضان للسّنة الثّانية الهجرية<sup>(6)</sup>.

أخذ الفريقان يرتبان صفوفهما ويتأهبان للقتال، وسرعان ما خرج من صفّ المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزوميّ، وهو يقول: «أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم، أو لأهدمّنه، أو لأموئنّ دونه» فخرج له من صفّ المؤمنين حمزة بن عبد المطلب، فضربه ضربة قطعت قدمه بنصف ساقه قبل أن يصل إلى الحوض، فوقع على ظهره ورجله تشخب دمّاً، فاقتحم في الحوض حبّواً، يريد بذلك أن يبرّيميّنه، ولم يمهله حمزة؛ بل عاجله بسيفه، وقتله في الحوض شرّاً قتلة، ثم خرج من صفّ المشركين - أيضاً - عُتْبَةُ بن ربيعة مصحوباً بابنه الوليد وأخيه شَيْبَةَ بن ربيعة، ودعا المؤمنين إلى المبارزة، فخرج إليه ثلاثة من فتية الأنصار؛ وهم: عوف، ومعوذ، ابنا الحارث، وعبدالله بن رواحة. فقال لهم عتبه ومن معه: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار،

(1) السّحر - بفتح السين وضمّها وسكون الحاء -: الرّثة. ومعنى انتفخ سَحْرُهُ: جيّن وامتلاً ذعراً وخوفاً.

(2) «استوسقوا»: اجتمعوا وأجمعوا.

(3) البَيضة: الخوذة توضع على الرّأس في الحرب.

(4) «اعتجر»: لفّ.

(5) ابن هشام عبد الملك. السيرة النبوية بشرح روض الأنف. ج 5 ص 100، 102.

(6) الموافق للسّادس عشر من شهر مارس سنة 624 للميلاد.



فقالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناد من هؤلاء المشركين الثلاثة: يا محمد! أخرج لنا أكفأنا من قومنا قريش المكيين، فنادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ثلاثة رجال من أصحابه، وأمرهم بالقيام لهؤلاء الطالبين البراز، فلما قاموا ودنوا من الداعين إلى المبارزة، قالوا لهم: من أنتم؟ قال عبيدة: أنا عبيدة بن الحارث، وقال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب، وقال عليّ: أنا عليّ بن أبي طالب، فقال هؤلاء الداعون إلى المبارزة: نعم، أنتم أكفأ كرام. فبارز حمزة شيبه بن ربيعة ولم يمهله أن أرداه قتيلًا، وبارز عليّ الوليد بن عتبة ولم يمهله أن أرداه قتيلًا، وبارز عبيدة عتبة بن ربيعة، فبادلا ضربتين، فأصاب كل منهما صاحبه إصابة بالغة، فلما رأى حمزة وعليّ ذلك، كرّأ بسيفيهما على عتبة فأجهزا عليه، واحتملا صاحبهما وعاداه إلى صفوف المسلمين. وكان عبيدة هذا أسنّ من حمزة وعليّ، ولما جاؤوا به إلى رسول الله ومخّ ساقه يسيل، فأضجعوه إلى جانب موقف رسول الله، فأشرفه قدمه الشريفة، فوضع خده عليها وقال: ألسْتُ شهيداً، قال رسول الله: «بلى»، فقال عبيدة: يا رسول الله! لورآني أبو طالب لعلم آتي أحق بقوله:

وَنَنْصُرُهُ حَتَّى نَصْرَعَ دُونَهُ وَنَذْهَلَ عَنْ أُنْبَائِنَا وَالْحَلَائِلُ<sup>(1)</sup>

ثم مات رضي الله عنه، فقال رسول الله: «أشهد أنك شهيد».

ثم عدل رسول الله صفوف المسلمين، ورجع إلى العريش برفقة أبي بكر الصديق فدخله، وفيه أخذ يناشد ربّه ما وعده من النصر المبين، ويقول فيما يقول: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدُ»، وأبو بكر يقول: يا نبيّ الله! بعض مناشدتك ربّك، فإن الله منجز لك ما وعدك. وما زال النبيّ يبتهل إلى ربّه مادّاً يديه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فردّه أبو بكر عليهما!! ثم خرج رسول الله من العريش إلى أصحابه يحرضهم على الجهاد لإعلاء كلمة الله، فقال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ؛ فَيُقْتَلَ صَابِراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ؛ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ». فلما سمع ذلك عمير بن الحُمَام، وفي يده تمرات يأكلهنّ، قال: بخّ بخّ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل شهيداً. وسأل عوف بن الحارث رسول الله عمّا يُضحك الربّ من

(1) «الحلائل»: جمع حليلة؛ وهي الزوجة.

عبده؟ فقال له: «عَمْسُهُ يَدُهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا»<sup>(1)</sup>، فنزع درعاً كانت عليه ورمى بها، ثم أخذ سيفه، وقاتل أعداء الله حتى قُتل شهيداً. ثم أخذ رسول الله حفنة من الحصباء، فاستقبل بها أعداء الله ونفحهم<sup>(2)</sup> بها وهو يقول: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ! اللَّهُمَّ ارْعَبْ قُلُوبَهُمْ! وَزَلْزَلْ أَقْدَامَهُمْ!» ثم أمر أصحابه بما يكون عوناً لهم على أعدائهم عند القتال، فقال: «إِنْ اكْتَنَفَكُمُ الْقَوْمُ فَاَنْضَحُوهُمْ عَنْكُمْ بِالنَّبْلِ، وَاسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ عَلَى بُعْدٍ، فَإِنَّ الرَّمِيَّ مَعَ الْبُعْدِ غَالِبٌ يُخْطِئُ، لَا تَسْلُوا السُّيُوفَ حَتَّى يَغْشَوْكُمْ». ثم تراحف الفريقان، ودنا بعضهما من بعض، واشتعل وطيست القتال بين الجانبين، وكان شعار المهاجرين - يومئذ -: «يا بني عبد الرحمن» وشعار الخزرج: «يا بني عبد الله»، وشعار الأوس: «يا بني عُبَيْدِ اللَّهِ»، وشعار الصحابة: «أحد أحد». وقد سمى رسول الله خيل المسلمين «خيل الله». وقد وجّه المسلمون المقاتلون جلّ اهتمامهم إلى سادات قريش وأكابرهم، لما لقوا منهم من عذاب وتنكيل بهم، يوم كانوا بمكة وقبل أن يهاجروا بدينهم إلى المدينة. فهذا بلال بن رباح يلمح أثناء المعركة أمية بن خلف، الذي كان يعذّبه بمكة شرّاً تعذيب؛ حينما كان يلقيه في الرّمضاء على الأرض، ويضع الصّخر على صدره، فلم ينس بلال ما فعل به أمية عندما أبصره، فصاح: أحد، أحد، ها هو أمية رأس الكفر، لا نجوت إن نجا، وحمل عليه فقتله؛ رغم أن بعض المسلمين حاولوا أن يحولوا دون قتله ليأخذه أسيراً. وهذا معاذ بن عمرو بن الجموح ضرب أبا جهل بن هشام ضربة قطعت قدمه بنصف ساقه، فمرّ به معوّد ابن عفراء فضربه حتى أثبتته، وتركه وبه رمق، فمرّ به عبد الله بن مسعود وهو يلتمس القتلى بأمر من رسول الله، فوجده بأخر رمق فعرفه، فوضع رجله على عنقه، ثم قال له: هل أخزأك الله يا عدوّ الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه. ثم احتزّ رأسه، وجاء به إلى رسول الله، فقال: «اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ». وكانت يمين رسول الله - ثم ألقي رأسه بين يدي رسول الله، فحمد الله. وكانت الهزيمة على مشركي قريش فقتل الله على أيدي المسلمين من قتل من صناديدهم، وأسر من أسر من أشرفهم. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتهل إلى الله في العريش، وسعد بن معاذ على باب العريش متوشحاً سيفه مع نفر من الأنصار، يحرسون رسول الله تخوفاً عليه من كرهة العدوّ المباغته وقد لمح رسول الله في وجه سعد الكراهية لما يصنع

(1) «حاسراً»: الحاسر من الجنود من لا درع له ومغفر.

(2) «نفحهم»: رماهم.

النَّاسَ ، فقال له : «وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ - يَا سَعْدُ! - تَكْرَهُ لِمَا يَصْنَعُ الْقَوْمُ» ، فقال سعد : أجل . والله - يا رسول الله ! - كانت أولُ وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، وكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال . ولما التقى الجمعان واشتعل وطيس القتال بين الفريقين ، ازداد المسلمون قوةً بإيمانهم الراسخ في قلوبهم ، وأمدَّهم الله بما أمدَّهم من الملائكة يبشرونهم بالنصر المبين ، ويزيدونهم إيماناً مع إيمانهم وثباتاً لا يحيدون عنه ما داموا يؤمنون بأنَّ الله ربُّهم ، ومحمداً رسولهم ، والإسلام دينهم ، فلا يثنيهم قلة عددهم وعدتُّهم وكثرة عدد عدوِّهم وعدتُّه عن الكرِّ عليه فلا يهابون أن يموتوا ؛ بل هم حريصون على نيل الشهادة طمعاً في الجنة . وفي ذلك نزل قوله - تعالى ! - : ﴿ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْزَعَبَ فَأَنْزِلُوكَ فَفَازُوا فَتَبَيَّنَ ۚ كُلٌّ بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ وَاللَّهُ شَاقِقُ النَّاسِ وَرَسُولُهُ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۚ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمْ ۚ الْأَدْبَارَ ۚ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۚ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ۚ ۝١١﴾ .

### انهزام المشركين وانتصار المسلمين

أسفرت معركة بدر عن هزيمة المشركين وفوز المسلمين بالنصر المبين ، فقد خسر المشركون سبعين قتيلًا وسبعين أسيراً من صناديد رجالهم المعتبرين !! وفرَّ باقيهم وعلى رأسهم ساداتهم ، مخلفين وراءهم كثيراً من الغنائم التي صارت بأيدي المسلمين مع الأسرى حلالاً مشروعاً بنصِّ كتاب الله . ولم يستشهد من المسلمين سوى أربعة عشر رجلاً : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار . وسأتي على ذكر أسمائهم إن شاء الله . وبذلك قد حقق الله ابتهاج رسوله الكريم إبَّان خروجه بجيش المسلمين من المدينة وهو يقول : «اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم» . ثم أمر رسول الله بدفن قتلى المشركين في القليب ؛ فطرحوا فيه ؛ إلا أمة بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملاها ، فذهبوا به ليخرجوه فتقطَّع ، فطرحوا

(1) سورة «الأنفال» . الآيات 12 - 18 .

عليه من التراب والحجارة ما غيَّبه . قالت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها! - وغير واحد من أصحاب رسول الله : ولما أُلقي في القليب قتلى المشركين ، وقف عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقال : «يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ ! بُشِّ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ! كَذَبْتُمُونِي وَصَدَقْتَنِي النَّاسُ» . ثم قال - يَا عَتْبَةَ ، يَا شَيْبَةَ ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ ، يَا أَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ - وعدد من كان في القليب - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فقال له أصحابه : أتكلّم قوماً موتى؟! فقال : «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعُ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي» . ولما قال قوله هذا لأهل القليب ، رأى في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية وقد تغير ، فقال له : «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟ قال : لا والله - يا رسول الله ! ما شككت في أبي وفي مصرعه ؛ ولكنه كان له عقل وحلم وفضل ، فكنت أرجو له الإسلام ، فلما رأيت ما مات عليه من الكفر أحزنني ذلك ، فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بخير» .

### أسماء شهداء المسلمين ببدر

لقد تقدّم لنا أن ذكرنا أن عدد شهداء بدر من المسلمين أربعة عشر ؛ وها هي أسماءهم حسبما جاءت في كتاب «الغازي» لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد ، المعروف بـ «الواقدي» . قال - رحمه الله! - : «حدثني عبد الله بن جعفر ، قال : سألت الزُّهري : كم استشهد من المسلمين ببدر؟ قال : أربعة عشر رجلاً . ثم عدّهم ، فهم هؤلاء الذين سميتُ . وحدثني محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمرو بن رومان مثله : ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار ؛ من بني المطلب بن عبد مناف : عبّدة بن الحارث من الأنصار ، قتله شيبه بن ربيعة<sup>(1)</sup> ، فدفعه النبي - صلى الله عليه وسلم! - بـ «الصفراء»<sup>(2)</sup> . ومن بني زُهرة : عُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، قتله عمرو بن عبد ؛ أخبرني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد ، عن أبيه . وعُمَيْرُ بْنُ عَبْدِ عَمْرِو بْنِ الشَّامِلِينَ ، قتله أبو أسامة الجُشَمِي . ومن بني عدي بن كعب : عاقل بن أبي البَكْرِ حليف لهم من بني سعد بن بكر ، قتله مالك بن زُهَيْر الجُشَمِي . ومُهَجَّعُ مولى عمر بن الخطّاب ، قتله عامر بن الحَضْرَمِي أخبرني ابن أبي حبيبة ، عن داود بن الحَصِين . قال : وحدثني محمد بن عبد الله ، عن الزُّهري . ويقال : أوّل

(1) في هذا نظر ، لأنّ شيبه بن ربيعة قتله حمزة بن عبد المطلب في أوّل البراز ، وقبل اقتحام الفريقين

المعركة!!

(2) «الصفراء» : واد من ناحية المدينة ، وهو كثير النخل والزرع ، في طريق الحجّ ، بينه وبين بدر مرحلة .

قتيل قتل من المهاجرين مهجع مولى عمر. ومن بني حارث بن فهر: صفوان بن بيضاء، قتله طعيمة بن عدي؛ فحدثني بذلك محرز بن جعفر بن عمرو، عن جعفر بن عمر. ومن الأنصار، من بني عمرو بن عوف: مبشر بن عبد المنذر، قتله أبو ثور. وسعد بن خيثمة، قتله عمرو بن عبد؛ ويقال: طعيمة بن عدي. ومن بني عدي بن النجار: حارثة بن سراقه، رماه حيّان بن العرقه بسهم فأصاب خنجرته فقتله. - قال الواقدي: وسمعت المكيين يقولون: ابن العرقه. ومن بني مالك بن النجار: عوف ومعوذ ابنا عفراء، قتلها أبو جهل<sup>(1)</sup> ومن بني سلم بن حرام: عمير بن الحُمام بن الجموح، قتله خالد بن الأعلم؛ حدثني محمد بن صالح قال: أول قتيل قتل من الأنصار في الإسلام عمير بن الحُمام، قتله خالد بن الأعلم، ويقال: حارثة بن سراقه، رماه حيّان بن العرقه. ومن بني زريق: رافع بن المعلّى، قتله عكرمة بن أبي جهل. ومن بني الحارث ابن الخزرج: يزيد بن الحارث بن فُسحُم، قتله نوفل بن معاوية الديلمي. حدثني ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قُتل أنسة مولى النبي - صلى الله عليه وسلم! - بيدر حدثني الثوري، عن الزبير بن عدي، عن عطاء: أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - صلى على قتلى بدر. وحدثني عبد ربه بن عبد الله، عن عطاء، عن ابن عباس مثله...»<sup>(2)</sup>. ولما وصل إلى أهل مكة خبر قتلاهم بيدر وهزيمة جيشهم أمام أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حزنوا حزناً شديداً، مما أدّى بهم ذلك إلى أن قطعت نساؤهم شعورهنّ، وعمّ بكاؤهنّ ونواجهنّ مكة وأرجاءها أياماً عديدة؛ بقدر ما كان للمسلمين فرحاً ومرحاً بنصرهم المبين على أهل الشرك اللعين، على حدّ قول المتنبي:

بَذَا قَضَتِ الْأَيَّامُ مَا يَيْنَ أَهْلِهَا      مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ قَوَائِدُ

### التجاشي يفرح بانتصار المسلمين على المشركين!

قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن الحافظ البيهقي ورواته: «أرسل التجاشي ذات يوم إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فدخلوا عليه؛ وهو في بيت عليه خَلْقَانٌ<sup>(3)</sup> ثياب جالس على

(1) في هذا انظر، لأن معوذ بن عفراء مرّ أثناء المعركة بأبي جهل طريحاً وبه رمق، فضربه حتى أثبتته كما تقدم في صلب الكتاب. (الواقدي، محمد. كتاب المغازي. ج 145 - 147).

(2) المصدر السابق.

(3) «خَلْقَان» : - بفتح أوله وثانيه - : مثني خلق؛ وهو الثوب البالي.

التراب . قال جعفر بن أبي طالب : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلمّا أن رأى ما في وجوهنا قال : إنّي أبشركم بما يسركم : إنّه جاءني من نحو أرضكم عيّنٌ لي ، فأخبرني أنّ الله قد نصر نبيّه ، وأهلك عدوّه ، وأسرّ فلان وفلان ، وقُتل فلان وفلان . التقوا بواد يقال له بدر ، كثير الأراك ، كأتّي أنظر إليه ؛ كنت أرعى لسدي رجل من بني ضمرة إليه . فقال له جعفر : ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخطا ؟ ! قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى : أنّ حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً عندما يحدث لهم من نعمة ، فلمّا أحدث الله لي نصر نبيّه - صلى الله عليه وسلم !- أحدثت له هذا التواضع <sup>(1)</sup> . فهذا الخبر سارّ في ذاته للنّجاشيّ والمسلمين ؛ كما هو عبرة في ذاته للمعتبرين ! وكان فراغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من غزوة بدر في عقب شهر رمضان أو في أوائل شهر شوال من السنة الثانية للهجرة النبوية .

### الحديث عن تقسيم الغنائم

لما انتهت معركة بدر ووضعت الحرب بين الفريقين أوزارها ، وأنّ أوامر عودة المسلمين إلى المدينة مظفرين غائين ، دبّ الخلاف فيما بينهم في شأن تقسيم الغنائم : فمنهم من قال : نحن جمعناها وانتزعتها من العدو ، فهي لنا وحدنا ، ومنهم من قال : نحن قاتلنا العدو ففتحلى عنها بسبب قتالنا إياه وانتصارنا عليه ، فنحن أحقّ بها . ومنهم من قال : نحن الذين قد قمنا بحراسة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من مباغطة العدو إياه وكرّه عليه ؛ فلا أئتم ولا هم بأحقّ بها منا ، فقد كان في إمكاننا أن نستولي عليها حينما لم يكن دونها من يمنعها منا ؛ لولا خوفنا على رسول الله من مكروه يصيبه من أعداء الله ، فهذا الذي جعلنا ملازمين حراسته ، ولم نشغل أنفسنا بما سوى ذلك . وقد شاء الله أن يقطع دابر هذا الخلاف بينهم ، فأنزل قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ... وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ <sup>(2)</sup> . وكانت القسمة في منتهى العدالة بين المسلمين بأمر الله ورسوله ، ولم تكن محصورة في من شهد معركة بدر ، ولا مقصورة

(1) ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 3 ص 307 ، 308 .

(2) سورة «الأنفال» . الآيات 1 - 41 .

على شهادتها من المسلمين؛ بل قد شملت جميع من تخلف بالمدينة عن خوض معركة القتال لأمر فيه ما هو نفع للمسلمين، ولم يكن المحارب وحده هو المستفيد من الفياء المغتنم بسبب القتال الذي كان فيه النصر للمسلمين والغلبة للحق المبين. قال محمد بن إسحاق - نقلاً عن مكحول، عن أبي أمامة الباهلي - قال: «سألت عبادة بن الصّامت عن «الأنفال»؟ فقال: فينا أصحاب بدر نزلت؛ حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقسّمه بين المسلمين على السّواء». قال إسماعيل بن كثير: أي: ساوى فيها بين الذين جمعوها، وبين الذين اتّبّعوا العدو، وبين الذين ثبتوا تحت الرايات؛ ولم يُخصّص بها فريقاً منهم ممّن ادّعى التخصيص، ولا ينفي هذا تخميسها وصرف الخمس في مواضعه؛ كما قد توهّمه بعض العلماء، منهم أبو عبيدة وغيره، والله أعلم<sup>(1)</sup>. فأين هذا الحكم المبين مما نحن فيه اليوم؛ حينما استولى أشباه المجاهدين على ما ليس لهم فيه حق لا بمقتضى الشرع المبين ولا بمقتضى العقل الرّزين؛ بل هم له مغتصبون، وباسم الجهاد المزورّ حكموا البلاد، وتفرعنوا على العباد!!

### الحديث عن أسرى المشركين

اختلف المشركون في شأن الأسرى على قولين اثنين: أيّادون أو يُقتلون. روى الإمام أحمد وغيره: «ولمّا كان يوم بدر، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - (لأصحابه): «ما تَقُولُونَ في هؤُلاءِ الأَسْرَى؟»، فقال أبو بكر: يا رسول الله! قومك وأهلك، استبقهم، واستأن بهم؛ لعلّ الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله! أخرجوك، وكذبوك، قرّبهم فأضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثمّ أضرمه عليهم ناراً. فدخل رسول الله ولم يردّ عليهم شيئاً - فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يقول بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة - فخرج عليهم، فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك - يا أبا بكر -! كمثّل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(2)</sup>. ومثلك - يا أبكر - كمثّل عيسى قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ

(1) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 3 ص

(2) سورة «إبراهيم». الآية 36.

وَأَنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ»<sup>(1)</sup>. وإنَّ مثلك - يا عمر - كمثل نوح قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾<sup>(2)</sup>. وإنَّ مثلك - يا عمر - كمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾<sup>(3)</sup>. أنتم عالة فلا يتقين إلا بفداء أو ضربة عنق». قال عبد الله: فقلت: يا رسول الله! إلا سهيل بن بيضاء؛ فإنني قد سمعته يذكر الإسلام. قال: فسكت، قال: فما رأيته في يوم أخوف أن تقع عليّ حجارة من السماء، من ذلك اليوم حتى قال: «إِلَّا سُهَيْلَ بْنِ بِيضَاءَ». فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ﴾<sup>(4)</sup> فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٩﴾. وعاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! إلى المدينة بالنصر المبين على أعداء الله، ظافراً ومظفراً بالغنائم والأسرى، وقد انتهى المسلمون بعد مشاورهم في شأن الأسرى - إلى قبول الفداء، فكان فداء الأسير يتراوح ما بين أربعة آلاف درهم فما دونها إلى ألف درهم. ومن لم يكن له من المال ما يفدي به نفسه، وكان يحسن القراءة والكتابة، يكلف بعشرة من صبيان أهل المدينة أن يعلمهم القراءة والكتابة، وكان هذا مقابل فدائه من الأسر المحتوم. وكان العمل للفداء جارياً على هذا النمط قبل نزول الآية السابعة والستين من سورة «الأنفال» المؤيدة لرأي عمر بن الخطاب في شأن الأسرى.

### الحديث عن العباس بن عبد المطلب

لما هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من مكة إلى المدينة، بقي عمه العباس بن عبد المطلب على شركه بمكة. ولما كانت غزوة بدر خرج مع المشركين محارباً للمسلمين، فسقط أسيراً في أيديهم مع أسرى المشركين.

(1) سورة «المائدة». الآية 118.

(2) سورة «نوح». الآية 26.

(3) سورة «يونس». الآية 88.

(4) «يثخن في الأرض»: يبالي في قتل أعداء الله.

(5) قال علماء التفسير: أي: «لولا أنني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم».

(6) سورة «الأنفال». الآيات 67-69. ورواية الإمام أحمد، هي نفسها رواية الترمذي والحاكم من حديث أبي معاوية، ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عمر وأبي هريرة.



روى مجاهد عن عبدالله بن عمر أنه قال: «لما أُسر الأسارى يوم بدر، أُسر العباس فيمن أُسر؛ أسره رجل من الأنصار؛ قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: «إِنِّي لَمْ أَنْمِ اللَّيْلَةَ مِنْ أَجْلِ عَمِّي الْعَبَّاسِ، وَقَدْ زَعَمَتِ الْأَنْصَارُ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ». قال عمر: أفأتيهم؟ قال: «نَعَمْ»، فأتى عمر الأنصار، فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا، والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله رضى؟ قالوا: فإن كان له رضى فَخُذْهُ، فأخذه عمر. فلما صار في يده قال له عمر: يا عباس! أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك»<sup>(1)</sup>. وعن عبدالله بن عباس: «لما أمسى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق، بات النبي - صلى الله عليه وسلم - ساهراً أوّل الليل، فقال له أصحابه: ما لك لا تنام يا رسول الله؟ فقال: «سَمِعْتُ أَنْبَى عَمِّي الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ» فَأُطْلِقُوهُ فَسَكَتَ<sup>(2)</sup>، فنام رسول الله - صلى الله عليه وسلم -<sup>(3)</sup>. قال محمد بن إسحاق: «وكان (العباس بن عبد المطلب) رجلاً موسراً ففادى نفسه بمائة أوقية من ذهب». قال إسماعيل بن كثير: «قلت: وهذه المائة كانت عن نفسه، وعن ابني أخويه: عقيل، ونوفل، وعن حليفه عتبة بن عمرو أحد بني الحارث بن فهر؛ كما أمره بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين ادعى أنه كان قد أسلم، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! : «أَمَّا ظَاهِرُكَ فَكَانَ عَلَيْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ وَسَيُجْزِيكَ»<sup>(4)</sup>. وروى أبو داود عن أبي الشعثاء، عن عبدالله بن عباس «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل فداء الجاهلية يوم بدر أربعمائة، وهذا كان أقل ما فودي به أحد منهم من المال، وأكثر ما فودي به الرجل منهم أربعة آلاف درهم. وقد وعد الله من آمن منهم بالخلف عما أخذ منه في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾»<sup>(5)</sup>. قال الوالبي - عن عبدالله بن عباس - أن هذه الآية نزلت في العباس بن عبد المطلب. ثم توعد الله الخونة ممن

(1) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 3 ص 298.

(2) أي: سكت العباس من الأنين.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق.

(5) سورة «الأنفال». الآية 70.

أظهروا في أقوالهم ما هو مخالف لما أخفوه في ضمائرهم، فقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا إِخْيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>. قال قتادة: نزلت هذه الآية في عبد الله ابن سعد بن أبي سرح الكاتب؛ حين ارتدّ ولحق بالمشركين.

### الحديث عن أبي العاص لقيط بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس

ومن أسرى المشركين في غزوة بدر، أبو العاص لقيط بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام. وكانت أمه هالة بنت خويلد، أخت خديجة زوجة رسول الله؛ فهي خالة أبي العاص، وزينب بنت خالته. وكان زواجه بزینب قبل أن يوحى إلى رسول الله فلما أوحى إليه آمنت به وصدّفته فيما جاء به، وبقي زوجها على شركه حينما كان رسول الله بمكة مغلوباً على أمره، ولم يكن في مقدوره أن يفرّق بينهما. وكان أبو العاص من أكثر أهل مكة مالاً وتجارة وأمانة.

### ما هو السبب في زواج أبي العاص من زينب؟

قال ابن هشام - نقلاً عن ابن إسحاق -: «... فسألت خديجة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أن يزوّج أبا العاص ابن أختها من زينب بنتها، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لا يخالفها؛ وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي، فزوّجه منها. وكانت خديجة تعدّ أبا العاص بمنزلة ولدها. فلما أكرم الله رسوله - صلى الله عليه وسلم! - بنبوته، آمنت به خديجة وبناته، فصدّفته، وشهدن أن ما جاء به هو الحقّ، ودنّ بدینه، وثبت أبو العاص على شركه»<sup>(2)</sup>. وقد حاولت قريش أن يفرّقوا بين أبي العاص وزوجته زينب، وأن يستبدل بها امرأة أخرى من قريش ذات منصب وجمال؛ بيد أنه رفض ذلك منهم، وأصرّ على أن يبقى مخلصاً لزوجته زينب، وافيّاً لها في السراء والضراء، ثابتاً على حبّه إيّاها حبّاً يوحى بأنّه هو لباس لها؛ كما هي لباس له. وهذا يبدو واضحاً في ردّه على من أرادوا منه ما أرادوا: «لا والله، إنّي لا أفارق صاحبتى، وما أحبّ أنّ لي بامرأتى امرأة من قريش». ولعلّ هذا الوفاق من أبي العاص لزوجته، هو الذي جعل رسول الله يثني عليه في صهره خيراً. وقد شاء القدر أن يسقط أبو العاص بن الربيع أسيراً في أيدي المسلمين، وأن يكون فداؤه بتكرّم زوجته عليه بعقد لها، قد بعثت به في فداء زوجها الأسير. قال أبو الحسن عليّ بن الأثير: «فلما خرجت قريش إلى بدر، خرج معهم (أبو العاص

(1) سورة «الأنفال»، الآية 71.

(2) ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية، بشرح روض الأثف. ج 5 ص 162.

ابن الربيع) فأسر، فلما بعثت قريش في فداء الأسارى، بعثت زينب في فداء أبي العاص زوجها بقلادة لها، كانت خديجة (أمها) أدخلتها معها (يوم زفافها)، فلما رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - رَقَّ لها رقة شديدة وقال: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلَقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا فَأَفْعَلُوا» فَأُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَرَدُّوا الْقِلَادَةَ. وأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عليه (أي: على أبي العاص) أن يُرسل زينب إليه بالمدينة، وسار (أبو العاص) إلى مكة، وأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - زيد بن حارثة مولاهُ ورجلاً من الأنصار، ليصحبوا زينب من مكة. فلما قدم أبو العاص أمرها باللاحق بالنبي - صلى الله عليه وسلم! - فتجهزت سراً، وأركبها كنانة بن الربيع، أخو (زوجها) أبي العاص، بعيداً وأخذ قوسه وخرج بها نهاراً. فسمعت بها قريش، فخرجوا في طلبها، فلحقوا بـ «ذي طوى» وكانت حاملاً، فطرح حملها لما رجعت لخوفها، ونثر كنانة أسنمهم، ثم قال: والله لا يدنو مني أحد إلا وضعت فيه سهماً! فأتاه أبو سفيان بن حرب وقال (له): خرجت بها علانية، فيظن الناس أن ذلك عن ذل وضعف منا، ولعمري ما لنا في حبسها حاجة، فارجع بالمرأة ليتحدث الناس أننا رددناها. ثم أخرجها ليلاً وسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقداها بها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأقامت عنده. فلما كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بأمواله وأموال رجال من قريش، فلما عاد لقيته سرية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأخذوا ما معه وهرب منهم. فلما كان الليل أتى المدينة، فدخل على زينب، فلما كان الصبح خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى الصلاة فكبر وكبر الناس، فنادت زينب من صفة النساء: أيها الناس! إني قد أجرت أبا العاص. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم! -: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؛ إِنَّهُ لِيُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ» وقال لزينب: «لَا يَخْلُصُ إِلَيْكَ فَلَا يَحِلُّ لَكَ». وقال للسرية الذين أصابوه: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَرُدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَإِنَّا نَحْبُ ذَلِكَ، وَإِنْ أَيْتَمَ فَهُوَ فِيَّ اللَّهُ الَّذِي أَفَاءَهُ عَلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ». قالوا: يا رسول الله! بل نرده عليه. فردوا عليه ماله كله حتى الشظاظ<sup>(1)</sup>. ثم عاد (أبو العاص) إلى مكة، فرد على الناس ما لهم، وقال لهم: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنني

(1) «الشظاظ»: خشبة عفاء تدخل في عروة الجوالق. والجوالق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما؛ وهو كالغرارة.

إنّما أردتُ أكل أموالكم . ثمّ خرج فقدم على النّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فردّ عليه أهله بالنكاح الأوّل ، وقيل بنكاح جديد<sup>(1)</sup> . وقد توسّعنا في هذا الموضوع شيئاً ما في كتابنا : «زواج المسلم بغير المسلمة ، وزواج المسلمة بغير المسلم في ميزان الإسلام» بالعربية والفرنسية .

### مقتل النّضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ؛

#### في طريق رجوع المسلمين إلى المدينة

وبعد انتهاء معركة بدر آخر يوم الجمعة بانتصار المسلمين بتأييد من الله ، رحلوا راجعين إلى المدينة ، وكان ذلك يوم الإثنين ، أي : بعد انتصارهم بثلاثة أيام . وقد ثبت في الصّحّحين : أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إذا ظهر على قوم أقام بـ «العُرْصَة»<sup>(2)</sup> ثلاثة أيام ، وقد أقام بها ثلاثة أيام كذلك بعد انتصاره ببدر على المشركين وقبل أن تمسّ قدماه أرض المدينة ، بعث بين يديه إلى أهلها مبشرين اثنين بالفتح العظيم والنّصر المبين على المشركين . فالمبشر الأوّل هو عبد الله ابن رواحة إلى أعالي المدينة ، والثاني هو زيد بن حارثة إلى السّافلة . ولما وصل رسول الله إلى «الصفراء»<sup>(3)</sup> أمر بقتل النّضر بن الحارث ؛ فقتله عليّ بن أبي طالب ، ثمّ تابع رسول الله سيره مع أصحابه حتى إذا كان بـ «عرق الظّبية»<sup>(4)</sup> أمر بقتل عقبة بن أبي معيط ؛ فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح . قال محمد بن إسحاق : «فقال عقبة حين أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بقتله : فَمَنْ لِلصّبيّة يا محمد؟ ! قال : «النّار» . وقال موسى بن عقبة في مغازيه : ولما أقبل عاصم ابن ثابت إلى عقبة بن أبي معيط ليقّته ، قال : يا معشر قريش ! علام أقتل من بين مَنْ ههنا؟ ! قال عاصم : على عداوتك لله ورسوله . وقال حمّاد بن سلمة : عن عطاء بن السّائب ، عن الشعبيّ قال لما أمر النّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- بقتل عقبة قال : أتقتلني يا محمد من بني قريش؟ ! قال : «نعم ! أتدرون ما صنّع بي؟ جاء وأنا ساجدٌ خَلْفَ الْمَقَامِ ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي وَغَمَزَهَا فَمَا رَفَعَهَا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ عَيْنِي سَتَنْدُرَانِ ، وَجَاءَ مَرَّةً أُخْرَى بِسَلَا شَاةٍ فَأَلْقَاهُ عَلَى رَأْسِي وَأَنَا سَاجِدٌ ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ فَعَسَلَتْهُ عَنْ رَأْسِي»<sup>(5)</sup> . قال إسماعيل بن كثير - بعد نقله ما تقدّم ذكره - : «قلت :

(1) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 134 ، 135 .

(2) موضع بعقيق المدينة ، وهي أفضل بقاع المدينة ، وكان العرب يمنعون البناء فيها .

(3) «الصفراء» : وادي من ناحية المدينة بينه وبين بدر مرحلة .

(4) «عرق الظّبية» : موضع بين مكة والمدينة .

(5) البداية والنهاية . ج 3 ص 306 .

كان هذان الرجلان من شرّ عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله؛ لعنهما الله، وقد فعل»<sup>(1)</sup>. وهذان الرجلان اللذان أمر رسول الله بقتلهما هما أسيران عند المسلمين. وهذا لا ينافي قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «استَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا»<sup>(2)</sup>. فامتثل الصحابة أمر الرسول وعملوا بما أوصاهم به في الحال. قال أبو عزيز بن عمير: «مرّبي أخي مُصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال (أخي مُصعب لمن يأسرني): شدّ يدك به، فإنّ أمّه ذات متاع، لعلها تفديه منك، وكنتُ في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصيّة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إيّاهم بنا؛ ما تقع في يد رجل منهم كسرة خُبز إلّا نفحني<sup>(3)</sup> بها، فأستحي فأردها على أحدهم، فيردها عليّ ما يمسهَا»!!

### غزوة بني قينقاع

كانت هذه الغزوة المباركة بسبب عداوة اليهود للمسلمين وحسدهم لانتصارهم بيدرك على المشركين. والحسد والحقد في طبع اليهود من المهد إلى اللحد، وهم لا يريدون لغيرهم على وجه العموم إلّا نكبات الدهر وشور الزمان؛ ولا يريدون لأنفسهم وأنسالهم إلّا الخير العميم والتفوق على غيرهم، والاستئثار بالمال والسلطان دون من عداهم ولا يرتضون أن يدانيهم فيما يحبّون لأنفسهم أحد من البشر؛ مهما كان بينه وبينهم من عهد موثوق أو حلف مشهور. وهذا ما دفع بهم أن يكثروا عن أنيابهم ويظهروا عداهم للمسلمين بمجرد عودة رسول الله إلى المدينة ظافراً مظفراً بالنصر المبين بيدرك على المشركين. قال محمد بن عمر الواقدي: «غزوة قينقاع يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً، حاصروهم<sup>(4)</sup> النبي - صلى الله عليه وسلم! - هلال ذي القعدة. حدثني عبدالله بن جعفر، عن الحارث بن الفضيل، عن ابن كعب القرظي، قال: لما قدّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - المدينة، وادعته اليهود كلّها، وكتب بينه وبينها كتاباً، وألحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كلّ قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أماناً، وشرط عليهم شروطاً، فكان فيما شرط أن لا

(1) وقد فعل.

(2) رواه الطبراني، عن أبي عزيز بن عمير.

(3) «نفحني»: فضّلني.

(4) «هم»: الضمير يعود على يهود قينقاع.

يُظهروا عليه عدوًّا. فلَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - أَصْحَابَ بَدْرٍ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ، بَغَتْ يَهُودُ وَقَطَعَتْ مَا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - مِنَ الْعَهْدِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - إِلَيْهِمْ فَجَمَعَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! أَسْلَمُوا، قَوْلَ اللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، قَبْلَ أَنْ يُوقَعَ اللَّهُ بِكُمْ مِثْلَ وَفْعَةِ قُرَيْشٍ». فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! لَا يُغَرِّكَ مَنْ لَقِيتَ؛ إِنَّكَ قَهَرْتَ قَوْمًا أَغْمَارًا<sup>(1)</sup>. وَإِنَّا وَاللَّهِ أَصْحَابُ الْحَرْبِ، وَلِئِنْ قَاتَلْتَنَا لَتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ لَمْ تَقَاتِلْ مِثْلَنَا، فَبَيْنَاهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ: مِنْ إِظْهَارِ الْعَدَاوَةِ وَنَبْذِ الْعَهْدِ، جَاءَتْ امْرَأَةٌ نَزِيعَةٌ<sup>(2)</sup> مِنَ الْعَرَبِ تَحْتَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى سَوْقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، فَجَلَسَتْ عِنْدَ صَائِغٍ (يَهُودِيٍّ) فِي حُلِيِّ لَهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ يَهُودِ قَيْنُقَاعَ فَجَلَسَ وَرَاءَهَا وَلَا تَشْعُرُ، فَخَلَّ دَرْعَهَا إِلَى ظَهْرِهَا بِشَوْكَةٍ، فَلَمَّا قَامَتِ الْمَرْأَةُ بَدَتْ عَوْرَتَهَا فَضَحِكُوا مِنْهَا، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاتَّبَعَهُ فَقَتَلَهُ، فَاجْتَمَعَتْ بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَتَحَايَشُوا فَقَتَلُوا الرَّجُلَ، وَنَبَذُوا الْعَهْدَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَحَارَبُوا، وَتَحَصَّنُوا فِي حَصْنِهِمْ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فَحَاصَرَهُمْ، فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ سَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَأُجْلِيَ يَهُودُ قَيْنُقَاعَ، وَكَانُوا أَوَّلَ يَهُودَ حَارَبَتْ. فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأِمَّا تَحَايَرَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾<sup>(3)</sup>. فَسَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَحَصَرَهُمْ فِي حَصْنِهِمْ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً أَشَدَّ حِصَارٍ؛ حَتَّى كَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَقَالُوا: أَفَنَنْزِلُ وَنَطْلُقُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -: «لَا، إِلَّا عَلَى حُكْمِي»، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَأَمَرَ بِهِمْ قَرْبُطُوا، فَكَانُوا يَكْتَفُونَ كِتَافًا، وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - عَلَى كِتَافِهِمُ الْمُنْذِرَ بْنَ قُدَّامَةَ السُّلَمِيِّ، فَمَرَّبَهُمْ ابْنُ أَبِي<sup>(4)</sup> وَقَالَ: حَلُّوهُمْ! فَقَالَ الْمُنْذِرُ: أَتَحْلُونَ قَوْمًا يَرْبِطُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -؟! وَاللَّهِ لَا يَحْلَهُمْ رَجُلٌ إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، فَوُثِبَ ابْنُ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دَرْعِهِ مِنْ خَلْفِهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَحْسَنَ فِي مَوَالِيَّ! فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -

(1) «أغماراً»: جهلاء بمكائد الحرب.

(2) «نزيعة»: متزوجة في غير عشيرتها.

(3) سورة «الأنفال». الآية 58.

(4) هو عبد الله بن أبي الحزرجي رأس المنافقين.

وسلم! - غضبان، متغيّر الوجه فقال: «وَيْلَكَ! أَرْسَلَنِي!» فقال (ابن أبي): لا أرسلك حتى تحسن في موالي: أربعمئة دارع وثلاثمئة حاسر؛ منعوني «يوم الحداث» و«يوم بعث» من الأحمر والأسود، تريد أن تحصدهم في غداة واحدة؟ يا محمد! إني امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «خلّوهم، لعنهم الله، ولعنه معهم»! فلمّا تكلم ابن أبيّ فيهم تركهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأعفاهم من القتل، وأمر بهم أن يُجلّوا من المدينة...<sup>(1)</sup> . قال أبو الحسن، عليّ بن الأثير: «وَعُنِمَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - والمسلمون ما كان لهم من مال، ولم يكن لهم أرضون؛ إنّما كانوا صاغة، وكان الذي أخرجهم (من المدينة) عبادة بن الصّامت الأنصاريّ، فبلغ بهم «ذياب» ثمّ ساروا إلى «أذرعات» من أرض الشام، فلم يلبثوا إلّا قليلاً حتى هلكوا. واستخلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في هذه الغزوة أبا لبابة على المدينة، وكان لواؤه مع حمزة بن عبد المطلب. وقسم الغنيمة بين أصحابه وخمّسها. ثمّ انصرف، وحضر الأضحى، وخرج إلى المصلّى فصلّى بالمسلمين؛ وهي أوّل صلاة عيد صلاّها، وضحّى فيه بشاتين، وكان أوّل أضحى رآه المسلمون، وضحّى معه ذوو اليسار»<sup>(2)</sup>.

### غزوة بني سليم بالكُدر<sup>(3)</sup> أو غزوة قرقرة الكُدر

قال محمد بن إسحاق: «فلما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من بدر إلى المدينة، وكان فراغه من بدر في عقب رمضان أو في أوّل شوال، فلم يقم بالمدينة إلّا سبع ليالٍ حتى غزا بنفسه؛ يريد بني سليم، حتى بلغ ماءً من مياههم يقال له: «الْكُدر»، فأقام عليه ثلاث ليالٍ. ثمّ رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً. فأقام بقية شوال وذا القعدة، وفادى في إقامته تلك

(1) الواقديّ، عليّ. كتاب المغازي. ج 1 ص 176 - 178.

(2) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 138.

(3) قال عبد الرحمن السّهيلي: «والكدر: طير في ألوانها كدرة، عرف بها ذلك الموضع، وقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه! - يذكر مسيره مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في تلك الغزوة؛ فقال لعمران ابن سودة - حين قال له: إنّ رعيّتك تشكو منك عُنْفَ السّيّاق وقهر الرّعيّة -: فكنّت زميل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في قرقرة الكُدر، فكنّت أربع فاشبع، وأسقي فاروي، وأكثر الزّجر، وأقلّ الضّرب، وأردّ القنوف، وأزجر العرّوض (المستعصب من الناس)، وأضمّ اللّقوت، وأشهر العصا، وأضرب باليد، ولولا ذلك لأغرّدت بعض ما أسوق، أي: لضيّعت فتركت، يذكر حسن سياسته فيما وليّ من ذلك». (كتاب روض الأنف. ج 5 ص 404).

جُلَّ الأَسارى من قريش»<sup>(1)</sup>. قال عبد الملك بن هشام: «واستعمل على المدينة سباع بن عُرْفُطَةَ الغفاري، أو ابن أم مكتوم»<sup>(2)</sup>.

### غزوة السَّوِيق

قال محمد بن عمر الواقدي: «غزوة السَّوِيق في ذي الحِجَّة على رأس اثنين وعشرين شهراً. خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الأحد خمس ليال خلون من ذي الحِجَّة، فغاب خمسة أيام.

حدثني محمد بن عبد الله، عن الزُّهري، وإسحاق بن حازم، عن محمد بن كعب، قالاً: لما رجع المشركون إلى مكَّة من بَدْر، حرَّم أبو سُفيان الدُّهْن<sup>(3)</sup>؛ حتى يثأر من محمد وأصحابه بمن أُصيب من قومه، فخرج في مائتي راكب - في حديث الزُّهري، وفي حديث ابن كعب: في أربعين راكباً - حتى سلکوا النَّجْدِيَّة، فجاءوا بني النَّضِير ليلاً، فطرقوا حَيَّيَّ بن أخطب ليستخبروه من أخبار النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، فأبى أن يفتح لهم، وطرقوا سَلَّام ابن مشكم ففتح لهم فقرأهم، وسقى أبا سُفيان خمرًا، وأخبرهم من أخبار النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فلمَّا كان بالسَّحَر خرج فمرَّ بـ «العُرَيْض»<sup>(4)</sup>، فيجد رجالاً من الأنصار مع أجير له في حرثه فقتله وقتل أجيره، وحرَّق بيتين بالعُرَيْض، وحرَّق حرثاً لهم، ورأى أن يمينه قد حلَّت. ثم ذهب هارباً، وخاف الطَّلَب، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فندب أصحابه فخرجوا في أثره، وجعل أبو سُفيان وأصحابه يتخوَّفون فيلقون جُربَ السَّوِيق؛ وهي عامَّة زادهم، فجعل المسلمون يمرُّون بها فيأخذونها، فسُمِّيت تلك الغزوة بـ «غزوة السَّوِيق» لهذا الشأن. واستخلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (في هذه الغزوة) على المدينة أبا لُبَّابة بن عبد المنذر»<sup>(5)</sup>. وقال المسلمون: - حين رجع بهم رسول الله إلى المدينة دون أن يقاتلوا: - «يا رسول الله! أتطمع لنا أن تكون لنا غزوة؟ قال: «نَعَمْ»<sup>(6)</sup>.

(1) ابن إسحاق، محمد. كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 290.

(2) السَّيْرَةُ النَّبَوِيَّة بِشرح روض الأَنْف. ج 5 ص 388.

(3) وفي رواية ابن إسحاق: «نذر أن لا يمسَّ رأسه ماء من جنابة».

(4) «العُرَيْض» - بصيغة التصغير - : واد بالمدينة.

(5) كتاب المغازي. ج 1 ص 181.

(6) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي. ص 292.



## أهم الحوادث بعيد غزوة بدر الكبرى

فمن أبرز هذه الحوادث التي تسترعي الانتباه، وتستأثر بمكان في ذاكرة الإنسان، موت الأعيان من مشاهير المسلمين والمشركين؛ بالإضافة إلى من سقط من كلا الطائفتين في معركة بدر؛ كما تقدم ذكره. ومن هؤلاء المشاهير من نساء المسلمين رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وحليمة عثمان بن عفان؛ رضي الله عنهما. قال إسماعيل بن كثير: «ولما جاءت البشارة إلى المؤمنين من أهل المدينة مع زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة بما أحل الله بالمشركين وبما فتح على المؤمنين، وجدّا رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد توفيت وسوي عليها التراب. وكان زوجها عثمان بن عفان قد أقام عندها يمرضها بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم! - له بذلك، ولهذا ضرب له بسهمه في مغنم بدر، وأجره عند الله يوم القيامة. ثم زوجه بأختها الأخرى أم كلثوم بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ولهذا كان يقال لعثمان بن عفان: «ذو النورين»<sup>(1)</sup>. ومعنى مثل هذا النص ثابت وصحيح في كتب السيرة النبوية. ومن هؤلاء المشاهير من رجال المسلمين أيضاً: عثمان بن مظعون، توفي في شهر ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة ودُفن بالبقيع، وجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حجراً على رأس القبر علامةً لقبره. ومن أولئك المشاهير من رجال المشركين أبو لهب بن عبد العزى بن عبد المطلب؛ توفي بعد وقعة بدر بيسير، لعنه الله وأخزاه. ومن أهم حوادث السنة الثانية للهجرة النبوية أن الرسول كتب المعاقل<sup>(2)</sup> وعلقها بسيفه. وفي هذه السنة نفسها أصبحت الكلمة العليا في المدينة المنورة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - رغم أنف المشركين واليهود ومن والاهم من المنافقين. قال إسماعيل بن كثير: «وفيها - أي: في السنة الثانية للهجرة النبوية - خضع المشركون من أهل المدينة، واليهود الذين هم بها من بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود بني حارثة، وصانعو المسلمين وأظهر الإسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود؛ وهم في الباطن منافقون: منهم من هو على ما كان عليه، ومنهم من انحل بالكليّة فبقي مذنباً؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء<sup>(3)</sup>؛ كما وصفهم الله في كتابه»<sup>(4)</sup>.

(1) البداية والنهاية. ج 3 ص 347.

(2) «المعاقل» - جمع معلقة -: وهي الدية؛ ولعله أراد أن كتاب الدية كان معلقاً بسيفه؟

(3) فيه إشارة إلى قوله - تعالى -: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ («سورة النساء». الآية 143).

(4) البداية والنهاية. ج 3 ص 347.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** صحّة رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ، وثبوت تأويلها بغزوة بدر الكبرى .

قال عبد الملك بن هشام - نقلاً عن محمد بن إسحاق - : « فأخبرني مَنْ لا أتهم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، ويزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، قالوا : وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب - قبل قدوم ضمّضم مكة بثلاث ليال - رؤيا أفزعته ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له : يا أخي ! والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعته ، وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرّ ومصيبة ، فإتكم ما أحدثك به ؛ فقال لها : وما رأيت ! قالت : رأيتُ ركباً أقبل على بعير له ، حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل عُذر لمصارعكم في ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثلاً به بعيرٌ على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا يا آل عُذر لمصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بثلاث . ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت ، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقية ؛ قال العباس : والله إن هذه لرؤيا ، وأنت فإتكميها ، ولا تذكرها لأحد . ثم خرج العباس ، فلقي الوليد بن عُتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً ، فذكرها له ، واستكتمه إيّاها . فذكرها الوليد لأبيه عُتبة ، ففشا الحديث بها بمكة ؛ تحدّث به قريش في أندية . قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت وأبوجهل بن هشام في رهط من قريش فعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رأني أبو جهل قال : يا أبا الفضل ! إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلتُ حتى جلستُ معهم ، فقال لي أبو جهل : يا بني عبد المطلب ! متى حدثت فيكم هذه النّبيّة ؟ قلتُ : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عاتكة ، فقلت : وما رأت ؟ قال : يا بني عبد المطلب ! أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تنبأت نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها : أنّه <sup>(1)</sup> قال : انفروا في ثلاث ، فستربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً : أنكم أكذب أهل بيت في العرب . قال العباس : فوالله ما كان منّي إليه كبير ؛ إلا أن جحدتُ ذلك ، وأنكرتُ أن تكون عاتكة رأت شيئاً . ثم تفرّقنا . فلما أمسيتُ ، لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم

(1) «أنه» : ضمير الغائب يعود على ضمضم بن عمرو الغفاريّ ، المستغيث في رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب .

يكن عندك غير لشيء مما سمعت؟! قال: قلت: قد والله فعلت ما كان مني إليه من كبير. وأيم الله لأتعرضن له، فإن عاد لأكفيكنه. قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا حديد مغضب، أرى أنني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه. فدخلت المسجد فرأيت، فوالله إنني لأمشي نحوه أتعرضه، ليعود لبعض ما قاله فأقع به، وكان رجلاً خفيفاً، حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر؛ إذ خرج نحو باب المسجد يشتد. فقلت في نفسي: ماله؟ لعنه الله. أكل هذا فرق مني أن أشاتم! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ بطن الوادي واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره، وحول رخله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قریش! اللطيمة! اللطيمة<sup>(1)</sup>! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث! الغوث! فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر<sup>(2)</sup>.

**العبرة الثانية:** نزول الملائكة في غزوة بدر، لنصر المسلمين على المشركين. قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣١) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿٣٢﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٣٤﴾. وقال أيضاً: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٤). قال الربيع بن أنس: «أمد الله المسلمين بألف (من الملائكة)، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية<sup>(5)</sup> على هذا القول، وبين قوله في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾. إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فالجواب: أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: «مردفين»؛ بمعنى يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف

(1) «اللطيمة»: غير تحمل المسك والبز وغيرهما بقصد التجارة.

(2) السيرة النبوية. ج 5 ص 83 - 85.

(3) سورة آل عمران. الآية 123 - 126.

(4) سورة الأنفال. الآية 9، 10.

(5) أي: الآية 123، 124، 125 من سورة آل عمران.

أُخِرَ مثلهم . وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة «آل عمران» ، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر؛ كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر . والله أعلم»<sup>(1)</sup> . وقال محمد بن إسحاق : «عن ابن عباس قال : حدثني رجل من بني غفار ، قال : أقبلت أنا وابن عمّ لي حتى أضعنا في جبل يُشرف بنا على بدر ، ونحن مشرکان ، ننتظر الواقعة على من تكون الدّبرة ، فننتهب مع من ينتهب . قال : فينا نحن في الجبل ، إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمّمة الخيل ، فسمعتُ قائلاً يقول : «أقدم حيزوّم» . فأما ابن عمّي فانكشف قناع قلبه ، فمات مكانه ، وأما أنا فكذتُ أهلك ، ثم تماسكت . . . وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة - وكان شهد بدرًا - قال - بعد أن ذهب بصره - : لو كنت اليوم ببدر معي بصري لأريتكمُ الشّعب الذي خرجت منه الملائكة ؛ لا أشكّ فيه ولا أتمارى . . . وعن أبي داود المازني - وكان شهد بدرًا - قال : إن لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفتُ أنّه قد قتله غيري . . . عن عبد الله بن عباس قال : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً قد أرسلوها على ظهورهم ، ويوم حُنين عمائم حمراً . . . وعن ابن عباس قال : ولم تقاثل الملائكة في يوم ؛ سوى يوم بدر من الأيام ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون»<sup>(2)</sup> .

### العبرة الثالثة : إكرام الله - تعالى !- لرسوله - عليه الصلاة والسلام !- بشفاء عين قتادة

على يده بعدما سألت على وجنته . روى البيهقيّ في كتابه «دلائل النبوة» عن عاصم بن عمر ابن قتادة ، عن أبيه ، عن جدّه قتادة بن النّعمان : أنّه أُصيبَتْ عينُهُ يوم بدر ، فسألت حدقته على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها ، فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال : «لا» ؛ فدعاه فغمز حدقته براحته ، فكان لا يدري أيّة عينيه أُصيبَتْ . وفي رواية فكانت أحسن عينيه . وقد روى البيهقيّ عن عمر بن عبد العزيز أنّه لما أخبره بهذا الحديث عاصم بن عمر بن قتادة وأنشد مع ذلك :

أَنَا ابْنُ الَّذِي سَأَلْتُ عَلَى الْخَدِّ عَيْنُهُ      فَرُدَّتْ بِكَفِّ الْمُصْطَفَى أَيَّامَرْدٍّ

فقال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله !- عند ذلك منشداً قول أمية بن أبي الصلت في سيف بن ذي يزن ، فأنشده عمر في موضعه حقاً :

(1) ابن كثير ، إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم . ج 2 ص 107 .

(2) ابن هشام ، عبد الملك . السيرة النبوية بشرح روض الأثف . ج 5 ص 111 ، 112 .

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قُتْبَانَ مِنْ لَبَنٍ شَيْيَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً<sup>(1)</sup>

**العبرة الرابعة :** جذلٌ من حطب يتحول في يد عكاشة بن محصن سيفاً بتأراً ببركة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! قال محمد بن إسحاق : «وقاتل عكاشة بن محصن بن حُرثان الأسديّ يوم بدر بسيفه حتى انقطعَ في يده ، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فأعطاه جذلاً من حطب ، فقال : «قاتل بهذا يا عكاشة» ! فلما أخذه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! هزه ، فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد المثنى ، أبيض الحديد ، فقاتل به حتى فتح الله - تعالى ! على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمّى : «الْعَوْن» . ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! حتى قُتل في الرّدة ، وهو عنده ، قتله طليحة بن خويلد الأسديّ . وعكاشة بن محصن هو الذي قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم ! حين قال : «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» . : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ادع الله أن يجعلني منهم ؛ قال : «إِنَّكَ مِنْهُمْ» أو «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» ، فقام رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : «سَبَقَكَ بِهَا عكاشة ، وَبَرَدَتِ الدَّعْوَةُ» . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فيما بلغنا عن أهله : «مَنْ خَيْرُ قَارِسٍ فِي الْعَرَبِ» ؛ قالوا : ومن هو يا رسول الله ؟ قال : «عكاشة بن محصن» فقال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك رجل منا يا رسول الله ! قال : «لَيْسَ مِنْكُمْ ؛ وَلَكِنَّهُ مَنَا لِلْحَلْفِ»<sup>(2)</sup> .

**العبرة الخامسة :** أن أبا العاص بن الربيع لا يخون أمانة المشركين وهو مسلم . قال عبد الملك بن هشام : حدثني أبو عبيدة أن العاص بن الربيع لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين ، قيل له : هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال ، فإنها أموال المشركين ؟ فقال أبو العاص : بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي<sup>(3)</sup> .

**العبرة السادسة :** أن الله قد بشر رسوله بانتصاره على المشركين قبل أن يخوض في معركة القتال . روى الأموي عن الزهري : «أن الله قد شجع المسلمين على لقاء عدوهم ، وقلّله في أعينهم حتى طمعوا فيه ؛ خفق رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! خفقةً في العريش ، ثم انتبه فقال : «أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرُ ؛ هَذَا جَبْرِيلُ مُعْتَجِرٌ بِعِمَامَتِهِ ، أَخَذَ بَعِنَانٍ قَرَسِهِ يَقُودُهُ ، عَلَى ثَنَائِيهِ

(1) ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 3 ص 291 .

(2) ابن هشام ، عبد الملك . السيرة النبوية بشرح روض الأنف . ج 5 ص 145 ، 146 .

(3) المصدر السابق ، الجزء نفسه . ص 170 .

النَّعْعُ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ وَعِدَّتُهُ». وأمر جبريل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فأخذ كَفًّا مِنْ الحصى بيده، ثُمَّ خَرَجَ فَاسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ فَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» ثُمَّ نَفَحَهُمْ بِهَا، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «احْمِلُوا فَلَمْ تَكُنْ إِلَّا الْهَزِيمَةُ». فقتل الله مَنْ قَتَلَ مِنْ صَنَادِيدِهِمْ، وَأَسْرَ مِنْ أَسْرَ مِنْهُمْ»<sup>(1)</sup>.

**العبرة السابعة:** أن العباس بن عبد المطلب يجحد ما عنده من الأموال، فيطلع الله رسوله على حقيقة الأمر، فيقرُّ العباس بذلك ويُسلم. قال أبو الحسن عليّ بن الأثير: «وفدى العباس نفسه، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه عتبة بن عمرو ابن جَحْدَمَ؛ أمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بذلك، فقال (العبّاس: لا مال لي، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-: «أَيْنَ الْمَالُ الَّذِي وَضَعْتَهُ عِنْدَ أُمِّ الْفَضْلِ، وَقُلْتَ لَهَا: إِنَّ أُصِيبْتُ فِي سَفَرِي، فَلِلْفَضْلِ كَذَا، وَلِعَبْدِ اللَّهِ كَذَا، وَلِعَبِيدِ اللَّهِ كَذَا»؟ قال: والذي بعثك بالحقّ ما علم به أحدٌ غيبي وغيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله! وفدى نفسه، وابني أخويّه، وحليفه»<sup>(2)</sup>.

**العبرة الثامنة:** انتقام الله من أبي لهب لأبي رافع مولى رسول الله، فأهانته أمّ الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب إهانة أفقدته نخوة الرّجولة وشرهه التسلّط على المستضعفين. قال محمّد بن إسحاق: «حدثني حسين بن عبد الله بن عبّيد الله بن عباس، عن عكرمة مولى ابن عباس قال: قال أبو رافع مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-: كنت غلاماً للعبّاس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا: أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أمّ الفضل وأسلمت أنا. وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتُم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرّق في قومه. وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا؛ لم يتخلف رجل إلّا بعث مكانه رجلاً، فلمّا جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش، كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوّة وعزّاً». قال: وكنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل الأقداح؛ أنحتها في حُجْرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر؛ إذ

(1) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 3 ص 284.

(2) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 133.

أقبل أبو لهب يجرّ رجله بشرّاً، حتى جلس على طُنب الحُجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال النَّاسُ: هذا أبو سفيان<sup>(1)</sup> بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم<sup>(2)</sup>، فقال أبو لهب: هلمّ إليّ، فعندك لعمرى الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي! أخبرني كيف كان أمر النَّاس؟ قال: والله ما هو إلاّ أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيم الله مع ذلك ما ملت النَّاس، لقينا رجالاً بيضاً، على خيل بلق<sup>(3)</sup>، بين السماء والأرض، والله ما تُليق<sup>(4)</sup> شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طُنب<sup>(5)</sup> الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة؛ فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فأخذته فضربت به ضربة فلعت<sup>(6)</sup> في رأسه شجرة منكراً، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيّده، فقام (أبو لهب) مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبيع ليال حتى رماه الله بِالْعَدَسَةِ<sup>(7)</sup> فقتلته<sup>(8)</sup>. وزاد يونس عن ابن إسحاق: «فلقد تركه ابنه بعد موته ثلاثاً؛ ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريش تتقي هذه العدسة؛ كما تتقي الطاعون حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكم! ألا تستحيان أنّ أباكما قد أنتن في بيته وأنتما لا تدفنان؟! فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة، فقال لهما: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلاّ قذفاً بالماء عليه من بعيد؛ ما يدنون منه. ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رضموا عليه بالحجارة. وعن عائشة أم المؤمنين أنّها كانت لا تمرّ على مكان أبي لهب هذا إلاّ تسترت بثوبها حتى تجوز»<sup>(9)</sup>.

(1) اسمه: المغيرة.

(2) أي: قدم من بدر.

(3) «بلق»: فيها سواد وبياض.

(4) «ما تليق»: ما تمرّ بشيء إلاّ قطعت وأزالته.

(5) «الطُنب»: - بضم أوله وثانيه وسكون ثانيه -: حبل يشدّ به الخباء والسرّادق ونحوهما. جمع أطناب.

(6) «فلعت»: شَقَّتْ.

(7) «الْعَدَسَةُ»: بثرة تخرج في البدن كالطاعون، فقلّما يسلم صاحبها من الموت.

(8) ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 5 ص 156.

(9) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 3 ص 309.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أنّ عدول رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عن رأيه وأخذه برأي الحُباب بن المنذر في اتّخاذ المكان المناسب لعسكرة المسلمين به ، وقوله للحباب : «لَقَدْ أَشْرَتْ بِالرَّأْيِ» وأمر بتنفيذه ، فهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ جميع الأنبياء والرّسل - عليهم الصّلاة والسلام !- غير معصومين فيما لم يكن فيه نصّ سماوي من لدن الله ؛ فهم في ذلك مثلهم مثل سائر البشر في الخطأ والصّواب ؛ وإنّما يمتازون عن سائر البشر فيما أخطؤوا فيه أنهم لم يقرّهم الله على خطئهم ؛ بل سرعان ما ينّبهم إليه ويرشدهم إلى مَحَزّ الصواب . فاجتهاد النّبيّ مثل اجتهاد سائر المجتهدين ؛ يحتمل الخطأ والصواب وبعد التقرير عليه يصير صواباً لا يحتمل الخطأ . فهذا - هو - مفهوم العصمة في حقه - عليه الصّلاة والسلام !- حينما يتدخل الوحي في تصحيح ما أخطأ فيما لم يكن فيه وحي من الله . قال ابن حزم : «إنّه يقع من الأنبياء قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، فيوافق خلاف مراد الله تعالى ، وأنّه تعالى لا يقرّهم على شيء من هذا ؛ بل ينههم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ، ويظهره لعباده ، وربّما عاتبهم على ذلك بالكلام ؛ كما فعل مع نبيّنا - صلى الله عليه وسلم !- في أمر زينب ، وقصّة ابن أمّ مكتوم ، وربّما عاتبهم ببعض المكروه في الدنيا ؛ كالذي أصاب آدم ويونس ؛ عليهما السلام . والأنبياء - عليهم الصّلاة والسلام !- بخلافنا في هذا ، فإنّنا غير مؤاخذين بما قصد نابه وجه الله فلم يصادف مراده تعالى ؛ بل نحن مأجورون على هذا أجراً واحداً<sup>(1)</sup> . وقال عبدالله درّاز في علاقة اجتهاد الرسول - صلى الله عليه وسلم !- بالعصمة : «أمّا حالة العصمة المطلقة فلا تتحقق مع الرسول ؛ إلا حينما يبلغ أمراً إلهياً ، وحينما يوكل إليه أمر هذه الأمة ، وتقدّم إليه واضحة تماماً ، وتحفظ في ذاكرته ، فإنّ الضّعف الطبعيّ الذي يصيب كلّ إنسان مهما كان عقله قوياً ولا معاً ، يمكن أن يصيب الرسول أيضاً ؛ ولكن الفرق هنا أنّ هذا الضّعف لا يستمرّ معه أبداً ، ولا يبقى مطلقاً على فكرة خاطئة ، فإذا لم يعد من نفسه إلى الطريق القويم ، فإنّ الوحي يتدخّل ليهديه ويقوده إلى الطريق الصحيح ؛ وإلا فإنّ الأمة جميعها تقع في الخطأ ، وترتبط به في طريق خاطئة ، والله يقول : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾<sup>٢</sup> إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

(1) ابن حزم . كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل . القاهرة 1947م . الطبعة الأولى . ج 4 ص 3 وما بعدها ، وقوله : «بل نحن مأجورون أجراً واحداً» فيه إشارة إلى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ..



عَلِيمٌ»<sup>(1)</sup>. ويتّضح من ذلك أنّه في الحال التي ليس فيها أيّ تصحيح، فإنّ أوامر الرسول - صلى الله عليه وسلم! - وأحكامه التي لا ينكرها الوحي تتعيّن مقبولة ضمّنيّاً، وتؤخذ بمثابة الأوامر الإلهيّة، وكذلك فإنّ جميع تصرفاته هي من حيث المبدأ أمثلة حيّة ينظم المسلمون وفقّها جميع تصرفاتهم وسلوكهم»<sup>(2)</sup>.

وكلّ أمر لم ينصّ عليه الوحي السماوي، يستلزم من المسلمين المشاورة فيما بينهم وهذا ما فهمنا من قوله - تعالى! - ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾<sup>(3)</sup>. وقد أمر الله رسوله - عليه الصلاة والسلام! - بأن يشاور أصحابه فيما لا نصّ فيه من وحي ربه، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾<sup>(4)</sup>. وقد تناولنا موضوع الشورى بما يسّر الله في كتابنا: «الشورى في ميزان الإسلام». فعلى القراء أن يقرؤوه بتدبّر وإمعان؛ فإنّه مفيد لمن يبتغي أن يستفيد والله أرجو أن يجازينا بقدر ما قصدنا فيه و«إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئ ما نوى...».

**الحكم الثاني:** أنّ شأن الأسارى المأسورين لدى المسلمين، قد قضى الله فيهم حكماً أبديّاً على وجه العموم والإطلاق؛ حيث قال: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ دَأْسَرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ تَرْيِدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(5)</sup> لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُمُ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»<sup>(5)</sup>. وقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْنَتُمْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِذَا مَتًّا بَعْدَ وَإِذَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْتُمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُضْلِحُ بِأَهْلِهِمْ ﴿٢﴾ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾<sup>(6)</sup>. فقول

(1) سورة «التوبة». الآية 115.

(2) دراز، عبد الله. مجلة «حضارة الإسلام» - نقلاً عن كتاب «الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي». نشر الشركة التونسية.

(3) سورة «الشورى». الآية 38.

(4) سورة «آل عمران». الآية 159.

(5) سورة «الأنفال». الآية 67-68.

(6) سورة محمد. الآية 4-6.

الله - تعالى ! ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ . أي : سبق في أم الكتاب لأمة الإسلام ، بإحلال الأسارى والغنائم لهم دون غيرهم من سائر الأمم . وقوله - تعالى !: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَبْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَثًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ . أي : إذا وجدتم أنفسكم في قتال الكافرين ، فاحصدوا رقابهم حصداً بسيفكم حتى تهلكوهم قتلاً ؛ فإذا أهلكتموهم فامسكوا الأسارى الذين أسرتموهم ثم أنتم مخيرون - بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة - في أمرهم بشيئين اثنين : إن شئتم منتهم عليهم بفك أسرهم وإطلاقهم مجاناً ، وإن شئتم أخذتم في مقابل إطلاقهم وتسريحهم فدية مال ؛ فهو لكم حلال طيب لا شبهة فيه .

**الحكم الثالث :** إحلال الغنائم وتقسيمها ، قال الله - تعالى !: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ النَّبِيِّ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَتَقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(1)</sup> .

قال إسماعيل بن كثير في تفسير هذه الآية : «بين الله - تعالى !- تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة ؛ من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم . . . عن عطاء بن أبي رباح ، قال : خُمُسُ الله والرسول واحد ، يحمل<sup>(2)</sup> منه ويصنع فيه ما يشاء ؛ يعني : النبي - صلى الله عليه وسلم !- وهذا أعم وأشمل ؛ وهو أنه - صلى الله عليه وسلم !- يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت ، فقال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- صلى بهم في غزوة إلى بغير من المغنم ، فلما سلم قام فتناول وبرّة بين أنمكتيه ، فقال : «إن هذه من غنائمكم ، وإنه ليس فيها إلا نصيبي معكم : الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخيط والمخيطة ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا ؛ فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في الله ، القريب والبعيد ، ولا تبالوا في الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر ، وجاهدوا في الله ؛ فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة عظيم ، ينجي الله به من الهم والغم»<sup>(3)</sup> . والغنائم هي إحدى

(1) سورة «الأفانال» . الآية 41 .

(2) «يحمل» : يأخذ .

(3) ابن كثير ، إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم . ج 3 ص 322 .

الخصائص الخمس التي خصّ الله بها نبيّه؛ عليه الصلاة والسلام! قال مَنْ لا ينطق عن الهوى - صلى الله عليه وسلم -: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ<sup>(1)</sup>، مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ؛ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(2)</sup>.

**الحكم الرابع:** قتل الشاكرين لرسول الله أو لدين الإسلام واجب على المسلمين. وقد نُقِذَ وُجُوبُ هذا القتل في شخصين اثنين: عصماء بنت مروان وأبي عَقَك، وكان ذلك بعد رجوع المسلمين من غزوة بدر سنة اثنتين من الهجرة النبوية. وقد أوضح لنا ذلك محمد بن عمر الواقدي في نصّين اثنين:

**النصّ الأول:** جاء فيه: «حدثنا سعيد بن محمد، عن عمارة بن غَزِيَّة، وحدثنا أبو مُصْعَبُ إسماعيل بن زيد بن ثابت، عن أشياخه، قالوا: إنَّ شيخاً من بني عمرو بن عوف يقال له: أبو عَقَك، وكان شيخاً كبيراً، قد بلغ عشرين ومائة سنة حين قدم النبيّ - صلى الله عليه وسلم - المدينة، كان يحرض على عداوة النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ولم يدخل في الإسلام. فلما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بدر ثم رجع وقد ظفّر الله بما ظفّره، فحسده ويغى فقال:

قَدْ عَشْتُ حِينًا وَمَا إِنِّ أَرَى	مِنَ النَّاسِ دَارًا وَلَا مَجْمَعًا
أَجَمٌ <sup>(3)</sup> عَقُولًا وَآتِي إِلَيَّ	مُنِيبٌ سَرَاعًا إِذَا مَا دَعَا
فَسَلِّبُهُمْ أَمْرَهُمْ رَاكِبٌ	حَرَامًا حَالَالًا لَشَتَّى مَعَا
فَلَوْ كَانَ بِالْمُلْكِ صَدَقْتُكُمْ	وَبِالنَّصْرِ تَابَعْتُكُمْ بُعَا

فقال سالم بن عُمَيْر - وهو أحد البكّائين من بني النّجّار -: عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَقْتُلَ أَبَا عَقَك أَوْ أموت دونه. فأمهّل فطلب له غرّة، حتى كانت ليلة صائفة، فنام أبو عَقَك بالفناء في الصيف في بني عمرو بن عوف، فأقبل سالم بن عُمَيْر، فوضع السيف على كبده حتى خَشَّ في الفراش،

(1) «بالرعب»: بالخوف؛ أي: بتخويفي أهل الشرك والكفر.

(2) رواه البخاري ومسلم والنسائي، عن جابر بن عبد الله.

(3) «أجم عقولاً»: أكثرها.

وصاح عدو الله ، فتاب إليه الناس ممن هم على قوله ، فأدخلوه منزله وقبروه . وقالوا : من قتله ؟ والله لو نعلم من قتله لقتلناه به ! فقالت التهديد في ذلك . وكانت مسلمة . هذه الأبيات :

تُكَذِّبُ دِينَ اللَّهَ وَالْمَرْءَ أَحْمَدًا      لَعَمْرُ الَّذِي أَمْنَاكَ إِذْ بُئِسَ مَا يُمْنِي  
حَبَاكَ حَنِيفٌ آخِرَ اللَّيْلِ طَعْنَةً      أَبَا عَقَّكَ خُذَهَا عَلَى كِبَرِ السَّنِّ  
فَإِنِّي وَإِنْ أَعْلَمُ بِقَاتِلِكَ الَّذِي      أَبَاتَكَ حُلْسَ اللَّيْلِ مِنْ إِنْسٍ أَوْ جَنَّ

فحدثني معن بن عمر قال : أخبرني ابن رُقَيْش قال : قُتِلَ أَبُو عَقَّكَ فِي شَوَالٍ عَلَى رَأْسِ عَشْرِينَ شَهْرًا (من الهجرة النبوية) <sup>(1)</sup> .

**النص الثاني :** جاء فيه : «حدثني عبدالله بن الحارث ، عن أبيه : أن عَصْمَاءَ بِنْتَ مَرْوَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ ، كَانَتْ تَحْتَ يَزِيدَ بْنِ زَيْدٍ بْنِ حِصْنِ الْخَطَمِيِّ ، وَكَانَتْ تُؤْذِي النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - وَتَعِيبُ الْإِسْلَامَ ، وَتَحْرُضُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - وَقَالَتْ شَعْرًا :

فَبَاسَتْ بَنِي مَالِكٍ وَالنَّبِيَّتِ      وَعَوُفٌ وَبَاسَتْ بَنِي الْخَزَرَجِ  
أَطَعْتُمْ أَتَاوِي <sup>(2)</sup> مَنْ غَيْرَكُمْ      فَلَا مِنْ مُرَادٍ وَلَا مُذْحَجِ  
تُرْجَوْنَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرَّؤُوسِ      كَمَا يُرْتَجَى مَرْقَ الْمُضْجِ

قال عُمَيْرٌ <sup>(3)</sup> : بَنُ عَدِيٍّ بَنُ خُرْشَةَ بْنِ أُمَيَّةَ الْخَطَمِيِّ حِينَ بَلَغَهُ قَوْلُهَا ، وَتَحْرِيسُهَا : اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ نَذْرًا لَنْ رَدَدْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - إِلَى الْمَدِينَةِ لِأَقْتُلْنَهَا - وَرَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - يَوْمَئِذٍ بَدْرٍ - فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - مِنْ بَدْرِ جَاءَهَا عُمَيْرٌ بْنُ عَدِيٍّ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا فِي بَيْتِهَا وَحَوْلَهَا نَفَرٌ مِنْ وَلَدِهَا نِيَامٌ ؛ مِنْهُمْ مَنْ تَرَضَّعَ فِي صَدْرِهَا ، فَجَسَّهَا بِيَدِهِ ، فَوَجَدَ الصَّبِيَّ تَرَضَّعَ فَنَحَّاهُ عَنْهَا ، ثُمَّ وَضَعَ سَيْفَهُ عَلَى صَدْرِهَا حَتَّى أَنْفَذَهُ مِنْ ظَهْرِهَا ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى صَلَّى الصُّبْحَ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - بِالْمَدِينَةِ . فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - نَظَرَ إِلَى عُمَيْرٍ فَقَالَ : «أَقْتُلْتُ بِنْتَ مَرْوَانَ» ؟ قَالَ : نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَخَشِيَ عُمَيْرُ أَنْ يَكُونَ افْتَاتٌ <sup>(4)</sup> عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! -

(1) الواقدي ، محمد . كتاب المغازي . ج 1 ص 174 ، 175 .

(2) «أتاوي» : غريباً .

(3) وكان عمير هذا أعمى .

(4) «افتات» : استبد بما فعل ولم يستشر فيه .

وسلم!- بقتلها، فقال: هل عليّ في ذلك شيء يا رسول الله؟ قال: «لَا يَنْتَظِحُ فِيهَا عَزْرَان»<sup>(1)</sup>.  
 فَإِنْ أَوَّلَ مَا سُمِعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- قَالَ عُمَيْرٌ: فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ -  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- إِلَى مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ: «إِذَا أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَنْظُرُوا إِلَى رَجُلٍ نَصَرَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
 بِالْغَيْبِ، فَاَنْظُرُوا إِلَى عُمَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ»، فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: انظروا إلى هذا  
 الأعمى الذي تشدد في طاعة الله، فقال (رسول الله): «لَا تَقُلِ الْأَعْمَى؛ وَلَكِنَّهُ الْبَصِيرُ»! فلما  
 رجع عُمَيْرٌ من عند رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- وجد بنيها في جماعة يدفنونها، فأقبلوا  
 إليه حين رأوه مقبلاً من المدينة، فقالوا: يا عُمَيْرُ! أنت قتلتها؟ فقال: نعم، فكيدوني جميعاً، ثم  
 لَا تَنْظُرُون، فوالذي نفسي بيده، لو قتلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو  
 أقتلكم. فيومئذ ظهر الإسلام في بني خَطْمَةَ، وكان منهم رجال يستخفون بالإسلام خوفاً من  
 قومهم، فقال حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يمدح عُمَيْرَ بْنَ عَدِيٍّ - أنشدنا عبد الله بن الحارث:

بَنِي وَائِلٍ وَبَنِي وَاقِفٍ	وَحَطْمَةَ دُونَ بَنِي الْخَزَرَجِ
مَتَى مَا دَعَتْ أَخْتُكُمْ وَيَحَهَا	بَعُولَتَهَا <sup>(2)</sup> وَالْمَنَايَا تَجِي
فَهَزَّتْ فَتَى مَا جَدَّ عَرْقُهُ	كَرِيمَ الْمَدَاخِلِ وَالْمَخْرَجِ
فَضَرَجَهَا مِنْ نَجِيعِ الدِّمَاءِ	فِيئِلَ الصَّبَّاحِ وَلَمْ يَخْرَجِ
فَأُورِدَكَ اللَّهُ بُرْدَ الْجَنَّا	نَ جَذْلَانَ فِي نِعْمَةِ الْمَوْلَجِ

حدثني عبد الله بن الحارث، عن أبيه قال: كان قتل عصماء لخمس ليال بقين من  
 رمضان، مَرَجَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- مِنْ بَدْرٍ، عَلَى رَأْسِ تِسْعَةِ عَشَرَ شَهْرًا<sup>(3)</sup>. وقد  
 أجمع علماء المسلمين على وجوب قتل شاتم الرسول تصريحاً أو تلميحاً، ولا نقبل منه أية استتابة  
 سواءً كان في ذلك الشاتم مسلماً أو كافراً. قال القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: «اعلم -  
 وفقنا الله وإياك!- أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- أَوْ عَابَهُ، أَوْ أَحَقَّ بِهِ نَقْصاً فِي  
 نَفْسِهِ أَوْ نَسَبِهِ، أَوْ دِينِهِ أَوْ خَصْلَةٍ مِنْ خَصَالِهِ، أَوْ عَرَضَ بِهِ، أَوْ شَبَّهَ بِشَيْءٍ عَلَى طَرِيقِ السَّبِّ أَوْ  
 الْإِزْرَاءِ عَلَيْهِ، أَوْ التَّصْغِيرِ بِشَأْنِهِ، أَوْ الْغَضِّ مِنْهُ وَالْعَيْبِ لَهُ، فَهُوَ سَابٌّ لَهُ، وَالْحُكْمُ فِيهِ حُكْمُ

(1) أي: شأن قتلها هين؛ لا يكون فيه طلب ثأر ولادية.

(2) «بعولتها»: رفع صوتها بالبكاء والصياح.

(3) الواقدي، محمد. كتاب المغازي ج 1 ص 173، 174.

السَّابُّ يُقْتَلُ . . . وكذلك من لعنه ، أو دعا عليه ، أو تَمَنَّى مَضَرَّةً له ، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه ؛ على طريق الذَّمِّ ، أو عُبِّثَ في جهته العزيزة بسُخْفٍ من الكلام وهَجَرٍ وَمُنْكَرٍ من القول وزور ، أو غَيَّرَه بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه ، أو غمَّصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه ، فهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصَّحابة - رضوان الله عنهم - إلى هلمَّ جرّاً<sup>(1)</sup> . وعلى رأس هؤلاء العلماء أصحاب المذاهب الأربعة : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، رحمهم الله !

وأشهر من أجاد وأفاد في الموضوع عالمان اثنان :

**أولهما :** القاضي أبو الفضل عياض اليَحْصِيّ بكتابه «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» ؛ مع شرحه «نسيم الرياض» لأحمد الحفاجي المصري .

**ثانيهما :** الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية بكتابه «الصَّارم المسلول ، على شاتم الرسول - صلى الله عليه وسلم !» .

## السَّنة الثالثة من الهجرة النبوية

### غزوة ذي أمر<sup>(2)</sup>

في أوّل المحرم لهذه السنة بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أنّ جمعاً من بني ثعلبة ابن سعد بن دُبيان وبني محارب بن حفص ، قد تجمَّعوا وعزموا أن يقاتلوا المسلمين ، فخرج إليهم رسول الله من المدينة في أربعمئة وخمسين مقاتلاً ، فلماً وصل «ذي القصة»<sup>(3)</sup> ، لقي رجلاً من قبيلة ثعلبة ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، وأنبأه بأنّ الذين عزموا أن يقاتلوا المسلمين قد هربوا وتشبّثوا حينما بلغهم أنّ رسول الله خرج بالمسلمين لقتالهم ، فعاد رسول الله إلى المدينة ، ولم يلق كيذاً ؛ بعد أن بقي في انتظار قتالهم اثنتي عشرة ليلة . وفي هذه الغزوة استعمل رسول الله عثمان بن عفّان على المدينة خليفة له . وقال محمد الواقدي : «بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أنّ جمعاً من ثعلبة ومحارب بـ «ذي أمر»<sup>(4)</sup> ، قد تجمَّعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف

(1) كتاب الشفاء ، بتعريف حقوق المصطفى . ج 2 ص 114 .

(2) ويقال لها : غزوة نجد ، وغزوة غطفان .

(3) «ذي القصة» - بفتح القاف - : موضع بين زباله والشقوق ؛ وهو ماء لبني طريف .

(4) «أمر» : موضع في بركة الشام .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- جمعهم رجل منهم يقال له : دُعْثُور بن الحارث بن محارب ، فندب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- المسلمين ، فخرج في أربعمائة رجل وخمسين ، ومعهم أفراس ، فأخذ عن المنقّى <sup>(1)</sup> ، ثم سلك مضيق الحُبَيْت <sup>(2)</sup> ، ثم خرج إلى ذي القَصَّة ، فأصاب رجلاً منهم بذي القَصَّة يقال له : جَبَّار من بني ثعلبة ، فقال له المسلمون : أين تريد؟ قال : أريد يَثْرِبَ ، قالوا : وما حاجتك يَثْرِبُ؟ قال : أردت أن ارتاد لنفسي وأنظر ، قالوا : هل مررتَ بجمع ، أو بلغك خبر لقومك؟ قال : لا ؛ إلاَّ أَنَّهُ قد بلغني أن دُعْثُور بن الحارث في الناس من قومه غَزَل . فأدخلوه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فدعاه إلى الإسلام ، فأسلم ، وقال : يا مُحَمَّد ! إنَّهم لن يلاقوك ؛ إن سمعوا بمسيرك هربوا في رؤوس الجبال ، وأنا سائر معك ودالِّكَ على عورتهم ، فخرج به النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم !- وضمَّه إلى بلال ، فأخذ به طريقاً أهبطه عليهم من كُتُب ، فهربت منه الأعراب فوق الجبال ، وقبل ذلك ما قد غَيَّبُوا سَرَحَهُمْ في دُرَى الجبال وذرايهم ، فلم يلاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أحداً ؛ إلاَّ أَنَّهُ ينظر إليهم في رؤوس الجبال ، فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- «ذا أمر» وعسكر معسكرهم ، فأصابهم مطر كثير ، فذهب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لحاجته فأصابه ذلك المطر قَبْلَ ثوبه ، وقد جعل وادي ذي أَمْرَيْنِ وبين أصحابه . ثم نزع ثيابه فنشرها لتجفَّ ، وألقاها على شجرة ، ثم اضطجع تحتها ، والأعراب ينظرون إلى كلِّ ما يفعل ، فقالت الأعراب لدُعْثُور - وكان سيِّدها وأشجعها - : قد أمكنك مُحَمَّد ، وقد انفرد من أصحابه حيث إن غَوَّث بأصحابه لم يُعَثَّ حَتَّى تقتله . فاختر سيفاً من سيوفهم صارماً ، ثم أقبل مشتملاً على السيف حتى قام على رأس النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم !- بالسيف مشهوراً فقال : يا مُحَمَّد ! مَنْ يمنعك مِنِّي اليوم؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «الله !» قال (الراوي) : ودفع جبريل - عليه السلام !- في صدره فوق السيف من يده ، فأخذه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وقام به على رأسه فقال : «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي الْيَوْمَ؟» قال : لا أحد ، ثم قال : فأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسول الله : والله لا أَكْثُر عليك جمعاً أبداً ! فأعطاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سيفه ، ثم أدبر ، ثم أقبل بوجهه فقال : أما والله لأنت خير مِنِّي .

(1) «المنقّى» : طريق بين أحد والمدينة ؛ كانت العرب تسلكه إلى الشام .

(2) «حُبَيْت» - بالتصغير - : ماء بالعالية يشترك فيه قبيلتا أشجع وعبس .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !: «أَنَا أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْكَ». فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالُوا: أَيْنَ مَا كُنْتَ تَقُولُ وَقَدْ أَمَكَّنَكَ وَالسَّيْفُ فِي يَدِكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ؛ وَلَكِنِّي نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ أبيض طویل، دفع في صدري فوقعتُ لظَهري، فعرفتُ أَنَّهُ ملكٌ وشهدتُ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وَاللَّهُ لَا أَكْثَرُ عَلَيْهِ! وَجَعَلَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(1)</sup>. وَكَانَتْ غِيبة النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- إِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ.

### غزوة بني سُلَيْمٍ بِبَحْران<sup>(2)</sup>

وفي شهر جمادى الأولى من السنة الثالثة، غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بني سُلَيْمٍ بِبُحْرانٍ من ناحية الْفُرْعِ؛ وَذَلِكَ لَمَّا بَلَغَهُ أَن جَمْعاً مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ تَجَمَّعُوا لِقَاتِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ فِي ثَلَاثِمِائَةِ مَقَاتِلٍ، فَلَمَّا بَلَغَ بُحْرانَ وَجَدَهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا، فَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا، وَكَانَتْ غِيْبَتُهُ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ عَنِ الْمَدِينَةِ عَشْرَ لَيَالٍ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَيْهَا ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ.

### سرية زيد بن حارثة

وهي أوَّلُ سِرِّيَّةٍ خَرَجَ فِيهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَمِيرًا. وَسَبَبُ خُرُوجِهِ فِيهَا وَبِهَا أَنَّ قَرِيشًا قَدْ خَافُوا أَن يَسْلُكُوا فِي تِجَارَتِهِمْ وَذَهَابِهِمْ إِلَى الشَّامِ طَرِيقَهُمُ الْمَعْتَادَةَ لَدَيْهِمْ، فَسَلَكُوا طَرِيقَ الْعِرَاقِ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَاسْتَوْلَى عَلَى عِيْرِهِمْ وَمَحْمُولِهَا، وَفَرَّ أَصْحَابُهَا وَعَلَى رَأْسِ هَؤُلَاءِ الْفَارِسِيُّ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «... وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهَا: (أَيُّ حَدِيثِ السَّرِّيَّةِ) أَنَّ قَرِيشًا خَافُوا طَرِيقَهُمُ الَّذِي كَانُوا يَسْلُكُونَ إِلَى الشَّامِ - حِينَ كَانَ مِنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ مَا كَانَ - فَسَلَكُوا طَرِيقَ الْعِرَاقِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ تِجَارٌ، فِيهِمْ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَمَعَهُ فَضَّةٌ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ عَظُمُ تِجَارَتِهِمْ، وَاسْتَأْجَرُوا رَجُلًا مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ، يَقَالُ لَهُ: فِرَاتُ بْنُ حِيَّانٍ<sup>(3)</sup> يَدْلُهُمْ

(1) سورة «المائدة». الآية 11.

(2) ويقال لها: غزوة الْفُرْعِ؛ بضم أوله وسكون ثانيه. وَالْفُرْعُ: قرية من نواحي الرِيْذَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ.

(3) وقد وقع في الأسر لدى المسلمين، وسرعان ما منَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ.



في ذلك على الطريق . وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- زيد بن حارثة فلقاهم على ذلك الماء : (من مياه نجد المسمى القردة) فأصاب تلك العير وما فيها ، وأعجزه الرجال ، فقدم بها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-<sup>(1)</sup> . وقال محمد بن عمر الواقدي : « وخرج فيها ، (أي : السرية) زيد - رضي الله عنه !- أميراً ، وخرج لهلال جمادى الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهراً (من الهجرة النبوية) »<sup>(2)</sup> . وقال يونس بن بكير ، عن ابن إسحاق : « وكانت بعد وقعة بدر بستة أشهر »<sup>(3)</sup> .

## غزوة أحد

في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة وقعت غزوة أحد ؛ حسب رواية الزهري وقتادة وغيرهما من المحققين ، وقد حدد يومها قتادة بيوم السبت الحادي عشر من الشهر نفسه . وقال الواقدي : « غزوة أحد يوم السبت لسبع خلون من شوال ، على رأس اثنين وثلاثين شهراً » . وعند الإمام مالك كانت أول النهار من يوم السبت على المشهور ؛ وفيها أنزل الله قوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النمل: 83] . إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل: 84] . وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النمل: 85] . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴾ [النمل: 86] . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [النمل: 87] . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [النمل: 88] . لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ [النمل: 89] . وقوله - أيضاً - : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَعَايِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: 90] .

(1) ابن هشام ، عبد الملك . السيرة النبوية بشرح «الروض الأنف» . ج 5 ص 195 .

(2) كتاب المغازي . ج 1 ص 197 .

(3) ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية . ج 4 ص 4 .

(4) سورة «آل عمران» . الآية 121 - 127 .

(5) سورة «آل عمران» . الآية 179 .

## السَّبَبُ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ

لَمَّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَأُسِرَ مِنْ أُسِرَ، وَعَادَ مِنْهُمْ مَنْ أَصِيبُوا فِي ذَوِيهِمْ وَأَقْرَبَائِهِمْ إِلَى مَكَّةَ، اجْتَمَعُوا وَكَلَمُوا أَصْحَابَ التِّجَارَةِ وَالْأَمْوَالِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو سَفْيَانَ ابْنُ حَرْبٍ، فَطَلَبُوا مِنْهُمْ أَنْ يَعِينُوهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ عَلَى حَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ حَتَّى يَأْخُذُوا ثَارَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَشْفُوا غَلِيلَهُمْ مِنْهُمْ، فَكَانَتِ الْاسْتِجَابَةُ بِقَبُولِ الطَّلَبِ وَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْشَرُونَ﴾<sup>(1)</sup>. وبعد إطلاعي على مجموعة مما كُتِبَ فِي السَّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَعَلَى الْأَخْصَصِ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَوْضُوعِ غَزْوَةِ أُحُدٍ<sup>(2)</sup> إجمالاً وتلخيصاً، وَقَعَ اخْتِيَارِي عَلَى مَا أَجْمَلَهُ وَلَخَّصَهُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْأَثِيرِ؛ حَيْثُ قَالَ: «وَفِيهَا رَأْيٌ: فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ؛ فِي شَوَالٍ لِسَبْعِ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنْهُ كَانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ، وَقِيلَ: لِلنَّصَفِ مِنْهُ، وَكَانَ الَّذِي هَاجَهَا وَقَعَةُ بَدْرٍ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا أَصِيبَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ أَصِيبَ بَدْرٍ، مَشَى عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي رِيْعَةَ، وَعَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَغَيْرُهُمْ؛ ثُمَّ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ بِهَا، فَكَلَّمُوا أَبَا سَفْيَانَ وَمَنْ كَانَ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ تِجَارَةٌ، وَسَأَلُوهُمْ أَنْ يَعِينُوهُمْ بِذَلِكَ الْمَالِ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - لِيَدْرِكُوا ثَارَهُمْ مِنْهُمْ، فَفَعَلُوا وَتَجَهَّزَ النَّاسُ وَأَرْسَلُوا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ؛ وَهُمْ: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهَبٍ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَأَبُو عِزَّةَ الْجُمَحِيِّ، فَسَارُوا فِي الْعَرَبِ لِيَسْتَفْرِوهُمْ، فَجَمَعُوا جَمْعاً مِنْ ثَقِيفٍ وَكِنَانَةٍ وَغَيْرِهِمْ، وَاجْتَمَعَتْ قَرِيشٌ بِأَحَابِيشِهَا وَمَنْ أَطَاعَهَا مِنْ قِبَائِلِ كِنَانَةٍ وَتِهَامَةٍ، وَدَعَا جُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ غُلَامَهُ وَخَشِيَ بْنِ حَرْبٍ - وَكَانَ حَبِشِيًّا يَقْدِفُ بِالْحَرْبَةِ قُلَّ مَا يُخْطِئُ، فَقَالَ لَهُ: أَخْرِجْ مَعَ النَّاسِ فَإِنْ قَتَلْتَ عَمَّ مُحَمَّدٍ بَعَمِّي طُعَيْمَةَ بْنُ عَدِيٍّ فَأَنْتَ عَتِيقٌ. وَخَرَجُوا مَعَهُمُ بِالطُّعْنِ<sup>(3)</sup> لثَلَاثِ يَفْرَوًا، وَكَانَ أَبُو سَفْيَانَ قَائِدَ النَّاسِ، فَخَرَجَ بِزَوْجَتِهِ هُنْدَ بِنْتُ عَتْبَةَ، وَغَيْرِهِ مِنْ رُؤَسَاءِ قَرِيشٍ خَرَجُوا بِنِسَائِهِمْ؛ خَرَجَ عَكْرَمَةُ ابْنُ أَبِي جَهْلٍ بِزَوْجَتِهِ أُمِّ حَكِيمٍ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَخَرَجَ الْحَارِثُ بْنُ الْمُغِيرَةِ بِفَاطِمَةَ بِنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ أُخْتِ خَالِدٍ، وَخَرَجَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بِبَرِيرَةَ - وَقِيلَ: بِرَوْزَةَ بِنْتُ مَسْعُودِ الثَّقَفِيَّةِ

(1) سورة «الأنفال». الآية 36.

(2) «أُحُدٌ»: جَبَلٌ أَحْمَرُ التَّرْبَةِ بِظَاهَرِ الْمَدِينَةِ؛ سَمِيَ أَحَدًا لِتَوَحُّدِهِ وَانْقِطَاعِهِ عَنْ سَائِرِ جِبَالِ الْمَدِينَةِ؛ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - يَقُولُ فِيهِ: «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ». رواه البخاري عن سهل بن سعد.

(3) «بِالطُّعْنِ»: جَمْعُ طُعْنَةٍ؛ وَهِيَ الزَّوْجَةُ.

أخت عروة بن مسعود؛ وهي أم ابنة عبدالله بن صفوان - وخرج عمرو بن العاص برِيطَة بنت منبّه ابن الحجاج، وهي أم ولده عبدالله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة بسُلَاقَة بنت سَعْد؛ وهي أم بنيّه: مسافع، والجلاس، وكلاب وغيرهم. وكان مع النساء الدفوف ييكن على قتلى بدر يُحَرِّضُن بذلك المشركين. وكان مع المشركين أبو عامر الراهب الأنصاري، وكان خرج إلى مكّة مباعدًا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ومعه خمسون غلاماً من الأوس - وقيل: كانوا خمسة عشر - وكان يعد قريشاً أنّه لو لقي محمّداً لم يتخلف عنه من الأوس رجلاً. فلمّا التقى الناس بأحد كان أبو عامر أوّل من لقي في الأحابيش وعبدان أهل مكّة، فنادى: يا معشر الأوس! أنا أبو عامر. فقالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق! فقال: لقد أصاب قومي بعدي شرّاً، ثمّ قاتلهم قتالاً شديداً حتى راضخهم<sup>(1)</sup> بالحجارة. وكانت هند كلّما مرّت بوحشيّ أو مرّ بها قالت له: يا أبا دُسمَة! اشف واستشف؛ وكان يكنى أبا دُسمَة. فأقبلوا حتى نزلوا بعَيْنين بجبل بطن السبّخة من قناة على شفير الوادي ممّا يلي المدينة. فلمّا سمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! والمسلمون قال: «إني رأيتُ بقرّاً فأولّتها خيراً، ورأيتُ في ذُبابٍ<sup>(2)</sup> سَفِي ثُلماً، ورأيتُ أنّي أدخلتُ يدي في درع حصينة، فأولّتها: المدينة، فإن رأيتُم أن تُقيموا بالمدينة وتدعوهم، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها». وكان رأي عبدالله بن أبيّ بن سلول مع رأي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! يكره الخروج، وأشار بالخروج جماعة ممّن استشهد يومئذ. وأقامت قريش يوم الأربعاء والخميس والجمعة، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! حين صلّى الجمعة، فالتقوا يوم السبت نصف شوال. فلمّا لبس رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! سلاحه وخرج ندم الذين كانوا أشاروا بالخروج إلى قريش وقالوا: استكرهنا رسول الله ونشير عليه، فالوحي يأتيه فيه، فاعتذروا إليه وقالوا: اصنع ما شئت. فقال: «لا ينبغي لنبيّ أن يلبسَ لأمته<sup>(3)</sup> فيضعها حتّى يُقاتل». فخرج في ألف رجل، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، فلمّا كان بين المدينة وأحد عاد عبدالله بن أبيّ بثلاث الناس، فقال: أطاعهم وعصاني، وكان من تبعه أهل التّفاق والريب، واتبّعهم عبدالله بن حرام أخو بني سلّمة يُدكّرهم الله أن لا يخذلوا نبيّهم، فقالوا: لو نعلم أنّكم تقاتلون ما أسلمناكم، وانصرفوا. فقال:

(1) «راضخهم»: رماهم.

(2) ذباب السيف: حدّ طرفه.

(3) «لأمته»: كل أداة حرب: من بيضة، ومغفر، ورمح، وسيف، ودرع. جمع لأم، ولؤم.

أبعدكم الله أعداء الله! فسيُغني الله عنكم! وبقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في سبعمائة، فسار في حرّة بني حارثة وبين أموالهم، فمرّ بمال رجل من المنافقين يقال له: مَرِيع بن قَيْطِيّ، وكان ضريب البصر، فلَمَّا سمعَ حَسَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ومَن معه قام يُحْثِي التراب في وجوههم ويقول: إن كنت رسول الله فإني لا أُحِلُّ لك أن تدخل حائطي وأخذ حفنة من تراب في يده وقال: لو أعلم أنّي لا أُصيب غيرك لضربتُ به وجهك. فابتدروه ليقْتلوه. فقال النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - لا تفعلوا فهذا الأعمى أعمى البصر والقلب. فضربه سعد بن زيد بقوس فشجّه. وذبّ فرس بذهبه فأصاب كلاب سيف صاحبه، فاستله، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «سَيُوفُكُمْ، فَإِنِّي أَرَى السُّيُوفَ سَتْسِلُ الْيَوْمَ». وسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى نزل بعدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وكان المشركون ثلاثة آلاف، منهم سبعمائة دارع، والخيّل مائتا فرس، والطَّعْنُ خمس عشرة امرأة، وكان المسلمون مائة دارع، ولم يكن من الخيل غير فَرَسَيْنِ: فرس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وفرس لأبي بُرْدَةَ بن نيار. وعرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - المقاتلة؛ فردّ زيد بن ثابت، وابن عمر، وأُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ والبراء بن عازب، وعرابة بن أوس، وأبا سعيد الخدري وغيرهم، وأجاز جابر بن سَمُرَةَ، ورافع بن خَدِيج. وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول: خلّوا بيننا وبين ابن عَمّنا فننصّرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتالكم. فردّوا عليه بما يكره. وتعبّا المشركون فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عِكْرِمَةُ بن أبي جهل، وكان لواؤهم مع بني عبد الدار، فقال لهم أبو سفيان: إنّما يؤتى الناس من قِبَلِ راياتهم؛ فإمّا أن تكفونا، وإمّا أن تخلّوا بيننا وبين اللّواء، يُحرّضهم بذلك. فقالوا: ستعلم إذا التقينا كيف نصنع، وذلك أراد. واستقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - المدينة وترك أحد خلف ظهره وجعل وراءه الرُّمّة، وهم خمسون رجلاً، وأمر عليهم عبدالله بن جُبَيْرٍ أَخَا خَوَاتِ بن جُبَيْرٍ، وقال له: «انْضَحْ عَنَّا الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، واثبت مكانك إن كانت لنا أَوْلِيَّتُنَا». وظاهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بين دَرْعَيْنِ وأعطى اللّواء مُصْعَبَ بن عُمَيْرٍ، وأمر الزبير على الخيل ومعه المقداد، وخرج حمزة بالجيش بين يديه. وأقبل خالد وعكرمة فلقىهما الزبير والمقداد فهزما المشركين، وحمل النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وأصحابه فهزموا أبا سفيان، وخرج طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين وقال: يا معشر أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله يُعجلنا

بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة فهل أحد منكم يُعجله سيفي إلى الجنة أو يعجلني إلى النار؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب، فضربه عليّ فقطع رجله، فسقط وانكشفت عورته، فناشده الله والرحم فتركه، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقال لعلي: «ما منعك أن تُجهزَ عليه؟» قال: «إنه ناشدني الله والرحم فاستحييت منه. وكان بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيف، فقال: «مَنْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ؟» فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم حتى قام أبو دُجَانَةَ فقال: وما حقّه يا رسول الله؟ قال: «تَضْرِبُ بِهِ الْعَدُوَّ حَتَّى تُثْخَنَ». قال: أنا آخذه. فأعطاه إيّاه. وكان شجاعاً، وكان إذا أعلم بعصاة له حمراء علم النَّاسَ أَنَّهُ يقاتل، فعصّب رأسه بها وأخذ السيف وجعل يتبختر بين الصّفين. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «إِنَّهَا مَشِيَّةٌ يُغْضِئُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ! فجعل لا يرتفع له شيء إلاّ حطمه حتى انتهى إلى نسوة في سفح الجبل؛ معهنّ دفوف لهنّ، فيهن امرأة تقول:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ	نَمشي عَلَى النَّمَارِقْ
إِنْ تُقْبَلُوا نَعَانِقْ	وَنَقْرُشُ النَّمَارِقْ <sup>(1)</sup>
أَوْ تُدْبِرُوا نَقَارِقْ	فَرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ <sup>(2)</sup>

وتقول أيضاً:

إِيهَابَنِي عَبْدَ الدَّارِ	إِيهَاهَا حُمَاةَ الدِّيَارِ
ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارِ	

فرفع السيف ليضربها، ثم أكرم سيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أن يضرب به امرأة، وكانت المرأة هند، والنساء معها يضربن بالدفوف خلف الرجال يُحرّضن. واقتتل الناس قتالاً شديداً، وأمعن في النَّاسِ حمزة، وعليّ، وأبو دُجَانَةَ في رجال من المسلمين، وأنزل الله نصره على المسلمين، وكانت الهزيمة على المشركين، وهرب النساء مُصْعَدَاتٍ فِي الْجَبَلِ، ودخل المسلمون عسكرهم يَنْهَبُونَ. فلماً نظر بعض الرماة إلى العسكر حين انكشف الكفّار عنه، أقبلوا يريدون النَّهْبَ، وثبتت طائفة وقالوا: نطيع رسول الله ونثبت مكاننا، فأنزل الله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ

(1) «النمارق»: جمع ثَمَرُق؛ وهي الوسادة الصّغيرة يُتَكأ عليها.

(2) «وامق»: مُحِبٌّ.

يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ<sup>(1)</sup> . يعني : اتَّباع أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم !- قال ابن مسعود : وما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يريد الدنيا حتى نزلت الآية . فلما فارق بعض الرماة مكانهم ، رأى خالد بن الوليد قلةً من بقي من الرماة ، فحمل عليهم فقتلهم ، وحمل على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم !- من خلفهم . فلما رأى المشركون خيلهم تقاتل ، تبادروا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوه ، وقد كان المسلمون قتلوا أصحاب اللواء ، فبقي مطروحاً لا يدنو منه أحد ، فأخذته عُمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته ، فاجتمعت قريش حوله ، وأخذة صواب فقتل عليه ، وكان الذي قتل أصحاب اللواء عليّ ، قال أبو رافع ؛ قال : فلما قتلهم أبصر النبي - صلى الله عليه وسلم !- جماعة من المشركين ، فقال لعلي : «احْمِلْ عَلَيْهِمْ» ففرَّقهم وقتل فيهم ، ثم أبصر جماعة أخرى ، فقال له : «احْمِلْ عَلَيْهِمْ» ، فحمل عليهم وفرَّقهم وقتل فيهم ، فقال جبرائيل : يا رسول الله ! هذه المؤاساة ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «إِنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ» فقال جبرائيل : وأنا منكما . قال : فسمعوا صوتاً : لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا عليّ . وكُسرت رباعية رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- السفلى ، وشقَّت شفته ، وكُلِم في وجنته وجهته في أصول شعره وعلاه ابن قمئة بالسيف ، وكان هو الذي أصابه ، وقيل : أصابه عُتْبَة بن أبي وقاص ، وقيل : عبد الله بن شهاب الزهري جد محمد بن مسلم . وقيل : إن عُتْبَة بن أبي وقاص وابن قمئة اللّيثيّ الأدرمي من بني تيم بن غالب ، وكان أدرَمَ ناقص الذّفن ، وأبيّ بن خَلَف الجُمحيّ ، وعبد الله بن حُميد الأسدي ، أسد قريش تعاقدا على قتل الرسول - صلى الله عليه وسلم !- ؛ فأما ابن شهاب فأصاب جبهته ، وأما عُتْبَة فرماه بأربعة أحجار فكسر رباعيته اليمنى وشق شفته ، وأما ابن قمئة فكلّم وجنته ودخل من حلق المغفّر فيها ، وعلاه بالسيف فلم يطق أن يقطعه فسقط رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فَجُحِشَتْ<sup>(2)</sup> ركبته ، وأما أُبَيّ بن خلف فشدّ عليه بحربة ، فأخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- منه وقتله بها ، وقيل : بل كانت حربة الزبير أخذها منه ، وقيل : أخذها من الحارث بن الصّمة ، وأما عبد الله بن حُميد فقتله دُجانة الأنصاريّ . ولما جرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- جعل الدّم يسيل على وجهه وهو يمسه ، ويقول : «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ

(1) سورة «آل عمران» . الآية 152 .

(2) «فَجُحِشَتْ» : فَخُذِشَتْ .

خَضَبُوا وَجَهَ نَبِيَّهِمْ بِالْدَمِّ؛ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟! وَقَاتَلَ دُونَهُ نَفَرٌ؛ خَمْسَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَتَلُوا، وَتَرَسَ أَبُو دُجَانَةَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! بِنَفْسِهِ، فَكَانَ يَقَعُ النَّبْلُ فِي ظَهْرِهِ وَهُوَ مُنْحَنٌ عَلَيْهِ، وَرَمَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! يَنَالُوهُ السَّهْمَ وَيَقُولُ: «ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي». وَأَصَابَتْ يَوْمئِذٍ عَيْنَ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، فَردَّهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! بِيَدِهِ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ. وَقَاتَلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَمَعَهُ لُؤَاءُ الْمُسْلِمِينَ فَقُتِلَ؛ قَتَلَهُ ابْنُ قُمَّةَ اللَّيْثِيِّ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! فَرَجَعَ إِلَى قَرِيشٍ وَقَالَ: قَتَلْتُ مُحَمَّدًا - فَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، قُتِلَ مُحَمَّدٌ. وَلَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! اللُّؤَاءَ عَلَيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. وَقَاتَلَ حَمْزَةَ حَتَّى مَرَّ بِهِ سِبَاعُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى الْغُبَّانِيُّ، فَقَالَ لَهُ حَمْزَةُ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا بَنَ مِقْطَعَةَ الْبُظُورِ<sup>(1)</sup>. وَكَانَتْ أُمُّهُ أَنْمَارُ خَتَّانَةٌ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا التَّقِيََا ضَرَبَهُ حَمْزَةُ فَقَتَلَهُ، قَالَ وَحْشِي: إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَنْظُرُ إِلَى حَمْزَةَ وَهُوَ يَهْذُ النَّاسَ بِسَيْفِهِ هَذَا؛ مَا يَلْقَى شَيْئًا يَمُرُّ بِهِ إِلَّا قَتَلَهُ، وَقَتَلَ سِبَاعُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى. قَالَ (وَحْشِي): فَهَزَزْتُ حَرْبَتِي وَدَفَعْتُهَا عَلَيْهِ فَوَقَعَتْ فِي ثُنْتِهِ<sup>(2)</sup> حَتَّى خَرَجْتَ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ وَأَقْبَلَ نَحْوِي فَعُغِبَ فَوْقَ، فَأَمَلَتْهُ حَتَّى مَاتَ فَأَخَذْتُ حَرْبَتِي، ثُمَّ تَنَحَّيْتُ إِلَى الْعَسْكَرِ. فَفَرَضَنِي اللَّهُ عَنْ حَمْزَةَ وَأَرْضَاهُ. وَقَتَلَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ مُسَافِعَ بْنَ طَلْحَةَ وَأَخَاهُ كِلَابَ بْنَ طَلْحَةَ بِسَهْمَيْنِ، فَحُمِلَا إِلَى أُمَّهُمَا سُلَافَةَ وَأَخْبَرَاهَا أَنَّ عَاصِمًا قَتَلَهُمَا، فَذَرَتْ إِنْ أَمَكْنَهَا اللَّهُ مِنْ رَأْسِهِ أَنْ تَشْرَبَ فِيهِ الْخَمْرَ. وَبَرَزَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ مَعَ الْمَشْرِكِينَ وَطَلَبَ الْمُبَارَزَةَ، فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَبْرَزَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! -: «شِمُّ سَيْفِكَ وَأَمْتَعْنَا بِكَ». وَانْتَهَى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ، عَمَّ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، إِلَى عَمْرِو وَطَلْحَةَ فِي رِجَالٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ قَدْ أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ: مَا يَجْبِسُكُمْ؟ قَالُوا: قَدْ قُتِلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! قَالَ: فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟! مَوْتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ بِهِ سَبْعُونَ ضَرْبَةً وَطَعْنَةً، وَمَا عَرَفَهُ إِلَّا أَخُوهُ؛ عَرَفْتَهُ بِحَسَنِ بَنَانِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ أَنَسَ بْنَ النَّضْرِ سَمِعَ نَفْرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ، لَمَّا سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! قَتَلَ -: «لَيْتَ لَنَا مَنْ يَأْتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَنٍ

(1) «البظور»: جمع البظارة؛ وهي نُتُوٌّ فِي فَرْجِ الْمَرْأَةِ وَتَقْطِيعُهُ هُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ فِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ بِ«الْخَفَاضِ» لِلْبَنَاتِ؛ كَمَا هُوَ يُعْبَرُ عَنْهُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ لِلصَّبِيَّانِ بِ«الْخَتَّانِ». وَفِي الْحَدِيثِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَأُمِّ عَطِيَّةَ: «إِذَا اخْفَضْتَ قَاشِمِي». أَي: اتْرَكِي مِنَ الْقَلْفَةِ قَلِيلًا.

(2) «ثنته»: أَسْفَلُ بَطْنِهِ.

سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سُفيان قبل أن يقتلونا . فقال لهم أنس : يا قوم ! إن كان محمد قد قُتل ، فإن ربَّ محمد لم يُقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد . اللهم إني أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء ! ثم قاتل حتى قُتل . وكان أول من عرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- كعب بن مالك ، قال : فناديتُ بأعلى صوت : يا معشر المسلمين ! أبشروا ! هذا رسول الله حيّ لم يُقتل ، فأشار إليه : أنصت . فلما عرفه المسلمون نهضوا نحو الشعب ومعه عليّ وأبو بكر وعمر وطلحة والزبير والحارث بن الصّمة وغيرهم . فلما أسند إلى الشعب أدركه أبيّ بن خلف وهو يقول : يا محمد ! لا نجوتُ إن نجوت ! فعطف عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فطعنه بحربة في عنقه ، وكان أبيّ يقول : بمكة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : إنَّ عندي العود<sup>(1)</sup> أعلفه كل يوم فرقاً<sup>(2)</sup> من دُرّة أقتلك عليه ، فيقول له النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- : «بل أنا أقتلك ! إن شاء الله تعالى» . فلما رجع إلى قريش وقد خدشه<sup>(3)</sup> رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خدشاً غير كبير قال : قتلني محمد . قالوا : والله ما بك بأس . قال : إته قد كان قال لي : «أنا أقتلك» . فوالله لو بصق عليّ لقتلني ! فمات عدو الله بسرف<sup>(4)</sup> . وقاتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يوم أحد قتالاً شديداً ، فرمى بالنبل حتى فني نبله وانكسرت سيّة قوسه وانقطع وتره . ولما جرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- جعل عليّ ينقل له الماء في دِرْقته من المهراس<sup>(5)</sup> ويغسله ، فلم ينقطع الدّم ، فأتت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي ، وأحرقَت حصيراً وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدّم . ورمى مالك بن زُهَيْر الحشميّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فاتقاه طلحة بيده ، فأصاب السّهم خنصره ، وقيل : رماه حيّان بن العرق ، فقال : حَس<sup>(6)</sup> ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «لَوْ قَالَ : باسم الله لدَخَلَ الجنة ، والناسُ ينظرونُ إليه» . وقيل : «إنَّ يده شلتُ إلا السّبابة والوسطى» ، والأوّل أثبت . وصعد أبو سفيان ومعه جماعة من المشركين في الجبل ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

(1) «العود» : الحصان .

(2) «فرقا» : لباباً .

(3) «خدشه» : أوقع في جسده أثراً .

(4) «سرف» : موضع على ستة أميال من مكة من طريق مرو .

(5) «المهراس» : ماء بجبل أحد .

(6) «حَس» : كلمة تقال عند الألم المفاجئ . وفي المثل : «ضُرِبَ فما قال : حَس» .



«ليس لهم أن يعلوناً»، فقاتلهم عمر وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوهم، ونهض رسول الله - صلى الله عليه وسلم! إلى الصخرة ليعلوها، وكان عليه درعان، فلم يستطع، فجلس تحته طلحة حتى صعد، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «أوجبَ طلحةُ». وانتهت الهزيمة بجماعة المسلمين، فيهم عثمان بن عفان وغيره، إلى الأعوص<sup>(1)</sup>، فأقاموا به ثلاثاً، ثم أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم! فقال لهم حين رآهم: «لقد ذهبتم فيها عريضةً». والتقى حنظلة بن أبي عامر، غسيل الملائكة، وأبو سفيان بن حرب، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود؛ وهو ابن شعوب، فدعاه أبو سفيان، فأتاه، فضرب حنظلة فقتله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «إنه لتغسله الملائكة، فسلوا أهله». فسئلت صاحبته فقالت: خرج وهو جئب، سمع الهائعة<sup>(2)</sup>، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «لذلك غسلته»، وقال أبو سفيان - يذكر صبره ومعاونة ابن شعوب إياه على قتل حنظلة -:

وَلَوْ شِئْتُ نَجَّيْتُ كُمَيْتُ طَمْرَةَ  
فَمَا زَالَ مُهْرِي مَزَجَرَ الْكَلْبِ مِنْهُمْ  
أُقَاتِلُهُمْ وَأَدْعِي يَالَغَالِبِ  
فَبَكِّي وَلَا تَرْعِي مَقَالََةَ عَاذِلِ  
أَبَاكَ وَإِخْوَانَا لَقَدْ تَتَابَعُوا  
وَسَلِيَ الَّذِي قَدْ كَانَ فِي النَّفْسِ أَنْنِي  
وَمَنْ هَاشِمُ قَرْنًا نَجِيًّا وَمُصْعَبًا  
وَلَوْ أَنَّي لَمْ أَشْفِ مِنْهُمْ قَرُونِي<sup>(3)</sup>

فأجابه حسان بقوله:

ذَكَرْتَ الْقُرُومَ<sup>(4)</sup> الصَّيْدَ مِنْ آلِ هَاشِمٍ  
أَتَعْجَبُ أَنْ أَقْصَدْتَ حَمَزَةَ مِنْهُمْ

وَلَكُنْتُ لَزُورِ قُتْلَتِهِ بِمُصِيبِ  
عَشَاءٍ وَقَدْ سَمِيَتْهُ بَنَجِيبِ

(1) «الأعوص»: موضع قرب المدينة بأميال يسيرة.

(2) «الهائعة»: الصوت والصياح المفزع.

(3) «قروني»: نفسي.

(4) «القروم»: - جمع قَرْم - السيد المعظم.

أَلَمْ يَقْتُلُوا عَمْرًا وَعُتْبَةَ وَابْنَهِ  
وَشَيْبَةَ وَالْحَجَّاجَ وَابْنَ حَيْبٍ  
غَدَاةَ دَعَا الْعَاصِي عَلِيًّا فَرَاغَهُ  
بِضْرَبَةِ عَضْبٍ<sup>(1)</sup> بَلَّغَهُ بِخَضِيبٍ

ووقعت هند وصواحباتها على القتلى يُمَثِّلْنَ بهم ، واتخذت هند من آذان الرجال وآنافهم خَدَمًا<sup>(2)</sup> وقلائد ، وأعطت خَدَمَهَا وقلائدها وَحْشِيًّا ، وبقرت عن كَيْدِ حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها . ثم أشرف أبو سفيان على المسلمين فقال : أفي القوم محمد؟ ثلاثاً ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «لَا تُجِيبُوهُ» . ثم قال : أفي القوم ابن أبي قُحافة؟ ثلاثاً . ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاثاً . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمّا هؤلاء فقد قُتِلُوا ، فقال عمر : كذبت أي عدو الله ! قد أبقي الله لك ما يُخزبك . فقال : اعلُ هُبْلُ ، اعلُ هُبْلُ ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلَّ» ! فقال أبو سفيان : إِنَّا لَنَا الْعُزَى وَلَا عُزَى لَكُمْ . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ» . فقال أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ! أقتلنا محمدًا؟ قال عمر : اللَّهُمَّ لَا ، وإنه ليسمعُ كلامك . فقال : أنت أصدق من ابن قمئة ! ثم قال : هذا يوم بدر ، والحرب سجال<sup>(3)</sup> ، أما إنكم ستجدون في قتلاكُم مثلاً ، والله ما رضيتُ ولا سَخَطْتُ ولا نهيتُ ولا أمرتُ . واجتاز به الحُلَيْسُ بن زِيَان سَيِّدُ الْأَحَابِيشِ وهو يضرب في شدة حمزة بزج الرَّمْحِ ويقول : ذُقْ عَقْقُ ! فقال الحُلَيْسُ : يا بني كنانة ! هذا سيّد قريش يصنع بابن عمّه كما ترون . فقال أبو سفيان : اكتمها عني ، فإنها زلّة . وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ونساء من الأنصار يسقين الماء ، فرماها حيّان بن العرقه بسهم فأصاب ذيلها ، فضحك ، فدفع النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- إلى سعد بن أبي وقاص سهماً وقال : «ارمه» ، فرماه فأصابه ، فضحك النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- وقال : «اسْتَفَادَ لَهَا سَعْدٌ ، أَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ وَسَدَّدَ رَمِيَّتَهُ» . ثم انصرف أبو سفيان ومن معه وقال : إن موعدكم العام المقبل . ثم بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عليّاً في أثرهم وقال : «انظر؛ فإن جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَاِمْتَطَوْا الْإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يَرِيدُونَ مَكَّةَ ، وَإِنْ رَكَبُوا الْخَيْلَ فَإِنَّهُمْ يَرِيدُونَ

(1) «عَضْبٌ» : سيف حاد قاطع .

(2) «خَدَمًا» - جمع خَدَمه - : الخُلُكُالُ .

(3) «سجال» - جمع سَجَل - : وهو الدُّلُو العظيمة ، مملوءة أو فيها ما قل أو كثر من الماء . ويطلق على النصيب من كل شيء . ومن ذلك يقال : الحرب بينهم سجال : أي : نُصِرَتْهَا بينهم متداولة : سَجَلٌ منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء .

المدينة؛ فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجرنهم». قال عليّ: فخرجت في أثرهم، فامتنوا الإبل وجنّبوا الخيل يريدون مكة، فأقبلت أصبح ما أستطيع أن أكنتم، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً أن ينظر في القتلى، فرأى سعد بن الربيع الأنصاريّ وبه رمق، فقال للذي رآه: أبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عني السلام، وقلّ له: جزاك الله خير ما جرى نبياً عن أمته، وأبلغ قومي السلام، وقلّ لهم: لا عذر لكم عند الله؛ إن خلص إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أذى وفيكم عين تطرف. ثم مات. ووُجد حمزة ببطن الوادي قد بُقر بطنه عن كبده ومثّل به، فحين رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لولا أن تحزنَ صفيّةٌ أو تكونَ سنّةٌ بعدي لتركتهُ حتّى يكونَ في أجواف السباعِ وحواصل الطّير، ولئن أظهرني الله على قريش لأمثّلن بثلاثين رجلاً منهم» وقال المسلمون: لنمثّلن بهم مثله لم يمثّلها أحد من العرب. فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۝١٢٨﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٩﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٠﴾. فعفا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصبر ونهى عن المثلة. وأقبلت صفيّة بنت عبد المطلب، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لابنها الزبير: ليردّها لثلاث ترى ما بأخيها حمزة، فلقياها الزبير فأعلمها بأمر النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فقالت: إنّه بلغني أنّه مثّل بأخي، وذلك في الله قليل! فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن. فأعلم الزبير النبيّ - صلى الله عليه وسلم - بذلك، فقال: «خَلِّ سَبِيلَهَا»، فأتته وصلّت عليه واسترجعت، وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدُفن. وكان في المسلمين رجل اسمه قُزّمان، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إنّه من أهل النار»، فقاتل يوم أحد قتالاً شديداً، فقتل من المشركين ثمانية أو تسعة، ثم جرح فحمل إلى داره، وقال له المسلمون: أبشر قُزّمان! قال: بم أبشر، وأنا ما قاتلت إلاّ عن أحساب قومي؟ ثم اشتدّ عليه جُرحه فأخذ سهماً قطع رواشه (2)، فنزف الدم، فمات، فأخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: «أشهد أنّي رسولُ الله». وكان ممّن قُتل يوم أحد مُحْخِرُ اليهوديّ، قال - ذلك اليوم - لليهود: يا معشر يهود!

(1) «سورة النحل». الآية 126 - 128.

(2) «رواشه» - جمع راهش -: عروق باطن الذراع أو ظاهر الكف.

لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق . فقالوا : إنَّ اليوم السَّبَّ . فقال : لا سبت ، وأخذ سيفه وعُدَّتْهُ وقال : إن قُتِلْتُ فما لي لمحمد يصنع به ما يشاء ، ثمَّ غدا فقاتل حتى قُتِل ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «مُخَيَّرَ خَيْرَ يَهُودٍ» . وقُتِلَ اليمان أبو حُدَيْفَةَ ، قتله المسلمون ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- رفعه وثابت بن قَيْس بن وَقَّش مع النساء ، فقال أحدهما لصاحبه - وهما شيخان - : ما ننتظر؟ أفلا نأخذ أسيفنا فلنحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لعلَّ الله أن يرزقنا الشهادة . ففعلا ودخلا في النَّاس ولا يُعْلَمُ بهما . فأما ثابت فقتله المشركون ، وأما اليمان فاختلقت عليه سيوف المسلمين ، فقتلوه ولا يعرفونه ، فقال حُدَيْفَةُ : أبي ! أبي ! فقالوا : والله ما عرفناه . فقال : يغفر الله لكم . وأراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن يَدِيَهُ على المسلمين . واحتمل بعض النَّاس قتلهم إلى المدينة ، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بدفنه حيث صُرِعُوا ، وأمر أن يُدْفَنَ الاثنان والثلاثة في القبر الواحد ، وأن يُقَدَّمَ إلى القبلة أكثرهم قرآنًا ، وصلى عليهم ، فكان كلما أُتِيَ بشهيد جعل حمزة معه وصلى عليهما . وقيل : كان يجمع تسعة من الشهداء وحمزة عاشرهم فيصلِّي عليهم ، ونزل في قبره عليّ وأبو بكر وعمر والزبير ، وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على حُفْرَتِهِ وأمر أن يُدْفَنَ عَمْرُو ابن الجُمُوح وعبدالله بن حَرَام في قبر واحد ، وقال : كانا مُتَصَفِّيَيْنِ في الدنيا . فلما دُفِنَ الشهداء انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فلقبته حَمَنَةُ بنت جَحْش ، فعنى لها أخاها عبدالله ، فاسترجعت له ، ثم نعى لها خالها حمزة فاستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مُصْعَب بن عَمِير ، فَوَلَّوْكَتْ وصاحت ، فقال : «إنَّ زوج المرأة لبمكان» . ومرَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والتوايح فذرفت عيناه وبكى وقال : «لكنَّ حمزة لا بواكي له» ! فرجع سعد بن معاذ إلى دار بني عبد الأشهل فأمر نساءهم أن يذهبن فيبكين على حمزة . ومرَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بامرأة من الأنصار قد أُصِيبَ أبوها وزوجها ، فلما نُعِيَ لها قالت : ما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قالوا : هو بحمد الله ؛ بما تحبِّين . قالت : أرونيه ، فلما نظرت إليه قالت : كلُّ مُصِيبَةٍ بعدك جَلَلٌ<sup>(1)</sup> . وكان رجوعه إلى المدينة يوم السَّبَّ يوم الواقعة<sup>(2)</sup> . انتهى النصّ .

(1) «جلل» : صغير حقير ؛ ويطلق في غير هذا الموضوع على الكبير العظيم أيضاً . وهو من أضداد الألفاظ .

(2) ابن الأثير ، عليّ . الكامل في التاريخ . ج 2 ص 148 - 163 .

## غَزْوَةُ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ (1)

قال محمد بن إسحاق: «فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الناس بطلب العدو، فأذن مؤذنه (2): أن لا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس. فكلّمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله! إن أبي كان خلفني (3) على أخوات لي سبع، وقال: يا بُني! إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك النسوة لا رجل فيهنّ، ولست الذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على نفسي، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهنّ، فأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرج معه (4). وإنما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم... فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى انتهى إلى حمراء الأسد؛ وهي من المدينة على ثمانية أميال، واستعمل على المدينة (عبدالله) بن أم مكتوم. فأقام بها (أي: بحمراء الأسد) الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة» (5). ولم يلق من العدو كيداً.

### أهم حوادث هذه السنة من غير حوادث الجهاد

#### مقتل كعب بن الأشرف اليهودي

وفي هذه السنة أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقتل كعب بن الأشرف اليهودي، فقتله جماعة من المسلمين شرّاً قتله؛ وذلك جزاء إذايته لله ولرسوله وللإسلام والمسلمين: قولاً وفعلًا عن قصد ونية منه، لعنه الله وأخزاه! قال علي بن الأثير: «وفي هذه السنة قُتل كعب بن الأشرف؛ وهو أحد بني نبهان من طيء، وكانت أمّه من بني النضير، وكان قد كُبر عليه قتل من قُتل بيد من قريش، فسار (من المدينة إلى مكة) وحرّض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبكى أصحاب بدر، وكان يُشَبِّب بنساء المسلمين حتى آذاهم. فلما عاد إلى المدينة، قال

(1) موضع على ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطريق إذا قصدت «ذا الحليفة».

(2) هو بلال بن رباح الحبشي.

(3) وذلك كان عند غزوة بدر.

(4) كان ذلك في غزوة حمراء الأسد.

(5) ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية بشرح «الروض الأنف». ج 6 ص 26، 27.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «مَنْ لِي مِنْ ابْنِ الْأَشْرَفِ؟» فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: أنا لك به، أنا أقتله. قال: «فافعلْ إِنَّ قَدَرْتَ عَلَى ذَلِكَ». قال: يا رسول الله! لا بد لنا مما نقول. قال: «قُولُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ، فَأَنْتُمْ فِي حِلٍّ مِنْ ذَلِكَ». فاجتمع محمد بن مسلمة وسلطان بن سلامة بن وقش، وهو أبو نائلة، والحارث بن أُوس بن مُعَاذ، وكان أخا كعب من الرِّضَاعَةِ، وعَبَاد بن بَشْر، وأبو عَبْس بن جُبَيْر، ثم قَدَمُوا إِلَى ابْنِ الْأَشْرَفِ أَبَا نَائِلَةَ، فَتَحَدَّثَ مَعَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا بَنَ الْأَشْرَفِ! إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ فَاصْتَمْتُمَا عَلَيَّ. قال: أفعَل. قال: كان قدوم هذا الرَّجُلِ<sup>(1)</sup> شَوْماً عَلَى الْعَرَبِ، قَطَعَ عَنَّا السَّبِيلَ حَتَّى ضَاعَتِ الْعِيَالُ وَجَهَدَتِ الْبَهَائِمُ. فقال كعب: قد كنت أخبرتك بهذا. قال أبو نائلة: وأريد أن تبيعنا طعاماً ونرهنك وتوثق لك وتُحسن في ذلك. قال: ترهونني أبناءكم؟ قال: أردت أن تفضحننا؛ إنَّ معي أصحاباً على مثل رأيي: تبيعهم وتُحسن وتجعل عندك رهنأ من الحلقة ما فيه وفاء، وأراد أبو نائلة بذكر الحلقة، وهي السِّلَاحُ، أن لا ينكر السِّلَاحُ إذا جاء مع أصحابه. فقال: إن في الحلقة لوفاء. فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم، فأخذوا السِّلَاحَ وساروا إليه، وشيَّعهم النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم! - إلى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ<sup>(2)</sup> ودعا لهم. فلما انتهوا إلى حصن كعب هتف به أبو نائلة، وكان كعب قريب عهد بعُرسٍ إليه، وتحدَّثوا ساعة، وسار معهم إلى شَعْبِ الْعَجُوزِ<sup>(3)</sup>. ثم إنَّ أَبَا نَائِلَةَ أَخَذَ بِرَأْسِ كَعْبٍ وَشَمَّ بِيَدِهِ وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ طَيِّباً أَعْرَفَ<sup>(4)</sup> قَطًّا! ثُمَّ مَشَى سَاعَةً وَعَادَ لِمِثْلِهَا حَتَّى أَطْمَأَنَّ كَعْبٌ، ثُمَّ مَشَى سَاعَةً وَأَخَذَ بِقَوْدِ رَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ: اضْرَبُوا عَدُوَّ اللَّهِ! فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُهُمْ فَلَمْ تَغْنِ شَيْئاً. قال محمد بن مسلمة: فذكرتُ مَغُولاً فِي سَيْفِي فَأَخَذْتَهُ، وَقَدْ صَاحَ عَدُوَّ اللَّهِ صِيحَةً لَمْ يَبْقَ حَوْلُنَا حَصْنٌ إِلَّا أُوقِدَتْ عَلَيْهِ نَارٌ، قَالَ: فَوَضَعْتَهُ فِي تُنْدُوتِهِ ثُمَّ تَحَامَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَّغْتَ عَاقِبَتَهُ وَوَقَعَ عَدُوَّ اللَّهِ. وَقَدْ أَصِيبَ الْحَارِثُ بْنُ أُوسَ بْنِ مُعَاذٍ؛ أَصَابَهُ بَعْضُ أَسْيَافِنَا، قَالَ: فَخَرَجْنَا عَلَى بُعَاثٍ وَقَدْ أَبْطَأَ عَلَيْنَا صَاحِبُنَا فَوْقْنَا لَهُ سَاعَةٌ وَقَدْ نَزَفَهُ الدَّمُ، ثُمَّ أَتَانَا فَاحْتَمَلْنَاهُ وَجِئْنَا بِهِ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم! - فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَتْلِ عَدُوِّ اللَّهِ، وَتَقَلَّ عَلَى جُرْحٍ صَاحِبُنَا وَعَدْنَا إِلَى أَهْلِينَا فَأَصْبَحْنَا، وَقَدْ خَافَتْ يَهُودٌ؛ لَيْسَ بِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا وَهُوَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ. قال: قال:

(1) يقصد بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -

(2) «بقيع الغرقد»: موضع يكبر فيه نبات العوسج؛ والمراد به هنا مقبرة أهل المدينة.

(3) «شعب العجوز»: موضع بظاهر المدينة.

(4) «أعرف»: أكثر طيباً وألذّه.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «مَنْ ظَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ رِجَالِ يَهُودٍ فَاقْتُلُوهُ». فَوُثِبَ مُحْيِصَةً. ابن مسعود على ابن سُنَيْة اليهودي؛ وهو من تُجَار يهود، فقتله، وكان يُبايعهم، فقال له أخوه حُوَيْصَةَ؛ وهو مشرك؛ يا عدو الله! قتلته! أما والله لربُّ شحمٍ في بطنك من ماله! وضربه، فقال مُحْيِصَةَ: لقد أمرني بقتله مَنْ لو أمرني بقتلك لقتلتك. قال: فوالله إن كان لأوّل إسلام حُوَيْصَةَ. فقال: إنّ ديناً بلغ بك ما أرى لعجب. ثمّ أسلم<sup>(1)</sup>. وقال محمد بن عمر الواقدي: «وكان قتله (أي: كعب بن الأشرف) على رأس خمسة وعشرين شهراً في ربيع الأوّل»<sup>(2)</sup>.

### مقتل أبي رافع سلام اليهودي

وفي شهر جُمادى الآخرة من هذه السنة استأذن المسلمون رسول الله في قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، فأذن لهم في ذلك. والسبب في قتله أنّه كان يظاهر كعب بن الأشرف في إذابة رسول الله والمسلمين ويحرّضه على هجائه له ولهم بأشعاره البغيضة مبنى ومعنى. قال عليّ بن الأثير: «في هذه السنة في جُمادى الآخرة قُتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي، وكان يظاهر كعب بن الأشرف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فلمّا قُتل كعب بن الأشرف - وكان قتلته من الأوس - قالت الخزرج: والله لا يذهبون بها علينا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكانا يتصاولان تصاول الفحلين، فتذاكر<sup>(3)</sup> الخزرج مَنْ يعادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كابن الأشرف، فذكروا ابن أبي الحقيق، وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في قتله، فأذن لهم، فخرج إليه من الخزرج عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة وخُزاعيّ بن الأسود، حليف لهم، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك، فخرجوا حتى قدموا خيبر فأتوا دار أبي رافع ليلاً، فلم يدعوا باباً في الدار إلّا أغلقوه على أهله، وكان في عُلَّة، فاستأذنوا عليه، فخرجت امرأته فقالت: من أنتم؟ قالوا: نفر من العرب يلتمسون الميرة. قالت: ذاك صاحبكم فادخلوا عليه، فدخلوا. فلمّا دخلوا أغلقوا باب العُلَّة ووجدوه على فراشه وابتدروه، فصاحت المرأة، فجعل الرجل منهم يريد قتلها، فيذكر نهيّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - إياهم عن قتل النساء والصبيان، فيمسك

(1) ابن الأثير، عليّ. الكامل في التاريخ. ج 2 ص 143، 144.

(2) الواقدي، محمد. كتاب المغازي. ج 1 ص 184.

(3) «فتذاكر»: ذكر أو تذكر.

عنها ، وضربوه بأسيا فهم ، وتحامل عليه عبدالله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه ، ثم خرجوا من عنده . وكان عبدالله بن عتبك سيء البصر ، فوقع من الدرجة فوثت<sup>(1)</sup> رجله وثناً شديداً ، فاحتملوه واختفوا ، وطلبته يهود في كل وجه فلم يروهم ، فرجعوا إلى صاحبهم ، فقال المسلمون : كيف نعلم أن عدو الله قد مات ؟ فعاد بعضهم ودخل في الناس ، فرأى الناس حوله وهو يقول : لقد عرف صوت ابن عتيك ، ثم قلت : أين ابن عتيك ؟ ثم صاحت امرأته وقالت : مات والله ! قال : فما سمعت كلمة ألد إلى نفسي منها . ثم عاد إلى أصحابه وأخبرهم الخبر وسمع صوت الناعي يقول : أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز . وساروا حتى قدموا على النبي - صلى الله عليه وسلم ! واختلفوا في قتله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! : « هَاتُوا أَسْيَافَكُمْ » ، فجاءوا بها ، فنظر إليها فقال : « لسيف عبدالله بن أنيس : هذا قتله ؛ أرى فيه أثر العظام »<sup>(2)</sup> . وفي شهر شعبان من هذه السنة تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - حفصة بنت عمر بن الخطاب ؛ بعد وفاة بعلها خنيس بن حذافة السهمي . وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة تزوج عثمان بن عفان أم كلثوم بنت النبي محمد - صلى الله عليه وسلم ! - بعد وفاة أختها رقية ؛ فبنى بها في جمادى الآخرة . وفي هذه السنة أيضاً ولد السائب بن زيد بن أخت ثُمير . وفي هذه السنة كذلك ولد لعلي بن أبي طالب الحسن من فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وكان بين ولادتها الحسن وحملها بأخيه الحسين خمسون يوماً .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أن غزوة أُحُد سُميت باسم جبل ، وإضافتها إليه كانت إضافة تشريف وتكريم ، فقد كرمه وشرّفه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بحبته إياه ، فقال : « أُحُدُ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ »<sup>(3)</sup> . أي نأنس به وترتاح نفوسنا لرؤيته ، وهو سد منيع بيننا وبين ما يؤذينا . فمحنة من هو حي لما هو جماد تعني إعجاباً به ، وسكون النفس إليه . ومحبة الجماد - الجبل هنا - للحي مجاز من كونه نافعاً ساداً بينه وبين ما يؤذيه . وحقيقة المراد أن محبة الجماد للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام ! - أمر جائز لا يُنكر ، وواقع في السمع والرؤية ؛ كحنين الجذع إلى رسول الله ،

(1) « فوثت » : الوثءُ وصُم يُصيب اللحم ولا ينفذ إلى العظم ، فيرم اللحم ويتنفخ .

(2) ابن الأثير ، علي . الكامل في التاريخ . ج 2 ص 146 .

(3) رواه البخاري عن سهل بن سعد .



وتسبيح الحصى في يده ، وتسليم الحجر والشجر عليه ، وتكليم ذراع الشاة إياه ، وتأمين حوائط البيت على دعائه ، وهلمّ جرّاً . . . فهذا دليل واضح وقاطع على غرس محبة الله لرسول الله وإسكانها في الجمادات ؛ مع فضاضتها وشدة يُسبها وكمال قوة صلابتها<sup>(1)</sup> .

وقد دلّ على ثبوت إحساس الجمادات وشعورها قوله عزّ من قائل : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْتَهَرُّ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾<sup>(2)</sup> . ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾<sup>(3)</sup> .

**العبرة الثانية :** أن هزيمة المسلمين في غزوة أحد ناتجة عن مخالفتهم لنبيهم في أمرين اثنين :

**الأمر الأول :** استكراههم لرسول الله على الخروج من المدينة للقاء عدوهم خارجها ؛

وهو يريد عكس ذلك ، فقال لهم : « فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

**الأمر الثاني :** مفارقة الرّماة أمكنتهم التي أمرهم رسول الله أن يلازموها ويثبتوا فيها

ليكونوا ترساً للمجاهدين لإعلاء كلمة الله ؛ لكنهم خالفوا أمر رسولهم حينما انجلوا عنها رغبة فيما هم له ناهبون ، ولعرض الدنيا مائلون ، فجزاهم الله بما هم على ما فعلوا نادمون ! .

**العبرة الثالثة :** التأسّي بما وقع لرسول الله في سبيل إعلاء كلمة الله ؛ من كسر رباعيته

السفلى ، وشجّ رأسه ، وولّج حلقة مغفره في وجنته الشريفة ، وإسالة دمه ، ومحاولة المشركين قتله بكلّ ما في طاقاتهم ؛ حتّى إن أبا دُجّانة دفع به إيمانه الراسخ أن يُترّسه بنفسه ويجعل ظهره هدفاً ومرمىً لنبال المشركين الممطرة على رسول الله ، وكل ما فعله أبو دُجّانة كان حفاظاً على حياة رسول الله وعلى ما جاء به من لدن ربّه . قال عبد الرحمن السّهيلي : « وأبو دُجّانة السّاعديّ ممّن دفع عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - وحنا عليه يوم أُحد وترّس عليه بنفسه ؛ حتّى كثرت النّبل في ظهره ، واستشهد يوم اليمامة ؛ بعد أن شارك في قتل مُسيّلمة »<sup>(4)</sup> . فهذا هو الإيمان

(1) المناوي ، عبد الرؤوف . فيض القدير . ج 1 ص 184 .

(2) سورة «البقرة» . الآية 74 .

(3) سورة «الإسراء» . الآية 44 .

(4) السّهيليّ ، عبد الرحمن . الرّوض الأنف . ج 5 ص 456 .

الراسخ في قلوب المؤمنين الذين لا ييغون عنه - أبداً - بديلاً ، وقد بقى عيَّنة ونموذجاً على مرّ الدهور والأجيال ، ومدح أهله القرآن المجيد والسنة النبويّة ، قال جلّ جلاله : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> . وقال من لا ينطق عن الهوى : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » <sup>(2)</sup> . قال عبد الرؤوف المناوي - في شرحه هذا الحديث - : « لا يؤمن أحدكم » . أي : إيماناً كاملاً ، ونفي اسم الشيء بمعنى الكمال عنه مستفيض في كلامهم ، وخصّوا بالخطاب لأنهم الموجودون إذ ذاك ، والحكم عام . « حتى أكون أحب إليه » : غاية لنفي كمال الإيمان ومن كلّ إيمانه علم أنّ حقيقة الإيمان لا تتمّ إلّا بترجيح حبه على حبّ كلّ « من ولده ووالده » ؛ أي : أصله وفرعه ؛ وإن علا أو نزل ، والمراد من له ولادة ، وقدم الولد على الوالد لمزيد الشفقة . وفي رواية البخاريّ تقديم الوالد ، ووجهه أنّ كلّ أحد له والد ، ولا عكس ، وذكر الولد والوالد أدخل في المعنى ، لأنّهما أعزّ على العاقل من الأهل والمال ؛ بل عند البعض من نفسه ، ولذلك لم يذكر النفس ، وشمل لفظ الوالد الأمّ إن أريد من له ولادة أو ذات ولد ، ويحتمل أنّه اكتفى بذكر أحدهما كما يكتفى من أحد الضدّين بالآخر ، وعطف عليه من عطف العام على الخاصّ . قوله : « والناس أجمعين » . إشاراً له عليه الصلّاة والسّلام على ما يقتضي العقل رجحانه : من حبه احتراماً وإكراماً وإجلالاً ؛ وإن كان حبّ غيره لنفسه وولده مركزاً في غريزته ، فسقط استشكاله بأنّ المحبة أمر طبيعيّ غريزيّ ، لا يدخل في الاختيار ، فكيف نكلّف به إذ المراد حبّ الاختيار المستند إلى الإيمان كما تقرّر؟ فمعناه لا يؤمن أحدكم حتى يؤثر رضاي على هوى والدّيه وأولاده . قال الكرمانيّ : ومحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إرادة طاعته وترك مخالفته ، وهو من واجبات الإسلام . والحديث من جوامع الكلم ، لأنّه جمع فيه أصناف المحبة الثلاث : محبة الإجلال وهي محبة الأهل ، ومحبة الشفقة وهي محبة الوالد ، ومحبة المجانس وهي محبة الناس أجمعين ، وشاهد صدق ذلك بذل النفس في

(1) سورة «المجادلة» . الآية 22 .

(2) رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك .

رضا المحبوب وإثاره على كل مصحوب. قال الإمام النووي: وفي الحديث تلميح إلى قضية النفس الأمارة والمطمئنة، فمن رجح جانب المطمئنة كان حبه لنيه راجحاً، ومن رجح جانب الأمارة كان بالعكس<sup>(1)</sup>. وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ قَالُوا هَذَا الَّذِي جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾<sup>(2)</sup>. وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»<sup>(3)</sup>.

**العبرة الرابعة:** أن المن من المخلوق على الخالق مرفوض؛ ولو كان من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! إذ الخالق يفعل في خلقه ما يشاء ويريد، وليس للمخلوق من أمر الخالق إلا القبول والتسليم لصاحب الأمر. روى محمد بن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أنه قال: «كُسر رباعية النبي - صلى الله عليه وسلم! يوم أحد، وشج في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ؟ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ؟!»<sup>(4)</sup> فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾<sup>(5)</sup>. وفي هذا المعنى بالذات أنزل الله عدة آيات محكمات كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(6)</sup>.

**العبرة الخامسة:** صحة رؤيا رسول الله وصدق تأويله لها وشؤمها على المسلمين. قال محمد بن عمر الواقدي: «ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - رؤيا ليلة الجمعة، فلما أصبح واجتمع المسلمون، خطب؛ فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أيها الناس! إنني رأيتُ في منامي رؤيا؛ رأيتُ كأنني في درع حصينة؛ ورأيتُ كأن سيفي: ذا الفقار انفصم من عند ظبته؛ ورأيتُ بقرأ تُذبح؛ ورأيتُ كأنني مُردف كَبْشاً». فقال الناس: يا رسول الله! فما أولتها؟ قال:

(1) المناوي، عبد الرؤوف. فيض القدير ج 6 ص 441، 442.

(2) سورة الأحزاب. الآية 6.

(3) رواه البخاري.

(4) السهيلي، عبد الرحمن. الرّوض الأثف. ج 5 ص 442.

(5) سورة آل عمران. الآية 128.

(6) سورة القصص. الآية 56.

«أَمَّا الدَّرْعُ الْحَصِينَةُ فَاكْتُوْا فِيهَا؛ وَأَمَّا أَنْصَامُ سَيْفِي مِنْ عِنْدِ طَبَّتِهِ فَمُصْبِيَةٌ فِي نَفْسِي؛ وَأَمَّا الْبَقَرُ الْمَذْبَحُ فَقَتْلِي فِي أَصْحَابِي؛ وَأَمَّا مُرْدِفُ كِبْشٍ فَكِبْشُ الْكُتَيْبَةِ نَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»<sup>(1)</sup>.  
 وَصَدَّقَ تَأْوِيلَ الرَّؤْيَى أَمْرَ مَعْلُومِ عِلْمِ الْيَقِينِ، وَسَنَّةَ مُتَّبَعَةٍ فِي مَنْ تَقَدَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كَصَدَّقَ تَأْوِيلَ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ لِرُؤْيَيْهِ<sup>(2)</sup>، وَصَدَّقَ تَأْوِيلَ النَّبِيِّ يُوسُفَ لِرُؤْيَيْهِ صَاحِبِي السِّجْنِ<sup>(3)</sup>. وَقَدْ وَفَّقَ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِينَ لِإِصَابَةِ حَقِيقَةِ التَّأْوِيلِ لِرُؤْيَى الْمُؤْمِنِينَ تَثْبِيثًا وَتَصَدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ لَمْ تَكُنْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذُوبٌ» وَلِقَوْلِهِ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»<sup>(4)</sup>. وَلِقَوْلِهِ: «رُؤْيَا الْمُسْلِمِ الصَّالِحِ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ؛ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»<sup>(5)</sup>.

**العبارة السادسة:** أَنْ عَتَقَ أَبِي دَسَمَةَ وَحَشِيَ الْحَبَشِيَّ مِنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ، كَانَ مَكَافَأَةً لَهُ عَلَى قَتْلِهِ حِمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ؛ وَهُوَ خَيْرُ النَّاسِ! وَأَنْ نَدَامَةً وَحَشِيَ عَلَى هَذَا الْقَتْلِ كَانَتْ الدَّافِعُ لَهُ إِلَى قَتْلِهِ مُسِيلْمَةُ الْكَذَابِ - وَهُوَ شَرُّ النَّاسِ - كَفَّارَةً وَاسْتِغْفَارًا! قَالَ وَحَشِيَ: «كَنتُ غَلَامًا لَجُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ، وَكَانَ عَمُّهُ طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيِّ قَدْ أُصِيبَ (أَي: قُتِلَ) يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَمَّا سَارَتْ قَرِيشٌ إِلَى أَحَدٍ، قَالَ لِي جُبَيْرٌ: إِنْ قَتَلْتَ حِمْزَةَ عَمِّ مُحَمَّدٍ بَعَمِّي فَأَنْتَ عَتِيقٌ، فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ، وَكَنتُ رَجُلًا حَبَشِيًّا أَقْدَفَ بِالْحَرْبَةِ قَذْفَ الْحَبْشَةِ، فَلَمَّا أَخْطَى بِهَا شَيْئًا؛ فَلَمَّا اتَّقَى النَّاسُ خَرَجْتُ أَنْظُرَ حِمْزَةَ وَأَتَبَصَّرَهُ حَتَّى رَأَيْتُهُ فِي عُرْضِ النَّاسِ مِثْلَ الْجَمَلِ الْأَوْرَقِ يَهْذُ النَّاسُ بِسَيْفِهِ هَذَا، مَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَا تَهَيَّأُ لَهُ، أُرِيدُهُ وَأَسْتَرْتُهُ مِنْهُ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ لِيَدْنُو مِنِّي إِذْ تَقَدَّمَنِي إِلَيْهِ سَبَاعُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى، فَلَمَّا رَأَاهُ حِمْزَةُ قَالَ لَهُ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا بَنَ مَقْطَعَةِ الْبُظُورِ! فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً كَأَنَّ مَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ. وَهَزَزْتُ حَرْبَتِي، حَتَّى إِذَا رَضِيتُ مِنْهَا، رَفَعْتُهَا عَلَيْهِ فَوَقَعَتْ فِي ثَنَّتِهِ، حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ، وَذَهَبَ لِيَنْوِيَ نَحْوِي، فَغُلِبَ، وَتَرَكْتُهُ وَإِيَّاهَا حَتَّى مَاتَ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ حَرْبَتِي، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْعَسْكَرِ، فَقَعَدْتُ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بَغِيرُهُ حَاجَةٌ؛ وَإِنَّمَا قَتَلْتُهُ لِأَعْتَقَ، فَلَمَّا قَدِمْتُ مَكَّةَ أُعْتِقْتُ، ثُمَّ أَقَمْتُ حَتَّى إِذَا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَكَّةَ هَرَبْتُ إِلَى

(1) الواقدِي، مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو. كِتَابُ الْمَغَازِي. ج 1 ص 208، 209.

(2) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَةِ 104، 105، 106 مِنْ سُورَةِ «الصَّافَاتِ».

(3) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَةِ 41-49 مِنْ سُورَةِ «يُوسُفَ».

(4) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ.

(5) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ الْحَكِيمُ، عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ.

الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وقد الطائف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليسلموا تَعَيَّتْ<sup>(1)</sup> عليّ المذاهب، فقلت: ألحق بالشام، أو اليمن، أو ببعض البلاد؛ فوالله إنّي لفي ذلك من همّي، إذ قال لي رجل: ويحك! إنّه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته. فلما قال لي ذلك خرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، فلم يرعه إلاّ بي قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق. فلما رآني قال: «أَوْحْشِي؟»! قلت: نعم يا رسول الله! قال: «اقْعُدْ فحدثني كيف قُتِلَتْ حمزة»، فحدثته. فلما فرغتُ من حديثي قال: «وَيْحَكَ! غَيَّبَ عَنِّي وجهك، فلا أُرِيَنَّكَ». فكنْتُ أُنَكِّبُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث كان، لثلاث إراني، حتى قبضه الله - صلى الله عليه وسلم - فلما خرج المسلمون إلى مُسَيْلِمة الكذاب صاحب اليمامة<sup>(2)</sup> خرجتُ معهم، وأخذتُ حربتي التي قُتِلْتُ بها حمزة؛ فلما التقى الناس رأيت مُسَيْلِمة الكذاب قائماً في يده السِّيف، وما أعرفه فتهيّأت له، وتهيّا له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى؛ كلانا يريد، فهزّزتُ حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشدّ عليه الأنصاريّ فضربه بالسِّيف، فربُّك أعلم أينما قتله، فإن كنت قتلتَه فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! وقد قتلت شرّ الناس<sup>(3)</sup>. ورؤي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب - وكان قد شهد معركة اليمامة - أنه قال: «سمعت يومئذ صارخاً يقول: قتله العبد الأسود؛ يعني به وحشياً». وقال عبد الملك بن هشام: «فلغني أنّ وحشياً لم يزل يُحدّ في الخمر حتى خُلِعَ من الديوان، فكان عمر بن الخطّاب يقول: قد علمت أنّ الله - تعالى - لم يكن ليدع قاتل حمزة<sup>(4)</sup>».

**العبرة السابعة:** شدة غيرة المسلمين على نسائهم ومحارمهم كان من بين الأسباب التي أوجبت عليهم قتل كعب بن الأشرف اليهودي، الذي كان يُشَبِّب بنسائهم، وعلى رأسهن أمّ الفضل حليلة العباس بن عبد المطلب. قال محمد بن إسحاق: «ثمّ رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشَبَّب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ لِي بِابْنِ

(1) «تَعَيَّتْ»: أعجزته فلم يهتد لوجهه.

(2) «اليمامة». قال عبد المؤمن بن عبد الحقّ البغدادي في كتابه «مراصد الاطلاع»: وهو بلد كبير، فيه قرى وحصون وعيون ونخل وكان اسمها أولاً جواً.

(3) ابن هشام، عبد الملك السيرة النبوية. بشرح الرّوض الأنف. ج 5 ص 434.

(4) المصدر السابق.

الأشرف؟ فقال له محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله؛ أنا أقتله»<sup>(1)</sup>. وقال عبد الرحمن السُّهيلي: «وكان (كعب بن الأشرف) قد شَبَّ بأم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب فقال: «أَرَا حِلُّ أَنْتَ لَمْ تَرَحَلْ لِمَنْبَقَةٍ وَتَارَكَ أَنْتَ أُمَّ الْفَضْلِ بِالْحَرَمِ»

في أبيات رواها يونس عن ابن إسحاق، وذكر فيه (أي: في الحديث عن مقتل كعب بن الأشرف) قوله عليه السلام: «مَنْ لَكَعِبَ بِنَ الْأَشْرَفِ؟ فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ». فيه من الفقه: وجوب قتل من سب النبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كان ذا عهد، خلافاً لأبي حنيفة - رحمه الله - فإنه لا يرى قتل الذمي في مثل هذا»<sup>(2)</sup>. وقد تقدم لنا أن ذكرنا بشيء من التفصيل حكم من سب رسول الله أو شتمه؛ وذلك عند استخراج أحكام السنة الثانية للهجرة النبوية.

**العبرة الثامنة:** أن الله قد أمر رسوله والمسلمين بالصبر الجميل على أذى اليهود والمشركين من أهل المدينة، وأمرهم بالعفو عنهم، فقال: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(3)</sup>. وقال: ﴿وَدَّ كَثِيْرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾<sup>(4)</sup>.

**العبرة التاسعة:** أخرج المشركون زيدا بن الدسنة من الحرم المكِّي ليقتلوه. فقال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك، وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنتي جالس في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً!! ثم قُتل زيد شهيداً رحمه الله.

**العبرة العاشرة:** أن طلحة بن عبيد الله ومالك بن سنان وأبا سعيد الخدري مشهود لهم بالجنة وهم معتقون من النار. قال عبد الملك بن هشام: «وقع رسول الله - صلى الله عليه

(1) ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 5 ص 400.

(2) الرّوض الأنف. ج 5 ص 413.

(3) سورة «آل عمران». الآية 186.

(4) سورة «البقرة». الآية 109.

وسلم!- في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون؛ فأخذ عليّ بن أبي طالب بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- ورفع طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائماً، ومصّ مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدريّ الدّم عن وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- ثمّ ازدرد؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: «مَنْ مَسَّ دَمِي دَمَهُ لَمْ تُصِبْهُ النَّارُ». وذكر عبد العزيز بن محمّد الدراورديّ: أنّ النّبيّ - صلى الله عليه وسلم!- قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ»<sup>(1)</sup>. وقال عبد الرحمن السّهيّليّ: «وذكر (عبد الملك بن هشام) أنّ مالك بن سنان مصّ دَمَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم!- وازدرد، وقد فعل مثل ذلك (عبدالله) بن الزّبير، وهو غلام حَزَوْر؛ حين أعطاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- دَمَ مُحَاجِمِهِ لِيَدْفِنَهُ فَشَرِبَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم!- كما قال لِمَالِكٍ حين ازدرد دَمَ جُرْحِهِ: «مَنْ مَسَّ دَمِي لَمْ تُصِبْهُ النَّارُ». لكنّه قال لابن الزّبير: «وَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ. ذكره الدار قطنيّ في السّنن»<sup>(2)</sup>.

**العبرة الحادية عشرة:** أنّ الله قد أكرم الشّهِيد حنظلة بن أبي عامر بتغسيل الملائكة إيّاه! قال عبد الرحمن السّهيّليّ: «وذكر (عبد الملك بن هشام) قول النّبيّ - صلى الله عليه وسلم!-: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ لَتَغْسِلُهُ الْمَلَائِكَةُ». يعني حنظلة وفي غير السيرة، قال: «رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُهُ فِي صَحَافِ الْفُضَّةِ بِمَاءِ الْمُنْزَنِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». قال ابن إسحاق فسئلت صاحبتّه، فقالت: خرج وهو جُنُبٌ حين سَمِعَ الْهَاتِفَةَ. «صَاحِبَتُهُ» يعني امرأته، وهي جميلة بنت أبيّ بن سلول أخت عبد الله بن أبيّ (المنافق). وكان ابنتي بها تلك اللَّيْلَةَ، فكانت عروساً عنده، فرأت في النوم تلك اللَّيْلَةَ كأنّ باباً في السّماء فُتِحَ لَهُ فَدَخَلَ، ثُمَّ أَغْلِقَ دُونَهُ، فَعَلِمَتْ أَنَّهُ مَيّتٌ مِنْ غَدِهِ، فَدَعَتْ رِجَالاً مِنْ قَوْمِهَا حين أصبحت فأشهدتهم على الدخول بها خشية أن يكون في ذلك نزاع. ذكره الواقديّ فيما ذكّر لي، وذكر غيره أنّه التمس في القتل، فوجدوه يقطر رأسه ماءً، وليس بقربه ماء تصديقاً لما قاله رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-»<sup>(3)</sup>.

**العبرة الثانية عشرة:** محنة يوم أحد وصبر المسلمين على ما كانوا عليه. قال محمّد بن إسحاق: «كان يوم أحد بلاء ومصيبة وتمحيصاً، اختبر الله به المؤمنين. ومَحَنَ بِهِ الْمُنَافِقِينَ مِمَّنْ

(1) السيرة النبويّة بشرح الرّوض الأنف. ج 5 ص 442.

(2) الرّوض الأنف. ج 5 ص 471.

(3) الرّوض الأنف. ج 5 ص 463، 464.

كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبه، وكان يوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته»<sup>(1)</sup>.

### العبرة الثالثة عشرة: قول الرسول - عليه الصلاة والسلام! : «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»

عندما بلغه أن أبا سفيان بن حرب قد عقد العزم على استئصال شأفة المسلمين في غزوة حمراء الأسد . قال محمد بن إسحاق : «ومرّ به (أي : بأبي سفيان) ركّب من عبد قيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا نريد المدينة ؛ قال : ولم ؟ قالوا نريد الميرة ؛ قال : فهل أنتم مبلّغون عني محمّداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمّل لكم هذه<sup>(2)</sup> غداً زيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؛ قالوا : نعم ؛ قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمرّ الركب برسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان ؛ فقال : «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»<sup>(3)</sup> . وقد توكل الله بأمر أبي سفيان فخيّب رجاءه ، ودرّ عزمه وردّ كيده في نحره ؛ كما نجّى رسوله من مكر عدوّه وأيّده بنصره المبين ؛ بعد بلائه واختباره بهزيمة أحد : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾<sup>(4)</sup> .

### العبرة الرابعة عشرة: أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه يوم أحد حتى وقعت على

وجنته . فقال : يا رسول الله ! إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأيتني على هذه الحال أن تقدرنى ، فأخذ رسول الله عينه وردّها إلى موضعها وقال : «اللَّهُمَّ اكْسِبْهُ جَمَالاً» ، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً ، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى .

## استخراج الأحكام

### الحكم الأول: أن تغسيل الشهيد الجنب واجب عند جماعة من الفقهاء أخذاً بتغسيل

حنظلة بن أبي عامر على أيدي الملائكة ؛ وهو عند جماعة أخرى منهم ليس بواجب . قال عبد الرحمن السهيلي : «وفي هذا الخبر متعلّق لمن قال من الفقهاء : إن الشهيد يُغسّل إذا كان جنباً . ومن الفقهاء من يقول : لا يغسّل كسائر الشهداء ، لأنّ التكليف ساقط عنه بالموت»<sup>(5)</sup> . ولعل هذا هو الأصحّ والمعتمد عليه .

(1) ابن هشام ، عبد الملك . السيرة النبويّة بشرح الروض الأنف . ج 6 ص 31 .

(2) «هذه» : أي : إبلهم .

(3) المصدر السابق . ص 29 .

(4) سورة «محمّد» . الآية 31 .

(5) الرّوض الأنف . ج 5 ص 464 .



**الحكم الثاني:** أن تحريم شرب الدّم لا يشمل النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بدليل أنّ شاربه من الصحابة كان في حلّ منه . قال عبد الرحمن السّهيلي: «وفي هذا من الفقه أنّ دم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يُخالف دم غيره في التحريم ، وكذلك بوله قد شربته أمّ أيّمن حين وجدته في إناء من عيدان تحت سريره . فلم يُنكر ذلك عليها ، - والله أعلم - للمعنى الذي بيّنا في حديث نزول الملكيّن عليه حين غسل جوفه بالثلج في طسّنت الذهب ، فصار بذلك من المتطهرين ، وبيّنا أيضاً هناك أنّه من المتطهرين كأمّته لتطهره من الأحداث ، والحمد لله»<sup>(1)</sup> .

**الحكم الثالث:** أنّ ما تركه مُخَيَّرُ اليهوديّ هبةً لمحمد - صلى الله عليه وسلم! - بعد استشهاده في غزوة أحد كان في حكم الوقف ؛ وهو أوّل حُبْسٍ حُبْسٍ في الإسلام . قال عبد الرحمن السّهيلي: «وما يليق ذكره بهذه الغزاة حديث مُخَيَّرِ ، وهو أحد بني النّضير ، وقوله : إنّ أُصِبتُ فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء ، فأصيب يوم أحد ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حين انصرف ماله أوقافاً ، وهو أوّل حُبْسٍ حُبْسٍ في الإسلام . رُوي ذلك عن محمد بن طعب القرظيّ . وقال الزّهرريّ كانت سَبْعَ حوائط ، وأسماءها : الأعراف ، والأعواف ، والصفافية ، والدّلال ، وبرّقة ، وحُسنى ، ومشربة أمّ إبراهيم ؛ وإنّما سمّيت مشربة أمّ إبراهيم ، لأنّها كانت تسكنها . وقد ذكر ابن إسحاق حديث مُخَيَّرِ ، وهذا الذي ذكرناه تكملة له ، وزيادة فائدة فيه»<sup>(2)</sup> .

**الحكم الرابع:** أنّ جزاء القول والفعل بمثلهما جائز شرعاً وعقلاً ، ولهذا أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم! - أن يُمَثَّلَ بالعرنيّين : فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسُمِلت أعينهم ، وتركوا بالحرّة<sup>(3)</sup> مثلة لمراى الناس .

روى قتادة عن أنس بن مالك : «أنّ ناساً من عكل وعُرينة قدموا على النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وتكلّموا بالإسلام ، فاستوخموا المدينة ، فأمر لهم النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بدود وراع ، وأمرهم أن يخرجوا ، فليشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرّة كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعي النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - واستاقوا الدّود ، فبلغ ذلك النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فبعث بالطلّب في آثارهم ، فأمر بهم ، فسمّلوا أعينهم ،

(1) المصدر السابق . ج 5 ص 471 .

(2) المصدر السابق . ج 6 ص 47 .

(3) «الحرّة» : أرض صلبة ذات حجارة سود معروفة بالمدينة .

وقطعوا أيديهم، وتركوهم في ناحية الحرّة حتى ماتوا على حالهم». رواه الجماعة. وزاد البخاري عن قتادة أيضاً أنّه بلغه أن النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة. وروى الإمام أحمد والبخاريّ وأبو داود، عن قتادة، عن ابن سيرين: أن ذلك كان قبل أن تنزل الحدود. وروى مسلم والنسائيّ والترمذي، عن أنس بن مالك قال: إنّما سمل النبيّ آعين أولئك، لأنّهم سملوا آعين الرعاة. ومهما كان من أمر فإنّ المسلمين غير مخطئين فيما فعلوا؛ ما دام كتابهم يأمرهم بذلك في آيات محكمات فقال: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾<sup>(1)</sup> وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾<sup>(2)</sup>. وقال: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾<sup>(3)</sup>.

**الحكم الخامس:** الأجرة على الحجابة حلال. بنصّ واضح من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حينما استفته في ذلك الصحابيّ الجليل مُحيصة بن مسعود اليهوديّ وألحّ عليه في المسألة، فقال: «اعْلِفْهُ نَاضِحَكَ»<sup>(4)</sup> واجعله في كَرْشِكَ».

**الحكم السادس:** أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد ردّ في غزوة أحد لمن استصغروهم في القتال، واستثنى منهم اثنين؛ هما: سَمُرَةُ بن جندب، ورافع بن خديج؟ وكانا في سنّ خمس عشرة سنة. قال عبد الملك بن هشام: «وأجاز رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يومئذ سَمُرَةَ بن جندب الفزاريّ، ورافع بن خديج، أخا بني حارثة؛ وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردّهما، فقليل له: يا رسول الله! إنّ رافعاً رام، فأجازه، فلمّا أجاز رافعاً، فقليل له: يا رسول الله! إنّ سَمُرَةَ يصرع رافعاً، فأجازه. . .»؛ كما أجاز في غزوة بدر عُمَيْر بن أبي وقاص، وهو في السادسة عشرة من سنه؛ وذلك لما ردّه فبكى فرق قلبه له فأجازه، فقاتل حتى قتل شهيداً في تلك الغزوة»<sup>(5)</sup>.

(1) سورة «البقرة»، الآية 194.

(2) سورة «النحل»، الآية 126.

(3) سورة «المائدة»، الآية 45.

(4) «ناضحك»: دابّتك التي تستقي عليها.

(5) السيرة النبويّة. ج 5 ص 426.

**الحكم السابع :** أن الغلول حرام وصاحبه في النار؛ وهو الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبل تقسيمها على المستحقين لها . فكل من خان في شيء خفية فقد غلّ . قال البخاري : قد روي في غير حديث عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- في الغالّ . وقد قال عن رجل غلّ برّدة ، ثمّ مات في المعركة : «إني رأيته في النار في برّدة غلّها» وفي حديث مسلم والإمام أحمد أنّ رجلاً جاء بشراك كان قد غلّه يوم خيبر ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «شراك من نار» . وفي الغلول أنزل الله قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> قال عبد الملك بن هشام في تفسيره هذه الآية : «أي : ما كان لنبيّ أن يكتم الناس ما بعثه الله به ، ثمّ يُجْزَى بكسبه ، غير مظلوم ولا معتدى عليه» <sup>(2)</sup> . وقال جلّ المفسرين : إنها : نزلت في الغلول . وفي بعض الآثار من صحيح الحاكم وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس : أنّهم فقدوا قطيفة من المغنم يوم بدر ، فقال قائل : لعلّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- أخذها ، فأنزل الله الآية . وقد أنزل الله من القرآن في غزوة أحد ستين آية من سورة «آل عمران» .

## السنة الرابعة من الهجرة النبوية

### سرية قطن

وفي شهر المحرم من هذه السنة كانت سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى «قطن» <sup>(3)</sup> ؛ حيث بنو أسد . قال محمد بن عمر الواقدي : « . . . شهد أبو سلمة بن عبد الأسد أحداً ، وكان نازلاً في بني أمية بن زيد بالعالية حين تحوّل من قباء ، ومعه زوجته أم سلمة بنت أبي أمية . فجرح بأحد على عضده فرجع إلى منزله ، فجاءه الخبر أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سار إلى حمراء الأسد ، فركب حماراً وخرج يعارض رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حتى لقيه حين هبط من العُصبة بالعقيق» <sup>(4)</sup> ، فسار مع النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- إلى حمراء الأسد . فلما رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلى المدينة انصرف مع المسلمين ورجع من العُصبة فأقام

(1) سورة «آل عمران» . الآية 161 .

(2) السيرة النبوية . ج 5 ص 66 .

(3) «قطن» : جبل لبني أسد .

(4) «العُصبة» : موضع بقباء . و«العقيق» : كل مسيل ماء شقه السيل في الأرض فأنهره ووسّعه .

شهرًا يداوي جرحه حتى رأى أن قد برىء، ودَمَل الجرح على بَغْيٍ<sup>(1)</sup> لا يدري به، فلمَّا كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من الهجرة دعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فقال: «اخرُج في هذه السَّريَّة فقد استعملتُك عليها»، وعقد له لواءً وقال: سرَّ حتى تردَّ أرض بني أسد، فأغرَّ عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعُهُم»، وأوصاه بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً، فخرج معه في تلك السَّريَّة خمسون ومائة<sup>(2)</sup>. فوجدوا غنماً وإبلًا تستقي فغنموها؛ بعد أن فرَّ المشركون. وعاد أبو سَلَمَة ومن معه من المسلمين إلى المدينة بعد عشرة أيام ومعهم ما غنموا دون آية مقاومة؛ بيد أنَّ أبا سَلَمَة لم يعيش طويلاً بعد عودته بغنائمه وسريته؛ إذ انتقض به جُرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى واعتدت زوجته أمَّ سَلَمَة بعد موته أربعة أشهر وعشرة أيام ثم تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! ودخل بها في ليالٍ بقين من شوال. وماتت أمَّ سلمة في ذي القعدة سنة تسع وخمسين؛ كما سنوضح ذلك - إن شاء الله! - عند حديثنا عن زوجات رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.

### سريَّة عبدالله بن أنيس

وفي هذا الشهر ذاته من هذه السنة نفسها، بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذليّ، قد جمع جموعاً بوادي قرية يقال لها: عرفة، أراد بذلك حرب المسلمين، فأعدَّ له رسول الله العدة وبعث للقاءه عبدالله بن أنيس وأمره بالسَّير إليه، فسار إليه متوشحاً سيفه، فلمَّا لقيه قال سفيان: مَنْ الرجل؟ قال عبدالله: هو رجل من العرب قد سمع بك وبجمعك لحرب رسول الله والمسلمين، فجاءك ليردَّ كيدك، فلم ينكر سفيان ما بيته من عزمه على غزو المدينة بمن جمعه من قومه، واستدرجه عبدالله للمسير معه حتى إذا تمكَّن منه حمل عليه بسيفه فقتله، ثم قفل راجعاً إلى المدينة، وانتهى الخبر إلى رسول الله بقتل سفيان. ولمَّا بلغ بني لحيان قتلُ زعيمهم سفيان، تظاهروا بالهدوء وعدم الاكتراث لذلك؛ حتى تسنح لهم فرصة الانتقام لقتيلهم والثأر ممَّن قتله في سريَّة الرجيع.

(1) «على بغي»: على فساد.

(2) كتاب المغازي. ج 1 ص 340، 341.

## سرية الرجيع<sup>(1)</sup>

قال محمد بن عمر الواقدي: كانت في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: «عن أبي هريرة - رضي الله عنه !- قال: بعث النبي - صلى الله عليه وسلم !- سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فانطلقوا حتى إذا كان بين عُسْفان<sup>(2)</sup> ومكة ذكروا الحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقرب من هداة رام، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يترَب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم. فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى قَدْقَد، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطاهم العهد والميثاق، فلما أعطاهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدها<sup>(3)</sup> فأعارته قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني وفي يده الموصى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك؛ إن شاء الله تعالى! وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لوثق في الحديد وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه. فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، ثم قال:

(1) «الرجيع»: ماء لهذيل بين مكة والطائف؛ وهو هنا: الموضع الذي غدرت فيه قبيلتنا غَضل والقارة بسبعة نفر الذين بعثهم رسول الله لتعليمهم دين الإسلام.

(2) «عُسْفان»: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة.

(3) «ليستحدها»: ليحلق بها شعر عانته تطهيراً له عند موته.

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا      عَلَى أَيِّ شَقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي  
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ      يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شَلْوِ مُمَزَّعٍ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله . وبعثت قريش إلى عاصم لِيُؤْتُوا بشيء من جسده يعرفونه ، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظلَّة من الدبر<sup>(1)</sup> فحمتهم من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء . وقال أبو الحسن عليّ بن الأثير - نقلًا عن محمد بن إسحاق وغيره - : «وفي هذه السنة في صفر كانت غزوة الرّجيع . وكان سببها أن رهطًا من عضل والقارة قدموا على النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : إنّ فينا إسلامًا فابعث لنا نفرًا يفقهوننا في الدين ويقرئونا القرآن . فبعث معهم ستّة<sup>(2)</sup> نفر وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، وقيل : مرثد بن أبي مرثد ، فلمّا كانوا بالهدأة<sup>(3)</sup> غدروا واستصرخوا عليهم حيًّا من هذيل يقال لهم بنو لحيان فبعثوا لهم مائة رجل ، فالتجأ المسلمون إلى جبل ، فاستنزلوهم وأعطوهم العهد ، فقال عاصم : والله لا أنزل على عهد كافر ، اللهمّ خبر نبيّك عنّا ! وقاتلهم - هو - ومرثد وخالد بن البكير ، ونزل إليهم ابن الدثنة وخبيب بن عديّ ورجل آخر فأوثقوهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أوّل الغدر ، والله لا أتبعكم ! فقتلوه وانطلقوا بخبيب وابن الدثنة فباعوهما بمكة ، فأخذ خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بأحد ، فأخذوه ليقتلوه بالحارث ، فبينما خبيب عند بنات الحارث استعار من بعضهنّ موسى يستحدّ بها للقتل ، فدب صبيّ لها فجلس على فخذ خبيب والموسى في يده ، فصاحت المرأة ، فقال خبيب : أتخشين أن أقتله ؟ إن الغدر ليس من شأننا . فكانت المرأة تقول : ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب ؛ لقد رأيته وما بمكة ثمرة وإنّ في يده لقطفًا من عنب يأكله ما كان إلا رزقًا رزقه الله خبيبًا . فلمّا خرجوا من الحرم بخبيب ليقتلوه قال : دعوني أصلّ ركعتين ، فتركوه ، فصلاهما ، فجرت ستّة لمن قُتل صبرًا ، ثمّ قال خبيب : لولا أن تقولوا جزع لذت ، وقال أبياتًا منها :

وَكَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا      عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

(1) «الدبر» : جماعة النحل . الزناير .

(2) قال عبد الرحمن السهيلي في كتابه الروض الأنف : «وفي الجامع الصحيح للبخاري أنهم كانوا عشرة ، وهو أصح» .

(3) «الهدأة» : موضع بني عسفان ومكة .

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَالِ شُلُوْ مُمَزَّعٍ

اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بديداً! ثم صلبوه. وأما عاصم بن ثابت فإنه أرادوا رأسه لبيعوه من سلافة بنت سعد، وكانت نذرت أن تشرب الخمر في رأس عاصم، لأنه قتل ابنها بأحد، فجاءت النحل فمنعته، فقالوا: دعوه حتى يمسي فنأخذه. فبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً، وكان عاهد الله أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك، فمنعه الله في مماته كما منع في حياته. وأما ابن الدثنة فإن صفوان بن أمية بعث به مع غلامه نسطاس إلى التنعيم<sup>(1)</sup> ليقتله بابنيه، فقال نسطاس:

أشذك الله أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: ما أحب أن محمداً الآن مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً!! ثم قتله نسطاس. ولما قُتل عاصم وأصحابه بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عمرو بن أمية الضمري إلى مكة مع رجل من الأنصار وأمرهما بقتل أبي سفيان بن حرب قال عمرو: فخرجت أنا ومعبي بعير لي، وبرجل صاحبي علة، فكنت أحمله على بعيري حتى جئنا بطن يأجج<sup>(2)</sup>، ففعلنا بعيرنا في الشعب وقلت لصاحبي: انطلق بنا إلى أبي سفيان لنقتله، فإن خشيت شيئاً فالحق بالبعير فاركه والحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأخبره الخبر وخل عني، فإني عالم بالبلد. فدخلنا مكة ومعبي خنجر قد أعددت إن عاقني إنسان ضربته به، فقال لي صاحبي: هل لك أن نبدأ فنطوف ونصلي؟ فقلت: إن أهل مكة يجلسون بأفئتهم وأنا أعرف بها. فلم نزل حتى أتينا البيت فطفنا وصلينا، ثم خرجنا فمررنا بمجلس لهم، فعرفني بعضهم فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو ابن أمية! فثار أهل مكة إلينا وقالوا: ما جاء إلا لشر، وكان فاتكاً متشيّطاً<sup>(3)</sup> في الجاهلية، فقلت لصاحبي: النجاء! هذا الذي كنت أحذر، أما أبو سفيان فليس إليه سبيل، فانج بنفسك. فخرجنا نشدد حتى صعدنا الجبل فدخلنا غاراً فبتنا فيه ليلتنا ننتظر أن يسكن الطلب. فوالله إنني لفيه إذ أقبل عثمان بن مالك التيمي يتخيّل بفرس له، فقام على باب الغار، فخرجت إليه فضرته بالخنجر، فصاح صيحة أسمع أهل مكة، فأقبلوا إليه ورجعت إلى مكاني، فوجدوه وبه رمق،

(1) «التنعيم»: موضع بمكة خارج الحرم؛ وهو أدنى الحل إليها على طريق المدينة. منه يحرم المكيون بالعمرة.

(2) «يأجج»: مكان على ثمانية أميال من مكة، وبطنه: الموضع الغامض منه.

(3) «متشيّطاً»: محترقاً غيظاً وغضباً.

فقالوا: من ضربك؟ قال: عَمْرُو بن أُمَيَّة، ثمّ مات ولم يقدر يخبرهم بمكاني، وشغلهم قتل صاحبهم عن طلبي، فاحتملوه ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنا الطلب، ثمّ خرجنا إلى التنعيم، فإذا بخشبة خُيِّب وحوله حرس، فصعدتُ خشبته واحتملته على ظهري فما مشيت به إلّا نحو أربعين خطوة حتى نذروا بي فطرحته، فاشتدوا في أثري، فأخذت الطريق فأعيوا ورجعوا، وانطلق صاحبي فركب البعير وأتى النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فأخبره. وأمّا خُيِّب فلم يُر بعد ذلك، وكأنّ الأرض ابتلعتة، وسرت حتى دخلت غاراً بضجّنان<sup>(1)</sup> ومعني قوسي وأسهمي، فبينما أنا فيه إذ دخل عليّ رجل من بني الدُّثْل أعور طويل يسوق غنماً فقال: مَنْ الرجل؟ قلت: من بني الدُّثْل، فاضطجع معي ورفع عقيرته<sup>(2)</sup> يتغنّى ويقول:

وَكَسْتُ بِمُسْلِمٍ مَا دُمْتُ حَيًّا      وَكَسْتُ أُدَيْنُ دِينَ الْمُسْلِمِينَ

ثمّ نام فقتلته، ثمّ سرت فإذا رجلاً بعثتهما قريش يتجسّسان أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فرميت أحدهما بسهم فقتلته واستأسرت الآخر، فقدمت على النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وأخبرته الخبر، فضحك ودعا لي بخير. وفي هذه السنة تزوّج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - زينب بنت حُزَيْمَةَ أمّ المساكين من بني هلال في شهر رمضان، وكانت قبله عند الطُّفَيْل بن الحارث فطلّقها. وولي المشركون الحجّ في هذه السّنة<sup>(3)</sup>.

### استخراج عِبْرَةٍ وَحَكَمٍ

قال عبد الرحمن السُّهَيْلِيّ: «وإنّما صار فعل (صلاة) خُيِّب سنّة حسنة؛ والسّنة إنّما هي أقوال من النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وأفعال وإقرار، لأنّه فعلها في حياته - عليه الصلاة والسلام! - فاستُحْسِن ذلك من فعله، واستحسنه المُعلِّمون، من أنّ الصّلاة خير ما خُتِم به عمل العبد، وقد صلّى هاتين الركعتين أيضاً زيد بن حارثة مولى النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وذلك في حياته - عليه الصلاة والسلام! - حدّثنا أبو بكر بن طاهر بن طاهر الإشبيليّ... عن اللَّيْث بن سعد، قال: بلغني أنّ زيد بن حارثة اكترى من رجل بغلاً من الطائف اشترط عليه الكريُّ أن ينزله حيث يشاء، قال: فمال به إلى خَرَبَةٍ، فقال له: انزل فنزل، فإذا في الخَرَبَةِ قتلى كثيرة، قال:

(1) «ضِجَّان»: جبل بتهامة.

(2) «عقيرته»: صوته.

(3) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 167 - 170.



فلما أراد أن يقتله ، قال : دَعْنِي أَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ، قال : صلّ ، فقد صلّى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئاً ، قال : فلما صَلَّيْتُ أَتَانِي ، لِيَقْتُلَنِي ، قال : فقلت : يا أرحم الراحمين ! قال : فسمع صوتاً : لَا تَقْتُلْهُ ، قال : فهاب ذلك فخرج يطلب أحداً ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليّ ، فناديت : يا أرحم الراحمين ! ففعل ذلك ثلاثاً ، فإذا أنا بفارس بيده حربة حديد في رأسها شعلة من نار قطعنه بها ، فأنفذه من ظهره ، فوقع ميتاً ، ثم قال : لَمَّا دَعَوْتُ الْمَرَّةَ الْأُولَى : يا أرحم الراحمين ! كُنْتُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فلما دعوت المرّة الثانية : يا أرحم الراحمين ! أتيتك . . . وقول خُيِّبَ حينما رفعوه في الخشب : «اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عِدْداً ، واقتلهم بدءاً ، فمن رواه بدءاً - بكسر الباء - فهو مصدر بمعنى التبدّد ، أي : ذوي بدد . فإن قيل : فهل أُجِيبَتْ فيهم دعوة خُيِّبَ ، والدعوة على تلك الحال من مثل ذلك العبد مستجابة ؟ .

قلنا : أصابت منهم مَنْ سبق في علم الله أن يموت كافراً ، ومن أسلم منهم فلم يعنه خُيِّبَ ولا قصده بدعائه ، ومن قُتِلَ منهم كافراً بعد هذه الدعوة فإنّما قُتِلُوا بدءاً غير معسكرين ولا مجتمعين كاجتماعهم في أحد ، وقبل ذلك في بدر ، وإن كانت الخندق بعد قصّة خُيِّبَ فقد قُتِلَ منهم آحاد فيها متبدّدون ، ثم لم يكن لهم بعد ذلك جمع ولا معسكر غزوا فيه ، فنفذت الدّعوة على صورتها وفيمن أراد خُيِّبَ - رحمه الله ! - وحاشا له أن يكره إيمانهم وإسلامهم»<sup>(1)</sup> .

### قصة شهداء بئر معونة<sup>(2)</sup>

كان من حديث هؤلاء الشهداء أن أبا البراء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة ، قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وأهدى له فرسين وراحتين ، فقال له رسول الله : «لا أقبل هديّة مشرك» وعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام ، وقال : يا محمد ! إن أمرك هذا أمر حسن شريف وإنّي أرى قومي خلفي ، فلو أنك أرسلت معي نفرّاً من أصحابك إلى أهل نجد لرجوت أن يجيبوا دعوتك ويتبعوا أمرك ، فإن هم أجابوا واتبعوك فقد أعزّ أمرك وانتشرت دعوتك ، فقال رسول الله : «إنّي أخاف عليهم أهل نجد» فقال عامر أبو براء : لا تخف عليهم ؛ أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك . فبعث رسول الله سبعين<sup>(3)</sup> رجلاً

(1) الرّوض الأنف . ج 6 ص 197 ، 198 .

(2) «بئر معونة» : ماء بين أرض بني عامر وحرّة بني سلّيم ، وهي إلى هذه أقرب .

(3) قال محمد بن عمر الواقدي : «وكان من الأنصار سبعون رجلاً شَبَّهَ يَسْمُونُ القرّاء ، كانوا إذا أمسّوا أتوا ناحية من المدينة فتدارسوا وصلّوا ، حتى إذا كان وجه الصّبح استعذبوا من الماء وحطّوا من الحطب فجأؤا به =

من خيار المسلمين وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي وزودهم بكتاب إلى أهل نجد، فساروا حتى نزلوا بئر معونة. قال محمد بن إسحاق: «فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُلَيْمٍ من عُصَيَّة ورعل وذكوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى عشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم، يرحمهم الله! إلا كعب بن زيد أخا بني دinar بن النجار، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بني القتلى، فعاش حتى قُتل يوم الحندق شهيداً، رحمه الله!» وقال محمد بن عمر الواقدي: «فلما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- خبر بئر معونة، جاء معها في ليلة واحدة مصابهم ومصاب مرثد بن أبي مرثد، وبعث محمد بن مسلمة، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- يقول: «هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاء، قَدْ كُنْتُ لِهَذَا كَارِهاً». ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- على قتلهم بعد الركعة من الصبح، في صبح تلك الليلة التي جاءه الخبر، فلما قال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ!» قال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ! اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بَنِي لَحْيَانَ وَزَعْبَ وَرَعْلٍ؛ فَإِنَّهُمْ عَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ! اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بَنِي لَحْيَانَ وَعُضْلَ وَالْقَارَةَ! اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ! غَفَارَ غَفَرِ اللَّهُ لَهَا وَأَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ!» ثم سجد. فقال ذلك خمس عشرة<sup>(1)</sup>. وقال حسان بن ثابت يكي قتلى بئر معونة:

عَلَى قَتْلَى مَعُونَةٍ فَاسْتَهْلَى	بَدَمْعَ الْعَيْنِ سَحًّا غَيْرَ نَزَرٍ
عَلَى خَيْلِ الرَّسُولِ غَدَاةً لَأَقْوَا	مَنَائِيَاهُمْ وَلَا قَتْنَهُمْ بِقَدَرٍ
أَصَابَهُمُ الْفَنَاءُ بَعْقَدَ قَوْمٍ	تُخُونُ عَقْدُ حَبْلِهِمْ بَغْدَرٍ
فَيَا لَهْفِي لِمُنْذِرٍ إِذْ تَوَلَّى	وَأَعْنَقَ فِي مَنِيَّتِهِ بَصَرٍ
كَأَنَّ قَدْ أُصِيبَ غَدَاةً ذَاكُمُ	مَنْ أَيْضَ مَا جَدَ مِنْ سَرٍّ عَمَرُو

= إلى حُجْر رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وكان أهلهم يظنون أنهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهلهم، فبعثهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- فخرجوا فأصيبوا في بئر معونة، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- على قتلهم خمس عشرة ليلة» (كتاب المغازي ج 1 ص 347).

(1) كتاب المغازي. ج 1 ص 349، 350.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن عدد قتلى الأنصار في بئر معونة قد أحدث لدى الصحابة ضجةً واتَّخذوه عبرة، فكان أنس بن مالك يقول: يا رب! سبعين من الأنصار يوم بئر معونة! وكان أبو سعيد الخدري يقول: قُتِلَتْ من الأنصار في مواطن سبعين سبعين: يوم أُحُد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون، ويوم جسر أبي عبيد سبعون. ولم يجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة.

**العبرة الثانية:** أن الله قد أنزل في شهداء بئر معونة قرآناً قد قرأه الصحابة، ثم نُسَخ؛ روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أنه قال: فقرأنا فيهم قرآناً. ثم إن ذلك رُفِعَ:- «بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا».

**العبرة الثالثة:** كلمة قاتل كانت سبباً في إسلام قاتله، فالقتيل هو عامر بن فهيرة، والقاتل هو جبار بن سلمى. «ذكر أنه لما طعنه قال: سمعته يقول: «فُزْتُ وَالله!»، فقلتُ في نفسي: ما قوله: «فُزْتُ»? فأتيت الضحَّاك بن سفيان الكلابي فأخبرته بما كان وسألته عن قوله: «فُزْتُ»، فقال: الجنة. وعرض عليَّ الإسلام، فأسلمتُ، ودعاني إلى الإسلام ما رأيتُ من مقتل عامر بن فهيرة من رفعه إلى السماء علواً. وكتب الضحَّاك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يخبره بإسلامي وما رأيتُ من مقتل عامر بن فهيرة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «فإن الملائكة وأرت جنته، وأنزل عليَّ»<sup>(1)</sup>.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بعد قراءة القرآن في الركعة الثانية كان قنوتاً مشروعاً سنة لأمة الإسلام منذ دعائه على الذين قتلوا أصحابه في حادثة بئر معونة. روى البخاري في صحيحه: «عن أنس - رضي الله تعالى عنه! - قال: بعث النبي - صلى الله عليه وسلم! - سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم: القراء، فعرض لهم حيَّان من بني سليم: رِعل، ودكَّوان عند بئر يقال لها: بئر معونة، فقال القوم: والله ما إياكم أردنا؛ إنما نحن مجتازون في حاجة النبي - صلى الله عليه وسلم! - فقتلوهم، فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم! - عليهم شهراً

(1) الواقدي، محمد. كتاب المغازي. ج 1 ص 349.

في صلاة الغداة ، وذلك بدءُ القنوت ، وما كنّا نقنت . قال عبد العزيز : وسأل رجل أنساً عن القنوت : أبعد الركوع أو عند فراغ من القراءة ؟ قال : لا ؛ بل عند فراغ من القراءة .

**الحكم الثاني :** أنَّ الإسلام يحرم على المسلم أن يقبل من غير المسلم هدية أي شيء فرفض عليه الصلاة والسلام هدية عامر بن مالك وقال : « لا أقبلُ هديةً مُشركاً » ، ولرفضه هدية حكيم بن حزام وقال : « إنّا لا نقبل شيئاً من المُشركين ؛ ولكن إن شئت أخذناها بالثمن »<sup>(1)</sup> . فأخذها به . فأين هذا من حكام المسلمين في عصرنا الذين قد باعوا دِمة دينهم وشرف ملتهم بفتات أعداء الله ورسوله ؛ بل قد استعانوا بذلك على محاربة إخوانهم في الملة والدين . فإن قال قائل : قد ثبت أنَّ رسول الله قبل بعض الهدايا من بعض وجهاء الكفار وملوكهم ، قلنا : إنَّ الجواب عن هذا السؤال قد جاء به عبد الرؤوف المناوي حيث قال : « فإن قلت : قد صحَّ من عدة طرق قبول هدية الكافر : كالمقوقس ، والأكيدر ، وذي يزن وغيرهم من الملوك ، قلت : لك في دفع التدافع مسلكان :

**الأول :** أنَّ مراده هنا أنَّه لا يقبل شيئاً منهم على جهة كونه هدية ؛ بل لكونه مالَ حربيّ ، فيأخذه على وجه الاستباحة .

**الثاني :** أنَّ يحمل القبول على ما إذا رُجي إسلام المُهدي وكان القبول يؤلّفه أو كان فيه مصلحة للإسلام ، وخلافه على خلافه . وأمّا الجواب بأنَّ حديث الردّ ناسخ لحديث القبول فهلhel ، لعدم العلم بالتاريخ »<sup>(2)</sup> .

**الحكم الثالث :** أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد قضى على المسلمين بدفع دية قتيلين اثنين كافرين من بني عامر ؛ قتلها غدرأ عمرو بن أمية النّاجي من معركة بئر معونة . قال محمد بن إسحاق : وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمريّ ، ورجل من الأنصار ، أحد بني عمرو بن عوف . فلم يُنبئهما بمصاب أصحابهما إلّا الطير تحوم على العسكر ، فقالا : والله إنّ لهذه الطير لشأناً ، فأقبلا ينظران فإذا القوم في دمائهم ، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة . فقال الأنصاريّ لعمرو بن أمية : ما ترى ؟ قال أرى أن نلحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فنخبره الخبر ، فقال الأنصاريّ ! : لكنّي ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن

(1) رواه الحاكم والإمام أحمد ، عن حكيم بن حزام . قال الهيثمي : رجاله ثقات .

(2) فيض القدير ، شرح الجامع الصغير . ج 2 ص 550 .

عمرو، وما كنت لتُخبرني عنه الرّجال؛ ثمّ قاتل القوم حتى قُتل، وأخذوا عمرو بن أميّة أسيراً، فلمّا أخبرهم أنّه من مُضَرٍّ، أطلقه عامر بن الطّفيل، وجزّ ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنّها كانت على أمّه<sup>(1)</sup>. فخرج عمرو بن أميّة، حتى إذا كان بالقرقرة من صَدْر قنّة، أقبل رجلان من بني عامر، حتى نزلا معه في ظل هو فيه وكان مع العامريّين عقد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وجوار، لم يعلم به عمرو بن أميّة، وقد سألهما حين نزلا: ممّن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأملهما، حتى إذا ناما، عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنّه قد أصاب بهما ثورة من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فلمّا قدم عمرو بن أميّة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأخبره الخبر، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «لقد قتلت قتيلين لأدينّهما!»<sup>(2)</sup>. قال محمد بن عمر الواقدي: «وأخبر عمرو النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بمقتل العامريّين، فقال: «بئس ما صنعت؛ قتلت رجلين كان لهما منّي أمانٌ وجوارٌ، لأدينّهما». فأخرج ديتهما، دية حرّين مسلمين»<sup>(3)</sup>. مدفوعة إلى أهل القتيّين وقومهما.

### غزوة بني النضير

كانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأوّل من السنة الرابعة للهجرة النبويّة. وكان السبب فيها أنّ عامر بن الطّفيل قد بعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يطلب منه أن يدفع دية الرّجلين القتيّين على يد عمرو بن أميّة، الذي قد ذكرنا فيما تقدّم قتله لهما غدرًا، فاستجاب رسول الله لطلب عامر بن الطّفيل، وسار إلى يهود بني النضير يستعين بهم في دية القتيّين، عملاً وتنفيذاً لما تضمّنّه كتاب كتبه رسول الله عند مقدّمه المدينة وبدء مقامه بها، قد وادع فيه اليهود وأقرّهم على دينهم، واشترط عليهم شروطاً، منها إسهامهم في نفقة مع المسلمين فيما تلزمهم الحروب. فأبدى بنو النضير استعدادهم لإعانة الرسول في نفقة دية القتيّين، وأظهروا رقتهم وسرورهم لإسهامهم في ذلك؛ ولا سيّما أن بني عامر هم أناس من حلفائهم. بيد أنّ ظواهر اليهود لا تمت إلى بواطنهم بأيّة صلة كانت من المهد إلى اللحد زماناً

(1) الضمير يعود على عامر بن الطّفيل. «القرقرة»: موضع يقال له: «قرقرة الكُذُر». قريب من المعدن.

(2) ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبويّة بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 178، 179.

(3) كتاب المغازي. ج 1 ص 352.

ومكاناً في جميع أصولهم وأنسالهم؛ باستثناء أنبيائهم ورسولهم ومن شرح الله صدره للإسلام منهم. قال محمد بن إسحاق: «ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بني النضير يستعينهم في دية ذنك القتلين من بني عامر، اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عقد لهما؛ كما حدثني يزيد ابن رومان، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستعينهم في دية ذنك القتلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسم! نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم! إلى جنب جدار من بيوتهم - فمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت، فيُلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة؛ كما قال<sup>(1)</sup>، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في نفر من أصحابه؛ فيهم أبو بكر وعمر وعلي؛ رضوان الله عليهم! فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما استلبت<sup>(2)</sup> النبي - صلى الله عليه وسلم! - أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مُقبلاً من المدينة، فسألوه عنه؛ فقال: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى انتهوا إليه - صلى الله عليه وسلم! - فأخبرهم الخبر، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم»<sup>(3)</sup>.

ثم سار بالناس حتى نزل بهم، فتحصنوا منه في حصونهم، فحاصروهم ست ليال، ثم أمر بقطع نخيلهم وتحريقها، فنادوه: يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟! فأنزل الله قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً

(1) وقد حذرهم أحدهم - وهو سلام بن مشكم - من فعل ما عزموا عليه، ونصحهم بقوله: «يا قوم! أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر، والله إن فعلتم ليخبرن بآنا قد غدرنا به»، وإن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا إلا فوالله لو فعلتم الذي تريدون ليقوم بهذا الدين منهم قائم إلى يوم القيامة، يستأصل اليهود ويظهر دينه! (الواقدي، محمد. كتاب المغازي. ج 1 ص 365).

(2) «استلبت»: استبطأ.

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 208، 209.

عَلَى أَصُولِهَا فَإِذَنْ اللَّهُ وَلِيُخْزِيَ الْآفَاقِينَ<sup>(1)</sup> .<sup>(2)</sup> . وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - محمد بن مسلمة إلى هؤلاء اليهود فقال لهم: «أُخْرِجُوا مِنْ بَلَدِي فَلَا تُسَاكُنُونِي بِهَا وَقَدْ هَمَمْتُ بِمَا هَمَمْتُ بِهِ مِنَ الْغَدْرِ. وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا (أي: عشرة أيام)، فَمَنْ رَأَى بَعْدَ ذَلِكَ ضُرْبَ عُنْقِهِ». ومكثوا أياماً يتجهزون للخروج، وبينما هم كذلك، إذ أرسل إليهم أهل التفاق من حلفائهم - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي - يبتونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر والوقوف إلى جانبهم حيثما كانوا، فقويت عند ذلك نفوسهم، ورفضوا أن يخرجوا ونابدوا أمر رسول الله بنقض العهود. وقد لخص أبو الحسن علي بن الأثير الحديث عن غزوة بني النضير فقال: «ونزل بهم (رسول الله) فتحصنوا منه في الحصون، فقطع النخل وأحرق، وأرسل إليهم عبد الله بن أبي وجماعة معه: أن اثبتوا وتمتعوا، فإننا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم. وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي - صلى الله عليه وسلم! - أن يُجْلِيَهُمْ وَيَكْفَ عَنْ دِمَائِهِمْ؛ على أن لهم ما حملت من الإبل من الأموال؛ إلا السلاح، فأجابهم إلى ذلك، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، فكان ممن سار إلى خيبر كنانة بن الربيع، وحبي بن أخطب، وكان فيهم يومئذ أم عمرو صاحبة عروة ابن الورد التي ابتاعوا منه، وكانت غفارية<sup>(3)</sup>. فكانت أموال بني النضير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وحده يضعها حيث شاء، فقسّمها على المهاجرين الأولين؛ دون الأنصار؛ إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجاجة ذكرا فقرا فأعطاهما. ولم يسلم من بني النضير إلا يامين بن عمير بن كعب؛ وهو ابن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعيد بن وهب، وأحرزا أموالهما. واستخلف (رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عندما خرج لحرب بني النضير) على المدينة عبد الله بن أم مكتوم. وكانت رايته مع علي بن أبي طالب<sup>(4)</sup>. وفي يهود بني النضير نزلت سورة «الحشر». وفي صحيح البخاري: «عن أبي بشر عن سعيد قال: قلت لابن عباس - رضي

(1) «من لينة»: من نوع التمر الجيد؛ وهو ما خالف العجوة والبرني من أنواع التمر. وقال جل المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة. وقال ابن جرير الطبري: هي البويرة.

(2) سورة «الحشر». الآية 5.

(3) اسمها سلمى، كانت ناكحاً في قبيلة مُزَيْنَة؛ فأغار عليهم عروة بن الورد، فسباها.

(4) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 174.

الله عنهما!.. ما سورة الحشر؟ قال: قل سورة بني النضير». وفي إمكاننا أن نستخرج العبر والأحكام لهذه الغزوة من سورة «الحشر».

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن الله قد خيب ظن اليهود الظَّانين أنهم متحصّنون في حصونهم وأنها ما نعتهم من إخراجهم منها وإجلائهم من المدينة بغتة من حيث لا يتوقعون ما حلّ بهم من بأس الله المتسلّط عليهم بعدله جزاء عصيانهم لأمره؛ كما أنكم أنتم أيّها المسلمون ما كان يخطر ببالكم أن الله يفعل بيهود بني النضير ما فعل بهم ممّا هم فيه من خوف ساكن في قلوبهم وهلع وجزع لا يبرحانها!! فهذا ما فهمناه من قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ<sup>(1)</sup> مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ<sup>(2)</sup> .

**العبرة الثانية:** أن ما أصاب اليهود من اليأس والدهش قد دفع بهم إلى هدمهم لبنان بيوتهم الحصين وتخريب أثاثهم المصون فيها؛ وكان ذلك بأيديهم لفقدان رجائهم، وبأيدي المؤمنين تشقياً منهم. وذلك عبرة لمن يعتبر من ذوي الأبصار. وهذا ما فهمناه من قوله - تعالى -: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَاُوَلِي الْأَبْصَارِ<sup>(3)</sup> .

**العبرة الثالثة:** أن إجلاء اليهود من ديارهم ونفيهم من المدينة، كان أخفّ لهم من عذاب الدنيا: كالقتل والسبي ونحو ذلك، ومن عذاب الآخرة بنار جهنّم، وكلّ ذلك يستحقونه وهو جزاؤهم على مخالفتهم أوامر الله ورسوله. وهذا ما فهمناه من قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(4)</sup> .

---

(1) «لأوّل الحشر»: أرض المحشر؛ وهي الشام قال عبد الرحمن السُّهيلي في كتابه الرّوض الأنف . ج 6 ص 233 : «وقوله: «لأوّل الحشر» روى موسى بن عقبة أنهم قالوا له: إلى أين تخرج يا محمّد؟! قال إلى الحشر؟ يعني: أرض المحشر؛ وهي الشام. وقال الراغب الأصفهاني: الحشر: إخراج الجماعات عن نفرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها. وأوّل الحشر في تاريخ اليهود هو حشر بني النضير، أي: إجلاؤه.

(2) سورة «الحشر». الآية 2.

(3) سورة «الحشر». الآية 2.

(4) سورة «الحشر». الآية 4.



**العبرة الرابعة :** أن الله قد وصف المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بأوصاف محمودة زماناً ومكاناً، فاستحقوا بها أن يمدحهم في كتابه فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً<sup>(١)</sup> مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيْمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٣). روى الإمام البخاري في صحيحه «عن حُصَيْنٍ، عن عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!- أَوْصَى الْخَلِيفَةُ بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَهَاجِرَ النَّبِيُّ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَعْفُو عَنْ مَسِيئِهِمْ».

**العبرة الخامسة :** أن المنافقين قد خدعوا يهود بني النضير بزعمهم أنهم سينصرونهم في حربهم ضد المسلمين؛ بيد أنهم لم يوفوا بزعمهم؛ بل قد ولّوا الأدبار ونكصوا على أعقابهم عندما أرغم اليهود على الخروج من مساكنهم وترك ديارهم دون أن يجدوهم لهم من الناصرين. وقد شهد الله عليهم بذلك؛ كما شهد عليهم بأن في صدورهم خوفاً ورعباً من المسلمين وأنهم قوم لا يفهمون، وأنهم مشتمون، لا يتفقون ولا هم بالحق معترفون ولا به عاقلون؛ بل هم في كفرهم غارقون، وعلى طريق الشيطان سائرون. وهذا ما فهمناه من قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا تَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلُوا<sup>(٥)</sup> الْأَذْبَنَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (٦) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٧) لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٨) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ

(1) «حاجة»: حسداً للمهاجرين.

(2) سورة «الحشر». الآية 8-10.

مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾

**العبرة السادسة :** أن هذا القرآن الكريم تخشع لسماع تلاوته الجمادات ، وتشقق لتأثير معجزاته الجبال الراسية ، وتلك أمثال يضربها الله للناس كي يفكروا في قدرة خالقهم وإرادته ، فيوحّدوه في السراء والضراء وهم له طائعون . وهذا ما فهمناه من قوله - تعالى :- ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأُمَمُ نَضُيِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن قطع المسلمين لأشجار نخيل بني النضير وتحريقها قد كان أمراً من الله وبمشيئته وقدرته وإرادته ورضاه ، وكان فيهم نكايه بهم ، نقمة منهم ، وإرهاباً لهم ، وخزياً لهم ، وإرغاماً لأنوفهم . روى الإمام البخاري في صحيحه : «عن (عبدالله) بن عمر - رضي الله عنهما :- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- حرق نخل بني النضير وقطع ؛ وهي البويرة ، فأنزل الله : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

**الحكم الثاني :** أن أموال بني النضير لم تكن غنيمة تقسم بين المجاهدين من الأنصار والمهاجرين بعدما يؤخذ منها الخمس لله ولرسوله ؛ وإنما كانت فيئاً خاصاً برسول الله وملكاً له وحده يتصرف فيه كما يشاء ويريد . والسبب في هذه الخصوصية النبوية أن كل مال أخذه المسلمون من الكفار من غير قتال ولا إيجاف (٤) خيل ولا ركاب (٥) : كأموال بني النضير - هذه - فإنها بما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ؛ أي : لم يقاتل المسلمون أعداءهم فيها بالمبارزة والمصارعة تعتبر فيئاً أفاءه الله على رسوله ، يتصرف فيه كما يشاء في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله في هذه الآيات : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ

(١) سورة «الحشر» . الآية ١١ - ١٧ .

(٢) سورة «الحشر» . الآية ٢١ .

(٣) سورة «الحشر» . الآية ٥ .

(٤) «الإيجاف» : الإسراع في السير ، وإيجاف الخيل : حثها على سرعة السير في الحرب .

(٥) «الركاب» : المركوب من الإبل .

مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً<sup>(١)</sup> بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(٢)</sup> .

وروى الإمام البخاري في صحيحه: «عن عمر - رضي الله عنه - قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - مما لم يؤجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة يُنفق على أهله؛ منها نفقة سته، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكرع<sup>(٣)</sup> عدة في سبيل الله» .

### غزوة ذات الرقاع

خرج رسول الله لهذه الغزوة ليلة السبت لعشر خلون من شهر المحرم للسنة الرابعة من الهجرة النبوية . والسبب في ذلك أن مخبراً أخبره أن جماعة من غطفان من بني محارب وبني ثعلبة قد جمعوا جموعهم يريدون بذلك حرب المسلمين، فسار رسول الله في أربعمئة من أصحابه، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري . ولما بلغ محال المشركين لم يجد فيها سوى النسوة، أما الرجال فقد فروا إلى قمم الجبال، فعاد المسلمون إلى المدينة بنساء المشركين أسيرات ولم تكن بين الفريقين حرب . وسميت هذه الغزوة بـ «ذات الرقاع»، لأن الصحابة كانوا يلقون أقدامهم بالخرق، ويربطون بها عليها من شدة الحر . جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن أبي موسى (الأشعري) - رضي الله عنه - قال: خرجنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزاة ونحن ستة نفر، بيننا بغير نعتقه فنقبت<sup>(٤)</sup> أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا . وحدث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كره ذلك؛ قال: ما كنت أصنع بأن أذكره، كآته كره أن يكون شيء من عمله أفشاه» . وكان غياب المسلمين عن المدينة في هذه الغزوة خمسة عشر يوماً، ما لم يكن فيها قتال ولا مناوشة حرب تذكر .

(١) «دولة»: غلبة .

(٢) سورة «الحشر» . الآية ٦، ٧ .

(٣) «الكرع»: البقر والغنم .

(٤) «فنقبت»: رقت وتخرقت .

## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** قال محمد بن إسحاق : «وحدثني عمرو بن عبيد ، عن الحسن ، عن

جابر بن عبد الله : أن رجلاً من بني محارب ، يقال له : غورث ، قال لقومه من غطفان

ومحارب : ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا : بلى ؛ وكيف تقتله؟ قال : أفتك به . قال : فأقبل إلى

رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو جالس ، وسيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

في حجره ، فقال : يا محمد ! انظر إلى سيفك هذا؟ قال : نعم - وكان مُحلّياً بفضّة فيما قال ابن

هشام - قال : فأخذه فاستلّه ، ثم جعل يهزه ، ويهّم فيكبه الله ، ثم قال : يا محمد ! أما تخافني؟

قال : لا ، وما أخاف منك ، قال : أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال : لا ، يمنعني الله منك . ثم

عمد إلى سيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فردّه عليه . قال : فأنزل الله : ﴿يَتَأْتِيهَا

الذِّبَرُ ۚ ءَامِنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ

أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾<sup>(1)</sup> . وهذه القصّة ثابتة في

الصحيحين من غير هذا الوجه . جاء في صحيح الإمام البخاري : « . . . عن سنان بن أبي سنان

الدؤليّ ، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما !- أخبره أنّه غزا مع رسول الله - صلى الله عليه

وسلم !- قبل نجد ، فلما قفل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قفل معه ، فأدركتهم القائلة في

واد كثير العضاء ، فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وتفرّق الناس في العضاء ، يستظلّون

بالشجر ، ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- تحت سمرّة فعلق بها سيفه . قال جابر : فَمَنّا

نومة فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يدعوننا ، فجئناه فإذا عنده أعرابيّ جالس ، فقال

رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : إنّ هذا اخترط<sup>(2)</sup> سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده

صلّتا<sup>(3)</sup> ، فقال لي : مَنْ يمنعك منّي؟ قلتُ له : الله ، فها هو ذا جالس . ثم لم يعقبه رسول الله -

صلى الله عليه وسلم !- .

**العبرة الثانية :** قال محمد بن عمر الواقديّ : «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

قد أصاب في محالّهم ، نسوة ، وكان في السبّي جارية وضيئة كان زوجها يحبّها . فلما انصرف

رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- راجعاً إلى المدينة ، حلف زوجها ليطلبن محمداً ، ولا يرجع

(1) سورة «المائدة» . الآية 11 .

(2) «اخترط» : استلّه من غمده .

(3) «صلّتا» : بارزاً مسلولاً .

إلى قومه حتى يصيب محمداً أو يُهريق فيهم دماً أو تتخلص صاحبتة . فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مسيره عشية ذات ريح ، فنزل في شعب استقبله فقال : مَنْ رجلٌ يكلؤنا<sup>(1)</sup> الليلة ؟ فقام رجلان : عمّار بن ياسر ، وعَبَاد بن بشر ، فقالا : نحن - يا رسول الله !- نكلؤك ، وجعلت الريح لا تسكن ، وجلس الرجلان على فم الشعب ، فقال أحدهما لصاحبه : أي الليل أحب إليك أن أكفيك أوله فتكفيني آخره : قال : اكفني أوله . فنام عمّار بن ياسر ، وقام عَبَاد بن بشر يُصلي ، وأقبل عدو الله يطلب غرة ، وقد سكنت الريح ، فلما رأى سواده من قريب قال : يعلم الله ، أن هذا لربيثة<sup>(2)</sup> القوم ! ففوق له سهماً فوضعه فيه فانتزعه فوضعه ، ثم رماه بآخر فوضعه فيه فانتزعه فوضعه ، ثم رماه الثالث فوضعه فيه ؛ فلما غلب عليه الدم ركع وسجد ، ثم قال لصاحبه : اجلس فقد أتيت ! فجلس عمّار ، فلما رأى الأعرابي أن عمّاراً قد قام علم أنهم قد نذروا<sup>(3)</sup> به . فقال عمّار : أي أخي ! ما منعك أن توقظني به في أول سهم رمى به ؟ قال كنت في سورة أقرؤها وهي سورة الكهف ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولولا أنني خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما انصرفت ولو أتني على نفسي<sup>(4)</sup> .

**العبرة الثالثة :** قال محمد بن عمر الواقدي : «فكان جابر (بن عبد الله) يقول : إنّا لمع النبي - صلى الله عليه وسلم - ! إذ جاء رجل من أصحابه بقرخ طائر ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينظر إليه ، فأقبل أبواه أو أحدهما حتى طرح نفسه في يدي الذي أخذ فرخه . فرأيتُ الناس عجبوا من ذلك ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !: أتعجبون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة بفرخه ! والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»<sup>(5)</sup> .

**العبرة الرابعة :** قصة جمل جابر بن عبد الله . قال محمد بن إسحاق : «وحدثني وهب ابن كيسان ، عن جابر بن عبد الله ، قال : خرجت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف ، فلما قفل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : جعلت الرفاق تمضي ، وجعلت أتخلف ، حتى أدركني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !»

(1) «يكلؤنا» : يحرسنا .

(2) «الربيثة» : الطليعة الذي يرقب العدو من مكان عال لا يدهم قومه .

(3) «نذروا به» : علموا به .

(4) كتاب المغازي . ج 1 ص 397 .

(5) كتاب المغازي . ج 1 ص 398 .

فقال : مالك يا جابر؟ قال : قلتُ : يا رسول الله ! أبطأني جملي هذا ، قال : أنخه ؛ قال : فأنخته ، وأناخ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثم قال : أعطني هذه العصا من يدك ، أو اقطع لي عصاً من شجرة ؛ قال : ففعلتُ ؛ قال : فأخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فنخسه بها نخسات ، ثم قال : اركب ، فركبت ، فخرج ، والذي بعثه بالحق ، يواهي ناقته مواهقة . قال : وتحدثتُ مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال لي : أتبعيني جملك هذا يا جابر؟ قال : قلت : يا رسول الله ! بل أهبه لك ؛ قال : لا ؛ ولكن بعنيه ، قال : قلتُ : فسُمنيه يا رسول الله ! قال : قد أخذته بدرهم ؛ قال : قلتُ : لا ، إذن ، تغبني يا رسول الله ! قال : فبدرهمين ؛ قال : قلتُ : لا . فلم يزل يرفع لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في ثمنه حتى بلغ الأوقية . قال : فقلت : أفقد رضىتَ يا رسول الله ؟ قال : نعم ؛ قلت : فهو لك ، قال : قد أخذته . قال : ثم قال : يا جابر ! هل تزوجت بعد ؟ قال : قلت : نعم يا رسول الله ! قال : أثيباً أم بكرأ ؟ قال : قلت : لا ، بل ؛ ثيباً . قال : أفلا جارية تُلاعبها وتلاعبك ! قال : قلت : يا رسول الله ! إن أبي أُصيب يوم أُحُد وترك بنات له سبعاً ، فنكحتُ امرأة جامعة ، تجمع رؤوسهن ، وتقوم عليهن ؛ قال : أصبت إن شاء الله ! أما إننا لو قد جئنا صراراً<sup>(1)</sup> أمرنا بجزور فنُحرّت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعتُ بنا ، فنفضتُ نمارقها . قال : قلت : والله يا رسول الله مالنا من نمارق ؛ قال : إنها ستكون ، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيّساً . قال : فلمّا جئنا صراراً أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بجزور فنُحرّت ، وأقمنا عليها ذلك اليوم ؛ فلمّا أمسى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- دخل ودخلنا ، قال : فحدثتُ المرأة الحديث ، وما قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قالت : فدونك ، فسمعُ وطاعة . قال فلمّا أصبحتُ أخذتُ برأس الجمل ، فأقبلتُ به حتى أنخته على باب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : ثمّ جلستُ في المسجد قريباً منه ، قال : وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فرأى الجمل ، فقال : ما هذا؟ قالوا : يا رسول الله ! هذا جمل جاء به جابر ، قال : فأين جابر؟ قال : فدُعيتُ له ، قال : فقال : يا بن أخي ! خذ برأس جملك ، فهو لك ، ودعا بلالاً ، فقال له : اذهب بجابر ، فأعطه أوقية . قال : فذهبتُ معه ، فأعطاني أوقية ، وزادني شيئاً يسيراً . قال : فوالله ما زال ينمي عندي ، ويُرى مكانه

(1) «صراراً» : جبل من جبال القبليّة . وقيل : موضع على ثلاثة أميال من المدينة عن طريق العراق .

من بيتنا، حتى أُصيب أمس فيما أُصيب لنا، يعني: يوم الحرّة»<sup>(1)</sup>. أي: وقعة الحرّة، التي كانت بالمدينة سنة 63هـ أيام يزيد بن معاوية، على يد مسلم بن عقبة المريّ، الملقب بـ «مُسَرَف بن عقبة».

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** إباحة المكايسة في البيع. قال عبد الرحمن السّهيليّ: «وذكر (ابن إسحاق) مساومة النّبّيّ - صلى الله عليه وسلم! - لجابر في الجمل، حتى اشتراه منه بأوقية، وأتته أعطاه أولاً درهماً، فقال: لا، إذن تغبنني يا رسول الله! فإن كان أعطاه الدرهم مازحاً، فقد كان يمزح، ولا يقول إلّا حقاً، فإذا كان حقاً، ففيه من الفقه إباحة المكايسة الشديدة في البيع، وأن يعطي في السلعة ما لا يشبه أن يكون ثمناً لها بنصّ الحديث، وفي دليله أن من اشترى سلعة بما لا يُشبه أن يكون لها ثمناً، وهو عاقل بصير، ولم يكن في البيع تدليس عليه، فهو بيع ماض لا رجوع فيه. ورؤي من وجه صحيح. أنّه كان يقول له كلّما زاد له درهماً قد أخذته بكذا والله يغفر لك. فكأنّه - عليه السلام! - أراد بإعطائه إياه درهماً درهماً أن يكثر استغفاره له. وفي جمل جابر - هذا - أمور من الفقه سوى ما ذكرنا، وذلك أنّ طائفة من الفقهاء احتجّوا به في جواز بيع وشرط، لأن النّبّيّ - صلى الله عليه وسلم! - شرط له ظهراً إلى المدينة، وقالت طائفة: لا يجوز بيع وشرط؛ وإن وقع فالشرط باطل، والبيع باطل، واحتجّوا بحديث عمرو بن شعيب، عن أبيه شعيب» عن جدّ أبيه عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النّبّيّ - صلى الله عليه وسلم! - نهى عن شرط وبيع، وعن بيع وسكف.

**الحكم الثاني:** بدء صلاة الخوف وصفة أدائها جماعة. جاء في صحيح البخاريّ: «حدّثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد، عن مالك، عن يزيد بن رومان، عن صالح بن خوات، عمّن شهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يوم ذات الرقاع، صلّى صلاة الخوف: أن طائفة صَفَّتْ معه، وطائفة وُجَّاهَ العدو، فصلّى بالتي معه ركعة، ثمّ ثبت قائماً وأتمّوا لأنفسهم، ثمّ انصرفوا، فصَفُّوا وُجَّاهَ العدو، وجاءت الطائفة الأخرى، فصلّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته. ثمّ ثبت جالساً، وأتمّوا لأنفسهم، ثمّ سلّم بهم». فمن مفهوم هذا النصّ اتّضح لنا جليّاً: أن أوّل صلاة شرعها الله للخوف من العدو كانت صلاة الصبح في غزوة ذات الرقاع.

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 226.

## غزوة بدر الثالثة<sup>(1)</sup>

في شهر شعبان من السنة الرابعة خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لميعاد أبي سفيان بن حرب كان منه يوم أُحُد ، واستعمل يوم ذاك على المدينة عبدالله بن رواحة . وسار المسلمون إلى بدر في ألف وخمسمائة مقاتل ، وكان لواؤهم بيدي عليّ بن طالب ، وأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون أبا سفيان هناك . وخرج أبو سفيان في أهل مكة وسار بجيشه حتى بلغ محنة من ناحية الظَّهران ، ثم بدا له أن يرجع من هناك إلى مكة . قال محمد بن إسحاق : «ثمّ بدا له في الرجوع ، فقال : يا معشر قريش ! إنّه لا يصلحكم إلّا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإنّ عامكم هذا عام جدب ، وإنّي راجع ، فارجعوا ، فرجع الناس ، فسمّاهم أهل مكة جيش السَّويق ، ويقولون : إنّما خرجتم تشربون السَّويق»<sup>(2)</sup> . ثم رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بأصحابه إلى المدينة ولم يلق كيداً .

قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن عمر الواقدي -: «فأقاموا (أي : المسلمون) ببدر مدة الموسم الذي كان يُعقد فيها ثمانية أيّام ، فرجعوا وقد ربحوا من الدّهرم درهمين»<sup>(3)</sup> . وقال غيره : فانقلبوا كما قال الله - عزّ وجلّ! -: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(4)</sup> .<sup>(5)</sup>

## أهمّ حوادث هذه السّنة من غير حوادث الجهاد

في جمادى الأولى من هذه السنة تُوفي عبدالله بن عثمان بن عفّان ؛ وهو ابن ستّ سنوات ، فصلّى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو جدّه من أمه رقية ونزل في حفرة قبره أبوه عثمان رضي الله عنهما . وفي الشهر نفسه<sup>(6)</sup> توفي أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزوميّ ، وأمّه برة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكان رضيعه : أرضعتها ثؤيّبة مولاة أبي لهب . وفي هذه السنة وُلد الحسين بن عليّ بن أبي طالب - في قول -

(1) وتسمّى - أيضاً -: غزوة بدر الآخرة . وغزوة السَّويق . وغزوة الموعد .

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 6 ص 228 .

(3) لأنّ قتالهم عدوّهم تحوّل تجارة رابحة !

(4) البداية والنهاية . ج 4 ص 89 .

(5) سورة «آل عمران» . الآية 174 .

(6) وذلك في غصون شهر شعبان .



وفيه تزوّج رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أمّ سلمة . وفيها - أيضاً - تزوّج زينب بنت خزيمة الهلالية<sup>(1)</sup> . وفيها أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- زيد بن ثابت أن يتعلّم كتاب يهود ؛ أي اللغة العبرية ، فتعلّمها في خمسة عشر يوماً . وفيها ولي الحجّ المشركون .

## السنة الخامسة من الهجرة

### غزوة دومة الجندل<sup>(2)</sup>

قال محمد بن عمر الواقدي - نقلاً عن جماعة ثقات فيما أخبروه به - : « في ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً ، خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لخمس ليال بقين من ربيع الأول ، وقدم لعشر بقين من ربيع الآخر . . أراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن يدنو إلى أدنى الشام ، وقيل له : إنّها طرف من أفواه الشام . فلو دنوت لها كان ذلك ممّا يُفزع قيصر . وقد ذُكر له : أنّ بدومة الجندل جمعاً كثيراً ، وأنهم يظلمون من مرّ بهم من الضّافطة<sup>(3)</sup> . وكان بها سوق عظيم وشجر ، وصوى إليهم قوم من العرب كثير ، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة . فندب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- الناس فخرج في ألف من المسلمين ، فكان يسير الليل ويكمن النهار ، ومعه دليل له من بني عذرة يقال له : مذکور ، هاد خريّت<sup>(4)</sup> ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مُغذاً للسّير ، ونكّب طريقهم . ولما دنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من دومة الجندل - وكان بينه وبينها يوم أو ليلة سيّر الراكب المُعتق - قال له الدليل : يا رسول الله ! إنّ سوائهم ترعى فأقم لي حتى أطلع لك . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : نعم . فخرج العذريّ طليعةً حتى وجد آثار النّعم والشاء وهم مُغرّبون ، ثم رجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم !- فأخبره وقد عرف مواضعهم ، فسار النبي - صلى الله عليه وسلم !- حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم ، فأصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من أصاب ، وهرب من هرب في كلّ وجه . وجاء الخبرُ أهل دومة الجندل ففرّقوا ، ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

(1) وهي المكتاة بأُمّ المساكين ، لكثرة صدقاتها عليهم وبرّها بهم وإحسانها إليهم .

(2) «دومة الجندل» : قرية تبعد عن المدينة بعشر مراحل ، وعن الكوفة كذلك . وسميت بـ «دومان» بن إسماعيل - عليه السلام !- وكان ينزل بها .

(3) «الضّافطة» : جمع ضافط ؛ وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن ، والمكاري الذي يكرّي الأحمال على وجه العموم .

(4) «خريّت» : دليل حاذق وماهر في الدلالة .

بساحتهم، فلم يجد بها أحداً، فأقام بها أياماً وبث السرايا وفرقهم حتى غابوا عنه يوماً، ثم رجعوا إليه، ولم يصادفوا منهم أحداً، وترجع السرية بالقطعة من الإبل، إلا أن محمداً بن مسleme أخذ رجلاً منهم، فأتى به النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله عن أصحابه؟ فقال: هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت نعيمهم، فعرض عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الإسلام أياماً فأسلم، فرجع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم - استعمل على المدينة سبعاء بن عرقطة<sup>(1)</sup>. الغفاري. ولم يذكر ابن إسحاق ما ذكره الواقدي؛ وإنما قال - فقط -: «ثم غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دومة الجندل. ثم رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يصل إليها، ولم يلق كيداً، فأقام بالمدينة بقية سنته»<sup>(2)</sup>.

### غزوة الخندق<sup>(3)</sup>

كانت هذه الغزوة في شهر شوال سنة خمس من الهجرة النبوية. وكان السبب فيها أن نقرأ من يهود بني النضير ويهود بني وائل، منهم: عبدالله بن سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الربيع، وغيرهم، قد حزبوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقدموا على قريش مكة ودعواهم إلى الاشتراك معهم في حربه، فأجابوهم إلى ما دعواهم إليه، وقالوا لهم: نحن معكم حتى نستأصله، ثم أتت اليهود على قبيلة غطفان من قيس عيلان، فدعواهم إلى حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخبروهم أن قريشاً معهم فيما هم عازمون عليه، فأجابوهم واتفقوا معهم على ما ندبواهم إليه. فعقدت قريش اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وخرجوا مع من تبعهم من العرب في أربعة آلاف مقاتل، معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير. وكان قائدهم أبا سفيان بن حرب. وخرج بنو أسد يقودهم طلحة بن خويلد الأسدي، وخرجت غطفان وفزارة معهم ألف بعير، يقودهم الحارث بن عوف المري، وخرجت أشجع في أربعمائة رجل، يقودهم مسعود بن ربيعة الأشجعي. وخرج معهم غيرهم؛ حتى بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل، توزعوا في ثلاث قيادات؛ القيادة العامة بيد أبي سفيان بن حرب زعيم قريش ووجيهها المطاع.

(1) كتاب المغازي. ج 1 ص 402، 404.

(2) كتاب السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 26.

(3) وتسمى: غزوة الأحزاب أيضاً.

## اتّخاذ حصن المدينة بالخذق

فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عزم قريش ومن تبعهم على هجومهم عليه وعلى المسلمين في عُقر دارهم: المدينة، جمع المهاجرين والأنصار وشاورهم فيما يواجه به هجوم أعدائه المشركين، والمنافقين واليهود، فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق؛ فقال: يا رسول الله! إنّا كنّا بفارس إذا حوصرنا خندقنا حولنا، فأعجب ذلك المسلمين، ووافق رسول الله على العمل، وأمر بحفر الخندق. وكان أوّل مشهد شهده سلمان مع رسول الله، وهو يومئذ حرّ. وعمل في حفر الخندق رسول الله ترغيباً للمسلمين في الأجر، وحثاً لهم على العمل فيه. وقد بذل المؤمنون من الجهد المحمود في حفر الخندق ما مدحهم بهم القرآن الكريم، فقد كانوا متشبّثين بعملهم مستمرين فيه، لا ينصرفون عنه إلّا إذا دعّتهم إلى الانصراف حاجة ملّحة، فينصرفون بعد أن يأذن لهم رسول الله في ذلك، ثم سرعان ما يعودون لعملهم المأجور، ويستأنفونه بفرح وسرور، وأشدّ قوة وجهد. فأنزل الله فيهم قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>. وكان المنافقون يضمرون رغبتهن في خذلان المسلمين والتشفي منهم، فتخلّف جلّهم عن الإسهام في عمل الحفر، معتذرين بضعفهم، ومن تظاهر بالعمل منهم كان يتسلّل إلى أهله بغير علم من رسول الله ولا إذن منه. فذمّهم الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾<sup>(2)</sup> فليحذر الذين تحالفون عن أمره أن تُصيبيهم فتنة أو يُصيبيهم عذاب أليم<sup>(3)</sup>. واستعار المسلمون أدوات الحفر من يهود بني قريظة الذين قد ظلّوا على ولائهم للمسلمين وقسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمل الحفر بين المسلمين. فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان؛ كلّ منهم يدّعيه أنّه منهم وأنّه يكون معهم في عمل الحفر. ففضّ رسول الله هذا الاختلاف بقوله: «سَلَمَانُ مِنَّا، سَلَمَانُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ». وجعل رسول الله لكلّ عشرة رجال أربعين ذراعاً من مساحة حفر الخندق، وكانت حصّة سلمان

(1) سورة «النور». الآية 62.

(2) «لِوَاذًا»: استتاراً بالشيء عند الهرب.

(3) سورة «النور». الآية 63.

مع حُدَيْقَة، والنَّعْمان بن مُقَرَّر، وعَمْرُو بن عوف، وستّة من الأنصار يعملون جميعاً. وأمر رسول الله بتحسين جدران منازل المدينة التي تواجه مأتى العدو، فحُصِّنت، وكانت تبعد من الخندق بنحو فرسخين، وأُخْلِيت المساكن التي خارج الخندق من سكّانها، ونُقِلَ كُلٌّ مَن فِيهَا: مِن نساء، وأطفال إلى المنازل التي قد تم تحصينها، وجمعت الأحجار ووضعت إلى جانب الخندق من جهة المدينة، لتكون ذخيرة يستخدمها المسلمون عند حاجتهم إلى رميهم العدو بها. وامتدت مساحة الخندق طولاً من شرق المدينة إلى شمالها الغربي؛ وهي الجهة التي كانت غير محصنة منها. أما باقي حدودها فقد كانت محصنة. وأقبل المشركون في عشرة آلاف من قريش مكة وأحبيشهم وتابعيهم من كنانة وتهامة، حتى نزلوا بمجتمع الأسيال من رُومة<sup>(1)</sup> بين الجُرُف وزَغابة، وأقبلت غطفان بمن تابعيهم حتى نزلوا إلى جنب أُحُد. وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم -<sup>(2)</sup> والمسلمون في ثلاثة آلاف، فجعلوا ظهورهم إلى سَلْع<sup>(3)</sup>، ورفعوا الذراري والنساء في الآطام<sup>(4)</sup>. واجتمعت الأحزاب في مكان موعدهم بعدتهم وعددهم، وكانوا يظنون أنّهم يجدون المسلمين خارج المدينة كعادتهم في الحرب السابقة؛ ولكنهم حينما وصلوا إلى أُحُد لم يجدوا به أحداً، فتابعوا سيرهم قاصدين المدينة، وقبل وصولهم إليها بنحو فرسخين فاجأهم الخندق المانع أهلها من اقتحام عدوهم مدينتهم المتحصنة به. وكان قادة الأحزاب يجهلون هذا النوع من أنواع الدفاع في حروبهم المعتادة. ثم إن قادة الأحزاب قد أيقنوا أنّ هذا الخندق سيجبرهم على إقامتهم إقامة طويلة الأمد أمام المدينة دون أن يتمكنوا من اقتحامها، وبالإضافة إلى ذلك، إنَّهم كانوا في فصل الشتاء وفي وقت البرد القارس والرياح العاصفة، فلم تكن خيامهم قادرة على حمايتهم من ذلك، أو تغني عنهم شيئاً. فعلى هذا الأساس تيقن قادة الأحزاب أنّ التصر بالنسبة إليهم عسير؛ إن لم يكن مستحيلاً، ففكروا في العدول عن محاولة اقتحام المدينة. ومع تفكيرهم هذا، قد خشوا أن تتفرق الأحزاب وليس في قدرتهم أن يجمعوهم بعد هذا التفرق مرة أخرى على محاربة الإسلام والمسلمين، وبدا لهم أن يعملوا على نقض العهد الذي قد تمّ عقده بين يهود بني قُرَيْظَة وبين رسول الله، الذي قد وادع به كعب بن أسد القُرَظِيّ على قومه

(1) بها بئر رومة التي ابتاعها عثمان بن عفان وسبّلها.

(2) واستعمل على المدينة عبدالله بن أم مكتوم.

(3) «سَلْع»: جبل بسوق المدينة.

(4) «الآطام»: جمع أطم وأطم: الحصن والبيت المرتفع.

وعاهده به . فأرسل أبو سفيان بن حرب حُيَّيَّ<sup>(1)</sup> بن أخطب النَّضْرِيَّ إلى كعب بن أسد القُرْظِيِّ صاحب عقد بني قُرَيْظَةَ وعهدهم ، فخرج حُيَّيُّ حتى أتى كعباً ، ولم يزل به حتى أقنعه بنقض ما بينه وبين المسلمين من حلف محكم وعهد موثوق به ؛ بعد أن وعده بأن يدخل معه في حصنه إذا رجعت قريش وغطفان خائبتين دون أن ينتصرا على المسلمين قال محمد بن عمر الواقدي : « . . . قال أبو سفيان الحُيَّيُّ بن أخطب : ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد . فذهب حُيَّيُّ حتى أتى بني قُرَيْظَةَ . . . فلما أتى حُيَّيُّ إلى بني قريظة ، كرهت بنو قريظة دخوله دارهم ، فكان أول من لقيه غَزَال بن سَمَوَّال ، فقال له حُيَّيُّ : قد جئتكم بما تستريح به من محمد : هذه قريش قد حلت وادي العقيق<sup>(2)</sup> ، وغطفان بالزَّغابة . قال غَزَال : جئنا والله بذلَّ الدَّهْر ! قال حُيَّيُّ : لا تقل هذا ! ثم توجه إلى باب كعب بن أسد فدق عليه ، فعرفه كعب وقال : ما أصنع بدخول حُيَّيِّ عليّ ؟ رجل مشؤوم قد شأم قومه ، وهو الآن يدعوني إلى نقض العهد ! فدق عليه (ثانياً) ، فقال كعب : إنك امرؤ مشؤوم ، قد شأمت قومك حتى أهلكتهم ، فارجع عنا فإنك إنما تريد هلاكك وهلاك قومي ! فأبى حُيَّيُّ أن يرجع ، فقال كعب : يا حُيَّيُّ ! إني عاقدتُ محمدًا وعاهدته ، فلم نرمه إلا صدقاً ، والله ما أخفَرنا ذمّة ولا هتك لنا سترًا ، ولقد أحسن جوارنا ، فقال حُيَّيُّ : ويحك ! إني قد جئتكم ببحر طامٍ ويعزّ الدَّهْر ؛ جئتكم بقريش على قادتها وسادتها ، وجئتكم بكنانة حتى أنزلتهم برومة ، وجئتكم بغطفان على قادتها وسادتها ؛ حتى أنزلتهم بالزَّغابة إلى نَقَمَى<sup>(3)</sup> ، قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل ، والعدد عشرة آلاف ، والخيل ألف فرس ، وسلاح كثير ، ومحمد لا يُقْلَتُ في فورنا هذا ، وقد تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يرجعوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه . قال كعب : ويحك ! جئتني والله بذلَّ الدَّهْر ويسحاب يبرق فيه شيء ، وأنا في بحر لُجِّي ، لا أقدر على أن أريم داري<sup>(4)</sup> ، ومالي معي والصبيان والنساء ؛ فارجع عني ، فإنّه لا حاجة لي فيما جئتني به . قال حُيَّيُّ : ويحك ! أكلمك . قال كعب : ما أنا بفاعل . قال

(1) وهو يهوديٌّ من بني قريظة .

(2) «العقيق» : مسيل ماء المدينة .

(3) «نقمة» - بفتح النون والقاف - : موضع من أعراض المدينة ؛ كان لآل أبي طالب بن عبد المطلب .

(4) «أريم داري» : أبرحها وأفارقها .

حَيِّيَّ: والله ما أغلقتَ بابك دوني إِلَّا لَجَشْتِكَ<sup>(1)</sup> أَنْ أَكَلَّ مَعَكَ مِنْهَا، فَلَكَ أَنْ لَا أَدْخَلَ يَدِي فِيهَا. قَالَ كَعْبٌ: فَأَحْفَظْهُ، فَفَتَحَ الْبَابَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْتَلُهُ فِي الدَّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى لَانَ لَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ عَنِّي يَوْمَكَ هَذَا حَتَّى أَشَاوِرَ رُؤَسَاءَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: قَدْ جَعَلُوا الْعَهْدَ وَالْعَقْدَ إِلَيْكَ فَأَنْتَ تَرَى لَهُمْ. وَجَعَلَ يَلْحَ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَلَهُ عَنْ رَأْيِهِ. فَقَالَ كَعْبٌ بْنُ أَسَدٍ: يَا حَيِّيَّ! قَدْ دَخَلْتُ فِيمَا تَرَى كَارِهًا لَهُ، وَأَنَا أَخْشَى أَنْ لَا يُقْتَلَ مُحَمَّدٌ، وَتَنْصَرِفَ قَرِيشٌ إِلَى بِلَادِهَا، وَتَرْجِعَ أَنْتَ إِلَى أَهْلِكَ، وَأَبْقَى أَنَا فِي عَقْرِ الدَّارِ وَأُقْتَلَ وَمَنْ مَعِيَ. فَقَالَ حَيِّيَّ: لَكَ مَا فِي التَّوْرَةِ الَّتِي أَنْزَلْتُ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ، لَئِنْ لَمْ يُقْتَلَ مُحَمَّدٌ فِي هَذِهِ الْفُورَةِ وَرَجَعَتْ قَرِيشٌ وَغُطْفَانٌ قَبْلَ أَنْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا، لَأَدْخُلَنَّ مَعَكَ حَصْنُكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ. فَنَقَضَ كَعْبُ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَدَعَا حَيِّيَّ بِالْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بَيْنَهُمْ، فَشَقَّه حَيِّيَّ. فَلَمَّا شَقَّه عَلمَ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ لَحِمَ<sup>(2)</sup> وَفَسَدَ، فَخَرَجَ عَلَى بَنِي قَرِيطَةَ وَهُمْ حَلَقَ حَوْلَ مَنْزِلِ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبْرَ. يَقُولُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطَا<sup>(3)</sup>: وَاهْلَاكَ الْيَهُودُ! تُوَلَّى قَرِيشٌ وَغُطْفَانٌ، وَيَتْرَكُونَنَا فِي عَقْرِ دَارِنَا وَأَمْوَالِنَا وَذُرَارِينَا، لَا قُوَّةَ لَنَا بِمُحَمَّدٍ! مَا بَاتَ يَهُودِيٌّ عَلَى حَزْمٍ قَطٌّ، وَلَا قَامَتِ يَهُودِيَّةٌ يَبْثُرُ أَبَدًا. ثُمَّ أَرْسَلَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ إِلَى نَفَرٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ خَمْسَةِ - الزُّبَيْرِ بْنِ بَاطَا، وَعَبَّاسُ بْنُ قَيْسٍ، وَغَزَّالُ بْنُ سَمَوَّالٍ، وَعُقْبَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَكَعْبُ بْنُ زَيْدٍ - فَخَبَّرَهُمْ خَبْرَ حَيِّيَّ، وَمَا أَعْطَاهُ حَيِّيُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ فَيَدْخُلَ مَعَهُ فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُ. يَقُولُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطَا: وَمَا حَاجَتُكَ إِلَى أَنْ تُقْتَلَ وَيُقْتَلَ مَعَكَ حَيِّيُّ! قَالَ: فَأَسْكَتْ كَعْبٌ وَقَالَ الْقَوْمُ: نَحْنُ نَكْرَهُ أَنْ نُزْرِيَ بِرَأْيِكَ أَوْ نَخَالَفَكَ، وَحَيِّيَّ مَنْ قَدْ عَرَفَتْ شُرُومَهُ. وَنَدِمَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَلَى مَا صَنَعَ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ، وَلَحِمَ الْأَمْرَ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حَرْبِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ<sup>(4)</sup>. فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - الْخَبْرَ، بَعَثَ جَمَاعَةً مِنْ أَعْيَانِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ<sup>(5)</sup> إِلَى بَنِي قَرِيطَةَ لِيَتَحَقَّقَ الْخَبْرَ، وَأَوْصَاهُمْ بِمَا أَوْصَاهُمْ بِهِ. قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ: «فَقَالَ لَهُمْ: انْطَلِقُوا

(1) «الْجَشِيئَةُ»: الْحَشِيشُ يُلْقَى عَلَيْهِ لَحْمٌ أَوْ تَمْرٌ فَيَطْبَخُ.

(2) أُحْكِمَ وَتَمَّ.

(3) وَهُوَ أَحَدُ الْيَهُودِ.

(4) كِتَابُ الْمَغَازِي. ج 2 ص 454-457.

(5) مِنْهُمْ: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ سَيِّدُ الْأَوْسِ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ.

حتى تنظروا: أَحَقُّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فآلَحَنُوا لِي لَحْنًا<sup>(1)</sup> أعرفه، ولا تفتُوا في أعضاد النَّاسِ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للنَّاسِ. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أَخْبَثِ ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقالوا: مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين مُحَمَّدٍ ولا عقد، فشاتمهم سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حِدَّةٌ، فقال له سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: دَعْ عَنْكَ مِشَاتِمَهُمْ، فما بيننا وبينهم أَرَبَى من المشاتمة. ثم أَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ ومن معهما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فسلموا عليه، ثم قالوا: عَضَلٌ والقارةُ، أي: كغدر عَضَلٍ والقارة بأصحاب الرجيع: خُبَيْبٌ وأصحابه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين. وعظم عند ذلك البلاء، واشتدَّ الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم؛ حتى ظنَّ المؤمنون كلَّ الظنِّ، ونجم النَّفاق من بعض المنافقين؛ حتى قال مُعْتَبَرُ بْنُ قُشَيْرٍ، أخو بني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ: كان مُحَمَّدٌ يعدنا أن نأكل كنوز كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وحتى قال أَوْسُ بْنُ قَيْظٍ - أحد بني حارثة بن الحارث -: يا رسول الله! إنَّ بيوتنا عورة من العدو؛ وذلك على ملأ من رجال قومه، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنَّها خارج المدينة. فأقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأقام عليه المشركون بضْعاً وعشرين ليلة، قريباً من شهر، لم يكن بينهم حرب إلا الرَّمْيَ<sup>(2)</sup> بالنَّبل والحصار<sup>(3)</sup>. وقال أبو الحسن عليّ بن الأثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق وغيره بشيء من الاختصار -: «فلما اشتدَّ البلاء بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى عَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ والحارث بن عوف المُرِّيَّ، قائدَي غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة؛ على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأجابا إلى ذلك، فاستشار رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فقالا: يا رسول الله! شيء تحب أن تصنعه، أم شيء أمرك الله به، أو شيء تصنعه لنا؟ قال: بل لكم؛ رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم. فقال سعد بن معاذ: قد كنّا نحن وهم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منّا ثمرة إلا قَرَى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله

(1) «اللَّحْن»: العدول بالكلام على الوجه المعروف عند النَّاسِ إلى وجه لا يعرفه إلا صاحبه.

(2) «الرَّمْيَ»: الرمي.

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 270.

بالإسلام نعطيهم أموالنا! ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فترك<sup>(1)</sup> ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ثم إن فوارس من قريش، منهم: عمرو بن عبدود أحد بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيزة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطاب الفهري، خرجوا على خيولهم واجتازوا ببني كنانة وقالوا: تجهزوا للحرب وسيعلمون من الفرسان. وكان عمرو بن عبدود قد شهد بدرًا كافرًا وقاتل حتى كثرت الجراح فيه، فلم يشهد أحدًا، وشهد الخندق معلمًا حتى يُعرف مكانه، وأقبل هو وأصحابه حتى وقفوا على الخندق، ثم تيمموا مكانًا ضيقًا فاقتحموه، فجالت بهم خيولهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فأخذ عليهم الثغرة، وكان عمرو قد خرج معلمًا، فقال له علي: يا عمرو! إنك عاهدت أن لا يدعوك رجل من قريش إلى خصلتين إلا أخذت إحداهما، قال: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلى الله والإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. قال علي: فإني أدعوك إلى النزال. قال: والله ما أحب أن أقتلك. قال علي: ولكنني أحب أن أقتلك. فحمي عمرو عند ذلك فنزل عن فرسه وعقره، ثم أقبل على علي، فتجاولا، وقتله علي، وخرجت خيلهم منهزمة، وقتل مع عمرو رجلان، قتل علي أحدهما وأصاب آخر سهم فمات منه بمكة. ورُمي سعد بن معاذ بسهم قطع أكحلَه<sup>(2)</sup>، رماه حبان بن قيس بن العرقعة بن عبد مناف من بني مغيص بن عامر بن لؤي، والعرقعة أمه؛ وإنما قيل لها: العرقعة لطيب ريح عرقها؛ وهي قلابة بنت سعد بن سهم؛ وهي أم عبد مناف بن الحارث. فلما رمى سعدًا قال: خذها وأنا ابن العرقعة. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم! -: «عرق الله وجهك في النار». ولم يُقطع الأكحل من أحد إلا مات. فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أقاتلهم من قوم آذوا نبيك وكذبوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا فاجعله لي شهادة، ولا تُمتني حتى تقر عيني من بني قريظة. وكانوا حلفاء ومواليه في الجاهلية! فلما قال سعد ما قال انقطع الدم... ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعي أتى النبي - صلى الله عليه وسلم! -: يا رسول الله! إني قد أسلمت ولم يعلم قومي، فمُرني بما شئت، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.

(1) قال محمد بن إسحاق: «فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجعدوا علينا».

(2) «الأكحل»: ورید في وسط الذراع يُقصَد أو يُحَقَّن.



فخرج حتى أتى بني قُرَيْظَةَ، وكان نديماً لهم في الجاهليّة، فقال لهم: قد عرفتم وديّ إياكم. فقالوا: لست عندنا بمتهم. قال: قد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد، وليسوا كأنتم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه، وإنّ قريشاً وغطفان إن رأوا نُهْزَةً<sup>(1)</sup> وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم ثقةً لكم حتى تنجزوا محمدًا. قالوا: أشرت بالنصح. ثمّ خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم وديّ إياكم وفراقي محمدًا، وقد بلغني أنّ قُرَيْظَةَ ندموا وقد أرسلوا إلى محمد: هل يُرضيك عنّا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرفهم فنعطيك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم: أن نعم، فإن طلبت قريظة منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجالاً واحداً. ثمّ خرج حتى أتى غطفان فقال: أنتم أهلي وعشيرتي. وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم. فلمّا كان ليلة السَّبْت من شوال (سنة خمس من الهجرة)، كان ممّا صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان وقالوا لهم: إنّنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخُفّ والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدًا. فأرسلوا إليهم: إنّ اليوم السَّبْت لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً ثقةً لنا، فإنّا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرّجل ونحن ببلادهم. فلمّا أبلغتهم الرسل هذا الكلام قالت قريش وغطفان: والله لقد صدق نعيم بن مسعود، فأرسلوا إلى قريظة: إنّنا والله لا ندفع إليكم رجالاً واحداً. فقالت قريظة عند ذلك: إنّ الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق. وخَذَلَ الله بينهم، وبعث الله عليهم ريحاً في ليل شاتية البرد، فجعلت تكفأ<sup>(2)</sup> قدورهم وتطرح آنيّتهم. فلمّا انتهى إلى النّبيّ - صلى الله عليه وسلم -! اختلاف أمرهم، دعا حذيفة بن اليمان ليلاً فقال: انطلق إليهم وانظر حالهم، ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتينا. قال حذيفة: فذهبتُ فدخلتُ فيهم والريح وجنود الله تفعل فيهم ما تفعل، لا يقرّ لهم قدرٌ ولا بناءٌ ولا نارٌ. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش! لينظر الرجل أمر جليسه، قال: فأخذتُ بيد الرجل الذي بجانبني فقلتُ: مَنْ أنت؟ قال: أنا فلان. ثمّ قال أبو سفيان: والله لقد هلك الخُفّ

(1) «نهزة»: فرصة.

(2) «تكفأ»: تكبّ وتقلب.

والخافر وأخلفتنا قُريظة ولقينا من هذه الرياح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل. ثمّ قام إلى جملة، وهو معقول، فجلس عليه، ثمّ ضربه، فوثب على ثلاث قوائم، ولولا عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إليّ أن لا أحدث شيئاً لقتلته. قال حذيفة: فرجعت إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وهو قائم يُصليّ في مرط<sup>(1)</sup> لبعض نسائه، فأدخلني بين رجله وطرح عليّ طرف المرط، فلما سلّم خبرته الخبر. وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فعادوا راجعين إلى بلادهم. فلما عادوا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: الآن نغزوهم ولا يغزوننا. فكان كذلك؛ حتى فتح الله مكّة<sup>(2)</sup>.

## شهداء المسلمين يوم الخندق

هم ستة نفر:

- 1 - سعد بن معاذ؛ قتله حبان بن قيس رمياً بسهم.
- 2 - أنس بن أوس؛ قتله خالد بن الوليد رمياً بسهم.
- 3 - عبدالله بن سهل الأشهلي؛ قتله رجل من بني عوف رمياً بسهم.
- 4 - الطّفل بن النّعمان؛ قتله وحشيّ رمياً بحرته؛ وكان يقول: أكرم الله بحرتي حمزة والطّفل.
- 5 - ثعلبة بن غنمة بن عدي؛ قتله هبيرة بن أبي وهب المخزومي.
- 6 - كعب بن زيد؛ قتله ضرار بن الخطّاب.

## قتلى المشركين يوم الخندق

هم ثلاثة نفر: 1 - عمرو بن عبدود، قتله عليّ بن أبي طالب. 2 - نوّقل بن عبدالله المخزومي؛ قتله الزبير بن العوام. 3 - عثمان بن مئنه بن عبّيد بن السّباق؛ رماه أحد المسلمين بسهم، فمات بمكة.

## ما أنزل الله من القرآن في غزوة الخندق

قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا<sup>(3)</sup> وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا<sup>(4)</sup> وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠﴾

(1) «المرط» - بكسر أوله وسكون ثانيه -: كساء من صوف أو كتان يؤتز به المرأة. جمع: مروط.

(2) الكّامل في التاريخ. ج 2 ص 180 - 184.

(3) هي ريح الصّبا.

(4) هم: الملائكة. وقيل كناية عن الأرياح الشديدة الهبوب.

إِذْ جَاءَوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ <sup>(١)</sup> وَإِذْ زَاغَتْ <sup>(٢)</sup> الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿٣﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا <sup>(٣)</sup> زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٤﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْتِ أَهْلٌ يَتْرَبُ <sup>(٤)</sup> لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ <sup>(٥)</sup> النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا <sup>(٦)</sup> ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْهَا وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا يَوْمًا ﴿٧﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُ إِلَّا الضَّرْبُ وَكَانَ عَاهِدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿٨﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنِ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنِ ارَّادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا تَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا <sup>(٨)</sup> ﴿١٠﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا <sup>(٩)</sup> وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ <sup>(١٠)</sup> بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً <sup>(١١)</sup> عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٢﴾ تَحْسَبُونَ أَنَّ حَرْابًا لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْنَ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ <sup>(١٢)</sup> فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

(١) الذين جاؤوهم من فوقهم: بنو قريظة، والذين جاؤوهم وهم من أسفلهم: قريش، وأسد، وغطفان، وسُلَيْم.

(٢) «زَاغَتْ»: مالت عن قصد النظر المعتاد.

(٣) «وَزُلْزِلُوا»: أُلْقِي فِي قُلُوبِهِم الرُّعْبُ والخوف.

(٤) «يَتْرَبُ»: المدينة.

(٥) هم: بنو حارثة.

(٦) «عَوْرَةٌ»: ليس دونها ما يحجبها من العدو.

(٧) «أَقْطَارِهَا»: نواحيها.

(٨) أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير يجيرهم ولا مغيث يغيثهم.

(٩) «هَلُمْ إِلَيْنَا»: تعالوا إلى ما نحن فيه من الاستمتاع بإقامة الظلال والتلذذ بالثمار.

(١٠) «سَلَقُوكُمْ»: استقبلوكم بكلام فصيح بليغ.

(١١) «أَشِحَّةٌ»: بخلاء بالموَدَّة والشفقة عليكم.

(١٢) ظاهرون.

أُسْوَةٌ<sup>(1)</sup> حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٦٠﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٦١﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ<sup>(2)</sup> وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦٣﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٦٤﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ<sup>(3)</sup> مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِّنْ صَيَاصِيهِمْ<sup>(4)</sup> وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٦٥﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٦٦﴾

وقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالصَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾<sup>(6)</sup>.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** روح المساواة والمواسة السائدة فيما بين المسلمين، يوم حفر الخندق. فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مع المسلمين دائماً في عمل حفر الخندق، رغم شدة البرد، ورغم شدة الجوع؛ إذ كانوا لا يجدون شيئاً من القوت إلا ما يسدون به الرَّمَق؛ وقد لا يجدونه. قال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر، فرفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عن بطنه حجرين! وكانوا مسرورين، يحمدون الله، ويرتجزون، ولا يشكون، ولا يتعتبون. قال أنس ابن مالك - رضي الله عنه! -: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى الخندق فإذا

(1) «أسوة»: اقتداء.

(2) «نحبه»: أجله.

(3) «ظاهروهم»: ناصرهم.

(4) «صياصيعهم»: حصونهم. جمع صيصية.

(5) سورة «الأحزاب». الآيات 9-27.

(6) سورة «البقرة». الآية 214.

المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم. فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع، قال:

اللَّهُمَّ! إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشَ الْآخِرَةِ      فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ  
فكان جوابهم له:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا      عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقَيْنَا أَبَدًا

قال محمد بن عمر الواقدي: «حدثني علي بن عيسى، عن أبيه، قال: ما كان في المسلمين يومئذ أحد إلا يحفر في الخندق أو ينقل التراب، ولقد رُمِيَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأبو بكر، وعمر - وكان أبو بكر وعمر لا يتفرقان في عمل، ولا مسير، ولا منزل - ينقلان التراب في ثيابهما يومئذ من العجلة؛ إذ لم يجدا مكاتل<sup>(1)</sup> لعجلة المسلمين. وكان البراء ابن عازب يقول: ما رأيت أحداً أحسن في حلة حمراء من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فإنه كان أبيض شديد البياض، كثير الشعر، يضرب الشعر منكبيه. ولقد رأيت يومئذ يحمل التراب على ظهره حتى حال الغبار بيني وبينه، وإني لأنظر إلى بياض بطنه.

وقال أبو سعيد الخدري: لكأنني أنظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو يحفر في الخندق مع المسلمين، والتراب على صدره وبين عُنْكَه<sup>(2)</sup>، وإنه ليقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا      وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

يُرَدُّ ذلك. وحدثني أبي بن عباس بن سهل، عن أبيه، عن جده، قال: كتنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يوم الخندق، فأخذ الكَرْزَنَ وضرب به حجراً، فَصَلَ<sup>(3)</sup> الحجر، فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقليل له: يا رسول الله! ممّ تضحك؟ قال: أضحك من قوم يؤتى بهم من المشرق في الكبول<sup>(4)</sup>، يُساقون إلى الجنة وهم كارهون<sup>(5)</sup>.

(1) «مكاتل» - جمع مكتل -: زنبيل يُعْمَل من الخوص.

(2) «عُنْكَه» -: جمع عُنْكَه -: وهو ما انطوى وتثنى من لحم البطن.

(3) «فَصَلَ»: صوت ورن.

(4) «الكبول» - جمع كبل -: القيد من أي شيء كان.

(5) المغازي. ج 2 ص 448.

**العبرة الثانية :** شجاعة امرأة وجُبْن رجل!! قال محمد بن إسحاق: «وحدّثني يحيى بن

عبّاد بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه عبّاد قال: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع<sup>(1)</sup>، حصن حسان بن ثابت؛ قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه: مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمرّ بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قُرَيْظَةَ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وليس بيننا أحد يدفع عنّا - ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوّهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا أت - قالت: قلت: يا حسان! إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإنّي والله ما آمنه أن يدلّ على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنّا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأصحابه، فانزل إليه فاقتله؛ قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت: فلمّا قال لي ذلك، ولم أر عنده شيئاً، احتجرت<sup>(2)</sup>، ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربت بالعمود حتى قتلتها. قالت: فلمّا فرغت منه، رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان! انزل إليه فاسلبه، فإنّه لم يمنعني من سلبه إلّا أنّه رجل؛ قال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنة عبد المطلب»<sup>(3)</sup>.

**العبرة الثالثة :** استجابة الله لدعاء رسوله على أحزاب المشركين وعلى من ناصرهم من

اليهود والمنافقين. قال محمد بن عمر الواقدي: «وكان عبد الله بن أبي أوفى يحدث: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - دعا على الأحزاب فقال: «اللَّهُمَّ مُنزِلَ الكتابِ، سريعَ الحسابِ اهْزِمِ الأحزاب! اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ!». فحدّثني كثير بن زيد، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب ابن مالك عن جابر بن عبد الله، قال: دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على الأحزاب في مسجد الأحزاب يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء. قال: فعرفنا السرور في وجهه. قال جابر: فما نزل بي أمرٌ غائظ مهمٌّ إلّا تحيَّنتُ تلك الساعة من ذلك اليوم، فأدعو الله فأعرف الإجابة. وكان ابن أبي ذئب يحدث، عن رجل من بني سلمة، عن جابر بن عبد الله، قال: قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على الجبل الذي عليه المسجد، فدعا في إزار ورفع يديه مدّاً، ثم جاءه مرة أخرى فصلّى ودعا. وكان عبد الله بن عمر يقول: صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في الحَرِيقِ القابلِ الصَّابَّ على أرض بني

(1) «فارع»: أطم حسان بن ثابت.

(2) «احتجرت»: شددت الإزار على وسطى.

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 276.

التَّضِير، وهو اليوم موضع المسجد الذي بأسفل الجبل . ويقال : إنَّه صلى في تلك المساجد كلَّها التي حول المسجد الذي فوق الجبل . قال ابن واقد : وهذا أثبت الأحاديث»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الرَّابِعة : تعظيم أبي سفيان بن حرب لأصنام طالما جعلها موضع حلف ليمينه ،**  
وقد تنبَّأ لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! يهاثته لها وكسرها ، ثمَّ يذكرُ أبا سفيان بما وعده أن يذكره به عند الإهانة والكسر . قال محمَّد بن عمر الواقديّ : «حدَّثنا موسى بن محمَّد بن إبراهيم ، عن أبي حمزة ، قال : لما ملَّت قريش المَقام ، وأجذب الجناب ، وضاقوا بالخنْدق ، وكان أبو سفيان على طمع أن يُغيّر على بيضة المدينة ، كتب كتاباً فيه : باسمك اللهم ! فإنِّي أحلفُ باللَّاتِ والعُزَّى ، لقد سرت إليك<sup>(2)</sup> في جمعنا ، وإنَّا نريد أن لا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنْدق ، فليت شعري من علِّمك هذا؟! فإن نرجع عنكم فلکم مَتاً يومَ كيومِ أحد ، تُبْقَر فيه النِّساء . وبعث بالكتاب مع أبي أسامة الجُشمي . فلما أتى بالكتاب ، دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! أباي بن كعب ، فدخل معه قُبْته ، فقرأ عليه كتاب أبي سفيان . وكتب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! : «من محمَّد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب . . أمّا بعد ، فقد يمّا غرَّك بالله الغرور ! أمّا ما ذكرت أنكَ سرت إلينا في جمعكم ، وأنكَ لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللَّات والعُزَّى . وأمّا قولك : مَنْ علِّمك الذي صنعنا من الخنْدق ، فإنَّ الله تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتينَّ عليك يوم تدافعني بالراح ، وليأتينَّ عليك يوم أكسرفيه اللَّات ، والعُزَّى ، وإساف ، ونائلة ، وهُبْل ، حتى أذكرك ذلك»<sup>(3)</sup> .

**العبرة الخامسة : الزَّبير بن العوَّام حوارِي النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - ! جاء في صحيح الإمام البخاريّ : « . . . عن ابن المُتَكَدِّر قال : سمعتُ جابراً يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! يوم الأحزاب : مَنْ يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزَّبير : أنا ، ثمَّ قال : مَنْ يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزَّبير : أنا ، ثمَّ قال : مَنْ يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزَّبير : أنا . ثمَّ قال : إن لكلِّ نبيٍّ حواريّاً ، وإنَّ حوارِيَّ الزَّبير . »**

(1) كتاب المغازي . ج 2 ص 487 .

(2) «إليك» : ضمير الخطاب يعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(3) كتاب المغازي . ج 2 ص 492 .

**العبرة السادسة :** المسلم يتوقع بعد العسر يسراً، وبعد البلاء رحمة، وبعد الكرب نعمة، وبعد الأزمة فرجاً. قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن بعض الثقات -: « فلماً اشتدَّ البلاء (يوم الخندق)، نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح، فلماً رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما بالناس من البلاء والكرب، جعل يشرهم ويقول: «والذي نفسي بيده ليُفَرِّجَنَّ عنكم ما ترون من الشدة، وإنِّي لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفع الله إليّ مفاتيح الكعبة، وليهلكنَّ الله كِسْرِيَّ وقِصْرِيَّ، ولتتفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله»<sup>(1)</sup>.

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن الدعاء على الظالمين جائز مشروع على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جاء في صحيح البخاري: «... عن علي بن أبي طالب، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال يوم الخندق: ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً؛ كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعزَّ جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده». وعن إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنهما - يقول: دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الأحزاب، فقال: «اللهم مُنْزِلَ الكتاب سريع الحساب، أهزم الأحزاب! اللهم أهزمهم وزلزلهم!». وجاء في مسند الإمام أحمد: «حدثنا أبو عامر، حدثنا الزبير بن عبد الله، حدثنا ربيع بن أبي سعيد الخُدْري، عن أبيه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله! هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر! فقال: «نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا». قال: فضرب الله وجوه أعدائه بالرَّيح».

**الحكم الثاني :** أن مداراة الشَّيْء من البشر جائزة شرعاً لا تقواء شره. وقد دارى رسول الله يوم الخندق الشَّيْءَ بن حصن أحد قادة غطفان. قال عبد الرحمن السَّهيلي: «وذكر (ابن إسحاق) قائد غطفان يوم الأحزاب؛ وهو عِيْنَةُ بن حصن، واسمه حُذَيْفَة، وسُمِّيَ عِيْنَة لِشَرِّهِ<sup>(2)</sup> كان بعينه، وهو الذي قال فيه عليه السلام: «الْأَحْمَقُ الْمُطَاعُ»، لأنَّه كان من الجرَّارين تَبِعَهُ

(1) البداية والنهاية . ج 4 ص 109 .

(2) «الشتر» - بفتح أوله وثانيه -: مطلق العيب .



عشرة آلاف قناة<sup>(1)</sup>، وهو الذي قال فيه النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ وَدَّعَهُ النَّاسُ اتَّقَاءَ شَرِّهِ». وفي رواية أخرى: أنه قال: «إِنِّي أَدَارِيهِ، لِأَنِّي أَخْشَى أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ خَلْقًا كَثِيرًا». وفي هذا بيان معنى الشر الذي اتقى منه، وكان دخل على النبي - صلى الله عليه وسلم -! بغير إذن، فلما قال له: «أَيْنَ الْإِذْنُ؟» قال: ما استأذنتُ على مُضَرِّي قَبْلَكَ، وقال: ما هذه الحُمَيْراءُ معك يا محمد؟ فقال: «هي عائشة بنت أبي بكر». فقال: طَلَّقَهَا، وأُنْزِلْ لَكَ عَنْ أُمِّ الْبَنِينَ، أسلم، ثم ارتدّ، وآمن بطلّيحَة حين تنبأ، وأخذ أسيراً، فَأَتَيْ بِهِ أَبُو بَكْرٍ - رضي الله عنه! - أسيراً، فمنّ عليه، ولم يزل مُظْهِراً للإسلام على جفوته وعنجهيته ولُوْثَة<sup>(2)</sup> أعرابيته حتى مات. قال الشاعر:

وَإِنِّي - عَلَى مَا كَانَ مِنْ عُنْجَهِيَّتِي      وَلَوْثَةُ أَعْرَابِيَّتِي - لِأَدْبَابُ

**الحكم الثالث:** جواز تأخير أداء الصلوات المفروضة عن أوقاتها؛ إذا انشغل أصحابها بقتال العدو. وهذا معتمد بعض العلماء: كالماوردي، ومكحول، والأوزاعي. مستدلين على الجواز بما ثبت وصحّ من الأحاديث النبوية، وقد قضى الرسول وأصحابه صلاتهم بعد خروج وقتها المعتاد: مختاراً وضرورياً. جاء في صحيح البخاري: «... عن جابر بن عبد الله، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه! - جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، جعل يسبّ كفّار قريش وقال: يا رسول الله! ما كدْتُ أَنْ أَصَلِّيَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ. قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا». فنزلنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم -! - بِطُحَانَ<sup>(3)</sup> فتوضّأ للصلاة، وتوضّأنا لها، فصلّى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب».

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أنّه قال: «قاتل النبي - صلى الله عليه وسلم -! - عَدُوًّا، فلم يفرغ منهم حتى آخر العصر عن وقتها. فلما رأى ذلك قال: «اللّهُمَّ مِنْ حَسْبِنَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى فَاِمْلَأْ بِيَوْتَهُمْ نَارًا وَاِمْلَأْ قُبُورَهُمْ نَارًا».

وقد تقدم - في الحكم الأول - رواية البخاري لهذا الحديث عن عليّ بن أبي طالب. وروى أبو بكر البزّاز عن مجاهد، عن جابر بن عبد الله: أنّ النبي - صلى الله عليه وسلم -! - شُغِلَ يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فأمر بلالاً، فأذن وأقام، فصلّى الظهر، ثم أمره، فأذن وأقام، فصلّى العصر، ثم أمره، فأذن وأقام، فصلّى المغرب، ثم أمره، فأذن

(1) «القناة»: الرمح.

(2) «اللوثة» - بضم أوله - الحُمُق.

(3) «بطحان» - بضم أوله وسكون ثانيه -: أحد أودية المدينة الثلاثة: بطنان، والعقيق، وقناة.

وأقام، فصلّى العشاء، ثم قال: «ما على وجه الأرض قوم يذكرون الله في هذه السّاعة غيركم». وقد روى هذا الحديث - أيضاً - الإمام أحمد، عن عبدالله بن مسعود وغيره.

**الحكم الرابع:** جواز مخالفة المستشار لمن استشاره فيما لا نصّ فيه من شريعة الله، وهذا ما دلّ عليه مخالفة سعد بن مُعاذ لرسول الله؛ عندما استشار الصحابة في مصالحته غطفان وإعطائه إياهم ثلث ثمار المدينة فرفض سعد بن معاذ هذه المصالحة وقال: «والله ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلّا السّيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم»؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أنتَ وذاك»، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب.

**الحكم الخامس:** جواز مصالحة المسلمين عدوّهم وإعطائهم إياه ممّا يملكون حتى يرضوه، فيكون ذلك في صالح المسلمين وأمنهم، وهذا ما بدا لرسول الله في مصالحته غطفان. قال عبد الرحمن السّهيلى: «وذكر (ابن إسحاق) ما همّ به النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - من مصالحة الأحزاب على ثلث تمر<sup>(1)</sup> المدينة، وفيه من الفقه جواز إعطاء المال للعدوّ؛ إذا كان فيه نظر للمسلمين وحيطة لهم. وقد ذكر أبو عبيدة هذا الخبر، وأنه أمرٌ معمول به، وذكر أن معاوية صالح ملك الرّوم على الكف عن ثغور الشام بمال دفعه إليه، قيل: كان مائة ألف دينار، وأخذ من الرّوم رهناً، فغدرت الروم، ونقضت الصّلح، فلم ير معاوية قتل الرّهائن وأطلقهم، وقال: وفاء بغدرٍ خيرٌ من غدرٍ بغدر. قال أبو عبيد: وهو مذهب الأوزاعي وأهل الشام: أن لا تُقتل الرّهائن؛ وإن غدر العدوّ»<sup>(2)</sup>.

### بعض المعجزات ظهرت عياناً إبان حَضْر الخندق

**المعجزة الأولى، والثانية:** قال الإمام أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل البخاري: «حدّثنا خلاد بن يحيى، حدّثنا عبد الواحد بن أيّمن، عن أبيه قال: أتيت جابرًا - رضي الله عنه! - فقال: إنّنا يومَ الخندق نحفر، فعرضتُ كُدِيّةً<sup>(3)</sup> شديدة، فجاءوا النّبيّ - صلى الله عليه وسلم -! فقالوا: هذه كُدِيّة عرضتُ في الخندق، فقال: «أنا نازل، ثمّ قام ويطنه معصوب بحجر، ولبّثنا ثلاثة أيّام لا ندوق ذوّاقاً، فأخذ النّبيّ - صلى الله عليه وسلم -! المِغُولَ فضرب فعاد (المضروب)

(1) في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق «ثمار» بدل تمر.

(2) الرّوض الأنف. ج 6 ص 315، 316.

(3) «كديّة»: أرض غليظة صلبة لا تعمل فيها الفأس. جمع كُدَى.

كثيلاً<sup>(1)</sup> أهيل أو أهيم<sup>(2)</sup>، فقلت: يا رسول الله! ائذن لي إلى البيت، فقلتُ لامرأتي: رأيتُ في النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيء؟ قالت عندي شعير وعناق<sup>(3)</sup>، فذبحت العناق، وطحنت الشعيرَ حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - والعَجِينُ قد انكسرَ والبرمة بين الأثافي<sup>(4)</sup> قد كادت أن تنضج، فقلتُ: طعيم لي فقم أنت يا رسول الله! ورجل أو رجلان، قال: «كم هو؟» فذكرتُ له، قال: «كثير طيب»، قال: «قُلْ لها: لا تنزعِ البرمة ولا الخبز من التنُّور<sup>(5)</sup> حتى آتي»، فقال: «قوموا، فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك! جاء النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلتُ: نعم، فقال: «ادخلوا ولا تضاعظوا<sup>(6)</sup>»، فجعل يكسر الخبزَ ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة<sup>(7)</sup>، والتنُّور إذا أخذ منه ويُقرَّب إلى أصحابه، ثم يُنزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية. قال: «كُلِّي هذا وأهدي فإنَّ الناس أصابتهم مجاعة». وقد كرَّر البخاري ذكر المعجزة الثانية مرة ثانية، عن جابر بن عبد الله نفسه بأسلوب آخر أوضح من الأسلوب الأوَّل مباشرة.

**المعجزة الثالثة:** قال محمد بن إسحاق: «وحدثني سعيد بن مينا أنه حدث: أن ابنة لبشير بن سعد، أخت النُّعمان بن بشير، قالت: دعنتي أمِّي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بُنيَّة! اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما. قالت: فأخذتها، فانطلقتُ بها، فمررتُ برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأنا ألتمس أبي وخالي؛ فقال: «تعالِي يا بُنيَّة! ما هذا معك؟» قالت: فقلت: يا رسول الله! هذا تمر، بعثتني به أمِّي إلى أبي: بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه؛ قال: هاتيه؛ قالت: فصبيته في كفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم دحا بالتمر عليه، فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق: أن هلم إلى الغداء،

(1) «كثيلاً»: رملًا سائلاً.

(2) «أهيل أو أهيم»: مُهالاً.

(3) «العناق»: الأنثى من أولاد المعيز.

(4) «الأثافي»: - جمع أثفية -: الحجر توضع عليه القدر عند الطبخ.

(5) «التنُّور»: الفرن. الموقد.

(6) «تضاعظوا»: تتضاعظوا، أي: تتزاحموا.

(7) أي: يُغطيها.

فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب» .

**المعجزة الرابعة :** وقال محمد بن إسحاق أيضاً : «وحدثت عن سلمان الفارسي ، أنه قال : ضربت في ناحية من الخندق ، فغلظت عليّ صخرة ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قريب مني ؛ فلما رأي أني أضرب ورأى شدة المكان عليّ ، نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، قال : ثم ضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، قال : قلت : فلمعت برقة أخرى ، قال : ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى . قال : قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟ قال : قلت : نعم ؛ قال : أمّا الأول فإنّ الله فتح عليّ بها اليمن ؛ وأمّا الثانية فإنّ الله فتح عليّ بها الشام والمغرب ؛ وأمّا الثالثة فإنّ الله فتح عليّ بها المشرق» .

... وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة : أنه كان يقول - حين افتتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعدهما - : افتتحوا ما بدا لكم ، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ، ما افتتحت من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة ؛ إلّا وقد أعطى الله سبحانه محمداً - صلى الله عليه وسلم !- مفاتيحها قبل ذلك <sup>(1)</sup> . وقد جاءت روايات كثيرة بهذه المعجزات الأربع وغيرها عن رواة ثقات ؛ فلتنظر في كتب السير .

### غزوة بني قريظة

كانت غزوة بني قريظة يوم الأربعاء لشهر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة النبوية ؛ بعد رجوع أحزاب المشركين عن المدينة إلى ديارهم ، وبعد رجوعه - عليه الصلاة والسلام !- بالمسلمين من الخندق إلى المدينة ؛ حيث وضعوا سلاحهم وسكنوا للراحة . والسبب في هذه الغزوة خيانة بني قريظة للمسلمين ونكثهم العهد المبرم عقده بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حين قدم المدينة مهاجراً بدينه الذي ارتضاه الله له ولمن آمن به وبرسوله . وقد تمّ تنفيذ هذه الغزوة بأمر من السماء . جاء في صحيح محمد بن إسماعيل البخاري : «... عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة - رضي الله تعالى عنها !- قالت : لما رجع النبي - صلى الله عليه وسلم !- من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل - عليه السلام !- فقال : قد وضعت

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأثف . ج 6 ص 266 ، 267 .

السَّلاح والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: فإلى أين؟ قال: ههنا وأشار إلى بني قريظة، فخرج النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - إلى إليهم<sup>(1)</sup>؛ بعد أن أمر منادياً ينادي في المسلمين: من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلِّينَ العصر إلّا في بني قريظة، وقدّم عليّ بن طالب إليهم برايته، وتلاحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسلمون، فنزلوا ببني قريظة بعد العشاء الأخيرة فصلّوا بها صلاة العصر، فما عابهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على تأخير صلاتهم. جاء في صحيح البخاريّ: «... عن نافع، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - يوم الأحزاب: لا يُصلِّينَ أحدُ العصر إلّا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نُصلِّي حتى نأتيها<sup>(2)</sup>، وقال بعضهم: بل نصلّي؛ لم يُرد منا ذلك<sup>(3)</sup>، فذكر ذلك للنَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - فلم يُعْتَفَ واحداً منهم». وحاصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بني قريظة خمسة وعشرين يوماً؛ جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب، فأرسلوا إلى رسول الله: أن ابعث إلينا أبا لبابة رفاعه بن عبد المُنذر الأنصاريّ لنستشيره فيما نحن عليه، فأرسله إليهم. فلما وصل إليهم أبو لبابة ورأوه، أجهشوا بالبكاء وقالوا: يا أبا لبابة! ماذا ترى لنا، وماذا تأمرنا أن نفعل؟ فإنّه لا طاقة لنا بالقتال، ولا ملجأ لنا نلجأ إليه ممّا يهدّدنا، وقالوا: نحن ننزل على حكم محمد، فرقّ لهم أبو لبابة وأشار بيده إلى حلقه وأمرّ عليه أصابعه؛ يُريهم بذلك: أنّما يراد بهم قتلهم ذبحاً. ثم ندّم أبو لبابة على فلتة لسانه، فقال: فما زالت قدماي<sup>(4)</sup> حتى عرفت أنّي خنتُ الله ورسوله وقلت: والله لا أقمتُ بمكان عصيتُ الله فيه. وانطلق على وجهه حتى ارتبط في المسجد<sup>(5)</sup>، وقال: والله لا أبرحه حتى يتوب الله عليّ. فتاب الله عليه، وأطلقه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -!..

(1) واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

(2) الضمير يعود على بني قريظة.

(3) أي: لم يرد منا رسول الله تأخير الصلاة إلى أن يخرج وقتها.

(4) أي: فما فارقت موقفي.

(5) أي: فربط يديه إلى جذع من جذوع المسجد، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ ممّا صنعت. قال عبد الملك بن هشام: «أقام مرتبطاً ست ليال تأتبه امرأته في وقت كلّ صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلّي، ثم يرتبط؛ حتى نزلت توبته في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوجُوا عَنْهُمْ حُنُوءًا مَلَأَ صَلِحًا وَآخَرُ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التوبة. الآية 102).

ثم تشاور القوم فيما بينهم ، فأجمعوا على أن يسلّموا أنفسهم وأن يرضوا بحكم الرسول - صلى الله عليه وسلم !- فيهم ، آمّلين أن يشفع لديه لهم حلفاءهم من الأوس ، فيطلقهم أسوة بما كان من شفاعَةِ الخزرج لبني قَيْنُقَاع ، فأطلق سراحهم . فبعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يعلنون نزولهم على حكمه . فقال الأوس : يا رسول الله ! إنهم موالينا ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : ألا ترضون - يا معشر الأوس !- أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فذاك سعد بن مُعَاذ . وكان سعد من سادة الأوس ، ذا سمعة طيبة فيهم لا تُردّ كلمته أمراً ونهياً . قال محمد بن إسحاق : « وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد جعل سعد بن مُعَاذ في خِيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها : رُقَيْدة ، في مسجده ، كانت تُداوي الجرحى <sup>(1)</sup> ، وتحتسب بنفسها على خُدْمة مَنْ كانت به ضَيعة من المسلمين ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد قال لقومه حين أصابه السَّهيم بالخنْدق : اجعلوه في خِيمة رُقَيْدة حتى أعوده من قريب . فلما حَكَّمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في بني قُرَيْظة ، أتاه قومه فحملوه على حمار . . . ثم أقبلوا معه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهم يقولون : يا أبا عَمْرٍو ! أحسن في مواليك ، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إنَّما وِلَاكَ ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثرُوا عليه قال : لقد أنى <sup>(2)</sup> لسعد أن لا تأخذه في الله لَوْمَةٌ لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل . فنعى لهم رجال بني قُرَيْظة ، قبل أن يصل إليهم سعد ، عن الكلمة التي سمعها منه . فلما انتهى سعد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- والمسلمون ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « قُومُوا إلى سيِّدِكُمْ » . فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنَّما أراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- الأنصار ، وأما الأنصار فيقولون : قد عمَّ بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا عَمْرٍو ! إنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد وِلَاكَ أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أنْ الحكم فيهم لما حكمتُ ، قالوا : نعم ، وعلى مَنْ هاهنا ؛ وفي الناحية التي فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو مُعْرَض عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إجلالاً له ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : نعم ، قال سعد : فإنِّي أحكم فيهم أنْ تُقْتَلَ الرِّجَال ، وتُقَسَم الأموال ، وتُسبى الذَّراري والنِّساء . . . قال

(1) ومن الجرحى سعد بن مُعَاذ الجريح في أكله بسبب رمية سهم من يد حَبَّان بن قَيْس ، وقد سبق الحديث عن ذلك في غزوة الخندق . وقد مات متأثراً بجراحه بمجرد انقضاء أمر بني قريظة ، رحمه الله ورضي عنه .

(2) « أنى » : حان وأن .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لسعد: «لقد حكمتَ فيهم بحكمِ الله من فوق سبعة أَرْقَعَةٍ»<sup>(1)</sup>.  
ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بالمدينة في دار بنت الحارث - امرأة من  
بني النَجَّار - ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم  
بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق؛ يُخْرِجُ بهم إليه أرسالاً، وفيهم عدو الله حِييَّ بن  
أخطب، وكعب بن أسد، رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة. والمكثّر لهم يقول كانوا بين  
الثمانمائة والتسعمائة. وقد قالوا لكعب بن أسد - وهم يذهبُ بهم إلى رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم! - أرسالاً: يا كعب! ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا  
ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول  
الله - صلى الله عليه وسلم! -<sup>(2)</sup>. وجميع قتلى بني قريظة رجال؛ ولم يُقتل من نسائهم إلا امرأة  
واحدة قد أقرت بآثها طرحت الرّحاً على خلاد بن سويد فقتلته. ولم يُسلم من بني قريظة سوى  
ثلاثة رجال: ثعلبة بن سَعِيّة، وأُسَيْد بن سَعِيّة، وأسد بن عُبيد. ثم أمر رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم! - بتقسيم أموال بني قريظة ونسائهم وذرائعهم، فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفارس سهمان  
ولفارسه سهم واحد، وللراجل مَن ليس له فارس سهم واحد، وكان عدد الخيل ستّة وثلاثين فرساً،  
وكان ذلك بعد أن أُخْرِجَ منه الخمس لله ولرسوله. وكان هذا الفَيءُ أوّلُ فَيءٍ اجتمع فيه السهمان  
والخمس. واصطفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من سبايا نساء بني قريظة لنفسه رِيحانة  
بنت عمرو بن خُثافة، فعرض عليها أن تكون له زوجة، فلم ترض أن تكون كذلك؛ بل قالت له:  
اتركني في ملكك فهو أخفّ عليّ وعليك<sup>(3)</sup>، وبقيت في ملكه حتى توفي عنها بعدما أسلمت  
وحسن إسلامها. وأنزل الله في بني قريظة: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ  
صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۖ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ  
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾<sup>(4)</sup>. وقد سبق لنا أن  
سردنا هاتين الآيتين مع ما قبلهما ممّا أنزله الله في غزوة الخندق الأنفة الذكر.

(1) «أربعة»: - جمع رقع - السّموات (السيرة النبوية بشرح الروض الأنف - ج 6 ص 288، 289، 290.

(2) المصدر السابق.

(3) لأنها كانت متمسكة بيهوديتها قبل إسلامها.

(4) سورة «الأحزاب». الآية 26، 27.

## استخراجُ العبرِ

**العبرة الأولى :** رضاء حُبَيِّ بن أخطب بقدر الله وقضائه المنقذ فيه ، ولم يندم على شدة عداوته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عند ضرب عنقه ! قال محمد بن إسحاق : «وَأَتَى بِحُبَيِّ بْنِ أَخْطَبٍ عَدُوَّ اللَّهِ - وَعَلَيْهِ حَلَّةٌ لَهُ فَقَّاحِيَّةٌ<sup>(1)</sup> ، قَدْ شَقَّهَا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَدْرُ أُمْلَةٍ لَثَلَا يَسْلُبُهَا - مَجْمُوعَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلِ . فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ مَا لَمْ تُنْفِسِي فِي عِدَاوَتِكَ ؛ وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلُ اللَّهَ يُخْذَلْ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِأَمْرِ اللَّهِ : كِتَابٌ وَقَدْرٌ وَمِلْحَمَةٌ ، كَتَبَهَا اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ثُمَّ جَلَسَ فَضَرَبَتْ عُنُقَهُ » .

فقال جبل بن جوال الثعلبي :

لَعَمْرُكَ مَا لَأَمْ أَبْنُ أَخْطَبَ نَفْسَهُ      وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلُ اللَّهَ يُخْذَلْ  
لَجَاهِدَ حَتَّى أَبْلُغَ النَّفْسَ عُذْرَهُ      وَقَلْقَلْ يَبْغِي الْعِزَّ كُلَّ مُقْلَقَلْ

**العبرة الثانية :** امرأة من نساء بني التّضير زوجة رجل من بني قريظة ، اسمها بُنَاتَة ، أَحَبَّتْ أَنْ تُقْتَلَ بِجُرْمِهَا وَأَنْ لَا تَبْقَى سَيِّئاً فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ! قال محمد بن إسحاق : « . . . عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ : لَمْ يُقْتَلْ مِنْ نِسَائِهِمْ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ . قَالَتْ : وَاللَّهِ إِنَّهَا لَعِنْدِي تَتَحَدَّثُ مَعِيَ وَتَضْحَكُ ظَهْراً وَبَطْناً ، وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- يَقْتُلُ رِجَالَهَا فِي السُّوقِ ، إِذْ هَتَفَ هَاتِفٌ بِاسْمِهَا : أَيْنَ فُلَانَةُ ؟ قَالَتْ : أَنَا وَاللَّهِ ، قَالَتْ : قُلْتُ لَهَا : وَيْلَكَ ! مَا لَكَ ؟ قَالَتْ : أَقْتُلُ ، قُلْتُ : وَلَمْ ؟ قَالَتْ : لَحْدَثُ أَحْدَثْتُهُ ، قَالَتْ (عَائِشَةُ) : فَاَنْطَلِقْ بِهَا ، فَضَرَبَتْ عُنُقَهَا . فَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ : فَوَاللَّهِ مَا أُنْسَى عَجَباً مِنْهَا : طِيبَ نَفْسِهَا ، وَكَثْرَةَ ضَحْكِهَا ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهَا تُقْتَلُ »<sup>(2)</sup> . قال عبد الملك بن هشام : «وهي التي طرحت الرّحاً على خلاد بن سُوَيْدٍ ، فقتلته » .

**العبرة الثالثة :** رجل من يهود بني قريظة فضّل أن يُقْتَلَ ويلتحق بقتلى إخوانه وأحبّائه ، ولم يقبل شفاعة مسلم تشفع له ، ردّاً لمعروف أسداه إليه في الجاهليّة ! قال محمد بن إسحاق : «وقد كان ثابت بن قيس بن شماس ، أتى الزّبير بن باطا القرظي ، وكان يُكْنَى أبا عبد الرحمن ،

(1) «فَقَّاحِيَّةٌ» : لونها كلون زهر الفقاح إذا انشقت أكمته .

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 6 ص 191 .



وكان الزبير - هذا - قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بُعث، أخذه فجزّ ناصيته، ثم خلى سبيله. فجاء ثابت وهو شيخ كبير، قال: يا أبا عبد الرحمن! هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم، ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: يا رسول الله! إنّه قد كانت للزبير عليّ منّة؛ وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: هو لك، فأثاء فقال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد وهب لي دمك، فهو لك، قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فأتى ثابت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! هب لي امرأته وولده. قال: هم لك، قال: فأثاء فقال: قد وهب لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أهلك وولدك، فهم لك، قال أهل بيت الحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: يا رسول الله! مالك، فقال: هو لك، فأثاء ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مالك، فهو لك، قال: أي ثابت! ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يترأى فيها عذارى الحيّ: كعب بن أسد؟ قال: قُتل، قال: فما فعل بسيد الحاضر والبادي: حيّ بن أخطب؟ قال: قُتل، قال: ما فعل بمقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا: عزّال ابن سمّوأل؟ قال: قُتل، قال: فما فعل بالمجلسين - يعني: بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة -؟ قال: ذهبوا قُتلوا. قال: فإني أسألك - يا ثابت! - بيدي عندك إلا ألحقنتي بالقوم؛ فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر فتلة دلو ناضح<sup>(1)</sup> حتى ألقى الأحبة. فقدّمه ثابت، فضربت عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله: «ألقى الأحبة»، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً مخلداً<sup>(2)</sup>.

**العبرة الرابعة:** قال محمد بن عمر الواقدي: «ونظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى سلمى بنت قيس، وكانت إحدى خالاته، وكانت قد صلّت القبليتين وبايعته، وكان رفاة بن سمّوأل له انقطاع إليها وإلى أخيه سليل بن قيس وأهل الدار، وكان حين حبس أرسل إليها: أن كلمي محمداً في تركي، فإن لي بكم حرمة، وأنت إحدى أمّهاته، فتكون لكم عندي

(1) «فتلة دلو»: مقدار ما يأخذ الرجل الدلو متى أخرجت من البئر، فيصبّها في الحوض. ومعنى يفتلها: يردها إلى موضعها. ومعنى ناضح: مملوء ماء.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 292، 293.

يداً إلى يوم القيامة . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !: مالك يا أمّ المنذر؟ قالت: يا رسول الله ! رفاعة بن سَمَوَّال كان يغشانا وله بنا حُرمة فَهَبْهُ لي . وقد رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يلوذ بها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !: نعم ، هولك . ثم قالت: يا رسول الله ! إنه سيصلي ويأكل لحم الجمل . فتبسّم النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم !-، ثم قال: إن يُصَلِّي فهو خير له ، وإن يثب على دينه فهو شرّ له . قالت: فأسلم ، فكان يقال له: مولى أمّ المنذر ، فشقّ ذلك عليه واجتنب الدّار ، حتى بلغ أمّ المنذر ذلك ، فأرسلت إليه: إني والله ما أنا لك بمولاة؛ ولكنني كلّمت رسول الله فوهبك لي . فحققت دَمَكِ وأنت على نسبك ، فكان بعدُ يغشاهَا وعاد إلى الدار»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الخامسة:** جاءت بها أخبار سعد بن معاذ - رضي الله عنه وأرضاه !- حيّاً وميتاً! قال محمّد بن عمر الواقدي: «لما حكم سعد بن معاذ في قريظة ، فرجع إلى خيمة كَعْبِيَّة بنت سعد الأسلمية ، وكان رماء حَيَّان بن العَرِقة . . . فقطع أكَحَكُهُ ، فكواه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بالنار ، وانتفخت يده فتركه فسال الدّم ، فحسمه<sup>(2)</sup> أخرى فانتفخت يده . فلمّا رأى ذلك قال: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ والأَرْضِينَ السَّبْعِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي النَّاسِ قَوْمٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُقَاتِلَ مِنْ قَوْمٍ كَذَبُوا رَسُولَكَ وأَخْرَجُوهُ مِنْ قَرِيشٍ وَإِنِّي أَظُنُّ أَنْ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَإِنْ كَانَ بَقِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَأَبْقِنِي أَقَاتِلَهُمْ فِيكَ ! وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ ، فافْجُرْ هَذَا الْكَلِمَ<sup>(3)</sup> واجعل موتي فيه ، فقد أقررت عيني من بني قريظة ، لعداوتهم لك ولنبيّك ولأولئك ! ففجره الله ، وإنّه لراقد بين ظَهْرَيَّ اللَّيْلِ وما يدري به . ودخل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- . يعوده ، فأتاه وهو يسوق في نفر من أصحابه ، فوجدوه قد سُجِّيَ بِمَلَاءَةِ بَيْضَاء ، وكان سعد رجلاً أبيض طويلاً - فجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عند رأسه وجعل رأسه في حَجْرِهِ ، ثم قال: اللَّهُمَّ إِنَّ سَعْدًا قَدْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ ، وَصَدَّقَ رَسُولَكَ ، وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ ، فَاقْبِضْ رُوحَهُ بخير ما تقبض فيه أرواح الخلق . ففتح سعد عينيه حين سمع النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم !- . فقال: السّلام عليك يا رسول الله ! أشهد أنّك قد بلّغت رسالتك . ووضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- رأس سعد من حَجْرِهِ ، ثمّ قام وانصرف ، ولم يمت بعدُ ورجع إلى منزله ، فمكث

(1) كتاب المغازي . ج 2 ص 514 .

(2) أي: كواه .

(3) أي: الجرح .

ساعة من نهار أو أكثر من ساعة ومات خلافة. ونزل جبريل عليه السلام! حين مات سعد - على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مُعْتَجِراً بعمامة من إستبرقٍ، فقال: يا محمد! مَنْ هذا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الذي مات فيكم؟ فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، واهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ! فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: عهدي بسعد بن معاذ وهو يموت! ثم خرج فزَعاً إلى خيمة كُعْبِيَّةٍ يجرُّ ثوبه مسرعاً، فوجد سعداً قد مات. وأقبلت رجال بني عبد الأشهل، فاحتملوه إلى منزله. فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في أثره، فينقطع نعل أحدهم فلم يُعْرَجْ عليها، ويسقط رداؤه فلم يَلَوْ عليه، وما يُعْرَجُ أحد على أحد حتى دخلوا على سعد. قال أبو عبد الله<sup>(1)</sup>: وقد سمعنا أن النبيَّ حضره حين تُوْفِّيَ وأخبرني معاذ بن محمد، عن عطاء بن أبي مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما انفجرت يد سعد بالدم قام إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فاعتنقه، والدم ينفع في وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ولحيته، لا يريد أحد أن يقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الدَّم إلاَّ ازداد منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قرباً، حتى قضى . . . عن أبي سفيان، عن سلمة بن خُرَيْش، قال: رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ونحن على الباب نريد أن ندخل على أثره، فدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وما في البيت أحد إلاَّ سعد مُتَسَجِّجٌ، قال: فرأيتَه يتخطى، فلما رأيتَه يتخطى وقفت، وأوماً إليَّ: قف! فوقفتُ، ورددتُ مَنْ ورائي، وجلس ساعة، ثم خرج، فقلتُ: يا رسول الله! ما رأيتُ أحداً وقد رأيتُك تتخطى! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ما قدرت على مجلس حتى قبض لي ملك من الملائكة أحد جناحيه، فجلست. ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يقول: هنيئاً لك أبا عمرو! عن سعد بن إبراهيم، عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: فانتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأم سعد تبكي وتقول:

وَيْلٌ لِّأُمِّ سَعْدٍ سَعْدًا      جَلَدَةً وَحَادًا

فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه! - مهلاً يا أمَّ سعد، لا تذكرى سعداً. فقال النبيّ - صلى الله عليه وسلم! -: دعها يا عمر! فكلَّ باكية مكثرة إلاَّ أمَّ سعد؛ ما قالت من خير فلم تكذب. . . وقالوا: ثمَّ أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فغسله الحارث بن أوس بن

(1) هو: محمد بن عمر الواقدي مؤلف كتاب المغازي.

معاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْرٍ، وسَلَمَة بن سَلَمَة بن وقش، يصبّ الماء، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حاضر، فغُسل بالماء الأولى، والثانية بالماء والسدر، والثالثة بالماء والكافور ثم كُفّن في ثلاثة أثواب صُحَارَى، وأدرج فيها إدراجاً، وأُتِيَ بسرير كان عند آل سَبْط، يحْمَل عليه الموتى، فَوُضِعَ على السرير، فَرُئِيَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يحمله بين عَمُودَي سريره، حين رُفِعَ من داره إلى أن خرج... عن عائشة قالت: رأيتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يمشي أمام جنازة سعد بن معاذ... عن رُبَيْع بن عبد الرحمن، بن أبي سعيد الخُدْرِيّ، عن أبيه عن جدّه، قال: كنّا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حين بلغه موت سعد بن مُعَاذ، فخرج بالناس، فلما برز إلى البقيع قال: خُذُوا في جهاز صاحبكم! قال أبو سعيد (الخُدْرِيّ): كنت أنا ممّن حفر له قبره، وكان يفوح. علينا المسك كلّما حفرنا قبره من تراب، حتى انتهينا إلى اللَّحْد قال رُبَيْع: ولقد أخبرني محمّد بن المُنْكَدَر، عن محمّد بن شرحبيل بن حسنة، قال: أخذ إنسان قبضةً من قبر سعد بن معاذ فذهب بها، ثمّ نظر إليها بعد ذلك فإذا هي مسك! ثم احتمل، فقليل: يا رسول الله! إن كنت لتقطعنا في ذهابك إلى سعد! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: خشينا أن تسبقنا الملائكة إليه؛ كما سبقتنا إلى غسل حَنْظَلَة. وقالوا: يا رسول الله! كان سعد رجلاً جسيماً فلم نر أخفّ منه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: رأيتُ الملائكة تحمله. قالوا: يا رسول الله! إنّ المنافقين يقولون: إنّما خفّ لأنّه حكم في بني قريظة. قال: كذبوا؛ ولكنّه خفّ لحمل الملائكة. فكان أبو سعيد الخُدْرِيّ يقول: طلع علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقد فرغنا من حفرته، ووضعنا اللَّبَن والماء عند القبر، وحفرنا له عند دار عقيل اليوم، وطلع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - علينا، فوضعه عند قبره ثم صلى عليه. فلقد رأيت من الناس ما ملأ البقيع... ولما انتهوا إلى قبره، نزل في قبره أربعة نَقَر: الحارث بن أوس بن مُعَاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْرٍ، وأبو نائلة، وسَلَمَة بن سَلَمَة، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - واقف على قدميه على قبره: فلما وُضِعَ في لحدّه تغيّر وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وسبّح ثلاثاً، فسبّح المسلمون ثلاثاً حتى ارتجّ البقيع. ثمّ كبر رسول - صلى الله عليه وسلم! - ثلاثاً، وكبر المسلمون ثلاثاً، حتى ارتجّ البقيع بتكبيرهم. فسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عن ذلك فقليل: يا رسول الله! رأينا لوجهك تغيّراً وسبّحت ثلاثاً: فقال: تضايّق على صاحبكم

قبره، وضُمَّ ضُمَّةً لو نجا منها أحد لنجا منها سعد، ثم فرّج الله عنه . . . وجاءت أم سعد - وهي كبشة بنت عبيد تنظر إلى سعد في اللحد، فردّها الناس، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «دعوها! فأقبلت حتى نظرت إليه، وهو في اللحد قبل أن يُبنى عليه اللَّبن والتراب، فقالت: «أحتسبك عند الله! وعزّاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على قبره، وجلس ناحية، وجعل المسلمون يردّون التراب ويسوّونه، وتنحّى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فجلس حتى سوّى على قبره ورُشَّ على قبره الماء، ثم أقبل فوقف عليه فدعا له، ثم انصرف»<sup>(1)</sup>. وكلّ من يُمعن النظر في خبر اهتزاز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ، يجده صحيحاً ثابتاً من طرق متواترة.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن ما نزل بيهود بني قريظة هو حكم قد قضى به الله في أزله، لا جدال فيه، ولا خوض في تأويل المتأولين والمفترضين فيما ليس لهم به علم؛ بل هو حكم منزل من لدن الله، وهو جلّي واضح في الآيتين: السادسة والسابعة من سورة «الأحزاب».

**الحكم الثاني:** أن قوله - عليه الصّلاة والسلام -: «لا يُصلّين أحدُ العصرِ إلّا في بني قريظة». يتضمّن هذا الحديث الشريف مفهومين اثنين: ظاهراً، وباطناً. فالظاهر يقتضي أن صلاة العصر لا تُصلّى إلّا بعد الوصول إلى بني قريظة. والباطن يقتضي الحث على الإسراع في السير والاستعجال إلى الوصول إلى ما هم قاصدون إليه. وفي هذا دليل على جواز الاختلاف من المجتهدين في فروع الأحكام الظنيّة الدّلالة. وهم في اجتهادهم فيها مصيبون، بدليل قول مَنْ لا ينطق عن الهوى - عليه الصلاة والسلام -: «من اجتهد وأصابَ فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد». فالأوّل له أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، والثاني له أجر الاجتهاد فقط. قال عبد الرحمن السّهيلي: «وفي حكم داود وسليمان في الحرث أصل لهذا الأصل أيضاً. فإنه قال سبحانه<sup>(2)</sup>: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سَلِيمًا وَكَلَّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمَّا﴾<sup>(3)</sup>.

(1) كتاب المغازي. ج 2 ص 525 - 529.

(2) الرّوض الأنف. ج 6 ص 326.

(3) سورة «الأنبياء». الآية 79.

## أهم حوادث هذه السنة من غير حوادث الجهاد

في شهر ربيع الأول من السنة الخامسة، توفيت والدته سعد بن عبادة، وهو غائب عنها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في غزوة دومة الجندل. جاء في صحيح الترمذي: «عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أن أم سعد بن عبادة ماتت والنبي - صلى الله عليه وسلم! - غائب، فلما قدم صلى عليها، وقد مضى لذلك شهر». وهذا الحديث مرسل جيد. وفي هذه السنة وادع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عيينة بن حصن الفزاري أن يرعى بـ «تغلمين»<sup>(1)</sup> وما والاها. وفي هذه السنة تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - زينب بنت جحش؛ بعدما فارقها مولاه زيد بن حارثة، وهي ابنة عمّة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكان يقال لزيد قبل زواجه بها: زيد بن محمد، فأنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول الله بالعتق وزوجه بابنة عمته زينب بنت جحش. والسبب في فراق زيد لها وزواج رسول الله بها أن الرسول خرج يوماً يريد زيداً وعلى باب خيمته ستر من شعر، فرفعه الريح، فأراها رسول الله حاسرة فأعجبته، وكرهها الله إلى زوجها زيد، فلم يستطع أن يقربها، فجاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم! - فأخبره بكرهها لها، فقال له رسول الله: أراك فيها شيء؟ قال: لا والله. فقال له رسول الله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾<sup>(2)</sup>. وقد شاء الله أن يفارق زيد زوجته زينب وتحل بمشيئة الله لرسول الله، فينزل الوحي في شأنها، فيقول رسول الله: مَنْ يُبَشِّرْ زَيْنَبَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ زَوَّجَهَا؟ وقرأ ما أنزله عليه فيها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۖ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾<sup>(3)</sup>. وكانت زينب تفخر على نساء رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وتقول لهن: زوّجكنّ أهلوكنّ وزوّجني الله من السماء. وفي هذه السنة نزلت آية الحجاب، وقد ثبت في الصحيحين. روى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري: «عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات

(1) «تغلمين» - تنبيه «تغلم» -: أرض متصلة بـ «تقيدة»: ماء لبني دهل بن ثعلبة.

(2) سورة «الأحزاب». الآية 37.

(3) سورة «الأحزاب». الآية 37، 38.

المؤمنين بالحجاب». فأنزل الله آية الحجاب، وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - زينب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه. وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة. ويحدثنا البخاري أيضاً: «عن أنس بن مالك - رضي الله عنه! - قال: لما تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي - صلى الله عليه وسلم! - ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي - صلى الله عليه وسلم! - أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبتُ أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى! -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۖ﴾ (١) . وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال: وافقتُ ربي - عز وجل! - في ثلاث: قلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (٢) . وقلت: يا رسول الله! إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب.

وقلت لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم! - لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ (٣)، فنزلت كذلك. وفي هذه السنة استأذنت قبيلة الخزرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي، الذي حزب الأحزاب على المسلمين، فأذن لهم رسول الله في ذلك، فقتلوه بخير شرقتله؛ كما قتلت قبيلة الأوس قبلهم كعب بن الأشرف. وهذا وذاك يُعد لدى الأوس والخزرج تنافساً بينهما في عمل الخير. قال محمد بن إسحاق: «وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن

(١) سورة «الأحزاب». الآية 53، 54.

(٢) سورة «البقرة». الآية 125.

(٣) سورة «التحریم». الآية 5.

عبدالله بن كعب بن مالك، قال : وكان ممّا صنع الله به لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن هذين الحَيَّين من الأنصار: الأوس، والخزرج، كانا يتصاولان مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- تصاول الفحلين، ولا تصنع الأوس شيئاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فيه غناء إلاّ وقالت الخزرج : والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وفي الإسلام، فلا ينتهون حتى يُوقعوا مثلها. وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك. ولمّا أصاب الأوس كَعْب بن الأشرف في عداوته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قالت الخزرج : والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً؛ فتذكروا: مَنْ رَجُلٌ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحقيق، وهو بخيبر؛ فاستأذنوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في قتله، فأذن لهم. فخرج من الخزرج من بني سَلَمَة خمسة نفر. . . »<sup>(1)</sup>، فقتله أحدهم؛ وهو عبدالله بن أنيس، واستراح المسلمون.

وفي هذه السنّة كان مقتل خالد بن سفيان الهذليّ على يد عبدالله بن أنيس بأمر من رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لأنّه كان بـ «عُرنة»<sup>(2)</sup> يجمع الناس لغزو النبيّ والمسلمين بالمدينة. قال محمّد بن عمر الواقديّ: «وكان قتله في المحرمّ على رأس أربعة وخمسين شهراً» من الهجرة النبويّة.

## السنّة السّادسة من الهجرة

### غزوة بني لحيان

بعد انتهاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من شأن بني قريظة واستئصال رجالهم، أقام بالمدينة ذا الحجة والمحرمّ وصفرًا وشهري ربيع الأوّل والثاني ثم بدا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن يخرج في جمادى الأولى غازياً لبني لحيان، عازماً على الثأر منهم بمن قتلوا من أصحابه غدرًا؛ حين بعث بهم مع رهط من عضل والقارة ليفقهوهم في الدين ويقرئوهم القرآن ويعلموهم شريعة الإسلام. وكان على رأس هؤلاء القتلى عاصم بن ثابت<sup>(3)</sup>. وخرج رسول الله لهذه الغزوة في مائتي رجل وعشرين فرساً، واستخلف على المدينة عبدالله بن أمّ مكتوم. وقد

(1) السيرة النبويّة بشرح الرّوض الأنف. ج 6 ص 359.

(2) «عُرنة»: موضع بحذاء عرفات؛ ومنه بطن عُرنة.

(3) وقد تقدم تفصيل ذلك في غزوة الرّجيع.



تظاهر عند خروجه أنه قاصد الشام حتى يصيب عدوه غرةً، وقد أغدَّ السير بأصحابه حتى نزلوا «غُران»<sup>(1)</sup>، وهي منازل بني لحيان؛ حيث غدروا بعاصم بن ثابت ومن معه، فوقف رسول الله هناك فترحم عليهم ودعا لهم. ولما سمع بنو لحيان بخروج رسول الله ليثأر منهم لمن قتلوا من أصحابه غدراً، هربوا إلى رؤوس الجبال وتركوا منازلهم خاوية. فأقام رسول الله هناك أربع عشرة ليلة، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة، وكان يوم رجوعه شديد القيظ مما جعله يقول: «آيُونَ! تائبُونَ! عابِدُونَ! لربِّنا حامِدُونَ! أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَعْثِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ». وصيغة هذا الدعاء جاء بها محمد بن إسحاق. وزاد عليها محمد بن عمر الواقدي بعد لفظة «حامدون»: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ! وَالْخَلِيفَةُ عَلَى الْأَهْلِ! اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثِ السَّفَرِ! وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ! وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ! اللَّهُمَّ بَلِّغْنَا بِلَاغاً صَالِحاً يُبَلِّغُ إِلَى خَيْرٍ! مَغْفِرَةً مِنْكَ وَرِضْوَاناً»<sup>(2)</sup>،

### غزوة ذي قرد<sup>(3)</sup>

عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوة بني لحيان إلى المدينة ولم يقيم بها سوى أيام معدودات، حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر القزاري بأربعين فارساً في خيل من غطفان، على لقاح<sup>(4)</sup> رسول الله بالغابة، وكان مع اللقاح رجل وامرأته، فقتلوا الرجل وأخذوا المرأة وساقوا اللقاح، وانصرفوا بما أخذوا وساقوا فارين، وقبل أن يصلوا إلى مقرهم ومأمنهم، خرج سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي متوشحاً قوسه ونبله، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله يقود فرساً له، وكانا قاصدين الغابة<sup>(5)</sup>، فأبصرا بالمغييرين، فلما أبصرا بهم اشتدَّ في أثرهم حتى لحقوا بهم، فجعلوا يرميهم بالنبل ويصيحان بالنجدة، فسمع أهل المدينة صياحهما. وما كان من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن يأمر الفرسان أن يلحقوا بالمغييرين وخرج هو برجال على الإبل وبآخرين راجلين، ليكونوا مدداً للفرسان، واستخلف على المدينة عبدالله بن أم مكتوم،

(1) «غُران»: موضع بين أمج وعُسفان.

(2) كتاب المغازي. ج 2 ص 537.

(3) وتسمَّى أيضاً: غزوة الغابة.

(4) اللقاح: جمع لقحة؛ وهو الإبل الحوامل ذوات الألبان.

(5) «الغابة»: موضع قرب المدينة ملتف الأشجار عن طريق الشام.

فأدركوا عدوهم بـ «ذِي قَرَد»<sup>(1)</sup>، فاستنقذوا من اللقاح عشراً، وأفلت العدو بعشر، وتملّصت المرأة من العدو على ناقة من اللقاح ونجت بها إلى المدينة. وقتل من المغيرين ثلاثة رجال ومن المسلمين رجل واحد؛ قتله فرس جامع، وعاد رسول الله بمن معه إلى المدينة. وقد وقع الاختيار على ما لحّصه أبو الحسن عليّ بن الأثير، بالنسبة إلى ما تضمّنه الحديث عن هذه الغزوة مبنىً ومعنىً، فقال: «ثم قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة فلم يُقَمَّ إلاّ أياماً قلائل حتى أغار عُيَيْنَةُ بن حصن الفزاريّ في خيل غطفان على لقاح النّبيّ، وأوّل مَنْ نذَر به سَلَمَةُ بن الأكوع الأسلميّ؛ هكذا ذكرها أبو جعفر بعد غزوة بني لحيان عن ابن إسحاق. والرواية الصحيحة عن سَلَمَةَ: أنّها كانت بعد مقدمه المدينة منصرفاً من الحُدَيْيَّة، وبين الوقعتين تفاوت. قال سَلَمَةُ بن الأكوع: أقبلنا مع النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة بعد صلح الحُدَيْيَّة، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بظهره<sup>(2)</sup> مع رِبَاح غلامه وخرجتُ معه بفرس طلحة بن عُبَيْد الله، فلَمَّا أصبحنا إذا عبد الرحمن بن عُيَيْنَةَ بن حصن الفزاريّ قد أغار على ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستاقه أجمع وقتل راعيّه، قلت: يا رباح! خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة وأخبر النّبيّ - صلى الله عليه وسلم -: أنّ المشركين قد أغاروا على سرحه، ثمّ استقبلتُ الأكمة<sup>(3)</sup> فناديت ثلاثة أصوات: يا صباحاه! ثمّ خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز وأقول:

خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكُوعِ      وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّاعِ

قال: فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم<sup>(4)</sup>، فإذا خرج إليّ فارس قعدتُ في أصل شجرة فرميته ففقرت به، وإذا دخلوا في مضايق الجبل رميتهم بالحجارة من فوقهم، فما زلت كذلك حتى ما تركتُ من ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعيراً إلاّ جعلته وراء ظهري، وخلّوا بيني وبينه وألقوا أكثر من ثلاثين رُمحاً وثلاثين بُرْدَةً يستخفّون بها، لا يلقون شيئاً إلاّ جعلتُ عليه أَمَارَةً<sup>(5)</sup>، أي: علامة، يعرفه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا انتهوا إلى

(1) «ذِي قَرَد»: ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خَبِير.

(2) «بظهره»: بإبله المعدة للركوب وحمل الأثقال.

(3) «الأكمة»: موضع من الأرض مرتفع، جمع أكم؛ وهو: التلّ.

(4) «أعقر بهم»: أصيبهم وأجرحهم.

(5) «أمارة»: علامة.

مُتَضَائِقٍ مِنْ ثَنِيَّةٍ<sup>(1)</sup> أَتَاهُمْ عَيْنِيَّةُ بْنُ حَصْنٍ بْنِ حُدَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ مُمَدًّا، فَقَعَدُوا يَتَضَحَّوْنَ، فَلَمَّا رَأَنِي قَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: لَقِينَا مِنْهُ الْبَرْحَ<sup>(2)</sup> وَقَدْ اسْتَنْقَذَ مَا بَأْيَدِينَا، فَمَا بَرَحْتُ مُكَانِي حَتَّى أَبْصَرْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ، أَوَّلَهُمُ الْأَخْرَمُ الْأَسَدِيُّ، وَاسْمُهُ مُحَرَّزُ بْنُ نُضْلَةَ مِنْ أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ، وَعَلَى أَثَرِهِ أَبُو قَتَادَةَ، وَعَلَى أَثَرِهِمَا الْمُقَدَّادُ بْنُ عَمْرٍو الْكَنْدِيُّ، فَأَخَذْتُ بَعْنَانَ الْأَخْرَمِ وَقُلْتُ: احْذَرِ الْقَوْمَ لَا يَقْتَطِعُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَأَصْحَابَهُ، فَقَالَ: يَا سَكَمَةُ! إِنْ كُنْتَ تَوَظَّنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ. قَالَ: فَحَلَّيْتُهُ، فَالتَقَى هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَيْنِيَّةَ، فَفَقَرَ الْأَخْرَمُ بَعْدَ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ، وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ، وَتَحَوَّلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى فَرَسِ الْأَخْرَمِ، وَلَحِقَ أَبُو قَتَادَةَ فَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بَعْدَ الرَّحْمَنِ فَطَعَنَهُ، فَانْطَلَقُوا هَارِبِينَ. قَالَ سَكَمَةُ: فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ لَأَتْبَعَنَّهُمْ أَعْدُو عَلَى رَجُلِيَّ حَتَّى مَا أَرَى مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ وَلَا غُبَارِهِمْ شَيْئًا. وَعَدَلُوا قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى غَارٍ فِيهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ: «ذُو قَرْدٍ» يَشْرَبُونَ مِنْهُ وَهُمْ عَطَاشٌ، فَظَنُّوا إِلَيَّ أَعْدُو فِي آثَارِهِمْ، فَحَلَّيْتُهُمْ<sup>(3)</sup>، فَمَا ذَاقُوا مِنْهُ قَطْرَةً، قَالَ: وَاشْتَدُّوا فِي «ثَنِيَّةِ ذِي أَبْهَرٍ»<sup>(4)</sup>، فَأَرَشَقُ بَعْضُهُمْ بِسَهْمٍ، فَيَقَعُ فِي نَفْضِ كَتِفِهِ<sup>(5)</sup>، فَقُلْتُ: «خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكُوعِ: وَالْيَوْمَ يَوْمُ الرُّضْعِ». وَإِذَا فَرَسَانِ عَلَى الثَّنِيَّةِ، فَجِئْتُ بِهِمَا أَقُودُهُمَا إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَلِحَقْنِي عَمِّي عَامِرُ بَسْطِيحَةٍ<sup>(6)</sup> فِيهَا مَذَقَةٌ<sup>(7)</sup> مِنْ لَبَنٍ وَسَطِيحَةٍ فِيهَا مَاءٌ، فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ وَشَرِبْتُ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي حَلَّيْتُهُمْ عَنْهُ بِ«ذِي قَرْدٍ»، وَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - قَدْ أَخَذَ تِلْكَ الْإِبِلَ الَّتِي اسْتَنْقَذْتَ مِنَ الْعَدُوِّ وَكُلَّ رَمَحٍ وَكُلَّ بُرْدَةٍ، وَإِذَا بِلَالٌ قَدْ نَحَرَ لَهُمْ نَاقَةً مِنَ الْإِبِلِ وَهُوَ يَشْوِي مِنْهَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنْتَ خَبَّ مَائَةِ رَجُلٍ فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرَفُ، فَضَحَكُ وَقَالَ: إِنَّهُمْ لَا يُقْرُونَ بِأَرْضِ غُظَفَانَ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ غُظَفَانَ فَقَالَ: نَحَرَ لَهُمْ فَلَانٌ جُزُورًا، فَلَمَّا كَشَطُوا عَنْهَا جُلْدَهَا رَأَوْا غُبَارًا فَقَالُوا:

(1) «ثَنِيَّة»: كُلُّ عَقْبَةٍ فِي جَبَلٍ.

(2) «الْبَرْح»: الْأَذَى وَالشَّدَّةُ وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ.

(3) «فَحَلَّيْتُهُمْ» - بِحَاءٍ مَهْمَلَةٍ -: طَرَدْتُهُمْ وَأَجَلَّيْتُهُمْ.

(4) «أَبْهَرُ»: اسْمُ جَبَلٍ.

(5) «نَفْضُ كَتِفِهِ»: غُضْرُوفُهُ. وَالْغُضْرُوفُ: كُلُّ عَظْمٍ لَيْنٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْجَسَدِ.

(6) «السَّطِيحَةُ»: الْمَزَادَةُ مِنَ الْجُلْدَيْنِ لَا غَيْرَ.

(7) «الْمَذَقَةُ»: كَمِيَّةٌ مِنَ اللَّبَنِ الْمَمْزُوجِ بِالْمَاءِ.

أُتِيتُمْ، فخرجوا هاربيين . فلماً أصبحنا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالنا سلمة بن الأكوع، ثم أعطاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: سَهْمَ الفارس وسَهْمَ الراجل، ثم أردفني وراءه على العضباء، فبينما نحن نسير، وكان رجل من الأنصار لا يسبقُ شداً، فقال: ألا من مسابق؟ مراراً، فقلتُ: يا رسول الله! بأبي أنت أئذّن لي فلاسابق الرّجل . قال: إن شئتَ . قال: فطفرتُ وربطتُ شرفاً أو شرفين فألحقه، فقلتُ: سبقْتُك والله! فسبقتُهُ إلى المدينة، فلم نمكث بها إلا ثلاثاً حتى خرجنا إلى خيبر . وفي هذه الغزوة نُودي: يا خيل الله اركبي، ولم يكن قبلها»<sup>(1)</sup> . وقد توسع محمد بن عمر الواقدي في حديثه عن هذه الغزوة؛ من حيث طرق رواياتها ورواتها بإسهاب في نصوصها؛ دون أن يرجح أية رواية عن أخرى<sup>(2)</sup> .

### استخراجُ عبرة وحُكم

قال محمد بن إسحاق: «... ثم رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قافلاً حتى قدم المدينة . وأقبلت امرأة الغفاري»<sup>(3)</sup> على ناقة من إبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى قدمت عليه فأخبرته الخبر، فلماً فرغتُ، قالت: يا رسول الله! إنّي قد نذرتُ لله أن أنحرها إن نجّاني الله عليها، فتبسّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ثم قال: بنس ما جزّيتها أن حملك الله عليها ونجّاك بها، ثم تنحرينها!! إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين؛ إنّما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلِكَ على بركة الله»<sup>(4)</sup> .

(1) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 188 ، 191 .

(2) انظر كتاب المغازي ج 2 ص 537 ، 549 .

(3) هو: أبو ذرّ الغفاري، وامرأته هذه اسمها لَيْلى . وهذا ما دلّ عليه قول محمد بن عمر الواقدي: «وكان أبو ذرّ قد استأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى لقاحه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إنّي أخاف عليك من هذه الضاحية أن تغير عليك، ونحن لا نأمن عُيَيْتَ بن حصن وذويه، وهي في طرف من أطرافهم، فالحّ عليه أبو ذرّ فقال: يا رسول الله! أئذّن لي . فلماً ألحّ عليه، قال رسول - صلى الله عليه وسلم! - لكأني بك قد قُتل ابنك، وأخذت امرأتك، وجئت تنوكاً على عصاك . فكان أبو ذرّ يقول: عجباً لي! إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يقول: «لكأني بك» . وأنا ألحّ عليه . فكان والله على ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم! -» (كتاب المغازي . ج 2 ص 538) . فمن هذا النصّ الصريح يتبيّن لنا أنّ المرأة المخطوفة هي زوجة أبي ذرّ الغفاري، وأنّ الراعي المقتول هو ابنه .

(4) السيرة النبوية بشرح الرّوض الأنف . ج 6 ص 396 .

وقال عبد الرحمن السهيلي: «فيه حجة للشافعي»، ومن قال بقوله: إن ما أحرزه العدو من مال إنّه لهم بلا ثمن قبل القسم وبعده، لأنّه لا يُخرجه من ملكه حوز العدو له. وقال مالك: هو أولى به قبل القسم، وصاحبه بعد القسم أولى به بالثمن. وفيه قولان آخران لأهل العراق . . . وقوله - عليه الصلاة والسلام -: «لا نذر لأحد فيما لا يملك، ولا طلاق لأحد فيما لا يملك، ولا عتق لأحد فيما لا يملك»، حديث مرويّ من طريق عبد الله بن عمرو، ومن طريق أبي هريرة؛ ولكنه لم يخرج في الصحيحين لعل في أسانيده، وقد قال بهذا الحديث - أن لا طلاق قبل الملك - جماعة من الصحابة وفقهاء التابعين وفقهاء الأمصار، وسواء عندهم عيّ امرأة، أو لم يُعَيّن، وإليه مال البخاري رحمه الله! ورواه ابن كنانة عن مالك، وابن وهب، واحتجّ ابن عباس في هذه المسألة بقوله - تعالى -: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾<sup>(1)</sup>. قال: فإذا لا طلاق إلا بعد نكاح. وقال شُرَيْد القاضي: «النكاح عقد والطلاق حلّ، فلا يكون الحلّ إلا بعد العقد»<sup>(2)</sup>. ولا التفات إلى من قال: إن كفارة النذر مثل كفارة اليمين، لأن النذر لمعصية لا ينعقد، وما لا ينعقد لا كفارة فيه، ولا يلزم الشرع صاحبه أن يُكفّر عليه.

### غزوة بني المصطلق<sup>(3)</sup>

بعد غزوة ذي قرد، عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة فأقام بها بعض شهر جمادى الآخرة وشهر رجب، وفي شهر شعبان خرج غازياً بني المصطلق والسبب في غزوه إياهم أنّه بلغه أنهم تجمّعوا لحربه؛ مع قائدهم الحارث بن أبي ضرار. والتقى الجمعان على ماء لبني المصطلق، من ناحية قُدَيْد<sup>(4)</sup> إلى الساحل يُقال له «المُرَيْسِيع»، فتزاحف كلّ منهما على الآخر، ونشبت معركة القتال بين المسلمين والمشركين، وكان النصر حليف المسلمين، فهزموا أعداءهم شر هزيمة، فقتلوا منهم من قتلوا من رجالهم، وسبّوا أبناءهم ونساءهم، واستولوا على أموالهم، وأصيب من المسلمين رجل واحد من بني ليث بن بكر اسمه هشام بن صُبابه؛ أصابه رجل من الأنصار بسهم خطأ فقتله. وقسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما غنمه في هذه

(1) سورة «الأحزاب». الآية 49.

(2) الروض الأنف. ج 6 ص 424.

(3) وتسمّى أيضاً «غزوة المريسيع».

(4) «قُدَيْد»: اسم لموضع قرب مكة.

الغزوة بين المسلمين ، وكانت في سبایا النساء جُویریة بنت الحارث بن أبي ضرار قائد بني المصطلق وسيدهم . وقد شاء الله أن تقع هذه السبيّة المباركة عند تقسيم الغنمة في سَهْمٍ ثابت بن أبي قیس ابن شماس ، فکاتبته عن نفسها ثم أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لتستعينه على کتابتها ، فقال لها : «هل لك في خير من ذلك؟» قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : «أقضي عنك کتابتك وأتزوجك» قالت : نعم ، يا رسول الله ! قال : «قد فعلت» .

وشاع في الناس خبرُ هذا الزواج الميمون ، فقالوا : أصهار رسول الله ! فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبي ، وكانوا أكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق ؛ حتى قالت عائشة أم المؤمنين : فلا أعلم امرأة أعظمَ بركةً على قومها منها ! وقد أراد المنافق عبدالله بن أبي بن سلول الخزرجي أن يوقع فتنة بين المهاجرين والأنصار لولا لطف الله بهم وحكمة رسوله في أمرهم . قال محمد بن إسحاق : «فبينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على ذلك ، وردت واردة الناس<sup>(1)</sup> ، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غفار ، يقال له جهجَاهُ بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجَاهُ وسنان بن وَبَر الجُهنيّ ، حليف بني عوف من الخزرج ، على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهنيّ : يا معشر الأنصار ! وصرخ جهجَاه : يا معشر المهاجرين ! فغضب عبدالله بن أبيّ بن سلول - وعنده رهط من قومه ، فيهم : زيد بن أرقم ، غلام حدث<sup>(2)</sup> - فقال : أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول : «سَمْنُ كلبك يأكلُك» ، أما والله ﴿لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ بَ الْآعْزُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾<sup>(3)</sup> . ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به<sup>(4)</sup> إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وذلك عند فراغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مرُبه عباد بن بشر فليقتله ؛ فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عليه

(1) «واردة الناس» : القوم يردون الماء .

(2) «حدث» : حديث السن .

(3) الآية الثامنة من سورة «المنافقين» قد أنزلها الله بلفظ من نطق بها .

(4) «به» : بقول عبدالله بن أبيّ بن سلول .

وسلم!- يرتحل فيها، فارتحل الناس. وقد مشى عبدالله بن أبيّ بن سلول إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ماسمع منه، فحلف بالله: ما قلتُ ما قال، ولا تكلمتُ به - وكان في قومه شريفاً عظيماً - فقال من حضر رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قاله الرجل حَدَباً على ابن أبيّ بن سلول، ودفعاً عنه. فلما استقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وسار، لقيه أسيد بن حُصير فحيّاه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: يا نبيّ الله! والله لقد رُحْتُ<sup>(1)</sup> في ساعة منكراً، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟! قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال عبدالله بن أبيّ، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة «ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ»، قال: فأنت يا رسول الله تُخرجه منها إن شئت، هو والله الدليل وأنت العزيز؛ ثم قال: يا رسول الله! ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظّمون له الحرزَ ليتوجّوه، فإنّه ليرى أنك قد استلبته ملكاً...»<sup>(2)</sup>. وأنزل الله سورة «المنافقون» في عبدالله بن أبيّ بن سلول ومن كان على أمره، تصديقاً لزيد بن أرقم، فلما أنزل الله ما أنزل في المنافقين، أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- بأذن زيد وقال: «هذا الذي أوفى الله بأذنه». تصديقاً لما سمعه من عبدالله بن أبيّ بن سلول، وبلغه كما سمعه مبنياً ومعنى. وكان شعار المسلمين في هذه الغزوة: «يا منصور! أمتُ أمتٍ» وبعد نصر الله المبين للمسلمين، انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- راجعاً إلى المدينة، وكانت معه في هذه الغزوة زوجته عائشة - رضي الله عنها!- وهي التي افترى عليها أهل الإفك وقالوا فيها ما قالوا إفكاً وافتراءً!!

### حديث الإفك عن عائشة

لقد تناقل هذا الحديث بأمانة النقل وصدق الرواية أمناءُ كتّاب السير والمغازي ورواة الأخبار والأحاديث روايةً ودرايةً، بصيغ متفاوتة في تركيب ألفاظ المعاني وأسلوب المباني، متحدة في صحة الرواية وصدق الراوي فيما رواه.

(1) «رُحْتُ»: رجعت.

(2) السيرة النبوية بشرح الرؤف. ج 6 ص 400 - 402.

وقد وقع اختيارنا على نقل ما رواه شيخ الحديثين وإمامهم: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، إذ بعدما سرد أسماء جماعة من الرواة قد واصل روايته بهم، قال: «وكلّهم حدّثني طائفة»<sup>(1)</sup> من حديثها (أي: حديث عائشة)، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت له اقتصاصاً<sup>(2)</sup>، وقد وعيتُ عن كل رجل منهم الحديث الذي حدّثني عن عائشة، وبعض حديثهم يُصدّق بعضاً؛ وإن كان بعضهم أوعى له من بعض. قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إذا أراد سفراً أقرّع بين أزواجه؛ فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - معه. قالت عائشة: فأقرّع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بعدما أنزل الحجاب، فكنتُ أحمل في هودجٍ وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين أذن<sup>(3)</sup> ليلة بالرحيل، فقامتُ حين آذنوا بالرحيل فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش. فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رَحلي فلمست صدري فإذا عقْد لي من جَزَع ظفّار<sup>(4)</sup> قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط<sup>(5)</sup> الذين كانوا يُرحّلوني، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أنّي فيه، وكان النساءُ إذ ذاك خفافاً لم يَهبلُنَّ<sup>(6)</sup> ولم يغشهن اللحم؛ إنّما يأكلن العُلقة<sup>(7)</sup> من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعدما استمرّ الجيش، فجئتُ منازلهم وليس بها منهم دأع ولا مُجيب، فتيَممتُ<sup>(8)</sup> منزلي الذي كنت به وظننتُ أنّهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني، فنامتُ، وكان صفوان بن المعطل السُّلمي ثمّ الدَّكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسانٍ نائمٍ، فعرفني حين رأني، وكان رأني قبل الحجاب، فاستيقظتُ

(1) «طائفة»: جملة.

(2) «اقتصاصاً»: تتبّع الخبر على وجه روايته.

(3) «أذن»: أعلم.

(4) «جزع ظفّار»: ضرب من العقيق متوازي الخطوط.

(5) «الرهط»: جماعة ما دون العشرة.

(6) «يَهبلُنَّ»: لم يكثر عليهن ويركب بعضه بعضاً، كناية عن السّمن واكتنازهنّ لحماً.

(7) «العُلقة»: القليل.

(8) «فتيممتُ»: قصدتُ.



باسترجاعه حين عرفني، فخمّرت<sup>(1)</sup> وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقامت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش، موغرين<sup>(2)</sup> في نحر الظهيرة، وهم نُزول. قالت: فهلك من هلك، وكان الذي هلك تولّى كُبر الإفك: عبدالله بن أبي بن سلول. قال عروة: أُخبرت أنه كان يُشاع ويُتحدّث به عنده، فيُقرّه ويستمعه ويستوشيه، وقال عروة أيضاً لم يُسمَّ من أهل الإفك أيضاً إلاّ حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثه، وحمّنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم؛ غير أنهم عصبه؛ كما قال الله تعالى<sup>(3)</sup>. وإنّ كُبر ذلك يقال: عبدالله بن أبي بن سلول. قال عروة: كانت عائشة تكره أن يُسبَّ عندها حسان، وتقول: إنّه الذي قال: «فإنّ أبي ووالده وعرضي: لعرض محمد منكم وقاء». قالت عائشة: فقدنا المدينة، فاشتكت<sup>(4)</sup> حين قدمت شهراً والناس يفيضون<sup>(5)</sup> في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك يرئيني في وجعي أنّي لا أعرف من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي؛ إنّما يدخل عليّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسلم ثم يقول: كيف تيكُم ثم ينصرف فذلك يرئيني، ولا أشعر بالشرّ حتى خرجت حين نقهت<sup>(6)</sup>، فخرجت مع أمّ مسطح قبل المناصع<sup>(7)</sup> وكان متبرّزنا<sup>(8)</sup>، وكنا لا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف<sup>(9)</sup> قريباً من بيوتنا. قالت: وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط<sup>(10)</sup>، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا. قالت: فانطلقت أنا وأمّ مسطح، وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثه بن عباس بن عبد

(1) «فخمّرت»: فغطّيت.

(2) «موغرين»: داخلين في شدة حرارة شمس الظهيرة.

(3) سورة «النور». الآية 11.

(4) «اشتكت»: مرضت.

(5) «يفيضون»: يخوضون.

(6) «نقهت»: برئت ولا يزال بي ضعف.

(7) «المناصع»: موضع خارج المدينة.

(8) «الكنف»: جمع كنيف - وهو: المرحاض.

(9) أي: مكان تغوطنا وتبرّزنا.

(10) «الغائط»: الموضع المنخفض الواسع من الأرض؛ وهو كناية عن محل قضاء الحاجة.

المطلَّب، فأقبلت أنا وأمَّ مسطح قبلَ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرتُ أمَّ مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلتُ لها: بش ما قلت، أتسبِّين رجلاً شهد بدرًا؟! قالت: أي هتاه ألم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك. قالت: فازددتُ مرضاً على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فسلم ثم قال: كيف تيكُم؟ فقلتُ له: أتأذن لي أن آتي أبي؟ قالت: وأريد أن أستيئن الخبر من قبلهما. قالت: فأذن لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقلتُ لأمي: يا أُمّتاهُ! ماذا يتحدث النَّاسُ؟! قالت: يا بُنَّةُ! هوَّني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قطُّ وضيئةً عند رجل يُحبُّها، لها ضرائر إلا كثرنَ عليها. قالت: فقلت: سبحان الله! أو لقد تحدّث النَّاس بهذا. قالت: فبكيت تلك اللَّيلة حتى أصبحتُ، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي. قالت: ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عليَّ بن أبي طالب - رضي الله عنه! - وأسامة بن زيد حين استلبتُ<sup>(1)</sup> الوحي، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأمّا عليّ فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدّقك. قالت: فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بريرة، فقال: أي بريرة! هل رأيت من شيء يريك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيتُ عليها أمراً قط أغمصه<sup>(2)</sup>؛ غير أنها جارية حديثة السنّ، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبيّ وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل<sup>(3)</sup> قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً<sup>(4)</sup> ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد ابن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله! أعذرُك؛ فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أمّ حسان بنت عمّه من فخذِه، وهو سعد بن عبادة وهو سيّد الخزرج. قالت: وكان قبل ذلك رجلاً

(1) «استلبت»: استبطأ.

(2) «أغمصه»: أعيبه.

(3) «من رجل»: هو عبد الله بن أبيّ بن سلول الخزرجي.

(4) «رجلاً»: هو صفوان بن المعطل السُّلمي.

صالحاً؛ ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبتَ لعمرُ الله لا تقتله ولا تقدر على قتله؛ ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لعمرُ الله لنقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحَيَّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائم على المنبر. قالت: فلم يزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا وسكت. قالت: فبكيتُ يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم؛ حتى إني لأظنُّ أن البكاء قالقٌ<sup>(1)</sup> كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنتُ عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي. قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علينا فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قِل ما قِل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين جلس، ثم قال: أما بعد: يا عائشة! إنَّه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقالته قلص دَمعي حتى ما أحسَّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أجب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! غني فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! فقلتُ لأمي أجيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! فيما قال، قالت أُمِّي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! فقلتُ: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً، إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتم به، فلئن قلتُ لكم: إني بريئة لا تُصدّقوني، ولئن اعترفتُ لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدّقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾<sup>(2)</sup>. ثم تحوّلتُ فاضطجعتُ على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأنَّ الله مُبرِّئي براءتي؛ ولكن والله ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله تعالى مُنزلٌ في شأني وخياً يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في أمري؛ ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! في النوم رؤيا يبرئني الله بها فوالله ما رام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم!

(1) «فالق»: شاق.

(2) سورة «يوسف». الآية 18.

مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء<sup>(1)</sup> حتى إنه ليتحدّر منه العرق مثل الجُمان ، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فسُرّي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : يا عائشة ! أما الله فقد برأك . قالت : فقالت لي أمي : قومي إليه ، فقلت : لا ، والله لا أقوم إليه ، فيأتي لا أحمد إلا الله عز وجل . قالت : وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾<sup>(2)</sup> .

العشر الآيات<sup>(3)</sup> . ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي . قال أبو بكر الصديق - وكان يُنفق على مسطح ابن أثالة لقربائه منه وفقره - : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً ؛ بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأُنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولَؤُلَافِ الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾<sup>(4)</sup> إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . قال أبو بكر الصديق : بلى والله إنّي لأُحبّ أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يُنفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . وقالت عائشة : وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب : ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله ! أحمي سمعي وبصري ؛ والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهي التي كانت تُساميني<sup>(5)</sup> من أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - فعصمها الله بالورع . قالت : وطَفَقْتُ<sup>(6)</sup> أُخْتُهَا حَمْنَةَ تُحَارِبَ لَهَا ، فهلكت فيمن هلك . قال ابن شهاب : فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرّهط ، ثم قال عروة<sup>(7)</sup> : قالت عائشة : والله إن الرجل<sup>(8)</sup> الذي قيل له ما قيل ليقول : سبحان الله فالذي نفسي بيده ما كشفتُ من كف أثني<sup>(9)</sup> قط . قالت : ثم قُتل بعد ذلك في سبيل الله<sup>(10)</sup> .

(1) «البرحاء» : الشدة .

(2) سورة «التور» . الآية 11 .

(3) بل أكثر من عشر آيات من سورة «التور» اقرأ الآية الحادية عشرة وما بعدها من سورة التور .

(4) الآية الثانية والعشرون من السورة السابقة .

(5) «تساميني» : تُضاهيني وتُفاخرني بجمالها .

(6) «وطفقت» : جعلت واستمرت بفعلها .

(7) هو عروة بن الزبير .

(8) «الرجل» : هو صفوان بن المعطل السلمي .

(9) كناية عن عفاقه وعصمة الله إياه من الزنا . وقال محمد بن إسحاق : «وكانت عائشة تقول : لقد سئل عن ابن

المعطل ، فوجدوه رجلاً حصوراً ، ما يأتي النساء ، ثم قُتل بعد ذلك شهيداً» .

(10) أي : قُتل شهيداً في خلافة معاوية بن أبي سفيان .

## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** الريح تشتدّ هبوباً وتعصف عصفاً ، لموت عظيم من عظماء الكفار ! وقد أخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- المسلمين بذلك ، بعد انتهائهم من غزوة بني المصطلق ، وهم في طريق رجوعهم إلى المدينة . قال محمد بن إسحاق : «ثمّ رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بالنّاس ، وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فَوَيْقُ النَّقِيعِ<sup>(1)</sup> ؛ يقال له : نَقْعَاء<sup>(2)</sup> . فلَمَّا راح رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- هَبَّت على النّاس ريح شديدة آذتهم وتخوّفوها ؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : لا تخافوها ؛ فإنّما هَبَّت لموت عظيم من عظماء الكفار . فلَمَّا قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زَيْد بن التّأبوت ، أحد بني قَيْنَقاع - وكان عظيماً من عظماء يهود ، وكهفاً للمنافقين - مات في ذلك اليوم»<sup>(3)</sup> .

**العبرة الثانية :** رَفِقُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بعدوّه الألدّ : عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول ؛ رغم عداوته له ونفاقه ، ورغم أن عمر بن الخطاب قد حثه على قتله أكثر من مرة ، وما كان من رسول الله إلا أن قال : «فكيف يا عمر إذا تحدّث النّاس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ !» ولعلّ هذا الرفق النبويّ هو الذي جعل قوم هذا العدوّ المنافق «إذا أحدث الحدث هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعتقونه ، حتى إنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال لعمر : «كيف ترى يا عمر ؟ !» أما والله لو قتلته يوم قلت لي : اقتله ، لأرعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ؛ قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أعظم بركة من أمري»<sup>(4)</sup> .

**العبرة الثالثة :** ولد عبدالله بن أُبَيّ بن سلول يطلب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن يأمره بقتل أبيه . قال محمد بن إسحاق : «حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة : أنّ عبدالله أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال : يا رسول الله ! إنّه بلغني أنّك تريد قتل عبدالله بن أُبَيّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً فَمُرْنِي به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بالده منّي ، وإنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أُبَيّ يمشي في النّاس ، فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر ،

(1) «النقيع» : واد من أودية الحجاز ، يدفع سيله إلى المدينة .

(2) «نقعاء» : موضع خلف بقيع المدينة ، من ديار مُزَيْنَة .

(3) السيرة النبوية بشرح الرّوض الأثف . ج 6 ص 402 .

(4) المصدر السابق ج 6 ص 403 ، 404 .

فأدخل الثَّار؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «بل نترقِّق به، ونُحسن صُحْبَتَهُ ما بقي معنا»<sup>(1)</sup>. فمن مضمون هذا النصِّ يُفهم أنَّ ولد عبد الله بن أبي يسمَّى أيضاً عبد الله كاسم أبيه، وأَنَّهُ مسلم.

**العبرة الرَّابِعة:** زواج جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث برسول الله كان السَّبب الأُوحد في إسلامها وإسلام أبيها وأخوتها وناس من قومها!! قال عبد الملك بن هشام: «ويقال: لما انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوة بني المصطلق ومعه جُوَيْرِيَةُ بنت الحارث، وكان بذات الجيش دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة، وأمره بالاحتفاظ بها، وقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته، فلمَّا كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء، فرغب في بَعرين منها، فغَيَّبَهُما في شعب من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - وقال: يا مُحَمَّد! أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فأين البعيران اللذان غَيَّبْتَهُما بالعقيق في شعب كذا وكذا؟ فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّك رسول الله، فوالله ما اطلع على ذلك إلاَّ الله، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، فدفع الإبل إلى النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - ودُفِعَتْ إليه ابنته جُوَيْرِيَةُ، فأسلمت وحسُن إسلامها، فخطبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أبيها، فزوَّجه إياها، وأصدقها أربعمئة درهم»<sup>(2)</sup>.

**العبرة الخامسة:** الكاذب عند الله فاسق، والفاسق لا يكون صادقاً في قوله، ومن صدَّقه فيه لا بد أن يندم على تصديقه إياه، وقد وصف الله الوليد بن عُقبة بالفسق حينما كذب! قال مُحَمَّد بن إسحاق: «وحدثني يزيد بن رومان: أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث إليهم (أي: إلى الذين أسلموا من بني المصطلق) بعد إسلامهم الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط، فلمَّا سمعوا به ركبوا إليه، فلمَّا سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم! فأخبره أنَّ القوم قد همَّوا بقتله، ومنعوه ما قبلهم<sup>(3)</sup> من صدقتهم (أي: زكاتهم)، فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم، حتى همَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يغزوهم، فبينا هم على ذلك قدم وفدهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: يا رسول الله!

(1) المصدر السابق. ج 6 ص 404.

(2) المصدر السابق. ج 6 ص 406، 407.

(3) «ما قبلهم»: ما عليهم أو يؤدونه وما في ذمتهم.

سمنا برسولك حين بعثته إلينا، فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدّي إليه ما قبلنا من الصدقة، فانשמ<sup>(1)</sup> راجعاً، فبلغنا أنه زعم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -! أننا خرجنا إليه لنقتله، والله ما جئنا لذلك، فأنزل الله - تعالى -! فيه وفيهم<sup>(2)</sup>: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِيمٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(3)</sup>.

**العبرة السادسة:** أن جهجاه<sup>(4)</sup> بن مسعود كسر بركبته عصا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعاقبه الله بـ «الأكلّة» أكلت ركبته فمات! قال عبد الرحمن السُّهيليّ: «ومات جهجاه هذا بعد قتل عثمان - رحمه الله -! أخذته الأكلّة في ركبته فمات منها، وكان قد كسر بركبته عصا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! التي كان يخطب بها؛ وذلك أنه انتزعها من عثمان حين أخرج من المسجد، ومُنِعَ من الصلّاة فيه، فكان هو أحد المعينين، عليه حتى كسر العصا على ركبته - فيما ذكروا - فابتلي بما ابتلي به من الأكلّة، نعوذ بالله من عقوبته، ونستجير من الأهواء المضلّة»<sup>(5)</sup>.

**العبرة السابعة:** اعتصام عائشة بالصبر الجميل، وتأسيها بقول النبيّ يعقوب - عليه السلام -! وحمدها لله وحده لا شريك له في حمدها إياه. جاء في صحيح الإمام البخاريّ: «... عن مسروق<sup>(6)</sup> بن الأجدع قال: حدثتني أمّ رومان - وهي أمّ عائشة رضي الله عنهما -! قالت: بينا أنا قاعدة؛ أنا وعائشة، إذ وكّجت<sup>(7)</sup> امرأة من الأنصار فقالت: فعَلَّ الله بفلان وفعل

(1) «فانشم»: فنهض وأسرع.

(2) المصدر السابق. ج 6 ص 407.

(3) سورة «الحجرات»، الآية 6، 7، 8.

(4) انظر ترجمته في كتاب «الإصابة».

(5) الروض الأثف. ج 6 ص 430.

(6) رواية مسروق عن أم رومان فيها استشكال، لأن مسروق لم يقدم من اليمن إلى المدينة إلا بعد موت أم رومان وبعد وفاة رسول الله. وقد فضّ هذا الاستشكال أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري»، بشرح صحيح البخاري. عند شرحه لهذا الحديث.

(7) «ولجت»: دخلت.

بفلان، فقالت أمُّ رومانَ: وما ذاك؟ قالت: ابني فيمن حدّث الحديث، قالت: وما ذاك؟ قالت: كذا وكذا، قالت عائشة: سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم!؟ قالت: نعم، قالت: وأبو بكر؟ قالت: نعم، فخرت مغشياً عليها، فما أفاقت إلّا وعليها حمى بنافض<sup>(1)</sup>، فطرحتُ عليها ثيابها فغطّيتها، فجاء النبي - صلى الله عليه وسلم! فقال: ما شأن هذه؟ فقلتُ: يا رسول الله! أخذتها الحمى بنافض، قال: لعلّ في حديث تُحدّث؟ قالت: نعم، فقعدت عائشة فقالت: والله لئن حلفتُ لا تصدّقوني، ولئن قلتُ: لا تعذروني؛ مثلي ومثلكم كيعقوب وبنيه، ووالله المستعان على ما تصفون». قالت: وانصرف ولم يقل شيئاً، فأنزل الله عذرها، قالت: بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك.

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** إباحة العزل، وقد أحبه المسلمون في غزواتهم خوفاً من الاستيلاء. جاء في صحيح البخاري: «... عن ابن مُحَرِّزٍ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَرَأَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْعَزْلِ؟ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبِيّاً مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَعْزَلَ وَقَلْنَا: نَعْزِلُ وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَبْلَ أَنْ نَسْأَلَ؟ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا؟ مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَانَتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ».

**الحكم الثاني:** إقامة حدّ القذف على من أفصح بالفاحشة، فضربوا حدّهم؛ وهم: مسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وحمّة بنت جحش، وهذا ما جاء في الصحيحين عن الزُّهري؛ كما رواه أبو داود في سننه. وحدّ القذف يختلف باختلاف القاذف والمقذوف. قال عبد الرحمن السُّهيلي: «وأما إقامة الحدّ عليهم، ففيه التسوية بين أفضل الناس؛ بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأدنى النَّاسِ درجةً في الإيمان، لا يُزاد القاذف على الثمانين جلدةً، وإن شتم خير النَّاسِ؛ بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ولا ينقص منها، فإن قذف قاذف اليوم إحدى أمهات المؤمنين سوى عائشة، فيتوجّه فيه للفقهاء قولان:

(1) «بنافض»: برعدة.



أحدهما : أن يُجلد ثمانين ؛ كما يقضيه عموم التنزيل ، وكما فعل النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم !- بالذين قذفوا أهله قبل نزول القرآن ببراءتها : (أي : براءة عائشة) ، وأمّا بعد نزول القرآن ببراءتها فيُقتل قاذفها قتلٌ كُفْرٌ ، ولا يُصلّى عليه ، ولا يورث ، لأنّه كذب الله تعالى .

**والقول الثاني :** في قاذف أمّهات المؤمنين غير عائشة - رضي الله عنهن !- أن يُقتل أيضاً ، وبه كان يأخذ شيخنا <sup>(1)</sup> - رحمه الله تعالى !- ويحتج بقوله - تعالى !- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ <sup>(2)</sup> . وإذا قذف أزواج النَّبِيِّ - عليه الصلاة والسلام !- فقد سبّه . فمن أعظم الإذابة أن يقال عن الرَّجُل قَرْنَان . وإذا سبَّ نبيّ بمثل هذا فهو كُفْرٌ صراحٌ . وقد قال المفسّرون في قوله تعالى : ﴿ فَخَاتَتَاهُمَا ﴾ <sup>(3)</sup> . أي : خاتنا في الطّاعة لهما ، والإيمان ، وما بغت امرأة نبيّ قطُّ ، أي : ما زنتُ » وبعد أن أُقيم الحدّ على حسان ، فإنّه قد تاب توبة نصوحاً ، فتاب الله عليه وبقي لسائه سيفاً صارماً على أعداء الله ورسوله ، وهذا ما جعل عائشة لا ترضى أن ينال منه أحد بحضرتها . جاء في صحيح الإمام البخاري : « . . . عن هشام ، عن أبيه قال : ذهبتُ أسبُ حسان عند عائشة ، فقالت : لا تسبه فإنّه كان يُنافح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وقالت عائشة : استأذن (حسان) النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم !- في هجاء المشركين ، قال (رسول الله) : كيف ينسبي ؟ قال : لأسئلُكَ منهم كما تُسلّ الشعرة من العجين . . . عن شعبة ، عن سليمان ، عن أبي الصّحّى ، عن مسروق قال : دخلنا على عائشة - رضي الله عنها !- وعندها حسان بن ثابت يُنشدها شعراً يُشَبِّبُ بأبياته له وقال :

حَصَانٌ <sup>(4)</sup> رَزَانٌ <sup>(5)</sup> مَا تُزَنُّ بِرِيَّةٍ وَتُصْبِحُ غَرثِي <sup>(6)</sup> مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ <sup>(7)</sup>

(1) هو أبو بكر محمد بن العربي الفقيه .

(2) سورة «الأحزاب» . الآية 57 .

(3) سورة «التحریم» . الآية 10 .

(4) «حصان» : ممتنعة من الرجال ، متحصّنة بعفافها .

(5) «رزان» : ثقيلة قليلة الحركة ملازمة خدرها .

(6) «غرثي» : خميسة البطن والخصر .

(7) «الغوافل» : أي : هنّ الغوافل قلوبهنّ عن الشرّ تجاه أزواجهن .

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : لَكَتِكَ لَسْتَ كَذَلِكَ ، قَالَ مَسْرُوقٌ : فَقُلْتُ لَهَا : لَمْ تَأْذَنِي لَهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكَ ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(1)</sup> . فَقَالَتْ : وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى ! قَالَتْ لَهُ : إِنَّهُ كَانَ يُنَافِحُ وَيُهَاجِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - .

**الحكم الثالث :** تحريم دعوة الجاهلية الأولى : وقد صرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم !- بذلك حين بلغه أن جهجاه بن مسعود وسنان بن بَرِّ الجُهَّاني قد اقتتلا على حوض ماء تزامحا عليه ، فنَادَى جهجاه : يا معشر المهاجرين ! ونَادَى سنان : يا معشر الأنصار ! فلمَّا بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك قال : دَعَوْهَا فَإِنَّهَا مُتَنَتَّةٌ - يعني : إِنَّهَا كلمة خبيثة ، لأنها من دعوى الجاهلية ، وجعل الله المؤمنين إخوة وحزباً واحداً ؛ فَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ : يا للمسلمين ! فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية ، فيتوجَّه للفقهاء فيها ثلاثة أقوال :

**أحدها :** أَنْ يُجْلَدَ مَنْ اسْتَجَابَ لَهَا بِالسَّلَاحِ خَمْسِينَ سَوْطاً اقْتِدَاءً بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِي جِلْدِ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ خَمْسِينَ سَوْطاً ، حِينَ سَمِعَ : « يَا لَعَامَرُ ! » فَأَقْبَلَ يَشْتَدُّ بِعُصْبَةٍ لَهُ .  
**والقول الثاني :** أَنْ فِيهَا الْجِلْدُ دُونَ الْعَشْرَةِ ، لَنَهْيِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُجْلَدَ أَحَدٌ فَوْقَ الْعَشْرَةِ إِلَّا فِي حَدٍّ .

**والقول الثالث :** اجتهاد الإمام في ذلك على حسب ما يراه من سدِّ الذريعة ، وإغلاق باب الشرِّ ، إمَّا بِالْوَعِيدِ ، وَإِمَّا بِالسَّجْنِ ، وَإِمَّا بِالْجِلْدِ .

**فإن قيل :** إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- لَمْ يَعَاقِبِ الرَّجُلَيْنِ حِينَ دَعَا بِهَا ، قُلْنَا : قَدْ قَالَ : دَعَوْهَا فَإِنَّهَا مُتَنَتَّةٌ ، فَقَدْ أَكَّدَ النَّبِيُّ ، فَمَنْ عَادَ إِلَيْهَا بَعْدَ هَذَا النَّهْيِ ، وَبَعْدَ وَصْفِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- لَهَا بِالْإِنْتَانِ ، وَجِبَ أَنْ يُؤَدَّبَ ، حَتَّى يَشُمَّ نَتْنُهَا ؛ كَمَا فَعَلَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ !- بِالْجَعْدِيِّ ، فَلَا مَعْنَى لِنَتْنِهَا إِلَّا سُوءُ الْعَاقِبَةِ فِيهَا وَالْعُقُوبَةُ عَلَيْهَا .

### أَمْرُ الْحُدَيْبِيَّةِ<sup>(2)</sup>

ثم عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة بنصر الله إياه في غزوة بني المصطلق ، فأقام هناك شهر رمضان وشوال ، وخرج في شهر ذي القعدة معتمراً ، لا يريد حرباً ، واستعمل على المدينة نُمَيْلَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيَّ . جاء في صحيح الإمام البخاري : « . . . عَنْ زَيْدِ

(1) سورة «النور» . الآية 11 .

(2) «الحديبية» - بتثقيب الياء وتخفيفها - : قرية متوسطة المساحة ، سُمِّيَتْ بِئْرُ هُنَاكَ عِنْدَ مَسْجِدِ شَجَرَةِ الْمُبَايَعَةِ .

ابن خالد - رضي الله عنه !- قال : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عام الحُدَيْبِيَّةِ ، فأصابنا مطر ذات ليلة ؛ فصلَّى لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- الصُّبْحَ ، ثم أقبل علينا فقال : أتدرون ماذا قال ربُّكم ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فقال : قال الله : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافري بي ؛ فأما من قال : مُطَرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وِبرِزَقَ اللَّهُ وبِفضْلِ اللَّهِ ، فهو مؤمن بي كافِر بالكَوْكَبِ ، وأما من قال : مُطَرْنَا بِنَجْمٍ كَذَا ، فهو مؤمن بالكوكب كافري بي . . . عن قتادة أن أنساً (ابن مالك) - رضي الله عنه ! أخبره ، قال : اعتمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أربع عُمَرٍ كُلَّهِنَّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ ؛ إِلَّا الَّتِي كَانَتْ مَعَ حَجَّتِهِ : عُمَرَةُ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ ، وَعُمَرَةُ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ ، وَعُمَرَةُ مِنَ الْجَعْرَانَةِ ؛ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُتَيْنٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ ، وَعُمَرَةُ مَعَ حَجَّتِهِ . وقال محمد بن إسحاق : «واستنفر (رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-) العربَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُخْرِجُوا مَعَهُ ، وَهُوَ يَخْشَى مِنَ قُرَيْشٍ الَّذِي صَنَعُوا أَنْ يُعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ<sup>(1)</sup> ، وَأَحْرَمَ بِالْعِمْرَةِ لِيَأْمِنَ النَّاسُ مِنْ حَرْبِهِ ، وَلِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ وَمُعَظَّمًا لَهُ . . . عن عروة بن الزُّبَيْرِ ، عَنْ مَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ ، وَمُرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ قَالَا : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ يَرِيدُ زِيَارَةَ الْبَيْتِ ، لَا يَرِيدُ قِتَالَاً ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ سَبْعِينَ بَدَنَةً ، وَكَانَ النَّاسُ سَبْعَ مِائَةِ رَجُلٍ ، فَكَانَتْ كُلُّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشْرَةِ نَفَرٍ . قَالَ الزُّهْرِيُّ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْضُنَا لِقَاءَ بَشَرٍ مِنْ سُفْيَانَ الْكَعْبِيِّ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَذِهِ قُرَيْشٌ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ ، فَخَرَجُوا مَعَهُمُ الْعُودُ<sup>(2)</sup> ، الْمَطَافِيلُ<sup>(3)</sup> ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ التَّمُورِ ، وَقَدْ نَزَلُوا بِذِي طُوًى ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ قَدْ قَدَّمَهَا إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ<sup>(4)</sup> ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- : يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ ! لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ ! مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا ، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافَرِينَ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا

(1) «الهدى» : كان سبعين بدنة معدة لمن خرج معه من الرجال ، فكل بدنة عن عشرة نفر .

(2) «العود» : جمع عائد ؛ وهي الناقة الحديثة النتاج من الإبل .

(3) «المطافيل» : الإبل المصحوبة بأولادها معها ؛ وهي ذوات الألبان تدر على من خرج بها .

(4) «كراع الغميم» : وادٍ على ثمانية أميال من عُسْفَانَ .

قاتلوا وبهم قوّة، فما تظنّ قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة<sup>(1)</sup>. ثمّ قال: مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل من بني أسلم: أنا يا رسول الله! فسلك بهم طريقاً وِعْراً أجزل<sup>(2)</sup> بين شعاب، فلمّا خرجوا منه، وقد شقّ ذلك على المسلمين، وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- للنّاس: قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه! فقالوا: ذلك، فقال: والله إنّها للْحِطَّةُ التي عُصِتْ على بني إسرائيل فلم يقولوها. قال ابن شهاب: فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- النّاس فقال: اسلكوا ذات اليمين بين ظَهْرَيِ الْحَمَضِ<sup>(3)</sup>، في طريق تخرجه على ثنية المُرار مهبط الحديدية من أسفل مكّة؛ فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قَتْرَةَ الجيش<sup>(4)</sup> قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- حتى إذا سلك في ثنية المُرار بركت ناقته، فقالت النّاس: خلأت<sup>(5)</sup> النّاقة. قال: ما خلأت وما هولها بخُلُقٍ؛ ولكن حبسها حابس الفيل عن مكّة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطّة يسألونني فيها صلّة الرحم إلّا أعطيتهم إيّاها. ثم قال للنّاس: انزلوا، قيل له: يا رسول الله! ما بالوادي ماء نزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب<sup>(6)</sup> من تلك القُلُب، فغرز في جوفه، فجاش<sup>(7)</sup> بالروء حتى ضرب النّاس عنه بَعَطَن<sup>(8)</sup>. . . . فلما اطمأنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أتاه بُدَيْل بن وُرْقَاء الخُزَاعِيّ، في رجال من خزاعة، فكلّموه وسألوه: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنّه لم يأت يريد حرباً؛ وإنّما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمة، ثم قال لهم نحواً ممّا قال لبشر بن سُفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش: إنكم تعجلون على محمّد؛ إنّ محمّداً لم يأت

(1) «السالفة»: صفحة العنق وأعلاه.

(2) «أجزل»: كثير الحجارة.

(3) «الحمض»: في معجم البلدان، هونبت فيه ملوحة ترعاه الإبل.

(4) «قترّة الجيش»: ما يثير زحفه من غبار أسود. والقترة: غبرة سوداء.

(5) «خلأت»: بركت ولم تنهض.

(6) «في قليب»: في بئر.

(7) «فجاش»: ارتفع بالماء الكثير.

(8) «بعطن»: بمبرك الإبل.

لقتال؛ وإِنَّمَا جاء زائراً هذا البيت، فَاتَّهَمُوهم وَجَبَّهَوْهم<sup>(1)</sup> وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عتوة أبداً، ولا تتحدّث بذلك عنّا العرب. قال الزُّهريّ: وكانت خزاعة عبيّة<sup>(2)</sup> تُصَحِّح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: مُسْلِمُها ومُشْرِكُها، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكّة. قال: ثمّ بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف، أخا بني عامر بن لؤي، فلمّا رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: مُقْبِلاً قال: هذا رجل غادر، فلمّا انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: نحواً ممّا قال لبُدَيْل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثمّ بعثوا إليه الحُلَيْس بن علقمة أو ابن زبّان، وكان يومئذ سيّد الأحابيش، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة؛ رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: إنّ هذا من قوم يتألّهون<sup>(3)</sup>، فابعثوا الهُدَيّ في وجهه حتى يراه، فلمّا رأى الهُدَيّ يسيل عليه من عُرْض الوادي<sup>(4)</sup> في قلائد<sup>(5)</sup>، وقد أعلّ أوبارَه من طول الحبس عن محلّه<sup>(6)</sup>، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس؛ فإنّما أنت أعرابي لا علم لك. فغضب الحُلَيْس عند ذلك وقال: يا معشر قريش! والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أَيْصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له! والذي نفس الحُلَيْس بيده لَتُخْلَنَ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا له: مه، كفّ عنّا يا حُلَيْس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به. قال الزُّهريّ في حديثه: ثمّ بعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: عُرْوَة بن مسعود الثقفيّ؛ فقال: يا معشر قريش! إنّني قد رأيتُ ما يلقي منكم من بعثموه إلى محمد إذ جاء من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأبني ولد. وكان عُرْوَة لسُبيعة بنت عبد شمس - وقد سمعتُ بالذي نابكم، فجمعتُ من أطاعني من قومي، ثمّ جئتكم حتى آسيتكم بنفسي، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

(1) «وجَبَّهَوْهم»: خاطبُوهم بما يكرهون.

(2) محل سرّه فيما عليه قريش.

(3) «يتألّهون»: يتعبّدون ويعظّمون الله.

(4) «عرض الوادي»: جانبه.

(5) «القلائد»: ما يعلق في عنق الهدي علامة على أنه هدي.

(6) «محلّه»: الموضع الذي ينحر فيه من الحرم.

وسلم! فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد! أجمعت أوشاب<sup>(1)</sup> الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك<sup>(2)</sup> لتقضيها بهم، إنها قريش؛ قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وأيم الله، لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. فقال أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن تنكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة، قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك؛ ولكن هذه بها. ثم جعل يتناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم! في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم! ويقول: اكف يدك عن وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! قبل أن لا تصل إليك، فيقول عروة: ويحك! ما أفطك وأغلظك، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، قال: أي غدر! وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس<sup>(3)</sup> فكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. فقام من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بضاعاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش! إنني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإنني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم. وحدثنني بعض أهل العلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له، يقال له: الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخللوا سبيله، حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! ثم دعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله! إنني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي

(1) «أوشاب»: أخلاط.

(2) «بيضتك»: قبيلتك وعشيرتك.

(3) قال عبد الملك بن هشام: أراد عروة بقوله هذا: أن المغيرة بن شعبة قتل - قبل إسلامه - ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر.

عليها؛ ولكنتي أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفّان. فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عثمان بن عفّان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يُخبرهم أنّه لم يأت لحرب وأنّه إنّما جاء زائراً لهذا البيت. فخرج عثمان إلى مكّة، فلقية أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكّة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ما أرسله به؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف؛ فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! والمسلمين أنّ عثمان بن عفّان قد قُتل.

### بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ

قال محمد بن إسحاق: «فحدثني عبدالله بن أبي بكر: أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! قال، حين بلغه أنّ عثمان قد قُتل: لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! الناس إلى البيعة، فكانت ببيعة الرِّضْوَانِ تحت الشجرة<sup>(1)</sup>، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! على الموت، وكان جابر بن عبدالله يقول: إنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! لم يبايعنا على الموت؛ ولكن بايعنا على أن لا نفرّ. فبايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! الناس، ولم يتخلّف عنه أحد من المسلمين حَضَرها؛ إلّا الجَدّ بن قيس، أخو بني سَكَمَة، فكان جابر بن عبدالله يقول: والله لكَأني أنظر إليه لاصقاً بباطن ناقته؛ قد ضَبّاً<sup>(2)</sup> إليها يستتر بها من الناس<sup>(3)</sup>. ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! أنّ الذي دُكر من أمر عثمان باطل».

### أَمْرُ الْهُدْنَةِ، أَوْ صَلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ

قال محمد بن إسحاق: «قال الزّهريّ: ثمّ بعثت قريش سهيل بن عمرو، أخا بني عامر بن لؤي، إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! وقالوا له: أنت محمدٌ فصالحه؛ ولا يكن في صلحه

(1) «الشجرة»: شجرة سَمُرَة أو سدر.

(2) ضَبّاً: لصق بها واستتر.

(3) قال عبد الملك بن هشام: إنّ أوّل من بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ببيعة الرضوان هو أبو سنان الأسديّ. (واسمه: وهب بن محصن).

إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو؛ فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مقبلاً، قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح. فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى؛ قال: أو لسا بالمسلمين؟ قال: بلى؛ قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى؛ قال فعلام نعطي الدنية<sup>(1)</sup> في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر! الزم غرز<sup>(2)</sup>، فإني أشهد أنه رسول الله؛ قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله؛ ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: يا رسول الله! أليست برسول الله؟ قال: بلى؛ قال: أو لسا بالمسلمين؟ قال: بلى؛ قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى؛ قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني! قال (الزُّهري): فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ! مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً. قال (الزُّهري): ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه! - فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا أعرف هذا؛ ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: اكتب باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو. فقال: سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك؛ ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشرين عاماً فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال<sup>(3)</sup> ولا إغلal<sup>(4)</sup>، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فتوالت خراعة. فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتوالت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنتك ترجع عنا

(1) «الدنية»: المذلة، والأمر الخسيس.

(2) «الغرز»: للرجل بمثابة الركاب للسرّج؛ وهو هنا كناية عن الالتزام بأمره عليه الصلاة والسلام.

(3) «الإسلال»: السرقة الخفية.

(4) «الإغلal»: الخيانة.



عامك هذا، فلا تدخل علينا مَكَّةَ، وأنتَ إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب: السيوف في القُرْب، لا تدخلها بغيرها. فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُف في الحديد، قد انفلتَ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم - خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمّل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون؛ فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتليبيه<sup>(1)</sup> ثم قال: يا محمد! قد لَجَّت<sup>(2)</sup> القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا؛ قال: صدقت، فجعل يَنْتَرُه<sup>(3)</sup> بتليبيه، ويجرّه ليردّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أُرِدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فزاد ذلك النَّاسَ إلى ما بهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطينا عهد الله، وإنَّا لا نغدر بهم. فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دمٌ أحدهم دمٌ كلب ويُدني قائم السِّيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السِّيف فيضربَ به أباه! فضنَّ<sup>(4)</sup> الرَّجُلُ بأبيه، ونفذت القضية. فلما فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الكتاب أشهد على الصِّلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين: أبو بكر، وعمر بن الخطَّاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مَسْلَمَة، ومكرز بن حفص؛ وهو يومئذ مشرك، وعليّ بن أبي طالب وكتب: وكان هو كاتب الصحيفة. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مضطرباً في الحلِّ، وكان يصلي في الحرم، فلما فرغ من الصِّلح قام إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، فلما رأى النَّاسَ أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد نحر وحلق توابثوا ينحرون ويحلقون... قال الزَّهري في حديثه: ثم أنصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وجهه ذلك قافلاً، حتى إذا

(1) «بتليبيه»: التلييب: مجمع الثياب عند الصدر والنحر. والأخذ بتليبيه: القبض على ثيابه وجره بها.

(2) «لَجَّت»: تَمَّت.

(3) «ينتَرُه»: يجذبه جذباً شديداً.

(4) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 452 - 468.

كان بين مكة والمدينة، نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَتُتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَهَدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا<sup>(1)</sup>. وقد ذكر الله في هذه السورة المباركة ما اشتملت عليه قصة الحديبية من عبرة لمن اعتبر بها، وحكم لمن احتكم إليه، وسنذكر ما تيسر لنا ذكره إن شاء الله، وذلك عند استخراج العبر والأحكام في شأن الحديبية. ومما يجدر الانتباه إليه أن جلّ الرواة - بما فيهم البخاري - يروون أن جيش المسلمين الذين خرجوا إلى الحديبية بلغ عددهم ألفاً وأربع مائة رجل، وهذا مخالف لرواية محمد بن إسحاق الذي حدّد عددهم بسبع مائة رجل.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن صلح الحديبية قد عاد على المسلمين بما يرضيه الله لهم في دينهم ودنياهم. قال محمد بن إسحاق - نقلاً عن الزهري -: «فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنّما كان القتال حيث التقى الناس؛ فلما كانت الهدنة، ووُضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر». قال عبد الملك بن هشام - معقّباً على قول الزهري -: «والدليل على قول الزهري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة، في قول جابر بن عبد الله: ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»<sup>(2)</sup>.

**العبرة الثانية:** أن المحلّقين أكثر أجراً من المقصّرين. قال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: حلق رجال يوم الحديبية، وقصّر آخرون. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: يرحم الله المحلّقين! قالوا: والمقصّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلّقين! قالوا: والمقصّرين يا رسول الله! فقالوا: يا رسول الله! فلم تظاهرت الترحيم للمحلّقين دون المقصّرين؟ قال: لم يشكّوا<sup>(3)</sup>.

(1) سورة «الفتح». الآية 1، 2.

(2) المصدر السابق. ج 6 ص 468.

(3) المصدر السابق. ج 6 ص 465.

**العبرة الثالثة :** برك ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في مبركها ، كان إلهاماً من الله لها ، ليقضي أمراً لم يكن لغيره في الحُسبان ، وقد أجاب رسول الله مَنْ قال : إنها «خلأت» ؛ فقال : «ما خلأت وما هو لها بخلق ؛ ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة» .

**العبرة الرابعة :** جاء في صحيح البخاريّ : « . . . عن سالم ، عن جابر - رضي الله عنه !- قال : عطش النَّاس يوم الحديبية ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بين يديه ركوة<sup>(1)</sup> ، فتوضّأ منها ، ثم أقبل النَّاس نحوه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : ما لكم ؟ قالوا : يا رسول الله ! ليس عندنا ماء نتوضّأ به ولا نشرب إلّا ما في ركوتك ، قال (جابر بن عبد الله) : فوضع النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون . قال (جابر بن عبد الله) : فشربنا وتوضّأنا ، فقلتُ لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : لو كنّا مائة ألف لكفانا ؛ كنّا خمس عشرة مائة» .

**العبرة الخامسة :** جاء في صحيح البخاريّ : « . . . عن البراء (ابن عازب) - رضي الله عنه !- قال : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً . ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ؛ كنّا مع النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- أربع عشرة مائة . والحديبية بئر ، فنزحناها لم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضّأ ثم مضمض ودعا ، ثم صبّه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنَّها أصدرتنا<sup>(2)</sup> ما شئنا : نحن وركابنا» .

**العبرة السادسة :** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- رأى في المنام - قبل خروجه بالمسلمين إلى الحديبية - كأنّ قائلاً يقول له : «لتدخلنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون» . ورأى كأنّه هو وأصحابه يدخلون مكة وقد حلّقوا وقصّروا . فأخبر أصحابه بما رأى في منامه ، ففرحوا واستبشروا ، فلمّا خرجوا إلى الحديبية حسّبوا أنهم سيدخلون مكة في خروجهم هذا وفي عامهم ذلك . فلمّا وقع الصلح ورجعوا إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ، قال المنافقون : أين رؤياه التي رأى ؟! فأنزل الله قوله : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلْنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا

(1) «ركوة» : دلو صغير من جلد .

(2) «أصدرتنا» : أروتنا ، أشبعتنا ماءً .

تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا<sup>(1)</sup> . وما هذا الفتح القريب إلا دخول المسلمين مكة في العام المقبل ؛ فصدق رسول الله في رؤياه ، وكذب المنافقون .

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** أن الذين بايعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- تحت شجرة سَمُرَةَ بصدق وإخلاص ، محكوم لهم برضى الله عنهم بما فعلوا ، وجزاؤهم أن تطمئن قلوبهم بفتحهم مكة عن قريب ، ويغنموا مغنم كثيرة في غزوة خيبر بعد صلح الحديبية غير بعيد . قال عز من قائل : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ ﴾<sup>(2)</sup> .

**الحكم الثاني :** ورد في الأحاديث النبوية : أن النار لا تمس من شهد بدرًا والحديبية . جاء في صحيح البخاري : « حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان . قال : قال عمرو : سمعت جابرًا ، قال : قال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يوم الحديبية : أنتم خير أهل الأرض . وكنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة » . وفي الصحيحين : « . . . عن أبي الزبير ، عن جابر قال : إن عبدًا لحاطب جاء يشكوه فقال : يا رسول الله ! ليدخلن حاطب النار . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : كذبت ، لا يدخلها ؛ شهد بدرًا والحديبية . برواية مسلم . وروى مسلم أيضاً من طرق ابن جريج : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول : أخبرتني أم ميسرة أنها سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يقول عند حفصة<sup>(3)</sup> : لا يدخل أحد النار - إن شاء الله !- من أصحاب الشجرة ، الذين بايعوا تحتها ، فقالت حفصة : بلى ، يا رسول الله ! فانتهرها ، فقالت حفصة : « وإن منكم إلا وأردُّها »<sup>(4)</sup> ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ۝ ﴾<sup>(5)</sup> .

**الحكم الثالث :** جاء في صحيح البخاري : « . . . عن مجاهد قال : حدثني عبد الرحمن بن أبي ليلي ، عن كعب بن عجرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- رآه وقمَّله

(1) سورة «الفتح» . الآية 27 .

(2) سورة «الفتح» . الآية 17 ، 18 .

(3) «حفصة» : زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(4) سورة «مريم» . الآية 71 .

(5) سورة «مريم» . الآية 72 .

يسقط على وجهه، فقال: أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟ قال: نعم، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أن يحلق وهو بالحدبية، ولم يُبين لهم أنهم يحلقون بها، وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل<sup>(1)</sup> الله الفدية، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أن يُطعم فرقاً بين ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام».

**الحكم الرابع:** جواز الصلاة على من يؤتون زكاتهم. جاء في صحيح البخاري: «... عن عمرو بن مرة قال: سمعتُ عبد الله بن أبي أوفى - وكان من أصحاب الشجرة - قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم!- إذا أتاه قوم بصدقة<sup>(2)</sup> قال: اللهم صلّ عليهم! فأتاه أبي بصدقته، فقال: اللهم صلّ على آل أبي أوفى».

**الحكم الخامس:** الأمر بعمل يغيب الكفار محبوب عند الله. قال محمد بن إسحاق: «وقال عبد الله بن أبي نجيح: حدثني مجاهد، عن ابن عباس: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أهدى عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل، وفي رأسه بُرة<sup>(3)</sup> من فضة، يغيب بذلك المشركين»<sup>(4)</sup>.

**الحكم السادس:** قال عبد الرحمن السهيلي: «وقوله (أي: محمد رسول الله). في حديث المغيرة: «أما المالُ فلستَ منه في شيء»<sup>(5)</sup> فيه من الفقه أن أموال المشركين حرام إذا أمنوك وأمنتهم؛ وإنما تحل بالمحاربة والمغالبة؛ لا عند طمأنينتهم إليك وأمنتهم منك، فإن ذلك هو الغدر»<sup>(6)</sup>.

**الحكم السابع:** إباحة مشاورة النساء في غير أمر الولاية خاصة. جاء في غير رواية محمد بن إسحاق؛ عن الواقدي وغيره: «أن رسول الله - عليه الصلاة والسلام!- دخل على زوجته أم سلمة مغضباً شديداً الغضب، فشكا إليها ما لقي من الناس حين أمرهم ثلاث مرّات أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا هديهم، فلم يفعلوا ولم يجيبوا إلى ما دُعوا إليه، فقالت له أم سلمة:

---

(1) في قوله: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِمْ أَذًى مِنْ رَأْسِهِمْ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ» (سورة البقرة). الآية (196).

(2) أي: بركة.

(3) «برة»: مثل وبرة البعير.

(4) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 465 - 482.

(5) جاءت في الصحيحين: «صحب المغيرة قوماً في الجاهلية قتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم!- «أما الإسلام».

(6) المصدر السابق.

يا رسول الله ! انطلق أنت إلى هَدْيِكَ فانحره وأحلق دون أن تكلم أحداً منهم ، فإنهم إذا رأوك قد فعلت ما أمرتهم به لم يخالفوك ؛ بل يقتدون بك . قالت : فاضطبع<sup>(1)</sup> رسول الله بثوبه ، ثم خرج وأخذ الحربةَ بينهم<sup>(2)</sup> هَدْيُهُ ، قالت : فكأنني أنظر إليه حين يهوي بالحربة إلى البدنة رافعاً صوته : بسم الله والله أكبر ! فما هذا إلا أن رأوه نحر ، فتواثبوا إلى الهدي ، فازدحموا عليه حتى خشيت أن يغمر بعضهم بعضاً . وكان الذي حلق رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - خراش بن أمية في ذلك اليوم<sup>(3)</sup> . وقد التمس عبد الرحمن السُّهيلي العذر لأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - حين لم يبادروا إلى ما أمرهم به ، فقال : «ففي تركهم للبدار دليل على أن الأمر ليس على الفور؛ كما ذهب إليه بعض الأصوليين ، وفيه أنهم حملوا الأمر على غير الوجوب لقربة ، وهي أنهم رأوه لم يحلق ولم ينحر ، ولم يقصر ، فلما رأوه قد فعل اعتقدوا وجوب الأمر وامتلوه . وفيه أيضاً إباحة مشاورة النساء ، وذلك أن النهي عن مشاورتهن<sup>(4)</sup> إنما هو عندهم في أمر الولاية<sup>(5)</sup> خاصة . كذلك قال أبو جعفر النحاس في شرح هذا الحديث .»

**الحكم الثامن :** أن الإسلام يحرم الغدر ولا ينقض عقداً مبرماً قبل أن يوقى أجله . قال محمد بن عمر الواقدي : «ولما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - المدينة من الحديبية ، أتاه أبو بصير - وهو عتبة بن أسيد بن جارية حليف بني زهرة - مسلماً ، قد انفلت من قومه فسار على قدميه سعيًا ، فكتب الأخنس بن شريق ، وأزهر بن عبد مناف الزُّهري إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - كتاباً ، وبعثا رجلاً من بني عامر بن لؤي ، استأجراه ب بكر بن كبون ، وهو خنيس بن جابر ، وخرج مع العامري مولى له يقال له : كوتر ، وحمل خنيس بن جابر على بعير ، وكتباً يذكران الصلح بينهم ، وأن يرد إليهم أبا بصير . فلما قدما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - قدما بعد أبي بصير بثلاثة أيام ، فقال خنيس : يا محمد ! هذا كتاب ! فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - أبي بن كعب ، فقرأ عليه الكتاب ، فإذا فيه : قد عرفت ما شارطناك عليه ،

(1) «اضطبع» : أخذ ثوبه فجعله تحت إبطه الأيمن .

(2) «ينهم» : يزجر .

(3) انظر كتاب المغازي للواقدي . ج 2 ص 613 . والروض الأنف للسُّهيلي . ج 6 ص 492 .

(4) روى الحاكم ، والطبراني ، والإمام أحمد ، عن أبي بكرة : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - قال : «هلكت الرجال حين أطاعت النساء» .

(5) عملاً بما رواه البخاري ، والترمذي ، والنسائي ، والإمام أحمد ، عن أبي بكرة : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - قال : «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» .

وأشهدنا بيننا وبينك : من ردَّ من قدم عليك من أصحابنا ، فابعث إلينا بصاحبنا . فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما ، فقال أبو بصير : يا رسول الله ! تردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يا أبا بصير ! إننا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً . فدفعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلى العامري وصاحبه ، فخرج معهما ، وجعل المسلمون يُسرّون إلى أبي بصير : يا أبا بصير ! أبشر ! فإن الله جاعل لك مخرجاً ، والرجل يكون خيراً من ألف رجل ، فافعل وافعل ! يأمرونه باللذين معه . فخرجوا حتى كانوا بـ «ذي الحليفة»<sup>(1)</sup> . انتهوا إليها عند صلاة الظهر - فدخل أبو بصير مسجد ذي الحليفة فصلّى ركعتين صلاة المسافر ، ومعه زاد يحمله من تمر ، فمال إلى أصل جدار المسجد فوضع زاده فجعل يتغذى ، قال لصاحبيه : ادثوا فكلوا ؛ فقالا : لا حاجة لنا في طعام . فقال : ولكن لو دعوتوني إلى طعامكم لأجبتكم وأكلتُ معكم . فاستحيا فدنوا ووضعوا أيديهما في التمر معه ، وقدّما سُفرة لهما فيها كسر ، فأكلوا جميعاً ، وأنسهما ، وعلّق العامري بسيفه على حجر في الجدار ، فقال أبو بصير للعامري : يا أخا بني عامر ! ما اسمك ؟ فقال : خُنيس ، قال : ابن من ؟ قال : ابن جابر . فقال : يا بن جابر ! أصارم سيفك هذا ؟ قال : نعم ، قال : ناولنيه أنظرُ إليه إن شئت ، فناوله العامري - وكان أقرب إلى السيف من أبي بصير بقائم السيف<sup>(2)</sup> ، والعامري ممسك بالجلفن<sup>(3)</sup> ، فعلا به حتى برّد ، وخرج كوثراً هارباً يعدون نحو المدينة ، وخرج أبو بصير في أثره ، فأعجزه حتى سبقه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يقول أبو بصير : والله لو أدركته لأسلكته طريق صاحبه ! فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- جالس في أصحابه بعد العصر إذ طلع المولى يعدو ، فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : هذا رجل قد رأى دُعراً ! فأقبل حتى وقف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : ويحك ! مالك ؟ قال : قتل صاحبكم صاحبي ، وأفلتُ منه ولم أكُذ ! وكان الذي حبس أبا بصير احتمالُ سلبهما على بعيرهما ، فلم يبرح المولى كوثر مكانه قائماً حتى طلع أبو بصير ، فأناخ البعير بباب المسجد فدخل متوشحاً بالسيف - سيف العامري - فوقف على رسول

(1) «ذي الحليفة» : قرية تبعد عن المدينة بستة أميال ؛ وهي ميقات أهل المدينة .

(2) «قائم السيف» : مقبضه .

(3) «الجلفن» : غمد السيف .

الله - صلى الله عليه وسلم! فقال لرسول الله: وَفَتْ ذِمَّتُكَ وَأَدَّى الله عنك، وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعتُ بدينني من أن أُفْتَنَ، وَتَبَغَّيْتُ بِي<sup>(1)</sup> أَنْ أُكْذَّبَ بِالْحَقِّ. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: وَيْلُ أُمِّهِ! مَحْشُ حَرْبٍ<sup>(2)</sup> لو كان معه رجال! وجاء أبو بصير بسَلْبِ العامريِّ خُنَيْس بن جابر وَرَحْلُهُ وسيفه، فقال: خَمْسَهُ يا رسول الله! فقال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: إِنِّي إِذَا خَمَسْتَهُ رَأَوْنِي لَمْ أُوفِ لَهُمْ بِالَّذِي عَاهَدْتَهُمْ عَلَيْهِ؛ وَلَكِنْ شَأْنُكَ بِسَلْبِ صَاحِبِكَ! وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: لِكُوْثَرٍ: تَرْجِعْ بِهِ إِلَى أَصْحَابِكَ. فقال: يَا مُحَمَّد! قَدْ أَهْمَنِي نَفْسِي، مَالِي بِهِ قُوَّةٌ وَلَا يَدَانِ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: لِأَبِي بَصِيرٍ: اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ! فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ حَتَّى أَتَى الْعَيْصَ<sup>(3)</sup>، فنزل منه ناحيةً على ساحل البحر على طريق عير قريش إلى الشام. قال أبو بصير: فَخَرَجْتُ وَمَا مَعِيَ مِنَ الزَّادِ إِلَّا كَفٌّ مِنْ تَمْرٍ، فَأَكَلْتُهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَكَنتُ أَتِي السَّاحِلَ فَأَصِيبُ حَيْثَانًا قَدْ أَلْقَاهَا الْبَحْرُ فَأَكُلُهَا. وبلغ المسلمين الذين قد حُسُوا بِمَكَّةَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَلْحَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم! -: . . . ففعلوا يَتَسَلَّلُونَ رَجُلًا رَجُلًا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى أَبِي بَصِيرٍ، فَاجْتَمَعُوا عِنْدَهُ قَرِيبًا مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا، فَكَانُوا قَدْ ضَيَّقُوا عَلَى قَرِيشَ، لَا يَظْفَرُونَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَتَلُوهُ، وَلَا تَمْرَ عَيْرٍ إِلَّا اقْتَطَعُوها، لَقَدْ مَرَّ رَكْبٌ يَرِيدُونَ الشَّامَ مَعَهُمْ ثَلَاثُونَ بَعِيرًا، وَكَانَ هَذَا آخِرَ مَا اقْتَطَعُوا، لَقَدْ أَصَابَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا قِيَمَتُهُ ثَلَاثُونَ دِينَارًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ابْعَثُوا بِالْخُمْسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: لَا يَقْبَلُهُ رَسُولُ اللَّهِ؛ قَدْ جِئْتُ بِسَلْبِ الْعَامِرِيِّ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ، وَقَالَ: «إِنِّي إِذَا فَعَلْتُ هَذَا لَمْ أَفِ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ». وَكَانُوا قَدْ أَمَرُوا عَلَيْهِمْ أَبَا بَصِيرٍ، فَكَانَ يَصَلِّي بِهِمْ وَيُفَرِّضُهُمْ<sup>(4)</sup> وَيَجْمَعُهُمْ<sup>(5)</sup>، وَهُمْ سَامِعُونَ لَهُ مَطِيعُونَ. فَلَمَّا بَلَغَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَتْلُ أَبِي بَصِيرٍ الْعَامِرِيِّ، اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ: مَا صَاحِلُنَا مُحَمَّدًا عَلَى هَذَا! فَقَالَتْ قَرِيشُ: قَدْ بَرِئَ مُحَمَّدٌ مِنْهُ، قَدْ أَمَكْنَ صَاحِبُكُمْ، فَقَتَلَهُ بِالطَّرِيقِ، فَمَا عَلَى مُحَمَّدٍ فِي هَذَا؟ فَقَالَ سُهَيْلُ: قَدْ وَاللَّهِ عَرَفْتُ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَوْفَى، وَمَا أَتَيْنَا

(1) «تَبَغَّيْتُ»: طَلَبْتُ.

(2) «مَحْشُ حَرْبٍ»: الْأَصْلُ فِي الْمَحْشِ حَدِيدَةٌ تَحْرُكُ بِهَا النَّارَ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ هُنَا: الرَّجُلُ الشَّجَاعُ الَّذِي يُوَقِدُ نَارَ الْحَرْبِ. وَفِي رِوَايَةٍ: «مُسْعَرُ حَرْبٍ»؛ بَدَلُ «مَحْشِ حَرْبٍ».

(3) «الْعَيْصُ»: مَوْضِعٌ بِدِيَارِ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، بِهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ: ذَنْبَانُ.

(4) «وَيُفَرِّضُهُمْ»: يَحْدَدُ لَهُمُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَيَفْصِلُهُمَا لَهُمْ.

(5) «يَجْمَعُهُمْ»: يَصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ وَالْجُمُعَةِ.



إلا من قبل الرسولين . . . فلما بلغ أبو بصير من قريش ما بلغ من الغيظ ، بعثت قريش رجلاً وكتبت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً يسألونه بأرحامهم : أن يدخل أبا بصير وأصحابه ، فلا حاجة لهم بهم . فكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أبي بصير : أن يقدم بأصحابه معه ، فجاءه الكتاب وهو يموت ، فجعل يقرأ وهو يموت ، فمات وهو في يديه ، فقبره أصحابه هناك وصلوا عليه ، وبنوا على قبره مسجداً ، وأقبل أصحابه إلى المدينة ، وهم سبعون رجلاً ؛ فيهم الوليد بن الوليد بن المغيرة . فلما دخل الحرة عثر فانقطعت إصبعُه فربطها وهو يقول :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا أَصْبُعٌ دَمِيَتْ      وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

فدخل المدينة فمات بها<sup>(1)</sup> . وقد كشف عبد الرحمن السهيلي الستار عن الحكم الشرعي فيما يتعلق بقتل خنيس بن جابر العامريّ المشرك ؛ على يد أبي بصير عتبة بن أسيد المسلم ؛ رغم عقد الصلح المبرم بين المسلمين والمشركين في الحديبية . فقال : «ومأ يسأل عنه في حديث أبي بصير قتله الرجل الكافر ، وهو في العهد : أكان ذلك حراماً أم مباحاً له ؟ وظاهر الحديث رفع الحرج عنه ، لأنّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم - لم يثرب<sup>(2)</sup> ؛ بل مدحه ، وقال : وَيْلُ أُمِّهِ مُحَشٌّ حَرْبٍ » .

**فإن قيل :** وكيف يكون ذلك جائزاً له ، وقد حقن الصلح الدماء ؟!

**قلنا :** إنّما ذلك في حقّ أبي بصير على الخصوص ، لأنّه دافع عن نفسه ودينه ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد ؛ وإنّما لم يطالبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بديّة ، لأنّ أولياء المقتول لم يطالبوه ؛ إمّا لأنّهم كانوا قد أسلموا ، وإمّا لأنّ الله شغلهم عن ذلك ، حتى انتكث العهد ، وجاء الفتح .

**فإن قيل :** إنّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم - كان يدي من قُتل خطأ من أهل الصلح ؛ كما ودّى العامريّين وغيرهما<sup>(3)</sup> ،

**قلنا :** عن هذا جوابان :

(1) كتاب المغازي . ج 2 ص 624 - 629 .

(2) «يثرب» : يعب . يلوم . يوبخ . يقبح الفعل .

(3) وهذا بنص صريح في القرآن ، وهو : « فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِمْ وَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ » . (سورة النساء . الآية 92) .

أحدهما : أن أبا بصير كان قد ردّه إلى المشركين ، فصار في حكمهم ، ولم يكن في فئة المسلمين وحزبهم ، فيحكم عليه بما يحكم عليهم .

والجواب الثاني : أنّه إن كان قتل عمداً ، ولم يكن قتل خطأً : كما كان قتل العامريين ، وقد قال عمر بن الخطاب : لا نعقل العاقلة عمداً ولا عبداً ولا صلحاً ولا اعترافاً<sup>(1)</sup> .

**الحكم التاسع :** أنّ المهاجرات من مكة إلى المدينة لا تنطبق عليهنّ شروطُ صلح الحديبية ؛ بل إنّ كنّ مؤمنات يُردّ صداقهنّ إلى بعولهنّ بعد استحلافهنّ ؛ وتكون هجرتهنّ مقبولة شرعاً ، وإن كنّ مشركات لم يستحلّفن ولا يُردّ صداقهنّ إلى بعولهنّ . وهذا ما شرعه الله تعالى بإزاله قوله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝<sup>(2)</sup> . فمن هذه الآية المحكمة يُمكن لنا أن نستخرج عشرة أحكام فرعية :

**الحكم الأول :** وجوب امتحان المهاجرات المؤمنات من مكّة دار الشرك والكفر إلى المدينة دار الإيمان والإسلام . والمراد بامتحانهنّ هو اختبارهنّ من حيث الدافع إلى هجرتهنّ والهدف منها ؛ فإن كانت الهجرة إلى الله ورسوله قبّلت منهنّ وحازت صاحبتهام مكاناً رحباً بين المسلمين ، وإن كانت الأخرى لم تقبل منهنّ ورُددنّ إلى ديارهنّ ؛ حيث أهلهنّ المشركون . وكان رسول الله - عليه الصلاة والسلام !- يمتحنهنّ ويختبرهنّ بالتحليف ، فيحلفنّ : « بالله الذي لا إله إلا هو أأنّهنّ يشهدنّ أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، وأنّهنّ ما خرجنّ لرغبة في أرض دون أرض ، ولا لالتماس دنيا ، ولا لبغض لأزواجهنّ الكافرين المشركين ، ولا لعشق لرجال مؤمنين مسلمين ؛ بل قد خرجنّ حبّاً في الله ورسوله » . وقبل نزول الآية المذكورة أعلاه ، لم يكن امتحان المؤمنات المهاجرات معمولاً به لدى رسول الله - عليه الصلاة والسلام !- بل كان يقبل هجرة كلّ منهنّ ، ويصدّقهنّ فيهادون امتحان ودون اختبار . والسبب في الأمر بامتحانهنّ أنّ بعض المشركات بمكّة كنّ يهددنّ أزواجهنّ المشركين بأن يلتحقنّ بمحمد - عليه الصلاة والسلام !- بالمدينة . وذلك عندما يقع نزاع بين الزوج والزوجة . فأمر الله

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 6 ص 494 ، 495 .

(2) سورة «المتحنة» ، الآية 10 .

المؤمنين أن يمتحنوا كل مهاجرة إليهم قالت : أنا مؤمنة ، حتى يتبين لهم صدق إيمانها وإسلامها ، وحتى لا تغدو المهاجرات خطراً على المسلمين في دينهم وديانهم . فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾<sup>(1)</sup> .

**الحكم الثاني :** أن حقيقة إيمان من جاءت مهاجرة لا يعلمها سوى الله المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وأما علم المسلمين بإيمانها ، لم يحصل إلا عن طريق القرينة الظاهرة المتمثلة في امتحانهم إياها بالتحليف . وهذا لا يؤدي إلى حقيقة العلم ؛ بل يؤدي إلى غالب الظن فحسب ، لأن ذلك مستوحى من نقطتها وتعبيرها ؛ أما ما ينطوي عليه ضميرها فهو محجوب عن جميع الخلق ، لا يعلم كنهه سوى الله وحده علام الغيوب . وما دام كذلك فالمسلمون ليسوا مأمورين بالاطلاع على ما ليس في وسعهم أن يطلعوا عليه ؛ وإنما هم مأمورون أن يكتفوا بالظواهر المؤدية إلى غالب الظن ، وبتركوا السرائر إلى من لا يخفى عليه سر ولا جهر في خلقه . فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ .

**الحكم الثالث :** منع إرجاع المؤمنات المهاجرات إلى ذويهن من الكفار المطالبين بإرجاعهن إليهم . وهذا المنع يتم متى غلب على ظن المسلمين - عن طريق امتحانهم للمهاجرات واختبارهم لهن - أنهن مؤمنات ، لأن في إرجاعهن افتتاناً لهن في دينهن ، وهن في الإسلام راغبات ، ومن الشرك والفكر هاربات . والحكمة في جواز إرجاع الرجال المهاجرين ومنع إرجاع النساء المهاجرات أن أغلب الرجال أشداء في دينهم ، صابرون على آلام التعذيب فيه ، أقوياء في إيمانهم ، وأن النساء ضعيفات في بنياتهن ، لا يستطعن أن يتحملن آلام التعذيب المنصب على أجسادهن من لذن أهلن الذين لا ييغون غير إرجاعهن إلى ما كن عليه من الشرك والكفر بالله وبرسله . ثم إن النساء رقيقات القلوب ، مرهفات الشواعر ، حليقات الحنان ، فسرعان ما يؤثر عليهن أهلن وذووهن بشتى وسائل التأثير والإغراء ، فيتركن دين الإسلام ويعدن إلى كفرهن وشركهن بدون شعور ! بالإضافة إلى ذلك فإن المرأة في ذلك العهد قد كانت لا تملك حولاً ولا قوة ؛ بل كانت مستعبدة لأهلها وذويها من الرجال ، فأراد الله أن يحررها من قيد العبودية الأسرية<sup>(2)</sup> ؛ إن هي أصبحت

(1) سورة «الممتحنة» ، الآية : 10 .

(2) ومن المهاجرات اللاتي رفض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إرجاعهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وهي التي خرج في طلبها أخوها : عُمارة ، والوليد ابنا عقبة حتى وصلا إلى المدينة فسألا رسول الله =

مؤمنة مسلمة . فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ <sup>(1)</sup> .

**الحكم الرابع :** تحريم زواج المسلمات بغير المسلمين تحريماً أبدياً ، فلا يجوز أبداً مسلمة أن تتزوج غير مسلم . والمراد بغير المسلم هو كل من لم يدخل في دين الإسلام ؛ سواء كان من أهل الكتاب : كالمسيحي واليهودي ، أو كان من أهل الإشراك : كعباد الأصنام والكواكب وغيرها ، مما سوى الله المعبود بحق : كالبوذيين وغيرهم ، أو كان منكراً لوجود الله - سبحانه وتعالى ! - « كالشيوعيين ، والدهريين وغيرهم . فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ <sup>(1)</sup> . فصيغة التكرير في الآية الكريمة تدلّ دلالة قطعية على تحريم المسلمات على غير المسلمين .

**الحكم الخامس :** أن الآية الكريمة تأمر المسلمين أن يدفعوا إلى أزواج المؤمنات المهاجرات مبلغ المهور المدفوعة إليهن من قبل أزواجهن المشركين قبل إسلامهن . وقد طبق رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - هذا الأمر فدفع تلك المهور إلى أولئك الأزواج المشركين الكافرين . ومن بين هؤلاء الأزواج مسافر المخرومي الذي دفع إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - مبلغ مهر زوجته سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، فتزوجها عمر بن الخطاب بمهر جديد وعقد جديد . وإن دلّ هذا العمل المصيب على شيء ، فإنما يدلّ على أمانة الإسلام ونزاهته وعدله السرمدى ! فقد أعطى لكل ذي حق حقه . فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَوْهُمْ مَّا أَنْفَقُوا ﴾ . أي : أعطوا أزواجهن مثلاً دفعوا إليهن من المهور عند زواجهن بهن قبل إسلامهن .

**الحكم السادس :** أنه يجوز للمسلمين أن يتزوجوا المسلمات المطلقات من غير المسلمين ، شريطة أن يؤدوا لهنّ مهورهنّ من جديد ، لأن إسلامهنّ قد حال بينهنّ وبين أزواجهنّ المشركين الكافرين فبذلك نفهم جيداً أن المهور التي دفعها المسلمون لأزواجهنّ الكفار عند مفارقتهنّ لهنّ ، لا تقوم مقام المهور التي من حقهنّ عند زواجهنّ الجديد ؛ بل لا بدّ لكل مسلم من مهر جديد يدفعه إلى التي أراد أن يتزوجها على سنة الله ورسوله .

---

= أن يردّ عليهما أختهما أم كلثوم ، طبقاً لما جاء في صلح الحديبية ، فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - أن يرجع أم كلثوم المسلمة ، وقال لأخويها : إن مضمون الصلح المبرم بيني وبين قومكم ينصّ على إرجاع الرجال ، ولم ينصّ على إرجاع النساء .

(1) سورة «المتحنة» ، الآية : 10 .

فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوا هُنَّ إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾. أي: فلا إثم عليكم - أيها المؤمنون! - إن أنتم تزوجتم المؤمنات المهاجرات بشرط الزواج، وهو أن تدفعوا إليهن ما أوجبه عليكم الشرع الحكيم دفعه من الصداق.

**الحكم السابع:** أن الآية الكريمة تأمر المسلمين - على وجه العموم - بتطبيق زواجاتهم المشركات الكافرات، وبحل عقود زواجهن بهن قبل الإسلام، لأن دين الإسلام قد فرق بينهم وبينهن، وقطع علاقة الزوج بالزوجة، من حيث سكونه إليها، ومن حيث معاملتها إياه بما يرضيه في دينه ودنياه، وكان على رأس المسلمين الذين بادروا بتطبيق زواجاتهم المشركات الكافرات - عند هذا الأمر الرباني - عمر بن الخطاب - رضي الله عنه! - فقد طلق زوجته المشركتين؛ وهما: قُرَيْبَةُ بنت أُمَيَّة بن المُعَيَّرَة، وأم كلثوم بنت عمرو بن جَرَوَل، فتزوج الأولى معاوية بن أبي سفيان، وهو على شركه وكفره، وتزوج الثانية أبو جهم بن حذيفة بن غانم، وهو على شركه وكفره. ولما وليَ عمر الخلافة، قال أبو سفيان لابنه معاوية: طلق قُرَيْبَةَ لثلاث يرى عمر سلبه في بيتك، فأبى معاوية ذلك فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ<sup>(1)</sup> الْكُوفَرِ<sup>(2)</sup>﴾.

**الحكم الثامن:** أن للمسلمين أن يطالبوا غير المسلمين بمبالغ المهور التي دفعوها إلى اللائيّ طلقوهن من غير المسلمات بالأصالة أو المرتدات بعد إسلامهن؛ كما أن لغير المسلمين أن يطالبوا المسلمين بمبالغ المهور التي دفعوها إلى المسلمات اللائيّ فرق الدين الإسلاميّ بينهما وبين غير المسلمين تفريقاً أبدياً. وقد امثل، المسلمون أمر ربهم، فردوا مهور المؤمنات المهاجرات إلى أزواجهن المشركين الكافرين، الذين أبوا أن يردوا شيئاً من مهور غير المسلمات إلى أزواجهن الجدد من المسلمين. فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا<sup>(3)</sup>﴾.

**الحكم التاسع:** أن هذه الأوامر والنواهي المتقدمة الذكر، هي قضاء محكم من الله العادل عدلاً لا يوازيه عدل بين عباده في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء. فما على جميع مخلوقاته سوى الإذعان لحكمه والرضى بقضائه وقدره زماناً ومكاناً. فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾<sup>(3)</sup>.

(1) «بعصم»: جمع عصمة؛ وهي: الحبل، والسبب والمراد بالإمساك - في الآية الكريمة - : التعلق والاعتصام.

(2) «الكوافر»: جمع كافرة؛ وهي التي جحدت رسالة محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام! - ولم تؤمن بنبوته. والمعنى الإجمالي - في الآية الكريمة - : ولا تعتصموا ولا تعلقوا - أيها المسلمون! - بعقود زواجكم بغير المسلمات.

(3) سورة «المتحنة»، الآية: 10.

**الحكم العاشر:** أن الله تعالى يُنبئنا أنه مدرك لجميع الموجودات على ما هي عليه سلباً وإيجاباً، وأنه ذو علم سرمدى أبدي بما كان، ويكون، وسيكون، وسوف يكون؛ من واجبات وجائزات ومستحيلات. فعلمه - سبحانه وتعالى! - لم يسبقه خفاء، ولا يعتره سهو، ولا غفلة، ولا سنة، ولا نوم. وهو أعلم بمخلوقاته، وبما ينفعهم وبما يضرهم في جميع حركاتهم، وسكناتهم، وفي جميع ظروفهم وأحوالهم. ثم إن الله يُنبئنا أنه ذو حكمة بالغة مطوية على إتيان الأعمال، وتدبير الشؤون، وتقدير الأشياء وتحسينها؛ وأنه لا يفعل إلا ما فيه حكمة ربانية، والحكمة هي صواب الأمر وسداده. وهل من حكمة في الوجود توازي حكمة الله العظيم؟! وهو أحكم الحاكمين. فهذا الحكم هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>.

وتأكيداً لتحريم زواج المسلمة بغير المسلم، وزواج المسلم بغير المسلمة<sup>(2)</sup>، أنزل الله في هذا الشأن - مرة ثانية - قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَا مُمُتِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُعْجِبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا تُعْجِبُكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ ۖ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾<sup>(3)</sup>.

## السرايا

في هذه السنة - سنة ست من الهجرة - بعث رسول الله - عليه الصلاة والسلام! - سرايا ترقب العدو وتعرضه في مختلف نواحي الجزيرة العربية. وقد استوفى الحديث عن هذه السرايا وعمّا يخصّها جملة وتفصيلاً محمد بن عمر الواقدي في كتابه «المغازي». وقد وقع اختيارنا على تلخيص الحافظ البيهقي، وإسماعيل بن كثير، وعلي بن الأثير، لما أورده الواقدي؛ رحم الله الجميع!

فمن هذه السرايا سرية عكاشة بن محصن، بعثه رسول الله في أربعين رجلاً إلى الغمر<sup>(4)</sup>، فنذر<sup>(5)</sup> بهم القوم فهربوا، فسعت الطلائع في آثارهم فوجدوا مائتي بعير فاستاقوها إلى المدينة. وكان ذلك في شهر ربيع الأول.

(1) «عليّمْ حَكِيمٌ»: اسمان من أسماء الله الحسنى، التي هي تسعة وتسعون اسماً، كلّها تدلّ دلالة قطعية على صفات الله الأزلية.

(2) انظر كتابنا: «زواج المسلم بغير المسلمة، وزواج المسلمة بغير المسلم في ميزان الإسلام».

(3) سورة البقرة. الآية 22.

(4) «الغمر»: ماء لبنى أسد على ليلتين من «فيد»؛ وفيد: منزل بطريق مكة، قاله ابن سعد في الطبقات. ج 2 ص 61.

(5) «فَنَذَرَ»: فَعَلِمَ.

**ومنها :** سرية محمد بن مسلمة ، بعثه رسول الله في عشرة فوارس إلى بني ثعلبة بن سعد بـ «ذي القصة»<sup>(1)</sup> ، فكمنا لهم حتى ناموا ، فظهروا عليهم وقتلوا الفوارس ، ونجا محمد بن مسلمة وحده جريحاً . وكان ذلك في شهر ربيع الآخر .

**ومنها :** سرية أبي عبيدة بن الجراح ، بعثه رسول الله في أربعين رجلاً إلى «ذي القصة» ، فأثروا في عمارة الصبح ، فهرب أهلها منهم في رؤوس الجبال وتركوا نِعْماً ، فأصابها أبو عبيدة وأسر منهم رجلاً واحداً فقدم به على رسول الله ، فأسلم ، فتركه .

**ومنها :** سرية زيد بن حارثة بـ «الحُموم»<sup>(2)</sup> فأصابوا امرأة من قبيلة مُزينة اسمها حليلة ، فدلّتهم على محلّة من محال بني سُليم ، فأصابوا منها نِعْماً وشاءً وأسروا أسرى ؛ فيهم زوجها ، فأطلقها رسول الله مع زوجها .

**ومنها :** سرية زيد بن حارثة أيضاً إلى بني ثعلبة بـ «الطَّرَف»<sup>(3)</sup> . في خمسة عشر رجلاً ، فهربت الأعراب ، فأصابوا من نعمهم عشرين بعيراً ، ورجعوا بعد أربع ليال . وكان ذلك في جُمادى الأولى .

**ومنها :** سرية زيد كذلك وفيها أخذت الأموال التي كانت مع أبي العاص لقيط بن الربيع ، فاستجار بزوجه زينب بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأجارته ، وردّ إليه ما أخذ منه ، ثم أسلم وحسّن إسلامه ، وكان ذلك في جمادى الآخرة ، وقد تقدم ذكره في حديثنا عن غزوة بدر .

**ومنها :** سرية زيد مرة أخرى إلى حسمى<sup>(4)</sup> . وقد لحّص مضمون هذه السرية ابن الأثير فقال : «وسببها أن رفاعه بن زيد الجُدّاميّ ثمّ الضبّيّ قدم على النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - في هدنة الحديبية وأهدى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - غلاماً ، وأسلم فحسن إسلامه ، وكتب له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلموا ، ثمّ ساروا إلى حرّة الرّجلاء»<sup>(5)</sup> . ثمّ إنّ دحية الكلبيّ أقبل من الشام من عند قيصر ، حتى إذا كان بأرض جُدّام أغار عليه الهنيد بن عوص وابنه عوص بن الهنيد الضبيعيّان ، وهو بطن من جُدّام ،

(1) «ذي القصة» : موضع بين زباله والشقوق ؛ دون الشقوق بميلين .

(2) «الحُموم» : أرض لبني سُليم .

(3) «الطرف» : ماء قريب من المرقى دون النّخيل ، وهو على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة .

(4) «حسمى» : أرض بالبادية بينها وبين وادي القرى ليلتان .

(5) «حرّة الرّجلاء» : علم في ديار بني القَيْن بين المدينة والشام .

فأخذوا كل شيء معه ، فبلغ ذلك نفراً من بني الضَّبَّيب قوم رفاعه مَن كان أسلم ، فنفروا إلى الهُنَيْد وابنه ، فلقوهما واقتلوا ، فظفر بنو الضَّبَّيب واستنقذوا كل شيء أخذ من دحية وردوه عليه ، فخرج دحية حتى قدم على النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم !- فأخبره خبره وطلب منه دم الهُنَيْد وابنه عَوْص ، فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إليهم زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي جَيْشٍ ، فَأَغَارُوا بِالْفَضْفَاضِ وَجَمَعُوا مَا وَجَدُوا مِنْ مَالٍ وَقَتَلُوا الْهَنْدِ وابنه . فلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ بنو الضَّبَّيب رَهْطَ رفاعه بن زيد سار بعضهم إلى زيد بن حارثة ، فقالوا : إِنَّا قَوْمٌ مُسْلِمُونَ . فقال زيد : فاقْرَؤُوا أُمَّ الْكِتَابِ ! فقرأها حَسَّانُ بْنُ مَلَّةٍ . فقال زيد : نادوا فِي الْجَيْشِ : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْنَا مَا أَخَذَ مِنْ طَرِيقِ الْقَوْمِ الَّتِي جَاءُوا مِنْهَا ، وَأَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِمْ سَبَايَاهُمْ ، فَأَخْبَرَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَنْهُمْ بِمَا أَوْجَبَ أَنْ يَحْتَاطَ ، فَتَوَقَّفَ فِي تَسْلِيمِ السَّبَايَا وَقَالَ : هُمْ فِي حَكْمِ اللَّهِ ، وَنَهَى الْجَيْشَ أَنْ يَهْبِطُوا وَادِيَهُمْ . وَعَادَ أُولَئِكَ الرِّكْبَ الْجُدَامِيَّ إِلَى رفاعه بن زيد وهو بِكَرَاعِ رَبَّةٍ<sup>(1)</sup> لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : إِنَّكَ لَجَالِسٌ تَحْلُبُ الْمَعْزَى وَنِسَاءَ جُدَامِ أَسَارَى ، قَدْ غَرَّهِنَّ كِتَابُكَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ . فَسَارَ رفاعه وَالْقَوْمُ مَعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَعَرَضَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم !- . فَقَالَ : كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْقَتْلِ ؟ فَقَالُوا : لَنَا مَنْ كَانَ حَيًّا وَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ تَحْتَ أَقْدَامِنَا ؟ يَعْنُونَ : تَرَكُوا الطَّلَبَ بِهِ . فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَأَرْسَلَ مَعَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، فَرَدَّ عَلَى الْقَوْمِ مَا لَهُمْ حَتَّى كَانُوا يَنْتَزِعُونَ الْمَرْأَةَ مِنْ تَحْتِ فَخْذِ الرَّجُلِ ، وَأَطْلَقَ الْأَسَارَى<sup>(2)</sup> .

**ومنها :** سَرِيَّةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم !- : إِنْ هُمْ أَطَاعُوا فَتَزَوَّجْ بِنْتَ مَلِكِهِمْ فَأَطَاعَ الْقَوْمُ وَأَسْلَمُوا ، وَتَزَوَّجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِنْتَ مَلِكِهِمْ : تُمَاضِرَ بِنْتَ الْأَصْبَغِ الْكَلْبِيِّ ، وَهِيَ أُمُّ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ . وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَعْبَانَ .

**ومنها :** سَرِيَّةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم !- فِي مِائَةِ رَجُلٍ إِلَى قَدِّكَ<sup>(3)</sup> ؛ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ حَيًّا مِنْ بَنِي سَعْدٍ قَدْ تَجَمَّعُوا لَهُ يَرِيدُونَ أَنْ يَمْدُّوا يَهُودَ خَيْبَرَ ، فَسَارَ عَلِيُّ إِلَيْهِمْ فَأَصَابَ عَيْنًا لَهُمْ<sup>(4)</sup> ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ بَعَثُوهُ إِلَى يَهُودِ خَيْبَرَ لِيَعْرِضَ عَلَيْهِمْ نَصْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا لَهُمْ تَمْرَ خَيْبَرَ . وَذَلِكَ كَانَ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ .

(1) «كرَاع ربة» : موضع بديار جُدَامِ .

(2) الكامل . ج 2 ص 207 .

(3) «قدك» : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان .

(4) «عيناً» : جاسوساً .



**ومنها :** سرية زيد بن حارثة إلى أمّ قُرّة . والسبب في ذلك أنّ زيد بن حارثة خرج في تجارة إلى الشام ، فلقه بوادي القرى أناس من بني فزارة ، فأصيب أصحابه ، وارثت<sup>(1)</sup> هو من بين القتلى ، فنذر أن لا يمسماء من جنابة حتى يغزو بني فزارة . ولما استبلى<sup>(2)</sup> مما أُصيب ، بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سرية إلى بني فزارة ، فلقهم بوادي القرى فأصاب منهم من أصاب وقتل من قتل وأسر أمّ قُرّة : فاطمة بنت ربيعة بن بدر ، وبتاً لها ، وكانت أمّ قُرّة عجوزاً كبيرة ، فربطها زيد بين بعيرين فشقّاها نصفين ! وقدم على النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ! بابتها ، وكانت لسكّمة بن الأكوع ، فأخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! منه هبةً ، وأرسلها إلى حرب بن أبي وهب ، فولدت له عبدالله بن حرب . وكان ذلك في شهر رمضان . ورؤي عن سلمة بن الأكوع أنّه قال : أمّر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! علينا أبا بكر ، فغزونا ناساً من بني فزارة ، فشنّنا عليهم الغارة صلاة الصبح ، فأخذت منهم جماعةً وسقتهم إلى أبي بكر فيهم امرأة من بني فزارة معها بنت لها من أحسن العرب ، فنفلني أبو بكر بنتها ، فقدمت المدينة فلقيت النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ! بالسوق ، فقال لي : يا أبا سلمة ! لله أبوك هب لي المرأة . فقلت : والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً ، فسكت ثمّ عاد من الغد ، فوهبها له ، فبعث بها إلى مكّة ففادى بها أسارى من المسلمين .

**ومنها :** سرية كُرْز بن جابر الفهريّ إلى العربيين بذي الجدر<sup>(3)</sup> . وهم الذين قتلوا راعي النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ! واستاقوا إبله ، فبعث في طلبهم كُرْزاً في عشرين فارساً . وكان من أمرهم ما رواه محمد بن عمر الواقديّ ، عن زيد بن زُومان أنّه قال : «قدم نفر ثمانية من عُرينة على النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ! فأسلموا ، فاستوبؤوا<sup>(4)</sup> المدينة ، فأمر بهم النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ! إلى لقاحه ، وكان سرح المسلمين بذي الجدر ، فكانوا بها حتى صحّوا وسمنوا ، وكانوا استأذنوه أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، فأذن لهم ، فغدوا على اللقاح فاستاقوها ، وأخذوا الراعي فقطعوا يده ورجله ، وغرسوا الشوك في لسانه وعَيْنَيْهِ حتى مات ، وانطلقوا بالسرح ، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! في أثرهم عشرين فارساً ، واستعمل عليهم

(1) «وارثت» : حُمل من المعركة جريحاً وبه رَمَق .

(2) «استبلى» : برأ .

(3) «ذو الجدر» : مسرح على ستة أميال من المدينة بناحية قُباء .

(4) «استوبؤوا» : وجدوها وبثّة .

كُرْزُ بن جابر الفُهْرِيّ، فخرجوا في طلبهم . . فساروا حتى أتوهم حين فرغوا من طعامهم، فأحاطوا بهم: فسألوهم أن يستأسروا، فاستأسروا بأجمعهم لم يُفَلت منهم إنسان، فربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة . . . فأمر بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فُقُطِعَت أيديهم وأرجلهم، وسُملت أعينهم، وصُلبوا هناك . . . عن أبي هريرة قال: لما قطع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أيدي أصحاب اللقاح وأرجلهم وسمل أعينهم نزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢) . قال: فلم تُسَمَل بعد ذلك عين. قال الواقدي: فحدثني أبو جعفر، عن أبيه، عن جدّه، قال: ما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم! - بعد ذلك بعثاً إلا نهاهم عن المثلة. وحدثني ابن هلال، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدّه، قال: لم يقطع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لساناً قط، ولم يسمل عيناً، ولم يزد على قطع اليد والرجل (٣). وفي الصحيحين ما يثبت صحّة رواية الواقدي، جاء في صحيح الإمام البخاري: « . . . عن قتادة أن أنساً - رضي الله عنه! - حدثهم: أن ناساً من عُكْلٍ وعُربنة قدموا المدينة على النبي - صلى الله عليه وسلم! - وتكلّموا بالإسلام فقالوا: يا نبي الله! إنّا كنّا أهل ضَرْعٍ ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بدَوْدٍ وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي - صلى الله عليه وسلم! - واستاقوا الذود، فبلغ النبي - صلى الله عليه وسلم! - عليه وسلم! - فبعث الطلّب في آثارهم فأمر بهم، فسَمَرُوا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة: بلغنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة (٤) .

ومنها: سرية عبدالله بن رواحة إلى أُسَيْرِ بن زارم اليهودي بخيبر. قال محمد بن عمر الواقدي: «حدثني موسى بن يعقوب، عن أبي الأسود قال: سمعت عُروة بن الزبير قال: غزا

(١) سورة «المائدة». الآية ٣٣، ٣٤.

(٢) كتاب المغازي ج ٢ ص ٥٦٨.

(٣) المغازي. ج ٢ ص ٥٦٦.

عبدالله بن رواحة خَيْرَ مَرَّتَيْنِ؛ بعثه النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -! البعثة الأولى إلى خيبر في رمضان في ثلاثة نفر ينظر إلى خيبر وحال أهلها وما يريدون وما يتكلمون به، فأقبل حتى أتى ناحية خيبر، فجعل يدخل الحوائط، وفرّق أصحابه في النَّطَاة، والشَّق، والكتيبة<sup>(1)</sup>، وَوَاعَوْا ما سمعوا من أُسَيْرٍ وغيره، ثم خرجوا بعد إقامة ثلاثة أيّام. فرجع عبدالله بن رواحة إلى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -! لليال بقين من رمضان، فخبّره بكلّ ما رأى وسمع، ثم خرج إلى أُسَيْرٍ في شوال...»<sup>(2)</sup>.

### أهمّ حوادث هذه السّنة من غير حوادث الجهاد

في هذه السّنة تزوّج رسول الله أمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب.

وفي هذه السّنة أنزل الله قوله: ﴿وَأَتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾<sup>(3)</sup>. ولفظة ﴿لِلَّهِ﴾ توحى بأنّ المقصود من هاتين العبادتين، هو طاعة الله وحده لا شريك له بأداء مناسكهما على الوجه المطلوب شرعاً من الحاجّ والمُعتمر: نيّة وعملاً. وليس المقصود بذلك شيئاً آخر من غير إخلاص التّعبّد بهما لله وحده لا شريك له، وهذا هو المراد بالذات في جميع العبادات. والأمر بإتمام الحجّ والعمرة - في الآية الكريمة - لا يدلّ على وجوبهما ابتداءً. وإنّما يدلّ على وجوب إكمالهما بمناسكهما وشروطهما عند الشروع فيهما؛ من غير توان ولا نقصان، فهما كسائر العبادات؛ متى شُرِعَ فيها وجب إتمامها ولو كانت نفلًا. وليس في القرآن آية صريحة في وجوب العمرة. أمّا الآية الصريحة في وجوب الحجّ فهي: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾<sup>(4)</sup>.

فعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ العمرة سنّة مؤكّدة، وليست فرضاً واجباً. ثم إنّ الحجّ واجب على التراخي؛ لا على الفور، بدليل أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! لم يحجّ إلّا في السّنة العاشرة من الهجرة. وقد بيّنا ما تيسّر لنا ممّا يتعلّق بهاتين الآيتين فقهيّاً في تفسيرنا: «من توجيهات القرآن العظيم». والحمد لله على ما فتح به علينا هناك!

وفي هذه السّنة حرّم الله على الكافرين الاقتران بالمسلمات على وجه العموم والإطلاق، فأنزل قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ

(1) «النّطاة، والشّق، والكتيبة»: أسماء لحصون خيبر وأطامها.

(2) المغازي، ج 2، ص 566.

(3) سورة «البقرة». الآية 196.

(4) سورة «آل عمران». الآية 97.

فَأَمْتَحِنُوهُمْ<sup>ط</sup> اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِمْ<sup>ط</sup> فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ<sup>ط</sup> لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ<sup>(١)</sup>.

وفي هذه السنة حدثت قصة الإفك، وأنزل الله فيها براءة عائشة أم المؤمنين؛ كما تقدم ذكرها.

وفي هذه السنة توفيت أم رومان: وهي أم عائشة وزوجة أبي بكر الصديق.

وفي هذه السنة ولي المشركون الحج.

وفي هذه السنة أجذب الناس جذباً شديداً، فاستسقى بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في رمضان.

وفي هذه السنة تزوج عمر بن الخطاب جميلة بنت ثابت بن أفلح أخت عاصم، فولدت له عاصماً، فطلقها وتزوجها بعده يزيد بن جارية، فولدت له عبد الرحمن بن يزيد؛ فهو أخو عاصم لأمه.

وفي هذه السنة أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - رسله إلى ملوك الأرض: من أكاسرة الفرس وأقاصرة الروم وغيرهم وكتابهم. فأرسل إلى المقوقس بمصر حاطب بن أبي بكتعة بكتاب، فرحب المقوقس بالمرسول وقبّل كتاب رسول الله، وأهدى إليه أربع جوار، منهنّ مارية القبطيّة أم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي نصّ كتاب رسول الله إلى المقوقس ونصّ جواب المقوقس روايتان:

**الرواية الأولى:** «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط... سلام على من اتبع الهدى. أمّا بعد: فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين. فإن تولّيت فعليك إثم القبط: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

جواب المقوقس: «لحمد بن عبد الله من المقوقس: سلام، أمّا بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه. وقد علمت أنّ نبيّاً قد بقي، وقد كنت أظنّ أنّه يخرج بالشام.

(1) سورة «الممتحنة». الآية 10.

(2) سورة «آل عمران». الآية 64.

وقد أكرمتُ رُسُلَكَ ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها» .

**الرواية الثانية :** «من محمد رسول الله إلى صاحب مصر والإسكندرية . أمّا بعد : فإنّ الله تعالى أرسلني رسولاً ، وأنزل عليّ قرآنًا ، وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفّار ، حتى يدينوا بديني ، ويدخل الناس في ملّتي . وقد دعوتك إلى الإقرار بوحداية الله تعالى ، فإن فعلت سعدت ، وأن أبيت شقيت . والسلام» . فكان جواب المقوقس : «باسمك اللهم . من المقوقس إلى محمد . أمّا بعد : فقد بلغني كتابك ، وقرأته وفهمت ما فيه . أنت تقول : إنّ الله تعالى أرسلك رسولاً ، وفضلك تفضيلاً ، وأنزل عليك قرآنًا مبيناً ، فكشفنا . يا محمد !- في علمنا عن خبرك ، فوجدناك أقرب داع دعا إلى الله ، وأصدق من تكلم بالصدق . ولولا أنّي ملكت مُلكاً عظيماً ، لكنت أوّل من سار إليك ، لعلمي أنّك خاتم الأنبياء ، وسيّد المرسلين ، وإمام المتقين . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين» . ولعل الرواية الأولى أصحّ .

**وأرسل عمرو بن أمية الضمريّ إلى النّجاشيّ ملك الحبشة ، فلمّا جاءه الرسول بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- آمن به واتبّعه وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب وأرسل إليه ابنه في ستين من أهل الحبشة ، فغرقوا في البحر قبل وصولهم إلى المدينة . ثمّ أرسل رسول الله إلى النّجاشيّ وطلب منه أن يتولّى أمر تزويجه بالمهاجرة أمّ حبيبة بنت أبي سفيان التي تنصّر زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة وبها توفي أيضاً . فخطبها النّجاشيّ إلى رسول الله ، فأجابته بالقبول ، فزوّجها إيّاه ، وأصدقها النّجاشيّ نفسه أربعمئة دينار ، إكراماً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ولما سمع أبو سفيان بتزويج رسول الله ابنته أمّ حبيبة قال : «ذاك الفحل لا يُقدعُ أنفه» . وكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بما هذا نصّه :**

«هذا كتاب من محمد النبيّ إلى النّجاشيّ الأصحم عظيم الحبشة سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله . وأدعوك بدعاية الإسلام ، فإنّي رسول الله ، فأسلم تسلم . ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(1)</sup> . فإن أبيت

(1) سورة «آل عمران» . الآية 64 .

فعليك إثم النَّصارى من قومك». وكان جواب النَّجاشيَّ على هذا الكتاب ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النَّجاشيِّ الأصحم بن أبهر. سلام عليك يا نبيَّ الله! ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد: فقد بلغني كتابك - يا رسول الله! - فيما ذكرت من أمر عيسى. فو ربَّ السماء والأرض إنَّ عيسى ما يزيد على ما ذكرت تُفروقاً<sup>(1)</sup>، إنَّه كما قلت. وقد عرفنا ما بُعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمَّك<sup>(2)</sup> وأصحابه، فأشهد أنَّك رسول الله صادق مصدِّق، وقد بايعتُك وبايعت ابن عمَّك وأصحابه، وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعثت إليك بابني: أرها بن الأصحم بن أبهر، فإنِّي لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت - يا رسول الله! - فإنِّي أشهد أنَّ ما تقول حق. والسلام عليك يا رسول الله!». وجاء في جواب النَّجاشيِّ أيضاً: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد من النَّجاشيِّ أصحمة. سلام عليك يا رسول الله! من الله، ورحمته وبركاته. أما بعد: فإنِّي قد زوجتُك امرأةً من قومك، وعلى دينك؛ وهي: السيِّدة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديتُك هديةً جامعةً: قميصاً، وسراويل وعطافاً، وخُفَّين ساذجين. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته». وجاء في جواب النَّجاشيِّ كذلك: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد من النَّجاشيِّ أصحمة. سلام عليك يا رسول الله! من الله، ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الذي هداني للإسلام. أما بعد: فقد أرسلت إليك - يا رسول الله! - مَنْ كان عندي من أصحابك المهاجرين من مكَّة إلى بلادي. وها أنا أرسلت إليك ابني: أريحا في ستين رجلاً من أهل الحبشة؛ وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلتُ يا رسول الله! فإنِّي أشهد أنَّ ما تقوله حق. والسلام عليك يا رسول الله! ورحمة الله وبركاته».

وأرسل إلى هرقل قيصر الروم دحية الكلبي بكتاب، فأخذه وقبَّله وجعله بين فخذه وخاصرته، وكتب إلى رجل بـ «رومية» كان يقرأ الكتب ليُخبره شأنه، فكتب إليه صاحب «رومية»: إنَّه النبيُّ الذي كنَّا ننتظره لا شك ولا ريب فيه فاتَّبعه وصدَّقه. فجمع هرقل بطارقة الروم في الدَّسكرة وغلَّقت أبوابها، ثمَّ اطلع عليهم هرقل من عليَّة وخافهم على نفسه وقال لهم: قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه؛ وإنَّه والله النَّبيُّ الذي نجده في كتابنا، هلمَّ

(1) «تفروقاً»: قَمَعَ الثمرة والبُسرة؛ وهو - هنا - كناية عن لا شيء، ومنه قولهم: ما له تفروق، أي: ما له شيء.

(2) هو جعفر بن عبد المطلب.

فلتَّبِعْهُ ونصَدِّقْهُ فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا . فنخروا نخرة رجل واحد ، ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا ، فقال : ردّوهم عليّ ، وخافهم على نفسه وقال لهم : إنّما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم ؟ وقد رأيت منكم ما سرّني ، فسجدوا له ، وانطلق وقال لدحيّة : إنّني لأعلم أنّ صاحبك نبيّ مرسل ؛ ولكنّي أخاف الرّوم على نفسي ، ولولا ذلك لا تَبِعْتُهُ ، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف الأعظم في الرّوم واذكر له أمر صاحبك وانظر ما يقول له . فجاء دحيّة وأخبره بما جاء به من رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فقال له ضغاطر : والله إنّ صاحبك نبيّ مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتابنا . ثم أخذ عصاه وخرج على الرّوم وهم في الكنيسة فقال : يا معشر الروم ! قد جاءنا كتاب من أحمد<sup>(1)</sup> يدعوننا إلى الله ، وإنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله . قال : فوثبوا عليه فقتلوه .

فرجع دحيّة إلى هرقل وأخبره الخبر . قال : قد قلت : إنّنا نخافهم على أنفسنا . وقال قيصر للرّوم : هلمّوا نعطيه الجزية ، فأبوا ، فقال : نعطيه أرض سورية ، وهي الشام ، ونصالحه ، فأبوا ، واستدعى هرقل أبا سفيان ، وكان بالشام تاجراً ، إلى الشام في الهدنة ، فحضر عنده ومعه جماعة من قريش ، فأجلسهم هرقل خلفه وقال : إنّني سأثله فإن كذب فكذبوه . فقال أبو سفيان : لولا أن يؤثر عني الكذب لكذبت . فسأله عن النّبيّ ؟ قال : فصغرت له شأنه ، فلم يلتفت إلى قولي وقال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو أوسطنا نسباً . قال : هل كان من أهل بيته من يقول مثل قوله ؟ قلت : لا . قال : فهل له فيكم مُلك سلّبتموه إياه ؟ قلت : لا . قال : فمن اتّبعه منكم ؟ قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث . قال : فهل يُحبّه من يتبعه ويلزمه أو يقيّله ويُفارقه ؟ قلت : ما تبعه رجل ففارقه . قال : فكيف الحرب بينكم وبينه ؟ قلت : سجال يُدال علينا ونُدال عليه . قال : هل يغدر ؟ قال : فلم أجد شيئاً أغمز به غيره - قلت : لا ، ونحن منه في هدنة ، ولا نأمن من غدرة . قال : فما التفت إليها . قال أبو سفيان : فقال لي هرقل : سألتك عن نسبه فزعمت أنّه من أوسط النّاس وكذلك الأنبياء ، وسألتك : هل قال أحد من أهل بيته مثل قوله فهو متشبه به فزعمت أن لا ، وسألتك هل سلّبتموه مُلكاً فجاء بهذا لتردّوا عليه ملكه ، فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنّهم الضعفاء والمساكين ، وكذلك أتباع الرسل ، وسألتك عمّن يتبعه أيحبّه أم يفارقه

(1) لأنّ إنجيل سيّدنا عيسى - عليه السلام !- أخبر بهذا الاسم الذي هو أحد أسماء رسول الله عليه الصلاة والسلام . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (سورة «الصف» . الآية 6) .

فزعمت أنهم يحبّونه ولا يفارقونه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه ، وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا ، ولئن صدقتني ليغلبنّ على ما تحت قدميّ هاتين ، ولوددت أنّي عنده فأغسل قدميه . فانطلق لشأنك . قال (أبو سفيان) : فخرجت وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول : أي عباد الله ! لقد أمر أمر ابن أبي كبشة<sup>(1)</sup> ، أصبح ملوك الروم يهابونه في سلطانهم !! وهذا نصّ ما جاء في كتاب رسول الله إلى قيصر : «إني أدعوك إلى الإسلام ، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، فإن لم تدخل في الإسلام فأعط الجزية ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾<sup>(2)</sup> . وإلا فلا تحلّ بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه » . وهذا نصّ جواب قيصر على هذا الكتاب : «إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى ؛ ومن قيصر ملك الروم ، إنّه جاءني كتابك مع رسولك ، وإني أشهد أنّك رسول الله ، نجدك عندنا في الإنجيل ، بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم ، ولوددت أنّي عندك فأخدمك وأغسل قدميك » .

**وأرسل عبدالله بن خذافة إلى كسرى ملك الفرس بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام فأخذ كسرى الكتاب ومزقه<sup>(3)</sup> .** وقال : يكتب إليّ بهذا وهو عبدي ! ثم كتب إلى باذان باليمن : أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدّين فليأتياني به . فبعث باذان نابوه . وكان كاتباً حاسباً . ورجلاً آخر من الفرس يقال له : خرّ خسره ، وكتب معهما كتاباً يأمر فيه رسول الله بالمسير معهما إلى كسرى ، وتقدّم إلى نابوه أن يأتيه بخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وسمعت قريش بذلك ففرحوا وقالوا : أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كفّتم الرجل . فخرجوا حتى قدما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وقد حلّقا لحاهما وأعفيا شواربهما ، فكره النظر إليهما وقال : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالوا : ربّنا - يعنينا الملك كسرى -

(1) «أبي كبشة» : كنية لزوج حليلة السعدية التي أَرْضعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وتربّى في حضنها وحضن زوجها أبي كبشة أيضاً .

(2) سورة «التوبة» . الآية 29 .

(3) فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «مَزَقَ اللَّهُ مُلْكَهُ» ، فكان ذلك كما قال . ولله الأمر كلّهُ وله في خلقه ما يشاء وما يريد .



فقال : لكنّ ربّي أمرني أن أعفيّ لحيتي وأقصّ شاربي ، فأعلماه بما قدما له وقالا : إن فعلتَ كتب باذان فيك إلى كسرى ، وإن أبيتَ فهو يهلكك ويهلك قومك . فقال لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- الخبر من السماء : إنّ الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله .

فدعاهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وأخبرهما بقتل كسرى وقال لهما : إنّ ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخُفّ والحافر ، وأمرهما أن يقولوا لباذان : أسلم ، فإن أسلم أقرّه على ما تحت يده وأملكه على قومه . ثم أعطى خُرّ خُسْرَه منطقة ذهب وفضّة أهداها له بعض الملوك . وخرجا فقدمّا على باذان وأخبراه الخبر ، فقال : والله ما هذا كلام ملك وإنّي لأراه نبياً ، ولننظرنّ فإن كان ما قال حقّاً فإنّه لنبيّ مرسل ، وإن لم يكن فنرى فيه رأينا . فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه يُخبره بقتل كسرى وأنه قتله غضباً للفرس ، لما استحلّ من قتل أشرافهم ، ويأمره بأخذ الطاعة له باليمن والكفّ عن النّبّيّ - صلى الله عليه وسلم !- فلما أتاه كتاب شيرويه أسلم وأسلم معه أبناء من فارس .

وكانت حمير تُسمّى : خُرّ خُسْرَه صاحب المعجزة . والمعجزة بلغة حمير : المنطقة . وهذا نصّ كتاب النّبّيّ - عليه الصلاة والسلام !- إلى كسرى ملك الفرس : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله ، وإنّي أدعوك بدعاء الله ، وإنّي رسول الله إلى النّاس كافة لأنذر ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا وَبِحَقِّ الْقَوْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(1)</sup> . فأسلم تسلم ، وإن تولّيت فإنّ إثم المجوس عليك» . وأرسل سليط بن عمرو العامريّ إلى هُوْدَة بن عليّ الحنفيّ ملك اليمامة بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، وكان نصرانيّاً ، فأرسل إلى رسول الله وفداً - فيهم مُجّاعة بن مُرارة ، والرّجّال بن عُنُقوة - وأمرهم أن يقولوا له : إنّ جعل الأمر له من بعد موته أسلم ، وسار إليه ونصره ، وإلاّ قصد حربه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- للوفد : لا ولا كرامة ، اللهم أكفنيه ! فمات بعد قليل . وأسلم رجلاّن من الوفد ، وهما : مُجّاعة ، والرّجّال الذي أقام عند رسول الله بالمدينة ، حتى قرأ سورة البقرة وغيرها ، وتفقه في الدين الإسلاميّ : ثم عاد إلى اليمامة فارتدّ ، وشهد أنّ رسول الله أشرك مُسَيِّمَةَ الكذاب معه ، فكانت فتنته أشدّ من فتنه مُسَيِّمَةَ .

(1) سورة «يس» . الآية 70 .

**وأرسل : العلاء بن الحضرميّ إلى المنذر بن ساوى والي البحرين يدعوهُ إلى الإسلام أو الجزية ،**  
**فأسلم - هو - وجميع العرب بالبحرين . وأمّا أهل البلاد من يهود ونصارى ومجوس فإنهم صالحوا**  
**العلاء والمنذر على الجزية : من كلّ حال دينار . وكانت ولاية البحرين يوم ذلك خاضعة للفرس .**  
**وأرسل شجاع بن وهب الأسديّ بكتاب إلى الحارث بن أبي شمّر الغسانيّ يدعوهُ فيه إلى**  
**الإسلام . فلما قرأ الكتاب قال : أنا سائر إليه . فلما بلغ قوله - هذا - رسول الله قال : بادّ مُلكه <sup>(1)</sup> .**  
**وسيّأتي - إن شاء الله !- محلّ ذكر ما وصلنا من كتابة كتبه ومعاهداته ؛ عليه الصلاة والسلام مبنّى**  
**ومعنىّ حسب رواياتها .**

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد اختصّ بكتبه وبعثاته الرّعاة  
دون الرّعايا ، وهذا الاختصاص المحكم إنّ دلّ على شيء فإنّه يدلّ على حكمة الله في أمره وسنّته  
في خلقه ، ﴿ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ <sup>(2)</sup> . فإذا نظرنا إلى التاريخ البشري زماناً ومكاناً ، لم  
نجدّه يحدث عن الرعايا والشعوب ؛ بل نجدّه يتحدث عمّن بأيديهم الحلّ والعقد : ملوكاً وقادة  
ورؤساء ، لأنّهم مسؤولون عن رعاياهم ، وحاكمون في شؤون محكوميتهم . وقديماً قال  
الفيلسوف أرسطو : «النّاسُ على دين ملوكهم» . فعلى هذا الأساس الراسخ بمعناه ، فلا معنى  
لصيغة «الديموقراطية» ، التي مفهومها لدى الديموقراطيين : «حكم الشعب نفسه بنفسه» . وهذا  
المفهوم هو الفوضى بعينها <sup>(3)</sup> !

**العبرة الثانية :** أن قياصرة الرّوم كانوا أسرع قبولاً لما جاء به رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم !- وألطف عبارة في إجابتهم على ما وصلهم ممّا كتبه إليهم ودعاهم إلى الإسلام ، وعلى عكس  
ذلك أكاسرة الفرس ورؤساء المشركين ! وهذا جليّ وواضح في قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ  
عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ  
قَالُوا إِنَّا نَصْرِيّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيّينَ وَرَهْبَانًا وَهُمْ لَا يَسْتَحْكِمُونَ ﴾ <sup>(4)</sup> .

(1) حميد الله ، محمّد . مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبويّ . القاهرة 1958م . مطبعة لجنة التّأليف  
والترجمة والنشر - ابن كثير ، إسماعيل . البداية والنهاية - ابن الأثير ، عليّ . الكامل في التاريخ .

(2) سورة «الفتح» . الآية 23 .

(3) انظر كتابنا : «الديموقراطية في ميزان الإسلام» .

(4) سورة «المائدة» . الآية 82 .

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن النِّبَاة في عقد الزواج جائزة شرعاً، وأن تزويج الأرملة أو المطلقة نفسها بنفسها جائز أيضاً؛ وهذا ما دلّ عليه نيابة النجاشي عن رسول الله في عقد زواجه بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وتوليها هي نفسها زواجها.

**الحكم الثاني:** وجوب إتمام مناسك الحج والعمرة وهذا أمر من الله تعالى بقوله: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾<sup>(1)</sup>.

**الحكم الثالث:** تحريم زواج المسلمة بغير المسلم على وجه العموم والإطلاق زماناً ومكاناً ابتداءً منذ نزول قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهْنَرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾<sup>(2)</sup>.

**الحكم الرابع:** أن الله أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام! - أن يقاتل كل من كفر به ولم يؤمن برسالة رسوله، حتى يدين بدين الله وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾<sup>(3)</sup>. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في كتابه إلى صاحب مصر: «أما بعد: فإن الله تعالى أرسلني رسولاً وأنزل عليّ قرآناً وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني، ويدخل الناس في ملّتي». وقال أيضاً: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله؛ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم؛ إلاّ بحقّها، وحسابهم على الله»<sup>(4)</sup>. فيما يسروّنه من كفر وإثم. وفي ذلك دليل على قبول الأعمال الظاهرة، والحكم بما تقتضيه الظواهر والاكتفاء بالاعتقاد الجازم مع الإذعان والقبول لدين الله.

(1) سورة «البقرة». الآية 96.

(2) سورة «الممتحنة». الآية 10.

(3) سورة «التوبة». الآية 29.

(4) رواه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة.

## السنة السابعة من الهجرة

### غزوة خيبر<sup>(1)</sup>

أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة بعد رجوعه من الحديبية شهر ذي الحجة كاملاً وبعض شهر المحرم، ثم خرج في أواخر المحرم إلى خيبر، واستعمل على المدينة نُمَيْلَةَ<sup>(2)</sup> بن عبد الله الليثي، وكانت رايته بيضاء. وكان جيشه في هذه الغزوة مؤلفاً من ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس وعشرون امرأة وكان شعار المسلمين يوم ذاك: «يا منصور! أمت أمت». قال محمد بن إسحاق: «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على «عَصْر»<sup>(3)</sup> فَبَنِي له فيها مسجد، ثم على الصَّهْبَاء<sup>(4)</sup>، ثم أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجيشه، حتى نزل بواد يقال له: الرَّجِيع، فنزل بينهم (أي: بين أهل خيبر) وبين غَطَفَان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهودَ عليه، حتى إذا ساروا مَنَقَلَةً<sup>(5)</sup> سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين خيبر»<sup>(6)</sup>.

جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن بُشَيْر بن يسار أن سُوَيْد بن النُّعْمَان أخبره أنه خرج مع النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - عام خيبر، حتى إذا كُنَّا بالصَّهْبَاء - وهي من أدنى خيبر -

---

(1) جاء في معجم البلدان - حرف (خ) لياقوت بن عبد الله الحموي: «خيبر: الموضع المذكور في غزاة النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وهي ناحية على ثمانية بُرْد من المدينة لمن يريد الشام، يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، وأسماء حصونها: حصن ناعم وعنده قُتل مسعود بن مسلمة أُلْقِيَتْ عليه رchy، والقموص حصن أبي الحُقَيْق، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتبية. وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن، ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر».

(2) هذه رواية عبد الملك بن هشام ورواية الإمام أحمد: هو سَبَاع بن عُرفطة الغفاري.

(3) جبل بين المدينة ووادي الفرع.

(4) موضع بينه وبين خيبر روحة.

(5) مرحلة.

(6) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 501.

صلى العصر ثم دعا بالأزواد<sup>(1)</sup> فلم يُؤتَ إلا بالسَّويق، فأمر به فثُري<sup>(2)</sup> فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ... عن سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه! - قال: خرجنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم! - إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر (بن الأكوع): يا عامر! ألا تُسمعنا من هُنيَّاتِكَ<sup>(3)</sup>؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو<sup>(4)</sup> بالقوم يقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا      وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا  
فَاغْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا أَبْقَيْنَا      وَأَلْقَيْنَا سَكِينَةَ عَلَيْنَا  
وَكَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا      إِنَّا إِذَا صِيحَ بَنَا أَبَيْنَا  
وَبِالصِّيَّاحِ عَوَّلْنَا عَلَيْنَا

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: مَنْ هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله! قال رجل من القوم: وَجَبَتْ يا نبي الله! لو أمتعتنا به... قال محمد بن إسحاق: «عن أبي مُعْتَب بن عمرو: أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لما أشرف على خيبر قال لأصحابه: - وأنا فيهم -: قفوا، ثم قال: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَمَا أَظْلَكْنَ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَقْلَكْنَ وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَكْنَ، وَرَبَّ الرِّيَّاحِ وَمَا أَذْرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، أَقْدُمُوا بِسْمِ اللَّهِ. قال (مُعْتَب بن عمرو): وكان يقولها - عليه السلام! - لكل قرية دخلها». وقال محمد بن إسحاق أيضاً: «وحدثني من لا أتهم عن أَنَس بن مالك قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إذا غزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتى يُصبح، فإن سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذاناً أغار. فنزلنا خيبر ليلاً، فبات رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى أصبح لم يسمع أذاناً، فركب وركبنا معه، فركبْتُ خلف أبي طلحة، وإنَّ قدميَّ لتلمس قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - واستقبلنا عمَّال خيبر غادين، قد خرجوا بمساحيهم ومكباتهم، فلما رأوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - والجيش، قالوا: محمد

(1) «الأزواد»: - جمع زاد -: طعام السفر.

(2) «ثُري»: بُلْ بالماء لما حصل له من اليُس.

(3) «هنيَّاتِكَ»: تصغير هنية بصيغة الجمع. والهنة أو الهُنْ: كناية عن شيء لا يُعرف اسمه تحسناً أو تقيحاً. والمراد هنا أراجيز الحادي.

(4) «يحدو»: يحث الإبل على السير بالغناء وإنشاد الأشعار.

والخميس<sup>(1)</sup> معه فأدبروا هُراًباً، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: الله أكبر، خربت خير! إننا نزلنا ساحة قوم، «فساء صباح المُنْدَرِين»<sup>(2)</sup>. وتدنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحصون والأموال يأخذها مالا مالا، ويفتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، وعنده قُتل محمود بن مسلمة أُلقيت عليه منه رَحاً فقتلته، ثم القموص: حصن بني أبي الحُقَيْق، وأصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم سبايا؛ منهم صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، وبنتي عم لها، فاصطفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له صفية لنفسه. وكان دحية بن خليفة الكلبي قد سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صفية، فلما أصفها لنفسه أعطاه ابنتي عمها، وفشت السبايا من خير في المسلمين».

### مدة الحصار لأهل خير ومقتل مَرْحَب اليهودي وأخيه يسار

قال محمد بن إسحاق: «ولما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا (أي: المسلمون) إلى حصنهم (أي: حصن أهل خير): الوطيح، والسَّلالِم. وكانا آخر حصون أهل خير افتتحاً، فحاصرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضعة عشرة ليلة... عن جابر بن عبد الله قال: خرج مَرْحَبُ اليهودي من حصنهم، قد جمع سلاحه يرتجز وهو يقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرَ أَنِّي مَرْحَبُ      شَاكِي السَّلَاحِ<sup>(3)</sup> بَطْلٌ مُجَرَّبُ  
أَطْعُنُ أحياناً وَحِيناً أَضْرِبُ      إِذَا اللَّيْثُ<sup>(4)</sup> أَقْبَلْتُ تَحَرَّبُ<sup>(5)</sup>  
إِنَّ حِمَايَ لِلْحَمَى لَا يَقْرَبُ

وهو يقول: من يبارز؟ فأجابه كعب بن مالك، فقال:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرَ أَنِّي كَعْبُ      مُفَرِّجُ الْغَمِّ<sup>(6)</sup> جَرِيءُ صُلْبُ

(1) «الخميس»: الجيش العظيم. سُمِّي خميساً، لأنَّ له ساقاً، ومقدمة وجناحين: ميمنة وميسرة، وقلباً.

(2) سورة «الصفات». الآية 177.

(3) «شاكِي السلاح»: تام السلاح الفتاك وكامله.

(4) «الليث»: جمع ليث -: الأسود.

(5) «تَحَرَّبُ»: تشتد في الغضب.

(6) «الغمي»: شدة الكرب.

إِذْ شَبَّتْ الْحَرْبُ تَلَكَّتْهَا الْحَرْبُ      مَعِيَ حُسَامٌ كَالْعَقِيقِ <sup>(1)</sup> عَضِبُ <sup>(2)</sup>  
نَطَوُّكُمْ حَتَّى يَذُلَّ الصَّعْبُ      نُعْطِي الْجَزَاءَ أَوْ يَفِيءُ <sup>(3)</sup> النَّهْبُ  
بَكَفٍّ مَاضٍ لَيْسَ فِيهِ عَتَبُ

. . . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: من لهذا؟ قال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله! أنا والله الموتور الثائر؛ قُتِلَ أَخِي بِالْأَمْسِ؛ فقال: فقم إليه، اللَّهُمَّ أعنه عليه! فلمَّا دنا أحدهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة عُمُرِيَّة من شجر العُشُر، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه، كلِّمًا لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم، ما فيها فنن <sup>(4)</sup>، ثم حمل مَرَحَبٌ على محمد بن مسلمة، فضربه، فاتقاه بالدَّرَقَةِ، فوقع سيفه فيها، فعضت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله. ثم خرج بعد مَرَحَبٍ أخوه ياسر، وهو يقول: مَنْ يَبَارِزُ؟ فرغم هشام بن عُرْوَةَ: إِنَّ الزُّبَيْرَ بن العوام خرج إلى ياسر، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: يُقَتِّلُ ابْنِي؟ يا رسول الله! قال: بل ابنك يقتله؛ إن شاء الله. فخرج الزُّبَيْرُ فالتقيا، فقتله الزُّبَيْرُ. فحدثني هشام ابن عُرْوَةَ: أَنَّ الزُّبَيْرَ كان إذا قيل له: والله إن كان سيفك يومئذ لصارماً عضباً، قال: والله ما كان صارماً؛ ولكنِّي أكرهته <sup>(5)</sup>. وقال محمد بن عمر الواقدي: «ثم برز ياسر <sup>(6)</sup> وكان من أشدائهم، وكان معه حربة يحوش <sup>(7)</sup> بها المسلمين حوشاً، فبرز له عليّ - عليه السلام! - فقال الزُّبَيْرُ: أقسمتُ عليك إلَّا خليتَ بيني وبينه، ففعل عليّ، وأقبل ياسر بحرته يسوق بها النَّاسَ، فبرز له الزُّبَيْرُ، فقالت صفية: يا رسول الله! واحزني! ابني يُقَتِّلُ؟! يا رسول الله! فقال: بل ابنك يقتله. فاقتتلا فقتله الزُّبَيْرُ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فذاك عمُّ وخال! وقال النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -: لكلِّ نَبِيٍّ حواريٌّ وحواريُّ الزُّبَيْرِ وابن عَمَّتِي. فلمَّا قُتِلَ

(1) «العقيق»: شعاع البرق وومضاته.

(2) «عضب»: حادّ، قاطع.

(3) «يفيء»: يعود ويرجع الشيء المنهوب. والمسلوب إلى أهله الجديدين به.

(4) «فنین»: غصن.

(5) السيرة النبوية بشرح الرّوض الأُنْف. ج 6 ص 505 - 507.

(6) «ياسر»: في رواية ابن إسحاق «يسار».

(7) «يحوش»: يسوق.

مَرْحَبٌ وَيَاسِرٌ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «أَبْشُرُوا، قَدْ تَرَحَّبْتَ خَيْبَرَ وَتَيْسَّرَتْ. وَبِرَزْ عَامِرٍ، وَكَانَ رَجُلًا طَوِيلًا جَسِيمًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «حِينَ طَلَعَ عَامِرٌ: أَتَرُونَهُ خَمْسَةَ أَذْرَعٍ؟! وَهُوَ يَدْعُو إِلَى الْبِرَازِ، يَخْطُرُ<sup>(1)</sup> بِسَيْفِهِ وَعَلَيْهِ دِرْعَانِ، مُقْتَنِعٌ فِي الْحَدِيدِ يَصِيحُ: مَنْ يَبَارِزُ؟ فَأَحْجَمَ النَّاسُ عَنْهُ، فَبِرَزَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ! - فَضْرِبَهُ ضَرْبَاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا، حَتَّى ضَرَبَ سَاقِيَهُ فَبَرَكَ، ثُمَّ دَقَّفَ<sup>(2)</sup> عَلَيْهِ فَأَخَذَ سِلَاحَهُ»<sup>(3)</sup>.

### رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

عن بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - رُبَّمَا أَخَذَتْهُ الشَّقِيقَةُ، فَلَبِثَ الْيَوْمَ وَالْيَوْمِينَ لَا يَخْرُجُ، فَلَمَّا نَزَلَ خَيْبَرَ أَخَذَتْهُ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى النَّاسِ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ الرَّايَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - ثُمَّ نَهَضَ فِقَاتِلَ قِتَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ رَجَعَ، فَأَخَذَهَا عَمْرٌ فِقَاتِلَ قِتَالًا شَدِيدًا؛ هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فَقَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَأُعْطِيَنَّهَا غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَأْخُذُهَا عَنُودًا». وجاء في صحيح البخاري: «... عَنْ سَلَمَةَ (بْنِ عَمْرِو بْنِ الْأَكْوَعِ) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! - قَالَ: كَانَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! - تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فِي خَيْبَرَ، وَكَانَ رَمَدًا، فَقَالَ: أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -؟! فَلَحِقَ بِهِ، فَلَمَّا بَتْنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي فُتِحَتْ (خَيْبَرَ) قَالَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ أَوْ لِيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يُفْتَحُ عَلَيْهِ، فَتَحَنُّ نَرْجُوها، فَقِيلَ: هَذَا عَلِيٌّ، فَأَعْطَاهُ فَفُتِحَ عَلَيْهِ... عَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ<sup>(4)</sup> لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا؟ فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقِيلَ: هُوَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ! - يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأَتَيْ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرِئَ حَتَّى كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَقَاتَلَهُمْ

(1) «يَخْطُرُ»: يَلْوَحُ بِسَيْفِهِ مِمَّنَا وَشِمَالًا.

(2) «دَقَّفَ»: أَجْهَزَ عَلَيْهِ.

(3) كِتَابُ الْمَغَازِي. ج 2 ص 657.

(4) «يَدُوكُونَ»: الْأَصْلُ فِي الذِّكْرِ: الدَّقُّ وَالطَّحْنُ؛ وَهُوَ هُنَا: الْخَوْضُ وَالْمَوْجُ وَالِاخْتِلَاطُ.



حتى يكونوا مثلنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: انْفُذْ عَلَى رَسَلِكَ حَتَّى تَنْزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»<sup>(1)</sup>. وعن أبي رافع مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: خرجنا مع عليٍّ إلى خيبر حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - برأيته، فلَمَّا دَنَا مِنَ الْحَصَنِ خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهُ، فَقَاتَلَهُمْ، فَضْرِبَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنْ يَهُودِ فَطَرَحَ ثُرْسَهُ مِنْ يَدِهِ، فَتَنَاوَلَ عَلِيٌّ بَابَ الْحَصَنِ فَتَرَسَّ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَمْ يَزَلْ فِي يَدِهِ وَهُوَ يَقَاتِلُ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ، فَلَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي نَفَرٍ مَعِيَ سَبْعَةٌ أَنَا ثَامِنُهُمْ نَجْهَدُ عَلَى أَنْ نَقْلِبَ ذَلِكَ الْبَابَ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَقْلِبَهُ. قال إسماعيل بن كثير: وفي هذا الخبر جهالة وانقطاع ظاهر؛ ولكن روى الحافظ البيهقي... عن جابر بن عبد الله: أَنَّ عَلِيًّا حَمَلَ الْبَابَ يَوْمَ خَيْبَرَ حَتَّى صَعَدَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ فَافْتَتَحُوهَا وَأَنَّهُ جُرِّبَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يَحْمِلْهُ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، وَفِيهِ ضَعْفٌ أَيْضًا. وفي رواية ضعيفة: عن جابر بن عبد الله: ثُمَّ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ سَبْعُونَ رَجُلًا وَكَانَ جَهْدُهُمْ أَنْ أَعَادُوا الْبَابَ<sup>(2)</sup>. وإذا كان العقل لا يَصْدَقُ بِغَيْرِ الْمَعْتَادِ، فَإِنَّ التَّصَدِيقَ بِخَرَقِ الْعَوَائِدِ جَائِزٌ شَرْعًا، وَقَدْ صَحَّ وَثُبِتَ خَرَقُهَا عَلَى أَيْدِي الْأَنْبِيَاءِ مُعْجَزَةً، وَعَلَى أَيْدِي الْأَوْلِيَاءِ كَرَامَةً.

### صَلَحُ الْمُسْلِمِينَ مَعَ أَهْلِ خَيْبَرَ

قال محمد بن إسحاق: وحاصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أهل خيبر في حصنهم: الوطيط، والسُّلَّام، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، سألوه أَنْ يُسَيِّرَهُمْ وَأَنْ يَحْقَنَ دِمَاءَهُمْ. ففعل. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد حاز الأموال كلها: الشَّقَّ، وَنَطَاطًا، وَالْكُتَيْبَةَ، وَجَمِيعَ حَصُونِهِمْ؛ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ دِينِكَ الْحَصْنَيْنِ. فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ أَهْلُ فِدْكَ<sup>(3)</sup> قَدْ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا، بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم! - يَسْأَلُونَهُ أَنْ يُسَيِّرَهُمْ، وَأَنْ يَحْقَنَ دِمَاءَهُمْ، وَيَخْلُوهُ لَهُ الْأَمْوَالُ، ففعل، وكان فيمن مشى بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وبينهم في ذلك مُحِصَّةٌ بَنُ مَسْعُودٍ أَخُو بَنِي حَارِثَةَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَهْلُ خَيْبَرَ عَلَى ذَلِكَ، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم! - أَنْ يَعَامِلَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ عَلَى النِّصْفِ، وَقَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِهَا

(1) «حمر النعم»: الأموال والإبل المحمودة التي يفتخر بها العرب ويقتنونها.

(2) البداية والنهاية. ج 4 ص 190.

(3) «فدك»: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان.

منكم، وأمر لها؛ فصالحهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على النصف؛ على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم؛ فصالحهم أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خير فينا بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! -، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب»<sup>(1)</sup>. وقد تقدم لنا أن ذكرنا: أن كل ما أحرزه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من العدو دون قتال، فهو فيء خالص له دون المسلمين، يفعل به ما يشاء.

### أسماء شهداء خيبر

هم: ربيعة بن أكتم - ثقف بن عمرو بن سميطة - رفاعه بن مسروح - عبدالله بن أمية - محمود بن مسلمة - أبو الضيَّاح بن النُّعمان مَن شهد بدرًا - الحارث بن حاطب مَن شهد بدرًا أيضًا - عدي بن مرة بن سُرَّاقة - أوس بن حبيب - أنيف بن وائلة - مسعود بن سعد - بشر بن البراء بن معرور، مات بسم الشاة المسمومة - فضيل بن النُّعمان - عامر بن الأكوع، مات حينما أصابه سيفه وهو يقاتل العدو - عمارة بن عقبة بن عبَّاد - يسار، العبد الأسود - ورجل من أشجع. قال محمد ابن عمر الواقدي: «فجميع من استشهد خمسة عشر رجلاً. وقد اختلف في الصلاة عليهم فقال قائل: صلى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال قائل: لم يصل عليهم. وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً»<sup>(2)</sup>.

### الهدية المسمومة

قال محمد بن عمر الواقدي: «قالوا: لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - خيبر واطمأن، جعلت زينب بنت الحارث تسأل: أي الشاة أحب إلى محمد؟ فيقولون: الذراع والكتف. فعمدت إلى عَنز لها فذبحتها، ثم عمدت إلى سُمَّ لا بطي»<sup>(3)</sup>، قد شاورت اليهود في سُموم، فأجمعوا لها على هذا السَّم بعينه، فسَمَّت الشاة وأكثرت في الذراعين والكتفين. فلما غابت الشمس، صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - المغرب وانصرف إلى منزله، ويجد زينب جالسة عند رَحله فيسأل عنها، فقالت: أبا القاسم! هدية أهديتها لك. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 510، 511.

(2) كتاب المغازي. ج 2 ص 700.

(3) «لا بطي»: شديد الصرع لمن أصابه.

وسلم! - بالهدية، فقبضت منها ووضعت بين يديه، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لأصحابه، وهم حضور، أو من حضر منهم: ادنوا فتعشوا! فدنوا فمدوا أيديهم، وتناول رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الذراع، وتناول بشر بن البراء عظماً، وأنهش رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - منها نهشاً، وأنهش بشر فلماً ازدرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أكلته ازدرد بشر. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: كفوا أيديكم فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة. فقال بشر بن البراء: قد والله - يا رسول الله! - وجدت ذلك من أكلتي التي أكلتها، فما منعني أن ألفظها إلا كراهية أن أنقص إليك طعامك، فلما تسوغت ما في يدك لم أرغب بنفسى عن نفسك. ورجوت أن لا تكون ازدردتها وفيها نعي. فلم يرم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطليسان. وما طله ووجعه سنة لا يتحول إلا ما حول، ثم مات منه. ويقال: لم يقم من مكانه حتى مات. وعاش رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بعد ذلك ثلاث سنين. ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بزئب فقال: سممت الذراع؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: الذراع. قالت: نعم. قال: وما حملك على ذلك؟ قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت، فقلت: إن كان نبياً فستخبره الشاة ما صنعت، وإن كان ملكاً استرحنا منه. فاختلف علينا فيها، فقال قائل رواية: أمر بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقُتلت ثم صُلبت. وقال قائل رواية: عفا عنها. وكان نفر ثلاثة قد وضعوا أيديهم في الطعام ولم يُسيغوا منه شيئاً. فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أصحابه فاجتمعوا أوساط رؤوسهم من الشاة، واحتجم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - تحت كتفه اليسرى. ويقال: احتجم على كاهله، حجه أبو هند بالقرن<sup>(1)</sup> والشفرة. وقالوا: وكانت أم بشر بن البراء تقول: دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في مرضه الذي مات فيه وهو محموم، فمسسته فقلت: ما وجدت مثلاً وعك<sup>(2)</sup> عليك على أحد! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: كما يضاعف لنا الأجر كذلك يضاعف لنا البلاء؛ زعم الناس أن برسول الله ذات الجنب<sup>(3)</sup> ما كان الله لِيُسلطها عليّ؛ إنما هي همزة من

(1) «القرن» - بفتح القاف والراء -: رأس السيف والخربة.

(2) «الوعك» : الحمى.

(3) «ذات الجنب» : مرض يُصيب الرئة، ويقال له : ذات الرئة أيضاً.

الشيطان؛ ولكنه من الأكلة التي أكلتُ أنا وابنتك يوم خبير. ما زال يُصيّني منها عداد<sup>(1)</sup> حتى كان هذا أو أن انقطاع أبهر<sup>(2)</sup>. فمات رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - شهيداً<sup>(3)</sup>.

### الحديث عن صفية أم المؤمنين

قال إسماعيل بن كثير: «كان من شأنها أنه لما أخلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يهود بني النضير من المدينة، كما تقدّم، فذهب عامتهم إلى خبير، وفيهم حيّ بن أخطب وبنو أبي الحقيق، وكانوا ذوي أموال وشرف في قومهم، وكانت صفية إذ ذاك طفلة دون البلوغ، ثم تأهلت للتزويج، تزوّجها بعض بني عمّها. فلما زُفّت إليه وأدخلت إليه بنى بها ومضى على ذلك ليل رأت في منامها: كأن قمر السماء قد سقط في حجرها، فقصّت رؤياها على ابن عمّها (زوجها كنانة بن أبي الحقيق). فلطم وجهها وقال: أتتمنين ملك يثرب أن يصير بعلك؟! فما كان إلا مجيء رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وحصاره إيّاهم، فكانت صفية في جملة السبي، وكان زوجها في جملة القتلى. ولما اصطفاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وصارت في حوزة وملكه - كما سيأتي - وبنى بها بعد استبرائها وحلّها، وجد أثر تلك اللطمة في خدّها، فسألها: ما شأنها؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة، رضي الله عنها وأرضاها<sup>(4)</sup>. جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن أنس بن مالك - رضي الله عنه! - قال: قدّمنا خبير، فلما فتح الله عليه (أي: على رسول الله) الحصن، ذكر له جمال صفية بنت حيّ بن أخطب، وقد قُتل زوجها، وكانت عروساً، فاصطفاها النبي - صلى الله عليه وسلم! - لنفسه فخرج بها حتى بلغنا سدّ الصّهباء، حلّت، فبنى بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ثمّ صنع حبساً في نطع صغير، ثمّ قال لي: آذن من حولك. فكانت تلك وليمة على صفية، ثمّ خرجنا إلى المدينة، فرأيت النبي - صلى الله عليه وسلم! - يُحوّي<sup>(5)</sup> لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب... عن حميد الطويل، (أنّه) سمع أنس بن مالك - رضي الله عنه! - (يقول): إن النبي - صلى الله عليه وسلم! - أقام على صفية

(1) «عداد»: احتياج، وآلام مثل آلام اللديغ.

(2) «الأبهر»: عرق متصل بالقلب.

(3) كتاب المغازي. ج 2 ص 677 - 679.

(4) البداية والنهاية. ج 4 ص 196.

(5) «يحوّي»: يجعل لها حوية؛ وهي كساء محشو يدار حول الرّكاب.

بنت حُيَّ بطريق خبير ثلاثة أيام حتى أعرس<sup>(1)</sup> بها . وكانت صفية فيمن ضُرب عليها الحجاب . حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر بن أبي كثير قال : أخبرني حميد : أنه سمع أنساً - رضي الله عنه !- يقول : قام النبي - صلى الله عليه وسلم !- بين خبير والمدينة ثلاث ليال ، يُبْنَى عليه بصفية ، فدعوتُ المسلمين إلى وليمته ، وما كان فيها من خُبْز ولا لحم ؛ وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع ، فُبْسِطَ ، فألقى عليها التمرَ والأقطَ والسَّمَنَ فقال المسلمون : إحدى أمّهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه ؟ قالوا : إن حجبها فهي إحدى أمّهات المؤمنين ، وإن لم يحجبها فهي ممّا ملكت يمينه . فلما ارتحل وطأ لها خلقه ومدّ الحجاب .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** ما أعدّ الله للراعي الأمين على غنمه والشهيد في سبيل الله ! قال محمد ابن إسحاق : « وكان من حديث الأسود الراعي - فيما بلغني - : أنه أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو محاصر لبعض حصون خبير ، ومعه غنم له ، كان فيها أجيراً لرجل من يهود ، فقال : يا رسول الله ! أعرض عليّ الإسلام ، فعرضه عليه ، فأسلم - وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه - فلما أسلم قال : يا رسول الله ! إنني كنتُ أجيراً لصاحب هذه الغنم ، وهي أمانة عندي ، فكيف أصنع بها ؟ قال : اضرب في وجوهها ، فإنها سترجع إلى ربّها - أو كما قال - فقال الراعي : فأخذ حَفَنَةً من الحصى فرمى بها في وجوهها وقال : ارجعي إلى صاحبك فوالله لا أصحبك أبداً ، فخرجت مجتمعة كأن سائِقاً يسوقها ، حتى دخلت الحصن ، ثم تقدّم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر فقتله ، وما صلى لله صلاة قطّ ، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فوضع خلقه ، وسُجِّيَ بشملة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ومعه نفر من أصحابه ، ثم أعرض عنه ، فقالوا : يا رسول الله ! لم أعرضت عنه ؟ قال : إنّ معه الآن زَوْجَتِيَّ من الحور العين<sup>(2)</sup> . قال محمد بن إسحاق : « وأخبرني عبدالله بن أبي نجيح أنه ذكّر له : أنّ الشهيد إذا ما

(1) وكان مهرها عتقها وتحريرها من ربة السّبي ، كما قالت : « اخترت الله ورسوله والإسلام ، فأعتقني رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وتزوّجني وجعل عتقي مهري » . (الواقدي . كتاب المغازي . ج 2 ص 675) .

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 6 ص 518 ، 519 .

أُصِيبَ تَدَلَّتْ لَهُ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ عَلَيْهِ تَنْفُضَانِ التُّرَابِ عَنْ وَجْهِهِ، وَتَقُولَانِ تَرَبَّابَ اللَّهِ وَجْهَ مَنْ تَرَبَّكَ، وَقَتْلَ مَنْ قَتَلَكَ»<sup>(1)</sup>.

**العبرة الثانية:** تَكَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى النِّسَاءِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَرَفَقَ بِمَنْ اسْتَحْيَتْ مِنْ حَيْضِهَا، فَأَرْشَدَهَا إِلَى مَا تَصْلَحُ بِهِ نَفْسُهَا. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «وَشَهِدَ خَيْرٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَرَضَ»<sup>(2)</sup> لِهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - مِنَ الْفِيءِ، وَلَمْ يَضْرِبْ لِهِنَّ بِسَهْمٍ. حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ سُوَيْمٍ، عَنْ أُمِّهِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، عَنْ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، قَدْ سَمَّاهَا لِي<sup>(3)</sup>، قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ إِلَى وَجْهِكَ هَذَا، وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى خَيْرٍ، فَنَدَاوِي الْجَرْحَى، وَنَعِينُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَعْنَا، فَقَالَ: عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ. قَالَتْ: فَخَرَجْنَا مَعَهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدَثَةً، فَأَرَدَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - عَلَى حَقِيَّةٍ رَحَلَهُ. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - إِلَى الصُّبْحِ وَأَنَاخَ، وَنَزَلَتْ عَنْ حَقِيَّةٍ رَحَلَهُ، وَإِذَا بِهَا دَمٌ مَنِّي، وَكَانَتْ أَوَّلَ حَيْضَةٍ حَضَّتُهَا، قَالَتْ: فَتَقَبَّضْتُ إِلَى النَّاقَةِ وَاسْتَحْيَيْتُ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - مَا بِي وَرَأَى الدَّمَ، قَالَ: مَا لَكَ؟ لَعَلَّكَ نَفَسْتُ. قَالَتْ: قُلْتُ: نَعَمْ. أَمَرَنِي أَنْ أَجْعَلَ فِي طَهْوَري مِلْحًا قَالَ: فَأَصْلَحِي مِنْ نَفْسِكَ، ثُمَّ خُدِّي إِنْاءً مِنْ مَاءٍ، فَاطْرَحِي فِيهِ مِلْحًا، ثُمَّ اغْسِلِي بِهِ مَا أَصَابَ الْحَقِيَّةَ مِنَ الدَّمِ، ثُمَّ عَوْدِي لِمَرْكَبِكَ. قَالَتْ: فَلَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - خَيْرٌ، رَضَخَ لَنَا مِنَ الْفِيءِ، وَأَخَذَ هَذِهِ الْقِلَادَةَ، الَّتِي تَرَبَّنَ فِي عُنُقِي، فَأَعْطَانِيهَا، وَعَلَّقَهَا بِيَدِهِ فِي عُنُقِي، فَوَاللَّهِ لَا تَفَارِقُنِي أَبَدًا. قَالَتْ: فَكَانَتْ فِي عُنُقِهَا حَتَّى مَاتَتْ، ثُمَّ أَوْصَتْ أَنْ تُدْفَنَ مَعَهَا. قَالَتْ: وَكَانَتْ لَا تَطْهَرُ مِنْ حَيْضَةٍ إِلَّا جَعَلَتْ فِي طَهْوَرها<sup>(4)</sup> مِلْحًا، وَأَوْصَتْ بِهِ أَنْ يُجْعَلَ فِي غُسْلِهَا حِينَ مَاتَتْ»<sup>(5)</sup>.

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف، ص 518-519.

(2) «فرضخ»: أعطى قليلاً.

(3) قال السهيلي: في الروض الأنف. ج 6 ص 572: «وقد يقال: اسمها ليلى. ويقال: هي امرأة أبي ذر الغفاري».

(4) «طهورها»: بفتح الطاء -: اسم لما يُطهَّر به من الماء؛ الماء الطاهر بنفسه المطهر لغيره.

(5) المصدر السابق. ج 6 ص 516، 517.

**العبرة الثالثة :** حيلة الحجاج بن علاط السُّلَمي تترك في أهل مكة القلق والارتباك ، وتزرع في قلب العباس بن عبد المطلب الفرح والاطمئنان على ما أحرزه ابن أخيه من النصر المبين . و«الْحَرْبُ خُدْعَةٌ»<sup>(1)</sup> . قال محمد بن إسحاق : «وَلَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرَ كُلَّمَا رَسُلَ اللَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! الْحَجَّاجُ بْنُ عَلَاطِ السُّلَمِيِّ ثُمَّ الْبَهْزِيُّ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّ لِي بِمَكَّةَ مَالًا عِنْدَ صَاحِبَتِي (زَوْجَتِي) أُمِّ شَيْبَةَ بِنْتِ أَبِي طَلْحَةَ - وَكَانَتْ عِنْدَهُ ، لَهُ مِنْهَا مُغْرَضٌ بِنِ الْحَجَّاجِ - وَمَالٌ مَتَرَفَقٌ فِي تُجَّارِ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَأَذَّنَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَأَذَّنَ لَهُ . قَالَ : إِنَّهُ لَا بَدَلَ لِي - يَا رَسُولَ اللَّهِ ! - مِنْ أَنْ أَقُولَ ، قَالَ : قُلْ ، قَالَ الْحَجَّاجُ : فَخَرَحْتُ حَتَّى إِذَا قَدِمْتُ مَكَّةَ وَجَدْتُ بِشْيَةَ الْبَيْضَاءِ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ يَتَسَمَّعُونَ الْأَخْبَارَ ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! - وَقَدْ بَلَغَهُمْ أَنَّهُ قَدْ سَارَ إِلَى خَيْبَرَ ، وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّهَا قَرْيَةُ الْحِجَازِ ، رِيفًا وَمَنْعَةً وَرَجَالًا ، فَهَمُّ يَتَحَسَّسُونَ الْأَخْبَارَ ، وَيَسْأَلُونَ الرِّكْبَانَ ، فَلَمَّا رَأَوْنِي قَالُوا : يَا حَجَّاجُ بْنُ عَلَاطٍ - وَلَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِي - أَخْبَرْنَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ الْقَاطِعَ قَدْ سَارَ إِلَى خَيْبَرَ ، وَهِيَ بَلَدُ يَهُودٍ وَرِيفُ الْحِجَازِ ، قَالَ : قُلْتُ : قَدْ بَلَغَنِي ذَلِكَ وَعِنْدِي مِنَ الْخَبَرِ مَا يَسْرِكُمْ ، فَالْتَبَطُوا<sup>(2)</sup> بَجَنِبِي نَاقَتِي يَقُولُونَ : إِيْهِ يَا حَجَّاجُ ! قُلْتُ : هُزِمَ هَزِيمَةً لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا قَطً ، وَقُتِلَ أَصْحَابُهُ قِتْلًا لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهِ قَطً ، وَأُسِرَ مُحَمَّدٌ أَسْرًا ، وَقَالُوا : لَا نَقْتُلُهُ حَتَّى نَبْعَثَ بِهِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، فَيَقْتُلُوهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ بِمَنْ كَانَ أَصَابَ مِنْ رَجَالِهِمْ ، فَقَامُوا وَصَاحُوا بِمَكَّةَ ، وَقَالُوا : قَدْ جَاءَكُمْ الْخَبَرُ ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ إِنَّمَا تَنْتَظِرُونَ أَنْ يُقَدَّمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فَيُقْتَلَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ . قُلْتُ : أَعَيْنُونِي عَلَى جَمْعِ مَا لِي بِمَكَّةَ وَعَلَى غُرْمَائِي ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقْدِمَ خَيْبَرَ ، فَأُصِيبَ مِنْ قُلٍّ<sup>(3)</sup> مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنِي التَّجَارُ إِلَى مَا هُنَاكَ . فَقَامُوا فَجَمَعُوا لِي مَا لِي كَأَحَثِّ جَمْعٍ سَمِعْتُ بِهِ . وَجِئْتُ صَاحِبَتِي فَقُلْتُ : مَالِي - وَقَدْ كَانَ لِي عِنْدَهَا مَالٌ مَوْضُوعٌ - لَعَلِّي الْحَقَّ بِخَيْبَرَ ، فَأُصِيبَ مِنْ فُرْصِ الْبَيْعِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنِي التَّجَارُ . فَلَمَّا سَمِعَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ الْخَبَرَ ، وَجَاءَهُ عَنِّي ، أَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ إِلَى جَنِبِي - وَأَنَا فِي خِيْمَةٍ مِنْ خِيَامِ التَّجَارِ - فَقَالَ : يَا حَجَّاجُ ! مَا هَذَا الْخَبَرُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ؟ فَقُلْتُ : وَهَلْ عِنْدَكَ حِفْظٌ لِمَا وَضَعْتُ عِنْدَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : فَاسْتَأْخِرْ عَنِّي حَتَّى أَلْقَاكَ عَلَى خَلَاءٍ ، فَإِنِّي فِي جَمْعِ مَالِي كَمَا تَرَى ، فَأَنْصَرِفُ عَنِّي حَتَّى أَفْرُغَ . قَالَ : حَتَّى إِذَا فَرِغْتَ مِنْ جَمْعِ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ لِي بِمَكَّةَ وَأَجْمَعْتُ

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، عن أبي هريرة وجابر بن عبد الله وغيرهما .

(2) «فالتبطوا» : أحاطوا بها وأطافوا بجانبها .

(3) «القل» : القوم المهزومون .

الخروج، لقيت العباس، فقلت: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل! فإني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، قال: أفعل. قلت: فإني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً على بنت مالكمهم - يعني: صفية بنت حيي - ولقد افتتح خبير، وانتثل<sup>(1)</sup> ما فيها، وصارت له ولأصحابه، فقال: ما تقول يا حجاج؟ قلت: إي والله فاكتم عني، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالي، فَرَقاً<sup>(2)</sup> من أن أُغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك، فهو والله على ما تحب. حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حُلَّةً له، وتخلّق، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رآوه قالوا: يا أبا الفضل! هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة، قال: كلا، والله الذي حلفتم به لقد افتتح محمد خبير وثرك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: مَنْ جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، وقد دخل عليكم مسلماً، فأخذ ماله، فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه، فيكون معه. قالوا: يا لعباد الله! انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ولم ينشوا<sup>(3)</sup> أن جاءهم الخبر بذلك.

فمن خلال هذا النص يتضح لنا أمران اثنان:

**أولهما:** أن الكذب على أعداء الله ورسوله، من أجل مصلحة الإسلام وحماية المسلمين جائز. وهذا ما فهمناه من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - للحجاج بن علاط: «قل»، فقال ما ليس يصحيح، ولم يصدق في قوله مع مشركي مكة.

**ثانيهما:** أن العباس بن عبد المطلب كان مسلماً مقيماً بمكة بين المشركين.

**العبارة الرابعة:** روى يونس، عن إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع الأنصاري، قال: حدثني عثمان بن كعب القرظي، قال: حدثني رجل من بني النضير، كان في حجر صفية بنت حيي من رهطها يقال له: ربيع، عن صفية بنت حيي قالت: ما رأيت أحداً قط أحسن خلقاً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لقد رأيته ركب بي من خبير - حين أفاء الله عليه - على ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فيضرب رأسي مؤخرة الرجل، فيمسني بيده ويقول: يا هذه مهلاً! يا بنة حيي حتى إذا جاء الصهباء قال: أما إنني أعتذر إليك - يا صفية! - مما صنعت بقومك؛ إنهم قالوا:

(1) «وانثل»: استخرج.

(2) «فرقاً»: خوفاً.

(3) «ينشوا»: يلبثوا.



لي : كذا، وقالوا لي : كذا»<sup>(1)</sup> . وكان أكثر عطفاً عليها بين زوجاته . قالت : «وكننت ألقى من أزواجه ، يفخرن عليّ ويقلن : يا بنت اليهودي ! قالت : أرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يلطّف بي ويكرمني ، فدخل عليّ يوماً وأنا أبكي فقال : ما لك ؟ فقلت : أزواجك يفخرن عليّ ويقلن : يا بنت اليهودي . قالت : فرأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد غَضِبَ ثم قال : إذا قالوا لك أو فاحرك فقلولي : أبي هارون وعمّي موسى»<sup>(2)</sup> .

**العبرة الخامسة :** جاء في صحيح الإمام البخاريّ : «حدثنا يزيد بن أبي عبيد قال : رأيتُ أثر ضربة في سلمة بن الأكوع ، فقلت : يا أبا مسلم ! ما هذه الضربة ؟ فقال : هذه الضربة أصابتنِي يوم خيبر ، فقال النَّاسُ : أُصِيبَ سَلَمَةُ ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم !- فنفت فيه ثلاث نفثات ، فما اشتكىها حتى الساعة» .

**العبرة السادسة :** اعتذار حسان بن ثابت عن تخلف أيمن ابن أم أيمن عن غزوة خيبر ، وذكرُ مقام أمّه هذه عند الله ورسوله . قال محمد بن إسحاق : «وقال حسان بن ثابت أيضاً - وهو يعذر أيمن بن أم أيمن عن عبيد ، وكان قد تخلف عن خيبر ، وهو من بني عوف بن الخزرج ، وكانت أمّه أم أيمن مولاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ؛ وهي أم أسامة بن زيد فكان أخا أسامة لأمّه :

عَلَى حِينَ أَنْ قَالَتْ لِأَيْمَنْ أُمُّهُ	جَبْنَتْ وَلَمْ تَشْهَدْ فَوَارِسَ خَيْبَرَ
وَأَيْمَنْ لَمْ يَجْبُنْ وَلَكِنْ مُهْرَهُ	أَضْرَبَهُ شَرْبُ الْمَدِيدِ <sup>(3)</sup> الْمَغْمَرِ
وَكُلَّوْا الَّذِي قَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِ مُهْرِهِ	لَقَاتَلْ فِيهِمْ فَارِسًا غَيْرَ أَعْسَرَ <sup>(4)</sup>
وَلَكِنَّهُ قَدْ صَدَّهُ فَعَلْ مُهْرَهُ	وَمَا كَانَ مِنْهُ عِنْدَهُ غَيْرَ أَعْسَرَ <sup>(5)</sup>

وقد أفادنا عبد الرحمن السهيليّ بزيادة شيء من نسب أيمن وأمّه ، وبمقامها عند الله ورسوله ، فقال : «وذكر (محمد بن إسحاق بن يسار) شعر حسان في ابن أم أيمن ، واسم أبيه عبيدٌ ، واسم أمّه أم أيمن بركة ، وهي أم أسامة بن زيد ، يقال لها : أم الضياء . قال الواقدي :

(1) السهيليّ ، عبد الرحمن . الروض الأنف . ج 2 ص 562 .

(2) الواقدي ، محمد . كتاب المغازي . ج 2 ص 675 .

(3) «المديد» : طويل القامة والعنق .

(4) «أعسر» : من يعمل يساره .

(5) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 6 ص 522 .

اسمها بركة بنت ثعلبة، بن عمرو، بن حصن، بن مالك، بن مسكمة، بن عمرو، بن النعمان. وكانت أمه لعبدالله<sup>(1)</sup> بن عبد المطلب، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: «أُمَّ أَيْمَنَ أُمِّي بَعْدُ أُمِّي». ويقال: كانت لآمنة بنت وهب أم النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي التي هاجرت على قدميها من مكة إلى المدينة، وليس معها أحد، وذلك في حرّ شديد، فعطشت، فسمعت خفيفاً فوق رأسها، فالتفت فإذا دلو قد أدليت لها من السماء، فشربت منها، فلم تظماً أبداً وكانت تعهد الصوم في حمارة القيظ، لتعطش فلا تعطش! وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يزورها، وكان الخليلتان<sup>(2)</sup> يزورانها بعده. وقد روي مثل قصتها عن أم شريك الدوسية: أنها عطشت في سفر فلم تجد ماء إلا عند يهودي، وأبى أن يسقيها إلا أن تدين بدينه، فأبت إلا أن تموت عطشاً، فذگت لها دلو من السماء، فشربت، ثم رفعت الدلو، وهي تنظر<sup>(3)</sup>. وقد تقدم لنا أن تحدثنا عن أم أيمن وأم شريك بشيء من التفصيل عند ذكرهما في هذا البحث الذي نحن بصدد تحريره بحول الله وقوته.

**العبرة السابعة:** أن الله قد حرس أبا أيوب خالد بن زيد؛ كما حرس أبو أيوب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة بنائه بصفية بنت حيي بن أخطب قال محمد بن إسحاق: «ولما أعرس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصفية بخير أو ببعض الطريق، وكانت التي جمعتها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومشطتها وأصلحت من أمرها، أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك. فبات بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار متوشحاً سيفه، يحرس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأى مكانه قال: ما لك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله! خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباهما وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك. فزعموا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»<sup>(4)</sup>. قال عبد الرحمن السهيلي: «فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة، حتى إن الروم لتحرس قبره، ويستسقون به، ويستصحون، وذلك أنه غزا مع يزيد

(1) «عبدالله»: هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(2) «الخليفتان»: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

(3) الروض الأنف. ج 6 ص 578.

(4) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 514.

ابن معاوية سنة خمسين ، فلما بلغوا القُسْطَنْطِينَةَ مات أبو أيوب هنالك ، وأوصى يزيد أن يدفنه في أقرب موضع من مدينة الروم ، فركب المسلمون ومشوا به حتى إذا لم يجدوا مساعاً ، دفنوه ، فسألتهم الروم عن شأنهم ، فأخبروهم أنه كبير من أكابر الصَّحابة ، فقالت الروم ليزيد : ما أحملك وأحمق من أرسلك ! أأمنت أن لا ننشه بعدك ، فنحرق عظامه ؟ فأقسم لهم يزيد : لئن فعلوا ذلك لنهْدمنَّ كلَّ كنيسة بأرض العرب ، ولننْشئنَ قبورهم ، فحيثُ حلفوا لهم بدينهم ليكرمنَّ قبره ، وليحرسنَّه ما استطاعوا . فروى ابن القاسم عن مالك ، قال : بلغني أن الروم يستسقون بقبر أبي أيوب رحمه الله ! فيُسَقَّون<sup>(1)</sup> . وما زال هذا التوسل بأبي أيوب الأنصاري ساري المفعول إلى يومنا هذا . وقد زرتُ ضريحه بضواحي إسطنبول بتركيا ، فرأيت جحافل الزوار تأتي لزيارته من كلِّ حَذبٍ وصَوْبٍ ؛ باكين متوسلين به إلى الله في طلب حاجاتهم وغفران ذنوبهم . وضريحه محروس بحراس الأتراك حراسة مستديمة الأوقات ليلاً ونهاراً . وذلك كله بادٍ وواضح في دعائه - عليه الصَّلاة والسلام !- : «اللَّهُمَّ احْفَظْ أَبَا أَيُوبٍ كَمَا بَاتَ يَحْفَظُنِي» .

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** تحريم أكل لحوم الحُمُرِ الأهليّة ، وقد جاء النهي عن أكلها في عدّة أحاديث صحيحة الرواية والدراية . منها ما جاء في صحيح الإمام البخاري : «عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحُمُرِ الأهليّة . وفي صحيح الإمام البخاري أيضاً عن الشيباني قال : سمعت ابن أبي أوفى - رضي الله عنهما !- قال : أصابتنا مجاعة يوم خيبر ، فإنّ القدور لتغلي ، قال : وبعضها نضجت ، فجاء مُنادي النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم !- : لا تأكلوا من لحوم الحمر شيئاً وأهريقوها . قال ابن أبي أوفى : فتحدثنا أنّه إنّما نهى عنها ، لأنّها لم تُخَمَّس ، وقال بعضهم نهى عنها البتّة ، لأنّها كانت تأكل العذرة » . وفي هذا التعليل نظر ، لأنّ جُلَّ الطيور ، وعلى رأسها الدّجاج ، فأكل لحومها حلال طيّب ؛ رغم أنّها تأكل القذرة<sup>(2)</sup> !! وقد نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يوم خيبر عن جملة أشياء ؛ قاله من لا يُتَّهم في قوله : قال

(1) الروض الأنف . ج 6 ص 579 .

(2) الصحيح أنّ النهي عن أكلها كان لذاتها ، فقد جاء في الأثر الصحيح : «أنّه نادى منادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : إنّ الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر ، فإنها رجس» .

محمد بن إسحاق: «وحدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مكحول: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - نهاهم يومئذ عن أربع: عن إتيان الحبالى من السبايا، وعن أكل الحمار الأهلي، وعن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغنم حتى تُقسم. وحدثني يزيد بن أبي حبيب، عن أبي مرزوق مولى نجيح، عن حنش الصنعاني قال: غزونا مع رؤف بن ثابت الأنصاري المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها: جربة، فقام فينا خطيباً، فقال: يا أيها الناس! إني لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يقوله فينا يوم خير؛ قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماؤه زرع غيره - يعني: إتيان الحبالى من السبايا - ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى أعجفها<sup>(1)</sup> ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه». وعن عبادة بن الصامت أيضاً أنه قال:

نهانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يوم خيبر - عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العَيْن، وتبر الفضة بالورق العَيْن، وقال: ابتاعوا تبر الذهب بالورق العَيْن، وتبر الفضة بالذهب العَيْن<sup>(2)</sup>. انظر كتابنا «الرَّبا في ميزان الإسلام»، فقد أشبعنا الحديث عن هذا الموضوع بما وفقنا الله له.

**الحكم الثاني:** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد أسهم من مغنم خير لكل فرد من أهل الحُدُيبية؛ سواء شهد غزوة خيبر أم لهم يشهدها. قال محمد بن عمر الواقدي: «وكانت خير لأهل الحُدُيبية؛ مَنْ شهدها منهم أو غاب عنها. قال الله عز وجل: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾<sup>(3)</sup>. يعني: خير<sup>(4)</sup>».

**الحكم الثالث:** مَنْ استعجل الموت فقتل نفسه فجزاؤه النار. جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة - رضي الله عنه! - قال: شهدنا خيبر، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لرجل مَنَّ معه يدعي الإسلام: هذا من أهل

(1) «أعجفها»: هزلها.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 503، 504.

(3) سورة «الفتح». الآية 20.

(4) كتاب المغازي. ج 2 ص 684.

النار. فلما حضر القتال، قاتل الرجل أشد القتال، حتى كثرت به الجراحة، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه، فاشتد رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول الله! صدق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه، فقال: قم يا فلان! فأذن: أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن. إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر». فدل هذا الحديث الشريف على أن هذا المنتحر جزاؤه النار، وقد أيد الله به الدين باستماتته في القتال؛ ولو كان فاجراً. وعمل كهذا ليس هو أبداً من باب الاستشهاد؛ بل هو من باب الانتحار المحرم شرعاً وعقلاً أيضاً. والاستشهاد المبرور هو الذي يكون فيه الإعزاز لدين الله والخذلان للكفر اللعين فهو المقام المحمود الذي مدح به المؤمنين في قوله الحكيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾<sup>(1)</sup>. ولا يكون الاستشهاد مبروراً إلا بشرطين اثنين، فإن خلا عن أحدهما أو كليهما، فلا يعدّ استشهاداً مبروراً؛ بل هو انتحار أثيم وكفى.

**الشرط الأول:** أن يكون القتل مقتولاً بسلاح العدو أو بسلاحه أو سلاح مسلم على وجه الخطأ، وليس بسلاحه عمدًا؛ وإلا اعتبر قاتلاً نفسه التي حرم الله قتلها بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾<sup>(2)</sup>.

**الشرط الثاني:** أن تكون عملية القتل نكايه في العدو ونصرًا للمسلمين. قال محمد الشيباني: فأما إذا كان يعلم أنه لا ينكي فيهم، فإنه لا يحل أن يحمل عليهم، لأنه لا يحصل بحملته شيء مما يرجع إلى إعزاز الدين؛ ولكنه يقتل نفسه فقط، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. فالشرط أن تكون حملته بحيث تنكي فيهم ظاهراً؛ فإذا كان لا ينكي، لا يكون مفيداً فيما هو المقصود، فلا يسعه الإقدام عليه، والله الموفق<sup>(3)</sup>. والأحاديث الواردة في تحريم الانتحار وفي الوعيد على قتل الإنسان نفسه كثيرة وصحيحة، منها: ما تقدم لنا سرده عن الإمام البخاري قريباً. ومنها: ما رواه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة: أن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - قال: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهَا خَالِدًا مُخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخْلَدًا فِيهَا

(1) سورة «التوبة». الآية 111.

(2) سورة «النساء». الآية 29.

(3) الشيباني، محمد. كتاب السير الكبير. السرخسي، محمد. تحقيق صلاح الدين المنجد. ج 1 ص 163، 164.

أبداً، ومَن قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يتوجأ<sup>(1)</sup> بها في نار جهنم خالداً مُخلّداً فيها أبداً». وفي صحيح البخاري: «عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار». وفي الصحيحين: «عن جندب - رضي الله عنه! - عن النبي - صلى الله عليه وسلم! -: «كان برجلٍ جراح، فقتل نفسه، فقال الله: بادرني عبدي بنفسه، حرّمت عليه الجنة». واللفظ للبخاري. وقد علّق أحمد بن حنبل العسقلاني على هذا الحديث وغيره - في كتابه: فتح الباري، بشرح البخاري - فقال: «وفي الحديث تحريم قتل النفس... وفيه التحديث عن الأمم الماضية، وفضيلة الصبر على البلاء، وترك التضجر من الآلام؛ ثلاثاً يقضي إلى أشدّ منها، وفيه تحريم تعاطي الأسباب المفضية إلى قتل النفس»<sup>(2)</sup>. وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه! - يكتب إلى عمّاله، ويأمرهم بعدم استعمال البراء بن مالك على قيادة الجيش الإسلامي، لأنّه كان شديد الجراءة لاقتحام المهالك بجيشه، وذلك كلّ من أجل الحفاظ على الجيش الإسلامي، وصيانة أرواحه من الوقوع فيما لا يمكن نجاتها منه، وفيما لا يمكن نجاح الجيش الإسلامي بهذا الاقتحام. وكان عمر أشدّ حرصاً على صيانة أرواح جنود المسلمين حيثما كانوا، وكان يقول: «والذي نفسي بيده ما يسرّني أن تفتحوا مدينة فيها أربعة آلاف مقاتل بتضييع رجل مسلم». انظر كتابنا «الإرهاب والأصولية بين الأصالة والابتداع»؛ فإنّ فيه ما يرضي المسلم المظلوم زماناً ومكاناً.

**الحكم الرابع:** مَنْ قتل نفسه خطأ فلا إثم عليه؛ ولو كان ذلك بسلاحه المردود عليه إبان معركة الجهاد. جاء في صحيح الإمام البخاري: «عن سكّمة بن الأكوع قال: فلمّا تصافّ القوم (في غزوة خيبر) كان سيف عامر (بن الأكوع) قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع دُباب سيفه فأصاب عَيْنَ رُكبةٍ عامر فمات منه». وفي رواية الإمام أحمد: «فلمّا قدمنا خيبر خرج ملكهم مَرَحَبٌ يخطر بسيفه، فبرز له عامر فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ثُرسٍ عامر، فذهب عامر يسفل له أي: يضربه من أسفل، فرجع سيف عامر على نفسه فمات منه. قال: فلمّا قفلوا قال سكّمة: رأني رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو أخذ بيدي قال: ما لك؟ قلت له: فذاك أبي وأمّي! زعموا أنّ عامراً حبط عمله، قال النبي - صلى الله عليه وسلم! -: كذب مَنْ

(1) «توجأ»: رَضَّ بشدّة.

(2) ابن حجر، أحمد العسقلاني. فتح الباري، شرح البخاري. ج 1 ص 500.

قاله؛ إِنَّ لَهُ أَجْرَيْنَ - وجمع بين إصْبَعَيْهِ - إِنَّهُ لجاهد مجاهد قلّ عربي مشى بها مثله . أي : مشى بالأرض أو بالمدينة المنورة أو بالحرب المسعرة .

**الحكم الخامس :** فيما يتعلق بطهارة الماء . قال عبد الرحمن السُّهيليّ : «وقولها : أمرني أن أجعل في طهوري ملحاً . فيه ردّ على مَنْ زعم من الفقهاء أن الملح في الماء إذا غيّر طعمه صيّره مضافاً طاهراً غير مُطَهَّر ، وفي هذا الحديث ما يدفع قوله . ومن طريق النظر أن المخالط للماء إذا غلب على أحد أوصافه الثلاثة : الطعم ، أو اللون ، أو الرائحة ، كان حكم الماء كحكم المخالط له ، فإن كان طاهراً غيّر مُطَهَّر ، كان الماء به كذلك ، وإذا كان لا طاهراً ولا مطهراً كالبول ، كان الماء المخالطه كذلك ، وإن كان المخالط له طاهراً مطهراً كالتراب ، كان الماء طاهراً مطهراً . والملح إن كان ماءً جامداً ، فهو في الأصل طاهر مُطَهَّر ، وإن كان معدنيّاً ترابيّاً ، فهو كالتراب في مخالطة الماء ، فلا معنى لقول من جعله ناقلاً للماء عن حكم الطهارة والتطهير ، ووقع في رواية يونس في السيرة : أن النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- اغتسل عام الفتح من جفنة فيها ماء وكافور ، ومحمّل هذه الرواية عندي - إن صحّت - على أنّه قصد بها التطيب ، وأنّه لم يكن مُحَدِّثاً ، ولأبي حنيفة في هذه الرواية متعلّق لترخيصه» <sup>(1)</sup> .

**الحكم السادس :** في تقسيم أرض خيبر وأموال أهلها . قال محمد بن إسحاق : «وكانت المقاسم على أموال خيبر ، على الشقّ ونطاة والكتيبة ، فكانت الشقّ ونطاة في سُهْمَانِ المسلمين ، وكانت الكتيبة خُمُسُ الله ، وسهم النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين ، وطُعْمُ أزواج النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- وطُعْمُ رجال مشوا بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وبين أهل فدّك بالصّلح . . . وقُسمت أرض خيبر على أهل الحُدَيْبِيَّةِ ، مَنْ شهد خيبر ، وَمَنْ غاب عنها ، ولم يغب عنها إلّا جابر بن عبد الله بن عمرو ابن حَرَام ، فقسم له رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- كسهم مَنْ حضرها . . .» <sup>(2)</sup> . وقال عبد الرحمن السُّهيليّ : «أَمَّا قَسْمُ غَنَائِمِهَا ، فلا خلاف فيه وفي كلِّ مَعْتَمٍ بنصّ القرآن كما تقدّم في غزاة بدر . . . ولولا الخروج عمّا صمدنا إليه لذكرنا سرّاً بديعاً وفقهاً عجيّاً في قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ خُمُسُهُ ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ <sup>(3)</sup> . باللام ولم يقل ذلك في اليتامى

(1) الروض الأنف . ج 6 ص 580 .

(2) السيرة النبويّة بشرح الروض الأنف . ج 6 ص 524 .

(3) سورة «الأنفال» . الآية 41 .

والمساكين، وقال: «وللرسول»، وقال في أول السّورة: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾<sup>(1)</sup>. وقال في آية الفية: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾<sup>(2)</sup>. ولم يقل: رسوله. وكلّ هذا الحكمة، وحاشا لله أن يكون حرف من التنزيل خالياً من حكمة. وقال أبو عبيد في كتاب الأموال: قسم النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - أرض خيبر أثلاثاً أثلاثاً: السّلام، والوطيح والكتيبة، فإنّه تركها لنوائب المسلمين وما يعرفهم، وفي هذا ما يقوّي أن الإمام مُخَيَّرٌ في أرض القنوة؛ إن شاء قسمها أخذاً بقول الله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(3)</sup>. الآية. فيجربها مجرى الغنيمة، وإن شاء وقفها كما فعل عمر - رضي الله عنه! - أخذاً بقول الله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾<sup>(4)</sup>. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾<sup>(5)</sup>. فاستوعبت آية الفية جميع المسلمين، ومن يأتي بعدهم، فسمّى آية القرى فيثاً وسمّى الأخرى غنيمة، فدلّ على افتراقها في الحكم: كما افترقا في التسمية<sup>(6)</sup>. وقال محمد بن إسحاق: «وسألت ابن شهاب الزهري: كيف كان إعطاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يهود خيبر نخلهم، أعطاهم النخل على خرّجها، أبثّ ذلك لهم حتى قبض؟ أم أعطاهم إيّاها للضرورة من غير ذلك؟ فأخبرني ابن شهاب: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - افتتح خيبر غنوة بعد القتال، وكانت خيبر ممّا أفاء الله عزّ وجلّ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - خَمَسَهَا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقسمها بين المسلمين، نزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال، فدعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تُعْمِلُوهَا، وتكون ثمارها بيننا وبينكم، وأُقرّكم ما أقرّكم الله، فقبلوا، فكانوا على ذلك يعملونها وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يبعث عبد الله بن رواحة، فيقسم ثمرها، ويعدل عليهم في الخرص، فلمّا توفي الله نبيّه - صلى الله عليه وسلم! - أقرّها أبو بكر - رضي الله تعالى عنه! -

(1) سورة «الأنفال». الآية 1.

(2) سورة «الحشر». الآية 7.

(3) سورة «الأنفال». الآية 41.

(4) سورة «الحشر». الآية 7.

(5) سورة «الحشر». الآية 10.

(6) الرّوض الأنف. ج 6 ص 580.



بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بأيديهم ، على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى توفي ، ثم أقرها عمر - رضي الله تعالى عنه! - صدرأ من إمارته . ثم بلغ عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال في وجعه الذي قبضه الله فيه : لا يجتمعنَّ بجزيرة العرب دينان ؛ ففحص عمر ذلك ، حتى بلغه الثَّبتُ ، فأرسل إلى يهود ، فقال : إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أذن في جلائكم ، قد بلغني أن رسول الله قال : لا يجتمعنَّ بجزيرة العرب دينان . فمن كان عنده عهد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من اليهود فليأتني به ، أنفذهُ له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من اليهود ، فليتهجَّز للجلاء ، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - منهم<sup>(1)</sup> . وقال محمد بن إسحاق أيضاً : «وحدثني نافع مولى عبدالله بن عمر ، عن عبدالله ابن عمر قال : خرجت أنا والزُّبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدُها ، فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا ، قال : فعُدِّي عليَّ تحت اللَّيل ، وأنا نائم على فراشي ، ففُدَعْتُ<sup>(2)</sup> يداي من مرقَفي ، فلما أصبحتُ استصرخُ عليَّ صاحباي فأتياي فسالاني : مَنْ صنعَ هذا بك ؟ فقلتُ : لا أدري ؛ قال : فأصلحنا من يدي ، ثمَّ قدما بي إلى عمر - رضي الله عنه! - فقال : هذا عمل يهود ، ثم قام في النَّاس خطيباً ، فقال : أيُّها النَّاس ! إنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كان عامل يهودَ خير على أنَّا نُخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبدالله بن عمر ، ففدَعُوا يديه ؛ كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصاري<sup>(3)</sup> قبله ، لا نشكُّ أنَّهم أصحابه ، ليس لنا هناك عدوٌّ غيرهم ، فمن كان له مال بخيبر فليُلقَ به فإنِّي مُخرِج يهود ، فأخرجهم» .

### الحكم السابع : فيه أمران اثنان :

**أولهما :** لا إثم على من غلبه النوم ، ولم يفتن لأداء صلاته في وقتها .

**ثانيهما :** جواز الصلاة جماعةً بعد خروج وقتها . قال محمد بن إسحاق : «وحدثني الزُّهري ، عن سعيد بن المسيَّب ، قال : لما انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من خير ، فكان ببعض الطريق ، قال من آخر اللَّيل : مَنْ رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟ قال بلال : أنا يا رسول الله ! أحفظ عليك . فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ونزل النَّاس

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 6 ص 531 ، 532 ، 533 .

(2) «فُدَعْتُ» : فاعوجَّ الرُّسُغُ منهما ، فانقلبت كقيهما إلى أنسيهما .

(3) «الأنصاري» : هو سهل بن أبي حثمة .

فناموا، وقام بلال يُصَلِّي، فصلَّى ما شاء الله عزَّ وجلَّ أن يُصَلِّي. ثمَّ استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمُّقه، فغلبته عيناه، فنام، فلم يوقظهم إلَّا مَسُّ الشمس، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أوَّل أصحابه هبَّ، فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال؟! قال: يا رسول الله! أخذ بنفسِي الذي أخذ بنفسك، قال: صدقت، ثمَّ اقتاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- بعيره غير كثير، ثمَّ أناخ فتوضَّأ، وتوضَّأ النَّاس، ثمَّ أمر بلالاً فأقام الصَّلَاة، فصلَّى رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- بالنَّاس، فلمَّا سلَّم أقبل على النَّاس فقال: «إِذَا نَسِيتُمُ الصَّلَاةَ فَصَلُّوْهَا إِذَا ذَكَرْتُمُوهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ<sup>(1)</sup>: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»<sup>(2)</sup>.

### غزوة وادي القرى

لَمَّا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- من غزوة خيبر، انصرف منتصراً إلى وادي القرى، فحاصر أهله ليالي حتَّى افتتحه عُنُوَّة. قال محمد بن عمر الواقدي: «قال أنس: انصرفنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- من خيبر، وهو يريد وادي القرى، فلمَّا أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- الصَّهْبَاء، سلك على بَرْمَةٍ<sup>(3)</sup> حتَّى انتهى إلى وادي القرى يريد مَنْ بَهَا من اليهود. وكان أبو هريرة يُحَدِّثُ قال: خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- إلى وادي القرى، وكان رفاعة بن زيد بن وهب الجُدَامِي قد وهب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم!- عبداً أسود يقال له: مدْعَم، وكان يُرَحِّلُ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم!- فلمَّا نزلوا بوادي القرى، انتهينا إلى اليهود وقد ضوى إليها أناس من العرب، فبينما مدْعَم يحطُّ رَحْلَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم!- وقد استقبلتنا اليهود بالرَّمْيِ حيث نزلنا، ولم يكن على تعبية وهم يصيحون في أطامهم، فَيُقْبَلُ سَهْمٌ عَائِراً فأصاب مدْعماً فقتله، فقال النَّاس: هنيئاً، لك الجنة! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: كلاً؛ والذي نفسي بيده، إنَّ الشَّمْلَةَ<sup>(4)</sup> التي أخذها يوم خيبر من المغنم لم يُصِبْهَا الْمُقْسَمُ تشتعل عليه ناراً. فلما

(1) المصدر السَّابِق. ج 6 ص 514، 515.

(2) سورة «طه». الآية 14.

(3) «برمة»: قرية من بلاد سُلَيْم؛ وهي عرض من أعراض المدينة، وبين خيبر ووادي القرى.

(4) «الشَّمْلَة»: كساء دون القطيفة؛ أو منزر من صوف وشعر يؤتز به؛ فإذا لَفَّقَ لَفَقَتَيْنِ فهو مُشْمَلَةٌ يشتمل بها النائم.

سمع بذلك النَّاسُ جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -! -بِشْرَاكٍ<sup>(1)</sup> أو بِشْرَاكَيْنِ، فقال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم -: شِرَاكٌ من نارٍ! أو شِرَاكَانِ من نارٍ! وَعبَّى رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! أصحابه للقتالِ وَصَفَّهُمْ، ودفعَ لواءه إلى سعد بن عُبَادَة، ورايَته إلى الحُبَابِ ابنِ المنذر، ورايةً إلى سهل بن حُنَيْفٍ، ورايةً إلى عُبَاد بنِ بَشْرٍ. ثم دعاهم<sup>(2)</sup> رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! إلى الإسلامِ وأخبرهم: إنَّهم أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم، وحسابهم على الله. فبرز رجل منهم وبرز إليه الزُّبَيْر بن العُوَام فقتله؛ ثم برز آخر فبرز إليه الزُّبَيْر فقتله؛ ثم برز آخر فبرز له عليٌّ فقتله؛ ثم برز آخر فبرز له أبو دجَانَة فقتله، ثم برز آخر فبرز له أبو دجَانَة فقتله؛ حتى قتل رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! منهم أحد عشر رجلاً؛ كلِّما قُتلَ رجلٌ دعا مَنْ بَقِيَ إلى الإسلامِ. ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيُصَلِّي رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! بأصحابه، ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عَنوةً، وَغَنَمَهُ الله أموالهم، وَأصابوا<sup>(3)</sup> أثاثاً ومتاعاً كثيراً. وأقام رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! بوادي القُرَى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القُرَى، وترك النخل والأرض بأيدي اليهود، وعاملهم عليها. فلما بلغ يهود تَيْمَاءَ<sup>(4)</sup> ما وطئ به رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! على الجَزِيَّة، وخير وفدك ووادي القُرَى صالحوا رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم. فلما كان زمان عمر - رضي الله عنه -! أخرج (عمر) يهود خيبر وفدك، ولم يُخرج أهل تَيْمَاءَ ووادي القُرَى؛ لأنَّهما دخلتا في أرض الشام، ويرى أنَّ ما دون وادي القُرَى إلى المدينة حجاز، وأنَّ ما وراء ذلك من الشام. وانصرف رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! من وادي القُرَى راجعاً بعد أن فرغ من خير من وادي القُرَى وَغَنَمَهُ الله. فلما كان قريباً من المدينة سرى رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -! ليَلْتَهُ، حتى إذا كان قُبَيْلَ الصُّبْحِ بقليل نزل وعرَّس<sup>(5)</sup>.

(1) «شراك»: سير النعل الذي على ظهرها جمع شُرُك.

(2) الضمير يعود على أهل وادي القُرَى.

(3) ضمير الجمع عائد على المسلمين.

(4) «تيماء»: قرى بين الشام ووادي القُرَى، ويقال لها: تيماء اليهودي.

(5) كتاب المغازي. ج 2 ص 709 - 711. ومعنى «عرَّس»: أخذ إلى الراحة من وعناء السفر.

في هذه السنة - سنة سبع من الهجرة النبوية - بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سرايا بقيادة بعض أصحابه ، إلى مَنْ بقي على إشراكه من قبائل العرب . ورغم أن اختلاف الرواة والمؤرخين في تحديد تاريخ هذه السرايا ما زال قائماً ، فإننا نميل كل الميل إلى ما رواه محمد بن عمر الواقدي ونقله بأمانة النقل . قال - رحمه الله ! ونفعنا بما نقله !:-

### سرية عمر بن الخطاب . رضي الله عنه ! إلى ثربة في شعبان سنة سبع

حدثنا أسامة بن زيد بن أسلم ، عن أبي بكر بن عمر بن عبد الرحمن ، قال : بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عمر رضي الله عنه !- في ثلاثين رجلاً إلى عَجْزِ هَوَازِنَ <sup>(1)</sup> بُثْرَةَ <sup>(2)</sup> ، فخرج عمر - رضي الله عنه !- ومعه دليل من بني هلال ، فكانوا يسرون الليل ويكمنون النهار ، وأتى الخبرُ هَوَازِنَ فهربوا ، وجاء عمر محالّهم فلم يلق منهم أحداً . وانصرف راجعاً إلى المدينة حتى سلك التجديّة ، فلما كان بالجدر قال الهلالي لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه !:- هل لك في جمع آخر تركته من خثعم ، وجاؤوا سائرين قد أجديت بلادهم ؟ فقال عمر : لم يأمرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بهم ؛ إنّما أمرني أن أصمد لقتال هَوَازِنَ بُثْرَةَ . فانصرف عمر راجعاً إلى المدينة .

### سرية أبي بكر . رضي الله عنه ! إلى نجد في شعبان سنة سبع

حدثني حمزة بن عبد الواحد ، عن عكرمة بن عمار ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال : بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أبا بكر - رضي الله عنه !- وأمّره علينا فتبيننا ناساً من هَوَازِنَ ، فقتلتُ بيدي سبعة أهل أبيات وكان شعارنا : «أمت ! أمت !» .

### سرية بشير بن سعد إلى فدك في شعبان سنة سبع

حدثني عبد الله بن الحارث بن الفضيل ، عن أبيه ، قال : بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مُرَّةَ بِدَكَ ، فخرج فلقي رعاء الشاء فسأل : أين النَّاسُ ؟ فقالوا : هم في بواديهم . والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء ، فاستاق النعم والشاء وعاد مُنْحدراً إلى المدينة ، فخرج الصريخ فأخبرهم ، فأدركه الدهم <sup>(3)</sup> منهم عند الليل ، فباتوا

(1) «عجز هوازن» : بنو نصر بن معاوية ، وبنو جشم بن بكر .

(2) «ثربة» : واد بالقرب من مكة على مسافة يومين .

(3) «الدهم» : العدد الكثير من الناس .

يُرامونهم بالنبل حتى فَيَتَ نبلُ أصحابِ بشير، وأصبحوا، وحمل المُرِّيون<sup>(1)</sup> عليهم فأصابوا أصحابِ بشير، وولَّى منهم مَنْ ولَّى. وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى ضُربَ كعبه، وقيل: قد مات، ورجعوا بنعمهم وشائهم. وكان أول من قدَّم بخبر السرية ومُصابها عُلبَةُ بن زَيْد الحارثي. وأُمهل بشير بن سَعْدَ وهو في القتلى، فلما أُمسى تحامل حتى انتهى إلى قَدَك، فأقام عند يهوديَ بِقَدَك أياماً حتى ارتفع من الجراح، ثم رجع إلى المدينة. وهياً رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الزُبَيْر بن العوام فقال: سر حتى تنتهي إلى مُصاب أصحابِ بشير، فإن ظفرك الله بهم فلا تُبقي فيهم. وهياً معه مائتي رجل وعقد له اللواء، فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد ظفّر الله عليهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - للزُبَيْر بن العوام: اجلس! وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل، فخرج أسامة بن زيد في السرية حتى انتهى إلى مُصاب بشير وأصحابه، وخرج معه عُلبَةُ بن زَيْد. حدّثني أفلح بن سعيد، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زَيْد، قال: كان مع غالب عُقبة بن عمرو أبو مسعود، وكعب بن عُجرة، وأَسامة بن زَيْد؛ فلما دنا غالب منهم بعث الطلائع، فبعث عُلبَةُ بن زيد في عشرة ينظر إلى جماعة محالّهم، حتى أوفى على جماعة منهم، ثم رجع إلى غالب فأخبره. فأقبل غالب يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً، وقد اجتلبوا<sup>(2)</sup> وعطّوا<sup>(3)</sup> وهدّوا، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد، فإنّي أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وأن تُطيعوني ولا تعصوني ولا تخالفوا لي أمراً، فإنّه لا رأيَ لمن لا يطاع. ثمّ ألّف بينهم فقال: يا فلان أنت وفلان، يا فلان أنت وفلان، لا يفارق كلّ رجل زميله، وإياكم أن يرجع إليّ أحدكم فأقول: أين فلان صاحبك؟ فيقول: لا أدري؛ وإذا كبرتُ فكبروا. قال: فكبر وكبروا، وأخرجوا السيوف. قال: فأحطنا بالحاضر، وفي الحاضر نَعَمٌ، وقد عطّوا مواشيهم، فخرج إلينا الرجال فقاتلوا ساعة، فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ونحن نصيح بشعارنا: «أمت! أمت!». وخرج أسامة بن زيد في إثر رجل منهم يقال له: نهيك بن مرداس فأبعد، وحوينا على الحاضر وقتلنا من قتلنا، ومعنا النساء والماشية، فقال أميرنا: أين أسامة بن زيد؟ فجاء بعد ساعة من الليل، فلامه أميرنا لائمة شديدة وقال: ألم تر إلى ما عهدتُ إليك؟ فقال: إنّي خرجتُ في إثر رجل جعل يتهكّم بي، حتى إذا

(1) «المُرِّيون»: نسبة إلى بني مرة بصيغة الجمع.

(2) «اجتلبوا» ساقوا إبلهم ومواشيهم.

(3) «عطّوا»: أناخوا إبلهم وجسوها عند الماء.

دنوتُ ولحمتهُ بالسيف قال: لا إله إلا الله! فقال أميرنا: أغمدتَ سيفك؟ قال: لا، والله ما فعلتُ حتى أوردتهُ شعوب<sup>(1)</sup>. قال: قلنا: والله بشئ ما فعلتَ وما جئتَ به؛ تقتل امرأ يقول: لا إله إلا الله! فندم وسقط في يديه، واستقننا النعم والشاء والذرية، وكانت سهامهم عشرة أبعر كل رجل، أو عدلها من الغنم. وكان يُحسب الجزور بعشرة من الغنم. وحدثني شبل بن العلاء، عن إبراهيم بن حوَيْصَة، عن أبيه، عن أسامة بن زيد، قال: كان أميرنا أخى بيني وبين أبي سعيد الخدري. قال أسامة: فلما أصبته وجدتُ في نفسي من ذلك مُوجدة<sup>(2)</sup> شديدة؛ حتى رأيتهُ وما أقدر على أكل الطعام حتى قدمتُ المدينة، فأتيْتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فقبلني واعتنقني واعتنقته، ثم قال لي: يا أسامة! خبرني عن غزاتك. قال: فجعل أسامة يُخبره الخبر حتى انتهى إلى صاحبه الذي قُتل، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! قتلته يا أسامة، وقد قال لا إله إلا الله؟! قال: فجعلتُ أقول: يا رسول الله! إنما قالها تعوداً من القتل. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ألا شققتَ قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟ قال أسامة: لا أقتل أحداً يقول لا إله إلا الله. قال أسامة: وتمنيتُ أني لم أكن أسلمتُ إلا يومئذ. حدثني معمر ابن راشد، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد اللثي، عن عبدالله بن عدي بن الجبار، عن المقداد ابن عمرو قال: قلتُ: يا رسول الله! أرايتُ رجلاً من الكفار يقاتلني، وضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمتُ لله. أقتله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! لا تقتله. قال: فإن قتلته فماذا؟ قال: فإنه بمنزلك التي كنتَ بها قبل أن تقتله، وأنت بمنزله قبل أن يقول كلمته التي قال.

**سرية بني عبد بن ثعلبة، عليها غالب بن عبدالله إلى الميافة<sup>(3)</sup> في رمضان**

**سنة سبع**

حدثني عبدالله بن جعفر، عن ابن أبي عون، عن يعقوب بن عتبة، قال: لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! من غزوة الكدر أقام أياماً ما شاء الله أن يقيم، فقال له يسار موله: يا رسول الله! إني قد علمتُ غرةً من بني عبد بن ثعلبة، فأرسل معي إليهم. فأرسل معه النبي -

(1) «شعوب»: اسم من أسماء الموت.

(2) «موجدة»: غضباً مشوباً بالندم والحزن.

(3) «الميافة»: اسم ماء.

صلى الله عليه وسلم! - غالب بن عبدالله في مائة وثلاثين رجلاً، خرج بهم يسار، فضعن بهم في غير الطريق حتى فَنِيَتْ أزوادهم، واقتسموا التمر عدداً، فبينما القوم ذات ليلة بعدما ساء ظَنُّهم بيسار، وظنَّ القوم أن إسلامه لم يَصَحَّ، وقد انتهوا إلى مكان قد فحَّصه<sup>(1)</sup> السَّيْلُ، فلَمَّا رآه يسار كَبَّرَ قال: والله قد ظفرتُم بحاجتكم، اسلكوا في هذا الفحص حتى ينقطع بكم، فسار القوم فيه ساعة بحيث يُقَرِّون لهم بالشجاعة والسَّخاء، وهم أهل حصون منيعة وأهل نخل، والله إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم. لقد سارت بنو حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان فامتنعوا بهم من النَّاس، ثمَّ قد رأيتَ حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النَّجْدَة وكيف أُدِيلَ عليهم. فقال عُيَيْنَة: هو والله ذاك؛ ولكنَّ نفسي لا تُقَرِّني. قال الحارث: فادخُلْ مع محمد. قال: أصير تابعاً! قد سبق قوم إليه فهم يُزَرُّون بمن جاء بعدهم يقولون: شهدنا بدرًا وغيرها. قال الحارث: وإنَّما هو على ما ترى، فلو تقدَّمتنا إليه لكنَّا من عليه أصحابه، قد بقي قومه بعدهم منه في مَوادعة وهو موقع بهم وقعةً، ما وُطِئَ له الأمر. قال عُيَيْنَة: أرى والله! فاتَّعَدَا يريدان الهجرة والقدوم على النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم! - إلى أن مرَّ بهما قُرُوءُ بن هُبَيْرَة القُشَيْرِيَّ يريد العمرة وهما يتقاوان، فأخبراه بما كانا فيه وما يريدان. قال فروة: لو استأثَّيْتُم حتى تنظروا ما يصنع قومه في هذه المدة التي هم فيها وآتيكم بخبرهم، فأخروا القدوم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ومضى فروة حتى قدم مكة، فتحسَّب من أخبارهم، فإذا القوم على عداوة النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم! - لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبداً، فخيرهم بما أوقع محمد بأهل خيبر. قال فروة: وقد تركتُ رؤساء الضَّاحية على مثل ما أتمت عليه من العدوَّة لمحمد. قالت قُرَيْشٌ: فما الرَّأي، فأنت سيِّد أهل الوبر؟ قال: نقضي هذه المدة التي بينكم وبينه ونستجلب العرب، ثمَّ نغزوه في عُقْر داره. وأقام أياماً يجول في مجالس قريش، ويسمع به نَوَفْل بن معاوية الدَّيْلِيَّ، فنزل من باديته فأخبره بما قال لقريش، فقال نوفل: إذن لا أجد عندكم شيئاً! قدمتُ الآن لمقدمك حيث بلغني: ولنا عدوٌّ قريب داره، وهم عِيَّة نُصَحَّ محمد، لا يُغَيَّبُون عليه حرفاً من أُمُورنا. قال: من هم؟ قال خُزاعة. قال: قُبُحَت خُزاعة! فعدتُ بها يمينا! قال فروة: فماذا؟ قال: استنصرُ قريشاً أن يعينونا عليهم. قال فروة: أنا أكفيكم. فلقني رؤساءهم: صفوان بن أمية، وعبدالله بن أبي ربيعة، وسُهَيْل بن عمرو، فقال: ألا ترون ماذا

(1) «فحصه»: حفره، والفحص: الحفر.

نزل بكم؟! إنكم رضيتم أن تُدافعوا محمداً بالراح! قالوا: فما نصنع؟ قال: تعينون نوفل بن معاوية على عدوه وعدوكم. قالوا: إذن يغزونا محمد في ما لا قبل لنا به فيوطئنا غلبةً، وننزل على حكمه، ونحن الآن في ملّة وعلى ديننا. فلقي نوفل بن معاوية فقال: ليس عند القوم شيء، ورجع فلقي عيينة والحارث فأخبرهما وقال: رأيتُ قومه قد أيقنوا عليه فقاربوا الرجل وتدبروا الأمر؛ فقدّموا رجلاً وأخروا أخرى<sup>(1)</sup>.

فهذه العمرة هي التي بشر الله بها رسوله - عليه الصلّاة والسلام! - وصيّقه في رؤياه التي جاءت مثل فلق الصبح فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾<sup>(2)</sup>. أي: فتح خير. وهذه العمرة هي الموعود بها في قوله - عليه الصلاة والسلام! - لعمر بن الخطاب - حين قال له: ألم تعدنا أننا نأتي البيت ونطوف به؟ - فقال: بلى، فأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. وهذه العمرة هي المشار إليها في قول عبدالله بن رواحة؛ حينما دخل بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى مكة<sup>(3)</sup>:

خَلَّوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ	خَلَّوْا فَكُلُّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَا رَبُّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ	أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ	كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ	وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

ونسب عبد الملك بن هشام البيتين الأخيرين إلى عمار بن ياسر في غير هذا اليوم. لما عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من غزوة خيبر إلى المدينة منتصراً، أقام بها جمادى الأولى، والثانية، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوالاً، وكان في هذه المدة مقتصراً على بعث السرايا؛ كما تقدم ذكرها. وفي شهر ذي القعدة سنة سبع خرج مُعْتَمِراً عمرة القضاء، وساق معه سبعين بدنةً وصحبه في خروجه هذا المسلمون ممن كانوا معه عمرته الأولى بالحديبية، واستعمل على

(1) كتاب المغازي. ج 2 ص 722 - 731.

(2) سورة «الفتح». الآية 27.

(3) وهو أخذ بخطام ناقته عليه الصلاة والسلام!



المدينة عُوَيْف بن الأَضْبَط الدَّيْلِي ، فلمّا سمع أهل مكة بخروجه خرجوا عنه وتحدثت قريش فيما بينها : أن محمّداً وأصحابه في عُسرة وجَهدٍ وشدّة . قال محمّد بن إسحاق : « فحدثني من لا أتّهم ، عن ابن عباس ، قال : صَقّوا له عند دار النَّدْوَة لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلمّا دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسجد اضطجع بردائه وأخرج عَضُدَهُ اليُمْنَى ، ثمّ قال : رَحِمَ الله امرأة أراهم اليوم من نفسه قوّة ، ثمّ استلم الرُّكْنَ ، وخرج يُهرول ويهرول أصحابه معه ، حتّى إذا واره البيتُ منهم ، واستلم الركن اليماني ومشى حتّى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرهما . فكان ابن عباس يقول : كان النَّاس يظنون أنّها ليست عليهم . وذلك أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنّما صنعها لهذا الحيّ من قريش للذي بلغه عنهم ، حتّى إذا حجّ حجّة الوداع فلزمها ، فمضت السنّة بها » <sup>(1)</sup> . فأقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة ثلاثة أيام ، ثم خرج وفاءً للعقد المبرم بينه وبين قريش في السنة السادسة بمناسبة تحرير صلح الحديبية .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** أنّ الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا في سراياهم وغزواتهم لا يتجاوزون أوامر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذا ما يؤكّده لنا قول عمر بن الخطاب ، حينما اقترح عليه الهلاليّ دليل السريّة أن يغزو قبيلة خَثْعَم فقال عمر : لم يأمرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهم ؛ إنّما أمرني أن أصمد لقتال هوازن بترّة .

**العبرة الثانية :** قساوة قلوب المشركين من أهل مكة وحقدهم السافر على الإسلام والمسلمين ، مع عطف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قومه وإكرامه إيّاهم رغم عداوتهم له ، وسماحته وحبّه لمسقط رأسه جعله يتمنى من أهل مكة أن يمدّوا له في إقامته ؛ ولكنهم رفضوا طلبه وحالوا بينه وبين ما تمناه . قال محمد بن إسحاق : « فأقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة ثلاثاً ، فاتاه حُوَيْطِب بن عبد العزّي بن أبي قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل ، في نفر من قريش ، في اليوم الثالث ، وكانت قريش قد وكلته بإخراج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة ؛ فقالوا له : إنّّه قد انقضّى أجلك ، فاخرج عنّا ؛ فقال التّبيّ

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 8 .

- صلى الله عليه وسلم! -: وما عليكم لو تركتموني فأعرستُ بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا، فخرج»<sup>(1)</sup>.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** في القُبْلَة، والمعانقة، والمصافحة. لقد دلّ على جواز القبلة والمعانقة تقبيل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - جعفر بن أبي طالب وأسامة بن زيد ومعانقته إياهما. جاء في كتاب المغازي لمحمد بن عمر الواقدي: «قال أسامة: قدمت المدينة، فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقبلني واعتنقني واعتنقته»<sup>(2)</sup>. وجاء في السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بشرح الروض الأنف: «أن جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه! - قدم (من الحبشة) على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يوم فتح خيبر، فقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بين عينيه والتزمه وقال: ما أدري بأيّهما أنا أسرُّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»<sup>(3)</sup>؟! وروى الترمذي والنسائي، والحاكم، وأبو داود، عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها! - قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة - رضي الله عنها - برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكان إذا دخلت عليه رَحَبَ بها وقام إليها فأخذ بيدها وقبلها وأجلسها في مجلسه، وكانت - هي - إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبلت يده. وأخرج الترمذي عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في بيتي، فأتاه فقرع الباب، فقام إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عُرياناً يَجْرُ ثوبه، والله ما رأيته عُرياناً قبله ولا بعده، فاعتنقه وقبله. وفي «تاريخ جرجان»: عن أنس بن مالك قال: أقبل النبي - صلى الله عليه وسلم! - من غزوة تبوك، فاستقبله سعد بن معاذ، فصافحه النبي - صلى الله عليه وسلم! - ثم قال: يا سَعْدُ! ما هذا الذي أرى بيدك؟ فقال: يا رسول الله! أضرب بالمرء<sup>(4)</sup> والمسحاة فأنفقته على عيالي، قال (أنس): فقبل يده وقال: لا تمسّها النار أبداً. وروى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن عائشة قالت: رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قَبَلَ عُثْمَانَ بن

(1) المصدر السابق. ص 9.

(2) ج 2 ص 725.

(3) ج 6 ص 535.

(4) «المرء»: آلة حديدية يُجْرَف ويُحْفَر بها. وتطلق على الحبل أيضاً.

مظعون حتى رأيت الدموع تسيل على خدّه . وأخرجه الطبراني من طريق عائشة بنت مظعون :  
أنّه قبله على خدّه بعد ما مات .

وأما ما جاء في تقبيل الصحابة للنبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فهو كثير . فمن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو بكر بن المقرئ في «جزء تقبيل اليد» ، عن جابر بن عبد الله : أن عمر رضي الله - قبل يد النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- وأخرج ابن جرير الطبري ، وابن حاتم ، عن السديّ في قوله - تعالى !- : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ الآية<sup>(1)</sup> ، قال له : فغضب رسول الله يوماً من الأيام فقام خطيباً فقال : «سَلُونِي ، فَإِنَّكُمْ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَتَيْتُكُمْ بِهِ» ، فقام إليه رجل من قريش من بني سهم يقال له : عبد الله بن حذافة - وكان يطعن فيه - فقال : يا رسول الله ! من أبي ؟ قال : «أبوك فلان» ، فدعاه لأبيه ، فقام إليه عمر فقبل رجله ، وقال : يا رسول الله ! رضينا بالله رباً وبك نبياً وبالقرآن إماماً ، فاعفُ عَنَّا عفا الله عنك ! فلم يزل به حتى رضي ، فيومئذ قال : «الولد للفرّاش وللعاشر الحجر» ، وأنزل عليه : ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكَ﴾<sup>(2)</sup> . وأخرج البخاريّ في «الأدب المفرد» ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأبو داود ، والإمام أحمد وابن أبي حاتم ، وابن الأعرابيّ في «جزء القبل» ، كلهم من طريق يزيد بن أبي زياد : أن عبد الرحمن ابن أبي ليلى حدّثه أن عبد الله بن عمر حدّثه قال : كنتُ في سرية من سرايا النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فحاص<sup>(3)</sup> الناس حيصة ، فكنتُ فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ثم بتنا ، ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : «مَنْ الْقَوْمُ؟» ، فقلنا : نحن الفرارون ، فقال : «بل أنتم العكّارون»<sup>(4)</sup> أنا فتتكم وأنا فئة المسلمين . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . وقد وردت أحاديث كثيرة في شأن التقبيل وجوازه ، وأكثرها قد جمعها العلامة عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري في كُتيب له ، رحمه الله وجزاء خير الجزاء . فهذا ما يخصّ جواز القبلة والتقبيل . وأما ما يخصّ استحباب المصافحة فقد وردت فيه أحاديث صحيحة الرواية والدراية . منها قوله عليه الصلاة والسلام ! : «تصافحوا يذهب الغلُّ

(1) سورة «المائدة» . الآية 101 .

(2) سورة «المائدة» . الآية 102 .

(3) «فحاص» : انهزم للأعداء .

(4) «العكّارون» : الرّاجعون إلى الحرب مرة بعد أخرى .

عن قلوبكم»<sup>(1)</sup>. وقوله: «إنَّ المسلمين إذا التقيَا، فتصافحَا، وتساءلَا أنزلَ اللهُ بينهما مائةَ رحمة: تسعةٌ وتسعينَ لأبشَّهما وأطْلَقهما وجهًا، وأبرَّهما، وأحْسَنهما مسألةً بأخيه»<sup>(2)</sup>. وقوله: «إذا التقيَ الرجلانِ المسلمانِ فسَلِّمَ أحدهُما على صاحبه، فإنَّ أحبَّهما على الله أحسنُهما بشرًا لصاحبه؛ فإذا تصافحَا نزلتَ عليهما مائةُ رحمة: للبائدي منها تسعونَ، وللمُصافح عشرة»<sup>(3)</sup>. وقال قتادة: قلتُ لأنس بن مالك: - رضي الله عنه -: أكانت المصافحةُ في أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم!؟ قال: نعم. وروى الطبراني بسنده إلى أنس بن مالك أنَّه قال: كان أصحاب النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - إذا تلاقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا. ورواه محتجّ بهم في الصحيح. وقال عبد الرحمن السُّهيلي: «وأما المصافحة باليد عند السلام ففيها أحاديث منها: قوله - عليه السلام! -: «تمامُ تحيَّتكم المصافحةُ». ومنها: حديث آخر: أن أهل اليمن حين قدموا المدينة صافحوا النَّاسَ بالسَّلام، فقال النبيّ - صلى الله عليه وسلم! -: «إنَّ أهلَ اليمن قد سنُّوا لكم المصافحة»<sup>(4)</sup>.

**الحكم الثاني:** في العمرة، فذهب جمهور العلماء إلى الحكم بوجوبها، وذهب باقيهم إلى الحكم بأنها سنة مؤكدة. قال عبد الرحمن السُّهيلي: «والعمرة واجبة في قول أكثر العلماء، وهو قول ابن عمر وابن عباس، وقال الشعبي: ليست بواجبة، وذكر عنه أنَّه كان يقرؤها: «وأتمُّوا الحجَّ والعمرة لله»<sup>(5)</sup>. بالرفع؛ لا بعطفها على الحجّ. وقال عطاء: هي واجبة إلا على أهل مكة، ويكره مالك أن يعتمر الرجل في العام مراراً، وهو قول الحسن وابن سيرين، وجمهور العلماء على الإباحة في ذلك، وهو قول عليّ وابن عباس وعائشة والقاسم بن محمد؛ قالوا يعتمر الرجل في العام ما شاء»<sup>(6)</sup>. وهو الصحيح.

**الحكم الثالث:** في زواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بميمونة بنت الحارث الهلالية؛ هل تزوجها وهو مُحرَّم أم كان حلالاً؟ قال محمد بن عمر الواقدي: حدثني ابن أبي

(1) رواه عبدالله بن عدي الجُرْجانيّ في «الكامل» الذي ألفه في معرفة الضعفاء.

(2) رواه الطبراني عن أبي هريرة.

(3) رواه البزار، عن عمر بن الخطاب.

(4) الروض الأثف. ج 6 ص 586.

(5) سورة «البقرة». الآية 196.

(6) المصدر السابق. ج 7 ص 27.

حبيبة، عن داود بن الحُصَيْن، عن عكرمة، عن ابن عباس: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - خطب ميمونة وهو مُحْرَمٌ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، فزَوَّجها النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وهو مُحْرَمٌ. وحدثني هشام بن سعد، عن عطاء الخراساني، عن سعيد بن المسيَّب قال: لَمَّا حَلَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - تَزَوَّجَهَا<sup>(1)</sup>. وقال عبد الرحمن السُّهَيْلِيُّ: «واختلف النَّاسُ في تزويجه إِيَّاهَا أَكَانَ مُحْرَمًا أَمْ حَلَالًا، فروى ابن عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا مُحْرَمًا، واحتجَّ به أَهْلُ الْعِرَاقِ في تجويز نكاح الْمُحْرَمِ، وخالفهم أَهْلُ الْحِجَازِ، واحتجُّوا بنهيهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ! - عَنِ أَنْ يُنِكَحَ الْمُحْرَمُ أَوْ يُنِكَحَ، وزاد بعضهم فيه: أَوْ يَخْطُبُ، من رواية مالك، وعارضوا حديث ابن عباس بحديث يزيد بن الأصم: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - تَزَوَّجَ مِيمُونَةَ وهو حَلَالٌ»<sup>(2)</sup>. ونحن نميل كل الميل إلى القول بأنَّه تَزَوَّجَهَا وهو حلال غير محرم، بدليل أَنَّهُ لَمْ يَبْنِ بِهَا وهو محرم في مكة؛ بل بنى بها في «سَرْفٍ»<sup>(3)</sup> وهو عائد من مكة إلى المدينة. قال محمد بن إِسْحَاق: «فخرج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، أَنَاهُ بِهَا بـ «سَرْفٍ»، فبنى بها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - هنالك، ثم انصرف رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - إلى المدينة في ذي الحجة»<sup>(4)</sup>.

### أهم حوادث هذه السنة من غير حوادث الجهاد

في هذه السنة - وهي السنة السَّابِعة من الهجرة النبويَّة - عاد جعفر بن أبي طالب من الحبشة بمن كان معه مهاجرًا. قال عبد الملك بن هشام: «وذكر سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عن الأجلح، عن الشعبي: أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! - قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - يوم فتح خيبر، فقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - بين عينيه والتزمه وقال: «ما أدري بأيِّهَما أَنَا أُسْرُ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»<sup>(5)</sup>؟ قال محمد بن إِسْحَاق: «وكان مَنَّ أَقَامَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ من أصحاب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - حتى بعث فيهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - إلى النَّجَاشِيِّ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمَرِيِّ، فحملهم في سفينتين، فقدم بهم عليه، وهو

(1) كتاب المغازي ج 2 ص 738.

(2) الروض الأثف. ج 7 ص 29.

(3) «سَرْفٍ»: موضع على ستة أميال من مكة.

(4) السيرة النبوية بشرح روض الأنف. ج 7 ص 9.

(5) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 6 ص 534، 535.

بخير بعد الحُدَيْبِيَّة»<sup>(1)</sup>. وفي هذه السَّنة تزوّج رسول الله صفيّة بنت حيّي بن أخطب اليهودي، وقد تقدم الحديث عنهما بشيء من التفصيل. وفيها تزوج أيضاً ميمونة بنت الحارث الهلالي. وقال محمد بن إسحاق: «عن عطاء بن أبي رباح ومجاهد أبي الحجاج، عن ابن عباس: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تزوّج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام (أي: مُحَرَّم)، وكان الذي زوّجه إيّاها العباس بن عبد المطلب»<sup>(2)</sup>. وقال عبد الملك بن هشام: «وكانت جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل، وكانت أم الفضل تحت العباس، فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس، فزوّجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة، وأصدقها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أربعمئة درهم»<sup>(3)</sup>. وفي هذه السنة ردّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنته زينب على أبي العاص لقيط بن الربيع بمكة، زوجها في المحرم. وفي هذه السنة قدم حاطب من عند المُقَوْس بمارية القبطية وأختها سيرين، وغلّام خصي وبغلة اسمها: دُلْدُل، وحمار اسمه: يَعْفُور. فأسلمت مارية وأختها قبل قدومهما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأخذ رسول الله مارية لنفسه، فولدت له إبراهيم، ووهب سيرين حسان بن ثابت الأنصاري، فولدت له عبد الرحمن، فهو وإبراهيم ابنا خالتيْن. وفي هذه السنة ماتت أم رومان زينب بنت عامر بن عويمر الكناني؛ وهي زوجة أبي بكر الصّدّيق، ولما دُكِّيت في قبرها، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْخَوَرِ الْعَيْنِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أُمِّ رُومَانَ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَبْرِهَا وَاسْتَغْفَرَ لَهَا، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ مَا لَقِيَتْ أُمُّ رُومَانَ فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ». رَحِمَهَا اللَّهُ وَأَسْكَنَهَا فَسِيحَ جَنَانِهِ. آمِينَ!

## السَّنة الثامنة من الهجرة

### غزوة مؤتة<sup>(4)</sup>

كانت هذه الغزوة في جُمادى الأولى سنة ثمانٍ من الهجرة، والسَّبب فيها قتل الحارث بن عُمير الأزدِي على أيدي أهل مؤتة؛ رغم أنه مرسل برسالة من طرف رسول الله - صلى الله عليه عليه

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف، ج 6، ص 534-535.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف، ج 7، ص 9.

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 9.

(4) «مؤتة»: قرية من أرض البلقاء بالشام.

وسلم!- إلى أهل الشام . قال محمد بن عمر الواقدي: «بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- الحارث بن عُمَيْرُ الأزدِي أحد بني لهبٍ إلى ملك بُصْرَى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شَرَحْبِيل ابن عَمْرُو الغَسَّاني فقال : أين تريد؟ قال : الشام ، قال : لعلك من رُسُلِ محمّد؟ قال : نعم ؛ أنا رسولُ رسولِ الله ، فأمر به فأوثق رباطاً ، ثمّ قدّمه فضربَ عنقه صبراً . ولم يقتل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم!- رسول غيره . فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- الخبر فاشتدّ عليه ، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومَن قتله ، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرُف ، ولم يبيّن رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- الأمر ، فلما صلى الظُّهر جلس وجلس أصحابه ، وجاء التَّعْمان ابن فُتْحُص اليهودي فوقف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- مع النَّاس ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- : زيد بن حارثة أمير النَّاس ، فإن قُتِلَ زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتضِ المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم . فقال التَّعْمان بن فُتْحُص (اليهودي) : أبا القاسم ! إن كنت نبيّاً فسميتَ مَنْ سميت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً ؛ إن الأنبياء في بني إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا : إن أصيب فلان ، فلو سُمِّيَ مائة أصيبوا جميعاً ، ثمّ جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة : اعهد ، فلا ترجع إلى محمّد أبداً إن كان نبيّاً ! فقال زيد : فأشهد أنّه نبيّ صادق بارّ . فلما أجمعوا المسير - وقد عقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- لهم اللّواء وكان أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة - مشى النَّاس إلى أمراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- يودّعونهم ويدعون لهم ، وجعل المسلمون يودّعون بعضهم بعضاً ، والمسلمون ثلاثة آلاف ، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون : دفع الله عنكم ، وردّكم صالحين غانمين ! قال ابن رواحة عند ذلك :

لَكُنْتُ سِئَالُ الرَّحْمَنِ مَغْفَرَةً      وَضَرْبَةُ ذَاتِ فَرْغٍ <sup>(1)</sup> تَقْذِفُ الزَّيْدَا <sup>(2)</sup>

وهي أبيات أنشدنيها شعيب بن عبادة <sup>(3)</sup> . وقال محمّد بن إسحاق : فتجهّز النَّاس ثمّ تهيّؤوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودّع النَّاس أمراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وسلموا عليهم . فلما ودّع عبد الله بن رواحة مَنْ ودّع من أمراء رسول الله - صلى

(1) «فرغ» : سعة .

(2) «الزيدا» : رغبة الدم .

(3) كتاب المغازي . ج 2 ص 755 ، 757 .

الله عليه وسلم! - بكى؛ فقالوا: ما يُكيك يا بن رواحة؟ فقال أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباة بكم؛ ولكني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها النار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾<sup>(1)</sup>. فلست أدري كيف لي بالصَّدر بعد الورود؟! فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال عبدالله بن رواحة:

لَكُنَّيْ أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً      وَضَرْبَةَ ذَاتِ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا  
أَوْ طَعْنَةَ يَدَيَّ حَرَّانَ مُجْهِزَةً      بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبَدَا  
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي<sup>(2)</sup>      أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا

ثم خرج القوم وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خَلَفَ السَّلَامُ عَلَى أَمْرِيَّ وَدَعَّتْهُ      فِي النَّخْلِ خَيْرٌ مُشَيِّعٍ وَخَلِيلِ

ثم مضوا حتى نزلوا معان<sup>(3)</sup>، من أرض الشام، فبلغ النَّاسُ أَنَّ هِرْقُلَ قد نزل مآب<sup>(4)</sup>، من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لحم وجُذام والقَيْنَ وبَهْرَاءَ وبليّ مائة ألف منهم، عليهم رجل من بليّ ثم أحد إراشة، يقال له: مَالِكُ بن زافلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يُمدِّنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. فشجّع النَّاسَ عَبْدُ اللَّهِ بن رواحة وقال: يا قوم! والله إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل النَّاسَ بعدد ولا بقوة ولا بكثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيين؛ إمّا ظهور وإمّا شهادة. فقال النَّاسُ: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى النَّاسُ... حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هِرْقُلَ، من الروم والعرب، من قرى البلقاء يقال لها: مشارف، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة، فالتقى النَّاسُ عندها، فتعباً لهم

(1) سورة «مریم». الآية 71.

(2) «جدثي»: قبري.

(3) «معان»: مدينة في طرف بادية الشام.

(4) «مآب»: مدينة في طرف الشام من ناحية البلقاء.



المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذرة يقال له: قُطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له: عُبَاية بن مالك (أو عبادة بن مالك). ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها (أي: الراية) جعفر فقاتل بها، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتل. فكان جعفر أول رجل من المسلمين عَقَرَ في الإسلام... فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدّم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردّد... ثم نزل. فلما نزل أتاه ابن عمّ له بعرق من لحم فقال: شُدَّ بهذا صُلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتَهَس<sup>(1)</sup> منه نهسةً، ثم سمع الحُطمة<sup>(2)</sup> في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدّم، فقاتل حتى قُتل. ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى<sup>(3)</sup> بهم. ثم انحازوا عنه، حتى انصرف بالناس<sup>(4)</sup>. وقال محمد بن عمر الواقدي: «لما قُتل ابن رواحة انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتهما في كلّ وجه. ثم إن المسلمين تراجعوا، فأقبل رجل من الأنصار يقال له: ثابت بن أرقم، فأخذ اللّواء وجعل يصيح بالأنصار، فجعل الناس يثوبون إليه من كلّ وجه، وهم قليل، وهو يقول: إلّٰي أيّها الناس! فاجتمعوا إليه. فنظر ثابت إلى خالد بن الوليد فقال: خذ اللّواء يا أبا سليمان! فقال: لا أخذه، أنت أحقّ به، أنت رجل لك سنّ، وقد شهدت بدرًا. قال ثابت: خذه أيّها الرّجل! فوالله ما أخذته إلّا لك! فأخذه خالد فحملة ساعة، وجعل المشركون يحملون عليه، فثبت حتى تَكَرَّكَ<sup>(5)</sup> المشركون، وحمل بأصحابه ففضّ جمعاً من جموعهم، ثمّ دهمه منهم بشر كثير، فانحاش المسلمون<sup>(6)</sup> فانكشفوا راجعين... وقُتل المسلمون واتبعهم المشركون، فجعل قُطبة ابن عامر يصيح: يا قوم! يُقَتَّل الرجل مقبلاً أحسن أن يُقتل مدبراً! يصيح بأصحابه فما يثوب إليه

(1) «انتَهَس»: أخذ اللحم بمقدم أسنانه وتغته. فإذا أخذه بجميعها فقد نهشه.

(2) «الحطمة»: زحام الناس وحكم بعضهم بعضاً.

(3) «حاشى»: انحاز.

(4) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 10 - 16.

(5) «تَكَرَّكَ»: تردّد.

(6) «فانحاش المسلمون»: نفروا وتقبّضوا.

أحد، هي الهزيمة، ويتبعون صاحب الراية منهزماً! . . أقبل خالد بن الوليد بالنّاس منهزماً، فلمّا سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقّوهم بالجُرْف<sup>(1)</sup>، فجعل النّاس يحثّون في وجههم التراب ويقولون: يا فُرّار! أفرّتم في سبيل الله؟! فيقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ليسوا بفُرّار؛ ولكنّهم كُرّار إن شاء الله!»<sup>(2)</sup>. وممّا يجدر الانتباه إليه أنّ المؤرخين وكتاب السّيرة النبويّة قد سمّوا بعثة زيد بن حارثة - هذه - غزوة<sup>(3)</sup>؛ مع أنّها لم يكن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! كما يقتضيه اصطلاح العلماء. فعلى الاصطلاح المتفق عليه فليست غزوة؛ بل هي سرية من بين سرايا السنة الثامنة من الهجرة النبويّة. وفي هذه السنة كانت سرية شجاع بن وهب الأسديّ إلى هوازن. قال محمد بن عمر الواقديّ: «بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن بالسّبي<sup>(4)</sup>، وأمره أن يغير عليهم، فخرج، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم وهم غارون وقد أوعز إلى أصحابه قبل ذلك أن لا يمعنوا الطلب، فأصابوا نِعماً كثيراً وشاء، فاستاقوا ذلك كلّهُ حتى قدموا المدينة واقتسموا الغنيمة، وكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً لكلّ رجل، وعدلوا البعير بعشرة من الغنم، وغابت السرية خمس عشرة ليلة»<sup>(5)</sup>. وفي هذه السنة أيضاً كانت سرية كعب بن عمّر إلى ذات أطلاع. قال محمد بن عمّر الواقديّ: «بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! كعب بن عمير الغفاريّ في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاع من أرض الشام، فوجدوا جمعاً من جموعهم كثيراً، فدعّوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل. فلمّا رأى ذلك أصحاب النّبيّ - صلى الله عليه وسلم -! قاتلوهم أشدّ القتال حتى قُتلوا، فأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلمّا برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فأخبره الخبر، فشقّ ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! وهمّ بالبعث إليهم، فبلغه أنّهم قد ساروا إلى موضع آخر، فتركهم».

(1) «الجُرْف»: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

(2) كتاب المغازي. ج 2 ص 763 - 765.

(3) بل هناك عدّة سرايا سمّيت غزوات!

(4) «السّبي»: ماء لبني سُلَيْم، وقيل: اسم جبل.

(5) المصدر السابق. ج 2 ص 753، 754.

وفي هذه السنة كانت سرية عمرو بن العاص ، وهي معروفة عند علماء السيرة النبوية بـ «غزوة ذات السلاسل»<sup>(1)</sup> . قال إسماعيل بن كثير : «بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بُلي<sup>(2)</sup> وعبدالله ومن يليهم من قُضاة . قال عروة بن الزبير : وبنو بُليّ أخوال العاص بن وائل ، فلما صار إلى هناك خاف من كثرة عدوه ، فبعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يستمده ، فندب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- المهاجرين الأولين ، فانتدب أبو بكر وعمر في جماعة من سراة المهاجرين - رضي الله عنهم !- أجمعين ، وأمر عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أبا عبيدة بن الجراح . قال موسى بن عقبة : فلما قدموا على عمرو بن العاص قال : أنا أميركم وأنا أرسلتُ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أستمده بكم ، فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين ، فقال عمرو : إنما أنتم مدد أمددته ، فلما رأى ذلك أبو عبيدة - وكان رجلاً حسن الخلق ، لئن الشيمة - قال : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إليّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن قال : «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا» . وإنك إن عصيتني لأطعنك . فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمر بن العاص . . . فقال له عمرو : فإني أمير عليك ؛ إنما أنت مدد لي ، قال : فدونك ، فصلّى عمرو بن العاص بالناس»<sup>(3)</sup> . وقال محمد بن عمر الواقدي : «فآب إلى عمرو وجمع ، فصاروا خمسمائة ، فसार الليل والنهار حتى وطئ بلاد بُليّ ودوخها .

وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جمع ، فلما سمعوا به تفرقوا ، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بُليّ وعُدرة وبلقين ، ولقي في آخر ذلك جمعا ليس بالكثير ، فقاتلوا ساعة وتراموا بالنبل ، ورُمي يومئذ عامر بن ربيعة بسهم فأصيب ذراعه . وحمل المسلمون عليهم فهربوا ، وأعجزوا هرباً في البلاد وتفرقوا ، ودوخ عمرو ما هناك ، وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا بمكان صاروا فيه . وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم ، وكانون ينحرون ويذبحون . لم يكن في ذلك أكثر من ذلك ، ولم تكن غنائم تُقسم إلا ما ذكر له . . .»<sup>(4)</sup> . وفي

(1) «السلاسل» : ماء بأرض جُدام .

(2) «بُلي» - بضم أوله وفتح ثانيه - : تل قصير أسفل حاذة (موضع كثير الأسود) بينها وبين ذات عرق .

(3) البداية والنهاية . ج 4 ص 273 ، 274 .

(4) كتاب المغازي . ج 2 ص 171 .

هذه السنة كانت سرية الحَبَط<sup>(1)</sup>. قال محمد بن عمر الواقدي: «... بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا عبيدة بن الجراح في سرية فيها المهاجرون والأنصار - وهم ثلاثمائة رجل - إلى ساحل البحر إلى حيٍّ من جهينة، فأصابهم جوع شديد، فأمر أبو عبيدة بالزاد فجمع حتى إذا كانوا ليقسمون التمرة، فقيل لجابر: فما يغني ثلث تمر؟ قال: لقد وجدوا فقدها؛ قال: ولم تكن معهم حمولة؛ إنما كانوا على أقدامهم وأباعر يحملون عليها زادهم، فأكلوا الحَبَط، وهو يومئذ ذو مشرة<sup>(2)</sup>، حتى إن شذق أحدهم بمنزلة مشقة البعير القصّة. فمكثنا على ذلك حتى قال قائلهم: لو لقينا عدواً ما كان بنا حركة إليه من الجهد...»<sup>(3)</sup>. وفي هذه السنة كانت سرية أبي قتادة. قال محمد بن عمر الواقدي: «... قال عبدالله بن أبي حدرّد الأسلمي: تزوّجت ابنة سراق بن حارثة النجاري - وكان قُتل بيدر - فلم أصب شيئاً من الدنيا كان أحب إليّ من مكانها، فأصدقتهما مائتي درهم، فلم أجد شيئاً أسوقه إليها فقلت: على الله وعلى رسوله المعول! فجنّت النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته، فقال: كم سقت إليها؟ فقلت: مائتي درهم، فقال: لو كنتم تغتربونه من ناحية بطحان<sup>(4)</sup> ما زدتكم. فقلت: يا رسول الله! أعني في صداقها. فقال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ما وافقت عندنا شيئاً أعينك به؛ ولكنني قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة في أربعة عشر رجلاً في سرية، فهل لك أن تخرج فيها؟ فإني أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك. فقلت: نعم، فخرجنا فكنا ستة عشر رجلاً بأبي قتادة؛ وهو أميرنا، وبعثنا إلى غطفان نحو نجد فقال: سيروا الليل واكمنوا النهار، وشنوا الغارة، ولا تقتلوا النساء والصبيان. فخرجنا حتى جئنا ناحية غطفان، فهجمنا على حاضر منهم عظيم، وخطبنا أبو قتادة، وأوصانا بتقوى الله عز وجل، وألف بين كل رجلين وقال: لا يفارق كل رجل زميله حتى يقتل أو يرجع إليّ فيخبرني خبره، ولا يأتي رجل فأسأل عن صاحبه فيقول: لا علم لي به، وإذا كبرت فكبروا وإذا حملت فاحملوا، ولا تُمعنوا في الطلب، فأحطنا بالحاضر، فسمعت رجلاً يصرخ: يا خضره<sup>(5)</sup>! فتفاءلت وقلت: لأصين خيراً ولأجمعن إليّ امرأتي! وقد أتيناها ليلاً، فجرد أبو

(1) «الحبط»: ورق ينفض بالمخاطب ويُجفف ويطحن ويخلط بالدقيق أو غيره: بل هو كل ورق مخبوط.

(2) «مشرة»: شبه خوصة تخرج في العضة في كثير من الشجر أو الأغصان الخضر الرطبة قبل أن تتلون بلون.

(3) المصدر السابق. ج 2 ص 774، 775.

(4) «بطحان»: أحد أودية المدينة الثلاثة.

(5) المصدر السابق، ج 2، ص 77-78.

قتادة سيفه، وجردنا سيوفنا، وكبرّ وكبرنا معه، فشددنا على الحاضر، فقاتل رجالاً.. لما رجعتُ من غزوة خُضرة<sup>(1)</sup> - وقد أصبنا فيئاً، سَهْمُ كُلِّ رجلٍ اثنا عشر بغيراً - دخلتُ بزوجتي فرزقني الله خيراً<sup>(2)</sup>.

### ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

وفي شهر صفر لهذه السّنة من الهجرة النبويّة أسلم هؤلاء الثلاثة عن طيب نفس، وحسن إسلامهم. ولكلّ منهم سبب في إسلامه.

#### سبب إسلام عمرو بن العاص

قال محمد بن عمر الواقدي: «حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه قال: قال عمرو بن العاص. كنت للإسلام مجانباً معانداً، فحضرتُ بدرأ مع المشركين فنجوتُ، ثمّ حضرتُ أحدأ فنجوتُ، ثم حضرتُ الخندق ونجوتُ، فقلت في نفسي: كم أوضع<sup>(3)</sup>؟ والله ليظهرنّ محمد على قريش! فخلّفت مالي بالرهط وأفلتُ من الناس - أي: من لقائهم - فلم أحضر الحديبية ولا صلّحها، وانصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! - بالصلح، ورجعت قريش إلى مكة، فجعلتُ أقول: يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه؛ ما مكة بمنزل ولا الطائف، وما من شيء خير من الخروج، وأنا بعدُ ناءٍ عن الإسلام، أرى لو أسلمت قريش كلّها لم أسلم. وقدمت مكة فجمعت رجالاً من قومي كانوا يرون رأيي ويسمعون مني ويقدموني فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومدرهُنا<sup>(4)</sup>؛ مع يُمن نفس وبركة أمر. قلت: تعلمون والله لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيتُ رأياً، قالوا: ما هو؟ قلت: نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن كان يظهر محمد كُنّا عند النجاشي، فنكون تحت يد النجاشي أحبّ إلينا من أن نكون تحت يد محمد؛ وإن تظاهر قريش فنحن من قد عرفوا. قالوا: هذا الرأي! قلت: فاجمعوا ما تهدونه له. وكان أحبّ ما يُهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول

(1) المصدر السابق ج 2 ص 77 - 780.

(2) ومن مضمون هذه العبرة النبوية يُمكن لنا أيضاً أن نستنتج حكماً من الأحكام الشرعية الإسلامية.

(3) أوضع البعير ركبته، إذا حمّله على سرعة السير.

(4) «المدرة»: السيد الشريف والمرجع إليه عند الخصومة والقتال.

الله - صلى الله عليه وسلم! - قد بعثه إليه بكتاب كتبه إليه يُزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فدخل عليه ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية. ولو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك سرت قريش وكنت قد أجزأت<sup>(1)</sup> عنها، حين قتلت رسول محمد. فدخلت على النجاشي فسجدت له كما أصنع، فقال: مرحباً بصديقي! أهديت لي من بلادك شيئاً؟ فقلت: نعم أيها الملك! أهديت لك آدمًا كثيرًا، ثم قرّبه إليه، فأعجبه، وفرّق منه أشياء بين بطارقتيه، وأمر بسائره فأدخل في موضع، وأمر أن يكتب ويحتفظ به. فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك! إنني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول عدوك؛ قد وترنا<sup>(2)</sup> وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله! فرفع يده فضرب بها أنفي ضربةً ظننت أنه كسره، وابتدر منخاري، فجعلت أتلقي الدم بياضي، وأصابني من الدلّ ما لو انشقت بي الأرض دخلت فيها فرقاً<sup>(3)</sup> منه. ثم قلت له: أيها الملك! لو ظننت أنك تكره ما فعلت ما سألتك. فاستحيا وقال: يا عمرو! تسألني أن أعطيك رسول رسول الله، من يأتيه الناموس<sup>(4)</sup> الأكبر الذي كان يأتي موسى، والذي كان يأتي عيسى بن مريم، لتقتله؟! فغير الله قلبي عما كنت عليه، فقلت في نفسي: عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت؟! وقلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال: نعم؛ أشهد به عند الله يا عمرو! فأطعني وأتبعه، والله إنه لعلى الحق، وليظهرن على كل دين خالفه؛ كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أفتبايعني على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ودعا لي بطست فغسل عني الدم وكساني ثياباً، وكانت ثيابي قد امتلأت من الدم فألقيتها. ثم خرجت إلى أصحابي، فلما رأوا كسوة الملك سرّوا بذلك وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلّمه في أوّل مرة وقلت: أعود إليه. قالوا: الرأي ما رأيت! وفارقتهم كأني أعمد لحاجة، فعدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شُحنت برّقع، فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعبيّة<sup>(5)</sup>، وخرجت من الشعبيّة ومعني نفقة، فابتعت بغيراً وخرجت أريد المدينة حتى خرجت على مرّ

(1) أي: كافيتها.

(2) «وترنا»: جعل لنا عليه ثأراً وأصابنا بمكره.

(3) «فرقا»: خوفاً.

(4) «الناموس»: جبريل عليه السلام.

(5) «الشعبيّة»: مرفأ مكة ومُرسى سفنها قبل جدّة.

الظهران، ثم مضيت حتى كنت بالهدة<sup>(1)</sup>، إذا رجلان سبقاني بغير كثير يريدان منزلاً، وأحدهما داخل في خيمة والآخر قائم يُمسك الراحلتين، فنظرت وإذا خالد بن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم، قلت: أين تريد؟ قال: محمداً، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طمع، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها. قلت: وأنا والله قد أردت محمداً وأردت الإسلام، وخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعاً في المنزل، ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة، فما أنسى قول رجل لقيناه بيئر أبي عتبة يصيح: يا رباح! يا رباح! فتننت أن يعينني بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين! فظننت أن يعينني وخالد بن الوليد، ثم ولّى مدبراً إلى المسجد سريعاً، فظننت أنه بشر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بقدمنا، فكان كما ظننت، وأنخنا بالحرّة فلبسنا من صالح ثيابنا، ونودي بالعصر فانطلقنا جميعاً طلّعنا عليه - صلوات الله عليه! - وإن لوجهه تهلاًلاً، والمسلمون حوله قد سُرّوا بإسلامنا. فتقدّم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدّم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدّمت، فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي إليه حياءً منه، فبايعته على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخر. فقال: إنّ الإسلام يحب ما كان قبله، والهجرة تُحب ما كان قبلها. [قلت]: فوالله ما عدل بي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه<sup>(2)</sup> منذ أسلمنا. ولقد كنّا عند أبي بكر بتلك المنزلة. ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب<sup>(3)</sup>.

### سبب إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

قال محمد بن عمر الواقدي: «فحدّثني يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعتُ أبي يحدث يقول: قال خالد بن الوليد: لما أراد الله بي من الخير ما أراد، قذف في قلبي حبّ الإسلام، وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلّها على محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أنّي موضع في غير شيء وأن محمداً سيظهر. فلما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى الحُدَيْيَّة خرجت في خيل من

(1) «الهدة»: موضع بين مكة والطائف.

(2) «حزبه»: اشتدّ عليه.

(3) كتاب المغازي. ج 2 ص 741، 745.

المشركين فلقيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في أصحابه بعُسفان<sup>(1)</sup>، فقممت بإزائه وتعرّضت له ، فصلّى بأصحابه الظهر آمناً منّا، فهممنا أن نغير عليه ، ثمّ لم يُعزَم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطّلع على ما في أنفسنا من الهموم ، فصلّى بأصحابه صلاة العصر: صلاة الخوف، فوقع ذاك منّي موقعاً، وقلت: الرّجل ممنوع واقتربنا: وعدل عن سنن خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلمّا صالح قريشاً بالحدّيبية، ودافعه قريش بالرواح. قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب إلى النّجاشي؟ فقد اتّبع محمّداً، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرّقل فأخرج من ديني إلى نصرانيّة أو يهوديّة، فأقيم مع عجم تابعاً أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في عمرة القضيّة، فتغيّبت فلم أشهد دخوله. وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- في عمرة القضيّة، فطلبني فلم يجدني، فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعد:

فإنّي لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألتني رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عنك فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به. فقال: ما مثله جهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدّمناه على غيره. فاستدرك - يا أخي !- ما فاتك؛ فقد فاتتك مواطن صالحة». فلمّا جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرّني مقالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جدية فخرجتُ إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إنّ هذه لرؤيا. فلمّا قدمت المدينة قلت: لأذكرتها لأبي بكر، فذكرتها، فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك. فلمّا أجمعتُ الخروج إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قلت من أصحابه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟ إنّما نحن أكلة رأس، وقد ظهر محمّد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمّد فاتبعناه، فإنّ شرف محمّد لنا شرف، فأبى أشدّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتّبعته أبداً. فافتربنا وقلت: هذا رجلٌ موتور يطلب وتراً؛ قد قُتل أبوه وأخوه بيدر، فلقيتُ عكرمة بن أبي جهل فقلت له: مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان: قلت: فاطموا ذكرت، قال: لا أذكره. وخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي تُخرج إليّ، فخرجت بها إلى

(1) «عُسفان»: موضع على مرحلتين من مكّة على طريق المدينة.



أن ألقى عثمان بن طلحة فقلت: إن هذا لي لصديق ولو ذكرت له ما أريد! ثم ذكرت من قُتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما عليّ وأنا راحل من ساعتى، فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت: إنَّما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صُبَّ عليه دَنُوبٌ<sup>(1)</sup> من ماء لخرج، وقلت له نحواً ممَّا قلت لصاحبيّه، فأسرع بالإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتى<sup>(2)</sup> بفخّ مُناخه، فاتعدتُ أنا وهو بيأجج<sup>(3)</sup>؛ إن سبقتني أقام وإن سبقتني أقمتُ عليه، فأدجننا<sup>(4)</sup> سَحَرًا فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدّة، فوجد عمرو بن العاص بها فقال: مرحباً بالقوم! فقلنا وبك! قال: أين مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا الدخول في الإسلام واتباع محمد - صلى الله عليه وسلم! قال: وذلك الذي أقدمني، فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرّة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فسرّ بنا، فلبستُ من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فلقيني أخي - الوليد - فقال: أسرع فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد أخبر بك فسرّ بقدمك وهو ينتظركم، فأسرت المشي فطلعتُ عليه، فما زال يتبسّم إليّ حتى وقفتُ عليه؛ فسلمتُ عليه بالنبوة، فردّ عليّ السّلام بوجه طلق، فقلت: إنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله؛ فقال: الحمد لله الذي هدّك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوتُ ألاّ يسلمك إلاّ إلى الخير. قلت: يا رسول الله! قد رأيتُ ما كنتُ أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحقّ، فادع الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: الإسلام يجبُ ما كان قبله، قلتُ: يا رسول الله! على ذلك؟ فقال: اللهم اغفر لخالد كلّما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك. وتقدم عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فبايعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكان قدومنا في صفر سنة ثمان<sup>(5)</sup>.

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** ما أوصى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سرية مؤتة. «عن زيد

ابن أرقم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من

(1) «ذنوب»: الدنوّ العظيم.

(2) «فخّ»: وادي الزاهر بمكة.

(3) «يأجج»: مكان من مكة على ثمانية أميال.

(4) «أدجننا»: سرنا ليلاً.

(5) كتاب المغازي. ج 2 ص 745 - 749.

المسلمين خيراً، أو قال : اغزوا باسم الله وفي سبيل الله ، فقاتلوا مَنْ كفر بالله . لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت (يا أمير السرية) عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فأيتهم أجابوك إليها فاقبل منهم واكف عنهم ، ادعهم إلى الدخول في الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ؛ وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ؛ يجري عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستزلمهم على حكم الله فلا تستزلمهم على حكم الله ؛ ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا . وإذا حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله ؛ ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أهلك وأصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمم آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله . حدثني أبو صفوان ، عن خالد بن يزيد قال : خرج النبي - صلى الله عليه وسلم !- مُشِيعاً لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الدواع ، فوقف ووقفوا حوله فقال : اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين للناس ، فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان ، في رؤوسهم مفاحص <sup>(1)</sup> فاقلعوها بالسيف . ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مريضاً ولا كبيراً فانياً ، ولا تعقرن نخلًا ولا تقطعن شجراً ولا تهدموا بيتاً <sup>(2)</sup> .

**العبرة الثانية :** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد تنبأ باستشهاد زيد بن حارثة وجعفر

ابن أبي طالب وعبدالله بن رواحة ؛ كما أخبر أصحابه باستشهاد هؤلاء الثلاثة إبان استشهادهم في المعركة وهو في المدينة . قال الإمام البخاري : « . . . عن أنس - رضي الله عنه !- أن النبي - صلى الله عليه وسلم !- نعى زيداً وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرغان حتى أخذ الراية سيف <sup>(3)</sup> من سيف الله حتى فتح الله عليهم» . قال أحمد بن حجر العسقلاني : «في حديث أبي قتادة : ثم أخذ

(1) «مفاحص» - جمع مفحص - : مجثم القطا ومبيضه ، وهو هنا مقر للشيطان استوطن رؤوسهم وعشش فيها .

(2) كتاب المغازي . ج 2 ص 757 .

(3) هو خالد بن الوليد .

اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء، وهو أمير نفسه، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره». فمن يومئذ سُمِّي سيف الله<sup>(1)</sup>.

### العبرة الثالثة: جاء في صحيح البخاري: «... عن ابن أبي هلال قال: وأخبرني نافع أن

ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دُبره؛ يعني في ظهره». لأنه كان ثابتاً مُقبلاً في قتاله، ولم يكن فيه فاراً مُدبراً.

### العبرة الرابعة: قال عبد الملك بن هشام: «وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن

أبي طالب أخذ اللواء بيمينه ففُطِعتْ، فأخذه بشماله ففُطِعتْ، فاحتضنه بعَضُدَيْهِ حتى قُتِل رضي الله عنه! وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة، يطير بهما حيث شاء. ويقال: أن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة، فقطعه بنصفيْن<sup>(2)</sup>. وفي صحيح الإمام البخاري:

«... عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عامر قال ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السّلام عليك يا بن ذي الجناحين». «وقال عبد الرحمن السُّهيلي: وروى عكرمة عن ابن عباس: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: دخلتُ الجنةَ البارحة، فرأيت جعفرًا يطير مع الملائكة، وجناحاه مضرّجان بالدم... ومّا ينبغي الوقوف عليه في معنى الجناحين أنّهما ليسا كما يسبق إلى الوهم على مثل جناحي الطائر وريشه، لأن الصورة الآدمية أشرف الصّور وأكملها، وفي قوله - عليه السّلام -: «إنّ الله خلق آدم على صورته» تشريف له عظيم، وحاشا لله من التشبيه والتمثيل؛ ولكنها عبارة عن صفة ملكيّة وقوّة روحانيّة، أُعطيها جعفر كما أُعطيَتها الملائكة. وقد قال الله تعالى لموسى - عليه السلام -: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾<sup>(3)</sup>. فعبر عن العَضُدِ بالجناح توسّعاً، وليس ثمّ طيران، فكيف بمن أُعطي القوة على الطيران مع الملائكة أخلقَ به إذن أن يوصف بالجناح مع كمال الصورة الآدمية وتمازج الجوارح البشريّة، وقد قال أهل العلم في أجنحة الملائكة ليست كما يتوهم من أجنحة الطير؛ ولكنها صفات ملكيّة لا تُفهم إلاّ بالمعانيّة، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَجْنَحَةُ مَئْنَى وَتُلْتِ وَزُبْعٌ﴾<sup>(4)</sup>. فكيف تكون كأجنحة الطير على هذا؟! ولم يُرَ طائر له ثلاثة أجنحة، فكيف بستمائة جناح؟! كما جاء في صفة جبريل - عليه السلام - فدلّ على أنّها صفات لا تنضبط كيفيتها

(1) فتح الباري، بشرح صحيح البخاري. ج 7 ص 413.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 15.

(3) سورة «طه». الآية 22.

(4) سورة «فاطر». الآية 1.

للفكر، ولا ورد أيضاً في بيانها خبر، فيجب علينا الإيمان بها، ولا يفيدنا علماً إعمال الفكر في كفيّتها، وكلّ امرئ قريب من معاينة ذلك. فإما أن يكون من الذين ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُوتُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾<sup>(1)</sup>. وإما أن يكون من الذين تقول لهم الملائكة وهم ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ عَذَابُ الْهُونِ﴾<sup>(2)</sup>. وقد ذهب أحمد بن حجر العسقلانيّ إلى غير رأي السّهيليّ فقال: وهذا الذي جزم به (السّهيليّ) في مقام المنع والذي نقله عن العلماء، ليس صريحاً في الدلالة لما ادّعاه، ولا مانع من الحمل على الظاهر؛ إلّا من جهة ما ذكره من المعهود، وهو من قياس الغائب على الشاهد؛ وهو ضعيف، وكون الصورة البشريّة أشرف الصور لا يمنع من حمل الخبر على ظاهره، لأنّ الصورة باقية. وقد روى البيهقيّ في «الدلائل» من «مرسل عاصم بن عمر بن قتادة»: أنّ جناحي جعفر من ياقوت. وجاء في جناحي جبريل أنّهما لؤلؤ. خرّجه ابن منده في ترجمة ورقة»<sup>(3)</sup>.

**العبرة الخامسة:** جاء في صحيح الإمام البخاريّ: «... عن إسماعيل بن أبي قيس بن أبي حازم قال: سمعتُ خالد بن الوليد يقول: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلّا صفيحة يمانية».

**العبرة السادسة:** أن عمرو بن العاص قد أسلم على يد النجاشيّ أولاً!

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** أن صنّع الطعام لأهل الميّت مطلوب شرعاً. قال عبد الرحمن السّهيليّ: «وذكر أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر أن يُصنّع لآل جعفر طعام، فإنّهم قد شغلوا بأمر صاحبهم، وهذا أصل في طعام التعزّيّة، وتسمّي العرب الوضيمة؛ كما تسمّي طعام العرس: الوليمة، وطعام القادم من السّفر: النّقيعة، وطعام البناء: الوكيرة. وكان الطعام الذي صنّع لآل جعفر - فيما ذكر الزّبير في حديث طويل - عن عبدالله بن جعفر قال: فعمدت سلّمي مولاة النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - إلى شعير، فطحنته، ثمّ آدمته بزيت، وجعلت عليه قُلُقُلًا، قال عبدالله: فأكلتُ منه، وحسبني النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - مع إخوتي في بيته ثلاثة أيّام»<sup>(4)</sup>.

(1) سورة «فُصِّلَتْ». الآية 30.

(2) سورة «الأَنْعَام». الآية 93.

(3) فتح الباري، بشرح البخاري. ج 7 ص 416.

(4) الروض الأنف. ج 7 ص 42.

**الحكم الثاني :** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قد أمر رجلاً أن ينهي نساء جعفر بن أبي طالب عن بكائهن جعفرأ . جاء في صحيح الإمام البخاري : «حدثنا قُتيبة ، حدثنا عبد الوهاب قال : سمعتُ يحيى بن سعيد قال : أخبرني عمرة قالت : سمعتُ عائشة - رضي الله عنها !- تقول : لما جاء (خبر قتل ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة - رضي الله عنهم !- جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وفي المسجد (حال كونه) ، يُعرفُ فيه الحزنُ ، قالت عائشة : وأنا أطلع من صائر الباب تعني : من شق الباب ، فأتاه رجل فقال : أي رسول الله ! إن نساء<sup>(1)</sup> جعفر - قال : وذكر بكاءهن ، فأمره أن ينهاهن ، قال : فذهب الرجل ثم أتى فقال : قد نهيتهن وذكر أنه لم يُطعمه ، قال : فأمره أيضاً ، فذهب ثم أتى فقال : والله لقد غلبتنا . فزعمتُ (عائشة) أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : فاحث في أفواههن من التراب . قالت عائشة : (للرجل) : أرغم الله أنفك (أي : ألققه بالتراب) فوالله ما أنتَ تفعل (ذلك) وما تركت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من العناء . قال أحمد ابن حنبل العسقلاني بعد شرحه لهذا الخبر : «الإشارة إلى أن النبي لم يقع عن مجرد البكاء ؛ بل عن قدر زائد عليه من صياح أو نياحة والله أعلم»<sup>(2)</sup> .

**الحكم الثالث :** جواز التيمم لمن ترتبت عليه جنابة ولم يغتسل خوفاً على نفسه من شدة البرد . قال رافع بن أبي رافع الطائي : «وكان عمرو بن العاص حين قفلنا احتلم في ليلة باردة كأشد ما يكون من البرد ، فقال لأصحابه : ما ترون؟ قد والله احتملتُ ، وإن اغتسلتُمُت ! فدعا بماء فتوضأ وغسل فرجه وتيمم ، ثم قام فصلّى بهم (أي : بأصحابه) ، فكان أول من بعث عوف بن مالك بريداً . قال عوف بن مالك : فقدمتُ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في السحر وهو يُصلّي في بيته ، فسلمتُ عليه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : عوف بن مالك؟ قلتُ : عوف بن مالك يا رسول الله ! قال : صاحب الجزور؟ قلتُ : نعم ، ولم يزد على هذا شيئاً ، ثم قال : أخبرني ! فأخبرته بما كان في مسيرنا وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وبين عمرو بن العاص ومطاوعة أبي عبيدة ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح ! ثم أخبرته أن عمراً صلى بنا وهو جنبٌ ومعه ماء ؛ لم يزد على أن غسل فرجه بماء وتيمم ، فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فلما قدم عمرو على النبي - صلى الله عليه وسلم !- سأله عن صلاته ؟ فأخبره فقال : والذي بعثك بالحق لو اغتسلتُ كُمتُ ، لم أجد قطُّ برداً مثله ، وقد قال

(1) أي : زوجاته .

(2) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري . ج 7 ص 415 ، 416 .

الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾<sup>(1)</sup>. فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! ولم يبلغنا أنه قال شيئاً<sup>(2)</sup>. وفي صحيح أبي داود: «... عن عمران بن أبي آنس، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عمرو بن العاص قال: احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السَّلاسل، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلك، فتيَّمتُ ثمَّ صليتُ بأصحابي الصُّبح، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! فقال: يا عَمْرُو! صليتَ بأصحابك وأنتَ جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلتُ: إنِّي سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾<sup>(1)</sup>. فضحك ولم يقل شيئاً<sup>(3)</sup>.

**الحكم الرابع:** جواز قتل المركوب من البهائم؛ إذا خيف أن يأخذها العدو فيركبها ويقاقل عليها المسلمين، وهذا ما جعل جعفر بن أبي طالب يعقر فرسه ويقاقل راجلاً. قال عبد الرحمن السُّهيلي: «وأما عقر جعفر فرسه، ولم يعب ذلك عليه أحد، فدلَّ على جواز ذلك؛ إذا خيف أن يأخذها العدو، فيقاقل عليها المسلمين، فلم يدخل هذا في باب النهي عن تعذيب البهائم وقتلها عبثاً»<sup>(4)</sup>.

## غزوة فتح مكة

كانت هذه الغزوة المباركة في شهر رمضان الفضيل سنة ثمان من الهجرة النبوية؛ وذلك بعد الفراغ من غزوة مؤتة، وبعد ما أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! بالمدينة جمادى الآخرة ورجباً... وقد شرف الله هذه الغزوة بذكره إياها في عدة آيات من الذكر الحكيم، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾<sup>(5)</sup>. وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾<sup>(6)</sup>.

(1) سورة «النساء». الآية 29.

(2) كتاب المغازي. ج 2 ص 773، 774.

(3) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 4 ص 274.

(4) الروض الأنف. ج 7 ص 36.

(5) سورة «الحديد». الآية 10.

(6) سورة «النصر». الآية 1، 2، 3.

## سبب هذا الفتح

السبب المباشر لهذا الفتح العظيم ، أن قبيلة بني بكر التي كانت دخلت في عهد قريش قد قتل رجل منها رجلاً من قبيلة خُزاعة التي كانت دخلت في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فذهب الخُزاعيون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وأخبروه بما حدث وهم باقون في عهده ، واستنصروه على البكرين الباغين عليهم ، فاستنفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! المسلمين ، فاستجابوا له ، واجتمع منهم حشد عظيم قد بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار والأعراب فلماً بلغ أبا سفيان خبر هذا الحشد شعر بخطورة الحادث ، فسارع إلى المدينة يطلب الاعتذار مما حدث والمصالحة بين القبيلتين وتوثيق العهد بينهما؛ بيد أن أبا سفيان قد أخفق في مهمته ورجع بخفي حنين . وسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم! بأصحابه نحو مكة المكرمة . ولما علم المكيون بذلك استنفروا حلفاءهم؛ بيد أن معظم هؤلاء الحلفاء من هوازن وثقيف تأخروا في مسيرهم ، ولم ينضم إلى القرشيين سوى بني بكر من الأعراب وأحابيش مكة؛ وهم الغرباء النازلون بضواحي مكة من شتى القبائل والأجناس . ولما تيقن القرشيون أنهم عاجزون ولا طاقة لهم بمقاومة المسلمين ، استسلموا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! وحكمه؛ بعد اشتباك وقع بينهم وبين المسلمين في ناحية من أنحاء مكة أسفر عنه بعض القتلى من الفريقين . قال محمد بن إسحاق : « . . . فلما كان صلح الحُدَيْبية بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وبين قريش ، كان فيما شرطوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! وشرط لهم : أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خُزاعة في عقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! وعهده . قال محمد بن إسحاق : « فلما كانت الهدنة<sup>(1)</sup> اغتتمها بنو الدئل من بني بكر من خُزاعة ، وأرادوا أن يُصيبوا منهم ثأراً بأولئك النفر الذين أصابوا منهم بني الأسود بن رزن . فخرج نوفل بن معاوية الديلي ، في بني الدئل ، وهو يومئذ قائددهم ، وليس كل بني بكر تابعه ، حتى بيّت خُزاعة وهم على الوثير : ماء لهم ، فأصابوا منهم رجلاً وتحاوزوا<sup>(2)</sup> واقتتلوا ، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من

(1) «الهدنة» : هدنة الحُدَيْبية .

(2) «وتحاوزوا» : انحاز كل منهم إلى قبيلته .

قريش مَنْ قَاتِلَ بِاللَّيْلِ مُسْتَخْفِيًّا، حَتَّى حَازُوا خُزَاعَةَ إِلَى الْحَرَمِ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِ قَالَتْ بَنُو بَكْرٍ: يَا نَوْفُلُ! إِنَّا قَدْ دَخَلْنَا الْحَرَمَ، إِلَهَكَ إِلَهَكَ! فَقَالَ كَلِمَةً عَظِيمَةً: لَا إِلَهَ لَهُ <sup>(1)</sup> الْيَوْمَ! يَا بَنِي بَكْرٍ! أَصَابُوا ثَأْرَكُمْ، فَلَعَمْرِي إِنَّكُمْ لَتَسْرُقُونَ <sup>(2)</sup> فِي الْحَرَمِ، أَفَلَا تَصِييُونَ ثَأْرَكُمْ فِيهِ؟! وَقَدْ أَصَابُوا مِنْهُمْ لَيْلَةً بَيْتَهُمْ بِالْوَثِيرِ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: «مُنْبَهٌ» وَكَانَ رَجُلًا مَفْؤُودًا <sup>(3)</sup>، خَرَجَ هُوَ وَرَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ يُقَالُ لَهُ: تَمِيمُ بْنُ أَسَدٍ، فَقَالَ لَهُ مُنْبَهُ: يَا تَمِيمُ! انْجُبْ نَفْسَكَ؛ فَأَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ إِنِّي لَمَيْتٌ! قَتَلُونِي أَوْ تَرَكُونِي، لَقَدْ انْبَتَ <sup>(4)</sup> فَوَادِي! وَانْطَلَقَ تَمِيمٌ فَأَقْلَتَ، وَأَدْرَكُوا مُنْبَهًا فَقَتَلُوهُ. فَلَمَّا دَخَلَتْ خُزَاعَةُ مَكَّةَ لَجُّوْا إِلَى دَارِ بَدِيلِ بْنِ وَرْقَاءَ، وَدَارَ مَوْلَى لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: رَافِعٌ. فَلَمَّا تَظَاهَرَتْ بَنُو بَكْرٍ وَقَرَيْشٌ عَلَى خُزَاعَةَ، وَأَصَابُوا مِنْهُمْ مَا أَصَابُوا، وَنَقَضُوا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، بِمَا اسْتَحْلَوْا مِنْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا فِي عَهْدِهِ وَعَقْدِهِ، خَرَجَ عَمْرُو بْنُ سَالِمِ الْخُزَاعِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي كَعْبٍ، حَتَّى قَدَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - الْمَدِينَةَ وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا هَاجَ فَتَحَ مَكَّةَ، فَوَقَفَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ بَيْنَ ظَهْرَانِي النَّاسِ فَقَالَ:

يَا رَبُّ إِنِّي نَاشِدٌ <sup>(5)</sup> مُحَمَّداً	حَلَفَ أَيْبِنَا وَأَيْبِهِ الْأَثْلَدَا <sup>(6)</sup>
قَدْ كُتِّمْتُ وَلِدَا وَكُنَّا وَالِدَا	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا <sup>(7)</sup>	وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا	إِنْ سِيمَ خَسَفَا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا <sup>(8)</sup>
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبَدَا	إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعَدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا	وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رُصَّدَا <sup>(9)</sup>

(1) «له»: لنوفل، نطق بها ككفرأ.

(2) «لتسرقون»: في رواية: لا تسرفون بالفاء.

(3) «مفؤوداً»: ضعيف الفؤاد.

(4) «انبت»: انقطع.

(5) «ناشد»: طالب.

(6) «الأثلدا»: القديم.

(7) «أعتدا»: من العتد، وهو الحاضر.

(8) «تربدا»: تغير وتلون من الغضب.

(9) «كداء»: موضع بأعلى مكة. و«الرصد» جمع راصد، وهو المرتقب.



وَزَعَمُوا أَن لَّسْتُ أَدْعُو أَحَدًا      وَهُمْ أَذِلَّ وَأَقْلُّ عَدَدًا  
هُمْ يَتَوَنَّبُونَ بِالْوَثِيرِ هُجْدًا      وَقَتْلُونَا رُكْعًا وَسُجْدًا

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم! ثم عرض لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «عنان»<sup>(1)</sup> من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب! ثم خرج بُدَيْلُ بن وَرْقَاءَ في نَفَرٍ من خُزَاعَةَ حتى قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: المدينة، فأخبروه بما أُصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: كَأَنكُمْ بِأَبِي سَفْيَانَ قَدْ جَاءَ لِيَشُدَّ الْعَقْدَ وَيَزِيدَ فِي الْمَدَّةِ»<sup>(2)</sup>.

### خروج أبي سفيان من مكة إلى المدينة يريد المصالحة

قال محمد بن إسحاق: «ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما جلس على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: طوته عنه فقال: يا بُنَيَّةُ! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: قال: والله لقد أصابك! يا بُنَيَّةُ! بعددي شر! ثم خرج حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فكلّمه، فلم يردّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فقال: ما أنا بفاعل! ثم أتى عمر بن الخطاب فكلّمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فوالله لو لم أجد إلا الذرّ<sup>(3)</sup> لجاهدتكم به! ثم خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب - رضوان الله عليه -: وعنده فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ورضي الله عنها! وعندها حسن بن عليّ غلام يدبُّ بين يديها، فقال: يا عليّ! إنك أمسّ القوم بي رحماً، وإنّي قد جئتُ في حاجة فلا أرجعنّ كما جئتُ خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فقال: ويحك! يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: على أمر ما

(1) «عنان»: سحاب.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأثقف. ج 7 ص 50.

(3) «الذرّ»: صغار النمل.

نستطيع أن نكلّمه فيه . فالتفتَ إلى فاطمة فقال : يا بنةَ محمد ! هل لك أن تأمرني بُنيّك هذا فيُجِيرَ بين الناس ، فيكونَ سيّدَ العرب إلى آخر الدهر؟ قالت : والله ما بلغ بُنيّ ذاك : أن يُجِيرَ بين الناس ، وما يُجِيرَ أحد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : يا أبا الحسن ! إنّي أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنى . قال : والله ما أعلم لك شيئاً يُغني عنك شيئاً ؛ ولكنك سيّد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثمّ الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مُغنياً عني شيئاً؟ قال : لا والله ما أظنّ ؛ ولكنّي لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد فقال أيّها الناس ! إنّي قد أجزتُ بين الناس . ثمّ ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك؟ قال : جئتُ محمداً فكلّمته فوالله ما ردّ عليّ شيئاً ؛ ثمّ جئتُ ابن أبي قُحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثمّ جئتُ ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ، ثمّ جئتُ عليّاً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار عليّ بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يُغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا : وبما أمرك؟ قال : أمرني أن أُجِيرَ بين الناس ، ففعلتُ ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد؟ قال : لا . قالوا : ويحك ! والله إن زاد الرَّجل على أن لعب بك ، فما يُغني عنك ما قلت؟ ! قال : لا والله ما وجدتُ غير ذلك»<sup>(1)</sup> .

### الرّسول . صلى الله عليه وسلم . يستعدّ لفتح مكّة

قال محمد بن إسحاق : «وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بالجهاز ؛ وأمر أهله أن يُجهّزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة - رضي الله عنها !- وهي تُحرك بعض جهاز رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال : أي بُنيّة ! أأمركم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن تُجهّزوه؟ قالت : نعم ، فتجهّز . قال : فأين تريّته يريد؟ قالت : لا والله ما أدري . ثمّ إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أعلم الناس أنّه سائر إلى مكّة ، وأمرهم بالجدّ والتّهَيُّؤ ، وقال : «اللّهم خُذْ العيون والأخبار عن قريش حتى نُبَغِّتها»<sup>(2)</sup> في بلادها» فتجهّز الناس»<sup>(3)</sup> .

فمن مضمون نصّ محمد بن إسحاق يُفهم أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- كان شديد الكتمان لما هو عازم عليه ممّا فيه الكتمان أجدر وأنفع لمن يريد أن ينجح في قضاء حوائجه ؛ وكيف لا وهو القائل : «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان ، فإن كلّ ذي نعمةٍ مُحسودٌ»<sup>(4)</sup> .

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 56 .

(2) «نبغتها» : نفاجوها .

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 57 .

(4) رواه الطبراني والبيهقي وابن عديّ وأبو نعيم ، عن معاذ بن جبل ، ورواه آخرون عن آخرين .

## حاطب يكتب إلى أهل مكة ويحذرهم مما عزم عليه

### رسول الله . صلى الله عليه وسلم.

قال محمد بن إسحاق : «ولما أجمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يُخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأمر في السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة<sup>(1)</sup> ، وجعل لها جُعللاً على أن تُبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به . وأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام - رضي الله عنهما !- فقال : أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا له في أمرهم . فخرجا حتى أدركاها بالخلقة<sup>(2)</sup> . خليقة بني أحمد ، فاستنزلاها ، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً . فقال لها علي بن أبي طالب : إنني أحلف بالله ما كُذِبَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !- ولا كُذِبنا ، ولتُخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ! فلما رأت الجد منه قالت : أعرض . فأعرض فحلّت قرونها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاطباً فقال : يا حاطب ! ما حملك على هذا ؟ ! فقال : أما والله إنني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ؛ ولكني كنتُ امرأاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهل ، فصانعتهم عليه . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! دعني فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !- : وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فأنزل الله تعالى في حاطب : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ . إلى قوله : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾<sup>(3)</sup> . إلى آخر القصة<sup>(4)</sup> . وفي نص كتاب حاطب يقول عبد الرحمن السُّهيلي : «وقد قيل : إنه كان في الكتاب : «أن النبي - صلى الله

(1) «امرأة» : اسمها كُثُود من مُزَيْنَة .

(2) «الخلقة» : منزل على اثني عشر ميلاً من المدينة . وهي أيضاً ماء على الجادة بين البمامة ومكة .

(3) سورة «الممتحنة» . الآية 1 - 4 .

(4) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 59 .

عليه وسلم !- قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم ، فإنه منجز له وعده . وفي تفسير يحيى بن سلام أنه كان في الكتاب الذي كتبه حاطب : «أن النبي محمداً قد نفر إماماً إليكم وإماماً إلى غيركم ، فعليكم الحذر»<sup>(1)</sup> . وقال محمد بن عمر الواقدي : «وحدثني موسى بن إبراهيم ، عن أبيه ، قال : كتب حاطب إلى ثلاثة<sup>(2)</sup> نفر : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل : «إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن تكون عندكم يد بكتابي إليكم»<sup>(3)</sup> .

وأحسن تلخيص مفيد لهذا الفتح المبين ، هو ما حرره أبو الحسن علي بن الأثير فقال : «ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري ، وخرج لعشر مضين من رمضان ، وفتح مكة لعشر بقين منه ، فصام حتى بلغ ما بين عسفان وأمعج<sup>(4)</sup> ، فأفطروا ، واستوعب معه المهاجرين والأنصار ، فسبعت سليم وألفت مزينة ، وفي كل القبائل عدد وإسلام ، وأدركه عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس ، ولقيه العباس بن عبد المطلب بالسقي<sup>(5)</sup> . وقيل : بذى الحليفة - مهاجراً ، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن يرسل رحله إلى المدينة ويعود معه ، وقال له : أنت آخر المهاجرين ، وأنا آخر الأنبياء . ولقيه أيضاً مخزومة بن نوفل ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بنقي العقاب<sup>(6)</sup> ، فالتما الدخول على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وكلمته أم سلمة فيهما وقالت له : ابن عمك وابن عمك . قال : لا حاجة لي بهما ؛ أما ابن عمي فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي فهو الذي قال بمكة ما قال : فلما سمعا ذلك - وكان مع أبي سفيان ابن له اسمه جعفر - فقال أبو سفيان : والله ليأذن لي أو لأخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فرق لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فأدخلهما إليه فأسلما . وقيل : إن علياً قال لأبي سفيان بن الحارث : إيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من قبل وجهه فقل له

(1) الروض الأنف . ج 7 ص 86 .

(2) وقد أسلموا وحسن إسلامهم .

(3) كتاب المغازي . ج 2 ص 798 .

(4) «أمعج» : بلد من أعراض المدينة .

(5) «السقي» : قرية جامعة من عمل الفرع بينهما مما يلي الجحفة سبعة عشر ميلاً .

(6) «نيق العقاب» : موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة .

ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾<sup>(1)</sup>. فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه فعلاً ولا قولاً، ففعل ذلك. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ﴿لَا تَثْرِبَ﴾<sup>(2)</sup> عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ<sup>(3)</sup>. وقربهما، فأسلما، وأنشد أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما مضى [أبياتاً منها]:

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمَلُ رَايَةً      لَتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ  
كَالْمُدْلَجِ الْحِيرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ      فَهَذَا أَوَانِي حِينَ أُهْدَى وَأَهْتَدِي  
وَهَادَ هَدَانِي غَيْرَ نَفْسِي وَنَالَنِي      مَعَ اللَّهِ مَنْ طَرَدْتُ كُلَّ مُطَرَّدٍ

فضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدره وقال: أنت طردتني كل مطرد. وقيل: إن أبا سفيان (بن الحارث) لم يرفع رأسه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -! حياءً منه. وقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! مر الظهران في عشرة آلاف فارس؛ من بني غفار أربعمئة، ومن مزيئة ألف وثلاثة نفر، ومن بني سليم سبعمئة ومن جهينة ألف وأربعمئة، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف من العرب، ثم من تميم وأسد وقيس. فلما نزل مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب: يا هلاك قريش! والله لئن بغتها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! في بلادها فدخل عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فجلس على بغلة النبي - صلى الله عليه وسلم -! وقال: أخرج لعلِّي أرى خطاباً أو رجلاً يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فأتونه ويستأمنونه. قال: فخرجت أطوف في الأراك إذ سمعت صوت أبي سفيان (ابن حرب) وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي قد خرجوا يتجسسون. قال أبو سفيان: ما رأيت نيراناً أكثر من هذه. قال بديل: هذه نيران خزاعة. فقال أبو سفيان: خزاعة أذل من ذلك. فقلت: نعم. قال: ليبيك فداك أبي وأمي! ما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! في المسلمين أتاكم في عشرة آلاف. قال: ما تأمرني؟ قلت: تركب معي فأستأمن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فوالله لئن ظفرك ليضرب عنقك. فردفني، فخرجت أركض به نحو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فكلما مررت بنار من نيران المسلمين يقولون: عم رسول

(1) سورة «يوسف». الآية 91.

(2) «لا تثريب»: لا لوم ولا عتاب.

(3) سورة «يوسف». الآية 92.

الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب ، فقال أبو سفيان : الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد! ثم اشتد نحو النبي - صلى الله عليه وسلم! - وركضت البغلة فسبقت عمر ، ودخل عمر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأخبره وقال : دَعْنِي أضرب عُنُقَه . فقلت : يا رسول الله ! إني قد أجزئته ، ثم أخذتُ برأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقلت : لا ينجيه اليوم أحد دوني . فلما أكثر فيه عمر قلت : مهلاً يا عمر! فوالله ما تصنع هذا إلا لأنه من بني عبد مناف ، ولو كان من بني عدي ما قلت هذه المقالة . فقال : مهلاً يا عباس ! فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - : اذهب فقد آمناء حتى تغدو عليّ به الغداة . فرجعت به إلى منزلي وغدوت به على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن<sup>(1)</sup> لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال : بلى ، بأبي أنت وأمي - يا رسول الله! - لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً . فقال : ويحك ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال : بأبي أنت وأمي ، أما هذه ففي النفس منها شيء . فقال العباس : فقلت له : ويحك ! تشهد شهادة الحق قبل أن تُضربَ عُنُقك ، قال : فتشهد ، وأسلم معه حكيم بن حزام وبُذَيْل بن ورقاء . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - للعباس : اذهب فاحبس أبا سفيان عند خَطَم الجبل<sup>(2)</sup> بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله . فقلت : يا رسول الله ! إنه يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه ، فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن . قال : فخرجت به فحبسته عند خَطَم الجبل فمرت عليه القبائل فيقول : من هؤلاء؟ فأقول : أسلم . فيقول : مالي ولأسلم ، ويقول : من هؤلاء؟ فأقول : جهينة . فيقول : مالي وجهينة ؛ حتى مرّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في كتيبه الخضراء مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحَدَقُ . فقال : من هؤلاء؟ فقلت : هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في المهاجرين والأنصار . فقال : لقد أصبح ملئك ابن أخيك عظيماً . فقلت : ويحك ! إنها النبوة . فقال : نعم إذن . فقلت : الحق بقومك سريعاً فحذّرهم . فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم بن حزام ، فصرخ في المسجد : يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به . فقالوا : قَمَهُ . قال : من دخل داري فهو آمن ، ومن

(1) «ألم يأن» : ألم يحن .

(2) «خطم الجبل» : أنف الجبل ومقدمه .

دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ثم قال: يا معشر قريش! أسلموا تسلموا. فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب! اقتلوا هذا الشيخ الأحمق. فقال: ارسلني لحيتي وأقسم لئن أنت لم تسلمي لثُضِرْنَ عُنُقُكَ، ادخلي بيتك! فتركته. وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في أثرهم الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كدي<sup>(1)</sup>، وكان على المجنبَةِ اليسرى، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل ببعض الناس من كداء<sup>(2)</sup>، فقال سعد حين وجهه: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة. فسمعه رجل من المهاجرين فأعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه وكن أنت الذي تدخل بها، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من اللَّيْط<sup>(3)</sup> في بعض الناس، وكان معه أسلم وغفار ومُزَيْنَةُ وَجُهَيْنَةُ وقبائل من العرب؛ وهو أول يوم أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - خالد بن الوليد. ولما وصل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى ذي طوى وقف على راحلته وهو مُعْتَجِرٌ ببرد خَزٍّ أحمر، وقد وضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أسفل لحيته ليمسّ واسطة الرّجل. ثم تقدّم ودخل من أذاخر بأعلاها، وضربت قُبْتُهُ هُناك. وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسُهَيْل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخدمة<sup>(4)</sup> ليقاتلوا، ومعهم الأحابيش وبنو بكر بنو الحارث بن عبد مناة، فلقاهم خالد بن الوليد فقاتلهم، فقتل من المسلمين: كرز بن جابر الفهريّ وحُيَيْش بن خالد؛ وهو الأشعريّ الكعبيّ، وسلمة بن الكيلاء، وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً، ثم انهزم المشركون. وكان مع عكرمة حماس بن خالد الدثليّ، وكان قد قال لامرأته: لا تينك بخادم من أصحاب محمد، فلما عاد إليها منهزماً قالت له تستهزئ به: أين الخادم؟ فقال:

فَأَنْتِ لَوْ شِهدْتَنَا بِالْخِندَمَةِ      إِذْ قَرَّ صَفْوَانٌ وَقَرَّ عَكْرَمَةُ  
وَأَبُو يَزِيدٍ<sup>(5)</sup> كَالْعَجُوزِ الْمُؤْتَمَةِ      لَمْ تَنْطَقِي فِي اللَّوْمِ أَذْنَى كَلِمَةٍ

(1) «كدي»: موضع بأسفل مكة عند ذي طوى.

(2) «كداء»: موضع بأعلى مكة عند المُحَصَّب.

(3) «الليط»: موضع بأسفل مكة.

(4) «الخدمة»: جبل بمكة.

(5) «أبو يزيد»: هو سُهَيْل بن عمرو.

إِذْ ضَرَبْتُمْ بِالسُّيُوفِ الْمُثَلَمَةَ لَهُمْ زَفِيرٌ خَلْفَنَا وَغَمَمَةٌ

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عهد إلى أمرائه أن لا يقتلوا أحداً إلاّ مَنْ قاتلهم . فلمّا انهزم المشركون وأراد المسلمون دخول مَكَّةَ ، قام في وجوههم نساء مشركات يَلَطُّنَ وجوه الخيل بالخُمُرِ وقد نشرن شعورهنّ ، فرآهنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جنبه أبو بكر ، فتبسّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : يا أبا بكر ! كيف قال حسّان ؟ فأنشده :

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّراتٍ تُلَطُّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ<sup>(1)</sup>

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر بقتل ثمانية رجال وأربع نسوة ، فأما الرجال فمنهم عكرمة بن أبي جهل ، كان يُشبه أباه في إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعداوته والإنفاق على محاربته فلمّا فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مَكَّةَ خافه على نفسه فهرب إلى اليمن ، وأسلمت امرأته أمّ حكيمة بنت الحارث بن هشام ، فاستأمنت له وخرجت في طلبه ومعها غلام لها روميّ ، فراودها عن نفسها ، فأطمعته ولم تمكّنه حتى أتت حياً من العرب فاستعانتهم عليه ، فأوثقوه ، وأدركت عكرمة وهو يريد ركوب البحر ، فقالت : جئتُك من عند أوصل النَّاسِ وأحلمهم وأكرمهم وقد آمنتُك ، فرجع ، وأخبرته خبر الروميّ ، فقتله قبل أن يُسلم . فلمّا قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سرّبه ، فأسلم وسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يستغفر له ، فاستغفر .

ومنهم صفوان بن أميّة بن خلف ، وكان أيضاً شديداً على النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم - فهرب خوفاً منه إلى جدّة ، فقال عُميْر بن وهب الجُمحيّ : يا رسول الله ! إنّ صفوان سيّد قومي

---

(1) قال محمّد بن عمر الواقديّ : «وأقبل ابن خطل جائياً من مكة مدججاً في الحديد على فرس ذنوب ، بيده قنّاة ، وبنات سعيد بن العاص قد ذُكر لهنّ : أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد دخل مَكَّةَ ، فخرجن وقد نشرن شعور رؤوسهن ، يضربن بخمرهنّ وجوه الخيل . فضربهنّ ابن خطل جائياً من أعلى مَكَّةَ فقال لهنّ : أما والله لا يدخلها حتى ترين ضرباً كافواه المزاد ! ثم خرج حتى انتهى إلى الخندمة ، فرأى خيل المسلمين ورأى القتال ، فدخله الرعب حتى ما يستمسك من الرّعدة ، حتى انتهى إلى الكعبة فنزل عن فرسه وطرح سلاحه ، فأتى البيت فدخل بين أستاذه . وذكر محمد بن إسحاق والواقديّ في موضع آخر : أنّ بنات أبي أحيحة قد فعلن مثلما فعلته بنات سعد بن العاص فرحاً وابتهاجاً بفتح مكة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ! (كتاب المغازي . ج 2 ص 827 - 731 . السيرة النبويّة بشرح الرّوض الأنف . ج 7 ص 119 .



وقد خرج هارباً منك فأمنه . قال : هو آمن ، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ليعرف بها أمانه ، فخرج عُمير فأدركه بجدة فأعلمه بأمانه وقال : إنه أحلم الناس وأوصلهم ، وإنه ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك . قال : إنني أخافه على نفسي . قال : هو أحلم من ذلك . فرجع صفوان وقال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !: إن هذا يزعم أنك آمنتني . قال : صدق . قال : اجعلني بالخيار شهرين . قال : أنت فيه أربعة أشهر ، فأقام معه كافراً وشهد معه حينئذ والطائف<sup>(1)</sup> ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وتوفي بمكة عند خروج الناس إلى البصرة ليوم الجمل .

ومنهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي ، وكان قد أسلم وكتب الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فكان إذا أُملى عليه : «عزيز حكيم» ، يكتب : «عليم حكيم» ، وأشبه ذلك ، ثم ارتد وقال لقريش : إنني أكتب أحرف محمد في قرآنه حيث شئت ودينكم خير من دينه ؛ فلما كان يوم الفتح فر إلى عثمان بن عفان ، وكان أخاه من الرضاعة ، فغيبه عثمان حتى اطمأن الناس ، ثم أحضره عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وطلب له الأمان ، فصمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ولم يرد عليه . ثم آمنه ، فأسلم وعاد ، فلما انصرف قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لأصحابه : لقد صمت ليقته أحدكم . فقال أحدهم : هلاً أو مات إلينا؟ فقال : ما كان للنبي أن يقتل بالإشارة ؛ إن الأنبياء لا تكون لهم خاتمة الأعين .

ومنهم عبدالله بن خطل ، وكان قد أسلم ، فأرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مُصدّقاً ومعه رجل من الأنصار و غلام له روميّ قد أسلم ، فكان الروميّ يخدمه ويصنع الطعام ، فنسي<sup>(2)</sup> يوماً أن يصنع له طعاماً ، فقتله وارتد ، وكان له قيتتان تُغنيان بهجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقتله سعيد بن حريث المخزوميّ ، أخو عمرو بن حريث ، وأبو برة الأسلميّ .

ومنهم الحويرث بن نُقيد بن وهب بن عبد بن قُصيّ ، وكان يؤذي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بمكة ، ويُشد الهجاء فيه ، فلما كان يوم الفتح هرب من بيته ، فلقيه عليّ بن أبي طالب فقتله .

(1) أي : غزوتي حنين والطائف .

(2) وفي سيرة ابن إسحاق : ونام .

ومنهم مقيس بن صُبابه؛ وإنما أمر بقتله لأنه قتل الأنصاري الذي قتل أخاه هشاماً خطأ وارتدّ، فلما انهزم أهل مكة يوم الفتح اختفى بمكان، هو وجماعة وشرّبوا الخمر، فعلم به ثُميلة ابن عبدالله الكناني، فأتاه فضربه بالسيف حتى قتله.

ومنهم عبدالله بن الزُّبَيْرِ السَّهْمِيّ، وكان يهجو رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بمكة، ويُعظّم القول فيه، فهرب يوم الفتح؛ هو وهُبَيْرَةُ بن أبي وهب المخزوميّ زوج أمّ هانئ بنت أبي طالب إلى نجران. فأما هُبَيْرَةُ فأقام بها مشركاً حتى هلك، وأما ابن الزُّبَيْرِ فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - واعتذر، فقبل عذره فقال حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ  
إِذْ أَبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَيِّ وَمَنْ مَالٌ مِثْلُهُ مَثْبُورُ  
أَمِنَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ بِرَبِّي ثُمَّ نَفْسِي الشَّهِيدُ أَنْتَ نَذِيرُ  
في أشعاره كثيرة يعتذر فيها.

ومنهم وَحْشِيّ بن حرب قاتل حمزة بن عبد المطلب، فهرب يوم الفتح إلى الطائف، ثمّ قدم في وفد أهله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فقال النبيّ - صلى الله عليه وسلم! -: أَوْحْشِيّ؟! قال: نعم. قال: أخبرني كيف قتلت عمي؟ فأخبره، فبكى وقال: غَيَّبُ وجهك عني. وهو أوّل من جلد في الخمر، وأوّل من لبس المعصر المصقول في الشام. وهرب حُوَيْطِبُ بن عبد العُزَيّ، فراه أبو ذرّ الغفاريّ في حائط فأخبر النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بمكانه، فقال: أو ليس قد آمنّا الناس إلا من قد أمرنا بقتله؟ فأخبره بذلك، فجاء إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فأسلم. قيل: إنّه دخل يوماً على مروان بن الحكم وهو على المدينة فقال له مروان: يا شيخ تأخّر إسلامك. فقال: لقد هممتُ به غير مرّة فكان يصدّني عنه أبوك!

فأما النِّسَاءُ فَمِنْهُنَّ هِنْدُ بنت عُتْبَةَ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أمر بقتلها لما فعلت بحمزة ولما كانت تؤذي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بمكة، فجاءت إليه مع النِّسَاءِ متخفية فأسلمت وكسرت كلّ صنم في بيتها وقالت: لقد كنّا منكم في غرور، وأهدت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - جدّين، واعتذرت من قلة ولادة غنمها، فدعا لها

بالبركة في غنمها فكثرت، فكانت تَهَبُ وتقول: هذا من بركة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فالحمد لله الذي هدانا للإسلام!

ومنهنَّ سارة؛ وهي مولاة عمرو بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة في قول بعضهم، وكانت قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مسلمة، فوصلها فعاتت إلى مكة مرتدة، فأمر بقتلها، فقتلها علي بن أبي طالب.

ومنهنَّ قَيْتَا عبد الله بن خَطْلٍ، وكانتا تُغْنِيَان بهجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأمر بقتلهما، فقتلت إحداهما واسمها قُرَيْيَّة، وفرت الأخرى وتنكرت وجاءت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأسلمت وبقيت إلى خلافة عمر بن الخطاب، فأوطأها رجلُ فرسه خطأ فماتت، وقيل: بقيت إلى خلافة عثمان بن عفان، فكسر رجلٌ ضلعاً من أضلاعها خطأ فماتت، فأغرمه عثمان ديتها. لما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مكة كانت عليه عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة وقال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مائة أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين؛ إلا سدانة البيت وسقاية الحج». ثم قال: «يا معشر قريش! ما ترون أنني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء.

وطاف بالكعبة سبعاً، ودخلها وصلى فيها، ورأى فيها صور الأنبياء، فأمر بها فمُحِيت، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان بيده قضيب، فكان يُشير به إلى الأصنام وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾<sup>(1)</sup>؛ فلا يُشير إلى صنم منها إلا سقط لوجهه. وقيل: بل أمر بها وخُذمت<sup>(2)</sup> وكُسرت. ثم جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - للبيعة على الصفا، وعمر ابن الخطاب تحته، واجتمع الناس لبيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على الإسلام، وكان يُبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، فكانت هذه بيعة الرجال. وأما بيعة النساء فإنه لما فرغ من الرجال بايع النساء، فأتاه منهنَّ نساء من نساء قريش؛ منهنَّ أم هانئ بنت أبي طالب، وأم حبيب بنت العاص بن أمية، وكانت عند عمرو بن عبدود العامري، وأروى بنت أبي العيص عمّة عتاب بن أسيد، وأختها عاتكة بنت أبي العيص، وكانت عند المطلب بن أبي وداعة السهمي، وأمه

(1) سورة «الإسراء». الآية 81.

(2) «وخذمت»: وقطعت.

بنت عفّان بن أبي العاص أخت عثمان، وكانت عند سعد حليف بني مخزوم، وهند بنت عتبة، وكانت عند أبي سفيان، ويسيرة بنت صفوان بن ثؤفل بن أسد بن عبد العزى، وأم حكيم بنت الحارث ابن هشام، وكانت عند عكرمة بن أبي جهل، وفاخنة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد بن الوليد، وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف، ورقيقة بنت الحجاج، وكانت عند عمرو بن العاص في غيرهن، وكانت هند بنت عتبة متكررة لصنيعها بحمزة بن عبد المطلب فهي تخاف أن تؤخذ به. وقال لهن: تبايعنني على أن لا تُشركن بالله شيئاً. قالت هند: إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسئوئك. قال: ولا تسرقن. قالت: والله إن كنت لأصبتُ من مال أبي سفيان الهنة والهنة<sup>(1)</sup>. فقال أبو سفيان، وكان حاضراً: أمّا ما مضى فأنت منه في حلّ. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أهنّد؟! قالت: أنا هند فاعفُ عمّا سلف، عفا الله عنك. قال: ولا تزنين. قالت هند: وهل تزني الحرّة؟! قال: ولا تقتلن أولادك. قالت: ربّناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم، فضحك عمر. قال: ولا تأتين بيهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن. قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل. قال: ولا تعصينني في معروف. قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لعمر! بايعهن. واستغفر لهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وكان رسول الله لا يؤسّ النساء ولا يصفح امرأة ولا تمسّ امرأة؛ إلاّ امرأة أحلّها الله له أو ذات محرم منه. ولما جاء وقت الظهر أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. بلالاً أن يؤدّن على ظهر الكعبة، وقريش فوق الجبال، فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من قد آمن، فلما أذن وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، قالت جويرة بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة. وقيل: إنها قالت: لقد رفع الله ذكر محمد، وأمّا نحن فسنصلّي؟ ولكن لا نحبّ من قتل الأحمّة. وقال خالد بن أسد أخو عثمان بن أسد: لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: ليتي مت قبل هذا اليوم، وقالت جماعة نحو هذا القول. ثمّ أسلموا وحسّن إسلامهم ورضي الله عنهم! <sup>(2)</sup>. إلى هنا ينتهي ملخص ابن الأثير لما هو مقصود ومطلوب من معرفة هذا الفتح العظيم بفضل الله تعالى وعونه.

(1) شيء لا يعلمه.

(2) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 239 - 254.

## الرسول . صلى الله عليه وسلم ! يدخل الكعبة

### ويوصي المسلمين بعد خروجه منها

قال محمد بن عمر الواقدي: «وحدثني ابن أبي ذئب، عن عبد الرحمن بن مهران، عن عُمَيْرِ مولى بن عباس، عن أسامة بن زيد قال: دخلت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الكعبة، فرأى فيها صوراً، فأمرني أن آتية بماء في الدلو، فيبل الثوب، ويضرب به الصور، ويقول: قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون! وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالكعبة فغلقت عليه، ومعه أسامة بن زيد، وبلال بن رباح، وعثمان بن طلحة، فمكث فيها ما شاء الله . وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة . قال ابن عمر: فسألت بلالاً كيف صنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين دخل البيت؟ قال: جعل عمودين عن يمينه وعموداً عن يساره وثلاثة وراءه . ثم صلى ركعتين، ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمفتاح في يده، ووقف على الباب خالد بن الوليد يذبُّ الناس عن الباب حتى خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . . . فلما أشرف على الناس قال: «الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده! ماذا تقولون وماذا تظنون؟» . قالوا: نقول خيراً ونظن خيراً؛ أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾<sup>(1)</sup> . ألا إن كل ربا في الجاهلية، أو دم، أو مال، أو مأثرة، فهو تحت قدمي هاتين؛ إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . ألا وقيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة ناقة، منها أربعون في بطونها أولادها . إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها، كلكم من آدم وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله أتقاكم . ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله، لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد كائن بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من النهار . لا يُنْفَر صيدها، ولا يُعْضَد<sup>(2)</sup> عضاؤها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد<sup>(3)</sup>، ولا يُختلى خلاها»<sup>(4)</sup> . فقال العباس، وكان شيخاً مجرباً: إلا

(1) سورة «يوسف» . الآية 92 .

(2) «ولا يُعْضَد»: ولا يقطع . والعضاء جمع عضاهة؛ وهي الأشجار .

(3) «المنشد»: الباحث عما ضاع له .

(4) «ولا يُختلى خلاها»: ولا يقطع نباتها الرطب الرقيق .

الإِذْخَرُ<sup>(1)</sup> يا رسول الله ! فإنه لا بد منه ؛ إنه للقبر وطهور البيوت . فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ساعة ، ثم قال : «إِلَّا الإِذْخَرَ فَإِنَّهُ حَلَالٌ . وَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ ، وَإِنَّ الْوَلَدَ لِلْفَرَّاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرِ<sup>(2)</sup> ، وَلَا يَحِلُّ لَامْرَأَةٍ تُعْطَى مِنْ مَالِهَا إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا ، وَالْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، وَالْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ، تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، يَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ ، وَيَعْقِدُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَمُشَدَّهُمْ عَلَى مُضْعَفِهِمْ<sup>(3)</sup> ، وَمَيْسَرَتُهُمْ عَلَى قَاعِهِمْ ؛ وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ ، وَلَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ ، وَلَا جَنْبٌ وَلَا جَنْبٌ<sup>(4)</sup> ، وَلَا تُؤْخَذُ صَدَقَاتُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي بَيْتِهِمْ وَبِأَفْنِيَّتِهِمْ ، وَلَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَخَالَتِهَا ، وَالْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى الْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، وَلَا تَسَافِرُ امْرَأَةٌ مَسِيرَةَ ثَلَاثٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ ، وَلَا صَلَاةَ بَعْدَ الْعَصْرِ وَبَعْدَ الصُّبْحِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ صِيَامِ يَوْمَيْنِ : يَوْمِ الْأَضْحَى وَيَوْمِ الْفِطْرِ ، وَعَنْ لَبْسَتَيْنِ . لَا يَحْتَبُ<sup>(5)</sup> أَحَدُكُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ يُفْضِي بَعُورَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَلَا يَشْتَمِلُ الصَّمَّاءُ<sup>(6)</sup> ، وَلَا إِخَالَكُمُ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُمُوهَا .

### هَدَمَ الْعُزَّى عَلَى يَدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ

وبعد اكتمال فتح مكة وإسلام من ارتضى الله له الإسلام فيها ، بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خالد بن الوليد على رأس ثلاثين فارساً لهدم معبد المشركين المسمى بـ «الْعُزَّى» . قال محمد بن إسحاق : «ثم بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خالد بن الوليد إلى العُزَّى ، وكانت بنخلة ، وكانت بيتاً يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومُضَرَّ كُلِّهَا ،

(1) «الإِذْخَرُ» : حشيش طيب الرائحة .

(2) «الحجر» : أي : الخيبة ؛ يعني : أن الولد لصاحب الفراش من زوج أو سيد ، وللزاني الخيبة والحرمان ، كقولك : ما لك عندي غير التراب وما بيدك غير الحجر ، أي : الخيبة .

(3) «ومشدهم على مضعفهم» : المشد الذي دابته شديدة قوية ، والمضعف الذي دوابه ضعيفة . يراد بذلك أن القوي من الغزاة يساهم الضعيف فيما يكسبه من الغنيمة .

(4) «ولا جلب ولا جنب» : لا ينزل الساعي موضعاً ويجلب أهل الزكاة إليه لياخذ زكاتهم أو لا صياح في السباق ، ولا جنب . لا يتحول أحدكم من فرس إلى آخر في السباق إذا فتر المركوب . فكل من الجلب والجنب يكون في الصدقة وفي الزكاة .

(5) «لا يحتب» : احتبى بالثوب ، اشتمل ، أو جمع ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(6) كتاب المغازي . ج 2 ص 835 .

وكانَ سدنتها وحُجَّابها بني شيبان من بني سُليم حلفاء بني هاشم، فلمَّا سمع صاحبها السَّلميَّ بمسير خالد إليها، علَّقَ عليها سيفه، وأسَدَ في الجبل الذي هي فيه وهو يقول :

يَا عَزَّ! شُدِّي شِدَّةً لَا شَوَى<sup>(1)</sup> لَهَا      عَلَى خَالِدِ أَلْقَى الْقَنَاعَ وَشَمَّرِي  
يَا عَزَّ! إِنْ لَمْ تَقْتُلِي الْمَرْءَ خَالِدًا      فَبُؤْسِي بِإِثْمِ عَاجِلٍ أَوْ تَنْصَرِّي

فلمَّا انتهى إليها خالد هدمها، ثم رجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -<sup>(2)</sup>. وقال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن عمر الواقدي وغيره -: «لَمَّا قدمها<sup>(3)</sup> خالد لخمس بقين من رمضان فهدمها ورجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: «ما رأيت؟» قال: لم أر شيئاً، فأمره بالرجوع، فلمَّا رجع خرجت إليه من ذلك البيت امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول، فعلاها بالسيف وجعل يقول :

يَا عَزَّ كُفِّرْ أُنْكَ لَا سُبْحَانَكَ      إِنِّي وَجَدْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

ثم خربَ ذلك البيت الذي كانت فيه وأخذ ما كان فيه من الأموال، رضي الله عنه وأرضاه ثم رجع فأخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: «تلك العزَّى ولا تُعبد أبداً»<sup>(4)</sup>. قال البيهقي - نقلاً عن جماعة من الرواة -: «لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مكة، بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزَّى، فأتاها وكانت على ثلاث سَمُرَات، فقطع السَمُرَات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً». فرجع خالد، فلما نظرت إليه السدنة، وهُم حُجَّابها، أَمَعَنُوا هَرَباً في الخيل وهم يقولون: يا عَزَّ! حَبْلِيه يا عَزَّ عَوْرِيه؛ وإلَّا فموتِي برغم. فأتاها خالد فإذا امرأة عُرْبَانَة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها ووجهها، فعمَّها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم! - فقال: «تلك العزَّى»<sup>(5)</sup>.

(1) «الشوى»: الأمر الهين.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 134.

(3) أي: العزَّى.

(4) البداية والنهاية. ج 4 ص 316.

(5) أي العزَّى.

## سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة

لما رجع خالد بن الوليد من هدم العُزَّى، بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على رأس سرية إلى بني جذيمة، ليدعوهم إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً لهم. وكانت هذه السرية مؤلفة من المهاجرين والأنصار وبني سُليَم وكان عددهم ثلاثمائة وخمسين رجلاً. ولما انتهى خالد إلى المبعوث إليهم بأسفل مكة أصبح فيهم مقاتلاً ولم يكن لهم داعياً ولعل الدافع لخالد إلى قتالهم ووضع السيف فيهم، هو قولهم - حينما رأوا خالداً وجيشه شاهرين سيوفهم -: صباناً صباناً بدل أن يقولوا: أسلمنا. جاء في صحيح البخاري: وعن الزهري، عن سالم عن أبيه قال: بعث النبي - صلى الله عليه وسلم! - خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صباناً صباناً؛ فجعل خالد يقتل منهم ويأسر. وإذا أرد الله تنفيذ أمره سلب ذوي العقول عقولهم، فتقع الندامة، وتجب التوبة، والله يغفر لمن تاب. قال محمد بن إسحاق: «وقد بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل، ولم يأمرهم بقتال وكان ممن بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، فوطئ بني جذيمة، فأصاب منهم. . عن أبي جعفر بن عليّ قال: فلما رآه<sup>(1)</sup> القوم أخذوا السلاح، فقال خالد، ضَعُوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا. . . فحدثني بعض أصحابنا من أهل العلم من بني جذيمة، قال: لما أمرنا خالد أن نضع السلاح، قال رجل منا يقال له جَحْدَم: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد والله! ما بعد وضع السلاح إلا الإِسار، وما بعد الإِسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً، فأخذ رجال من قومه، فقالوا: يا جَحْدَم! أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح، ووُضعت الحرب وأمن الناس. فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح لقول خالد؛ فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك، فَكُتِفُوا، ثم عرضهم على السيف فَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ منهم؛ فلما انتهى الخبر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - رفع يديه إلى السماء، ثم قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عليّ بن أبي طالب - رضوان الله عليه! - فقال: يا علي! اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك.

(1) «رآه»: ضمير المفعول به يعود على خالد.



فخرج عليّ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فودّى لهم الدّماء وما أُصيب لهم من الأموال، حتى إنّه لَيَدِي لَهُمْ مَلْغَةً<sup>(1)</sup> الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلّا وداه، فبقيت معه بقيّة من المال، فقال لهم عليّ - رضوان الله عليه! - حين فرغ منهم -: هل بقي لكم بقيّة من دم أو مال لم يودّ لكم؟ قالوا: لا. قال: فإنّي أُعطيكم هذه البقيّة من هذا المال، احتياطاً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ممّا يعلم ولا تعلمون، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأخبره الخبر، فقال: «أصببت وأحسنّت». ثم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى إنّه ليرى ممّا تحت منكبّيه، يقول: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد؛ ثلاث مرّات»<sup>(2)</sup>.

وتكليف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عليّاً بهذه المهمّة قد سبق أن أخبر بها أبو بكر قبل وقوعها؛ وذلك في تأويله لرؤيا رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال عبد الملك بن هشام: «حدّثني بعض أهل العلم، أنّه حدّث عن إبراهيم بن جعفر المحموديّ قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «رَأَيْتُ كَأَنِّي لَقَمْتُ لُقْمَةً مِنْ حَيْسٍ، فَالْتَذْتُ طَعْمَهَا، فَاعْتَرَضَ فِي حَلْقِي مِنْهَا شَيْءٌ حِينَ ابْتَلَعْتُهَا، فَأَدْخَلَ عَلَيَّ يَدُهُ فَنَزَعَهُ»؛ فقال أبو بكر الصّدّيق - رضي الله عنه! -: يا رسول الله! هذه سرّيّة من سراياك تبعثها، فيأتيك منها بعض ما تُحبّ، ويكون بعضها اعتراض، فتبعث عليّاً فيسهله»<sup>(3)</sup>.

## مدة إقامة رسول الله - صلى الله عليه وسلم!

### بمكة بعدما فتحها

لقد اختلف الرواة في مدة إقامة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بمكة بعد الفتح؛ فمنهم من قال: أقام خمسة عشر يوماً، ومنهم من قال: سبعة عشر يوماً، ومنهم من قال: ثماني عشرة ليلة ومنهم من قال: تسعة عشر يوماً.

وقد وقع اختيارنا على ما رواه عبد الله بن عباس حيث قال: «أقمنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في صفر تسع عشرة، نُقَصِّرُ الصلاة، فنحن نقصّر ما بقينا بين تسع عشرة فإذا

(1) «ملغة»: إناء يلغ فيه الكلب.

(2) السيرة النبويّة بشرح الرّوض الأنف. ج 7 ص 127، 128.

(3) السيرة النبويّة. ج 7 ص 126، 127.

زدنا أتمننا» . وقال إسماعيل بن كثير: «لا خلاف أنه - عليه الصلاة والسلام !- أقام بقية شهر رمضان يُقَصِّر الصلاة ويُفطر ، وهذا دليل من قال من العلماء : إنَّ المسافر إذا لم يجمع الإقامة فله أن يُقَصِّر ويُفطر إلى ثماني عشر يوماً ؛ في أحد القولين وفي القول الآخر ؛ كما هو مقرر في موضعه»<sup>(1)</sup> . وخلال أيام إقامته - عليه الصلاة والسلام !- بمكة ، أقر بعض الأحكام الشرعية هناك ، سنذكرها - إن شاء الله !- عند استخراج الأحكام قريباً .

### استخراج العبر

**العبرة الأولى :** كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يستبشر بالفأل ويتمن بكل ما فيه ؛ فقال - عندما عرضت له سحابة : «نُصرت يا عامر ! إنَّ هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب» .

**العبرة الثانية :** أنَّ إيمان أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب قد تغلب على حبها لأبيها ، فمَنَعته أن يجلس على فراش زوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وقالت لأبيها : هو فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ، ولا أحب أن تجلس عليه .

**العبرة الثالثة :** أنَّ أهل بدر لهم عند الله ورسوله منزلة عالية ومكانة محمية من كل سوء . وهذا ما منع عمر بن الخطاب أن يضرب عُنُق حاطب بن أبي بلتعة ؛ رغم أنَّه عمَل عمَل الجاسوس ؛ فقال رسول الله : «وما يُدريك يا عمر ! لعلَّ الله قد أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

**العبرة الرابعة :** أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لم يُجبر الناس على الدخول في دين الإسلام ؛ بل قد قبل أن يجعل لمن تردّد فيه مهلة . فهذا صفوان بن أمية بن خُلف يقول لرسول الله : اجعلني بالخيار شهرين ، فيقول له : أنت فيه أربعة أشهر . وأقام معه كافراً ، وشهد معه غزوتي حنين والطائف وهو على كفره ! ثم أسلم وحسن إسلامه .


**العبرة الخامسة :** عفوه العام عمّن أساء إليه من أهل مكة فقال - بعد انتصاره عليهم وفتح بلادهم - : «يا معشر قريش ! ما ترون أنِّي فاعل بكم؟» قالوا : خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

**العبرة السادسة :** قال عبد الرحمن السُّهيلي : «وكان أبو سفيان بن الحارث رضيع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أرضعتها حليمة ، وكان آلف النَّاس له قبل النبوة لا يفارقه ،

(1) البداية والنهاية . ج 4 ص 316 .

فلما نُبئَ كان أبعد النَّاسِ عنه، وأهْجَاهُمْ له إلى أن أسلم، فكان أصحَّ النَّاسِ إيماناً، وألزمهم له: صلى الله عليه وسلم! ولأبي سفيان هذا قال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم -: «أنت يا أبا سفيان! كما قيل: «كلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا»<sup>(1)</sup>. وقيل: بل قالها لأبي سفيان بن حرب، والأوَّلُ أصحُّ»<sup>(2)</sup>.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** جواز إفطار المسافر نهائياً في شهر رمضان. جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن ابن عباس قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس أخبره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزا غزوة الفتح في رمضان، قال: وسمعتُ ابنَ المُسيَّب يقول مثل ذلك، وعن عبد الله بن عبيد الله أخبره أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: صام النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا بلغ كديد: - الماء الذي بين قديد وعُسفان - أفطر فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر». وما كان منه ذلك إلا امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾  أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ<sup>(3)</sup>. وقال أيضاً: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ<sup>(4)</sup>».

**الحكم الثاني:** لا شفاعة في حدود الله؛ فقد قطع رسول الله يد امرأة<sup>(5)</sup> سُرقت حلياً أو غيره في غزوة الفتح: ولم يقبل شفاعة مستشفع لها. جاء في صحيح البخاري: «... عن الزُّهري: أخبرني عروة بن الزُّبير أن امرأة سُرقت في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة الفتح، ففرغ قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون. قال عروة: فلما كلمه<sup>(6)</sup> أسامة فيها

(1) الرِّوَضُ الْأَنْف. ج 7 ص 92.

(2) «الْفَرَا»: الحمار الوحشي.

(3) سورة «البقرة». الآية 183 - 184.

(4) سورة «البقرة». الآية 185.

(5) «امرأة»: فاطمة المخزومية.

(6) ضمير الغائب يعود على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

تَلَوْنَ وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فقال: أَتَكَلَّمْنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟! قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله! فلَمَّا كَانَ الْعِشَاءَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم! - فَأَتَانِي عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ**، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا. ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم! - بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا، فَحَسُنْتَ تَوْبَتَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَزَوَّجْتَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تَأْتِينِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم! -.

**الحكم الثالث:** أن الله نهاكم - أيها المسلمون - أن توصلوا المودة بينكم وبين أعداء الله في الدين وأعدائكم في القتل. فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾<sup>(1)</sup>.

**الحكم الرابع:** أن استغلال أهل مكة للحجاج بأي وجه كان، حرام لا يجوز عند المحققين من العلماء قال عبد الرحمن السَّهْلِيُّ: «ونذكرها هنا طرفاً من أحكام أرض مكة، فقد اختلف: هل افتتحها النبي - صلى الله عليه وسلم! - عَنُوةً أَوْ صُلْحاً، لِيُتَنَى عَلَى ذَلِكَ الْحُكْم: هل أرضها ملك لأهلها أم لا؟ وذلك أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه! - كان يأمر بنزع أبواب دور مكة إذا قدم الحاج، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بمكة أن ينهي أهلها عن كراء دورها إذا جاء الحاج فإن ذلك لا يحل لهم. وقال مالك: - رحمه الله! - إن كان الناس ليضربون فساطيطهم بدور مكة لا ينهاتهم أحد، ورؤي أن دور مكة كانت تُدعى السوائب<sup>(2)</sup>، وهذا كله منتزع من أصليين:

**أحدهما:** قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَلْعَنِكُمْ فِيهِ وَالْبَادِ﴾<sup>(3)</sup>. وقال (عبدالله) بن عمر، و(عبدالله) بن عباس: الحرم كله مسجد.

(1) سورة «الممتحنة». الآية 1.

(2) روى الإمام أحمد عن علقمة بن نضلة قال: «كانت رباغ مكة تدعى السوائب على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأبي بكر وعمر، من احتاج سكن، ومَن استغنى أسكن».

(3) سورة «الحج». الآية 25.

**والأصل الثاني :** أن النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- دخلها عَنوة ؛ غير أنّه منّ على أهلها بأنفسهم وأموالهم ، ولا يُقَاس عليها غيرها من البلاد ؛ كما ظنّ بعض الفقهاء ، فإنّها مخالفة لغيرها من وجهين :

**أحدهما :** ما خصّ الله به نبيّه ، فإنّه قال : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾<sup>(1)</sup> .

**والثاني :** ما خصّ الله تعالى به مكّة ، فإنّه جاء<sup>(2)</sup> : « لا تحلّ غنائمها ، ولا تُلْتَقَطْ لُقَطَتُهَا ، وهي حرم الله تعالى وأمنه » . فكيف تكون أرضها أرض خراج ؟ ! فليس لأحد افتتح بلداً أن يسلك به سبيل مكّة فأرضها إذن ودورها لأهلها ؛ ولكن أوجب الله عليهم التوسعة على الحجيج إذا قدموها ، ولا يأخذوا منهم كراءً في مساكنها ، فهذا حكمها . فلا عليك بعد هذا ؛ فُتَحَتْ عَنوةٌ أو صلحاً ، وإن كانت ظواهر الحديث أنّها فُتِحَتْ عَنوةٌ<sup>(3)</sup> . وقال محمد بن القيم الجوزيّة في حديثه عن مكّة : «إنها لا تُملِكُ ، فإنّها دار النُّسك ، ومُتَعَبِّد الخلق ، وحرم الربّ سبحانه وتعالى الذي جعله للنّاس ﴿ سَوَاءٌ أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْأَبَادِ ﴾<sup>(4)</sup> . فهي وقف من الله تعالى على العالمين ، وهم فيه سواء . ومنى مُناخ من سبق . . . ذهب جمهور الأئمّة من السلف والخلّف إلى أنّه لا يجوز بيع أراضي مكّة ، ولا إجارة بيوتها . هذا مذهب مجاهد وعطاء في أهل مكّة ، ومالك في أهل المدينة ، وأبي حنيفة في أهل العراق ، وسُفيان الثوريّ والإمام أحمد وإسحاق بن راهويّة . . . »<sup>(5)</sup> .

**الحكم الخامس :** أن ابتسام رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عند كشف بنات أُحِيحة رؤوسهنّ ولطمهنّ وجوه الخيل بخُمُرهنّ ، قد دلّ على أنّ أشعار رؤوس النّساء ليست بعورة . قال محمد بن عمر الواقديّ : « ومرو رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- [ يوم فتح مكّة ] وأبو بكر - رضي الله عنه !- إلى جنبه يسير يحادثه ، فمرّ بنات أبي أُحِيحة بالبطحاء حذاء منزل أبي أُحِيحة ، وقد نشرن رؤوسهنّ ويلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلى أبي بكر فتبسّم ، وذكر بيت حسّان بن ثابت فأنشده أبو بكر - رضي الله عنه !- :

(1) سورة « الأنفال » . الآية 1 .

(2) « جاء » : أي : جاء في الأحاديث النبويّة .

(3) الرّوض الأنف . ج 7 ص 105 .

(4) سورة « الحج » . الآية 25 .

(5) زاد المعاد . طبعة السّنة المحمديّة . ص 413 .

«تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطَّرَاتٍ<sup>(1)</sup> يُلَطِّمُهُنَّ<sup>(2)</sup> بِالْخُمُرِ النَّسَاءُ<sup>(3)</sup>»

وروى البيهقي عن نافع، عن ابن عمر قال: «لما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم [ مكة ] عام الفتح، وأتى النساء يلطنن وجوه الخيل فتبسمن إلى أبي بكر وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان؟ فأنشده أبو بكر - رضي الله عنه !-:

«عَدَمْتُ بُنَيْتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا      تُثِيرُ النَّقْعَ مَنْ كَنَفِي كَدَاءُ  
يُنَازِعُنَ الْأَعْنَةَ مُسْرِجَات      يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النَّسَاءُ»

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-: «ادخلوها من حيث قال حسان» .

**الحكم السادس:** الولد للفراش وللعاهر<sup>(4)</sup> الحجر<sup>(5)</sup> . جاء في صحيح الإمام

البخاري: «... وقال الليث: حدثني يونس عن ابن شهاب، حدثني عروة بن الزبير أن عائشة قالت: كان عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد أن يقبض ابن وليدة<sup>(6)</sup> زَمْعَةَ<sup>(7)</sup>، وقال عتبة: إنه ابني . فلما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مكة في الفتح أخذ سعد بن أبي وقاص ابن وليدة زَمْعَةَ، فأقبل به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم !- وأقبل معه عبد بن زَمْعَةَ، فقال سعد: هذا ابن أخي عهد إليّ أنه ابنه، فقال عبد بن زَمْعَةَ: يا رسول الله ! هذا أخي؛ هذا ابن وليدة زمعة ولد على فراشه، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلى ابن وليدة زمعة فإذا أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- هـولك هو أخوك يا عبد بن زَمْعَةَ من أجل أنه ولد على فراشه . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-: احتجبي منه يا سودة، لما رأى من شبه عتبة بن أبي وقاص» .

قال ابن شهاب: قالت عائشة: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-: «الولد للفراش

وللعاهر الحجر» . وقال ابن شهاب: وكان أبو هريرة: يصيح بذلك» أي: يعلنه جهاراً أمام الناس .

(1) «متمطرات»: يسبق بعضها بعضاً، أو أصابها المطر .

(2) «يلطمهن»: يضربن خدودها بالخمير .

(3) كتاب المغازي . ج 2 ص 831 .

(4) «العاهر»: الزاني .

(5) «الحجر»: الحية .

(6) «وليدة»: أمة .

(7) «زمعة»: ابن قيس العامري والد سودة زوجة النبي - صلى الله عليه وسلم !-.

## غزوة حنين<sup>(1)</sup>

وقد ذكر الله تعالى هذه الغزوة في كتابه العزيز فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ (2) إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ (3) فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا (4) وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ (5) ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (6) ۖ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ (7) عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا (8) وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا (9) وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (10) ۖ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ (11) مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) ۖ﴾.

### السبب في هذه الغزوة

لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة ودخل في دين الإسلام من دخل من أهلها، سقط في أيدي بعض قبائل العرب من هوازن وثقيف وغيرهما من قبائل المشركين الذين كانوا على رأي واحد، وقالوا: لا مانع أن يغزونا محمد بعد غزوه مكة وانتصاره على أهلها،

- (1) «حنين»: واد بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلاً.
  - (2) «ويوم حنين»: اذكروا يوم قتالكم هوازن في حنين.
  - (3) «إذ أعجبتكم كثرتكم»: المؤلفة من اثني عشر ألفاً: عشرة من المهاجرين والأنصار، وألفين من الطلقاء، وهم الأسراء الذين أخذوا يوم فتح مكة.
  - (4) «فلم تغن عنكم شيئاً»: فلم تنفعكم كثرة جنودكم بما أنتم في شدة حاجتكم إليه فأصبحتهم منهزمين أمام عدوكم.
  - (5) «وضاقت عليكم الأرض بما رحبت»: لشدة ما لحقكم من الهلع قد ضاقت عليكم سعة الأرض، فلم تجدوا فيها موضعاً تفرون إليه.
  - (6) «ثم وليتم مدبرين»: منهزمين لستم منتصرين رغم إعجابكم بكثرتكم، وما النصر إلا من عند الله.
  - (7) «ثم أنزل الله سكينته»: رحمته ولطفه بكم.
  - (8) «وأنزل جنوداً لم تروها»: وأنزل من السماء جنوداً من الملائكة لم تعينوها بأبصاركم، وهم على خيول بلق، لتقوية قلوب المؤمنين بإلقاء الخواطر الحسنة في نفوسهم وإلقاء الخوف والرعب في قلوب المشركين.
  - (9) «وعذب الذين كفروا»: بالقتل والأسر، وهم قوم مالك بن عوف النصري، وقوم كنانة بن عبد ياليل الثقفي.
  - (10) «وذلك جزاء الكافرين»: وذلك التعذيب جاء الذين كفروا في الدنيا.
  - (11) «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء، والله غفور رحيم»: يتوب الله من بعد الخذلان على من يوقفه للإسلام، ويغفر لمن تاب وآب، ويرحم من آمن وعمل صالحاً.
  - (12) «في مواطن كثيرة»: هي مشاهد الحروب؛ كوقعة بدر، وقرظة، والنضير، والحديبية، وخيبر وفتح مكة.
- ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والرأي أن نغزوه قبل أن يدهمنا في عقر ديارنا ، فاجتمعوا إلى مالك بن عوف النَّصْرِيّ من قبيلة نصر بن معاوية وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، وكان سيّداً في قومه ، متبختراً بكبره ، مختالاً في مشيه ، مُسَبِّلاً لثوبه ، له الكلمة العليا والأمر المطاع في عشيرته ، ثم أجمع مالك هذا على المسير إلى محمد بن اجتماعهم إليه ، وسار بهم . قال عليّ بن الأثير : «فلما نزلوا أوطاس<sup>(1)</sup> جمع [مالك النَّصْرِيّ] الناس ، وفيهم دُرَيْدٌ<sup>(2)</sup> بن الصَّمّة ، فقال دُرَيْدٌ : بأيّ واد أنتم؟ فقالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل لا حزن ضرس ، ولا سهل دَهِس<sup>(3)</sup> ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، ويغار الشاة ، وبكاء الصّغير؟! قالوا : ساق مالك مع الناس ذلك . فقال : يا مالك ! إن هذا يوم له ما بعده ، ما حملك على ما صنعت؟ قال : سقّتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله . قال دُرَيْدٌ : راعي ضأن والله ! هل يردّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحت في أهلِكَ ومالك . وقال : ما فعلت كُعب وكلاب؟ قالوا : لم يشهدا أحد منهم . قال : غاب الجدّ والحدّ؛ لو كان يوم علاء ورَفعة لم تَغِب عنه كُعب ولا كلاب ، ووددت أنكم فعلتم ما فعلا . ثم قال : يا مالك ! ارفع من معك إلى عليّ بلادهم ثم الق الصّباء<sup>(4)</sup> على الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلِكَ ، ومالك . قال مالك : والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر علمك ، والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكره أن يكون لدُرَيْدٍ فيها ذكر . فقال دُرَيْدٌ : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني . ثم قال مالك : أيّها الناس ! إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدّوا عليهم شدّة رجل واحد . وبعث مالك عيونه ليأتوه بالخبر ، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ما شأنكم؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن حلّ بنا ما ترى ! فلم ينهه ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد<sup>(5)</sup> .

(1) «أوطاس» : واد في ديار هوازن .

(2) كان شيخاً مُسنّاً .

(3) «دَهِس» : ليس به رمل ولا تراب .

(4) «الصّباء» : جمع صابئ ، كان المشركون يسمون المسلمين بذلك ، لأنهم خرجوا عن دين الوثنية إلى دين الإسلام . أي الق أنت وجنودك المسلمين الصابئين وأنتم محاربون لهم على متون الخيل .

(5) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 261 ، 262 .



## خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - للقاء هوازن

ولما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ما عازمت عليه هوازن بقيادة مالك بن عوف النَّصْرِيّ، تجهز وخرج من مكّة للقاء هوازن ومنّ معهم؛ وذلك يوم السَّبْت لستّ خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة النبويّة، واستعمل على مكّة عتّاب بن أسيد يُصَلِّي بهم ومُعَاذ ابن جَبَل يَعْلَمُهم السنن النبويّة وَيُفَقِّههم في الدين. قال محمّد بن إسحاق: «ولما سمع بهم نبيّ الله - صلى الله عليه وسلم! - بعث إليهم عبدالله بن أبي حَذَرْد الأسلميّ، وأمره أن يدخل في النَّاس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن حَذَرْد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وسمع من مالك [ بن عوف النَّصْرِيّ ] وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأخبره الخبر. فلما أجمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - السَّير إلى هوازن ليلقاهم، ذَكَرَ له: أنْ عند صفوان بن أميّة أدراعاً له وسلاحاً، فأرسل إليه، وهو يؤمّئذ مشرك، فقال: يا أبا أميّة! أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا غداً. فقال صفوان: أغصّباً يا محمّد؟! قال: بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك. قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع ممّا يكفيها من السَّلاح، فزعموا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سأله أن يكفيها حملها. ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ومعه ألفان من أهل مكّة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح بهم مكّة، فكانوا اثني عشر ألفاً، واستعمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عتّاب بن أسيد بن أميّة بن عبد شمس على مكّة أميراً على مَنْ تخلف عنه من النَّاس. ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على وجهه يريد لقاء هوازن. . . عن جابر بن عبدالله قال: لما استقبلنا وادي حنّين انجدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط<sup>(1)</sup>؛ إنّما ننحدر فيه انحداراً، وفي عمّاية الصَّبح<sup>(2)</sup>، وكانوا قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه<sup>(3)</sup> ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيَّروا وأعدّوا، فوالله ما راعنا ونحن مُنْحَطُّون إلّا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر النَّاس<sup>(4)</sup> راجعين

(1) «حطوط»: منحدر.

(2) «عمّاية الصَّبح»: ظلامه قبل أن يتبيّن ضياء الفجر الصادق.

(3) «أحنائه»: جوانبه.

(4) «وانشمر النَّاس»: انفضّوا وانهمزوا.

لا يلوي أحد على أحد . وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ثم قال : أين أيها الناس؟! هلموا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ! فلاي شيء<sup>(1)</sup> حملت الإبل بعضها على بعض؟! فانطلق الناس ؛ إلا أنه بقي مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته . . . عن العباس بن عبد المطلب قال : إنني لمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أخذ بحكمة<sup>(2)</sup> بغلته البيضاء قد شجرتُها بها<sup>(3)</sup> ، وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يقول حين رأى ما رأى من الناس : أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلون على شيء ، فقال : يا عباس ! اصرخ : يا معشر الأنصار ! يا معشر أصحاب سمرّة ! قال : فأجابوا : لبيك لبيك ! فيذهب الرجل ليشني بعيه فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيه ويخلي سبيله ، فيؤمّ الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا . وكانت الدعوى أول ما كانت : يا للأنصار ! ثم خلصت أخيراً : يا للخزرج ! وكانوا صبراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في ركائبه ، فنظر إلى مُجتلد القوم<sup>(4)</sup> وهم يجتلدون فقال : الآن حمي الوطيس !<sup>(5)</sup> . وجاء في صحيح البخاري : « حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق قال : سمعتُ البراء وجاءه رجل فقال : يا أبا عُمارة ! أتوليت يوم حنين؟ قال : أمّا أنا فأشهد على النبي - صلى الله عليه وسلم !- أنه لم يؤلّ ؛ ولكن عجل سرعانُ القوم ؛ فرشقتهم هوازن ، وأبو سفيان بن الحارث أخذ برأس بغلته البيضاء يقول :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ      أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وروى البيهقي والطبراني أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال يوم حنين : « أنا ابن العواتك » . وروى مسلم عن البراء أنّه قال : كنّا إذا حمي البأس نتقي برسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وإن الشجاع الذي يُحاذي به . وقال محمد التّوّي الجاويّ عند تفسيره قوله

(1) « فلاي شيء » أي : شيء عظيم .

(2) « بحكمة » : بلجام .

(3) « شجرتها بها » : وضعها في شجرها ؛ وهو مجتمع اللّحيين .

(4) « مُجتلد القوم » : موضع جلادهم بالسيف في خضمّ المعركة .

(5) « الوطيس » : تنوّر الحرب . ولم ينطق بهذه الكلمة ناطق قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم !

تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْرِبِينَ﴾<sup>(1)</sup>: أي: منهزمين من الله. وقال البراء بن عازب: كانت هوازن رُمّةً، فلمّا حملنا عليهم انكشفوا وأكبنا على الغنائم، فاستقبلنا بالسّهام، وانكشف المسلمون عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ولم يبق معه - صلى الله عليه وسلم! - إلا عمّة العباس بن عبد المطلب، وهو أخذ بلجام بغلته، وابن عمّة أبو سُفيان بن الحارث، وهو أخذ بركابه، وهو صلى الله عليه وسلم يركض بلغته الشهباء نحو الكفّار، لا يُبالي وهو يقول:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ      أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ»

ثم قال للعبّاس: «ناد المهاجرين والأنصار». وكان العبّاس رجلاً صَيّاً، فجعل ينادي: يا عباد الله! يا أصحاب الشجرة! يا أصحاب سورة البقرة! فجاء المسلمون حين سمعوا صوته عنقاً واحداً، وأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بيده كفّاً من الحصى فرماهم بها وقال: «شاهت الوجوه»، فما زال أمرهم مدبراً وحدهم قليلاً حتى هزمهم الله تعالى، ولم يبق منهم يومئذ أحد إلا وقد امتلأت عيناه من ذلك التراب، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾<sup>(2)</sup>. أي: رحمته التي يحصل بها سكون وثبات وأمن ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(3)</sup>.

وكانت الهزيمة على هوازن، وقتل من ثقيف وبني مالك سبعون رجلاً، وأمّا الأحلاف من ثقيف فلم يُقتل منهم سوى رجلين اثنين، لأنّهم انهزموا سريعاً عند بدء المعركة. وما كانت هزيمة المشركين إلا مع رجوع المسلمين بالأسارى في الجبال عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأمر رسول الله أن تجمع الغنائم من الإبل والغنم والرقيق وأن تُساق إلى الجعرانة<sup>(4)</sup> فتُحبس هناك، فكان الأمر كما أمر، وجعل على الغنائم مسعود بن عمرو الغفاري. واستشهد من المسلمين يوم حنين أربعة شهداء، وهم: أيمن بن عبيد القرشي الهاشمي. يزيد بن زَمعة بن الأسود الأسدي<sup>(5)</sup>. سُرّاقة بن الحارث الأنصاري. وأبو عامر الأشعري.

(1) سورة «التوبة». الآية 25.

(2) سورة «التوبة». الآية 26.

(3) سورة «التوبة». الآية 26.

(4) «الجعرانة»: ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب.

(5) جَمَعَ به فرس له يقال له: الجناح، فقتل.

وكان سبب هذه الغزوة أن قبيلة هوازن لما انهزمت في حُنين نزحت فرقة منهم بقيادة مالك ابن عوف النَّصْرِيّ إلى الطائف فتحصّنوا بها، وسارت فرقة أخرى إلى أوطاس فعسكروا<sup>(2)</sup> هناك، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم سرية من أصحابه تحت قيادة أبي عامر الأشعريّ، فقاتلهم فتغلّبوا عليه، ورماه سَكَمَة بن دُرَيْد بن الصَّمّة بسهم فكانت السَّبب في موته وانتهى الأمر بانهزام المشركين، وظفر المسلمون بالغنائم والسّبايا، وكانت من بين السّبايا السّاقطين بأيدي المسلمين الشّيماء بنت الحارث بن عبد العزّي، فقالت لهم: إني والله أُختٌ صاحبكم من الرّضاة، فلم يعبّوا بقولها ولم يصدّقوها فيما فاهت به؛ حتى أتوا بها النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - فقالت له: إني أُختك من الرّضاة. فقال لها: ما دليلك على ذلك؟ قالت: عَضَّة عَضَضْتَنِيهَا فِي ظَهْرِي وَأَنَا مُتَوَرِّكَتٌ. فعرفها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها فقال: إن أحببت فعندي مُكْرَمَة مُحِبَّة، وإن أحببت أن أمتّعك وترجعني إلى قومك. قالت: بل تَمَتّعني وتردني إلى قومي. ففعل صلى الله عليه وسلم. ثم أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليّ بن أبي عامر الأشعريّ، فأدرك من النّاس بعض من انهزم، فناوشوه القتال، فرُمِيَ أبو عامر بسهم فقتل، فأخذ الراية ابن عمّه أبو موسى الأشعريّ، فقاتلهم، ففتح الله على يديه وهزمهم. وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف في فوارس من قومه على ثنية من الطريق وقال لأصحابه: قفوا حتى تمضي ضعفاؤكم، وتلحق أхраكم. فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة النّاس<sup>(3)</sup>. وجاء في صحيح البخاريّ: «... عن أبي بريدَة، عن أبي موسى الأشعريّ - رضي الله عنه - قال: لما فرغ النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - من حُنين، بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دُرَيْد بن الصَّمّة، فقتل دريد وهزم الله أصحابه. قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمِيَ أبو عامر في ركبته؛ رماه جُشَمِيّ بسهم فأثبته في ركبته، فانهت إلى

(1) «أوطاس»: واد في ديار هوازن.

(2) «عسكروا»: نصبوا خيامهم هناك وحطّوا رحالهم.

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 178.

فقلتُ: يا عمّ! من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى<sup>(1)</sup> فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدتُ له فلحقته، فلما رأيته ولى فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت! فكفّ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته، فنزا منه الماء. قال: يا بن أخي<sup>(2)</sup>! أقرئ النبيّ - صلى الله عليه وسلم! السلام وقل له: استغفر لي واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - في بيته على سرير مُرمل<sup>(3)</sup> وعليه فراش قد أثر رمالُ السرير في ظهره وجنبه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر. ورأيت بياض إبطيه. ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس». فقلت: ولي فاستغفر. فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً». قال أبو بُرْدَة (الراوي): إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى.

#### غزوة الطائف<sup>(4)</sup>

جاء في صحيح الإمام البخاري: «غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، قاله موسى بن عُبَيْة... حدثنا هشام عن أبيه، عن زَيْنَب ابنة أبي سَلَمَة، أمّها أم سَلَمَة - رضي الله عنها -: دخل عليّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وعندي مَخَنَّث، فسمعتة يقول لعبد الله بن أبي أُمَيَّة: يا عبدالله! رأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً؟! فعليك بآبنة غَيْلان، فإنها تُقبَل بأربع وتُدبر بثمان<sup>(5)</sup>. وقال النبيّ - صلى الله عليه وسلم! -: لا يدخلن هؤلاء عليكن. قال ابن عِيْنَة: وقال ابن جُرَيْج: المَخَنَّث: هيت<sup>(6)</sup>. لما انهزم المشركون من قبيلة ثقيف، انضم إليهم من كان مثلهم في الكفر والشرك وحطّوا رحالهم بالطائف، حيث جمعوا ما يحتاجون إليه من ميرة ومؤونة، وأغلقوا عليهم أبواب المدينة وتحصّنوا بها. فسار إليهم النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فحصرهم

(1) «أشار إلى أبي موسى»: هذا من باب الالتفات؛ والأصل أن يقول: فأشار إليّ.

(2) «يا بن أخي»: هذا ما يُردُّ على ابن إسحاق القائل: إنه ابن عمّه.

(3) «مرمل»: منسوح بحبل ونحوه.

(4) «الطائف»: بلدة تقع على ظهر جبل غزوان بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً.

(5) «تقبل بأربع وتُدبر بثمان»: قال أحمد القسطلاني في شرح البخاري: «أي: من عكّن، وتدبر بثمان منها، والعكنة ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً». والمراد أن أطراف العكن الأربع التي في بطنها تظهر ثمانية في جنبها.

(6) «هيت»: اسمه ماتع، وهو مولى عبدالله بن أُمَيَّة.

نَيْفًا وَعِشْرِينَ يَوْمًا، ورمَاهم بالمنجنيق الذي أشار باستعماله سلمان الفارسيّ، وقاتلهم قتالاً شديداً، ودخل نفر من المسلمين تحت دبابات صنعوها من جلود البقر، ثم زحفوا إلى جدار الطائف، فرمتهم ثقيف بسكك الحديد المحماة، فخرجوا من تحتها، فواجههم مَنْ كانوا بالطائف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً! واستشهد من المسلمين بالطائف اثنا عشر رجلاً. منهم: عبدالله بن أبي أمية المخزوميّ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، وعبدالله بن أبي بكر الصديق، رُمِيَ بِسَهم فمات منه بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - والسائب بن الحارث بن عديّ، وغيرهم. وفي نهاية الأمر انتصر المسلمون على المشركين، وفتحوا الطائف، وانقاد للإسلام مَنْ ارتضاه الله له، فحسن إسلامه. قال محمد بن عمر الواقديّ: «لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - حُنَيْنًا وَأَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى الطَّائِفِ، بَعَثَ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو إِلَى ذِي الْكُفَّيْنِ: - صَنِّمَ عَمْرٍو بْنَ حُمَمَةَ - يَهْدِمُهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَسْتَمِدَّ قَوْمَهُ وَيُؤَافِيَهُ بِالطَّائِفِ. فَقَالَ الطُّفَيْلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْصِنِي؛ قَالَ: «أَفْشِ السَّلَامَ، وَابْذُلِ الطَّعَامَ، وَاسْتَحْيِ مِنَ اللَّهِ؛ كَمَا يَسْتَحْيِي رَجُلٌ ذُو الْهَيْئَةِ مِنْ أَهْلِهِ. إِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنِ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِ﴾»<sup>(1)</sup>. فخرج الطُّفَيْلُ سَرِيعًا إِلَى قَوْمِهِ فَهَدَمَ ذَا الْكُفَّيْنِ، وَجَعَلَ يَحْشُو النَّارَ فِي جُوفِهِ وَيَقُولُ:

يَا ذَا الْكُفَّيْنِ لَسْتُ مِنْ عَبَادِكَ      ميلادُنَا أَقْدَمُ مِنْ ميلادِكَ  
أَنَا حَشَوْتُ النَّارَ فِي فُؤَادِكَ

وأسرع معه قومه، وانحدر معه أربعمائة من قومه، فوافوا النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - بالطائف؛ بعد مُقامه بأربعة أيّام. فقدم بدبابة ومنجنيق، وقال: يا معشر الأزد! مَنْ يَحْمِلُ رَايَتَكُمْ؟ قالوا: مَنْ كَانَ يَحْمِلُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قال: أصبتم! وهو النعمان بن الزرّافة اللّهبيّ<sup>(2)</sup>. وقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ مِنْ حَتِّينَ عَلَى مُقَدَّمَتِهِ، وَأَخَذَ مَنْ يَسْلُكُ بِهِ مِنَ الْأَدْلَاءِ إِلَى الطَّائِفِ . . . وَكَانَتْ ثَقِيفٌ قَدْ رَمَوْا<sup>(3)</sup> حَصْنَهُمْ وَدَخَلُوا فِيهِ مِنْهَزِمِينَ مِنْ أَوْطَاسٍ، وَأَغْلَقُوا

(1) سورة «هود». الآية 114.

(2) قال عمرو بن عبد البرّ - في كتابه «الاستيعاب» -: هو النعمان بن الزرّاع حليف الأزد، وقال ابن سعد - في «الطبقات» -: هو النعمان بن بازية اللّهبيّ.

(3) «رمّوا»: أصلحوه.

عليهم - وهو حصن على مدينتهم له بابان - وصنعوا الصنائع للقتال وتهيؤوا، وأدخلوا حصنهم ما يُصلحهم لسنة لو حُصروا. وكان عُروة بن مسعود وغيّلان بن سلمة بجَرْش<sup>(1)</sup> يتعلّمان عمل الدّبابات والمُنجنيق، يريدان أن ينصبا على حصن الطائف، وكانا لم يحضرا حيناً ولا حصار الطائف. وسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أوطاس، فسلك على نخلة اليمانية<sup>(2)</sup>، ثم على قرن<sup>(3)</sup>، ثم على المُلّيح<sup>(4)</sup>، ثم بحرة الرّغاء<sup>(5)</sup> من لية<sup>(6)</sup>، فابتنى بها مسجداً فصلّى فيه. قال محمد بن إسحاق: «... ثم سلك في طريق يقال لها الضيّقة، ثم خرج منها على نخب حتى نزل تحت سدره يقال لها: «الصادرة»... ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى نزل موضعاً قريباً من الطائف، فضرب به عسكره، فقتل به ناس من أصحابه بالنبل؛ وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فكانت النبل تنالهم، ولم يقدر المسلمون أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم. فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم، فحاصره بمضعاً وعشرين ليلة، ومعه امرأتان من نسائه، إحداهما أم سلمة<sup>(7)</sup> ابنة أبي أمية، فضرب لهما قُبَتَيْن ثم صلى بين القُبَتَيْن، ثم أقام. فلما أسلمت ثقيف بنى على مُصلّى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمرو بن أمية بن وهب مسجداً، وكانت في ذلك المسجد سارية فيما يزعمون، لا تطلع الشمس عليها يوماً من الدهر إلا سُمِعَ نقيض<sup>(8)</sup>، فحاصره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقاتلهم قتالاً شديداً وتراموا بالنبل، حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت دّبابة، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محمأة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقطع أعقاب

(1) «جَرْش»: قال الحموي - في «معجم البلدان» -: جرش بالتحريك وهو اسم مدينة عظيمة كانت، وهي الآن خراب... وهي في شرق جبل السّواد من أرض البلقاء وحواران من عمل دمشق.

(2) «نخلة اليمانية»: واد يصبّ فيه يدعان.

(3) «قرن»: قرية بينها وبين مكة أحد وخمسون ميلاً.

(4) «المُلّيح»: واد بالطائف.

(5) «بحرة الرّغاء»: موضع في «لية» من ديار بني نصر.

(6) «لية»: ناحية من نواحي الطائف.

(7) والثانية زينب.

(8) «نقيض»: صوت.

ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون . . . وجميع من استشهد بالطائف من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- اثنا عشر رجلاً : سبعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، ورجل من ليث . فلما انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عن الطائف بعد القتال والحصار ، قال بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرٍ بْنُ أَبِي سَلَمَى يذكر حُنيئاً والطائف :

كَانَتْ عَلَالَةً<sup>(1)</sup> يَوْمَ بَطْنِ حُثَيْنٍ<sup>(2)</sup>  
جَمَعَتْ بِإِغْوَاءٍ<sup>(3)</sup> هَوَازُنُ جَمْعِهَا  
لَمْ يَمْنَعُوا مِنَّا مَقَاماً وَاحِداً  
وَلَقَدْ تَعَرَّضْنَا لِكَيْمَا يَخْرُجُوا  
تَرْتَدُّ حَسْرَاناً<sup>(4)</sup> إِلَى رَجْرَاجَةٍ<sup>(5)</sup>  
مَلْمُومَةٍ<sup>(7)</sup> خَضْرَاءُ لَوْ قَدُمُوا بِهَا  
مَشَى الضَّرَاءُ<sup>(9)</sup> عَلَى الْهَرَّاسِ<sup>(10)</sup> كَأَنَّا  
فِي كُلِّ سَابِغَةٍ<sup>(12)</sup> إِذَا مَا اسْتَحْصَنَتْ  
جُدُلٌ<sup>(14)</sup> تَمَسُّ فُضُولَهُنَّ نَعَالِنَا

بَعْدَاةَ أَوْطَاسٍ وَيَوْمَ الْأُبَرْقِ  
فَتَبَدَّدُوا كَالطَّائِرِ الْمُتَمَزَّقِ  
إِلَّا جِدَارَهُمْ وَبَطْنَ الْخُنْدَقِ  
فَتَحَصَّنُوا مِنِّيَابِابٍ مُغْلَقِ  
شَهْبَاءٍ<sup>(6)</sup> تَلْمَعُ بِالْمَنَائِي فَيَلْقِ  
حَضْنًا<sup>(8)</sup> لَظْلٌ كَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ  
قُدْرٌ<sup>(11)</sup> تَفَرَّقُ فِي الْقِيَادِ وَتَلْتَقِي  
كَالنَّهْيِ<sup>(13)</sup> هَبَّتْ رِيحُهُ الْمُتَرَفِّقِ  
مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ وَآلِ مُحَرَّقٍ<sup>(15)</sup>

(1) «علالة» : جَرِي بعد جَرِي أو قتال بعد قتال .

(2) «حُثَيْن» : تصغير حنين .

(3) «إِغْوَاء» : الإغواء ؛ الإضلال ، والغِيّ وهو ضد الرُّشد .

(4) «حَسْرَانًا» : حَسْرَى . جمع حَسِير .

(5) «رَجْرَاجَةٍ» : كَتِيبة ضخمة .

(6) «شَهْبَاء» : بِيضَاء بلمعان سلاحها الحديديّ .

(7) «مَلْمُومَةٍ» : مجتمعة خضراء لما بها من سواد السلاح .

(8) «حَضْنًا» : جبالاً بأعلى نجد .

(9) «الضَّرَاء» : الكلاب أو الأسود الضارية .

(10) «الهَرَّاس» : نبات ذو شوك .

(11) «قُدْر» : جمع قدور ، وهي الخيل تجعل أرجلها في مواضع أيديها إذا جرت .

(12) «سَابِغَةٍ» : درع تامة كاملة .

(13) «النَّهْي» - بفتح أوله وكسره - : الغدير من الماء .

(14) «جُدُل» : جمع جدلاء ، وهي الدَّرْع جيّدة النسيج .

(15) «آل مُحَرَّق» : آل عمر بن هند ملك الحيرة . (السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 241 .



## اقتسام غنائم حنين بعد النصر المبين

قال علي بن الأثير - نقلاً عن محمد بن إسحاق وغيره باختصار مفيد -: «لَمَّا رَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - من الطائف، سار حتى نزل الجعرانة، وأتته وفود هوازن بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله! إِنَّا أَصْلُ وَعَشِيرَةٌ، وَقَدْ أَصَابَنَا مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَاْمُنْ عَلَيْنَا مِنْ اللَّهِ عَلَيْكَ! وَقَامَ زُهَيْرُ بْنُ صُرْدٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ - وَهُمْ الَّذِينَ أَرْضَعُوا رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله! إِنَّمَا فِي الْحِطَّائِرِ عَمَّاتِكَ وَخَالَاتِكَ وَحَوَاضِنِكَ، وَلَوْ أَنَا أَرْضَعْنَا الْحَارِثَ ابْنَ أَبِي يَشْمَرَ الْغَسَّانِي أَوْ النُّعْمَانَ بْنَ الْمَنْذَرِ لَرَجَوْنَا عَظْفَهُ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَكْفُولِينَ! ثُمَّ قَالَ:

اْمُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ      فَإِنَّكَ الْمَرْءُ تَرْجُوهُ وَتَدْخُرُ  
اْمُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ عَاقَهَا قَدَرٌ      مَمَزَقٌ شَمْلُهَا فِي دَهْرَهَا غَيْرُ

الآيات . . . فخيرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، فاختاروا أبناءهم ونساءهم. فقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم؛ فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم وأسأل فيكم. فلما صلى الظهر فعلوا ما أمرهم به، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله. وقال الأقرع بن حابس: ما كان لي ولبني تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: ما كان لي ولفرزة فلا. وقال عباس بن مرداس: ما كان لي ولسليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله. فقال: وهتتموني. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: مَنْ تَمَسَّكَ بِحَقِّهِ مِنَ السَّبْيِ فَلَهُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سِتُّ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ نُصِيْبِهِ، فَرُدُّوْا عَلَى النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَسَلِّمْ. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: عَنْ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ، فَقِيلَ: إِنَّهُ بِالطَّائِفِ. فقال: أخبروه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة بعير. فأخبر مالك بذلك، فخرج من الطائف سراً ولحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأسلم وحسن إسلامه، واستعمله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قومه وعلى مَنْ أسلم من تلك القبائل التي حول الطائف، وأعطاه أهله وماله ومئة بعير. وكان يقاتل بمن أسلم معه من ثَمَالَةَ وَفَهْمَ وَسَلَمَةَ ثَقِيفاً، لَا يَخْرُجُ لَهُمْ سَرَحٌ إِلَّا أَعَارَ عَلَيْهِ، حَتَّى ضَيَّقَ عَلَيْهِمْ، وَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مِنْ رَدِّ سَبَايَا هَوَازِنَ رَكِبَ وَاتَّبَعَهُ النَّاسُ يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْسَمَ عَلَيْنَا فَيَتَنَا حَتَّى الْجُؤُوهَ إِلَى شَجَرَةٍ،

فاختطف رداؤه، فقال: رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي أَيُّهَا النَّاسُ! فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَمٌ لقسمتها عليكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. ثم رفع وبرةً من سنام بعير وقال: ليس لي من فيحكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس وهو مردود عليكم. ثم أعطى المؤلفة قلوبهم، وكانوا من أشرف الناس يتألفهم على الإسلام، فأعطى أباسقيان وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، والعلاء بن جارية الثقفي، والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وسُهَيْل بن عمرو، وحُوَيْطَب بن عبد العزى، وعُيَيْنَة بن حصن، والأقرع بن حابس، وملك بن عوف النَّصْرِي؛ كل واحد منهم مائة بعير<sup>(1)</sup>، وأعطى دون المائة رجالاً، منهم: مَخْرَمَة بن نوفل الزُّهْرِي، وعُمَيْر بن وهب، وهشام بن عمرو، وسعيد بن يربوع. وأعطى العباس بن مرداس أباعر، فسخطها وقال:

كَأَنْتَ <sup>(2)</sup> نَهَاباً تَلَا فَيْتُهَا	بَكْرِي عَلَى الْمُهْر فِي الْأَجْرِ <sup>(3)</sup>
وَأَيْقَاطِي الْقَوْمَ أَنْ يَرْقُدُوا	إِذَا هَجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجَعْ
فَأَصْبَحَ نَهْيِي وَنَهْبُ الْعُبَيْ	دَ يَنْ عَيْنَةَ وَالْأَقْرَعَ <sup>(4)</sup>
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تُدْرَأَ <sup>(5)</sup>	فَلَمْ أُعْطِ شَيْئاً وَلَمْ أُمْنَعْ
إِلَّا أَقَائِلَ <sup>(6)</sup> أُعْطِيَتْهَا	عَدِيدَ قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ
وَمَا كَانَ حَصْنٌ وَلَا حَابِسٌ	يَفُوقَانِ مَرْدَاسَ فَنِي الْمَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرٍ مِنْهُمَا	وَمَنْ تَضَعَ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

فأعطاه حتى رضي. وقال رجل من الصحابة: يا رسول الله! أعطيت عَيْنَةَ والأقرع وتركت جُعَيْلَ بن سُرَاقَةَ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: والذي نفسي بيده لجُعَيْل خير من طلاع الأرض رجالاً كلهم مثل عَيْنَةَ والأقرع؛ ولكني تألفتها ووكلتُ جُعَيْلاً إلى إسلامه. وقيل: إن ذا الحُوَيْصِرَةَ التَّمِيمِيَّ في هذه القسمة قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(1) قال محمد بن إسحاق: «وكان مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من سَبْيِ هِوَاظَن سِتَّةَ آلَافٍ مِنَ الدَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ، وَمِنَ الْإِبِلِ وَالشَّاءِ مَا لَا يُدْرَى مَا عَدَّتْهُ».

(2) «الرَّمْلُ»: يعني الإبل والماشية.

(3) «الأَجْرَعُ»: الأرض ذات الحُزُونَةِ تشاكل الرَّمْلَ.

(4) «العُبَيْدُ»: فرس العباس بن مرداس.

(5) «ذا تُدْرَأُ»: ذا دفع، من قولهم: درأه إذا دفعه.

(6) «أَفَائِلُ»: جمع أَفِيل، وهي الصَّدَارُ مِنَ الْإِبِلِ.

وسلم! -: إناك لم تعدل اليوم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: ومن يعدل إذا لم أعدل؟! فقال عمر بن الخطاب : ألا نقتله؟ فقال : دعوه ، ستكون له شيعه يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية . وقيل : إن هذا القول إنما كان في مال بعث به عليّ من اليمن إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقسمه بين جماعة ، منهم : عيينة ، والأقرع ، وزيد الخيل . قال أبو سعيد الخدريّ : لما أعطى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ما أعطى من تلك الغنائم في قريش وقبائل العرب ولم يُعط الأنصار شيئاً ، وجدوا في أنفسهم ، حتى قال قائلهم : لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قومه . فأخبر سعد بن عبادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بذلك ، فقال له : فأين أنت يا سعد؟ قال : أنا من قومي . قال : فاجمع قومك لي ، فجمعهم ، فأتاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال : ما حديث بلغني عنكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله بي؟ وفقراء فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم بي؟ قالوا : بلى والله يا رسول الله! ولله ورسوله المنّ والفضل! فقال : ألا تُجيبوني؟ قالوا : بماذا نجيبك؟ فقال : والله لو شئتم لقلتم فصدقتهم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فواسيناك ، أوجدتم - يا معشر الأنصار - في أنفسكم في لُعاة<sup>(1)</sup> من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟ والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار! فبكى القوم حتى أخضلوا<sup>(2)</sup> لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً . وتفرّقوا<sup>(3)</sup> .

### عمرة الجعرانة

لقد ثبتت بالنقل الصحيح عمرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من الجعرانة في ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة النبوية . روى الإمام أحمد عن قتادة أنه قال : «سألت أنس بن مالك قلتُ : كم حجّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -؟ قال: حجّة واحدة ، واعتمر أربع

(1) «لعاة» : قليلة ؛ يقال : الدنيا لعاة ، أي : كالنبات الأخضر قليل البقاء .

(2) «أخضلوا» : بلّوا .

(3) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 268 - 272 .

مرّات: عمرته زمن الحُدَيْبِيَّة، وعمرته في ذي القعدة من المدينة، وعمرته من الجعرانة في ذي القعدة؛ حيث قسّم غنيمة حُتَيْن، وعمرته مع حجّته». ورواه البخاريّ ومسلم والترمذيّ وأبو داود من طرق، عن هُمام بن يحيى به. وقال الترمذيّ حسن صحيح. وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد العزيز بن عبد الله، عن مخرّش الكعبيّ: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج من الجعرانة، ليلاً حين أمسى معتمراً، فدخل مكة ليلاً يقضي عمرته، ثم خرج من تحت ليلته فأصبح بالجعرانة كبأث حتى إذا زالت الشمس خرج من الجعرانة في بطن سرف<sup>(1)</sup>، حتى جاء مع الطريق - طريق المدينة - بسرف. قال مخرّش: فلذلك خفيت عمرته على كثير من الناس.

وعاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة المنورة تاركاً على مكة المكرمة عتاب ابن أسيد ومعه معاذ بن جبل ليُعلم أهلها القرآن ويُفقههم في الدين. وفي هذه السنة حجّ الناس حجّهم المعتاد عند العرب. قال محمّد بن إسحاق: «ثمّ خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الجعرانة وأمر ببقايا الفَيء فحُبِسَ بِمَجَنَّة، بناحية مرّ الظهران، فلماً فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة . . . واتّبع ببقايا الفَيء. وكانت عمرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ذي القعدة، فقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة في بقيّة ذي القعدة أو في ذي الحجّة. وحجّ الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحجّ عليه، وحجّ بالمسلمين تلك السنة عتاب بن أسيد، وهي سنة ثمان، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم في طائفهم، ما بين ذي القعدة إلى شهر رمضان سنة تسع»<sup>(2)</sup>.

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن إعجاب المسلمين بكثرة عددهم وعدّتهم في غزوة حُين قد أفضى بهم إلى ما صاروا إليه، فلم يُغن عنهم شيئاً إعجابهم؛ بل ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وولّوا مدبرين هاربين من عدوّهم الذي كانوا يستصغرون عدده وعدّته. قال أحمد بن حجر العسقلاني: «روى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن الربيع بن أنس قال: قال رجل يوم حُين: لن نُغلب اليوم من قلة، فشقّ ذلك على النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فكانت الهزيمة»<sup>(3)</sup>.

(1) «سرف»: موضع على ستة أميال من مكة.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 254، 255.

(3) الفتح الباري، بشرح صحيح البخاري. ج 8 ص 22.

**العبرة الثانية :** نزول الملائكة في غزوة حنين كات ترهيباً للمشركون وإمداداً للمسلمين .

قال محمد بن عمر الواقدي : «وكان سيما الملائكة يوم حُنين عمام حُمْراً قد أرخوها بين أكتافهم ، وكان الرُّعب الذي قذفه الله في قلوب المشركين يوم حُنين كوقع الحصَى في الطُّسْت . فكان سُوَيْد بن عامر السَّوَّائِي يُحدِّث . وكان قد حضر يومئذ . فسئل عن الرُّعب ؟ فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطُّسْت ، فيطن فقال : إِنَّا كُنَّا نَجِد في أجوافنا مثل هذا» (1) .

**العبرة الثالثة :** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أصبح أحبَّ إلى شعبة بن عثمان

ابن أبي طلحة من سمعه وبصره ؛ بعدما حاول قتله بكلِّ ما يملك من حيلة وقوة . قال محمد بن إسحاق : «وقال شعبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار : قلت : اليوم أدرك ثأري من محمد - وكان أبوه قُتل يوم أحد - اليوم أقتل محمداً . قال : فأدرتُ برسول الله لأقتله ، فأقبل شيء حتى تغشَى فؤادي ، فلم أطلق ذاك ، وعلمتُ أنه ممنوع مني» (2) . وروى البيهقي أن شعبة قال : «فذهبتُ لأجيئه عن يمينه فإذا بالعبّاس بن عبد المطلب قائم ، عليه درع بيضاء كأنها فضة ينكشف عنها العجاج ، فقلت : عمّه ولن يخذله ، ثم جئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقلت : ابن عمّه ولن يخذله . ثم جئته من خلفه ، فلم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف إذ رُفِع شَواظ من نار بيني وبينه كأنه برق ، فخفتُ أن يحشني ، فوضعت يدي على بصري ، ومشيت القهقري ، فالتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وقال : يا شيبُ ! ادنُ مني ، اللهم أذهب عنه الشيطان ! فرفعتُ إليه بصري ولهُوَ أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري . فقال : يا شيبُ ! قاتل الكفّار» .

**العبرة الرابعة :** استنكاف امرأة من انهزام المسلمين يوم حُنين ، فتطلب من رسول الله -

صلى الله عليه وسلم !- أن يقتل هؤلاء المنهزمين كما يقتل أولئك المشركين ! قال محمد بن إسحاق : «وحدّثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- التفت (يوم حُنين) فرأى أُمّ سُلَيْم بنت ملحان - وكانت مع زوجها أبي طلحة ، وهي حازمة وسطها ببرد لها ، وإنّها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة ، ومعها جملُ أبي طلحة ، وقد خشيت أن يُعزّها» (3) الجمل ،

(1) كتاب المغازي . ج 3 ص 905 .

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 169 .

(3) «يعزّها» : يغلبها .

فأدنت رأسه منها، فأدخلت يدها في خزامته<sup>(1)</sup> مع الخطام - فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !: أُمّ سَلِيم؟ قالت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ؛ كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !: أَوَ يَكْفِي اللهُ يا أُمّ سَلِيم؟ قال (الراوي): ومعها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أُمّ سَلِيم؟ ! قالت: خنجر أخذته إن دنا منّي أحد من المشركين بعجته<sup>(2)</sup> به. قال (الراوي): يقول أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أُمّ سَلِيم الرَّمِيصاء<sup>(3)</sup>؟ !.

**العبارة الخامسة:** قوله - عليه الصلاة والسلام !: «الآن حمي الوطيس»، لم ينطق بها غيره من البشر قبله. قال عبد الرحمن السُّهيلي: «وفي غزوة أوطاس قال النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم !: «الآن حمي الوطيس»، وذلك حين استعرت الحرب، وهي من الكلم التي لم يُسبق إليها صلى الله عليه وسلم؛ فمنها: هذه، ومنها: «مات حَتَفَ أنفه»، قالها في فضل من مات في سبيل الله في حديث رواه عنه عبد الله بن عتيك؛ قال ابن عتيك: وما سمعت هذه الكلمة يعني: «حتف أنفه» من أحد العرب قبله - صلى الله عليه وسلم !- ومنها: «لا يلدغ المؤمن من جُرْحٍ مرتين»؛ قالها لأبي عزة الجُمَحِيّ يوم أحد. ومنها: «لا ينتطح فيها عِزْزَانُ». منها قوله - عليه السلام !: «يا خيلَ الله اركبي» قالها يوم حُنين أيضاً في حديث خرجه مسلم. وقال الجاحظ في كتاب «البيان»: عن يونس بن حبيب: لم يبلغنا من روائع الكلام ما بلغنا عن النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم !-<sup>(4)</sup>. وغلط في هذا الحديث، ونُسب إلى التصحيف؛ وإنما قال القائل: ما بلغنا عن النَّبِيِّ<sup>(5)</sup>، يريد عثمان البَتِّي، فصحّفه الجاحظ، قالوا: والنَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم !- أجلّ من أن يُخلط مع غيره من الفصحاء، حتى يقال: ما بلغنا عنه من الفصاحة أكثر من الذي بلغنا عن غيره، كلامه أجلّ من ذلك، وأعلى؛ صلوات الله عليه وسلامه»<sup>(6)</sup>.

(1) «الخزامة»: حلقة من شعر تجعل في أنف البعير.

(2) «بعجته»: شققت به بطنه وخضضته فيه.

(3) «الرَّمِيصاء»: تصغير رمضاء، من الرَّمَص؛ وهو القذى يكون في العين (السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 170، 171).

(4) جاء في كتاب البيان والتبيين. ج 2 ص 18. ط سنة 1948م: «ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم».

(5) «البَتِّي»: نسبة إلى بَتّ: موضع بنواحي البصرة بالعراق.

(6) الروض الأنف. ج 7 ص 200.

**العبرة السادسة :** صدّق رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وصحّة تأويل أبي بكر الصّدّيق لها . قال محمد بن إسحاق : «وقد بلغني أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال لأبي بكر الصّدّيق وهو محاصر ثقيفاً (في غزوة الطائف) : يا أبا بكر ! إنني رأيتُ أني أهديتُ لي قعبة<sup>(1)</sup> مملوءة زبداً ، فنقرها ديك فهراق ما فيها ، فقال أبو بكر : ما أظنّ أن تُدرك منهم (أي : من قبيلة ثقيف المشركة) يومك هذا ما تريد . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : وأنا لا أرى ذلك»<sup>(2)</sup> .

**العبرة السابعة :** تجلّد رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بالصبر الجميل ، واعتصامه بالحق المبين أمام المتهمين له بعدم العدل في تقسيم الغنائم على المستحقين لها . قال محمد بن عمر الواقدي : «وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وفي ثوب بلال فضّة يُقبضها للناس على ما أراه الله ، فاتاه ذو الحويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : ويلك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ ! قال عمر : يا رسول الله ! ائذن لي أن أضرب عنقه ! قال : دعه ، إنّ له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما تمرق السهم من الرمية ، ينظر الرامي في قذذه<sup>(3)</sup> فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر في نصّله فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر في رصافه<sup>(4)</sup> فلا يرى شيئاً ، قد سبق القرث<sup>(5)</sup> والدم ، يخرجون على فرقة من المسلمين رأيتهم ، إنّ فيهم رجلاً أسود ، إحدى يديه مثل ثدي المرأة أو بضعة تدرّر<sup>(6)</sup> . فكان أبو سعيد يقول : أشهد لسمعتُ علياً يحدث هذا الحديث . قال عبد الله بن مسعود : سمعتُ رجلاً من المنافقين يومئذ ورسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يُعطي تلك العطايا ، وهو يقول : إنّها لعطايا ما يُراد بها وجهُ الله ! قلتُ : أما والله لأبلغن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ما قلتُ ، فجئتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فأخبرته ، فتغيّر لونه حتى ندمتُ على ما صنعتُهُ ، فوددتُ أني لم أخبره ثمّ قال : يرحم الله أخي موسى ! قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر ! وكان المتكلّم بهذا مُعْتَب بن قُشَيْر العُمريّ . ثمّ أمر رسول الله - صلى

(1) «قعبة» : قذح ، إناء .

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 236 . - محمد بن عمر الواقدي - كتاب المغازي . ج 2 ص 936 .

(3) «القدذ» : ريش السهم .

(4) «الرصاف» : عقب يُلوى على مدخل النصل فيه .

(5) «القرث» : السرجين في الكرش .

(6) «تدرّر» : تترجرج ، تجيء وتذهب .

الله عليه وسلم !- زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ بإحصاء النَّاسِ والغنائم، ثُمَّ فَضَّهَا عَلَى النَّاسِ، فَكَانَتْ سَهَامُهُمْ؛ لِكُلِّ رَجُلٍ أَرْبَعٌ مِنَ الْإِبِلِ أَوْ أَرْبَعُونَ شَاةً، فَإِنْ كَانَ فَارِسًا أَخَذَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مِنَ الْإِبِلِ، أَوْ عَشْرِينَ وَمِائَةَ شَاةٍ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ أَكْثَرُ مِنْ فَرَسٍ وَاحِدٍ لَمْ يُسْهِمْ لَهُ»<sup>(1)</sup>. أي: لا يُسْهِمُ لِمَا زَادَ عَلَى الْفَرَسِ الْوَاحِدِ مِنَ الْأَفْرَاسِ.

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول:** في زواج المتعة. قال إسماعيل بن كثير: «وفي صحيح مسلم من حديث سَبْرَةَ بنِ مَعْبَدٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْمُتْعَةِ عَامَ الْفَتْحِ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ، ثُمَّ لَمْ يَخْرُجْ حَتَّى نَهَانَا عَنْهَا. وَفِي رِوَايَةٍ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّهَا حَرَامٌ، حَرَامٌ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وَفِي رِوَايَةٍ: فِي مَسْنَدِ أَحْمَدَ وَالسَّنَنِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ . . . عَنْ إِيَّاسَ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: رَخَّصَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! عَامَ أُوطَاسٍ فِي مُتْعَةِ النِّسَاءِ ثَلَاثًا، ثُمَّ نَهَانَا عَنْهُ. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَعَامَ أُوطَاسٍ هُوَ عَامُ الْفَتْحِ فَهُوَ وَحْدَيْتُ سَبْرَةَ سَوَاءً.

**قلتُ:** مَنْ أَثْبَتَ النَّهْيَ عَنْهَا فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ قَالَ: إِنَّهَا أُبِيحَتْ مَرَّتَيْنِ، وَحُرِّمَتْ مَرَّتَيْنِ، وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا أُبِيحَتْ وَحُرِّمَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّتَيْنِ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقِيلَ: إِنَّهَا إِنَّمَا حُرِّمَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً. وَهِيَ هَذِهِ الْمَرَّةُ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا إِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ، فَعَلَى هَذَا إِذَا وُجِدَتِ الضَّرُورَةُ أُبِيحَتْ، وَهَذَا رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَقِيلَ: بَلْ لَمْ تُحْرَمْ مُطْلَقًا وَهِيَ عَلَى الْإِبَاحَةِ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابِهِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ. وَمَوْضِعُ تَحْرِيرِ ذَلِكَ فِي الْأَحْكَامِ»<sup>(2)</sup>.

**الحكم الثاني:** النَّهْيُ عَنْ مَخْلَقَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، وَتَذْكِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ أُمَّةُ النَّبِيِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ! قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ: «. . . عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حَدِيثُو عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ، فَسَرْنَا مَعَهُ إِلَى حُنَيْنٍ، وَكَانَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَرَبِ لَهُمْ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ

(1) كتاب المغازي. ج 3 ص 648، 649.

(2) البداية والنهاية. ج 4 ص 318.



خضراء يقال لها: «ذات أنواط»<sup>(1)</sup>، يأتونها كل سنة فيعلّقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سِدْرَةَ خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله! اجعل لنا «ذات أنواط»؛ كما لهم «ذات أنواط». قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: الله أكبر! قلتهم - والذي نفس محمد بيده! - كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾<sup>(2)</sup>. «إِنَّهَا السَّنَنُ، لَتَرْكُبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»<sup>(3)</sup>.

**الحكم الثالث:** الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر المنصوص عليها في الكتاب والسنة بأن مأوى صاحبها جهنم يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾<sup>(4)</sup>. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «اجتنبوا السبع الموبقات - أي: المهلكات - قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال: الشُّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وأكل الربَا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ»<sup>(5)</sup>. وقد جاءت عدة روايات في صحاح السنن بكبيرة التفور يوم الزحف. قال أبو العباس أحمد بن حنبل الهيثمي: «قال الشافعي - رضي الله عنه! -: إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو، حرم عليهم أن يولّوا؛ إِلَّا متحرّفين لقتال أو متحيّزين إلى فئة وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحبّ لهم أن يولّوا، ولا يستوجبون السَّخَطَ عندي من الله لو ولّوا عنهم على غير التحرّف للقتال أو التحيُّز إلى فئة، وهذا مذهب ابن عباس - رضي الله عنهما! - المشهور عنه»<sup>(6)</sup>. فعلى هذا الأساس جاء السؤال عن فرار المسلمين يوم الزحف في حُثْنٍ، ولم يبق ثابتاً مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سوى ثمانية رجال؟! وقد أجاب عن هذا السؤال الوجيه العلامة عبد الرحمن السُّهيلي - رحمه الله! - فقال: «إِنْ قِيلَ: كيف فرّ أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عنه حتى

(1) «ذات أنواط»: صاحبة الملعقات؛ لأنّ الأنواط: جمع نوط، وهو ما علق من كل شيء.

(2) سورة «الأعراف». الآية 138.

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 166.

(4) سورة «الأنفال». الآية 16.

(5) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة.

(6) الزواجر عن اقتراف الكبائر. بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية. ج 2 ص 283.

لم يبق معه منهم إلا ثمانية، والفرار من الزحف من الكبائر، وقد أنزل الله تعالى فيه من الوعيد ما أنزل، قلنا: لم يُجمع العلماء على أنه من الكبائر إلا في يوم بدر، وكذلك قال الحسن ونافع مولى عبد الله بن عمر، وظاهر القرآن يدل على هذا؛ فإنه قال: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ﴾ فـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى يوم بدر. ثم نزل التحقيق من بعد ذلك في القرائن يوم أحد، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾<sup>(1)</sup>. وكذلك أنزل في يوم حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وفي تفسير ابن سلام: كان الفرار من الزحف يوم بدر من الكبائر، وكذلك يكون من الكبائر في ملحمة الروم الكبرى، وعند الدجال، وأيضاً فإن المنهزمين عنه - عليه السلام - رجعوا لحينهم، وقاتلوا معه حتى فتح الله عليهم<sup>(2)</sup>.

**الحكم الرابع:** النهي عن قتل النساء والأولاد والأجراء الذين ليس لهم دخل في محاربة المسلمين أو في استعانة العدو بهم. قال محمد بن إسحاق: «ومرّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد، والناس مُتَقَصِّفُونَ<sup>(3)</sup> عليها فقال: «ما هذا؟» قالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لبعض من معه: «أدرك خالدًا فقل له: إن رسول الله ينهك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفاً»<sup>(4)</sup>. وقد علّق عبد الرحمن السهيلي على هذا النصّ فقال: «وهذا منتزع من كتاب الله تعالى، لأنه يقول: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ نَفْسَكُمْ﴾<sup>(5)</sup>. فاقضى دليل لخطاب أن لا تقتل المرأة إلا أن تقاتل، وقد أخطأ من قاس مسألة المرتدة على هذه المسألة، فإن المرتدة لا تُسَرَّقَ ولا تُسبَى؛ كما تُسبَى نساء الحرب وذرائعهم، فتكون مالا للمسلمين، فنهى عن قتلهنّ لذلك»<sup>(6)</sup>.

**الحكم الخامس:** جواز استعارة المسلمين من الكافرين كلّ ما هم في حاجة إليه؛ بما في ذلك السلاح. وهذا ما فهمناه من طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صفوان بن أمية المشرك أن يُعيره سلاحاً كان يملكه، ليستعين به المسلمون على محاربة قبيلة هوازن وحلفائها في

(1) سورة «آل عمران». الآية 155.

(2) الروض الأنف. ج 7 ص 208.

(3) «متقصفون»: مزدحمون.

(4) «عسيفاً»: أجيراً، من قولهم: عسفه إذا استخدمه. (السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 182).

(5) سورة «البقرة». الآية 190.

(6) المصدر السابق. ج 7 ص 215.

غزوة حُنين، فقبل صفوان الطلب، وقال: «ليس بهذا بأس!» وتمت الإغارة بشرط إرجاعها إلى صاحبها بعد قضاء بها الوطر.

**الحكم السادس:** استحباب رفع اليدين عند الدعاء والابتهاال. وهذا ما يؤكد رفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يديه في دعائه مرات عديدة، حتى بدا للعيان بياض إبطيه، ومن هذه المرات المتكررة مرتان اثنتان:

**إحدهما:** في دعائه لعبيد أبي عامر؛ عندما أُخبر باستشهاده في غزوة أوطاس؛ كما في صحيح الإمام البخاري. وقد تقدّم لنا ذكر نصّه عند حديثنا عن غزوة أوطاس.

**ثانيهما:** في دعائه المتبرئ به ممّا صنع خالد بن الوليد ببني جذيمة. وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عن سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة. وقد حسن الإمام مالك رفع اليدين عند الدعاء<sup>(1)</sup>، ونهى عن الإفراط في رفعهما جداً. ومع هذا فقد كره قوم رفع اليدين بالدعاء، ومن هؤلاء القوم عبدالله بن عمر، فلمّا رأى جماعة يرفعون أيديهم في الدعاء، قال: أو قد رفعوها؟! قطعها الله! والله لو كانوا بأعلى شأق ما ازدادوا من الله بذلك قرباً. وحجّة من استحَبَّ رفع اليدين عند الدعاء، ما ورد من السنة القولية والفعلية أيضاً في ذلك. قال عبد الرحمن السّهيلي: «ولكلّ شيء وجه؛ فمن كره فإنّما كره الإفراط في الرّفع؛ كما كره رفع الصوت بالدّعاء جداً. قال صلى الله عليه وسلم: «ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ! فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا»، وهو معنى قول مالك الذي قدمناه في رفع اليدين<sup>(2)</sup>.

**الحكم السابع:** السّلب للقاتل بحكم شرعيّ، لقوله - عليه الصّلاة والسلام -: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»<sup>(3)</sup>. ومفهوم نصّ الحديث، فسلب القاتل للقاتل؛ سواء جعله له الإمام أو لم يجعله. وبذلك قال الإمام الشافعيّ والإمام أحمد في إحدى روايتيه. وقال الإمام مالك: «إنّما ذلك إلى الإمام، له أن يقول بعد معمرة الحرب: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ. قال عبد الرحمن السّهيلي: «ويكره مالك - رحمه الله - أن يقول ذلك قبل القتال لئلاّ يخالط النّية

(1) ولمّا بلغ الإمام مالك أنّ عامر بن عبدالله بن الزبير كان يدعو بأثر كل صلاة، ويرفع يديه، قال: ذلك حسن، ولا أرى أن يرفعهما جداً.

(2) الروض الأنف ج 7 ص 211 - 216.

(3) متفق عليه من حديث أبي قتادة.

عرض آخر غير احتساب نفسه لله تعالى»<sup>(1)</sup>. ونقل عن مالك أنه قال : لم يبلغني أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال ذلك إلا يوم حُنين ؛ وإنما نقل النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن بردَ القتال .

**الحكم الثامن :** فيما يخصّ السَّبايا . لقد تقدّم لنا أن ذكرنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد ردّ ما كان في حوزته من السبايا إلى هوازن بعد التقسيم ، ومن لم تطب نفسه من المسلمين بذلك الردّ عوضه ممّا كان بيده . فعلى هذا الأساس أصبح الإمام غير مخيرٍ في مصير السبايا بعد تقسيمهم على المسلمين ، فلا يجوز له بحكم الشرع الإسلامي أن يمنّ على الأسرى بعد تقسيمهم على المسلمين ؛ بل يجوز له ذلك قبل أن يقع التقسيم ؛ كما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبايا أهل خيبر ؛ حين منّ عليهم وتركهم عمّالاً للمسلمين في أرضهم التي فتحها عنوةً .

### أهم حوادث هذه السنة غير حوادث الجهاد

**في هذه السنة** أسلم كعب بن زُهَيْر بن أبي سُلمى حينما جاء تائباً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال محمد بن إسحاق : «ولما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من منصرفه عن الطائف ، كتب بُجَيْر بن زُهَيْر بن أبي سُلمى إلى أخيه كَعْب بن زُهَيْر يخبره : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، وأن من بقي من شعراء قريش : ابن الزبَيْر ، وهُبَيْر بن أبي وهَب ، قد هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطُرْ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً ، وإن أنت لم تفعل فانجِ إلى نجائك من الأرض . . . فلما بلغ كَعْباً الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في حضره من عدوّه ، فقالوا : هو مقتول . فلما لم يجد من شيء بُدأ قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوّه . ثم خرج حتى قدم المدينة ، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جُهينة ؛ كما ذكر لي ، فغدا به إلى رسول الله حين صلّى الصبح ، فصلّى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أشار له إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : هذا هو رسول الله فقم إليه فاستأمنه فذكر لي أنه قام إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله - صلى الله

(1) المصدر السابق .

عليه وسلم ! لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله ! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! : « نَعَمْ » . قال : أنا يا رسول الله ! كعب بن زهير . قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أنه وثب عليه رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله : دَعْنِي وعدوّ الله أضرب عنقه ؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! : « دَعُهُ عَنْكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ تَائِباً نَازِعاً عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ » . فغضب كعب على هذا الحيّ من الأنصار ، لما صنع به أصحابهم ، وذلك أنّه لم يتكلّم فيه رجل من المهاجرين إلّا بخير ، فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! :

بَانتَ<sup>(1)</sup> سَعَادُ<sup>(2)</sup> فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ<sup>(3)</sup> مُتَيْمٌ<sup>(4)</sup> إِثْرَهَا لَمْ يُقَدِّمْ مَكْبُولُ

إلى آخر القصيدة التي بلغت أبياتها ثمانية وخمسين بيتاً . وهي ثرية بالمفردات اللغوية ، وهي نموذج رائع في حسن التنسيق وبراعة الأسلوب الخالد في الأدب العربي . ولما انتهى كعب ابن زهير في قصيدته إلى قوله :

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ      لَا أُلْهِينَكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ  
نُبِّتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي      وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ  
فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ      بَيِّطُنْ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا<sup>(5)</sup>  
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسُ<sup>(6)</sup> وَلَا كُشْفُ<sup>(7)</sup>      عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلُ<sup>(8)</sup> مَعَارِيزُ<sup>(9)</sup>  
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ      وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ<sup>(10)</sup>

(1) «بانت» : ذهب وفارقت .

(2) «سعاد» : اسم صاحبه ، وقيل : زوجته .

(3) «متبول» : هالك .

(4) «متيم» : مذلل .

(5) «زولوا» : انتقلوا من مكان إلى آخر ، يقصد بذلك الهجرة .

(6) «أنكاس» : جمع نكس ؛ وهو الرجل الضعيف .

(7) «كشف» : جمع أكشف ؛ وهو الذي لا ترس معه في الحرب .

(8) «ميل» : جمع أميل ، وهو الذي لا سيف معه .

(9) «معازيل» : جمع معزال ، وهو الذي لا سلاح معه .

(10) «تهليل» : فرار .

نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى قريش فأومأ إليهم: أن اسمعوا، حتى قال:

يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزَّهْرِ <sup>(1)</sup> يَعْصَمُهُمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ <sup>(2)</sup> السَّودُ التَّنَائِيلِ <sup>(3)</sup>

يُعرض في البيت بالأنصار، لغلظتهم عليه، فأنكرت قريش قوله في الأنصار وقالوا: لا يُرضينا مدحك يا كعب إذا أنت هجوت الأنصار. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم أهل لذلك». فأنشد كعب قصيدة يمدح فيها الأنصار، فهذه أبيات منها:

مَنْ سَرَهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ      فِي مَقْتَبِ <sup>(4)</sup> مَنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ  
الْبَازِلِينَ نَفُوسَهُمْ وَدَمَاءَهُمْ      يَوْمَ الْهَيَاجِ <sup>(5)</sup> وَسَطُوعَةِ الْجَبَّارِ  
يَتَطَهَّرُونَ كَأَنَّهُ نُسُكٌ لَهُمْ      بَدَمَاءَ مَنْ قَتَلُوا مِنَ الْكُفَّارِ

وقد كساه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بُرْدَةً كانت عليه، ولما كان زمان معاوية بن أبي سفيان أرسل إلى كعب يطلب منه أن يبيعه تلك البردة، فقال كعب: ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله أحداً. ولما توفي كعب <sup>(6)</sup> اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم. وبقيت بأيدي الخلفاء بعد وفاة معاوية، واستقرت بأيدي الخلفاء العثمانيين الأتراك وهي الآن في متحف «توب كابي» بإسطنبول معروضة لعيون الزائرين.

وفي هذه السنة حدثت جملة من الحوادث ذوات بال معتبر، وهي مبثوثة في كتب السبر والتواريخ. وها نحن نذكرها بأمانة النقل كما جاءت في كتاب البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير وفي كتاب الكامل في التاريخ لعلي بن الأثير؛ حيث قالوا: «ثم عاد (رسول الله - صلى الله عليه وسلم!) إلى المدينة في بقية السنة، قال الواقدي: وفي هذه السنة رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى المدينة لليالٍ بقين من ذي الحجة في سفرته هذه. قال الواقدي: وفي هذه السنة

(1) «الزهر»: جمع أزهر، وهو الأبيض. وفي رواية «الزهو»: وهو الكبر والتيه.

(2) «عرد»: نكب عن قرنه وهرب منه.

(3) «التنايل»: جمع تنبال، وهو القصير.

(4) «مقنب»: مخلب الأسد.

(5) «الهياج»: القتال.

(6) جاء في الكامل في التاريخ. ج 2 ص 276 لأبي الحسن علي بن الأثير: «وقيل: إنما أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بقتله وقطع لسانه، لأنه كان شَبَّ بأم هانئ بنت أبي طالب».

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عمرو بن العاص إلى جَيْفَرٍ، وعباد ابْنِي الْجُنْدِي من الأزد. بعمان مُصَدِّقاً، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردّها على فقرائهم، وأخذ الجزية من مجوس بلدهما ومن حولها من الأعراب. قال: وفيها تزوّج رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فاطمة بنت الضحّاك بن سُفْيَانَ الكلابيّ في ذي القعدة، فاستعازت منه - عليه السلام! - ففارقها، وقيل: بل خيّرّها، فاختارت الدنيا، ففارقها. قال: وفي ذي الحجة منها وُلد إبراهيم ابن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من مارية القبطيّة، فاشتدّت غيرة أمّهات المؤمنين منها؛ حين رُزِقَتْ ولداً ذكراً! وكانت قابلتها فيه سلمى مولاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فخرجت إلى أبي رافع فأخبرته، فذهب فبشر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأعطاه مملوكاً، ودفع المولود إبراهيم إلى أمّ برة بنت المنذر الأنصاريّة لترضعه، وكان زوجها البراء بن أوس الأنصاريّ. قال الواقديّ. وفيها كان هدم سُوع الذي كانت تعبده هُذَيْل برهط<sup>(1)</sup>، هدمه عمرو بن العاص - رضي الله عنه! - ولم يجد في خزائنه شيئاً. وفيها كان هدم مناة بالمشلّل<sup>(2)</sup>، وكانت الأنصار: أوسها وخزرجها يعظّمونه! هدمه سعد بن أبي زيد الأشهليّ؛ رضي الله عنه! قال إسماعيل بن كثير: قلت: وقد ذكر البخاريّ بعد فتح مكّة قصّة تخريب خُثْعَم البيت الذي كانت تعبده، ويسمّونه: الكعبة اليمانية، مضاهية للكعبة التي بمكّة (قصّة نقلها البخاريّ) فقال: حدثنا يوسف ابن موسى، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد بن قيس، عن جرير قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «ألا تُريحني من الخُلُصة؟» فقلت: بلى! فانطلقتُ في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنتُ لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فضرب بيده في صدري حتى رأيتُ أثر يده في صدري، وقال: «اللّهم ثبّتْه واجعله هادياً مهدياً». قال: فما وقعت عن فرس بعد. قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخنعم وبجيلة فيه نُصَبُ تُعَبَّدُ يقال له: الكعبة اليمانيّة. قال: فأتاها فحرقها في النّار وكسرها. قال: فلمّا قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالزّلام، فقيل له: إنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - هاهنا فإن قدر عليك ضرب عُتْكَ. قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنّها وتشهد أن لا إله إلاّ الله، أو لأضربنّ عُتْكَ، فكسرها وشهد. ثمّ بعث جرير

(1) «رهط»: موضع في ديار هُذَيْل.

(2) «المشلّل»: جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر.

رجالاً من أحمرس يكنى أوطاة إلى النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - يُشره بذلك ، قال : فلمّا أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق ما جئتُ حتى تركتها كأنّها جمل أجرب ، قال : فبارك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على خيل أحمرس ورجالها خمس مرّات» . ورواه مسلم من طرق متعدّدة ، عن إسماعيل بن خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير بن عبد الله البجلي بنحوه . وقال عليّ بن الأثير : وفيها (أي : في السنة الثامنة) بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كعب بن عمير إلى ذات أطلاح<sup>(1)</sup> إلى نَقَر من قُضاة يدعوهم إلى الإسلام ومعه خمسة عشر رجلاً ، فوصل إليهم فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يُجيبوه ، وكان رئيس قضاة رجلاً يقال له : سدوس ، فقتلوا المسلمين ، ونجا كعب بن عمير فتقدم إلى المدينة ، وفيها بعث أيضاً عيينة بن حصن الفزاريّ إلى بني العنبر من تميم ، فأغار عليهم وسبى منهم نساء ، وكان على عائشة عتق رقبة من بني إسماعيل ، فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - : هذا سبّي من بني العنبر يقدم علينا فنُعطيك إنساناً فتعتقيه»<sup>(2)</sup> .

## السنة التاسعة للهجرة

### غزوة تبوك<sup>(3)</sup>

غادر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من الطائف إلى المدينة ظافراً منتصبراً ، فأقام ما بين ذي الحجة إلى رجب ، ثم بلغه أن الروم بالشام والمنتصرين من العرب هناك ، قد أمرهم هرقل ملك الروم أن يفاجئوا المسلمين بغزوهم إياهم في عقر دارهم . ولمّا تيقّن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ممّا بلغه عن خبر ما عزم عليه هرقل وما بيّته للمسلمين ونيّهم ، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حينئذ المسلمين أن يتجهّزوا ويستعدّوا للمسير إلى الروم قاصدين غزوهم بالشام ؛ رغم أن الحرّ شديدٌ ، والأرض مُجدبة ، والناس في عسرة وثمارهم قد طابت ونضحت ، فأحبّوا المقام في ثمارهم . ثم تجهّزوا لما أمروا به وهم لذلك كارهون ! ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ

(1) «ذات أطلاح» : موضع من وراء ذات القرى إلى المدينة .

(2) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 272 ، 273 - البداية والنهاية . ج 4 ص 374 ، 375 .

(3) «تبوك» : موضع بين وادي القرى والشام . وتسمّى أيضاً : غزوة العُسرة . لما وقع فيها : من عسرة الظمأ ، والجوع ، والظّهرة ، والتّفقة ، وهي آخر غزواته - صلى الله عليه وسلم! -



وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»<sup>(1)</sup>. قال محمد بن عمر الواقدي: «... كان الساقطة - وهم الأنباط - يقدمون المدينة بـ «الدَّرْمَك»<sup>(2)</sup> والزيت في الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام؛ فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط، فقدمت قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم، وجُدام، وغَسَّان، وعاملة. وزحفوا وقدّموا مقدّماتهم إلى البلقاء<sup>(3)</sup> وعسكروا بها، وتخلّف هرقل بحمص. ولم يكن ذلك؛ إنّما ذلك شيء قيل لهم فقالوه! ولم يكن عدوّ أخوف عند المسلمين منهم، وذلك لما عاينوا منهم - إذ كانوا يقدمون عليهم تجّاراً - من العدد والعدة والكراع. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لا يغزو غزوة إلا ورى بغيرها، لئلا تذهب الأخبار بأنّه يريد كذا وكذا، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزاً وعدداً كثيراً. فجلى للناس أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبة غزوهم، وأخبر بالوجه الذي يريده وبعث إلى القبائل وإلى مكة يستفروهم إلى غزوهم... وحضّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - المسلمين على القتال والجهاد، ورغبهم فيه، وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقات كثيرة؛ فكان أول من حمل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه! - جاء بماله كلّ: أربعة آلاف درهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - «هل أبقيت شيئاً؟» قال: الله ورسوله! وجاء عمر - رضي الله عنه! - بنصف ماله، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - «هل أبقيت شيئاً؟» قال: نعم؛ نصف ما جئت به. وبلغ عمر ما جاء به أبو بكر فقال: ما استبقنا إلى الخير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر!... وجهز عثمان بن عفان - رضي الله عنه! - ثلث ذلك الجيش، فكان من أكثرهم نفقة، حتى كفى ذلك الجيش مؤونتهم، حتى إن كان ليُقال: ما بقيت لهم حاجة! حتى كفاهم شئق أسقيتهم. فيقال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال يومئذ: «ما يضرّ عثمان ما فعل بعد هذا»<sup>(4)</sup>! قال عبد الملك بن هشام: «حدثني من أثق به: أن عثمان بن عفان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله -

(1) سورة «البقرة». الآية 216.

(2) «الدَّرْمَك»: الدقيق الحواري، وهو المعروف في بلاد الشام بـ «الطحين الزيرو». والحواري: لباب الدقيق أو الدقيق المنقى من شجرة الحور.

(3) «البلقاء»: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى.

(4) كتاب المغازي. ج 3 ص 989 - 991.

صلى الله عليه وسلم! -: «اللهم ارضَ عن عثمان فإنِّي عنه راضٍ»<sup>(1)</sup> ! وهكذا استمر تنافس المسلمين بالجود بما هم في أشد الحاجة إليه ، وتقديم أغلى وأعز ما يملكون وإنفاقهم إيّاه في سبيل الله ولم يشدّ عن ذلك مَنْ كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ؛ وقد ساهم في هذا الجود المبارك والسخاء المأجور نساء مؤمنات بحليهنّ وهنّ بذلك على ما هنّ عليه من نشوة الفرح والابتهاج . «قالت أمّ سنان الأسلميّة : لقد رأيتُ ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- في بيت عائشة - رضي الله عنها!- فيه مسكٌ<sup>(2)</sup> ، ومعاضد<sup>(3)</sup> ، وخلاخل ، وأقرطة<sup>(4)</sup> ، وخواتيم ، وخدمات<sup>(5)</sup> ؛ ممّا يعث به النساءُ يُعنّ به المسلمين في جهازهم . . . »<sup>(6)</sup> . ثمّ جاء رجال فقراء لا يملكون من المركوب ما يحملهم في هذه الغزوة ، فطلبوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أن يجد لهم من الدّواب مركوباً يركبونه ، فقال لهم : «لا أجد ما أحملكم عليه» ، فولّوا آسفين والحزن يعصر قلوبهم والدموع تذرف من عيونهم ! قال محمّد بن إسحاق : «ثمّ إنّ رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف . . . فاستحملوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وكانوا أهل حاجة ، فقال<sup>(7)</sup> : ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾<sup>(8)</sup> . ثمّ جاء نفر من أعراب بني غفار يعتذرون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- فلم يقبل الله عذرهم ، فقال : ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(9)</sup> . ولما أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- في السير بالمسلمين إلى ما كان عازماً عليه ، تخلف عن المسيرة أفراد من المسلمين عن حسن نيّة منهم لا يساورهم شك ولا ارتياب في إيمانهم الراسخ في قلوبهم .

(1) السيرة النبويّة بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 307 .

(2) «مسك» : أسورة من خبّل أو عاج (والذبل : شيء يؤخذ من القرون) .

(3) «معاضد» : دمالج ، جمع دملج ودملوج .

(4) «أقرطة» : جمع قرط ، وهو ما يُعلّق بالأذن .

(5) «خدمات» خلاخل .

(6) كتاب المغازي . ج 3 ص 991 ، 992 .

(7) السيرة النبويّة بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 307 ، 308 .

(8) سورة «التوبة» . الآية 92 .

(9) سورة «التوبة» . الآية 90 .

وتخلف عن المسيرة أيضاً عبدالله بن أبي المنافق وأتباعه في النفاق عن سوء نية منهم . قال محمد ابن إسحاق : «ثم استتب<sup>(1)</sup> رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سقره وأجمع السير ، وقد كان نقر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حتى تخلفوا عنه عن غير شك ولا ارتياب ؛ منهم : كعب بن مالك بن أبي كعب ، ومُرارة بن ربيع ، وهلال بن أمية ، وأبو خيثمة ، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم . فلما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ضرب عسكره على ثنية الوداع<sup>(2)</sup> ، وضرب عبدالله بن أبي معه على حدة عسكره أسفل منه نحو دُباب<sup>(3)</sup> ، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- تخلف عنه عبدالله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الرّيب ، وخلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه !- على أهله<sup>(4)</sup> ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف<sup>(5)</sup> به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استتقلاً له وتخففاً منه . فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه !- سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو نازل بالجُرف<sup>(6)</sup> ، فقال : يا نبي الله ! زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استتقلتني وتخففت مني ! فقال : «كذبوا ! ولكنني خلفتك لما تركتُ ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك . أفلا ترضى - يا علي !- أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؛ إلا أنه لا نبي بعدي» . فرجع علي إلى المدينة ، ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على سفره<sup>(7)</sup> . ثم تابع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سيره إلى تبوك ماراً ببعض القرى . منها ما نزلها واستقى ماءها ، حتى انتهى به سيره إلى تبوك ، حيث وقع الصّـلح بينه وبين من ارتضوا أن يدفعوا الجزية ﴿أَذَلَّةٌ وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾<sup>(8)</sup> . قال علي بن الأثير : «وانتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلى

(1) «استتب» : استمرّ وتابع .

(2) «ثنية الوداع» : كُدية مشرفة على المدينة يطؤها الداخلون إلى مكة والخارجون منها .

(3) «دُباب» : جبل بالمدينة .

(4) وقد استخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري .

(5) «الإرجاف» : توليد الأخبار الكاذبة .

(6) «الجُرف» : موضع على ثلاثة أميال من المدينة تجاه الشام .

(7) سورة «التوبة» . الآية 90 .

(8) سورة «النمل» . الآية 37 .

تبوك، فأتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة<sup>(1)</sup>، فصالحه على الجزية وكتب له كتاباً، فبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار (سنوياً)، ثم زاد فيها الخلفاء من بني أمية. فلما كان عمر بن عبد العزيز لم يأخذ منهم غير ثلاثمائة، وصالح أهل أذرح<sup>(2)</sup> على مائة دينار في كل رجب، وصالح أهل جرباء<sup>(3)</sup> على الجزية، وصالح أهل مقنا<sup>(4)</sup> على ربع ثمارهم...»<sup>(5)</sup>.

قال محمد بن إسحاق: «ولما انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك أتاه يوحنا ابن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأعطاها الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً<sup>(6)</sup> فهو عندهم، وكتب ليوحنا بن رؤبة وأهل إيلة: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة: سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر»<sup>(7)</sup>. وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في تبوك، خالد بن الوليد إلى أكيذر دومة على رأس سرية معتبرة العدد والعدة، وأوصاه بوصية نجاحه في مهمته. قال محمد بن عمر الواقدي: «... بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد من تبوك في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيذر بن عبد الملك بـ«دومة الجندل»<sup>(8)</sup>. وكان أكيذر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً. فقال خالد: يا رسول الله! كيف لي به وسط بلاد كلب؟ وإنما أنا في أناس يسير؟ فقال

(1) «أيلة»: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام.

(2) «أذرح»: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة.

(3) «جرباء»: قرية من أعمال عُمان باللقاء من أرض الشام.

(4) «مقنا»: قرية قرب أيلة ساحل الشام.

(5) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 280.

(6) قال يونس بن بكير: «وكتب لأهل جرباء وأذرح: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح: أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب، ومائة أوقية طيبة، وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين. وأعطى النبي - صلى الله عليه وسلم - أهل أيلة بُردة مع كتابه أماناً لهم: فاشتره بعد ذلك أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاثمائة دينار». (البداية والنهاية. ج 5 ص 16).

(7) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 317.

(8) «دومة الجندل»: تقدم تحديد موضعها.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: ستجده يصيد البقر فتأخذه . فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته : الرباب بنت أنيف بن عامر من كندة ، وصعد على ظهر الحصن من الحر ، وقَيْتُهُ تُغَيِّيه ، ثم دعا بشراب فشرب ، فأقبلت البقر تحكّ قرونها باب الحصن ، فأقبلت امرأته : الرباب فأشرفت على الحصن فرأت البقر فقالت : ما رأيت كالليلة في اللحم ! هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا ! ثم قالت : مَنْ يترك هذا ؟ قال : لا أحد ! والله ما رأيت جاءتنا ليلة بقر غير تلك الليلة ، ولقد كنت أضمر لها الخيل <sup>(1)</sup> - إذا أردت أخذها - شهراً أو أكثر ، ثم أركب بالرجال وبالألة . فنزل فأمر بفرسه فأسرج ، وأمر بخيل فأسرجت ، وركب معه نفر من أهل بيته ، معه أخوه حسّان ومملوكان ، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم <sup>(2)</sup> ، فلما فصلوا من الحصن ، وخيل خالد تنظرهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرك ، فساعة فصل أخذته الخيل ، فاستؤسر أكيدر وامتنع حسّان ، فقاتل حتى قُتل ، وهرب المملوكان ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن . وكان على حسّان قباءً ديباجٍ مخرّص بالذهب ، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مع عمرو بن أمية الضمري . . . قال أنس بن مالك وجابر بن عبد الله : رأينا قباءَ حسّان أخي أكيدر حين قُدم به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فجعل المسلمون يتلمّسونه بأيديهم ويتعجبون منه ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - : «أعجبون من هذا ؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» ! . . . قال خالد بن الوليد لأكيدر : هل لك أن أجريك من القتل حتى آتي بك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على أن تفتح لي دومة ؟ قال : نعم ، ذلك لك . فلما صالح خالد أكيدر ، وأكيدر في وثاق ، انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحصن ونادى أكيدر أهله : افتحوا باب الحصن ! فرأوا ذلك ، فأبى عليهم مضاد : أخو أكيدر ؛ فقال أكيدر لخالد : تعلم والله لا يفتحون لي ما رأوني في وثاق ، فخل عني فلك الله والأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صالحتني على أهله . قال خالد : فإنّي أ صالحك ، فقال أكيدر : إن شئت حكمتك وإن شئت حكمتي . قال خالد : بل نقبل منك ما أعطيت . فصالحه على ألفي بغير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، على أن ينطلق به وأخيه (مضاد) إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فيحكم فيهما حكمه . فلما قاضاه خالد على ذلك خلّى سبيله ، ففتح

(1) «أضمر لها الخيل» : أعلفها .

(2) «المطارد» : جمع مطرد ؛ وهو رمح قصير صنّع للطرد به .

الحصن، فدخله خالد وأوثق أخاه مُضاداً: أخا أكيدر، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والريق والسلاح، ثم خرج قافلاً إلى المدينة ومعه أكيدر ومُضاد. فلما قدم بأكيدر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صاح على الجزية وحقق دمه ودم أخيه وخلّى سبيلهما. وكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم (عليه)، وختمه يومئذ بظُفْرِهِ . . . حدّثني شيخ من أهل دومة أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب له هذا الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها. وإنّ لنا الضاحية من الضّحل، والبور والمعامي، وأغفال الأرض، والحلقة، والسّلاح، والحافر، والحصن، ولكم الضّامنة من النّخل، والمعين من المعمور بعد الحُمس، لا تُعدّل سارحتكم، ولا تُعدّ فارذتكم، ولا يُحظر عليكم النّبات، ولا يؤخذ منكم عشر النّبات<sup>(1)</sup>، تقيمون الصّلاة لوقتها، وتؤتون الزّكاة لحقّها، عليكم بذلك العهد والميثاق، ولكم بذلك الصّدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين»<sup>(2)</sup>. قال محمد بن إسحاق: «فأقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتبوك بضعة عشرة ليلة لم يجاوزها، ثمّ انصرف قافلاً إلى المدينة»<sup>(3)</sup>. وقال محمد بن عمر الواقدي: «قالوا: قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تبوكاً وأقام بها عشرين ليلة يُصلي ركعتين، وهرقل يومئذ بحمص . . .».

### ما أنزل الله من القرآن في غزوة تبوك

قال عزّ من قائل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا<sup>(4)</sup> فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ<sup>(5)</sup> إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي

(1) وقد شرح الواقدي في هذا الكتاب الكلمات المستوجبة لشرحها. فقال: «الضّحل: الذي فيه الماء القليل. والبور: ما ليس فيه زرع. والمعامي: ما ليست لها حدود معلومة. وأغفال الأرض: مياه. ولا تُعدّ فارذتكم: يقول: لا يعدّ ما يبلغ أربعين شاة. والحافر: الخيل. والمعين: الماء الظاهر. والضّامنة من النّخل: النّبات من النّخل التي قد نبتت عروقها في الأرض. ولا يُحظر عليكم النّبات: ولا تُمتنعون أن تزرعوه».

(2) كتاب المغازي. ج 3 ص 1025 - 1030.

(3) السيرة النبوية بشرح الأئف. ج 7 ص 319. وكان وصوله إلى المدينة في شهر رمضان تسع.

(4) «انفروا»: اخرجوا إلى الجهاد لحرب العدوّ.

(5) «اتأخّذتم»: أي: تناقستم: قعدتم وأحببتم المقام واطمأنتم إلى الدنيا.

الْآخِرَةَ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ .

وقال أيضاً: ﴿ أَنْفَرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ (٣) وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴿٥﴾ لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴿٦﴾ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَحَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُولِيُونَكَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿١١﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿١٢﴾ وَلَا وُضِعُوا لِحَالِكُمْ يَتَّبِعُونَكُمْ أَلْفِتْنَةً وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ .

﴿ لَقَدْ آتَبَعُوا أَلْفِتْنَةً مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ ﴾ (١٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي ﴿١٥﴾ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ

(١) قال المفسرون: لما أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بغزوة تبوك، وكان الناس في زمان عُسرة وجذب وحر شديد، وقد طابت الثمار، فعظم ذلك عليهم وأحبوا المقام والخلود إلى الالتذاذ بما طاب ونضج من الثمار، فنزلت هذه الآية.

(٢) سورة «التوبة». الآية 38، 39.

(٣) «خفافاً وثقالاً»: شباناً وشيوخاً، ركبناً ورجالة، نشطاً وغير نشط.

(٤) قال المفسرون: نزلت هذه الآية في الذين اعتذروا بالضبيعة والشغل وانتشار الأمر، فلم يقبل الله عذرهم.

(٥) «عرَضاً»: غنيمة.

(٦) «قاصداً»: هيناً.

(٧) «الشقة»: المصير البعيد.

(٨) «خبالاً»: فساداً وسراً.

(٩) سورة «التوبة». الآية 41-47.

(١٠) طلب الإذن بالعودة هو الجِدْء بن قيس أحد المنافقين؛ روي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما تجهز إلى

غزوة تبوك، قال للجِدْء بن قيس: «يا أبا وهب! هل لك في جلد بني الأصفر؟» أي: في جلد ملوك الروم.

فقال الجِدْء: يا رسول الله! قد علمت الأنصار آتي مغرم بالنساء، فلا تفتني بنات الأصفر وإني أخشى إن رأيتهن لا أصبر عنهن؛ ولكني أعينك بما فاتركني.

لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا <sup>(١)</sup> مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ <sup>(٢)</sup> وَخُنْ تَرَبَّصْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾ <sup>(٣)</sup>

وقال في السورة نفسها: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ <sup>(٤)</sup> مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ يَتَعَذَّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعَذِّرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ <sup>(٥)</sup>

وقال في السورة نفسها أيضاً: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ أُولَئِكَ الْمُتَأَخِّرُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ

(1) «أمرنا»: حذرنا وعلمنا بالحزم على من تخلفنا.

(2) «الحسينين»: الغنيمة أو الشهادة.

(3) سورة «التوبة». الآية 48 - 55.

(4) «المعذرون»: المعتذرون.

(5) سورة «التوبة». الآية 90 - 94.



الْمَدِينَةِ مَرَدُوا<sup>(1)</sup> عَلَى الْإِفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ<sup>(2)</sup>.

وقال في السّورة نفسها كذلك: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ<sup>(3)</sup> مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ<sup>(4)</sup> وَعَلَى الثَّلَاثَةِ<sup>(5)</sup> الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ<sup>(6)</sup> يَتَّيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ<sup>(7)</sup> مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ<sup>(8)</sup> وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(9)</sup> \* وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ<sup>(10)</sup> يَتَّيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ<sup>(11)</sup>».

## استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن فتنة تخلف الجدد بن قيس عن مشاركة المسلمين في غزوة تبوك لقتال

الروم، هي أدهى وأمر من خوفه على نفسه من أن تفتنه نساء بني الأصفر! قال ابن إسحاق: «قال

(1) «مردوا»: مرنوا واعتادوا وثبتوا عليه.

(2) سورة «التوبة». الآية 100، 101.

(3) «ساعة العسر»: وقت العسر، لأن الساعة تقع على كل زمان.

(4) «الثلاثة»: هم: كعب بن مالك الشاعر، وهلال بن أمية الذي نزلت فيه آية اللعان، ومُرارة بن الربيع.

وهؤلاء الثلاثة أخرجوا عن قبول التوبة عليهم عن الطائفة الأولى: ابن أبيات وأصحابه، حتى ضاقت عليهم

الأرض بسعتها، بسبب مجانية أحباثهم لهم وعزلهم إياهم، ونظرة المسلمين إليهم بعين الإهانة والازدراء.

والسبب في أن رسول الله قد أعرض عنهم وأمر المسلمين أن لا يكلموهم؛ كما أمرهم باعزال زوجاتهم،

وبقوا على هذه الحالة المزرية خمسين يوماً.

(5) سورة «التوبة». الآية 117 - 123.

رسول الله الله - صلى الله عليه وسلم! - ذات يوم، وهو في جهازه ذلك، للجُدِّ بن قَيْس أحد بني سَكَمَةَ: «يا جَدُّ! هل لك العام في جِلاَد بني الأصفر (الروم)؟» فقال: يا رسول الله! أو تأذَن لي<sup>(1)</sup> ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عَجَباً بالنِّساء مِنِّي! وإنِّي أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقال: «قد أذنتُ لك. ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>(2)</sup>. أي: إن كان إنما خشي الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقطت فيه من الفتنة أكبر! بتخلقه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - والرغبة بنفسه عن نفسه. يقول تعالى<sup>(3)</sup>: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>(4)</sup>.

### قُدُومُ وَفْدٍ ثَقِيفٍ

وفي غُضُون شهر رمضان من هذه السنة قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وفْدٌ ثَقِيف. والسَّبب في هذا القدوم أنهم أن من يُحيط بهم من العرب قد قَلَّبوا لهم ظهر المجنّ ونصبوا لهم حبال القتال، وأغاروا عليهم جهاراً. وكان أشدهم قساوة في ذلك مالك بن عَوْف النَّصْرِي، فنهبت أموالهم، وأخذت مواشيهم، وأسرت ذراريهم ونسائهم. فلما أيقنوا عجزهم عن دفاع العدو عن أنفسهم، اجتمعوا واتفقوا أن يرسلوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وفداً يأمّن لهم الكلمة العليا والأمر المطاع في قومهم، فخرج الوفد حتى قدموا على رسول الله بالمدينة، فأنزلهم في المسجد النبوي. وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بينه وبينهم ويأتيهم بما يرسله رسول الله إليهم من الأكل، وكانوا لا يتدرون إلى أكله حتى يأكل منه خالد أولاً، حذراً منهم! قال محمد بن إسحاق: «... وقد كان فيما سألو رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أن يدع لهم الطاغية؛ وهي «اللآت»، لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة، ويأبى عليهم حتى سألوها شهراً واحداً بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمّى؛ وإنما يريدون بذلك فيما يُظهرون أن يتسلّموا بتركها من سُفْهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يُروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -

(1) «تأذن لي»: تعفني من أن أكون من الغازين في غزوة تبوك، وأن تسمح لي بالمقام حيث أنا مقيم.

(2) سورة «التوبة». الآية 49.

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 307.

(4) سورة «التوبة». الآية 49.

عليه وسلم!- عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها . وقد كانوا سألوه . مع ترك الطاغية - أن يُعفيهم من الصلاة ، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: «أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه» . فقالوا: يا محمد! فسنؤتيكها ؛ وإن كانت دناءة . فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- كتابهم<sup>(1)</sup> ، أمرّ عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكان من أحدثهم سنًا ، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن . فقال أبو بكر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: يا رسول الله ! إنني قد رأيتُ هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن<sup>(2)</sup> . فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية (اللات) ، فخرجا مع القوم حتى إذا قدما الطائف «تم هدمها على يد المغيرة بن شعبة بتفويض أبي سفيان ذلك له . وما كان من أبي سفيان إلا أن يقول - حين شروع المغيرة في هدمها بالمعول -: واهأ لك ! آهأ لك ! ثم أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أبا سفيان أن يأخذ ما وُجد من مال اللات الطاغية ويقضي به دينًا كان على عروة بن مسعود الثقفي الذي مات شهيداً ، وعلى أخيه الأسود بن مسعود الذي مات مشركاً . فقضى أبو سفيان عنهما دينهما ، وكان الدافع إلى قضاء دين الأسود - مع أنه مات مشركاً - تأليفاً وإكراماً لابنه قارب بن الأسود رضي الله عنه !

### حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه!

قال محمد بن عمر الواقدي: «كان قبل أن تنزل «براءة» ، قد عاهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- ناساً من المشركين عهداً ، فاستعمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أبا بكر على الحج ، فخرج أبو بكر - رضي الله عنه!- في ثلاثمائة من المدينة ، وبعث معه رسول الله -

(1) جاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين إن عضاه : (شجر له شوك) وَجَّ : (اسم موضع بالطائف) لا يُعَصَد : (لا تُقطع) . مَنْ وَجَد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يُجَلَد وتُنَزَع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يُؤَخَذ فيُلْغ به النبي محمد ، وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله ، فلا يُتَعَدَّ أحد فيظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- .

(2) روى موسى بن عقبة أن عثمان بن أبي العاص كان يذهب إلى رسول الله فيسأله العلم ويستقرئه القرآن ، فإن وجده نائماً ذهب إلى أبي بكر الصديق ، فلم يزل دأبه حتى فقه في الإسلام وأحبّه رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- حباً شديداً .

صلى الله عليه وسلم !- بعشرين بَدَنَةً قَلَّدَها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- النَّعَالَ، وأشعرها بيده في الجانب الأيمن، واستعمل عليها ناجيةً بن جُنْدُب الأسلمي، وساق أبو بكر - رضي الله عنه !- خمس بَدَنَات . وحجَّ عبد الرحمن بن عوف فأهدى بُدْنًا، وقومٌ أهل قوَّة<sup>(1)</sup>، وأهل أبو بكر - رضي الله عنه من «ذي الحُلَيْفَةِ»<sup>(2)</sup>، وسار حتى إذا كان بـ «العَرَج»<sup>(3)</sup> في السَّحَر، سمع رُغَاءَ ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- القصواء، فقال: هذه القصواء ! فنظر فإذا علي بن أبي طالب - عليه السلام !- عليها، فقال: استعملك رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على الحج؟ قال: لا؛ ولكن بعثني أقرأ «براءة» على النَّاس وأنبذُ إلى كلِّ ذي عَهْدٍ عَهْدَهُ. وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عَهْدَ إلى أبي بكرٍ أن يخالف المشركين، فيقف يوم عرفة بعرفة ولا يقف بـ «جَمْع»<sup>(4)</sup> ولا يدفع من عرفة حتى تغرب الشمس، ويدفع من «جَمْع». قبل طلوع الشمس. فخرج أبو بكر حتى قدم مَكَّة وهو مفرد بالحج، فخطب النَّاس قبل التَّروِيَةِ بيوم بعد الظهر. فلمَّا كان يوم التَّروِيَةِ حين زاغت الشمس طاف بالبيت سبْعاً، ثم ركب راحلته من باب بني شيبَةَ، وصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصَّبح بمَنَى. ثم لم يركب حتى طلعت الشمس على «ثبير»<sup>(5)</sup>، فأنتهى إلى «نَمْرَةَ»<sup>(6)</sup>، فنزل في قَبَّة من شعر، فقام فيها، فلمَّا بزغت الشمس ركب راحلته فخطب بـ «بطن عَرْنَةَ»<sup>(7)</sup>، ثم أناخ فصلى الظهر والعصر بأذان وإقامَتَيْن، ثم ركب راحلته، فوقف بالهضاب - أي: هضاب عرفة، والمصلَّى من عرفة - فلمَّا أفطر الصائم دفع؛ فكان يسير العَنَقَ حتى انتهى إلى «جَمْع»، فنزل قريباً من النار التي على «قُزَح»<sup>(8)</sup>. فلمَّا طلع الفجر صلى الفجر، ثم وقف، فلمَّا أسفر دفع، وجعل يقول في وقوفه: يا أيُّها النَّاس! أسفروا! يا أيُّها النَّاس! أسفروا! ثم دفع قبل الشمس، فكان يسير العَنَقَ حتى انتهى إلى

(1) أي: وحجَّ قوم أهل قوَّة.

(2) «ذي الحليفة»: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال.

(3) «العرج»: قرية جامعة في وادٍ من نواحي الطائف، بينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلاً، وهي أوَّل تهامة، وإليها يُنسبُ الشاعر عبد الله العرجي.

(4) «جمع»: المزدلفة، سمِّي بذلك لاجتماع النَّاس به.

(5) «ثبير»: من أعظم جبال مكة يقع بينها وبين عرفة.

(6) «نمرة»: ناحية بعرفة.

(7) «بطن عرنة»: وادٍ بحذاء عرفات.

(8) «قزح»: مكان بالمزدلفة توقد عليه النَّار.

«مُحَسَّرٌ»<sup>(1)</sup> فأوضع<sup>(2)</sup> راحلته . فلماً جاز وادي مُحَسَّر عاد إلى مسيره الأول ، حتى رمى الجَمْرَةَ راكباً : سبع حصيات ، ثم رجع إلى المنحر فنحر ، ثم حلق . وقرأ عليّ بن أبي طالب - رضوان الله عليه ! يوم النحر عند الجَمْرَةَ - «براءة»<sup>(3)</sup> ، ونبذ إلى كل ذي عَهْد عهده . قال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - قال : «لا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان» - وكان أبو هريرة - رضي الله عنه ! - يقول : حضرت ذلك اليوم - فكان يقول : هو يوم الحجّ الأكبر - فخطب أبو بكر - رضي الله عنه ! يوم النحر بعد الظهر على راحلته . فكان أبو بكر قد خطب في حَجَّتِهِ ثلاثة أيّام لم يزد عليها : قبل التروية بيوم مكة بعد الظهر ، وبعرفة قبل الظهر ، وبمنى يوم النحر بعد الظهر . وأقام أبو بكر - رضي الله عنه ! - يرمي الجمار ماشياً ، ذاهباً وجائياً ، فلماً كان يوم الصدر - قالوا : رمى ماشياً - فلماً جاوز العقبة ركب . ويقال : رمى يومئذ راكباً ، فلماً انتهى إلى الأبطح<sup>(4)</sup> صلى به الظهر ، ودخل مكة فصلى بها المغرب والعشاء ، ثم خرج من ليلته قافلاً إلى المدينة»<sup>(5)</sup> .

وقال محمد بن إسحاق : «ثم أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحجّ من سنة تسع ، يُقيم للمسلمين حجّهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجّهم ، فخرج أبو بكر - رضي الله عنه ! - ومن معه من المسلمين . ونزلت (سورة) «براءة» في نقض ما بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وبين المشركين من العهد ، الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم : أن لا يُصدّد عن البيت أحدٌ جاءه ، ولا يُخاف أحدٌ في شهر الحرام . وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت ذلك عهداً بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وبين قبائل من العرب وخصائص ، إلى آجال مسمّاة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك ، وفي قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يُظهرون ، منهم من سُمّي لنا ، ومنهم من لم يُسمّ لنا»<sup>(6)</sup> . ثم أخذ محمد بن إسحاق - رحمه الله ! - في سرد سورة «براءة» وتبيين أسباب نزول

(1) «مُحَسَّرٌ» : بين مكة وعرفة .

(2) «فأوضع» : أسرع بها .

(3) قرأ منها أربعين آية .

(4) «الأبطح» : مكان فيه دقائق الحصى وحبوب الرمل ؛ وهو بين مكة ومنى منه إلى كل منهما واحدة ، فيمكن أن يضاف إلى مكة أو إلى منى .

(5) كتاب المغازي . ج 3 ص 1076 ، 1077 ، 1078 .

(6) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 338 .

آياتها ومن نزلت فيهم . فبدأ بما نزل في الأمر بجهاد المشركين . ثم بما نزل في الرد على قريش بادعائهم عمارة البيت . ثم بما نزل في الأمر بقتال المشركين . ثم بما نزل في أهل الكتابين . ثم بما نزل في النساء . ثم بما نزل في تبوك . ثم بما نزل في أهل التَّفَاق . ثم بما نزل في أصحاب الصدقات . ثم بما نزل فيمن آذوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثم بما نزل في صلاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على عبدالله بن أبي المنافق . ثم بما نزل في المستأذنين . ثم بما نزل فيمن نافق من الأعراب . ثم بما نزل في السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار . وأثناء سرده لهذا الآيات ، عرّج على تفسير بعض مفرداتها باختصار . وقد تقدم لنا أن سردنا ما نزل في غزوة تبوك من الآيات القرآنية بتفسير المفردات المستعصي فهمها على المبتدئين .

### نزول سورة «الفتح»<sup>(1)</sup>

نزلت هذه السورة المباركة في السنة التاسعة من الهجرة النبوية بعد نزول سورة «براءة» ، وبعد مرجعه - عليه الصلاة والسلام !- من غزوة تبوك إلى المدينة المنورة منتصراً ، وهي آخر سورة نزلت بأكملها<sup>(2)</sup> . جاء في صحيح الإمام البخاري : « . . . عن عائشة - رضي الله عنها ! قالت : ما صلى النبي - صلى الله عليه وسلم !- صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا : (سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي) . وجاء في المصدر نفسه : «عن سعيد بن جبّير ، عن ابن عباس : أن عمر - رضي الله عنه !- سأله عن قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ . قالوا : فتح المدائن والقصور . قال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قال : أجل ! أو مثل ضرب محمد - صلى الله عليه وسلم !- نُعِيَتْ له نفسه ؟ وأغلب المفسرين على أن المراد بلفظة الفتح في الآية هو فتح مكة ، فعلى هذا الأساس يقع إشكال في مفهوم الآية ؛ إذا اعتبرنا نزول الآية متأخراً عن فتح مكة ، وهو الأصح . والسبب في هذا الإشكال أن ظاهر منطوق «إذا» الظرفية للمستقبل الشرطية تستلزم جواباً وإذا اعتبرنا الجواب «فَسَبِّح» وقع الإشكال في صحة تأخير نزول السورة وتقديم فتح مكة عليها ولتفادي هذا الإشكال لابد من تقدير مقدّر محذوف وهذا ما بينه أحسن تبين العلامة عبد الرحمن السُّهيلي

(1) تسمى سورة «النصر» أيضاً ، وبهذا الاسم عُرفت في المصاحف القرآنية .

(2) جاء في صحيح الإمام مسلم : «عن عبيد الله بن عتبة ، قال : قال لي ابن عباس : تعلم آخر سورة نزلت من القرآن ؛ نزلت جميعاً ؟ قلت : نعم ؛ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ . قال : صدقت . وأخرج النسائي من حديث ابن عباس أنها آخر سورة نزلت من القرآن .

فقال: «وذكر (محمد بن إسحاق): سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾. وتفسيره لها في الظاهر خلاف ما ذكره ابن عباس؛ حين سأله عمر عن تأويلها، فأخبره أن الله تعالى أعلم فيها نبيّه - عليه السلام! - بانقضاء أجله، فقال له عمر: ما أعلم منها إلا ما قلت. وظاهر هذا الكلام يدل على ما قاله ابن عباس وعمر؛ لأن الله تعالى لم يقل: فاشكر ربك، واحمده؛ كما قال ابن إسحاق؛ وإنما قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. فهذا أمر لنبيّه - عليه السلام! - بالاستعداد للقاء ربّه تعالى والتوبة إليه، ومعناها الرجوع عما كان بسبيله مما أرسل به من إظهار الدين، إذ قد فرغ من ذلك، وتم مراده فيه، فصار جواب «إِذَا» من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ محذوفاً، وكثيراً ما يجيء في القرآن الجواب محذوفاً، والتقدير: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقد انقضى الأمر، ودنا الأجل، وحان اللقاء ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. ووقع في مسند البزار مبيّناً من قول ابن عباس فقال فيه: فقد دنا أجلك ﴿فَسَبِّحْ﴾، هذا المعنى هو الذي فهمه ابن عباس؛ وهو حذف جواب «إِذَا». فمن لم <sup>(1)</sup> يثبت لهذه السكّنة حسب أن جواب «إِذَا» في قوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ﴾؛ كما تقول: إذا جاء رمضان فصم، وليس في هذا التأويل من المشكلة لما قبله ما في تأويل ابن عباس فتدبره، فقد وافقه عليه عمر - رضي الله عنه! - وحسبك بهما فهماً لكتاب الله تبارك وتعالى. فالفاء على قول ابن عباس رابطة للأمر بالفعل المحذوف، وعلى ما ظهر لغيره رابطة لجواب الشرط الذي في «إِذَا» <sup>(2)</sup>. ولما تم نصر الله المبين بانتشار الإسلام في ربوع الجزيرة العربية، وبايع معظم رؤساء قبائل العرب ومروّسيهم صاحب رسالة السماء، سارعت وفود العرب من كل قبيلة تتوافد من كل صوب وحذب إلى المدينة المنورة بدافع رغبتهم في الإسلام والتّفقه في دينه، والاجتماع بصاحبه والاقتراس من نوره.

### ذِكْرُ وَفُودِ الْوَافِدِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بِالْمَدِينَةِ سَنَةِ تِسْعٍ <sup>(3)</sup>

قال محمد بن إسحاق: «لما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه» <sup>(4)</sup>.

(1) «ولما»: أداة جزم ونفي يستغرق الماضي والحاضر.

(2) الروض الأنف. ج 7 ص 382.

(3) قال عبد الملك بن هشام: «حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود». السيرة النبوية. ج 7 ص 357.

(4) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 357.

## قدوم وفد بني تميم

قدم بنو تميم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في جماعة من أشرفهم وأعيانهم ومن بينهم: عطارد بن حاجب بن زُرارة، والأقرع بن حابس التميمي، وفيهم الشاعر: الزُّبْرَقَان بن بدر التميمي، ومعهم عِيْنَةُ بن حِصْن الفِزَارِيّ، وغيرهم. قال محمد بن إسحاق: «...». وقد كان الأقرع بن حابس، وعِيْنَةُ بن حِصْن شهدا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فتح مكة، وحُنيناً، والطائف. فلما قدم وفد تميم كانا معهم. فلما دخل وفد بني تميم المسجد، نادوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من وراء حُجُرَاتِهِ: أن اخرج إلينا يا محمد! فأذَى ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد! جئناك نفاخرك، فأَذَنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال: قد أَذَنْتُ لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب فقال: «الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظيماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً، وأيسره عُدّة، فمن مثلنا في الناس؟! ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدّ مثل ما عدّدنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام؛ ولكنّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرَف بذلك. أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لثابت بن قيس بن الشَّمَّاس، أخي بني الحارث بن الخزرج: «قُمْ فأجب الرّجل في خطبته»، فقام ثابت فقال: «الحمد لله الذي السموات والأرض خلّقه، قضى فيهنّ أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قطّ إلّا من فضله، ثمّ كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً: أكرمهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حسَباً، فأنزل عليه كتابه واثمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثمّ دعا النّاس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمته، أكرم النّاس حسَباً، وأحسن النّاس وُجوهاً، وخير النّاس فعلاً. ثمّ كان أوّل الخلق إجابةً، واستجاب لله حين دعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نُقاتل النّاس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منّا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم»<sup>(1)</sup>. ثم قام

(1) المصدر السّابق. ج 7 ص 385.



الزُّبْرَقَانِ بن بَدْر فقال قصيدة في مدح قومه والافتخار بمكارمهم ومحاسنهم بين قبائل العرب .  
 وكان إذ ذاك شاعر الإسلام حسان بن ثابت غائباً ، فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-  
 من يخبره ويأتي به . لجيب الزُّبْرَقَانِ فيما أنشد من شعره . قال محمد بن إسحاق : « قال  
 حسان : جاءني رسوله <sup>(1)</sup> ، فأخبرني : أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى  
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وأنا أقول :

مَنْعَنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ حَلَّ وَسَطَنَا	عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاحِمٍ
مَنْعَنَا لَمَّا حَلَّ بَيْنَ يُونْتَنَا	وَأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
بَيَّتَ حَرِيدَ <sup>(2)</sup> عِزَّةٍ وَثَرَاؤُهُ	بِجَايَةِ الْجَوْلَانِ <sup>(3)</sup> وَسَطِ الْأَعَاجِمِ
هَلْ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودُّ الْعَوْدُ وَالنَّدَى	وَجَاءَ الْمُلُوكُ وَاحْتَمَالِ الْعِظَامِ

فلما انتهيت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وقام شاعر القوم فقال ما قال ،  
 عرضت في قوله وقلت على نحو ما قال . . . فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله ، قال الأقرع بن  
 حابس : وأبي <sup>(4)</sup> إن هذا الرجل لمؤتى له ! خطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ،  
 ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-  
 فأحسن جوائزهم <sup>(5)</sup> . ولم يستثن منهم أحداً من إحسانه لهم بهذه الجوائز ؛ بما فيهم  
 غلام لهم كانوا قد تركوه وراءهم يحرس رجالهم . قال محمد بن إسحاق : « كان عمرو بن  
 الأهتمام قد خلفه القوم في ظهرهم ، وكان أصغرهم سنّاً ، فقال قيس بن عاصم - وكان يُغض  
 عمرو بن الأهتمام - : يا رسول الله إنه قد كان رجل منّا في رحالنا ، وهو غلام حدث ، وأزرى به ،  
 فأعطاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مثل ما أعطى القوم » <sup>(6)</sup> .

(1) الضمير يعود على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- .

(2) « حريد » : منفرد منعزل لعزته وشرفه .

(3) « جاية الجولان » : قرية من أعمال دمشق بالشام وفيها خطب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه !- خطبته المشهورة .

(4) « وأبي » : أي : أقسم بأبي .

(5) المصدر السابق ، ج 7 ص 390 .

(6) المصدر السابق .

## نزول سورة «الحجرات»

وفي وفد بني تميم نزل القرآن بسورة «الحجرات». جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن ابن أبي مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبرهم: أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فقال أبو بكر: أمر - يا رسول الله! - القعقاع بن معبد بن زُرارة. فقال عمر: بل؛ أمر الأقرع بن حابس. قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. قال عمر: ما أردتُ خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾<sup>(1)</sup>، حتى انقضت». أي حتى انتهت الآية.

وقال أبو الحسن عليّ النيسابوري: قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾<sup>(2)</sup>. الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر، وكان جهوري الصوت، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته؛ فربما كلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! فيتأذى بصوته، فأنزل الله هذه الآية... عن أنس بن مالك: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾. قال ثابت بن قيس: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي، وأنا من أهل النار. فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! فقال: هو من أهل الجنة. رواه مسلم... قال عطاء: عن ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾<sup>(3)</sup> تألى أبو بكر: أن لا يكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! إلا كأخي السرار، فأنزل الله تعالى في أبي بكر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾<sup>(4)</sup>. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(5)</sup>. أخبر أحمد بن عبد الله المخلدي بإسناده عن أبي مسلم البجلي قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أتى ناس النبي - صلى الله عليه وسلم! فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة: يا محمد! يا محمد! فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾... وكانت قصة

(1) سورة «الحجرات». الآية 1.

(2) سورة «الحجرات». الآية 2.

(3) «تألى»: أقسم وحلف.

(4) سورة «الحجرات». الآية 3.

(5) سورة «الحجرات». الآية 4.

هذه المفاخرة - أي : مفاخرة وَفَدَ بني تميم - على ما أخبرناهُ أبو إسحاق أحمد بن محمد المقرئ - بإسناده - عن جابر بن عبد الله قال : جاء بنو تميم إلى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم ! - فنادوا على الباب : يا محمد ! اخرج إلينا ؛ فَإِنَّ مدحنا زَيْن ، وَإِنْ ذمُّنا شَيْن ، فسمعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - فخرج عليهم وهو يقول : « إِنَّمَا ذَلَّكم الله الذي مدحه زَيْن وذمه شَيْن . فقالوا : نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نُشاعرك ونفاخرك . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - : « ما بالشعر بُعثُ ولا بالفخار أُمِرْتُ ؛ ولكن هاتوا » . وابتدأت المفاخرة من كلا الطرفين ، فانتصر عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بخطبائه وشعرائه ، فاعترفوا له بذلك وسلَّموا ؛ بَيَدَ أَنَّهُمْ قد فضَّلوا عطاياه على بُشراه . جاء في صحيح الإمام البخاريّ : « . . . عن عمران بن حُصَيْن - رضي الله عنهما ! - قال : أتى نفر من بني تميم النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم ! - فقال : « اقبلوا البُشرى يا بني تميم ! » قالوا : يا رسول الله ! قد بشرتنا فأعطنا ، فرؤُي ذلك في وجهه . فجاء نفر من اليمن . فقال : « اقبلوا البُشرى ؛ إذ لم يقبلها بنو تميم » . قالوا : قد قبلنا يا رسول الله » . ومع ذلك فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - كان يعطف عليهم ويعاملهم معاملة حسنة ؛ جعلت أبا هريرة - رضي الله عنه ! - يجاهر بحبه لهم . جاء في صحيح الإمام البخاريّ : « . . . عن أبي زُرْعَة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه ! - قال : لا أزال أحبُّ بني تميم بعد ثلاث سمعتها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - يقولها فيهم : « هم أشدُّ أُمْتِي على الدَّجَال ، وكانت فيهم سَبِيَّةٌ عند عائشة » ، فقال : « اعتقها ؛ فَإِنَّها من ولد إسماعيل » ، وجاءت صدقاتهم ، فقال : « هذه صدقات قوم<sup>(1)</sup> أو قومي » . ( قوم الأولى بالكسر بغير تنوين ) .

### قدومُ وفَدِ بني عامر ومصير عامر بن الطفيل وأريدَ بن قيس

قال محمد بن إسحاق : « وقدَّم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وفد بني عامر ؛ فيهم عامر بن الطُّفَيْل ، وأريدُ بن قيس بن جَزْء بن خالد بن جعفر ، وجبار بن سلمى بن مالك بن جعفر . وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم ، وشياطينهم . فقدم عليهم الطُّفَيْل ، عدو الله ، على

(1) قال أبو العباس أحمد بن حجر العسقلاني : « كذا وقع بالشك «وقوم» بالكسر بغير تنوين ، وفي رواية أبي يَعْلَى ، عن زُهَيْر بن حَرْب شيخ البخاريّ : « صدقات قومي بغير تردّد » . (فتح الباري ، بشرح صحيح البخاريّ . ج 8 ص 69) .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو يريد الغدر به ، وقد قال له قومه : يا عامر ! إن الناس قد أسلموا فأسلم ! قال : والله لقد كنت أليتُ لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟ ! ثم قال لأرَبَدَ : إذا قدمنا على الرجل ، فإنِّي سأشغلُ عنكَ وجهه ، فإذا فعلتُ ذلك فاعله بالسيف . فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - قال عامر بن الطفيل : يا محمد ! خالني . قال : « لا ، والله حتى تؤمن بالله وحده » . قال : يا محمد ! خالني ، وجعل يكلمه وينتظر من أَرَبَدَ ما كان أمره به . فجعل أَرَبَدُ لا يحير شيئاً . فلما رأى عامر ما يصنع أَرَبَدُ قال : يا محمد ! خالني . قال : « لا ، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » . فلما أبى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - قال : أما والله لأملأَنَّها عليك خيلاً ورجالاً ، فلما ولى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - : « اللهم اكفني عامر بن الطفيل » !! فلما خرجوا من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - قال عامر لأَرَبَدَ : ويْلَكَ يا أَرَبَدُ ! أين ما كنتُ أمرتُكَ به ! والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك ، وأيمُ الله لا أخافك بعد اليوم أبداً . قال : لا أبالك ! لا تعجل عليّ ، والله ما هممتُ بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلتَ بيني وبين الرجل ، حتى ما أرى غيرك ! أفأضربك بالسيف ؟ وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه ، فقتله الله في بيت امرأة من بني سَكُول ، فجعل يقول : يا بني عامر : أغدَّة كغُدَّة الإبل ، وموتاً في بيت سلوِيَّة ! ! ثم خرج أصحابه حين وارَوْهُ ؛ حين قدموا أرض بني عامر شاتين ، فلما قدموا أتاهم قومهم فقالوا : ما وراءك يا أَرَبَدُ ؟ قال : لا شيء والله ، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أَنَّهُ عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد مقاتله يوم أو يومين معه جمل له يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهما . وكان أَرَبَدُ بن قيس أخا ليبد بن ربيعة لأمِّه» <sup>(1)</sup> . قال عبد الملك بن هشام : «وذكر زَيْد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس ، قال : وأنزل الله عزَّ وجلَّ في عامر وأَرَبَدَ : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ<sup>(2)</sup> الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ<sup>(3)</sup> وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٠﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١١﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَّنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 392 .

(2) «وما تغيض» : وما تنقص بالوضع لأقل من تسعة أشهر .

جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ<sup>(١)</sup> بِالنَّهَارِ ﴿٢﴾ لَهُ مُعَقَّبَتٌ<sup>(٢)</sup> مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ تَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ<sup>(٣)</sup> . ثم ذكر أربد وما قتله الله به ، فقال : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ<sup>(٤)</sup> 》 .

وقد بين أبو الحسن عليّ النيسابوري سبب نزول هاته الآيات أحسن بيان فقال : « وقال ابن عباس في رواية أبي صالح وابن جريج وابن زيد : نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة ؛ وذلك أنهما أقبلا يريدان رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ! هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك ، فقال : « دعه ؛ فإن يرد الله به خيراً يهده » . فأقبل حتى قام عليه فقال : يا محمد ! ما لي إن أسلمت ؟ قال : « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » . قال : تجعل لي الأمر بعدك . قال : « لا ، ليس ذلك إليّ ؛ إنما ذلك إلى الله ، يجعله حيث يشاء » . قال : فتجعلني على الوبر وأنت على المدر . قال : « لا » . قال : فماذا تجعل لي ؟ قال : « أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها » . قال : أو ليس ذلك إليّ اليوم ؟ وكان أوصى أربد بن ربيعة : إذا رأيته أكلمه قدر من خلفه واضربه بالسيف ، فجعل يخاصم رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! ويراجعه ، فدار أربد خلف النبي - صلى الله عليه وسلم ! ليضربه فاخترط<sup>(٥)</sup> من سيفه شبراً ، ثم حبسه الله تعالى ، فلم يقدر على سلّه ، وجعل عامر يومي إليه ، فالتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! فرأى أربد وما صنع بسيفه فقال : « اللهم اكفنيهما بما شئت » ! فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة في يوم صائف صاح ، فأحرقته ، وولى عامر هارباً وقال : يا محمد ! دعوت ربك فقتل أربد ، والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً وفتياناً مُرداً . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! : « يمنعك الله تعالى من ذلك » . فخرج يريد الأوس والخزرج فنزل بيت امرأة سلولية ، فلما أصبح ضمّ عليه سلاحه فخرج وهو يقول : واللات لئن أصرح محمد إليّ وصاحبه -

(١) «السارب» : الظاهر المتصرف في حوائجه نهاراً .

(٢) «معقبات» : الملائكة الحفظة للإنسان وما يصدر عنه ، وهم : اثنان بالنهار واثنان بالليل .

(٣) سورة «الرعد» . الآية ٨ - ١١ .

(٤) سورة «الرعد» . الآية ١٣ .

(٥) «فاخترط» : سلّ سيفه وأخرجه من غمده .

يعني : ملك الموت - لأنفذنهما برُمحي . فلما رأى الله تعالى منه ما رأى أرسل إليه ملكاً فلطمه بجناحه فأذراه<sup>(1)</sup> في التراب ، وخرجت على ركبته غُدة في الوقت كغُدة البعير ، فعاد إلى بيت السلوية وهو يقول : غُدة كغُدة البعير وموت في بيت السلوية . ثم مات على ظهر فرسه ، وأنزل الله تعالى فيه هذه القصة : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾<sup>(2)</sup> ، حتى بلغ ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾<sup>(3)</sup> . وقد نقل محمد بن إسحاق من أشعار كبيد في بكائه أخاه أريد ما لا يقلّ عن أربعة وأربعين بيتاً .

### إسلام ضمام بن ثعلبة بعد اقتناعه بأجوبة رسول الله عن أسئلته له

قال محمد بن إسحاق : « . . . عن كُرَيْب مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ، قال : بعث بنو سَعْد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقدم عليه ، وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله - صلى الله عليه وسلم !- جالس في أصحابه ؛ وكان ضمام رجلاً جَلْدًا أَشَقَرَّ ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في أصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « أنا ابن عبد المطلب » . قال : أمحمد ؟ قال : « نعم » . قال : يا ابن عبد المطلب ! إنني سائلك ومُعَلِّظ عليك في المسألة ، فلا تَجِدَنَّ في نفسك . قال : « لا أجد في نفسي ، فسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ » . قال : أنشدك الله إلهك وإله مَنْ كان قبلك ، وإله مَنْ هو كائن بعدك ! أَلله بعثك إلينا رسولاً ؟ قال : « اللَّهُمَّ نعم » . قال فأنشدك الله إلهك وإله مَنْ كان قبلك ، وإله مَنْ هو كائن بعدك ؟ أَلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده لا نُشْرِك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آبؤنا يعبدونها معه ؟ قال : « اللَّهُمَّ نعم » . قال : فأنشدك الله إلهك وإله مَنْ كان قبلك ، وإله مَنْ هو كائن بعدك ! أَلله أمرك أن تُصَلِّيَ هذه الصلوات الخمس ؟ قال : « اللَّهُمَّ نعم » . ثم جعل يذكر فرائض الإسلام ؛ فريضة فريضة : الزكاة ، والصيام ، والحجّ ، وشرائع الإسلام كلّها . يُنشده عند كلّ فريضة منها ؛ كما يُنشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإنني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن

(1) « فأذراه » : ألقاه .

(2) سورة « الرعد » . الآية 10 . (أسباب النزول ص 205) .

(3) سورة « الرعد » . الآية 14 .

محمداً رسول الله؛ وسأؤدّي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص. ثم انصرف إلى بعيه راجعاً. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة»<sup>(1)</sup>. ثم يتابع ابن إسحاق قوله فيما يخصّ إسلام قومه ذكرانهم وإناتهم، فيقول: «فأتى بعيه فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بثّست اللَّات والعزّى!»<sup>(2)</sup> قالوا: مه يا ضمام! اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون! قال: ويلكم! إنهما والله لا يضرّان ولا ينفعان؛ إنّ الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به ممّا كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه. قال (الراوي): فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً. قال (الراوي): يقول عبدالله بن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة»!<sup>(3)</sup> يبدو من سياق قصّة ضمام بن ثعلبة وإسلامه مع قومه، أن «اللّات» و«العزّى»، ما زالتا قائمتين معبودتين ولم ينلهما الهدم، ولو هدمتا ما كان تعظيمهما سارياً في قوم ضمام بن ثعلبة. وقد تقدّم لنا أن ذكرنا هدم «العزّى» على يد خالد بن الوليد سنة ثمان؛ كما تقدم لنا أن ذكرنا هدم «اللّات» على يد المغيرة بن شعبه في غزوة تبوك.

#### وفد عبد القيس للمرّة الثانية<sup>(4)</sup>

قال محمد بن إسحاق: «وقدّم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! الجارود»<sup>(5)</sup> بن عمرو بن حنش أخو عبد القيس. حدّثني من لا أتهم، عن حسن، قال: لما انتهى (الجارود) إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! كَلّمه، فعرض عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! الإسلام، ودعاه إليه، ورغبه فيه، فقال: يا محمد! إني قد كنتُ على دين، وإني

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 369-398.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) أما المرّة الأولى فقد كانت قبل غزوة الفتح؛ أمّا في السنة الخامسة أو قبلها فسيأتي الحديث عنها إن شاء الله عند استدراك ذكر ما لم يُذكر من الوفود سنة تسع.

(5) سمّي «الجارود»، لأنه أغار على قوم من قبيلة بكر بن وائل فجرّدهم. قال الشاعر:  
وَدُسْنَاهُمْ بِالْخَيْلِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ      كَمَا جَرَّدَ الْجَارُودُ بُكَرَ بْنَ وَائِلٍ

تاركٌ ديني لدينك أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «نعم، أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه». فأسلم وأسلم أصحابه، ثم سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «الحُمْلان، فقال: والله ما عندي ما أحملكُم عليه. قال: يا رسول الله! فإنَّ بيننا وبين بلادنا ضَوَالٌ»<sup>(1)</sup> من ضَوَالِ الناس؛ أفتبَلِّغُ عليها إلى بلادنا؟ قال: «لا، إياك وإياها؛ فإنَّما تلك حرق النَّار». فخرج من عنده راجعاً إلى قومه، وكان حَسَنَ الإسلام: صُلْباً على دينه، حتى هلك، وقد أدرك الرِّدَّةَ، فلمَّا رجع من قومه مَنْ كان أسلم منهم إلى دينهم الأوَّل مع الغرور بن المنذر بن النعمان بن المنذر، قام الجارود فتكلَّم، فتشهد شهادة الحق، ودعا إلى الإسلام فقال: أيُّها الناس! إنِّي أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأكفِّر من لم يشهد». قال عبد الملك بن هشام: «الجارود بن بشر بن المعلَّى في وفد عبد القيس وكان نصرانياً»<sup>(2)</sup>.

### وفد بني حنيفة<sup>(3)</sup> بصحبة مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب<sup>(4)</sup>

جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال: قدم مُسَيْلَمَةُ الكَذَّاب على عهد النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -! فجعل يقول: إن جعل لي الأمر من بعده تَبِعْتُهُ، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أُرِيتُ فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني». ثم انصرف عنه. قال ابن عباس: فسألتُ عن قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «وإني لأرى الذي أُرِيتُ فيه ما رأيتُ»، فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! قال: «بيننا أنا نائم رأيتُ في يديَّ سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنهما، فأوحي إليَّ في المنام أن انفخهما، فنفختهما، فطارا، فأولَّتهما كذَّابَيْنِ يخرجان بعدي». وفي رواية أخرى في

(1) «ضوال»: إبل ضالة.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 398، 399.

(3) «بنو حنيفة»: قبيلة كثيرة التَّسمات مشهورة، مساكنها باليمامة بين مكة واليمن.

(4) ابن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث، من بني حنيفة.



المصدر نفسه: «... عن مَعْمَرٍ عن هَمَّامٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه!- يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- «بينا أنا نائمُ أُتيتُ بخزائن الأرض، فوضع في كَفِّي سواران من ذهب، فكبرُ عليَّ فأوحى إليَّ: أن انفخهما، فنفختهما، فذهبا، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»<sup>(1)</sup>. وجاء في صحيح البخاري أيضاً: «حدثنا الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ قال: سمعتُ مهديَّ بن مَيْمُونٍ قال: سمعتُ أبا رجاء العطاردي يقول: كنَّا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو أخيرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جُثَّةً<sup>(2)</sup> من تراب، ثم جئنا بالشاة نحلها عليه ثم طفنا به. فإذا دخل شهر رجب قلنا: مُنْصِلُ الأُسْنة، فلا ندع رمحاً فيه حديدة ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب»<sup>(3)</sup>. وسمعتُ أبا رجاء يقول: كنتُ يوم بُعث<sup>(4)</sup> النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم!- غلاماً أرعى الإبل على أهلي، فلمَّا سمعنا بخروجه<sup>(5)</sup> فررنا إلى النَّار: إلى مُسَيْلِمة الكذاب». ثم انصرف مُسَيْلِمة بقومه عائداً إلى اليمامة، مقطوع الرجاء في طلبه، مثقلاً بوساوس شيطانه، وبمجرد وصوله إلى بلاده، ادَّعى النبوة؛ كما ادَّعى أنه شريك محمد بن عبدالله في رسالة السَّماء، فأمن بادَّعائه الكذوب أصحابه وارتدوا جميعاً بعد إسلامهم!! قال محمد بن إسحاق: «ثم انصرفوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم!- وجاؤوه بما أعطاه. فلمَّا انتهوا إلى اليمامة ارتدَّ عدوُّ الله وتبَّأ وتكذَّب لهم، وقال: إِنِّي أُشْرِكْتُ في الأمر معه، وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: «أما إنه ليس بشركم مكاناً!» ما ذاك إلا لما كان يعلم أنَّي قد أُشْرِكْتُ في الأمر معه. ثم جعل يسَّجع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول مضاهاةً للقرآن: لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منها

(1) «كذابين»: هما: مسيلمة، والأسود العنسي. وهو صاحب صنعاء باليمن. اسمه عَبلْهة بن كعب، وكان يقال له: ذا الخمار، لأنَّه كان يخمر وجهه وكان بصنعاء يدعي النبوة، فقتله فيروز باليمن. وأمَّا مسيلمة فقتله أبو بكر الصديق رضي الله عنه! زمان خلافته.

(2) «جُثَّة»: قطعة من تراث تجمع فتصير كومة. جمعها جُثَى.

(3) قال ابن حجر العسقلاني: «لأنهم كانوا ينزعون الحديد من السلاح في الأشهر الحرم، فإذا دخل شهر رجب قالوا جاء منصل الأُسْنة».

(4) «بعث»: ظهر وأشهر أمره.

(5) «بخروجه»: بظهوره على قومه من قريش بفتح مكَّة؛ وليس المراد مبدأ ظهوره بالنبوة ولا خروجه من مكَّة إلى المدينة، لطول المدة بين ذلك وبين خروج مسيلمة الكذاب. ودلَّت القصَّة على أنَّ أبا رجاء كان ممن بايع مسيلمة في قومه.

نَسْمَةً تَسْعَى، من بني صفاق<sup>(1)</sup> وحشيّ. وأحلّ لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة؛ وهو مع ذلك يشهد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأنه نبيّ! فأصفت<sup>(2)</sup> معه بنو حنيفة على ذلك. فالله أعلم أيّ ذلك كان».

### وفد أهل نجران

جاء في صحيح الإمام البخاريّ: «... عن حذيفة قال جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريدان أن يلاعنا. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا نفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعنّا لا نُفْلِح نحن ولا عقبنا من بعدنا؛ قال: إنّنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلاّ أميناً. فقال: «لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حقّ أمين» فاستشرف له أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح! فلمّا قام قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «هذا أمين هذه الأمة»... عن أنس، عن النّبّيّ - صلى الله عليه وسلم - قال: «لكلّ أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». قال أحمد بن حنبل العسقلانيّ: «قوله: جاء السيد والعاقب صاحبا نجران»<sup>(3)</sup>. أمّا السيد فكان اسمه: الأيهم ويقال شرحبيل، وكان صاحب رحالهم ومجتمعهم ورئيسهم في ذلك. وأمّا العاقب فاسمه: عبد المسيح، وكان صاحب مشورتهم. وكان معهم أيضاً أبو الحارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم وصاحب مدارسهم. قال ابن سعد دعاهم النّبّيّ - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا، فقال: «إن أنكرتم ما أقول فهلمّ بأهلكم». فانصرفوا على ذلك<sup>(4)</sup>.

### وفد طيء برئاسة زيد الخيل<sup>(5)</sup> وقصة عدّي بن حاتم

قال محمد بن إسحاق: «وقدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفد طيء، فيهم زيد الخيل، وهو سيّدهم؛ فلمّا انتهوا إليه كلّموه، وعرض عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الإسلام، فأسلموا، فحسن إسلامهم. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -!

(1) «صفاق»: ما رقّ من البطن.

(2) «أصفت معه»: فاجتمعت عليه.

(3) «نجران»: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، مشتمل على ثلاثة وسبعين قرية آنذاك.

(4) فتح الباري، بشرح صحيح البخاريّ. ج 8 ص 76.

(5) سمي بذلك لكثرة خيله.

كما حدثني من لا أتهم من رجال طيء: «ما دُكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني؛ إلا رأيته دون ما يقال فيه؛ إلا زيد الخيل: فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه»، ثم سمّاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «زيد الخير»، وقطع له قيداً وأرضين معه، وكتب له بذلك. فخرج من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - راجعاً إلى قومه؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «إن ينج زيد من حمى المدينة» . . . فلما انتهى إلى بلد نجد إلى ماء من مياهه؛ يقال له: فردة، أصابته الحمى بها فمات. ولما أحسّ زيد بالموت قال:

أُمِرْتُ حُلَّ قَوْمِي الْمَشَارِقَ غُدْوَةً      وَأُنْزِلُكَ فِي يَتِّ بِفَرْدَةٍ مُنْجِدٍ  
أَلَا رَبَّ يَوْمَ لَوْ مَرَضْتُ لَعَادَنِي      عَوَائِدُ مَنْ لَمْ يُبْرِ مِنْهُنَّ يَجْهَدُ

فلما مات عمدت امرأته إلى ما كان معه من كتبه التي قطع له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فحرقتها بالنار»<sup>(1)</sup>.

### الحديث عن عدي بن حاتم

جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن عمرو بن حريث، عن عدي بن حاتم قال: أتينا عمر<sup>(2)</sup> في وفد، فجعل يدعو رجلاً رجلاً ويسمّيهم، فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى، أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت وعرفت إذ أنكروا».

### شأن عدي بن حاتم الطائي

قال محمد بن إسحاق: «وأما عدي بن حاتم فكان يقول - فيما بلغني - ما من رجل من العرب كان أشدّ كراهية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حين سمع به - مني. أمّا أنا فكنت امرأً شريفاً، وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع<sup>(3)</sup>، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي لما كان يُصنع بي، فلما سمعت برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كرهته، فقلت لغلام كان لي عربيّ وكان راعياً لإبلي: لا أبالك، أعدد لي من إبلي أجماً لا دُلاً<sup>(4)</sup>، سمناً فاحتبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 402.

(2) كان ذلك في عهد خلافة عمر رضي الله عنه!

(3) «المرباع»: أخذ الربع من الغنائم.

(4) «دلاً»: جمع ذلول؛ والسهل الانقياد والارتياض.

فَأَذَّنِي<sup>(1)</sup>. ففعل. ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي! ما كنتَ صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن؛ فإنني قد رأيتُ رايات، فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد، فقلت: فقرب إليَّ أجمالي. فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلتُ ألحقُ بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكتُ الجُوشية<sup>(2)</sup>. ويقال الحوسية بالحاء المهملة فيما قاله ابن هشام. وخلفتُ بنتاً لحاتم في الحاضر<sup>(3)</sup>. فلما قدمت الشام أقمت بها، وتخالفتني خيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في سبايا من طيء. وقد بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - هربي إلى الشام، فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا يُحبسنَ فيها، فمرَّ بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة<sup>(4)</sup>. فقالت: يا رسول الله! هلك الوالد<sup>(5)</sup>، وغاب الوافد<sup>(6)</sup>، فامنن عليَّ من الله عليك! قال: «من وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم. قال: «الفار من الله ورسوله؟» قالت: ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وتركني، حتى إذا كان من الغد مرَّ بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، حتى إذا كان بعد الغد مرَّ بي، وقد يئست منه، فأشار إليَّ رجلٌ من خلفه: أن قومي فكلَّميه. فقمْتُ إليه، فقلت: يا رسول الله! هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن عليَّ من الله عليك. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - «قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم أذنيني»<sup>(7)</sup>. فسألت عن الرجل الذي أشار إليَّ أن أكلمه، فقيل: علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه! - وأقمتُ حتى قدم ركب من بلي أو قضاة؛ وإنما أريد أن أتني أخي بالشام، فجئتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقلت: يا رسول الله! قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ، فكساني رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وحملني وأعطاني نفقة، فخرجتُ

(1) «فأذَّنِي»: فأعلمني.

(2) «الجُوشية»: موضع بين نجد والشام.

(3) «في الحاضر»: في الحي. واسم البنت: سقانة.

(4) «جزلة»: سميحة مكنتزة لحماً.

(5) «الوالد»: حاتم الطائي.

(6) «الوافد»: أخوها عدي.

(7) «أذنيني»: أعلمني.

معهم حتى قدمت الشام . قال عديّ : فوالله إنّني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى طعينة<sup>(1)</sup> تصوب<sup>(2)</sup> إليّ تؤمّني<sup>(3)</sup> فقلت : ابنة حاتم ؟ ! قال : فإذا هي هي . فلمّا وقفت عليّ انسحلت<sup>(4)</sup> تقول : القاطع ، الظالم ، احتملت بأهلك وولدت ، وتركت بقية والدك عورتك ! قلت : أيّ أختي ! لا تقولي إلّا خيراً ، فوالله ما لي من عذر ؛ لقد صنعت ما ذكرت . ثمّ نزلت فأقامت عندي ، فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - : ماذا تريّن في أمر هذا الرّجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تدلّ في عزّ اليمن وأنت أنت ! قلت : والله إنّ هذا الرّأي . فخرجت حتى أقدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! المدينة ، فدخلت عليه وهو في مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عديّ بن حاتم ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - فانطلق بي إلى بيته ؛ فوالله إنّ لعامد<sup>(5)</sup> بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها ، قلت في نفسي : والله ما هذا بملك . ثم مضى بي رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً ، فقدمها إليّ ، فقال : اجلس على هذه . قلت : بل أنت فاجلس عليها . فقال : «بل أنت» . فجلست عليها ، وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بالأرض . قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر مالك . ثم قال : «إيه يا عديّ بن حاتم ، ألم تك ركوسياً<sup>(6)</sup>» ؟ قلت : بلى ، قال : «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع» ؟ قلت : بلى . قال : «فإنّ ذلك لم يكن يحلّ في دينك» . قلت : أجل والله ! وعرفت أنّه نبيّ مرسل يعلم ما يُجهل . ثمّ قال : «لعلّك يا عديّ يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه . ولعلّك إنّما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية<sup>(7)</sup> على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ! ولعلّك إنّما يمنعك من الدخول فيه أنّك ترى أنّ الملّك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكنّ

(1) «طعينة» : المرأة ما دامت في هودجها .

(2) «تصوب» : تقبل نحوي .

(3) «تؤمّني» : تقصدني .

(4) «انسحلت» : أخذت في اللوم ومضت فيه حادة .

(5) «لعامد» : لقاصد .

(6) «ركوسياً» : الركوسية : قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين .

(7) «القادسية» : مدينة عظيمة بأرض العراق ، بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً ، وبينها وبين العُدَيْب أربعة أميال .

أَنْ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبَيْضِ مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ». قَالَ : فَأَسْلَمْتُ . وَكَانَ عَدِيّ يَقُولُ : قَدْ مَضَتْ اثْنَتَانِ ، وَبَقِيَتِ الثَّالِثَةُ ، وَوَاللَّهِ لَتَكُونَنَّ : قَدْ رَأَيْتِ الْقُصُورَ الْبَيْضَ مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ قَدْ فُتِحَتْ ، وَقَدْ رَأَيْتِ الْمَرْأَةَ تَخْرُجُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ عَلَى بَعِيرِهَا لَا تَخَافُ حَتَّى هَذَا الْبَيْتِ . وَأَيْمُ اللَّهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ : لِيَفِيضَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَوْجَدَ مِنْ يَأْخُذُهُ<sup>(1)</sup> . وَإِسْلَامُ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ صَحِيحٌ وَعَجِيبٌ قَدْ خَرَجَ حَدِيثُهُ التِّرْمِذِيُّ .

### وَقَدْ فُرُوهُ بِنَ مُسَيِّكِ الْمَرَادِيِّ

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : «وَقَدْ فُرُوهُ بِنَ مُسَيِّكِ الْمَرَادِيِّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- مَفَارِقًا لِلْمُلُوكِ كُنْدَةَ ، وَمَبَاعِدًا لَهُمْ ؛ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- وَقَدْ كَانَ قُبَيْلُ الْإِسْلَامِ بَيْنَ مَرَادٍ وَهَمْدَانَ وَقَعَةٍ ، أَصَابَتْ فِيهَا هَمْدَانٌ مِنْ مَرَادٍ مَا أَرَادُوا ، حَتَّى أَتَخَنَوْهُمْ فِي يَوْمٍ كَانَ يُقَالُ لَهُ : يَوْمُ الرَّدْمِ ، فَكَانَ الَّذِي قَادَ هَمْدَانَ إِلَى مَرَادٍ الْأَجْدَعُ بْنُ مَالِكٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ . وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقُولُ فُرُوهُ بِنَ مُسَيِّكِ :

يُنَازِعُنَ الْأَعْنَىةَ يَنْتَحِينَا  
وَإِنْ تُغْلِبَ فَقَلِيرٌ مُغْلَبِينَ  
مَنَائِيَانَا وَطُعْمَةٌ آخَرِينَ  
تَكْرُ صُرُوفُهُ حِينَآ فَحِينَا  
وَلَوْ كَبَسَتْ غَضَارَتُهُ سَنِينَا  
فَأَلْفَيْتَ الْأَلَى غُبَطُوا طَحِينَا  
يَجِدُ رَبِّبَ الزَّمَانِ لَهُ خُؤُونَا  
وَلَوْ بَقِيَ الْكَرَامُ إِذَنْ بَقِينَا  
كَمَا أَفْنَى الْقُرُونِ الْأَوَّلِينَآ

مَرَرْنَا عَلَى لُفَاتٍ<sup>(2)</sup> وَهُنَّ خُوصٌ<sup>(3)</sup>  
فَإِنْ تَغْلِبَ فَعَلَّابُونَ قَدَمَا  
وَمَا إِنْ طُبْنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ  
كَذَاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سُجَالٌ  
فَبَيْنَا مَا نُسَرُّ بِهِ وَنَرَضَى  
إِذَا انْقَلَبَتْ بِهِ كَرَاتُ دَهْرٍ  
فَمَنْ يُغْبَطُ بِرَبِّبِ الدَّهْرِ مِنْهُمْ  
فَلَوْ خَلَدَ الْمُلُوكُ إِذَنْ خَلَدْنَا  
فَأَفْنَى ذَلِكُمْ سَرَوَاتُ قَوْمِي

وَلَمَّا تَوَجَّهَ فُرُوهُ بِنَ مُسَيِّكِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- مَفَارِقًا لِلْمُلُوكِ كُنْدَةَ قَالَ : لَمَّا رَأَيْتُ مُلُوكَ كُنْدَةَ أَعْرَضْتُ كَالرَّجُلِ خَانَ الرَّجُلَ عَرَقُ نَسَائِهَا

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 405 .

(2) «لغات» : ديار قبيلة مراد .

(3) «خوص» : غُور العين ، أو ورق النخل ، وهي المرادة هنا .

قَرَّبْتُ رَاحِلَتِي أَوْمُ مُحَمَّدًا أَرْجُو فَوَاضَلَهَا وَحُسْنُ تَرَائِهَا

فلما انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني: «يا قُرُوءُ! هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرَّدَم؟» قال: يا رسول الله! مَنْ ذا يُصِيبُ قومه مثل ما أصاب قومي يوم الرَّدَم لا يسوءه ذلك؟! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له: «أما إنَّ ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً؟» واستعمله النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - على مراد وزَيْدٍ وَمَذْحَجَ كُلِّهَا، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله؛ - صلى الله عليه وسلم -<sup>(1)</sup>.

### قدوم عمرو بن معد يكرب في أناس من بني زُبيد

قال محمد بن إسحاق: «وقدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمرو بن معد يكرب في أناس من بني زُبيد، فأسلم؛ وكان عمرو قد قال لقيس بن مكشوح المرادي - حين انتهى إليهم أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا قيس! إنَّك سيّد قومك، وقد ذُكر لنا أنَّ رجلاً من قريش يُقال له: محمدٌ قد خرج بالحجاز، يقول: إنَّه نبيٌّ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه؛ فإن كان نبياً كما يقول فإنه لن يخفى عليك، وإن لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه قيس ذلك، وسقّه رأيهُ، فركب عمرو بن معد يكرب حتى قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأسلم وصدّقه وآمن به. فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرًا وتحطّم عليه<sup>(2)</sup>، وقال: خالفني وترك رأيي!»<sup>(3)</sup>. وقال فيه قصيدة فيها عتاب وذمّ. قال محمد بن إسحاق: «فأقام عمرو بن معد يكرب في قومه من بني زُبيد وعليهم قُرُوءة بن مُسيك، فلما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ارتدّ عمرو بن معد يكرب. وقال حين ارتدّ:

وَجَدْنَا مُلْكَ قُرُوءَةَ شَرِّ مُلْكٍ      حَمَارًا سَافَ<sup>(4)</sup> مَنخَرُهُ بَثْفَر<sup>(5)</sup>  
وَكُنْتُ إِذَا رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ      تَرَى الْحَوْلَاءَ<sup>(6)</sup> مِنْ خُبْثٍ وَغَدَر<sup>(7)</sup>

(1) المصدر السابق . ج 7 ص 407 .

(2) أي: اشتدّ عليه .

(3) المصدر السابق . ج 7 ص 408، 409 .

(4) «ساف»: اشتمّ .

(5) «البثفر»: بمنزلة الرحم في الإنسان .

(6) «الحولاء»: الجلدة التي يخرج فيها ولد الناقة .

(7) المصدر السابق .

والخبر الصحيح أنه تاب إلى الله توبة نصوحاً، وعاد إلى إسلامه بعد ارتداده ومات مسلماً محسناً بالقلب والقلب. قال إسماعيل بن كثير: «قلت: ثم رجع إلى الإسلام، وحسن إسلامه، وشهد فتوحات كثيرة في أيام أبي بكر الصديق وعمر الفاروق - رضي الله عنهما! - وكان من الشجعان المذكورين والأبطال المشهورين والشعراء المجيدين، توفي سنة إحدى وعشرين بعد ما شهد فتح نهاوند، وقيل: بل شهد القادسية، وقتل يومئذ. قال أبو عمر بن عبد البر: وكان وفوده إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سنة تسع، وقيل: سنة عشر؛ فيما ذكره إسحاق والواقدي في كلام الشافعي ما يدل عليه. والله أعلم»<sup>(1)</sup>. وقد أعرضنا عن ذكر أشعاره التزاماً بموضوع بحثنا.

### قدوم وفد كندة فيهم الأشعث بن قيس

قال محمد بن إسحاق: «وقدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الأشعث بن قيس في وفد كندة. فحدثني الزهري ابن شهاب أنه قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في ثمانين راكباً من كندة، فدخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مسجده وقد رجّلوا جُمُهم<sup>(2)</sup>، وتكحلّوا؛ عليهم جُبّ الحبرة<sup>(3)</sup>. وقد كفّفوها<sup>(4)</sup> بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: «ألم تسلموا؟» قالوا: بلى. قال: «فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟» فشقّوه منها فألقوه. ثم قال له الأشعث بن قيس: يا رسول الله! نحن بنو أكل المرار، وأنت بن أكل المرار<sup>(5)</sup>. فتبسّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقال: «ناسبوا بهذا التّسبب العبّاس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث» - وكان العبّاس وربيعة رجلين تاجرين، وكانا إذا شاعا<sup>(6)</sup> في بعض العرب فسُئلا ممّن هما؟ قالوا: نحن بنو أكل المرار! يتعزّزان بذلك؛ وذلك أن كندة كانوا ملوكاً» - ثم قال لهم: «لا، بل نحن بنو النّضير بن كنانة لا نفقو<sup>(7)</sup> أمّنا، ولا

(1) البداية والنهاية. ج 5 ص 22.

(2) «رجّلوا جُمُهم»: مشطوا شعور رؤوسهم الكثيفة.

(3) «جُبّ الحبرة»: ضرب من برود اليمن المزركشة بخطوط حريرية.

(4) «كفّفوها»: جعلوا لها طرازاً في حواشيه.

(5) «المرار»: ضرب من الأشجار البرية.

(6) «شاعا»: بُعدا.

(7) «لا نفقو»: لا نتبع.



نتنفي من أئينا». فقال الأشعث بن قيس: هل عرفتم يا معشر كندة؟ والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين»<sup>(1)</sup>.

قال عبد الرحمن السُّهيلي: «... وذلك أن في جدّات النبي - صلى الله عليه وسلم! - من هي من ذلك القبيل، منهنّ: دعد بنتُ سرير بن ثعلبة بن الحارث الكندي المذكور؛ وهي: أمّ كلاب بن مرّة»<sup>(2)</sup>.

### قدوم صُرد بن عبد الله الأزديّ

قال محمد بن إسحاق: «وقدّم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - صُرد بن عبد الله الأزديّ، فأسلم وحسن إسلامه؛ في وفد من الأزد، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن فخرج صُرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حتى نزل بجرش<sup>(3)</sup> وهي يومئذ مدينة معلقة وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد ضوّت<sup>(4)</sup> إليهم خثعم، قد حلّوها معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فحاصروهم فيها قريباً من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنّه رجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له: «شكر»، ظنّ أهل جرّش أنّه إنّما ولّى عنهم منهزماً فخرجوا في طلبه، حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً شديداً. وقد كان أهل جرّش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عشية بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «بأيّ بلاد الله شكر؟ فقام الجرّشيان فقالا: يا رسول الله! بلادنا جبل يقال له: كشر. وكذلك يُسمّيه أهل جرّش - فقال: «إنّه ليس بكشر؛ ولكنّه شكر». قال: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: «إنّ بدّن الله لتنحرّ عنده الآن». فجلس الرجلان إلى أبي بكر، أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما!! إنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الآن لينعى لكم قومكما! فقوموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك. فقال: «اللّهم ارفع عنهم!» فخرجوا من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صُرد بن عبد الله؛ في اليوم الذي قال فيه رسول الله - صلى

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 409، 410.

(2) المصدر السابق.

(3) «جرش»: مدينة عظيمة بالشام، وهي الآن خراب.

(4) «ضوت»: انضمت ولجأت.

الله عليه وسلم! ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر! وخرج وفد جرّش حتى قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأسلموا، وحمّى لهم حمىً حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس، والراحلة<sup>(1)</sup>، وللمثيرة<sup>(2)</sup>: بقرة الحرث، فمن رعاها من الناس فماله سُحتٌ».

### قدوم رسول<sup>(3)</sup> ملوك حمير بكتابهم

قال محمد بن إسحاق: «وقدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كتابُ ملوك حمير مقدّمه من تبوك، ورسلمهم إليه: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قَيْل<sup>(4)</sup> ذي رُعَيْن ومعاقر وهمدان، وبعث إليه زُرْعَةُ دُوَيْزَن، مالك بن مُرّة الرهاويّ بإسلامهم، ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله النبيّ، إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان قَيْل ذي رُعَيْن ومعاقر وهمدان.

أما بعد : ذلكم فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد : فإنه قد وقع بنا رسولكم مُتَقَلِّبًا من أرض الروم<sup>(5)</sup>، فَلَقِينَا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به، وخبرنا ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأنّ الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغنم خُمُسُ الله وسهمَ النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وصفيه وما كُتِبَ على المؤمنين من الصدقة؛ من العقار<sup>(6)</sup> عشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقى الغرب<sup>(7)</sup> نصف العشر. وإنّ في الإبل الأربعين: ابنة كبون، في ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع<sup>(8)</sup> أو

(1) «الراحلة»: الناقة والجمال.

(2) «المثيرة»: البقرة أو الثور، لأنهما يثيران الأرض ويقلبانها.

(3) «الرسول»: لفظة يستوي فيها المفرد والجمع والذكر والأنثى.

(4) «قيل»: ملك.

(5) «أرض الروم»: بعد رجوعنا من غزوة تبوك.

(6) «العقار»: الأرض.

(7) «الغرب»: الدلو العظيمة.

(8) «تبيع جذع»: التبيع ما استكمل سنة من ولد البقر، فإذا استكمل سنتين فهو جذع.

جَدَّعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة<sup>(1)</sup> وحدها شاة. وإنَّها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة. فمن زاد خيراً فهو خير له، ومن أدّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر<sup>(2)</sup> المؤمنين على المشركين، فإنَّه من المؤمنين: له ما لهم، وعليه ما عليهم، وله ذمّة الله وذمّة رسوله. وإنَّه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنَّه من المؤمنين. له ما لهم، وعليه ما عليهم. ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنَّه لا يردّ عنها، وعليه الجزية على كلّ حال<sup>(3)</sup> ذكر أو أنثى، حرّاً أو عبد، دينارٌ واف من قيمة الكَافِر أو عَوَضُهُ ثياباً؛ فمن أدّى ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فإنَّ له ذمّة الله وذمّة رسوله، ومن منعه فإنَّه عدوٌّ لله ولرسوله.

**أما بعد :** فإنَّ رسول الله محمّداً النَّبيّ أرسل إلى زُرْعَة ذي يَزَن : أن إذا أتاكم رُسُلِي فأوصيكم بهم خيراً: مُعَاذ بن جبل، وعبدالله بن زَيْد، ومالك بن عُبادة، وعقبة بن نمر، ومالك ابن مُرّة وأصحابهم. وأن اجمعوا ما عندكم من الصّدقة والجزية من مَخَالِفِكُمْ<sup>(4)</sup>، وأبلغوها رُسُلِي، وإنَّ أميرهم مُعَاذ بن جبل، فلا ينقلبن إلّا راضياً.

**أما بعد :** فإنَّ محمّداً يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنه عبده ورسوله. ثمَّ إنَّ مالك بن مُرّة الرهاويّ قد حدّثني: أنكَ أسلمتَ من أوّل حمير، وقتلت المشركين، فابشر بخير، وأمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا، ولا تخاذلوا، فإنَّ رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإنَّ الصدقة لا تحلّ لمحمد، ولا لأهل بيته؛ إنَّما هي زكاة يُزَكَّى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وإنَّ مالكَ قد بلغ الخبر وحفظ الغيب، وأمركم به خيراً. وإنِّي قد أرسلتُ إليكم من صالحِي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم، وأمركم بهم خيراً؛ فإنَّهم منظور إليهم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته<sup>(5)</sup>. وقد زوّد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مُعَاذ بن جبل بوصيَّته المشهورة. قال محمّد بن إسحاق: «وحدّثني عبدالله بن أبي بكر أنّه حدّث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حين بعث معاذاً - أوصاه وعهد إليه، ثم قال له: «يسر ولا

(1) «سائمة»: الشاة الراعية حيث تشاء.

(2) «ظاهر المؤمنين»: أعانهم وآزرهم وقواهم وكان معهم على من سواهم.

(3) «حالم»: راشد مكلف.

(4) «مخالفكم»: جمع مخالف، وهم لأهل اليمن كالجنّد لأهل الشام، والكورة لأهل العراق، والرساق لأهل الجبال، والسطوح لأهل الأهواز.

(5) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 414، 415.

تُعَسِّرَ، وبَشِّرْ ولا تنقَرْ؛ وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك: ما مفتاح الجنة؟  
فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

### قدوم وفد بني أسد

قال علي بن الأثير: «قدم وفد بني أسد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقالوا: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وفيها - أي: في السنة التاسعة - قدم وفد بلي<sup>(1)</sup> في شهر ربيع الأول. وفيها قدم وفد الزاريين<sup>(2)</sup>».

### قدوم وفد بني فزارة

قال محمد بن عمر الواقدي: «حدثنا عبدالله بن محمد بن عمر الجُمَحِيّ، عن أبي وجزة السعديّ قال: لما رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من تبوك وكانت سنة تسع، قدم عليه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلاً؛ فيهم: خارجة بن حصن، والحارث بن قيس بن حصن، وهو أصغرهم، على ركاب عجاف؛ فجاؤا مُقَرَّين بالإسلام، وسألهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عن بلادهم؟ فقال أحدهم: يا رسول الله! أسنت<sup>(4)</sup> بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدبت جنائنا، وغرث<sup>(5)</sup> عيالنا، فادع الله لنا. فصعد رسول الله المنبر ودعا فقال: «اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت! اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً، مرياً مريعاً، طبقاً واسعاً، عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضار! اللهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء». قال (الراوي): فمطرت السماء سُبَّتاً<sup>(6)</sup>، فصعد رسول الله المنبر فدعا فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا؛ على الأكام والضراب وبطون الأودية ومنابت الشجر! فانجابت السماء عن المدينة انجياب الثوب»<sup>(7)</sup>.

(1) «بلي» - بضم أوله وكسر ثانيه -: تل صغير يقع بين حادة (موضع بنجد) وبين ذات عرق.

(2) «الزاريين»: نسبة إلى زار قرية بنواحي سمرقند.

(3) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 287.

(4) «أسنت»: أفحطت.

(5) «غرث»: جاع.

(6) «سبتاً»: راحة. أو يوماً من أيام الأسبوع.

(7) ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، ص 88-89.

## قدوم وفد بني مُرة

قال محمد بن عمر الواقديّ: «إنهم قدموا سنة تسع عند مرجعه - عليه الصلاة والسلام! - من تبوك، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً؛ منهم: الحارث بن عوف، فأجازهم - عليه السلام! - بعشر أواق من فضّة، وأعطى الحارث بن عوف اثنتي عشرة أوقية، وذكروا أنّ بلادهم مُجْدبة، فدعا لهم فقال: «اللّهم اسقهم الغيث!». فلما رجعوا إلى بلادهم وجدوها قد مُطرت ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -»<sup>(1)</sup>.

## قدوم وفد بني كلاب

قال محمد بن عمر الواقديّ: «إنهم قدموا سنة تسع، وهم ثلاثة عشر رجلاً؛ لبىد بن ربيعة الشاعر، وجبار بن سلمى، وكان بينه وبين كعب بن مالك خلة، فرحب به وأكرمه وأهدى إليه، وجاءوا معه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فسلموا عليه بسلام الإسلام، وذكروا له: أنّ الضحّاك بن سُفيان الكلابيّ سار فيهم بكتاب الله وسنة رسوله التي أمره الله بها، ودعاهم إلى الله، فاستجابوا له، وأخذ صدقاتهم من أغنيائهم فصرفها على فقرائهم»<sup>(2)</sup>.

## قدوم وفد بني البكاء

قال محمد بن عمر الواقديّ: «ثم إنهم قدموا سنة تسع، وإنهم كانوا ثلاثين رجلاً؛ فيهم معاوية بن ثور بن معاوية بن عبادة بن البكاء، وهو يومئذ ابن مائة سنة، ومعه ابن له يقال له: بشر، فقال: يا رسول الله! إني أتبرك بمسك وقد كبرتُ وابني هذا برّبي فامسح وجهه، فمسح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وجهه وأعطاه أعنزاً عَفْراً، وبرك عليهنّ، فكانوا لا يصيبهم بعد ذلك قحط ولا سنة. وقال محمد بن بشر بن معاوية في ذلك:

وَأَبِي الَّذِي مَسَحَ الرَّسُولُ بِرَأْسِهِ	وَدَعَا لَهُ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ
أَعْطَاهُ أَحْمَدُ إِذْ أَتَاهُ أَعْنَزاً	عَفْراً نَوَاحِلَ لَسُنِّ بِاللَّحِيَاتِ
يَمْلَأْنَ وَفَدَ الْحَيِّ كُلَّ عَشِيَّةٍ	وَيَعُودُ ذَاكَ الْمَلَأُ بِالْغَدَوَاتِ
بُورُكْنَ مَنْ مَنَحَ وَبُورُكْ مَانَحَا	وَعَلَيْهِ مِنِّي مَا حَيَّتُ صَلَاتِي <sup>(3)</sup>

(1) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. ج 5 ص 88، 89.

(2) المصدر السابق ج 5 ص 91، 93.

(3) المصدر السابق.

## وفد نجيب وقدم أهل اليمن

قال محمد بن عمر الواقدي: «إنهم قدموا سنة تسع، وإنهم كانوا ثلاثة عشر رجلاً، فأجازهم أكثر ما أجاز غيرهم، وإن غلاماً منهم قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما حاجتك؟» فقال: يا رسول الله! ادع الله يغفر لي ويرحمني، ويجعل لي غنائاً في قلبي. فقال: «اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه»! فكان بعد ذلك أزهد الناس». فهذه «العبرة» فيها حكم أيضاً باعتزال وهجر مَنْ عصى أو امره الله ورسوله حتى يتوب توبة نصوحاً إلى الله.

**العبرة الثانية:** في قصة أبي خيثمة مالك بن قيس الذي تاب إلى ربّه توبة جعلت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو له بالخير. قال محمد بن إسحاق: ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أياماً، إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين<sup>(1)</sup> لهما في حائطه<sup>(2)</sup>، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماءً، وهيات له فيه طعاماً. فلما دخل وقام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! في الضّح<sup>(3)</sup> والريّح والحرّ، وأبو خيثمة في ظلّ بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء، ما هذا بالنّصف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألق برسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فهيّا لي زاداً، ففعلتا. ثمّ قدّم ناضحه فارتحله، ثمّ خرج في طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! حتى أدركه حين نزل تبوك وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجُمحيّ في الطريق، بطلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فترافقا حتى إذا ذكّوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إنّ لي ذنباً، فلا عليك أن تُخفّف عنيّ حتى آتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! «كُنْ أبا خيثمة»؛ فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فقال له رسول

(1) «العريش»: خيمة من خشب وثمام. (الثمام: نوع من النبات).

(2) «الحائط»: البستان.

(3) «الضّح»: ضوء الشمس وأشعتها.

الله - صلى الله عليه وسلم! -: أولى لك يا أبا خَيْثَمَة! ثم أخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! الخَيْرَ. فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: خيراً، ودعا له بخير»<sup>(1)</sup>.

### العبرة الثالثة: أبو ذَرٍّ جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ الْغِفَارِيُّ «يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَثُ وحده».

قال محمد بن إسحاق: «ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سائراً (إلى تبوك)، فجعل يتخلف عنه رجل، فيقولون: يا رسول الله! تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله! قد تخلف أبو ذَرٍّ، وأبطأ به بعيره، فقال: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه». وتلوم<sup>(2)</sup> أبو ذَرٍّ على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحملة على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ماشياً. ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في بعض منازلهم، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله! هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «كُنْ أبا ذَرٍّ». فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذَرٍّ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «رحم الله أبا ذَرٍّ! يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَثُ وحده». فحدثني بُرَيْدَةُ بْنُ سَفْيَانَ الْأَسْلَمِيُّ، عن مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نَفَى عُثْمَانُ أبا ذَرٍّ إلى الرِّبْذَةِ<sup>(3)</sup>، وأصابه بها قدره، لم يكن معه أحد إلا أمرأته وغُلامه، فأوصاهما: أن أغسلاني وكفّاني، ثم ضعاني في قارعة الطريق، فأول راكب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذَرٍّ صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأعينونا على دفنه. فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق؛ وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمَارَ، فلم يرُعهُم إلا بالجنّازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطوُّها، وقام إليهم الغلام؛ فقال: هذا أبو ذَرٍّ صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأعينوني على دفنه. قال: فاستهلَّ عبد الله بن مسعود يبيكي ويقول: صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبْعَثُ وحدك». ثم نزل هو وأصحابه فَوَارَوْهُ، ثم حدثهم

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأثف. ج 7 ص 210، 211.

(2) «تلوم»: مكث وانتظر.

(3) «الرِّبْذَةُ»: في معجم البلدان «الرِّبْذَةُ» بذال معجمة: قرية من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق عن طريق الحجاز إذا رحلت من قَيْدَ تَرِيدِ مَكَّةَ. وبهذا الموضع قبر أبي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ؛ رضي الله عنه.

عبدالله بن مسعود حديثه ، وما قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في مسيره إلى تبوك . ويضاف إلى هذه العبرة وإلى التي قبلها عبرة أخرى ، توحى بأن أبا خيثمة وأبا ذر قد أحبا الله ورسوله وجهاداً في سبيل الله حباً لا يوازيه حبّ الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر والأموال والناس أجمعين . قال من حَبَّبَ إلى عباده الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ »<sup>(1)</sup> . وقال من لا ينطق عن الهوى : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »<sup>(2)</sup> .

**العبرة الرابعة : قصّة الحجر<sup>(3)</sup> .** قال محمد بن إسحاق : « وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حين مرّ بالحجر (وهو في طريقه إلى تبوك) نزلها ، واستقى الناس من بئرها . فلما راحوا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « لا تشربوا من مائها شيئاً ، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرجنَّ أحدكم اللّيلة إلّا ومعه صاحب له » . ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلّا أن رجُلين من بني ساعدة ؛ خرج أحدهما لحاجته ، وخرج الآخر في طلب بعير له . فأما الذي ذهب لحاجته فإنّه خُنق على مذهبه<sup>(4)</sup> ؛ وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الرّيح ، حتى طرحته بجبلي طيَّء . فأخبر بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال : « ألم أنهيكم أن يخرج منكم أحد إلّا ومعه صاحبه ؟ ! ثمّ دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- للذي أُصيب على مذهبه ، فشفي ، وأما الآخر الذي وقع بجبلي طيَّء فإنّ طيئاً أهدته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حين قدم المدينة . والحديث عن الرجلين : عن عبدالله بن أبي بكر ، وعن عبّاس بن سهل بن سعد الساعديّ : وقد حدثني عبدالله بن أبي بكر أنّه سمى له العبّاسُ الرجلين ؛ ولكنه استودعه إياهما ، فأبى عبدالله أن يُسميهما لي . فلما أصبح الناس ولا ماء

(1) سورة «التوبة» . الآية 24 .

(2) رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما ، عن أنس بن مالك .

(3) «الحجر» : اسم لدير ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام .

(4) «على مذهبه» : في طريقه .



معهم ، شكوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فادعوا ، فأرسل الله - سبحانه - سحابةً ، فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء « أي : من المطر الغزير »<sup>(1)</sup> .

قال عبد الملك بن هشام : «بلغني عن الزُّهريّ أنّه قال : لما مرّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحجر سجّى ثوبه على وجهه واستحثّ راحلته ، ثمّ قال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلّا وأنتم باكون ، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم »<sup>(2)</sup> .

**العبرة الخامسة : قصّة بركة الوشل<sup>(3)</sup> .** قال محمد بن عمر الواقديّ : « وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قافلاً (من تبوك) حتى إذا كان بين تبوك وواد يقال له : وادي النّاقة<sup>(4)</sup> - وكان فيه وشلٌ يخرج منه في أسفله قدر ما يُروي الرّاكبين أو الثلاثة - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من سيقنا إلى ذلك الوشل فلا يستقينّ منه شيئاً حتى نأتي ! » فسبق أربعة من المنافقين : مُعْتَب بن قُشَيْر ، والحارث بن يزيد الطائيّ حليفٌ في بني عمرو بن عوف ، ووديعه بن ثابت ، وزَيْد بن اللُّصَيْت . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ألم أنهكم ؟ » ولعنهم ودعا عليهم ، ثمّ نزل فوضع يده في الوشل ، ثمّ مسحه بإصبعه حتى اجتمع في كفه منه ماء قليل ، ثمّ نضحه ، ثمّ مسحه بيده ، ثمّ دعا بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق الماء . قال مُعَاذ بن جبل : والذي نفسي بيده لقد سمعت له شدة في انجرافه مثل الصواعق ! فشرب الناس ما شاؤوا ، وسقوا ما شاؤوا . ثمّ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لئن بقيتم - أو بقي منكم - لتسمعنّ بهذا الوادي وهو أخصب ممّا بين يديه وممّا خلفه ! قال : واستقى الناس وشربوا . قال سَلَمَة بن سلامة بن وقش : قلتُ لوديعه بن ثابت (المنافق) : ويلك ! أبعد ما ترى شيء ؟ ! أمّا تعتبر ؟ قال : قد كان يُفعل مثل هذا قبل هذا . ثمّ سار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! »<sup>(5)</sup> .

**العبرة السادسة : بركة التمرات السّبع .** قال محمد بن عمر الواقديّ : « حدّثني ابن أبي سبرة ، عن موسى بن سعيد ، عن عُرْباض بن سارية قال : كنت ألزَم باب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحضر والسّفر ، فرأيتُ ليلة ونحن بتبوك وذهبنا لحاجة ، فرجعنا إلى منزل رسول

(1) السيرة النبويّة بشرح الرّوض الأثف . ج 7 ص 311 .

(2) المصدر السابق . ج 7 ص 312 .

(3) «الوشل» : الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة .

(4) في سيرة ابن إسحاق : « وادي المشقق » .

(5) كتاب المغازي . ج 3 ص 1039 .

الله - صلى الله عليه وسلم! - وقد تعشى ومَن عنده من أضيافه ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يريد أن يدخل في قُبته ومعه زوجته أمّ سَكَمَة بنت أبي أُمَيّة، فلَمَّا طلعتُ عليه قال: «أين كنتَ منذ الليلة؟» فأخبرته، فطلع جَعَال بن سُرّاقَة، وعبدالله بن مُعَقَّل المزنيّ، فكُنّا ثلاثة، كُنّا جائع؛ إنّما نعيش بباب النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فطلب شيئاً نأكله فلم يجد، فخرج إلينا فنأدى بلالاً: يا بلال! هل من عشاء لهؤلاء النّفَر؟ قال: لا؛ والذي بعثك بالحقّ فقد نفَضنا جُرُنّا وحُمُنّا<sup>(1)</sup>، قال: انظر؛ عسى أن تجد شيئاً، فأخذ الجُرْبَ ينفُضها جِراباً جِراباً، ففقع التمرة والتمرّتان، حتى رأيتُ بين يديه سبع تمرّات، ثمّ دعا بصحفة فوضع فيها التمر، ثم وضع يده على التمرّات وسمّى الله وقال: «كُلُوا بسم الله!» فأكلنا فأحصيتُ أربعاً وخمسين تمرّة أكلتها، أعدّها ونواها في يدي الأخرى، وصاحباي يصنعان ما أصنع، وشبعنا وأكل كلّ واحد خمسين تمرّة، ورفعنا أيدينا فإذا التمرّات السّبع كما هي، فقال: يا بلال! ارفعها في جِرابك، فإنّه لا يأكل منها أحد إلّا نَهَلَ شَبْعاً. قال: فبينما نحن حول قبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فكان يتهجّد من اللّيل، فقام تلك اللّيلة يُصَلّي. فلما طلع الفجر ركع ركعتين، وأدّن بلال وأقام (الصلاة)، فصَلّى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بالنّاس، ثمّ انصرف إلى فناء قُبته، فجلس وجلسنا حوله، فقرأ من «المؤمنين»<sup>(2)</sup> عشراً، فقال: «هل لكم في الغداء؟» قال عريّاض: فجعلت أقول في نفسي: أيّ غداء؟ فدعا بلال بالتمر، فوضع يده عليه في الصّحفة ثمّ قال: «كُلُوا بسم الله!» فأكلنا - والذي بعثه بالحقّ - حتى شبعنا وإنّا لعشرة، ثمّ رفعوا أيديهم منها شبعاً وإذا التمرّات كما هي! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «لولا أنّي أسْتحي من ربّي لأكلنا من هذا التمر حتى نرد المدينة عن آخرنا...»<sup>(3)</sup>.

**العبرة السّابعة:** إخبار رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بمكان ناقتة الضّالة والشجرة التي حبسها. قال محمّد بن عمر الواقديّ: «ثمّ ارتحل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مُوجّهاً إلى تبوك، فأصبح في منزل، فضلّت ناقتة القصواء، فخرج أصحابه في طلبها... فقال زيد بن اللّصيّب أحد بني قَيْنُقَاع - كان يهوديّاً فأسلم فنافق، وكان فيه خبث اليهود وغشهم، وكان مظاهراً لأهل النّفّاق - فقال: أليس محمّد يزعم أنّه نبيّ ويُخبركم عن خبر السّماء، وهو لا

(1) «الحُمْت»: الزّق الذي يكون فيه السّمَن.

(2) «المؤمنين»: سورة «المؤمنون».

(3) كتاب المغازي. ج 3 ص 1036، 1037.

يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن منافقاً يقول: إن محمداً يزعم أنه نبي، وأنه يُخبركم بأمر السماء ولا يدري أين ناقته! وإني والله ما أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلّني عليها، وهي في الوادي في شعب كذا وكذا - الشعب أشار لهم إليه - حبسَها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوا بها». فذهبوا فجاءوا بها. . . والذي ذهب فجاء بالناقّة من الشَّعب الحارث بن حَزَمَة الأشْهَلِيّ، وجدها وزمامها قد تعلّق في شجرة»<sup>(1)</sup>.

**العبرة الثامنة:** أنّ الله فضّل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! على من سبقه من الأنبياء والمرسلين بخمسة أشياء هي رحمة ربّانيّة لأمتّه على وجه العموم والإطلاق. قال محمد ابن عمر الواقدي: «وكان عبد الله بن عمر يقول: كنّا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! - بنبوك فقام يُصليّ من الليل، وكان يكثر التهجد من الليل، ولا يقوم إلا استاك، وكان إذا قام يصليّ صليّ بفناء خيمته، فيقوم ناس من المسلمين فيحرسونه فصلّى ليلة من تلك الليالي، فلمّا فرغ أقبل على من كان عنده فقال: «أعطيتُ خمساً ما أعطيهنّ أحد قبلي: بُعثتُ إلى الناس كافة؛ وإنّما كان النبيّ يُبعثُ إلى قومه، وجُعِلتُ لي الأرض مسجداً وطهوراً؛ أينما أدركتني الصلّاة تيمّمتُ وصلّيتُ؛ وكان منّ كان قبلي يُعظمون ذلك ولا يصلّون إلا في كنائسهم والبيع، وأحلّت لي الغنائم أكلها؛ وكان منّ كان قبلي يحرمونها، والخامسة هي ما هي، هي ما هي، هي ما هي! ثلاثاً. قالوا: وما هي يا رسول الله؟ فقال: «قيل لي: سلّ، فكلّ نبيّ قد سأل، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»<sup>(2)</sup>. وفي رواية أخرى: «أعطيتُ خمساً؛ لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعِلتُ لي الأرض مسجداً وطهوراً؛ فأَيُّما رجل من أمتي أدركته الصلّاة فليُصلِّ، وأحلّت لي الغنائم؛ ولم تحلّ لأحد قبلي، وأُعطيَت الشّفاعَة، وكان النبيّ يُبعثُ إلى قومه خاصّةً ويُبعثُ إلى الناس عامّةً»<sup>(3)</sup>.

وقد أوصل أبو سعيد النّيسابوريّ ما اختصّ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! دون الأنبياء إلى ستّين خصيصة؛ بل ذكر أحد رواة الأحاديث النبويّة أنها تزيد على المائتين. ومن يُمعن النّظر ويجتهد في التّبع يجدها أكثر من ذلك.

(1) المصدر السابق. ج 3 ص 1009، 1010.

(2) المصدر السابق. ج 3 ص 1021، 1022.

(3) رواه البخاريّ ومسلم والإمام أحمد وغيرهم، عن أنس بن مالك.

**العبرة التاسعة :** أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بعث من تبوك بكتاب<sup>(1)</sup> إلى

هرقل ملك الروم ، فرحب بمن جاءه به ووضع الكتاب في قسبة من ذهب ، تعظيماً وإجلالاً لصاحبه ! قال عبد الرحمن السُّهيلي : «وقد رُوي أن هرقل وضع كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- الذي كتب إليه في قسبة من ذهب تعظيماً له ، وأنهم لم يزلوا يتوارثونه كابراً عن كابر في أرفع صوان ، وأعز مكان حتى كان عند «إذفونش»<sup>(2)</sup> الذي تغلب على طليطلة ، وما أخذ أخذها من بلاد الأندلس ، ثم كان عند ابنته المعروفة بـ «السليطين» . حدثني بعض أصحابنا أنه حدثه من سألته رؤيته من قواد أجناد المسلمين كان يعرف بعبد الملك بن سعيد ، قال : فأخرجه إلي فاستعبرته وأردت تقييله وأخذه بيدي ، فمنعني من ذلك صيانة له وضناً به علي»<sup>(3)</sup> .

### استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** وجوب الجهاد وقتال الكفار على وجه العموم والإطلاق أمر شرعي قد جاءت به آيات كثيرة في مُحكم التنزيل ؛ بيد أن البدء بقتال الأقرب فالأقرب مسافة من الكافرين ، أمر ثابت في الآية الثالثة والعشرين بعد المائة من سورة التوبة ، وهي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(4)</sup> . قال محمد نووي الجاوي في تفسيره هذه الآية : «أي : لما أمرهم الله بقتال المشركين كافة ، أرشدهم إلى الطريق الأصلح ؛ وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد ، وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة . فإن أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب . فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قاتل أولاً قومه ، ثم انتقل منهم

(1) وكان حامل الكتاب إلى هرقل دحية بن خليفة الكلبي . ونص الكتاب مشهور ومذكور في كتب الصحاح ، وهو : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَأْهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمْ إِلَّا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾» .

(2) هو «ألفونس فرديناند» الذي استولى على طليطلة سنة 1085 م .

(3) السيرة النبوية ج 7 ص 365 .

(4) «غلظة» : شدة وشجاعة .

إلى قتال سائر العرب ، ثم إلى قتال أهل الكتاب ؛ وهم : قُرَيْظَة ، والنَّضِير ، وخَيْبَر ، وَقَدْكَ ، ثم انتقل إلى غَزْوِ الرُّومِ والشَّامِ ، فكان فتحه في زمن الصحابة ، ثم إنَّهم انقلبوا إلى العراق»<sup>(1)</sup> .

### الحكم الثاني : هديّة الكافر المحارب إلى المسلم حرام على المسلم قبولها قال عبد

الرحمن السَّهْلِيّ : « ولم يذكر ابن إسحاق في غزوة تبوك ما كان من أمر هِرْقُل ؛ فإنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم !- كتب إليه من تبوك كتاباً مع دَحِيَّة بن خليفة - ونصّه مذكور في الصَّحاح مشهور - فأمر هِرْقُل منادياً ينادي : ألا إنَّ هِرْقُل قد آمن بمحمَّد وآتبعه ، فدخلت عليه الأجناد في سلاحها ، وأطافت بقصره ، تريد قتله ، فأرسل إليهم : إنِّي أردتُ أن أختبر صلابتكم في دينكم ، فقد رضيتُ عنكم ، فرضوا عنه . ثم كتب كتاباً وأرسله مع دَحِيَّة يقول فيه للنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم !- : إنِّي مسلم ؛ ولكنِّي مغلوب على أمرِي ، وأرسل إليه بهدية ، فلمَّا قرأ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم !- كتابه ، قال : « كذب عدوُّ الله ليس بمسلم ، بل هو على نصرانيته » . وقبل هديّته وقسمها بين المسلمين ، وكان لا يقبل هدية مشرك محارب ؛ وإنَّما قبل هذه الهدية لأنها فيء للمسلمين ، ولذلك قسمها عليهم ، ولو أتته في بيته كانت له خالصة ؛ كما كانت هدية المقوقس خالصة له ، وقبلها من المقوقس ؛ لأنَّه لم يكن محارباً للإسلام ؛ بل كان قد أظهر الميل إلى الدخول في الدين ، وقد ردَّ هدية أبي براء مُلَاعِب الأستة ، وكان أهدى إليه فرساً وأرسل إليه : إنِّي قد أصابني وجعٌ أحسبه - يقال له : « الدُّبَيْلَة »<sup>(2)</sup> - فابعث إليَّ بشيء أتداوى به ، فردَّ عليه هديّته وقال : « إنِّي نُهيْتُ عن زَيْدِ المشركين » . . . وقوله - عليه السلام !- : « عن زَيْدِ المشركين » ، ولم يقل عن هديّتهم يدلُّ على أنَّه إنَّما كره ملاينتهم ومداهنتهم ؛ إذ كانوا حرباً ، لأنَّ الزَّيْد مشتق من الزَّيْد ؛ كما المداينة مشتقة من الدَّهْن ، فعاد المعنى إلى معنى اللَّيْن والملاينة ، ووجوب الجَدِّ في حربهم والمخاشنة . وقد ردَّ هديّة عياض بن حمار المجاشعيّ قبل أن يُسلم ، وفيها قال : « إنِّي نُهيْتُ عن زَيْدِ المشركين » ، وأهدى إلى أبي سفيان عُجُوَّة واستهدها أدمًا ، فأهداه أبو سفيان وهو على شركه الأدم . وذلك في زمن الهدنة التي كانت بينه وبين المسلمين في صلح الحُدَيْبية . فهذا النَّص وأمثاله من النَّصوص الشرعية الواردة في تحريم قبول المسلمين هدايا الكافرين المحاربين ، وذلك دلالة قاطعة وحجّة دامغة على المتسولين من المسلمين الذين باعوا دينهم وكرامتهم بفُتات

(1) التفسير المنير ، لمعالم التنزيل . ج 1 ص 36 .

(2) «الدُّبَيْلَة» : خُراج ودُّمَاميل كبيرة تظهر في الجوف ، فتقتل صاحبها غالباً ؛ وهي المعروفة لدى أطباء العصر بالقرحة المعدية أو قرحة المعدة .

الهدايا المسمومة التي يُمنّ بها عليهم ساسة الإفرنج في العصر الحاضر! «والإسلام يعلو ولا يُعلى عليه» .

### أهمّ حوادث السنة التاسعة من غير حوادث الجهاد مسجد الضرار

في هذه السنة عند رجوع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من تبوك إلى المدينة وعندما قارب وصوله إليها، بلغه خبر بناء مسجد الضرار، وخبر من شارك في بنائه؛ وعددهم اثنا عشر رجلاً، فأرسل لهدمه مالك بن الدُخْشَم، فهدمه وحرقه. ومن مضمون ومنطوق ما أنزل الله في هذا المسجد الذي بُني لغير وجه، يتبين لكل مسلم وغير مسلم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، والحق يعلو، ولا يُعلى عليه. وعلى هذا الأساس يجدر بنا أن نسرد الآيات التي نزلت في مسجد الضرار؛ ذلك المسجد الذي قد بينه الله في كتابه العزيز أحسن تبين، ووصفه مع من بناه بأوصاف تحذيرية وأيضاً أبدية، تستوجب من كل مؤمن أن يهجر المبنى ويجنب الباني؛ بل هو مأمور شرعاً بهدم هذا المصلّى وإحراقه، وإزالة آثاره حيثما وُجدت؛ كما هو مأمور أن يعتبر أهله كاذبين على الله ورسوله، ظالمين للمؤمنين بما فعلوه واعتقدوه، ودعوا إليه. قال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

تفيد هاته الآيات الأربع توجيهين اثنين:

أحدهما: يتمثل في الأوصاف الأبدية لـ «مسجد الضرار» ولمن سعى في بنائه.

ثانيهما: تتمثل في مصائر هذا المسجد ومصائر جميع من شارك في بنائه مادياً أو

معنوياً.

(1) سورة «التوبة». الآيات 107، 110.

## التوجيه الأول في الأوصاف

**الوصف الأول :** مضاربة المؤمنين ؛ إذ كان أصحاب مسجد الضرار جادين أن يوقعوا الضرر بأصحاب مسجد قباء على وجه الخصوص وبالمسلمين على وجه العموم ، وأن يحولوا بين مسجد أسس على التقوى وبين أن يجتمع المصلون فيه . ولفظه «الضرار» في الآية الكريمة تدل على ما فيه مضرة لجارك ، وليس لك - أنت - فيه منفعة . فعلى هذا الأساس أجمع المحققون من علماء المسلمين على منع تعدد المساجد في قرية أو بلد يسع أهلها مسجد واحد . قال محمد القرطبي : «قال علماؤنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه أو المنع من بنائه ، لئلا ينصرف أهل المسجد الأول عن مسجدهم ، فيبقى شاغراً ؛ إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجد واحد ، فيُبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا ينبغي أن يُبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة ، يجب منع الثاني ، ومن صلى فيه الجمعة لم تُجزه ، وقد أحرق النبي - صلى الله عليه وسلم - مسجد الضرار وهدمه»<sup>(1)</sup> . انتهى النص . وقال محمد بن جرير الطبري : «حدثنا ابن حميد قال : حدثنا هارون عن أبي جعفر ، عن ليث : أن شقيقاً لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر ، فقل له : مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لا أحب أن أصلي فيه ، فإنه بُني على ضرار ، وكل مسجد بُني ضراراً أو رياءً أو سمعةً ، فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بُني على ضرار ، فلا تجوز الصلاة فيه»<sup>(2)</sup> . انتهى النص . وقال جار الله محمود الزمخشري : «وقيل : كل مسجد بُني مباهاة أو رياءً وسمعةً أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمال غير طيب ، فهو لاحق بـ «مسجد الضرار»»<sup>(3)</sup> . وقال أيضاً : «وعن عطاء لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر - رضي الله عنه - أمر المسلمين أن يبنوا المساجد ، وأن لا يتخذوا مسجدين يضار أحدهما صاحبه»<sup>(4)</sup> . انتهى النص . فمن خلال هذه النصوص الموثوق بقائلها أو راويها ، يبدو لنا جلياً أن جميع الصلوات الفرضية والتفلية محرمة في كل مسجد بُني ضراراً أو لغير وجه الله ، وما أكثر هذا الطراز في عصرنا !

**الوصف الثاني :** التفريق بين المؤمنين . لقد عزم شرذمة من المشركين أن يفرقوا بمسجد الضرار بين الموحدتين وبين مسجد قباء الذي أسس على التقوى . وقد ظن أصحاب هذا العزم

(1) الجامع لأحكام القرآن . القاهرة 1387هـ = 1967م . دار الكاتب العربي للطبع والنشر . ج 11 ص 20 .

(2) جامع البيان ، في تفسير القرآن . ج 11 ص 20 .

(3) تفسير الكشاف . ج 2 ص 214 .

(4) المصدر السابق .

الشيطناني أن عملهم هذا هو سلاح نافذ في قلب صفوف المسلمين حتى يشكّوهم في دينهم الذي ارتضاه الله لهم، فرسخ في نفوسهم إيماناً واحتساباً، وكان مرجعهم ورائدهم قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا... وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾<sup>(1)</sup>. والسعي في تفريق المؤمنين معدود من الكبائر التي لا تغفر؛ ما دام صاحبها ساعياً في ذلك، لأنه مخالف للنواميس الطبيعية والأعراف البشرية والشرائع السماوية، التي حثت الشعوب والقبائل على التعارف الناتج عنه التآلف والتراحم فيما بينهم، وإنشاء الحضارات، التي هي من صنع الجماعات، وليست من صنع الأفراد، لأنها ظاهرة اجتماعية تبلور في النظم المحكمة والآثار الماثلة، فيقال: حضارة الأمة الفلانية والمجتمع الفلاني، ولا يقال حضارة الشخص الفلاني. قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾<sup>(2)</sup>. قال أبو بكر، محمد بن العربي عند تفسيره لقوله تعالى: (وتفريقاً بين المؤمنين): «يعني: أنهم كانوا جماعة واحدة في مسجد واحد، فأرادوا أن يفرقوا شملهم في الطاعة وينفردوا عنهم للكفر والمعصية. وهذا يدلّك على أنّ المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة وعقد الدّمام والحرمة بفعل الديانة، حتى يقع الأُنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وُضَرِ الأحقاد والحسادة، ولهذا المعنى تَفَطَّنَ مالك - رضي الله عنه - حين قال: إنه لا تُصَلَّى جماعتان في مسجد واحد، ولا بإمامين، ولا بإمام واحد، خلافاً لسائر العلماء. وقد روي عن الإمام الشافعي - رضي الله عنه - المنع؛ حيث كان ذلك تشتيئاً للكلمة وإبطالاً لهذه الحكمة، وذريعة إلى أن نقول: من أراد الانفراد عن الجماعة كان له عُذر، فيقيم جماعته، ويقدم إمامه، فيقع الخلاف ويبطل النظام، وخفي ذلك عليهم (أي: على أئمة المذاهب الفقهية). وهكذا كان شأنه (أي: شأن الإمام مالك) معهم؛ وهو أثبت قدماً منهم في الحكمة، وأعلم بمقاطع الشريعة»<sup>(3)</sup>. انتهى النص. وقد أجمع الحكماء على أن اجتماع الأفراد يُثمر المحبة بينهم، ولهذا عدّوه من الضروريات البشرية المتمدّنة، فقالوا: الإنسان مدنيّ

(1) سورة «آل عمران». الآيتان 103 - 105.

(2) سورة «الحجرات». الآية 13.

(3) أحكام القرآن. ج 2 ص 1001.



بالطبع ، أي : لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم ، وهو معنى العمران الذي أساسه حكمة التعارف المشار إليه في قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾<sup>(1)</sup> . وقد انتبه أبو علي ، أحمد بن محمد مسكويه إلى أن المحبة تنبت بالأنس وتنمو بالشرعة ، فقال : «فأما المحبات التي تكون بسبب المنفعة واللذة ، فقد تكون بين الأشرار وبين الأخيار ؛ إلا أنها تنقضي وتتحلل مع تقضي النافع واللذيد ؛ لأنها عرضية ، وكثيراً ما تحدث بالاجتماعات في المواضع الغريبة ؛ إلا أنها تزول بزوال المواضع ، كالسفينه وما جرى مجراها . والسبب في هذه المحبة هو الأنس ؛ وذلك أن الإنسان أنيس بالطبع ، وليس بوحشي ولا نفور ، ومنه اشتق اسم الإنسان في اللغة العربية . وقد تبين ذلك من صناعة النحوي . وليس كما يقول الشاعر : «سُميت إنساناً لأنك ناس» . فإن هذا الشاعر ظن أن الإنسان مشتق من النسيان . وهذا غلط منه . وينبغي أن تعلم أن هذا الأنس الطبيعي في الإنسان هو الذي ينبغي أن نحرص عليه ونكتسبه مع أبناء جنسنا ، حتى لا يفوتنا بجهدنا واستطاعتنا ، فإنه مبدأ المحبات كلها ؛ وإنما وُضع للناس بالشرعة وبالعادة الجميلة اتخاذ الدعوات والاجتماع في المآدب ، ليحصل لهم هذا الأنس . ولعل الشرعة إنما أوجبت على الناس أن يجتمعوا في مساجدهم كل يوم خمس مرات . وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد ، ليحصل لهم هذا الأنس الطبيعي الذي هو مبدأ المحبات ، وهو فيهم بالقوة حتى يخرج إلى الفعل ، ثم يتأكد فيهم بالاعتقادات الصحيحة التي تجمعهم . وهذا الاجتماع في كل يوم ليس يتعذر على أهل كل محلة وسكة<sup>(2)</sup> . والدليل على أن غرض صاحب الشرعة - عليه السلام !- ما ذكرناه أنه أوجب على أهل المدينة بأسرهم أن يجتمعوا في كل أسبوع يوماً بعينه في مسجد يسعهم ، ليجتمع أيضاً شمل المحال والسكك في كل أسبوع ؛ كما اجتمع شمل أهل الدور والمنازل في كل يوم ، ثم أوجب أيضاً أن يجتمع أهل المدينة مع أهل القرى والرساتيق<sup>(3)</sup> المتقاربين في كل سنة مرتين في مصلى بارزين مُصْحَرين ، ليسعهم المكان ويتراءوا ، ويتجدد الأنس بين كافتهم ، وتشتملهم المحبة الناطمة لهم . ثم أوجب بعد ذلك أن يجتمعوا من البلدان في العمر كلّه مرة واحدة في الموضع المقدس بمكة ، ولم يُعيّن

(1) سورة «الحجرات» . الآية 13 .

(2) «السكة» : الطريق المستوي .

(3) «الرساتيق» - جمع رُستاق :- السواد والهـر والقرى : وهو الزداق ، معرب عن لغة المعجم .

من العمر على وقت مخصوص، ليتسع لهم الزمان، وليجتمع أهل المدن المتباعدة؛ كما اجتمع أهل المدينة الواحدة، ويصير حالهم في الأنس والمحبة وشمول الخير والسعادة كحال المجتمعين في كل سنة وفي كل أسبوع وفي كل يوم، فيجتمع بذلك الأنس الطبيعي إلى الخيرات المشتركة، وتتجدد بينهم محبة الشريعة، وليكبروا الله على ما هداهم، ويغبطوا بالدين القويم القيم، الذي ألفهم على تقوى الله وطاعته»<sup>(1)</sup>. انتهى النص.

**الوصف الثالث:** فهو كفر، ومعناه في اللغة العربية: مطلق الجحود والستر والإخفاء. وفي عرف الدين هو: ضد الإيمان، ولعل المراد به في الآية المتقدمة الذكر: جحود جماعة مسجد الضرار لنعم الله عليهم، وسترهم إياها، وإخفاؤهم حرمة «مسجد قُباء» الذي هو أول مسجد أُسس على التقوى؛ كما ذكره الله - تعالى! - في كتابه العزيز، وهو الذي قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «صلاة في مسجد قُباء كعمرة». ومما يؤيد تفسير لفظه «كفر» - هنا - بلفظة جحود، قول أبي بكر محمد بن العربي: «لما اتخذوا المسجد ضراراً، لا اعتقادهم أن لا حرمة لمسجد قُباء، ولا لمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم! - كفروا بهذا الاعتقاد»<sup>(2)</sup>. انتهى النص. وحكم هذا الجحود وهذا الاعتقاد ينطبق تماماً على كل من لا يراعي حرمة المساجد التي أسست بدافع التقوى والإخلاص لله. ومن بين تلك المساجد كل مسجد لم يُراع له حرمة ولا ذمة.

**الوصف الرابع:** الإرصاد لمن حارب الله ورسوله. أي: الإعداد والترقب والانتظار بمسجد الضرار لعودة أبي عامر الراهب المنافق من الشام؛ حيث كان لدى قيصر الروم. وأبو عامر - هذا - هو الذي سمّاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «أبا عامر الفاسق». وهو الذي حارب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يوم أُحد وقال له: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين؛ حيث انهزم مع قبيلته: هُوازن، وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر الروم بجنود يحارب بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ومات كافراً في قنشرين<sup>(3)</sup> بدعوة عليه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -.

(1) تهذيب الأخلاق. ص 14.

(2) أحكام القرآن. ج 2 ص 100.

(3) «قنشرين»: مدينة بالشام، فتحها أبو عبيدة بن الجراح سنة سبع عشرة من الهجرة.

**الوصف الخامس :** أنَّ جماعة مسجد الضَّرار كاذبون على ما يحلفون ، وفيما يدَّعون أنَّهم ما أرادوا بناء هذا المسجد سوى الخصلة الحسنى ، وأنَّهم لم يفعلوا ذلك إلَّا نزولاً عند رغبة ذي العلة والحاجة ، والليِّلة الممطرة والليِّلة الشاتية ؛ حسبما يزعمون . وهذا ما أخبرنا الله به عنهم فقال : ﴿ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> . وتعس مَنْ شهد الله عليه بالكذب ، ولن يُفلح حيًّا وميتاً أبداً . وهذا الوصف الأثيم ينطبق تماماً على كلِّ من شارك بماله أو رأيه أو عمله في بناء أيِّ مسجد ويزعم أنَّ ذلك لم يكن منه إلا مرضاةً لله ؛ ولم يدرك أنَّه علام الغيوب قد كشف عن سوء نيَّته وخبث طويَّته وشر مقصده ، فافتضح أمام النَّاس وقلبه مُنعم بالوسواس .

### التوجيه الثاني في المصائر

**المصير الأوَّل :** بطلان صلاة مَنْ صلى في مسجد بُني ضراراً ؛ سواء كانت صلاته فرضاً أو نفلاً ، وبالإضافة إلى بطلان الصَّلَاة ، فإنَّ الإثم يلحق مَنْ صَلَّى فيه ؛ وهو يعلم أنَّه بُني ضراراً ؛ سواء في ذلك الإمام والمأموم والفقْد؟ وهذا ما فهمناه من قوله - تعالى - : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ <sup>(2)</sup> . والمراد بالقيام في هذه الآية الصَّلَاة على وجه العموم ، بدليل ما جاء في صحيح البخاري ، عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « مَنْ قَامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبِهِ » . وقد ذهب المحققون من علماء الكتاب والسنة إلى منع إمامة مَنْ سبق له أن صَلَّى إماماً في أحد مساجد الضَّرار ؛ إلَّا أن يتوب توبةً نصوحاً أو يُقدِّم عذراً مقبولاً شرعاً . ثم ذهبوا أيضاً إلى منع إمامة من كان إماماً لظالم ، ولا يُصَلِّي وراءه إلَّا أن يتوب أو يكشف عُذْرَه ؛ إن كان مقبولاً شرعاً . قال محمَّد القرطبي : « سأل بنو عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قُباء عُمَرُ بنَ الخطَّاب في خلافته ليأذنَ لمُجمَعِ بن جارية أن يُصَلِّيَ بهم في مسجدهم ، فقال عمر : لا ، ولا نعمة عين ! أليس هو بإمام مسجد الضرار (سابقاً) ؟ ! فقال له مُجمَع : يا أمير المؤمنين ! لا تُعجل عليَّ ، فوالله لقد صليتُ فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمرُوا عليه ، ولو علمتُ ما صليتُ بهم فيه ؛ كنتُ غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليَّتِهِمْ ، وكانوا لا يقرؤون من القرآن شيئاً ، فصليتُ ، فلا أحسب ما صنعتُ إثماً ، ولا

(1) سورة «التوبة» . الآية 107 .

(2) سورة «التوبة» . الآية 108 .

أعلم بما في أنفسهم . فعذره عمر - رضي الله عنه !- وصدقّه ، وأمره بالصّلاة في مسجد قباء»<sup>(1)</sup> . انتهى النصّ .

**المصير الثاني :** أن الله - تعالى !- قد حكم على مسجد الضّرار بالهدم والانهيار ؛ كما أخبر بذلك نبيّه - عليه الصلاة والسلام !- الذي ما عثم أن أمر بإحراقه وهدمه بمراًى ومشهد من الناس . قال عليّ بن أحمد النّيسابوريّ : «فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مالك بن الدّخشم ومعن بن عديّ وعامر بن السّكن ووحشيّاً قاتل حمزة - رضي الله عنه !- وقال لهم : «انطلقوا إلى هذا المسجد الظّالم أهله ، فأهدموه وأحرقوه» . فخرجوا ، وانطلق مالك بن الدّخشم وأخذ سَعْفاً من النّخيل فأشعل فيه ناراً ، ثمّ دخلوا المسجد ، وفيه أهله ، فأحرقوه وهدموه»<sup>(2)</sup> ، وتفرّق عنه أهله ، وأمر النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- أن يتخذ كناسة تلقى فيه الجيف والنّتن والقمامة»<sup>(3)</sup> . انتهى النصّ . وقد روي : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- كان لا يمرّ بالطريق التي فيها هذا المسجد بعدما أنزل الله فيه ما أنزل من القرآن . وهذا ما تمنّاه لجميع مساجد الضّرار التي انتشرت في العالم الإسلاميّ الآن . ﴿وَمَا ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ بَعِيزٌ﴾<sup>(4)</sup> . وهذا هو الأصل في اتفاق علماء المسلمين وفقهائهم على هدم كلّ مسجد متّصف بأيّ وصف من أوصاف مسجد الضّرار .

**المصير الثالث :** أن إحراق مسجد الضّرار وهدمه قد أحدث في نفوس أصحابه وقلوبهم شكّاً وخيبة وحيرة وحسرة واضطراباً ، واستولى ذلك عليهم مدى حياتهم ، فلم يبرحهم حتى جاء أجلهم فمزّق الموت قلوبهم ، فأصبحوا على ما فعلوه نادمين ، والله لا يهدي القوم الظّالمين .

## النهى عن تكثير بناء المساجد

على أساس جمع شتات المسلمين ولمّ شملهم ، وتوحيد كلمتهم وتنظيم صفوفهم ، نهت الشريعة المحمّدية عن الإفراط في بناء المساجد لغير الحاجة . قال محمّد جمال الدين القاسميّ : «قال السيوطيّ - في كتابه : «الأمر بالتّباع ، والنّهي عن الابتداع» - : ومن تلك المحدثات كثرة المساجد في المحلّة الواحدة ؛ وذلك لما فيه من تفريق الجمع ، وتشيت شمل المصلّين ، وحلّ عروة

(1) الجامع لأحكام القرآن . ج 8 ص 55 .

(2) وكان ذلك عند مرجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من تبوك وقبل دخوله المدينة ؛ وهو نازل بـ «ذي أوّان» : مكان بينه وبين المدينة ساعة وهنا نزل الوحي في شأن مسجد الضّرار .

(3) أسباب النزول . ص 196 .

(4) سورة «إبراهيم» . الآية 20 .

الانضمام في العبادة، وذهاب رَوْنَق وَفَرَة المتعبدين، وتعدد الكلمة، واختلاف المشارب، ومضادة حكمة مشروعية الجماعات؛ أعني: اتحاد الأصوات على أداء العبادات، وعودهم على بعضهم بالمنافع والمعونات، والمضارة بالمسجد القديم أو شبه المضارة أو محبة الشهرة والسمعة، وصرف الأموال فيما لا ضرورة فيه». وجاء في «الإقناع» وشرحه -: ويحرم أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد؛ إلا الحاجة: كضييق الأول ونحوه: كخوف فتنة باجتماعهم في مسجد واحد؛ وظاهره وإن لم يقصد المضارة. وعبارة «المنتهى»: ويحرم بناء مسجد يراد به الضرر لمسجد بقربه. انتهى. وقال الإمام ابن تيمية - في تفسير سورة الإخلاص -: كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشبه مسجد الضرار، ويرون العتيق أفضل من الجديد، لأن العتيق أبعد عن أن يكون بُني ضراراً من الجديد الذي يخاف ذلك فيه. وعتق المسجد مما يُحمد به، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلِّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾<sup>(1)</sup>. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾<sup>(2)</sup>. فإن قَدَمَهُ يقتضي كثرة العبادة فيه أيضاً؛ وذلك يقتضي زيادة فضله<sup>(3)</sup>. انتهى وحديثنا عن حادثة مسجد الضرار يفضي بنا إلى استخراج عبر منها وأحكام بادية المعالم كاشفة الستار. وإلى هنا أضع نقطة النهاية لحديثنا عن مسجد الضرار. ومن أراد أن يطلع على ما حررنا في هذا الموضوع، فما عليه إلا أن يعود إلى كتابنا «مساجد الضرار من جديد». والله وليّ التوفيق.

**وفي هذه السنة صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة الفجر مأموماً.** قال إسماعيل بن كثير: «قلت: وفي غزوة تبوك هذه، صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلف عبد الرحمن بن عوف صلاة الفجر؛ أدرك معه الركعة الثانية منها، وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذهب يتوصلاً ومعه المغيرة بن شعبه، فأبطأ على الناس، فأقيمت الصلاة، فتقدم عبد الرحمن بن عوف (فصلّى بالناس)، فلما سلم الناس (من الصلاة)، أعظموا ما وقع! فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أحسنتُم وأصبتمُم»<sup>(4)</sup>.

**وفيها امتدح عباس بن عبد المطلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقصيدة؛ بعد ما استأذنه في ذلك، فأذن له.** روى الحافظ البيهقي بإسناد طويل: «... عن أبي زخر بن حصن،

(1) سورة «الحج». الآية 33.

(2) سورة «آل عمران». الآية 96.

(3) إصلاح المساجد، من البدع والعوائد. ص 96.

(4) البداية والنهاية. ج 5 ص 22.

عن جدّه حُمَيْد بن منهب قال : سمعت جدّي خَريم بن أوس بن حارثة بن لام يقول : هاجرت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مُنْصَرِّقَةً من تبوك ، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله ! إنّي أريد أن أمتدحك ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « قُلْ لا يَفْضُضُ اللهُ فَاكً » ! فقال قصيدة وختمها بقوله :

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقْتَ الْأَرْوَ  
ضُ قَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأَفْوَ  
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النُّو  
رِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ يُخْتَرَقُ

وفيها ؛ أي : في شهر رجب منها ، توفي النّجاشيّ صاحب الحبشة ، فعناه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- للناس ، ورفع إليه نعشه ، فصلّى عليه ؛ وهي أوّل صلاة على الغائب في الإسلام . وفيها ، أي : في شهر شعبان منها ، توفيت أم كلثوم زوجة عثمان بن عفان - رضي الله عنهما !- وهي بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فغسلتها أسماء بنت عميس وصفيّة بنت عبد المطلب ، وصلى عليها أبوها عليه الصلاة والسّلام ! .

وفيها : توفي معاوية بن معاوية اللّيثيّ بالمدينة ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم !- كان غازياً بتبوك . ومعاوية هذا هو الذي يُكثر قراءة سورة «الإخلاص» بالليل والنّهار ، وفي ممشاه وفي قيامه وعوده .

وفيها : أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بهدم الطاغية «اللات» معبودة ثقيف ، فامثل الأمر أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فهدهماها رغم أنف ثقيف .

وفيها : مات عبدالله بن أبيّ بن سلول الخزرجيّ رأس المنافقين . قال محمّد بن عمر الواقديّ : «ومرض عبدالله بن أبيّ في ليالٍ بقين من شوال ، ومات في ذي القعدة ، وكان مرضه عشرين ليلة ، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يعود فيها ، فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهو يجود بنفسه ، فقال : «قد نهيتك عن حبّ اليهود» . فقال عبدالله بن أبيّ : أبغضهم سعد بن زُرارة فما نفعه ، ثمّ قال ابن أبيّ : يا رسول الله ! ليس بحين عتاب ! هو الموت ! فإن متُّ فاحضر غُسلِي وأعطني قميصك أَكْفَنَ فيه . فأعطاه الأعلى - وكان عليه قميصان - فقال : الذي يلي جلدك ، فنزع قميصه الذي يلي جلده فأعطاه (إيّاه) . ثمّ قال (ابن أبيّ) : صلّ عليّ واستغفر لي ! فحضر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- غُسله وحضر كفنه ، ثمّ حُمِلَ إلى موضع الجنائز ، فتقدّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَامَ وَثَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ !- فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَتُصَلِّيَ عَلَى ابْنِ أَبِيٍّ وَقَدْ قَالَ كَذَا وَكَذَا وَيَوْمَ كَذَا كَذَا؟ ! فَعَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- وَقَالَ : «أَخَّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ» ! فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ عُمَرُ ، قَالَ : «إِنِّي خَيْرٌ فَاخْتَرْتُ ؛ وَلَوْ أَعْلِمُ أَنَّنِي إِذَا زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ زِدْتُ عَلَيْهَا» ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿أَسْتَغْفِرُ هُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ هُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ هُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ هُمْ﴾ <sup>(1)</sup> . قَالَ : «سَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ» . فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفَ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ «بِرَاءة» : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِمْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ <sup>(2)</sup> . وَيَقَالُ : إِنَّهُ لَمْ تَزَلْ قَدَمَاهُ بَعْدَ دَفْنِهِ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُنَافِقِينَ ، فَكَانَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ يُحَدِّثُ يَقُولُ : رَأَيْتُ ابْنَ أَبِيٍّ عَلَى السَّرِيرِ وَإِنْ رَجَلَيْهِ لَخَارَجَتَانِ مِنَ السَّرِيرِ لَطَوْلُهُ» <sup>(3)</sup> .

**وفيهما :** اسْتَشْهَدَ عُروَةَ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ عَلَى أُيْدِي قَوْمِهِ . قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْأَثِيرِ : «وفيهما (أي : السنة التاسعة من الهجرة النبوية) قدم عُروَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- مُسَلِّمًا ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى قَوْمِهِ بِالْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- : «إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ» . فَقَالَ : أَنَا أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْكَارِهِمْ ، وَرَجَا أَنْ يُوَافِقُوهُ لِمَنْزِلَتِهِ فِيهِمْ ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الطَّائِفِ صَعِدَ إِلَى عَلِيَّةَ لَهَا وَأَشْرَفَ مِنْهَا عَلَيْهِمْ وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَرَمَوْهُ بِالنَّبْلِ ، فَأَصَابَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا تَرَى فِي دِمَاكِ؟ فَقَالَ : كِرَامَةٌ أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا وَشَهَادَةٌ سَاقِيهَا إِلَيَّ ، لَيْسَ فِيَّ إِلَّا مَا فِي الشَّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، فَادْفَنُونِي مَعَهُمْ . فَلَمَّا مَاتَ دَفَنُوهُ مَعَهُمْ . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- فِيهِ : «إِنَّ مِثْلَهُ فِي قَوْمِهِ كَمِثْلِ صَاحِبِ «يَس»» <sup>(4)</sup> فِي قَوْمِهِ» . وَفِي هَذَا الْخَبَرِ عِبْرَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ ، وَحُكْمٌ لِمَنْ يَحْتَكِمُ لِأَوَامِرِ اللَّهِ .

(1) سورة «التوبة» . الآيات 80 .

(2) سورة «التوبة» . الآيات 84 ، 87 .

(3) كتاب المغازي . ج 3 ص 1057 .

(4) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 283 . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّهَيْلِيُّ : «يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- : كَمِثْلُ صَاحِبِ «يَس» أَنْ يَرِيدَ بِهِ الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ «يَس» ، الَّذِي قَالَ لِقَوْمِهِ : «اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» ، فَقَتَلَهُ قَوْمُهُ ، وَاسْمُهُ حَبِيبُ بْنُ عُدْيٍ . (الروض الأنف . ج 7 ص 371) .

**وفيهما : توقّي أبو عامر الرّاهب .**

**وفيهما :** فُرضت الصّدقات ، أي : الزّكّوات ، وفرّق رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عمّاله لجمعها وتوزيعها على مَنْ يستحقّها . ولعلّ أعظم حوادث هذه السنة المباركة تتابع الوفود وقدمهم المدينة المنورة ؛ حيث استناروا بنور النّبوة فأصبحوا مظهرأ من مظاهر الإسلام لأهلهم وأقوامهم بعد رجوعهم إليهم مزوّدين بالإيمان الراسخ في قلوبهم ، والإخلاص الثابت في سلوكهم لله ولرسوله . وكلّ مَنْ يُمعن النظر في مغزى هذه الوفود ، يستخرج من مضمونها عبراً للمعتبرين بمبناها ومعناها ؛ كما يستخرج منها أحكاماً للمحتكمين إلى كتاب الله وسنّة رسوله زماناً ومكاناً .

### **السنة العاشرة للهجرة**

**إرسالُ خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب وإسلامهم على يديه**

في هذه السنة شاء الله أن ينقاد أهل نجران إلى الإسلام ويرتضوا أحكامه عن طيب نفس ومحض إرادة ؛ دون أن ينشب قتال بينهم وبين المسلمين ؛ بل قد أنعم الله عليهم أن هداهم إلى الإسلام بمجرد أن دعاهم خالد بن الوليد إليه ! قال محمّد بن إسحاق : « ثمّ بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر ، أو جمادى الأولى سنة عشر ، إلى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم - ثلاثاً<sup>(1)</sup> - فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم . فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون في كلّ وجه ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيّها النّاس أسلموا تسلكوا . فأسلم النّاس ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يُعلّمهم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيّه - صلى الله عليه وسلم !- وبذلك كان أمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إن هم أسلموا ولم يقاتلوا . ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمّد النبيّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من خالد بن الوليد ، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

**أمّا بعد :** يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فإنّك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا أقمت فيهم

(1) «ثلاثاً» : ثلاثة أيّام .



وقبلتُ منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يُسلموا قاتلتهم وإنّي قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ؛ كما أمرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وبعثتُ فيهم ركبانا قالوا : يا بني الحارث ! أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، أمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عمّا نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم !- حتى يكتب إليّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فكتب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله ، إلى خالد بن الوليد . سلام الله عليك ! فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أمّا بعد : فإنّ كتابك جاءني مع رسولك تُخبر أنّ بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبد الله ورسوله ، وأنّ قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم وأقبلُ ولقبِل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . فأقبل خالد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب ؛ منهم : قيس بن الحُصين ذي الغُصّة ، ويزيد بن عبد المَدان ، ويزيد بن المُحجّل ، وعبد الله بن قُرّاد الزيّادي ، وشداد بن عبد الله القنانيّ ، وعمرو بن عبد الله الضّبّابيّ . فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فرأهم قال : «مَنْ هؤلاء القوم الذين كأثمهم رجالُ الهند» ؟ قيل : يا رسول الله ! هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب . فلما وقفوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أسلموا عليه وقالوا : نشهد أنّك رسول الله ، وأنّه لا إله إلا الله . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله» . ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا» ؟ فسكتوا ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الثانية ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الرابعة ، فقال يزيد بن عبد المدان : نعم ، يا رسول الله ! نحن الذين إذا زُجروا استقدموا ؛ قالها أربع مرار ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «لو أنّ خالدًا لم يكتب إليّ أنّكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيتُ رؤوسكم تحت أقدامكم» . قال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا . قال : «فمن حمدتم» ؟ قالوا حمدنا الله عزّ وجلّ الذي هدانا بك يا رسول الله ! قال : «صدقتم» . ثم قال رسول الله : «بما كنتم تغلبون من قاتلكم في

الجاهليّة؟ قالوا: لم نكن نغلب أحداً، قال: «بلى؛ قد كنتم تغلبون من قاتلكم». قالوا: كنّا نغلب من قاتلنا - يا رسول الله! أنا كنّا نجتمع ولا نفترق، ولا نبداً أحداً بظلم، قال: «صدقتم». وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على بني الحارث بن كعب قَيْس بن الحُصَيْن. فرجع وقد بني الحارث إلى قومهم في بقية من شوال، أو في صدر ذي القعدة، فلم يكتثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ورحم وبارك ورضي وأنعم! - وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد بعث إليهم بعد أن ولّى وفدّهم عمرو بن حزم ليفقّهم في الدين، ويعلمهم السنّة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتاباً، عهد إليه فيه عهده، وأمره فيه بأمره: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا بيان من الله ورسوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾<sup>(1)</sup>؛ عهدٌ من محمد النّبيّ رسول الله لعمر بن حزم؛ حين بعثه إلى اليمن. أمره بتقوى الله في أمره كلّ. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾<sup>(2)</sup>. وأمره أن يأخذ بالحقّ كما أمره الله، وأن يُبشّر النّاس بالخير ويأمرهم به، ويعلم القرآن، ويفقّهم فيه، وينهى النّاس: فلا يمسّ القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويُخبر النّاس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين للنّاس في الحقّ ويشدّ عليهم في الظلم؛ فإنّ الله كره الظلم ونهى عنه فقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(3)</sup>. ويُبشّر النّاس بالجنّة وبعملها، ويُنذر النّاس النّار وعملها، ويستألف النّاس حتى يفقهوا في الدين، ويعلم النّاس معالم الحجّ وسنّته وفريضته وما أمر الله به، والحجّ الأكبر الحجّ الأكبر، والحجّ الأصغر هو العمرة. وينهى النّاس أن يُصلّي أحد في ثوب واحد صغير: إلا أن يكون ثوباً يثني طرفه على عاتقيه، وينهى النّاس أن يحتبيّ أحد في ثوب واحد يُقضي بفرجه إلى السماء، وينهى أن يعقص<sup>(4)</sup> أحد شعر رأسه في قفاه، وينهى، إذا كان بين النّاس هيّج<sup>(5)</sup>، عن الدّعاء إلى القبائل والعشائر، وليكنّ دعوهم إلى الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له. فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر، فليُقطّفوا بالسيف؛ حتى تكون دعوهم إلى الله وحده لا شريك له. ويأمر النّاس بإسباغ

(1) سورة «المائدة». الآية 1.

(2) سورة «النحل». الآية 128.

(3) سورة «هود». الآية 18.

(4) «يعقص»: يلوي ويثني ويعطف.

(5) «هيّج»: حرب.

الوضوء: وجوههم، وأيديهم إلى المرافق، وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحون برؤوسهم كما أمرهم الله؛ وأمر بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجود والخشوع، ويغسل<sup>(1)</sup> بالصبح، ويُهَجَّرُ بالهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة، والمغرب حين يُقبل الليل حتى تبدو النجوم في السماء. والعشاء أول الليل. وأمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغسل عند الرواح إليها. وأمره أن يأخذ من الغنائم خُمُسَ الله وما كُتِبَ على المؤمنين في الصدقة: من العقار عُشر ما سقت العين وسقت السماء وعلى ما سقى الغرب نصف العشر. وفي كلِّ عشر من الإبل شاتان، وفي كلِّ عشرين أربع شياه، وفي كلِّ أربعين من البقر بقرة، وفي كلِّ ثلاثين من البقر تبع جدع أو جدعة، وفي كلِّ أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة؛ فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له. وإنه من أسلم، من يهودي أو نصراني، إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين: له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم. ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يُردَّ عنها. وعلى كلِّ حالم ذكر أو أنثى، حرّ أو عبد دينار واف، أو عَوْضُهُ ثياباً، فمن أدّى ذلك فإنَّ له ذمّة الله وذمّة رسوله، ومن منع ذلك فإنه عدوٌّ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً. صلوات الله على محمد! والسلام عليه ورحمه الله وبركاته»<sup>(2)</sup>!

### إرسال أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن

جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن أبي بردة قال: «بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن؛ قال: وبعث كلَّ منهما على مخلاف»<sup>(3)</sup>؛ قال: واليمن مخلافان. ثم قال: «يسراً ولا تُعسراً، وبشراً ولا تُنفراً»<sup>(4)</sup>. فانطلق كلَّ واحد منهما إلى عمله. قال: وكان كلَّ منهما إذا سار في أرضه كان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً»<sup>(5)</sup> فسلم عليه، فسار معاذ في أرضه قريباً من صاحبه أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، فإذا هو جالس وقد اجتمع عليه الناس؛ وإذا رجل عنده قد جُمِعت يدها إلى عنقه، فقال له

(1) «يُغْلَسُ»: أن يُصلي صلاة الصبح في أول بزوغ الفجر. والغسل: هو آخر ظلمة الليل.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 418 - 423.

(3) «مخلاف»: بلغة أهل اليمن: الكورة، والإقليم، والرساق.

(4) صاحب هذا القول هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -

(5) «أحدث به عهداً»: جدَّ به العهد لزيارته.

معاذ: يا عبدالله<sup>(1)</sup> بن قيس! أَيْمٌ<sup>(2)</sup> هذا؟ قال: هذا رجل كفر بعد إسلامه. قال: لا أنزل حتى يُقْتَلَ. قال: إنما جيءَ به لذلك فانزل. قال: ما أنزل حتى يُقْتَلَ، فأمر به فقتل. ثم نزل فقال: يا عبدالله<sup>(3)</sup>! كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوقه تفوقاً. قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنا م أول الليل فأقوم وقد قضيتُ جزئي من التَّوَم فأقرأ ما كتب الله لي فاحتسبتُ نومتي؛ كما احتسبتُ قومتي... عن سعيد بن أبي بُرْدَة، عن أبيه، عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه!- أن النَّبِيَّ- صلى الله عليه وسلم!- بعثه إلى اليمن فسأله عن أشربة تُصْنَعُ بها؟ فقال: «وما هي؟» قال: البتُّعُ، والمزُرُّ. فقلتُ: لأبي بُرْدَة: ما البتُّعُ؟ قال: نبيذ العسل، والمزُرُّ نبيذ الشعير. فقال: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». رواه جرير بن عبد الواحد، عن الشيباني، عن أبي بُرْدَة... عن أيوب بن عائد، حدثنا قيس بن مسلم قال: سمعتُ طارق بن شهاب يقول: حدثني أبو موسى الأشعري- رضي الله عنه!- قال: بعثني رسول الله- صلى الله عليه وسلم!- إلى أرض قومي، فجنثُ ورسول الله- صلى الله عليه وسلم!- مُنِيخٌ بالأبطح، فقال: «أَحْجَجْتَ يا عبدالله بن قيس؟» قلتُ: نعم يا رسول الله! قال: «كيف قلتُ؟» قال: قلتُ: لبيك إهلاً لا كإهلالك! قال: «فهل سَقَتَ معك هدياً؟» قال: لم أسق. قال: «فطف بالبيت واسع بين الصفا والمروة ثم حلَّ». ففعلتُ حتى مَشَطْتُ لي امرأة من نساء بني قيس، ومكثنا بذلك حتى استخلفَ عمر... عن أبي سعيد مولى ابن عباس، عن ابن عباس- رضي الله عنهما!- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم!- لمعاذ بن جبل- حين بعثه إلى اليمن:- «إِنَّكَ ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا بذلك، فأخبرهم أنَّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كلِّ يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»... عن سعيد بن جبَّير، عن عمرو بن ميمون: أن معاذ- رضي الله عنه!- لما قدم اليمن صلى بهم الصُّبْح، فقرأ: ﴿وَآخِذْ بِاللَّهِ

(1) «عبدالله»: اسم أبي موسى الأشعري.

(2) «أَيْمٌ» - بفتح الميم، ومن ضمها فهو مخطئ؛ أصلها أي الاستفهامية فدخلت عليها ما.

(3) «أتفوقه تفوقاً»: الأزم قراءة ليلاً ونهاراً، شيئاً بعد شيء، وحيناً بعد حين. مثل فَوَاقِ الناقة؛ وهو أن تحلب،

ثم تترك حتى تدرّ، ثم تحلب وهكذا دائماً.

إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا<sup>(1)</sup>. فقال رجل من القوم: قرئت عين أم إبراهيم. زاد معاذ عن شعبة، عن حبيب، عن سعيد بن عمرو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث معاذاً إلى اليمن، فقرأ معاذ في صلاة الصبح سورة «النساء». فلما قال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. قال رجل خلفه: قرئت عين أم إبراهيم.

وجاء في مسند الإمام أحمد: «... عن عاصم بن حميد السكوتي، عن معاذ بن جبل قال: لما بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن، خرج معه يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري». فبكى معاذ خشعاً<sup>(2)</sup> لفراق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم التفت بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون: من كانوا وحيث كانوا».

قال إسماعيل بن كثير: «وهذا الحديث فيه إشارة وظهور وإيماء إلى أن معاذاً - رضي الله عنه - لا يجتمع بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك؛ وكذلك وقع، فإنه أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع، ثم كانت وفاته - عليه الصلاة والسلام - بعد أحد وثمانين يوماً من يوم الحج الأكبر».

### إرسال خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب إلى اليمن

جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء بن عازب - رضي الله عنه - يقول: بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع خالد بن الوليد إلى اليمن؛ قال: ثم بعث علياً<sup>(3)</sup> بعد ذلك مكانه، فقال: «مر أصحاب خالد، من شاء منهم أن يعقب معك<sup>(4)</sup> فليعقب، ومن شاء فليقبل، فكنتم فيمن عقب معه. قال: فغنمت أواقياً ذوات عدد...»

(1) سورة «النساء». الآية 125.

(2) خشعاً: تضرعاً.

(3) قال أحمد بن حجر - في الجزء الثامن، من صفحة 53 من كتابه «فتح الباري، بشرح صحيح البخاري»: «وقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي من طريق أخرى عن علي قال: بعثني النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله! تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء؟! قال: فوضع يده على صدري وقال: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه»! وقال: «يا علي! إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر».

(4) «يعقب معك»: يرجع إلى اليمن. والتعقيب العودة إلى المكان بعد فراقه.

عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه - رضي الله عنه !- قال : بعث النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- عليّاً إلى خالد ليقبض الخمس<sup>(1)</sup> ، وكنت أبغض عليّاً<sup>(2)</sup> ، وقد اغتسل<sup>(3)</sup> ، فقلت لخالد : ألا ترى إلى هذا . فلما قدمنا على النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- ذكرت ذلك له ، فقال : «يا بُرَيْدَةُ ! أتُبغض عليّاً ؟ فقلت : نعم . قال : «لا تبغضه فإنّ له في الخمس أكثر من ذلك» . حدثنا قُتَيْبَةُ ، حدثنا عبد الواحد ، عن عمارة بن القعقاع ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي نُعْمٍ ، قال : سمعت أبا سعيد الخُدْريّ يقول : بعث عليُّ بن أبي طالب - رضي الله عنه !- إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من اليمن بِذُهِيبَةٍ<sup>(4)</sup> في أديمٍ مَقْرُوظٍ<sup>(5)</sup> لم تُخْصَلْ<sup>(6)</sup> من ترابها ، قال : فقسمها بين أربعة نفر : بين عُيَيْنَةَ بن بدرٍ ، وأقرع بن حابس ، وزيد بن الحيل ، والرابع إمّا علقمة وإمّا عامر بن الطُّفَيْل . قال رجل من أصحابه : كنّا نحن أحقّ بهذا من هؤلاء . قال : فبلغ ذلك النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فقال : «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؛ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً» ؟ ! قال : فقام رجل<sup>(7)</sup> عائرُ العينين ، مُشرف الوجنتين ، ناشر الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، مشمر الإزار ؛ فقال : يا رسول الله ! اتق الله ! قال له : «ويلك ! أو لست أحقّ أهل الأرض أن يتقي الله» ؟ ! قال : ثم ولّى الرجل ، فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ! ألا أضرب عنقه ؟ قال : «لا ، لعَلَّه أن يكون يُصلّي» ؟ فقال خالد : وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه ! قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم» . قال : ثم نظر إليه ، وهو مُقَفٌّ<sup>(8)</sup> ، وقال : «إنّه يخرج من ضُئْضِيءٍ<sup>(9)</sup> هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يُجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّمية» ! وأظنه قال : «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتلَ ثمود» .

(1) «الخمس» : خمس الغنيمة .

(2) لأنه أخذ من المغنم جارية لنفسه .

(3) «وقد اغتسل» : من جنابة ترتبت عليه بوطئة الجارية التي حازها من المغنم لنفسه .

(4) «بذُهيبة» : مصغّر من لفظة ذهب ؛ وهي قطعة من الذهب .

(5) «مقروظ» : مدبوغ بالقرظ .

(6) «لم تُخْصَلْ» : لم تخلّص وتصفّى .

(7) «رجل» : اسمه نافع ؛ كما في أبي داود ، ورجحه السُّهيليّ .

(8) «مقفّ» : مول قفاه

(9) «من ضئضئ» : من نسل . وفي رواية : «من ضئضئ» والمعنى واحد .

حدثنا المكيّ بن إبراهيم عن أبي جُرَيْجٍ : قال عطاء (بن أبي رباح) : قال جابر (بن عبد الله) : أمر النبيّ - صلى الله عليه وسلم - عليّاً (حين قدم مكة من اليمن ومعه هدي) أن يُقيم على إحرامه (الذي كان قد أحرم به ؛ كإحرامه - عليه الصلاة والسلام - ولا يحلّ ، لأنّه معه الهدي) . زاد محمد بن بكر عن ابن جُرَيْجٍ : قال عطاء : قال جابر : فقدم عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - (من اليمن) بسعايته (أي : بولايته على اليمن) . قال له النبيّ - صلى الله عليه وسلم - : «بِمَ أَهَلَّتْ» ؟ (أي : أَحَرَمْتَ يا عليّ) ! قال : بما أَهَلَّ (أَحَرَم) به النبيّ - صلى الله عليه وسلم - . قال (عليه الصلاة والسلام) ! فأهد وامكث حراماً (أي : مُحَرَّماً) كما أنتَ (من الإحرام إلى الفراغ من الحج) . قال : وأهدى له (أي لرسول الله - عليه الصلاة والسلام) ! عليّ هدياً . . . . عن حميد الطويل : حدثنا بَكْرُ البَصْرِيّ أنه ذكر لابن عمر أن أنساً حدثهم أن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - أَهَلَّ بعمره وحجّة ، فقال : أَهَلَّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ! بالحجّ وأهللنا به معه . فلمّا قدمنا مكة ، قال : «من لم يكن معه هدي فليجعلها عُمْرة» . وكان مع النبيّ - صلى الله عليه وسلم - هدي . فقدم علينا عليّ بن أبي طالب من اليمن حاجّاً ، فقال النبيّ - صلى الله عليه وسلم - : «بِمَ أَهَلَّتْ؟ فَإِنْ معنا أَهْلُكَ» (زوجته فاطمة) . قال : أَهَلَّتْ بما أَهَلَّ به النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ! قال له (رسول الله صلى الله عليه وسلم) : «فأمسك» (على إحرامك) ؛ فَإِنْ معنا هدياً» . قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن البيهقيّ بإسناده - : . . . . عن أبي إسحاق قال البراء (ابن عازب) : إنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام . قال البراء : فكنْتُ فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستّة أشهر يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يُجيبوه ، ثمّ إنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث عليّ بن أبي طالب وأمره أن يُقفلَ خالداً ؛ إلّا رجلاً كان ممّن مع خالد فأحبّ أن يُعقّب مع عليّ فليعقّب معه . قال البراء : فكنْتُ ممّن عقّب مع عليّ . فلمّا دنونا من القوم خرجوا إلينا ، ثم تقدّم فصلّى بنا عليّ ، ثمّ صفّنا صفّاً واحداً ، ثمّ تقدّم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! فأسلمت هَمْدان جميعاً ، فكتب عليّ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! بإسلامهم . فلمّا قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! الكتاب خرّ ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال : «السّلام على هَمْدان ! السّلام على هَمْدان !» <sup>(1)</sup> .

(1) الأسود المتنبّيّ .

## خروج الأمراء والعمال لجمع الصدقات

قال محمد بن إسحاق: «وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد بعث أمراءه وعمّاله على الصدقات (الزكوات) إلى كلّ ما أوطأ الإسلام من البلدان، فبعث المهاجر بن أميّة ابن المغيرة إلى صنعاء؛ فخرج عليه العنسي<sup>(1)</sup>، وهو بها. وبعث زياد بن ليث أخا بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت، وعلى صدقاتها. وبعث عديّ بن حاتم على طيء وصدقاتها، وعلى بني أسد. وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة. وفرّق صدقة بني سعد على رجلين منهم؛ بعث الزُّبْران بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية، وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين. وبعث عليّ بن أبي طالب - رضوان الله عليه! - إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم». قال محمد بن عمر الواقدي: «... عن حسين بن أبي بشير المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنّا مع عليّ - عليه السلام! - باليمن، فرأيتّه يأخذ الحبّ من الحبّ، والبعير من الإبل، والشاة من الغنم، والبقرة من البقر، والزبيب من الزبيب، وكان لا يكلّف الناس مشقة، وكان يأتيهم في أفئنتهم فيُصدّق مواشيهم ويأمر من يسقب<sup>(2)</sup> بذلك، وكان لا يفرّق الماشية؛ كان يقعد فما أتى به من شاة فيها وفاء له أخذها، ويأمر من يسقب بذلك، ويقسم على فقرائهم، يأخذ الصدقة من هاهنا ومن هاهنا، ويعرفهم». عن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، عن رجاء بن حيوة قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بعث خالد ابن سعد بن العاص مع رُسُل حمير، وبعث عليّاً - عليه السلام! - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إن اجتمعتما في مكيدة فعليّ على الناس، وإن افترقتما فكلّ على حدة<sup>(3)</sup>.

## كتاب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وجوابه عنه

قال محمد بن إسحاق: «وقد كان مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله! سلام عليك. أما بعد: فإني قد أشركتُ في الأمر معك، وإنّ لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض؛ ولكن قریشاً قوم يعتدون». فقدم عليه<sup>(4)</sup> رسلان بهذا الكتاب فحدّثني شيخ من

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 426، 427.

(2) «يسقب»: يسعى عليهم.

(3) كتاب المغازي. ج 3 ص 1085.

(4) «عليه»: الضمير يعود على رسول الله.



أشجع، عن سلمة بن نُعَيْم بن مسعود الأشجعيّ، عن أبيه نُعَيْم، قال سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لهما - حين قرأ كتابه -: «فما تقولان أنتما». قالوا: نقول كما قال، فقال رسول الله: «أما والله لولا أن الرّسل لا تُقتل لضربتُ أعناقكما»، ثم كتب إلى مُسَيْلَمَةَ: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد: فإن الأرض لله يورثه من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين». وذلك في آخر سنة عشر<sup>(1)</sup>.

## حَجَّةُ الْوُدَاعِ<sup>(2)</sup>

خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى حَجَّةِ الْوُدَاعِ خمس ليالٍ بقين من شهر ذي القعدة، واستعمل على المدينة أبا دُجَانَةَ الساعديّ، ولم يكن في أفواه النّاس إلّا ذكر الحجّ! ولما وصل إلى «سرف» أمر النّاس أن يحلّوا بعمره؛ إلّا مَنْ ساق الهدْي مثله، فإنّه يبقى ماسكاً إحرامه إلى فراغه من حجّه.

جاء في صحيح الإمام البخاريّ: «... عن ابن شهاب، عن عروة بن الزُّبَيْر، عن عائشة - رضي الله عنها! - قالت: خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حَجَّةِ الْوُدَاعِ، فأهللنا بعمره، ثم قال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ كان عنده هدي فليُهلّل بالحجّ مع العمرة، لا يحلّ حتى يحلّ منهما جميعاً»، فقدمتُ مكّة وأنا حائض ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشكوتُ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! فقال: «انقُضي رأسك وامتشطي وأهليّ بالحجّ ودعي العمرة». ففعلتُ. فلمّا قضينا الحجّ، أرسلني رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! مع عبد الرحمن<sup>(3)</sup> بن أبي بكر الصّدّيق - رضي الله عنهما! - إلى التّنعيم، فاعتمرْتُ. فقال: «هذه مكانَ عمرتك». قالت: فطاف الذين أهلّوا بالعمرة بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم حلّوا، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى. وأمّا الذين جمعوا الحجّ والعمرة فإنّما طافوا طوافاً واحداً». وجاء في صحيح الإمام البخاريّ أيضاً: «حدثني عمرو بن عليّ،

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص

(2) تسمّى بذلك لأنّ رسول الله ودّع الناس فيها ولم يحجّ بعدها. وتسمّى: حجة الإسلام، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يحجّ من المدينة غيرها. وتسمّى: حجة البلاغ لأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغّ الناس شرع الله. قولاً وفعلًا، ولم يبق من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلّا بيّنه للناس.

(3) هو: أخوها.

حدَّثنا يحيى بن سعيد، حدَّثنا ابن جريج قال: حدَّثني عطاء عن ابن عباس: إذا طاف بالبيت فقد حلّ، فقلت: من أين قال هذا ابن عباس؟ قال من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾<sup>(1)</sup>، ومن أمر النبي - صلى الله عليه وسلم! - أصحابه أن يحلّوا في حجة الوداع، فقلت: إنّما كان ذلك بعد المعرف، فقال: كان ابن عباس يراه قبل وبعد. ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في أداء فريضة الحجّ المبرور، وفيها أرى الناس مناسكهم، وعلمهم أركان حجّهم وسننه؛ كما علمه الله إياها، ثم خطب فيهم يوم النحر خطبة بيّن فيها للناس ما أمره الله أن يبيّنه لهم من دين الإسلام<sup>(2)</sup>: عقيدة وشرعة ممّا لهم وعليهم.

### خطبة حجة الوداع

قال محمد بن إسحاق: «ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على حجّه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجّهم، وخطب الناس خطبته التي بيّن فيها ما بيّن، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيّها النّاس! اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً».

أيّها النّاس! إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربّكم؛ كحرمة يومكم هذا، وبحرمة شهركم هذا. وإنّكم ستلقون ربّكم، فيسألکم عن أعمالکم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ كلّ ربا موضوع<sup>(3)</sup>؛ ولكن ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾<sup>(4)</sup>. قضى الله أنّه لا ربا وإنّ ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كلّ، وإنّ كلّ دم كان في الجاهليّة موضوع، وإنّ أوّل دماءكم أضاع دماء ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب؛ فهو أوّل ما أبداً به من دماء الجاهليّة.

أمّا بعد: أيّها النّاس! فإنّ الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً؛ ولكنه إنّ يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به ممّا تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

(1) سورة «الحجّ». الآية 33.

(2) وقد اعتنى أئمة علماء المسلمين بهذه الخطبة المباركة وبشرح مضمونها اعتناء كبيراً، وصنّفوا فيها مصنّفات كثيرة الفائدة والاستفادة؛ كما أنّهم اعتنوا اعتناءً بالغ الأهمية بحجة الوداع بأكملها، وعلى رأس هؤلاء الأئمة محمد بن حزم الأندلسي؛ فقد ألف مجلداً في حجة الوداع أجاد فيه وأفاد، رحمه الله.

(3) «موضوع»: ساقط.

(4) اقتباس من سورة «البقرة». الآية 279.

أَيُّهَا النَّاسُ! ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَتُخْرِمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾<sup>(1)</sup>. ويحرموا ما أحل الله. وإن الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾<sup>(2)</sup>. ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾<sup>(3)</sup>. ثلاثة متوالية، ورجب مُضَرُّ<sup>(4)</sup> الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد : أَيُّهَا النَّاسُ! فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا: لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوْطِّنَ فَرَشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذَنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمُضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ<sup>(5)</sup>، فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ<sup>(6)</sup>. لَا يَمْلِكُنَّ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ. فَاعْقِلُوا أَيُّهَا النَّاسُ قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَغْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا؛ أَمْرًا بَيْنًا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ! اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ: تَعْلَمَنَّ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ؛ فَلَا يَحِلُّ لِمَرءٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظْلُمُنَّ أَنْفُسَكُمْ. اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ فَذَكِّرْ لِي أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»<sup>(7)</sup>. وَكَانَ الَّذِي يُبَلِّغُ عَنْهُ بـ «عرفة» ربيعة بن أمية بن خلف لكثرة الناس. وَرُوي عَنْ عَكْرَمَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمَا قَالَا: «خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -! مِنَ الْغَدِ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ بَعْدَ الظُّهْرِ عَلَى نَاقَتِهِ الْقِصْوَاءِ». وَزَادَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ فِي مَبْنَى الْقِصَّةِ. وَمَا أَثْبَتَاهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ هُوَ أَصَحُّ الْوُرُودِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَثَمَةِ رِوَاةِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ.

(1) سورة «التوبة». الآية 37.

(2) سورة «التوبة». الآية 36.

(3) سورة «التوبة». الآية 36.

(4) «ورجب مُضَرُّ»: أضاف رجب إلى مُضَرٍّ لِأَنَّهَا تُعْظَمُهُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْعَرَبِ؛ وَذَلِكَ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ.

(5) «غير مُبْرَحٍ»: غَيْرُ شَدِيدٍ.

(6) «عوان»: أَسِيرَاتٍ.

(7) السيرة النبوية الروض الأنف. ج 7 ص 460 - 462.

## عيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لسعد بن أبي وقاص

لما فرغ رسول الله من حجة الوداع بلغه أن سعد بن أبي وقاص مريض رهن الفراش بمكة ، فعاده عيادة المسلم لأخيه . قال محمد بن عمر الواقدي : «حدثني معمر ، ومحمد بن عبدالله ، ومالك ، عن الزهري ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه ، قال : جاءني رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يعودني عام حجة الوداع من وجع أصابني . فقلتُ : يا رسول الله ! قد بلغ بي ما ترى من الوجع ، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي ، فأصدق بثلثي مالي . قال : «لا» ! قلت : فالشطر؟ قال : «لا» ! ثم قال : «الثلث ، والثلث كثير ! إنك أن تترك وراثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها ؛ حتى ما تجعله في في امرأتك» ! فقلت : يا رسول الله ! أخلف بعد أصحابي ؟! فقال : «إنك إن تخلف فتعمل صالحاً تزدد خيراً ورفعة ، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام أو يضربك آخرون . اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم» ! لكن البائس سعد بن خولة يرثي له إن مات بمكة<sup>(1)</sup> . فحدثني سفيان بن عيينة ، عن إسماعيل بن محمد بن الأعرج قال : خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على سعد رجلاً وقال : «إن مات سعد بمكة فلا تدفنه بها» . فحدثني سفيان عن محمد بن قيس ، عن أبي بردة بن أبي موسى قال : قال سعد بن أبي وقاص للنبى - صلى الله عليه وسلم !- : أيكره أن يموت الرجل في الأرض التي هاجر منها؟ قال : «نعم» .

فحدثني سفيان بن عيينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن سعد ، قال : مرضتُ فأتاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يعودني ، فوضع يده بين كُديي ، فوجدتُ بردها على فؤادي ، ثم قال : «إنك رجل مفؤود ، فأت الحارث بن كَلْدَةَ أخا ثقيف ؛ إنه رجل يُطَبِّب ، فمره فليأخذ سبع تمرات من عَجْوَةِ المدينة فليجأهن بنواهن ، ثم يذلكك بهن» .

## قدوم وفود السنة العاشرة

في هذه السنة قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وفد سلامان ، يرأسهم حبيب السلاماني . وفيها قدم وفد خُشْبَان . وفيها قدم وفد خولان وكانوا عشرة نفر ، فسألهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عن صنمهم ، الذي كان يقال له : عم أنس ، فقالوا :

(1) كتاب المغازي . ج 3 ص 1115-1116 .

أبدلنا خيراً منه ، ولو رجعنا لهدمناه ، وتعلّموا القرآن والسّنن . فلمّا رجعوا هدموا الصنم وأحلّوا ما أحلّ الله وحرّموا ما حرّم الله . وفيها قدم وفد بني مُحارب في حجة الوداع ، وعشرة نفر فأنزلوا دار رملة بنت الحارث ، وكان بلال يأتيهم بغدائهم وعشائهم ، فأسلموا جميعاً وقالوا : نحن على مَنْ وراءنا . وفيها قدم جرير بن عبد الله البجليّ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مسلماً ، فبعثه إلى الصنم «ذي الخَلَصَة» فهدّمه ، وكان من حَجَر أبيض بتيالة<sup>(1)</sup> ، وهو صنم بجيلة ، وخثعم ، وأزد السّراة . فلمّا أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خبر هدمه سجد شكراً لله تعالى ! وفي هذه السّنة أسلم باذان باليمن ، وبعث بإسلامه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وأكتفي بذكر هذا القدر من الوفود الكثيرة ، ولم آت بذكر جميعها ؛ وذلك لعدم وفوفي على تحديد تاريخ سنوات وفدها . ورغم ذلك فقد ذكر جميعها العلامة إسماعيل بن كثير في الجزء الخامس من كتابه : «البداية والنّهاية» . قال رحمه الله : «قلتُ : وقد ذكر محمد بن إسحاق ، ثم الواقديّ ، والبخاريّ ، ثم البيهقيّ بعدهم ، من الوفود ما هو متقدّم تاريخ قدومهم على سنة تسع ؛ بل على فتح مكّة . وقد قال الله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾<sup>(2)</sup> . وتقدّم قوله - صلى الله عليه وسلم !- يوم الفتح : «لا هجرة بعد الفتح ؛ ولكن جهادٌ ونِيَّةٌ» . فيجب التمييز بين السّابق من هؤلاء الوافدين على زمن الفتح ممّن يُعدّ وفودُه هجرة ، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممّن وعد الله خيراً وحُسْنَى ؛ ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزّمان والفضيلة . والله أعلم . على أن هؤلاء الأئمة الذين اعتنوا بإيراد الوفود قد تركوا فيما أوردوه أشياء لم يذكروها ؛ ونحن نورد بحمد الله ومنّته ما ذكروه ، ونُنبّه على ما ينبغي التنبيه عليه من ذلك ، ونذكر ما وقع لنا ممّا أهملوه ؛ إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان»<sup>(3)</sup> . واستغرق ذكره لما أوردته من الوفود ما لا يقلّ عن خمس وخمسين صفحة من الحجم الكبير لكتابه «البداية والنّهاية» ؛ إلّا أنّ جُلّ ما أوردته منهم خال من تحديد تاريخ وفادتهم . وهذا ما جعلنا نحجم عن ذكر مَنْ لم يُحدّد تاريخه من الوفود ، ومّا زلنا نشك في بعض تاريخ مَنْ ذكرناه !

(1) «تيالة» : موضع ببلاد اليمن .

(2) سورة «الحديد» . الآية 10 .

(3) البداية والنّهاية . ج 5 ص 40 ، 41 .

## استخراج العبر

**العبرة الأولى :** وصف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أهل اليمن - عند قدوم

وفدهم عليه - بصفات حميدة . جاء في صحيح الإمام البخاريّ : « . . . عن أبي مسعود : أنّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- قال : «الإيمانُ هاهنا» ، وأشار بيده إلى اليَمَن ، «والجَفَاءُ وَغَلَطَ القلوب في الفَدَّادِينَ<sup>(1)</sup> ؛ عند أصول أذنان الإبل»<sup>(2)</sup> . . . عن أبي هريرة - رضي الله عنه !- عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- قال : «أتاكم أهل اليمن ؛ هم أرق أفئدة ، وألين قلوباً ، الإيمانُ يمان ، والحكمة يمانية . والفخرُ والخِيلاءُ في أصحاب الإبل . والسَّكينة والوقار في أهل الغنم» . . . عن عبدالله بن عباس : «بيننا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بالمدينة إذ قال : «الله أكبر ! إذا جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن ؛ نقيّة قلوبهم ، حسنة طاعتهم . الإيمان يمان ، والفقه يمان والحكمة يمانية» . أخرج البزار عن جُبَيْر بن مُطْعَم ، عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- قال : «يطلع عليكم أهل اليمن كأنهم السحاب ؛ هم خير أهل الأرض» . وفي مدح أهل اليمن أحاديث كثيرة ، يعكسها حكّامهم في العصر المسموم بالكفر والإلحاد على وجه العموم !!

**العبرة الثانية :** مكارم الأخلاق تشفع لصاحبها في أهله ؛ روى الحافظ البيهقيّ عن عليّ

ابن أبي طالب أنه قال : «يا سبحان الله ! ما أزهّد كثيراً من الناس في خير ! عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في الحاجة فلا يرى نفسه أهلاً ، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لكان ينبغي أن يُسارع في مكارم الأخلاق ، فإنّها تدل على سبيل النّجاح ، فقام إليه رجل فقال : فداك أبي وأُمّي يا أمير المؤمنين ! أسمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : نعم ! وما هو خير منه : أُتِيَ بِسَبَايَا طِيٍّ فوقفت جارية : حمراء ، لعساء<sup>(3)</sup> ، دلفاء<sup>(4)</sup> ، عيطاء<sup>(5)</sup> ، شمّاء الأنف ، معتدلة القامة والهامة ، درماء الكعبين ، خدلة<sup>(6)</sup> السّاقين ، لقاء<sup>(7)</sup> الفخذين ، خميصة الخصرتين ، ضامرة

(1) «الفَدَّادِينَ» - جمع فَدَّاد - : هو غليظ الصوت وشديده .

(2) «عند أصول أذنان الإبل» : عند سوقهم لها .

(3) «لعساء» : في لونها أدنى سواد مشربة من الحمرة .

(4) «دلفاء» : متأتية في مشيتها ، متزنة في خطاها .

(5) «عيطاء» : طويلة العنق .

(6) «خدلة الساقين» : غليظتهما .

(7) بَيِّنَةٌ في اكتنازهما .

الكشحين ، مصقولة المتن . قال : فلما رأيتها أعجبت بها وقلت : لأطلبن إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أن يجعلها في فيئي . فلما تكلمت أنسيت جمالها من فصاحتها ! فقالت : يا محمد ! إن رأيت أن تُخلّي عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب ؛ فإنني ابنة سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الدمار ، ويفكّ العاني ، ويُشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقوي الضعيف ، ويُطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط ؛ أنا ابنة حاتم طيء . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « يا جارية ! هذه صفة المؤمنين حقاً ؛ لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلّوا عنها فإن أباهما كان يُحبّ مكارم الأخلاق ، والله يُحبّ مكارم الأخلاق » . فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ! أتُحبّ مكارم الأخلاق فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « والذي نفسي بيده لا يدخل أحد الجنة إلا بحسن الخلق » .

**العبرة الثالثة :** روى الحافظ البيهقي بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عقيل ، قال : انطلقتُ في وفد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فأتيناه فأنخنا بالباب ، وما في الناس رجل أبغض إلينا من رجل نلج عليه ، فلما دخلنا وخرجنا ، فما في الناس رجل أحب إلينا من رجل دخلنا عليه ! فقال قائل منّا : يا رسول الله ! ألا سألت ربك ملكاً كملك سليمان ! فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثم قال : « فلعلّ صاحبك عند الله أفضل من ملك سليمان ؛ إنّ الله عزّ وجلّ لم يبعث نبياً إلا أعطاه دعوة ؛ فمنهم من اتخذها دنياً فأعطىها ، ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا بها ، وإنّ الله أعطاني دعوة ، فاختبأتها عند ربّي شفاعاً لأمتي يوم القيامة » .

**العبرة الرابعة :** كان بنو مُحارب أشدّ غلظة وفضاظة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في مراسم مواسم العرب قبل حجة الوداع ؛ ولما قدم فيها وفدهم عليه ، عرف رجلاً منهم كان من ذوي الغلظة والفضاظة عليه ؛ فقال الرجل : الحمد لله الذي أبقاني حتى صدقتُ بك ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : « إنّ هذه القلوب بيد الله عزّ وجلّ » ، ومسح رسول الله وجه خزيمة بن سواة فصارت غرة بيضاء ، وأجازهم كما يُجيز الوفود وانصرفوا إلى بلادهم مسلمين .

**العبرة الخامسة :** قدوم وفد جعفي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فأمرهم بأكل القلب ، بعدما كانوا يعتقدون حرمة أكله . قال إسماعيل بن كثير : « ذكر أنّهم كانوا يحرمون

أكل القلب ، فلماً أسلم وفدهم أمرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بأكل القلب وأمر به فشوي وناولوه رئيسهم وقال : لا يتم إيمانكم حتى تأكلوه» فأخذه ويده ترعد فأكله وقال :  
عَلَى أَنِّي أَكَلْتُ الْقَلْبَ كُرْهًا وَتَرَعَدُ حِينَ مَسَّتْهُ بَنَانِي<sup>(1)</sup>

**العبرة السادسة : الذئب يكلّم راعي الغنم .** روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي سعيد الخدريّ قال : «عدا الذئب على شاة فأخذها ، فطلبها الراعي فانزعها منه ، فأقعى الذئب على ذنبه فقال : ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ ! فقال الراعي : يا عجباً ذئب مقع على ذنبه يكلّمني كلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك : محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يثرب يُخبر النَّاسَ بأبناء ما قد سبق . فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزاواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فأخبره ، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فنودي : الصلاة جامعة ! ثم خرج فقال للأعرابي : «أخبرهم» ، فأخبرهم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «صدق ، والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ، وتكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ، وتُخبره فخذه بما أحدث أهله» .

**العبرة السابعة : رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يرضى بعد غضبه بما رضى به الله تعالى .** قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن عمر الواقديّ عند ذكره وفد بني رؤاس بن كلاب - : «إن رجلاً يقال له عمرو بن مالك بن قيس بن بجيد بن رؤاس بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فأسلم ثم رجع إلى قومه فدعاهم إلى الله ، فقالوا : حتى نُصيب من بني عقيل مثل ما أصابوا منا ، فذكر مقتلته كانت بينهم وأن عمرو بن مالك هذا قتل رجلاً من بني عقيل . قال (عمرو) : فشددتْ يَدَيَّ فِي غُلٍّ وَأَتَيْت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وبلغه ما صنعتُ ، فقال : «لئن أتاني لأضربنَّ ما فوق الغُلِّ من يده» . فلماً جئتُ سلّمتُ ، فلم يرد عليّ السّلام ، وأعرض عن يمينه ، فأعرض عني ، فأتيته عن يساره ، فأعرض عني ، فأتيته من قِبَلِ وجهه فقلت : يا رسول الله ! إن الربّ عزّ وجلّ ليرضني فيرضني ! فأرض عني رضي الله عنك قال : «قد رضيتُ»<sup>(2)</sup> . وفي وفادة اللقيط بن عامر

(1) البداية والنهاية . ج 5 ص 93 .

(2) البداية والنهاية . ج 5 ص 90 .



ووفادة زيادة بن الحارث من العبر ما يجعل المعتبر يقلب الكفّين ويُجعدّ الجبين . وقد أعرضنا عن نقل نصيهما لطولهما في مباحثهما . وهما بأكملهما في كتاب «البداية والنهاية» صفحة 80 - 83 . جزء 5؛ نقلاً عن عبد الله ابن الإمام أحمد، والحافظ البيهقي .

## استخراج الأحكام

**الحكم الأول :** وصيّة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لمعاذ بن جبل في الأمر والنهي . روى الإمام أحمد بإسناده عن ميمون بن أبي شبيب ، عن معاذ بن جبل أنه قال : يا رسول الله ! أوصني ، فقال : «أتق الله حيثما كنت» . قال : زدني : قال : «أتبع السيئة الحسنة تمحها» . قال : زدني ! قال : «خالق الناس بخلق حسن»... وعن عبد الرحمن بن جبّير بن نُقَيْر الحضرمي ، عن معاذ بن جبل ، قال : أوصاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بعشر كلمات ، قال : «لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلتَ وحُرقتَ ، ولا تعقنَ والديك وإن أمراك أن تخرج من مالك وأهلك ، ولا تتركَنَّ صلاة مكتوبة متعمداً فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربنَ خمرأ فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية فإنها تحلّ سخط الله ، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس ، وإذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فابث ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عنهم عصاك أدباً ، وأحبهم في الله عزّ وجلّ» .

**الحكم الثاني :** معاذ بن جبل يقضي في اليمن بكتاب الله أولاً ، فإن لم يجد فيه حكماً نظر في سنة نبيّه ، فإن لم يجد فيها حكماً استعمل اجتهاده على ضوء كتاب الله وسنة رسوله . روى الإمام أحمد بإسناده عن ناس من أصحاب معاذ من أهل حمص ، عن معاذ : «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حين بعثه إلى اليمن ، قال : «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال أقضي بما في كتاب الله . قال : «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال : فسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟» قال : أجتهد وإنّي لا ألو . قال : فضرب رسول الله صدري ثم قال : «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يُرضي رسول الله» !

**الحكم الثالث :** أن معاذ بن جبل حكم لمسلم أن يرث أخاه اليهودي . روى الإمام أحمد بإسناده ، عن أبي الأسود الدؤليّ قال : «كان معاذ بن جبل باليمن ، فارتفعوا إليه في يهوديّ مات وترك أخاً مسلماً ، فقال معاذ : إني سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يقول : «الإسلام يزيد ولا ينقص» ، فورثه . وبهذا قال يحيى بن معمر القاضي ، وإسحاق بن راهويّه وجماعة

السلف ، وخالفهم في ذلك جمهور الفقهاء وعلى رأسهم الأئمة الأربعة وحُجَّتْهم ما جاء ثابتاً في الصحيحين ، عن أسامة بن زيد أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر » .

**الحكم الرابع :** روى الإمام أحمد بإسناده ، « عن عبد الله بن أبي الخليل ، عن زيد بن أرقم أن نَفراً وطئوا امرأة في طُهر ، فقال عليّ ( بن أبي طالب ) لاثنيْن : أتطيان نفساً لذا؟ فقالا : لا ! فأقبل على الآخرين فقال : أتطيان نفساً لذا؟ فقالا : لا ! فقال : أنتم شركاء متشاركون ؛ فقال : إني مُقرع بينكم فأيكم قرع أغرمتُه ثلثي الدية وألزمته الولد . قال ( الراوي ) : فذكر ذلك للنبيّ - صلى الله عليه وسلم - فقال : « لا أعلم إلا ما قال عليّ » . وفي رواية : فضحك حتى بدت نواجذه .

**الحكم الخامس :** قال الإمام أحمد : « حدثنا أبو سعيد ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا سمّاك ابن حَنَش ، عن عليّ ( بن أبي طالب ) قال : بعثني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن فاتتهينا إلى قوم قد بنوا زُبّة للأسد ، فبينما هم كذلك يتدافعون إذ سقط رجل فتعلق بآخر ، ثم تعلق آخر بآخر حتى صاروا فيها أربعة فجرحهم الأسد ، فانتدب له رجل بحربة فقتله ، وماتوا من جراحتهم كلّهم . فقام أولياء الأول إلى أولياء الآخر فأخرجوا السلاح ليقتتلوا ، فأتاهم عليّ ( بن أبي طالب ) على تفيئة ذلك فقال : تريدون أن تقتتلوا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيّ !! إني أقضي بينكم قضاء إن رضيتم فهو القضاء ، وإلا أحجز بعضكم عن بعض حتى تأتوا النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فيكون هو الذي يقضي بينكم ، فمن عدا بعد ذلك فلا حقّ له . اجمعوا من القبائل الذين حضروا ربّع الدية وثلث الدية ونصف الدية والدية كاملة : فلأولّ الربّع لأنه هلك ، والثاني ثلث الدية ، والثالث نصف الدية ، والرابع الدية . فأبوا أن يرضوا فأتوا النبيّ - صلى الله عليه وسلم - وهو عند مقام إبراهيم فقصّوا عليه القصّة ، فقال : « أنا أحكم بينكم » ، فقال رجل من القوم : يا رسول الله ! إن عليّاً قضى علينا ؛ فقصّوا عليه القصّة ، فأجازه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ويُضاف إلى ما ذكرناه من الأحكام الواردة في السّنة التاسعة والسنة العاشرة ، أحكام أخرى ثابتة المبني والمعنى ، قد جاءت بها خطبة حجّة الوداع . وهي سارية المضمون زماناً ومكاناً إلى يوم الدين . والحمد والشكر لله .

## السنة الحادية عشرة للهجرة بعث أسامة بن زيد إلى الشام

### ومرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ووفاته

قال محمد بن إسحاق: «ثم قفل<sup>(1)</sup> رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والحرم وصفر، وضرب<sup>(2)</sup> على الناس بعثاً إلى الشام، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة موله، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب<sup>(3)</sup> مع أسامة بن زيد المهاجرون الأولون. فبينما الناس على ذلك ابتدئ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بشكوه الذي قبضه الله فيه، إلى ما أراد به من كرامته ورحمته، في ليال بقين من صفر، أو في شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدئ به من ذلك - فيما ذكر لي - أنه خرج إلى بقيع الغرقد<sup>(4)</sup>، من جوف الليل، فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك. وحدثني عبدالله بن عمر، عن عبيدة بن جبير، مولى الحكم بن أبي العاص، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، عن أبي مؤهبة، مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: بعثني رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من جوف الليل، فقال: «يا أبا مؤهبة! إنني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي»، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم، قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر! ليهني لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى»؛ ثم أقبل عليّ، فقال: «يا أبا مؤهبة! إنني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة»؛ فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، قال: لا، والله يا أبا مؤهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدأ برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وجعه الذي قبضه الله فيه. وحدثني يعقوب بن عتبة، عن محمد ابن مسلم الزهري، عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم! - قالت: رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارساء! فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارساء»! قالت: ثم

(1) «قفل»: رجع من مكة بعد أداء فريضة الحج المعروف بـ «حجة الوداع».

(2) «ضرب»: أوجب.

(3) «أوعب»: خرجوا بأجمعهم، لم يتخلف منهم أحد.

(4) «بقيع الغرقد»: مقبرة أهل المدينة؛ وهي بداخلها.

قال: «وما ضربك لو مُتَّ قبلي، فقمْتُ عليك وكفَّتك، وصَلَّيتُ عليك ودفنتك؟» قالت: قلتُ والله لكأني بك، لو قد فعلتُ ذلك لقد رجعتُ إلى بيتي، فأعرستُ فيه ببعض نساءك! قالت: فتبسّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وتأمَّ به وجعهُ، وهو يدور على نساءه حتى استعزَّبه<sup>(1)</sup> وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهنَّ أن يُمرَّضَ في بيتي، فأذنَّ له<sup>(2)</sup>. وقال محمد ابن عمر الواقدي: «قالوا: لم يزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه (في غزوة مؤتة)، ووجدَ<sup>(3)</sup> عليهم وجداً شديداً؛ فلما كان يوم الإثنين لأربع ليال بقين من صَفَر سنة إحدى عشرة، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وأمرهم بالانكماش<sup>(4)</sup> في غزوهم. ففرَّق المسلمون من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهم مجدّون في الجهاد. فلما أصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من الغد يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر، دعا أسامة بن زيد فقال: «يا أسامة! سرَّ على اسم الله وبركاته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتُك على هذا الجيش<sup>(5)</sup>»، فأغرَّ صباحاً على أهل أبنى<sup>(6)</sup> وحرَّق عليهم، وأسرع السير تسبق الخبر، فإن أظفرك الله فأقلل اللَّبثَ فيهم، وخُذ معك الأدلاء، وقَدِّم العيون أمامك والطلائع». فلما كان يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر، بدئ برسول الله - صلى الله عليه وسلم! -، فَصُدَّعَ وَحُمَّ. فلما أصبح يوم الخميس لليلة بقيت من صفر عقد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بيده لواءً، ثمَّ قال: «يا أسامة! اغزِ بسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا تَمَنَّوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرُونَ لعلكم تُبْتَلُونَ بهم؛ ولكن قولوا: اللَّهُمَّ اكفناهم، واكفف بأسهم عنا! فإن لقوكم وقد أجلبوا وصيَّحوا، فعليكم بالسَّكينة والصَّمت. ﴿وَلَا تَنْتَرِعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾»<sup>(7)</sup>. وقولوا: اللَّهُمَّ نحن عبادك وهم عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك؛ وإنما تغلبهم أنت! واعلموا أن الجنة تحت البارقة». . . ثمَّ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لأسامة:

(1) «استعزَّ به»: اشتدَّ عليه وغلبه على نفسه.

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 506، 507.

(3) «وجد»: غضب.

(4) «بالانكماش»: بالإسراع.

(5) مؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل.

(6) «أبنى»: قرية من قرى مؤتة بالشام.

(7) سورة الأنفال. الآية 46.

«امض على اسم الله!». فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة بن الحُصَيْب الأسلمي، فخرج به إلى بيت أسامة وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسامة فعسكر بالجُرف، وضرب عسكره في سقاية سليمان اليوم، وجعل الناس يجدون بالخروج إلى العسكر، فيخرج من فرغ من حاجته إلى معسكره، ومن لم يقض حاجته فهو على فراغ، ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا انتدب في تلك الغزوة: عمر بن الخطاب، وأبو عُبَيْدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل؛ في رجال من المهاجرين والأنصار عدة: قتادة بن النعمان، وسَلَمَة بن أسلم بن حريش، فقال رجال من المهاجرين - وكان أشدهم في ذلك قولاً عياش بن أبي ربيعة -: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين! فكثرت القالة في ذلك، فسمع عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - بعض ذلك القول، فردّه على من تكلم به، وجاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول من قال، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضباً شديداً، فخرج وقد عَصَبَ على رأسه عصابة وعليه قطيفة، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: يا أيها الناس! فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة بن زيد؟! والله لئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً، وإن ابنه من بعده لخليقٌ للإمارة، وإن كان كمن أحب الناس إليّ، فإن هذا لمن أحب الناس إليّ، وإنهما لمُخِيلَان<sup>(1)</sup> لكل خير، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم»<sup>(2)</sup>! ثم نزل - صلى الله عليه وسلم - فدخل بيته، وذلك يوم السبت لعشر ليال خلون من ربيع الأول. وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودّعون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «أنفذوا بَعَثَ أسامة»!

(1) «مُخِيلَان لكل خير»: خليلان لكل خير.

(2) جاء في صحيح الإمام البخاري: «... عن سالم، عن أبيه: استعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - أسامة، فقالوا فيه، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «قد بلغني أنكم قُلتُم في أسامة؛ وإنه أحب الناس إليّ». وقال عبد الرحمن السهيلي: «... وإنما طعنوا في إمارته، لأنه مولى مع حداثة سنّه، لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة، وكان - رضي الله عنه - أسود الجلد، وكان أبوه أبيض صافي البياض، ونزع في اللون إلى أمّه: بركة، وهي أم أيمن، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُحبّه ويمسح خَشَمَهُ وهو صغير بثوبه، وعثر يوماً فأصابه جرح في رأسه، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمسح دمه ويمسح به، ويقول: «لو كان أسامة جارية لخليناها، حتى يُرْغَب فيها، وكان يُسمّى الحُبّ من الحُبّ» - الروض الأنف. ج 7 ص 512.

ودخلت أم أيمن، فقالت: أي رسول الله! لو تركت أسامة يُقيم في معسكره حتى تتماثل (للشفاء)، فإن أسامة إن خرج على حالته هذه لم ينتفع بنفسه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أنفذوا بعث أسامة»! فمضى الناس إلى المعسكر فباتوا ليلة الأحد، ونزل أسامة يوم الأحد ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ثقیل مغموم، وهو اليوم الذي لَدَّوهُ<sup>(1)</sup> فيه، فدخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وعيناه تَهْمُلَانِ، وعنده العباس والنساء حوله، فطأطأ عليه أسامة فقبله، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لا يتكلَّم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يصبُّها على أسامة. قال (أسامة): فأعرف أنه كان يدعولي. قال أسامة: فرجعت إلى معسكري. فلما أصبح يوم الإثنين غدا من معسكره، وأصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مُفِيقاً، فجاءه أسامة، فقال (رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -): «اغدُ على بركة الله»! فودَّعه أسامة، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مُفِيقٌ مُرِيحٌ، وجعل نساؤه يتماشطن سروراً براحتة، فدخل أبو بكر - رضي الله عنه! - فقال: يا رسول الله! أصبحت مُفِيقاً بحمد الله! واليوم يوم ابنة خاتجة فائذن لي، فأذن له، فذهب إلى السَّحْجِ<sup>(2)</sup>، وركب أسامة إلى معسكره، وصاح في الناس أصحابه باللُّحوق بالعسكر، فانتهى إلى معسكره ونزل، وأمر الناس بالرحيل وقد مَتَّعَ<sup>(3)</sup> النَّهَارَ، فبينما أسامة يريد أن يركب من الجُرْفِ أتاه رسول أم أيمن - وهي أمه - تخبره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يموت<sup>(4)</sup>، فأقبل أسامة إلى المدينة؛ معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فانتهوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يموت، فتوقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - حين زاغت الشمس يوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول. ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرْفِ المدينة، ودخل بُرَيْدَةُ بن الحُصَيْبِ بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فغرزته عنده. فلما بُويع لأبي بكر - رضي الله عنه! - أمر بُرَيْدَةُ أن يذهب باللَّوَاءِ إلى بيت أسامة وأن لا يحلّه أبداً حتى يغزوهم<sup>(5)</sup> أسامة. قال بُرَيْدَةُ:

(1) «لَدَّوهُ»: أعطوه الدواء.

(2) «السَّحْجُ»: موضع بعوالي المدينة.

(3) «متع»: طال وامتدّ وتعالى.

(4) «يموت»: يُحْتَضَرُ ويصارع الموت.

(5) «يغزوهم»: ضمير الجمع يعود على غير مذكور؛ وهم أهل مؤتة بالشام.

فخرجتُ باللَّواءِ حتى انتهيتُ به إلى بيت أسامة ، ثم خرجتُ به إلى الشام معقوداً مع أسامة ، ثم رجعتُ به إلى بيت أسامة ، فما زال في بيت أسامة حتى توفي أسامة»<sup>(1)</sup> .

### عمر بن الخطاب لا يُصدّق بوفاة رسول الله

قال محمد بن إسحاق : «قال الزُّهريّ: وحدثني سعيد بن المسيّب ، عن أبي هريرة قال : لما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قام عمر بن الخطاب ، فقال : إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد توفي ، وإنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما مات ؛ ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ؛ والله كيرجعنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما رجع موسى ، فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مات»<sup>(2)</sup> .

### أبو بكر الصديق يُسلم بقضاء الله ويعلن وفاة رسول الله

قال محمد بن إسحاق : «قال (أبو هريرة) : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بيت عائشة ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - مُسَجًّى<sup>(3)</sup> في ناحية البيت ، عليه بردٌ حَبْرَةٌ<sup>(4)</sup> ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ! ثم ردّ البرد على وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ! أنصت ، فأبى إلا أن يتكلّم ، فلما رآه أبو بكر لا يُنصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيّها الناس ! إنّ ههنا كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ۚ ﴾

(1) كتاب المغازي . ج 1 ص 1117 - 1121 .

(2) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 549 .

(3) «مسجّى» : مغطى .

(4) «برد حبرة» : ضرب من ثياب اليمن .

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ<sup>(1)</sup> . قال (أبو هريرة) : فوالله لكانَّ النَّاسَ لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ؛ حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها النَّاسَ عن أبي بكر ، فإنَّما هي في أفواههم . فقال أبو هريرة : قال عمر : فوالله ما هي إلَّا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فعُفِّرْتُ<sup>(2)</sup> حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد مات<sup>(3)</sup> .

### حوار مثمر بين المهاجرين والأنصار في شأن الإمارة بسقيفة بني ساعدة

قال محمد بن إسحاق : «ولما قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انحاز هذا الحيّ من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ، واعتزل عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله في بيت فاطمة ، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر ، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل ، فأتى أت إلى أبي بكر وعمر ، فقال : إن هذا الحيّ من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه ؛ فإن كان لكم بأمر النَّاس حاجة فأدركوا النَّاس قبل أن يتفارق أمرهم ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بيته لم يُفْرَغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله . قال عمر : قلت لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء الأنصار حتى ننظر ما هم عليه<sup>(4)</sup> . قال أبو الحسن عليّ بن الأثير : «لما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليباعوا سعد بن عبادة ، فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ، فقال : ما هذا ؟! فقالوا : منّا أمير ومنكم أمير . فقال أبو بكر : منّا الأمراء ، ومنكم الوزراء . ثم قال أبو بكر : قد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين : عمر ، وأبا عبيدة أمين هذه الأمة . فقال عمر : أيكم يطيب نفساً أن يخلف قدمين قدمهما النبي - صلى الله عليه وسلم - فبايعه عمر وبايعه النَّاس . فقالت الأنصار أو بعض الأنصار : لا نُبَاعِ إلَّا عليّاً . وتخلّف عليّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة . وقال الزبير : لا أغمد سيفاً حتى يبايع عليّ . فقال عمر : خذوا سيفه واضربوا به الحجر . ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة - وقال الزهري : بقي عليّ وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة - رضي الله عنها !-

(1) سورة «آل عمران» . الآية 144 .

(2) «عُفِّرْتُ» . بالبناء للمجهول . : فدهشت وتحيّرت .

(3) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف . ج 7 ص 549 .

(4) المصدر السابق . ج 7 ص 551 .



فبايعوه»<sup>(1)</sup>. وفي نهاية الأخذ والردّ بين الأنصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة، اعترف سعد ابن عبادة بحق الإمارة لقريش وصدّق في ذلك أبا بكر الصديق وأقرّ بيعة الناس إياه. روى الإمام أحمد بسنده، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن، قال: توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأبو بكر - رضي الله عنه! - في صائفة من المدينة، فجاء فكشف عن وجهه فقبله، وقال: فذاك أبي وأمّي ما أطيبك حيّاً وميتاً! مات محمّد وربّ الكعبة! قال (الراوي): فانطلق أبو بكر وعمر يتماذان حتى أتياهم، فتكلّم أبو بكر فلم يترك شيئاً أنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من شأنهم إلّا ذكره، وقال: لقد علمتم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: «لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادي الأنصار». ولقد علمت يا سعد! أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: وأنت قاعد - «قريش ولّاة هذا الأمر، فبرّ الناس تبع لبرّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم». فقال سعد: صدقت؛ نحن الوزراء وأنتم الأمراء».

ثمّ تتابع الناس لبيعة أبي بكر بيعة عامّة عن طوعية وطيب نفس، وكفى الله المسلمين شرّ الخلاف بخير الوفاق. قال أبو الحسن عليّ بن الأثير: «فلما كان الغد من بيعة أبي بكر، جلس على المنبر، وبايعه الناس بيعة عامّة، ثمّ تكلّم فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أيّها الناس! قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أخذ له حقّه، والقويّ ضعيف عندي حتى أخذ منه الحقّ؛ إنّ شاء الله تعالى. لا يدع أحد منكم الجهاد؛ فإنّه لا يدعه قوم إلّا ضربهم الله بالذلّ. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»<sup>(2)</sup>. وقد خطب قبل أبي بكر عمر خطبة طويلة النّفس جاء في آخرها: «فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه (أي: أبا بكر) له، وإنّ الله قد جمع أمركم على خيركم: صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ﴿ثَانِي أَتَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ﴾»<sup>(3)</sup>. فقوموا فبايعوه»<sup>(4)</sup>.

(1) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 352 - 331.

(2) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 332 - السيرة النبويّة بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 556 - 558.

(3) سورة «التوبة». الآية 40.

(4) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 332 - السيرة النبويّة بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 556 - 558.

## تجهيز رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ودفنه

لقد شغل المسلمين عن تجهيز رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ودفنه شأن البيعة لمن يخلفه في شؤون أمته بعده . وبمجرد تمهيدها وتوطيدها وتامها بحمد الله وحوله وقوته وتوفيقه ، شرعوا وأسرعوا في تجهيزه ودفنه ؛ عليه الصلاة والسلام ! قال محمد بن إسحاق : « فلما بويع أبو بكر - رضي الله عنه ! - أقبل الناس على جهاز رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - يوم الثلاثاء »<sup>(1)</sup> . وقد تقدم ذكر وفاته يوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول .

### صفة غسله

روى الإمام أحمد وأبو داود ، وأخرج الحاكم وابن حبان . عن عائشة - رضي الله عنها ! - أنها قالت : « لما أرادوا غسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - اختلفوا فيه ، فقالوا : والله ما ندري كيف نصنع ؛ أنجرّد رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - كما أنجرّد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه ؟ قالت : فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السنة<sup>(2)</sup> ، حتى والله ما من القوم من رجل إلا ذقنه في صدره نائماً . قالت : ثم كلمهم مكلّم من ناحية البيت ، لا يدرون من هو ، فقال : اغسلوا النبيّ - صلى الله عليه وسلم ! - وعليه ثيابه . قالت فثاروا إليه فغسلوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وهو في قميصه يُفاض عليه الماء والسدر ، ويدلك الرجال بالقميص . » وفي رواية لابن حبان : فكان الذي أجلسه في حجره عليّ بن أبي طالب . وروى الحاكم ، عن عبد الله بن الحارث قال : « غسل النبيّ - صلى الله عليه وسلم ! - عليّ وعلى يده خرقة ، فغسله وأدخل يده تحت القميص ، فغسله والقميص عليه . » قال محمد بن إسحاق : « فحدثني عبد الله بن أبي بكر وحسين بن عبد الله ، وغيرهما من أصحابنا : أن عليّ بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبد المطلب ، والفضل بن العبّاس ، وقثم بن العبّاس ، وأسماء بن زيد ، وشقران مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - هم الذين ولّوا غسله ، وأنّ أوس بن خوليّ - أحد بني عوف بن الخزرج - قال لعليّ بن أبي طالب : أنشدك الله يا عليّ ! وحظنا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وكان أوس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وأهل بدر - قال : ادخل ، فدخل فجلس ، وحضر غسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! -

(1) الكامل في التاريخ ، ج2 ، ص332 . السيرة النبوية ، ج7 ، ص556-558 .

(2) « السنة » : ما يتقدّم النوم من الفتور المسمّى بالنعاس .

فأسنده عليّ بن أبي طالب إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه، وكان أسامة ابن زيد وشقران مولاه، هما اللذان يصبّان الماء عليه، وعليّ يُغسله، وقد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلّكه به من ورائه، لا يُفضي بيده إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وعليّ يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيّاً وميتاً! ولم يُر من رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - شيء ممّا يُرى من الميت»<sup>(1)</sup>!!

### صفة كفنه

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ: «حدثنا مالك بن أنس عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: كُفّن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة<sup>(2)</sup> ليس فيها قميص ولا عمامة»<sup>(3)</sup>. وكذا رواه البخاريّ، عن إسماعيل بن إدريس، عن مالك بن أنس، وجُلّ الروايات الصحيحة متّقة على ذلك. ورَوَى الجماعة - واللفظ لمسلم -: «عن عائشة، قالت: كُفّن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة جُدّد يمانِيَّة، وليس فيها قميص ولا عمامة، أُدرَجَ فيها إدراجاً».

### صفة الصلاة عليه ومكان دفنه

أخرج ابن سعد والحاكم والبيهقي والطبراني في الأوسط، عن ابن مسعود، قال: «لَمَّا ثَقُلَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قلنا: مَنْ يُغسلُك يا رسول الله؟ قال: «رجال من أهل بيتي: الأَدْنَى فالأَدْنَى مع ملائكة كثيرة، يرونكم من حيث لا ترونهم». قلنا: مَنْ يُصَلِّي عليك؟ قال: «إِذَا غَسَلْتُمُونِي وَحَنَطْتُمُونِي وَكَفَنْتُمُونِي؟ فضعوني على سريري هذا؛ على شفير قبري، ثمّ أخرجوا عني ساعة؛ فإنّ أوّل مَنْ يُصَلِّي عليّ جبريل ثمّ ميكايل ثمّ إسرافيل ثمّ ملك الموت مع جنود من الملائكة، ثمّ ليُصلّ عليّ أهل بيتي، ثمّ ادخلوا عليّ أفواجاً وفرادى». قلنا: فمن يدخل قبرك؟ قال: أهلي مع ملائكة كثيرين؛ يرونكم من حيث لا ترونهم». قال البيهقيّ: تفرّد به (أي: بهذا الحديث) سلام الطويل، عن عبد الملك بن عبيد الرحمن. وتعبّه ابن حجر في «المطالب العالية»: بأن ابن منيع أخرجه من طريق مسلمة بن صالح، بن عبد الملك به، فهذه

(1) السيرة النبوية بشرح الرّوض الأنف. ج 7 ص 558.

(2) «سَحُولِيَّة»: نسبة إلى سحول قرية باليمن.

(3) ولا ينفي هذا بقاء قميصه الذي كان عليه حين وفاته ولم ينزع عنه عند تغسيله.

متابعة لسلام الطويل»<sup>(1)</sup>. قال محمد بن إسحاق: «فلما فُريغ من جهاز رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- يوم الثلاثاء وُضع على سريرته في بيته، وقد كان المسلمون يختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- يقول: «مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ». فَرُفِعَ فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- الذي توفي عليه، فحُفِرَ له تحتُه، ثم دخل النَّاسُ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- يُصَلُّونَ عليه أرسالاً؛ دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أُدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أُدخل الصِّبيان، ولم يؤمَّ النَّاسُ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- أحد. ثم دُفِنَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وسط الليل ليلة الأربعاء. عن عائشة - رضي الله عنها!- قالت: ما علمنا بدفن رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- حتى سمعنا أصوات المساحي من جوف اللَّيْلِ من ليلة الأربعاء. وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم!-: عليّ بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- وقد قال أوس بن حوْلِيٍّ لعليّ بن أبي طالب: يا عليّ! أَتَشُدُّكَ الله وَحَظَّنَا مِنْ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- فقال له: انزل، فنزل مع القوم، وقد كان مولاه شقران - حين وُضِعَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- في حفرته وبُني عليه - قد أخذ قطيفة قد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً»<sup>(2)</sup>.

### افتتان بعض المسلمين بعد موت رسول الله - عليه الصلاة والسلام! -

قال محمد بن إسحاق: «ولما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة - فيما بلغني - تقول: لما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- ارتدت العرب، وشرأت اليهودية والنصرانية، ونَجَمَ<sup>(3)</sup> النفاق، وصار المسلمون

(1) السيوطي، عبد الرحمن. الخصائص الكبرى. تحقيق محمد خليل هراس. القاهرة. مطبعة المدني. ج 3 ص 394، 395.

(2) رواه الترمذي، عن أبي بكر. ونصه: «مَا قُبِضَ الله نَبِيًّا إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ». وهذا حديث غريب.

السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 560.

(3) «نجم»: ظهر جلياً.

كالغنم المطيرة في اللَّيلة الشاتية، لفقدهم نبيّهم - صلى الله عليه وسلم! - حتى جمعهم الله على أبي بكر»<sup>(1)</sup>. وقال عبد الملك بن هشام: «حدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم: أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - همّوا بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أُسَيْد، فتواری، فقام سُهَيْل بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوّة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفّوا عما همّوا به، وظهر عتاب بن أُسَيْد. فهذا المقام الذي أراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في قوله لعمر بن الخطّاب: «إنّه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمّه»<sup>(2)</sup>.

### ملحوظة هامّة

قال عبد الرحمن السُّهيليّ: «واتفقوا أنّه - صلى الله عليه وسلم! - تُوفّي يوم الإثنين؛ إلا شيئاً ذكره ابن قُتَيْبَة في «المعارف»: الأربعاء، قالوا كلّهم: وفي ربيع الأوّل؛ غير أنّهم قالوا، أو قال أكثرهم: في الثاني عشر من ربيع، ولا يصحّ أن يكون توفيّ - صلى الله عليه وسلم! - إلا في الثاني عشر من الشهر أو الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر، لإجماع المسلمين على أنّ وقفة عرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة؛ وهو التاسع من ذي الحجة، فدخل ذو الحجة يوم الخميس، فكان المحرم إمّا الجمعة، وإمّا السبت، فإن كان الجمعة فقد كان صفر إمّا السبت وإمّا الأحد، فإن كان السبت، فقد كان ربيع الأحد أو الإثنين، وكيف دارت الحال على هذا الحساب، فلم يكن الثاني عشر من ربيع يوم الإثنين بوجه، ولا الأربعاء أيضاً؛ كما قال القُتَيْبِيّ. وذكر الطُّبريّ عن ابن الكلبيّ وأبي مخنف: أنّه توفيّ في الثاني من ربيع الأوّل<sup>(3)</sup>، وهذا القول، وإن كان خلاف أهل الجمهور، فإنّه لا يبعد أن كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلّها من تسعة وعشرين، فتدبره، فإنّه صحيح، ولم أر أحداً تفطن له! وقد رأيت للخوارزمي: أنّه توفيّ - عليه السلام! - في أوّل يوم من ربيع الأوّل، وهذا أقرب في القياس بما ذكره الطبريّ عن ابن الكلبيّ وأبي مخنف»<sup>(4)</sup>.

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 562.

(2) المصدر السابق.

(3) وقد صححه ابن حزم وغيره.

(4) الروض الأنف. ج 7 ص 578، 579.

## ما حلّ بالمسلمين بعد وفاة رسول الله - عليه الصلاة والسلام!-

قال عبد الرحمن السَّهيليّ: «وكان موته - عليه الصلاة والسلام!- خَطْباً كالحأ، ورُزْءاً لأهل الإسلام فادحاً، كادت تهدّ له الجبال، وترجف الأرض، وتكسف النِّيرَات، لانقطاع خبر السَّماء، وفقد مَنْ لا عَوْضَ منه، مع ما أذن به موته - عليه الصلاة والسلام!- من الفتن السُّحْم، والحوادث الوُهم، والكُرب المدلهمة، والهزاهن المضلعة، فلولا ما أنزل الله تبارك وتعالى من السَّكينة على المؤمنين، وأسرج في قلوبهم من نور اليقين، وشرح له صدورهم من فهم كتابه المبين، لانقصمت الظهور، وضاعت عن الكُرب الصدور، ولعاقهم الجزع عن تدبير الأمور؛ فقد كان الشيطان أطلع إليهم رأسه، ومدّ إلى إغوائهم مطامعه، فأوقد نار الشنآن، ونصب راية الخلاف؛ ولكن أبى الله تبارك وتعالى إلا أن يَتِمَّ نوره، ويُعْلي كلمته، ويُنجز موعوده، فأطفأ نار الرِّدة، وحسم قادة الخلاف والفتنة على يد الصّدِّيق - رضي الله عنه!- ولذلك قال أبو هريرة: لولا أبكر لهلكت أمة محمد - عليه الصلاة والسلام!- بعد نبّيها - ولقد كان مَنْ قدم المدينة يومئذ من الناس إذا أشرفوا عليها سمعوا لأهلها ضجيجاً، وللبيكاء في جميع أرجائها عجيجاً، حتى صحت الحلو، ونُزفت الدَّموع، وحقّ لهم ذلك ولن بعدهم»<sup>(1)</sup>.

### قصة أبي ذؤيب الهذليّ

قال أبو ذؤيب خُوَيْلِد بن خالد الهذليّ: «بلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم!- عليل، فاستشعرتُ حزناً وبُتُّ بأطول ليلة لا ينجاب دِيَجورها، ولا يطلع نورها، فظلتُ أفاصي طولها، حتى إذا كان قَرَبُ السَّحَرِ أغفيتُ، فهتف بي هاتف وهو يقول:

خَطْبٌ أَجَلٌ أَنَاخَ بِالإِسْلَامِ      يَبْنِ النَّخِيلَ وَمَعْقَدَ الْأَطَامِ  
قُبْضُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ فَعِوُنُنَا      تُذْري الدَّمُوعَ عَلَيْهِ بِالتَّسْجَامِ

فوثبتُ من نومي فرعاً، فنظرتُ إلى السماء، فلم أَرِ إلا سَعْدَ الذَّابِح، ففءلتُ به ذبحاً يقع في العرب، وعلمتُ أن النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم!- قد قُبْضَ، وهو ميّت من علته، فركبتُ ناقتي وسرت، فلما أصبحتُ طلبتُ شيئاً أزر به، فعنّ لي شَيْهَم - يعني:

(1) المصدر السابق. ج 7 ص 590، 591.

الْقُنْفُذ - قد قبض على صلٍّ - يعني: الحية - فهي تلتوي عليه، والشَّيْهَم يَقْضُمُهَا حتى أكلها، فزجرتُ ذلك وقلت: شيهم شيء مهم، والتواء الصلِّ التواء الناس عن الحقّ على القائم بعد النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - ثمّ أكلُ الشيهم إيّاها غلبة القائم بعده على الأمر، فحثتُ ناقتي حتى إذا كنت بالغابة<sup>(1)</sup> زجرت الطائر، فأخبرني بوفاته، ونَعَبَ غُرَاب سانح فنطق مثل ذلك فتعوّذتُ بالله من شرِّ ما عن لي في طريقي، وقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج، إذا أهلّوا بالإحرام، فقلتُ: مه؟ فقالوا: قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فجئتُ المسجد فوجدته خالياً، فأتيتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأصبتُ بابه مُرتجاً، وقيل: هو مسجى قد خلا به أهله، فقلتُ: أين الناس؟ فقيل: في سقيفة بني ساعدة، ساروا إلى الأنصار، فجئتُ إلى السقيفة فأصبتُ أبا بكر وعمر وأبا عبيد بن الجراح وسالمًا وجماعة من قريش، ورأيتُ الأنصار؛ فيهم سعد بن عبادة، وفيهم شعراءهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وملاً منهم، فأويتُ إلى قريش، وتكلّمت الأنصار فأطالوا الخطاب وأكثروا الصواب، وتكلّم أبو بكر - رضي الله عنه! - فلله دَرُهُ من رجل لا يُطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخطاب، والله لقد تكلّم بكلام لا يسمعه سامع إلاّ انقاده، ومال إليه، ثم تكلّم عمر - رضي الله عنه! - بعده دون كلامه، ومدّ يده فبايعه، وبايعوه، ورجع أبو بكر، ورجعتُ معه، فشهدتُ الصلاة على محمّد - صلى الله عليه وسلم! - وشهدتُ دفنه. ثم أنشد أبو ذؤيب يكي النبي - صلى الله عليه وسلم! -:

لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ فِي عَسَلَانِهِمْ	مِنْ بَيْنِ مَلْحُودٍ لَهُ وَمُضَرِّحٍ
مُتَبَادِرِينَ لَشَرْجَعٍ بِأَكْفُفِهِمْ	نَصَّ الرِّقَابَ لِفَقْدِ أَبْيَضِ أَرْوَحٍ
فَهُنَاكَ صِرْتُ إِلَى الْهُمُومِ، وَمَنْ يَبْتَ	جَارَ الْهُمُومِ يَبْتَ غَيْرَ مُرَوِّحٍ
كَسَفَتْ لِمَصْرَعِهِ النُّجُومُ وَيَدْرُهَا	وَتَزَحْزَحَتْ أَطَامُ بَطْنِ الْأَنْطَحِ
وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلُّهَا	وَنَخِيلُهَا لِحُلُولِ خُطْبِ مُفْذَحِ
وَلَقَدْ زَجَرْتُ الطَّيْرَ قَبْلَ وَقَاتِهِ	بِمُصَابِهِ وَزَجَرْتُ سَعْدَ الْأَذْبَحِ <sup>(2)</sup>

(1) مكان قرب المدينة.

(2) المصدر السابق ج 7 ص 593، 594.

رثاء فاطمة . رضي الله عنها ! لأبيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

قال عبد الرحمن السُّهيلي : «ولما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ودُفِنَ ورجع

المهاجرون والأنصار إلى رحالهم ، ورجعت فاطمة إلى بيتها ، اجتمع إليها نساؤها ، فقالت :

اغْبِرْ أَفَاقَ السَّمَاءِ وَكُورَتِ	شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ
فَالْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَثِيَّةٌ	أَسْفَا عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرَّجَفَانِ
فَلَيْتَكَ شَرَقَ الْبِلَادَ وَغَرُبَهَا	وَلَيْتَكَ مَضَرَ وَكُلَّ يَمَانِ
وَلَيْتَكَ الطَّوْدَ الْمُعْظَمَ جَوَّهُ	وَالنَّبْتَ ذُو الْأَسْتَارِ وَالْأَرْكَانِ
يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ الْمُبَارَكُ ضَوْؤُهُ	صَلَّى عَلَيْكَ مُنْزِلُ الْقُرْآنِ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ مَا لِرَأْسِكَ مَائِلًا	مَا وَسَدُوكَ وَسَادَةُ الْوَسْتَانِ <sup>(1)</sup>

رثاء أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يبكي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !-

أَرْقُتْ فَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ	وَلَيْلُ أَخِي الْمُصِيبَةِ فِيهِ طُولُ
وَأَسْعَدَنِي الْبُكَاءُ وَذَاكَ فِيمَا	أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ
لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وَجَلَّتْ	عَشِيَّةٌ قِيلَ : قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ
وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا	تَكَادُ بَنَاتُ جَوَانِبِهَا تَمِيلُ
فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَ فِينَا	يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جَبْرَائِيلُ
وَذَلِكَ حَقٌّ مَا سَأَلْتُ عَلَيْهِ	نُفُوسُ النَّاسِ أَوْ كَرَبَتْ تَسِيلُ
نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا	بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا يَقُولُ
وَيَهْدِينَا فَلَا نَخْشَى ضَلَالًا	عَلَيْنَا وَالرَّسُولُ لَنَا دَلِيلُ
أَفَاطِمُ إِنْ جَزَعْتَ فَذَاكَ عُذْرُ	وَأِنْ لَمْ تَجْزَعِي ، ذَاكَ السَّبِيلُ
فَقَبْرُ أَبِيكَ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرِ	وَفِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ <sup>(2)</sup>

(1) المصدر السابق . ج 7 ص 593 ، 594 .

(2) المصدر السابق .



## رثاء حسان بن ثابت يبكي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ومن أجل وأعظم قصائد حسان في رثاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما رواه عبد

الملك بن هشام عن أبي زيد الأنصاري . قال حسان - رضي الله عنه ! - :

بَطِيَّةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ  
وَلَا تَمَحِّي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ  
وَوَاضِحُ أَثَارِ وَبَاقِي مَعَالِمِ  
بِهَا حُجَرَاتٌ كَانَتْ يَنْزِلُ وَسُطْحُهَا  
مَعَارِفُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيُهَا  
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدُهُ  
ظَلَّلْتُ بِهَا أَبْكَي الرَّسُولَ فَأَسْعَدْتُ  
تَذَكُّرُ آلَاءِ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى  
مُفْجَعَةً قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ  
وَمَا بَلَغْتُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَشِيرَهُ (1)  
أَطَالَتْ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جَهْدَهَا  
فَبُورَكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورَكْتَ  
وَبُورَكَ لِحَدِّ مِنْكَ ضُمْنٍ طَيِّبًا  
تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبُ أَيْدٍ وَأَعْيُنُ  
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً  
وَرَاخُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ  
يُبْكُونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَوَاتُ يَوْمَهُ  
وَهَلْ عَدَلْتُ يَوْمًا رَزِيَّةً هَالِكًا

مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومَ وَتَهْمِدُ  
بِهَا مُنْبِرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ  
وَرَبَّعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ  
مَنْ لَللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ  
أَتَاهَا الْبَلَى فَالْآيُ مِنْهَا تَجَدَّدُ  
وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ (1)  
عِيُونٌ وَمَثَلَاهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعَدُ  
لَهَا مُحْضِيًا نَفْسِي فَنَفْسِي تَبْلَدُ  
فَظَلَّلْتُ لَأَلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدُّ  
وَلَكِنْ لِنَفْسِي بَعْدُ مَا قَدْ تَوَجَّدُ  
عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ  
بِلَادُ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ  
عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَّدُ  
عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ (3)  
عَشِيَّةً عَلَّوهُ الثَّرَى لَا يُوسَدُ  
وَقَدْ وَهَنْتُ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ  
وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ  
زُرِّيَّةً يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ

(1) «ملحد» : الذي يضع الميت في لحده ؛ من الحد أي : أقبر .

(2) «عشيرة» : عشيرة .

(3) «أسعد» : جمع سعد .

تَقْطَعَ فِيهِ مَنَزِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ  
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ  
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا  
عَفْوًا عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ  
وَإِنْ نَابَ أَمْرُكُمْ يَقُومُوا بِحَمْلِهِ  
فَبَيْنَاهُمْ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ  
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهُدَى  
فَبَيْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا  
فَأَصْبَحَ مُحَمَّدًا إِلَى اللَّهِ رَاجِعًا  
وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرَمِ وَحُشَا بَقَاعُهَا  
قِفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ صَافَهَا  
وَمَسْجِدُهُ فَالْمُوحِشَاتُ لَفَقَدَهُ  
وَبِالْجُمُرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثُمَّ أَوْحِشَتْ  
فَبَكِّي رَسُولُ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةٍ  
وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النُّعْمَةِ الَّتِي  
فَجُودِي عَلَيْهِ بِالْذُّمِّ وَأَعُولِي  
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ  
أَعَفَّ وَأَوْقَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ  
وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدَ  
وَأَكْرَمَ صَيْتًا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى  
وَأَمْنَعَ ذُرُواتِ وَأَثْبَتَ فِي الْعُلَا  
وَأَثْبَتَ قُرْعًا فِي الْفُرُوعِ وَمَنْبَتًا  
رَبَّاهُ وَلَيْدًا فَاسْتَمَّتْ تَمَامُهُ

وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ<sup>(1)</sup> وَيُنْجِدُ  
وَيُنْقِذُ مَنْ هَوَلَ الْحَزَابَا وَيُرْشِدُ  
مُعَلِّمٌ صَدَقَ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا  
وَإِنْ يُحْسِنُوا قَالَهُ بِالْخَيْرِ أَجُودُ  
فَمَنْ عِنْدَهُ تَيْسِيرٌ مَا يَتَشَدَّدُ  
دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصِدُ  
حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا  
إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدُ  
يُبَكِّيهِ جَفْنَ الْمُرْسَلَاتِ<sup>(2)</sup> وَيَحْمَدُ  
لَغِيَّةٍ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعْهَدُ  
فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بِلَاطٌ وَعَرْقُودُ  
خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ  
دِيَارٌ وَعَرْصَاتٌ وَرَبْعٌ وَمَوْلِدُ  
وَلَا أَعْرِفُكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمُدُ  
عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ  
لَفَقْدَ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ  
وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ  
وَأَقْرَبَ مِنْهُ تَائِلًا لَا يَنْكَدُ  
إِذَا ضَنَّ مَعْطَاءُ بَمَا كَانَ يَتَلَدُ  
وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوِّدُ  
دَعَائِمَ عَزْ شَاهِقَاتِ تُشَيِّدُ  
وَعُودًا غَدَاهُ الْمُزْنَ فَالْعُودُ أُغِيدُ  
عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبُّ مُمَجِّدُ

(1) «يغور وينجد»: الغور؛ وهي تهامة وما يلي اليمن، وينجد يأتي نجداً.

(2) «المرسلات»: الملائكة.

تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ  
أَقُولُ وَلَا يُلْغَى لِقَوْلِي عَائِبٌ  
وَلَيْسَ هَوَايَ نَازِعاً عَنْ ثَنَائِهِ  
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جَوَارَهُ

وقال أيضاً في رواية محمد بن إسحاق :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا  
جَزَعاً عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِيّاً  
وَجْهِي يَقِيكَ التُّرْبُ لَهْفِي لَيْتَنِي  
بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ  
فَظَلَلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّداً  
أَأَقِيمُ بَعْدَكَ بِالْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ  
أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللَّهِ فِينَا عَاجِلاً  
فَتَقُومَ سَاعَتُنَا فَنَلْقَى طِيّاً  
يَا بَكْرَ أَمَنَةِ الْمُبَارَكِ بِكُرْهَا  
نُوراً أَضَاءَ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا  
يَا رَبُّ فَاجْمَعْنَا مَعاً وَنَبِينَا  
فِي جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ فَاكْتُبْهَا لَنَا  
وَاللَّهِ أَسْمَعُ مَا بَقِيَتْ بِهِالِكَ  
يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ  
ضَاقَتْ بِالْأَنْصَارِ الْبِلَادُ فَأَصْبَحُوا  
وَلَقَدْ وَلَدَتْهُ وَفِينَا قَبْرُهُ  
وَاللَّهِ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ  
صَلَّى إِلَهِهُ وَمَنْ يَحْفَ بَعْرُشَهُ

فَلَا الْعِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلَا الرَّأْيُ يُقْنَدُ  
مَنْ النَّاسُ إِلَّا عَازَبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ  
لَعْلِي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلَدُ  
وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ<sup>(1)</sup>

كُحِلَتْ مَا قِيَهَا بِكُحْلِ الْأَرَمَدِ  
يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعَدُ  
غِيَّتْ قُبْلَكَ فِي بَقِيعِ الْعُرْقَدِ  
فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ النَّبِيُّ الْمَهْتَدِي  
مُتَلَدِّداً يَا لَيْتَنِي لَمْ أُولَدْ  
يَا لَيْتَنِي صَبَّحْتَ سُمَّ الْأَسْوَدِ  
فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ مِنْ غَدِ  
مَحْضاً ضَرَائِبُهُ كَرِيمِ الْمُحْتَدِ  
وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةً بِسَعْدِ الْأَسْعَدِ  
مَنْ يُهْدِ لِلنُّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِي  
فِي جَنَّةِ تَشْيِ عِيُونَ الْحُسَّادِ  
يَا ذَا الْجَلَالِ وَذَا الْعُلَا وَالسُّودِ  
إِلَّا بِكَيْتِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ  
بَعْدَ الْمُغَيَّبِ فِي سَوَاءِ الْمُلْحَدِ  
سُوداً وَجُوهُهُمْ كُلُّونِ الْإِثْمَدِ  
وَقُضُولِ نِعْمَتِهِ بِنَا لَمْ نَجْحَدِ  
أَنْصَارُهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَشْهَدِ  
وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف. ج 7 ص 566.

وقال كذلك - فيما رواه محمد بن إسحاق - :

نَبِّ الْمَسَاكِينَ أَنَّ الْخَيْرَ قَارَقَهُمْ  
مَنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي وَرَاحِلَتِي  
أَمْ مَنْ نُعَاتِبُ لَا نَخْشَى جَنَادَعَهُ  
كَانَ الضِّيَاءُ وَكَانَ النُّورَ تَتَّبِعُهُ  
فَلَيْتَنِي يَوْمَ وَارَوْهُ بِمَلْحَدِهِ  
لَمْ يَتْرُكِ اللَّهَ مَنَا بَعْدَهُ أَحَدًا  
ذَلَّتْ رِقَابُ بَنِي النَّجَّارِ كُلُّهُمْ  
وَأَقْتَسَمَ الْفَيءُ دُونَ النَّاسِ كُلُّهُمْ

مَعَ النَّبِيِّ تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحْرًا  
وَرَزَقُ أَهْلِي إِذَا لَمْ يُؤْنَسُوا الْمَطَرَا  
إِذَا اللَّسَانُ عَتَا فِي الْقَوْلِ أَوْ عَثَرَا  
بَعْدَ إِلَهِهِ وَكَانَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ  
وَعَيَّوَهُ وَالْقَوَا فَوْقَهُ الْمَدْرَا  
وَلَمْ يُعِشْ بَعْدَهُ أَثْنَى وَلَا ذَكَرَا  
وَكَانَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قَدْ قُدِّرَا  
وَبَدَّدُوهُ جَهَارًا بَيْنَهُمْ هَدْرًا<sup>(1)</sup>

وقال - رضي الله عنه ! فيما رواه محمد بن إسحاق أيضاً - :

أَلَيْتُ مَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ مُجْتَهَدًا  
تَاللَّهِ مَا حَمَلْتُ أَثْنَى وَلَا وَضَعْتُ  
وَلَا بَرَا اللَّهَ خُلُقًا مِنْ بَرِّيَّةِ  
مَنْ الَّذِي كَانَ فِينَا يُسْتَضَاءُ بِهِ  
أَمْسَى نَسَاؤُكَ عَطَلَنَ الْبُيُوتَ فَمَا  
مِثْلَ الرُّوَاهِبِ يَلْبَسُنَ الْمَبَازِلَ قَدْ  
يَا أَفْضَلَ النَّاسِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهْرٍ

مَنْيَ أَلِيَّةَ بَرٍّ غَيْرِ إِفْنَادٍ  
مِثْلَ الرَّسُولِ نَبِيِّ الْأُمَّةِ الْهَادِي  
أَوْفَى بِذِمَّةِ جَارٍ أَوْ بِمِيعَادٍ  
مُبَارَكِ الْأَمْرِ دَا عَدْلٍ وَإِرْشَادٍ  
يَضْرِبُنَ فَوْقَ قَفَا سِتْرٍ بَأْوِتَادٍ  
أَيَقِنَ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النُّعْمَةِ الْبَادِي  
أَصَبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ الْمُفْرَدِ الصَّادِي<sup>(2)</sup>

### استخراج العبر

العبرة الأولى : في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المُنذرة بوفاة رسول الله - صلى

الله عليه وسلم !- قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ ﴾

(1) المصدر السابق . ج 7 ص 567 .

(2) المصدر السابق . ج 7 ص 567 .

الشَّكْرِينَ»<sup>(1)</sup>. وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَا بَقَّةٍ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ الْغُرُورِ»<sup>(2)</sup>. وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾<sup>(3)</sup> ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَا بَقَّةٍ الْمَوْتِ وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>(4)</sup>. وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِثْمٌ مَيِّتُونَ﴾<sup>(5)</sup> ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾<sup>(6)</sup>. وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾<sup>(7)</sup>. رُوي عن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس - رضي الله عنهما! - أنهما قالا في تفسير هذه الآية: هو أجلُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - نُعيَ إليه. وقال عبدالله بن عمر: نزلت هذه الآية أوسط أيام التشريق في حجة الوداع، فعرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أنه الوداع، فخطب الناس خطبة الوداع؛ أمرهم فيها ونهاهم. وقال جابر بن عبدالله: رأيتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يرمي الجمار، فوقف وقال: «لتأخذوا عني مناسككم فلعلِّي لأحجَّ بعد عامي هذا»! وقال لابنته فاطمة: إن جبريل كان يُعارضني بالقرآن في كلِّ سنة مرةً، وإنه عارضني به العام مرتين، وما أدري ذلك إلا اقتراب أجلي! وجاء في صحيح الإمام البخاري: «عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يعتكف في كلِّ شهر رمضان عشرة أيام؛ فلما كان العام الذي توفي فيه اعتكف عشرين يوماً، وكان يُعرض عليه القرآن في كلِّ رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عُرض عليه القرآن مرتين». ومن علامات الإحساس بقرب أجله أنه كان يكثر من زيارة المقابر ومن الدعاء لمن بها من الأموات!

**العبرة الثانية:** جاء في صحيح الإمام البخاري: «وقال يونس: عن الزُّهري قال عروة:

قالت عائشة - رضي الله عنها! -: كان النبي - صلى الله عليه وسلم! - يقول في مرضه الذي مات

(1) سورة «آل عمران». الآية 144.

(2) سورة «آل عمران». الآية 185.

(3) سورة «الأنبياء». الآية 34، 35.

(4) سورة «العنكبوت». الآية 57.

(5) سورة «الزمر». الآية 30، 31.

(6) سورة «النصر». الآية 1، 2، 3.

فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخير<sup>(1)</sup>، فهذا أوانٌ وجدتُ انقطاعَ أبْهَرِي<sup>(2)</sup> من ذلك السَّم».

**العبرة الثالثة:** جاء في المصدر السابق: «... عن ابن شهاب أخبرني عُروة أن عائشة - رضي الله عنها! - أخبرته أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كان إذا اشتكى نَفَثَ على نفسه بالعوذات<sup>(3)</sup> ومسح عنه يديه، فلما اشتكى وجَّعه الذي توقِّي فيه طَفَقَتْ أنْفَثَ على نفسه بالعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - عنه».

**العبرة الرابعة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن عبّاد بن عبد الله بن الزبير أن عائشة أخبرته أنها سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم! - وأصغت إليه قبل أن يموت، وهو مُسْنَدٌ إلى ظهره، يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحِقْني بالرفيق»<sup>(4)</sup>.

**العبرة الخامسة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن عبّيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما! - قال: لما حَضَرَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وفي البيت رجال، فقال النبيّ - صلى الله عليه وسلم! -: «هلمّوا أكتبْ لكم كتاباً لا تضلّوا بعده»، فقال بعضهم: إنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا؛ فمنهم من يقول: قُرِّبوا يكتبْ لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، ومنهم من يقول: غير ذلك. فلما أكثروا اللَّغْوَ والاختلاف، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «قوموا». قال عبّيد الله: «فكان يقول ابن عباس: إنّ الرّزِيّة كلّ الرّزِيّة ما حال بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لا اختلافهم ولَعَطْهم». وعن سعيد بن جبْرِ: قال قال ابن عباس: وأوصاهم بثلاث، قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنتُ أُجيزهم»، وسكت (ابن عباس) عن الثالثة أو قال:

---

(1) تقدم لنا أن تحدّثنا عن هذا الموضوع بما فيه كفاية في غزوة خيبر.

(2) «الأبهر»: هو عرق مُسْتَبْطِن بالصَّلْب متّصل بالقلب، ثمّ تشعّب منه سائر الشرايين إذا انقطع مات صاحبه.

(3) «بالعوذات»: المراد بذلك سورة «الفلق» وسورة «النّاس» مع سورة «الإخلاص» وجمعت جمع مؤنث السالم على وجه التغليب.

(4) «بالرفيق»: اسم جيش يشمل الواحد فما فوقه، والمراد بذلك ما جاء في الآية الثامنة والسّتين من سورة «النساء» وهو قوله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

فنسيئتها». قال أبو العباس أحمد بن حجر العسقلاني: «قال الدّاودي: الثالثة الوصيّة بالقرآن، وبه جزم ابن التّين»، وقال المهلب: بل هو تجهيز جيش أسامة، وقواه ابن بطّال بأنّ الصحابة لما اختلفوا على أبي بكر في تنفيذ جيش أسامة، قال لهم أبو بكر: إنّ النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - عهد ذلك عند موته. وقال عياض: يحتمل أن تكون هي قوله: «ولا تتخذوا قبوري وثناً»، فإنّها ثبتت في «الموطأ» مقرونة بالأمر بإخراج اليهود. ويحتمل أن تكون ما وقع في حديث أنس: أنّها الصّلاة وما ملكت أيمانكم».

**العبرة السادسة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن عروة، عن عائشة - رضي الله عنها! - قالت: دعا النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فاطمة عليها السّلام! - في شكواه الذي قبض فيه، فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فسألنا عن ذلك؟ فقالت: سارني النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - أنّه يقبض في وجعه الذي توقي فيه فبكت، ثم سارني فأخبرني: أنّي أوّل أهله يتبعه فضحكت».

**العبرة الخامسة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن سعد، عن عروة، عن عائشة، قالت: كنت أسمع: أنّه لا يموت نبيّ حتى يُخَيَّر بين الدّنيا والآخرة، فسمعتُ النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - يقول في مرضه الذي مات فيه وأخذته بحة؛ يقول: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية<sup>(1)</sup>... فظننت أنّه خير».

**العبرة السادسة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن الزّهريّ أخبرني عروة بن الزبير، أنّ عائشة - رضي الله عنها! - قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو صحيح يقول: «إنّه لم يقبض نبيّ قطّ حتى يرى مقعده من الجنّة، ثمّ يُحَيّا أو يُخَيّر». فلمّا اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلمّا أفاق شخصّ بصره نحو سقف البيت، ثم قال: «اللهم في الرفيق الأعلى»<sup>(2)</sup>، فقلت: إذن لا يجاورنا فعرفت أنّه حديثه الذي كان يُحدّثنا، وهو صحيح».

**العبرة السابعة:** وجاء في المصدر نفسه: «عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها! - دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وأنا

(1) سورة «النساء». الآية 69.

(2) «الرفيق الأعلى»: مكان المرافقة، وهو الجنّة.

مُسْنَدُهُ إِلَى صَدْرِي وَمَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكَ رَطْبٌ يَسْتَنْ<sup>(١)</sup> بِهِ ، فَأَبَدَهُ<sup>(٢)</sup> رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- بَصْرَهُ ، فَأَخَذَتْ السِّوَاكَ فَقَضَمَتْهُ<sup>(٣)</sup> وَنَفَضَتْهُ وَطَيَّبَتْهُ<sup>(٤)</sup> ، ثُمَّ دَفَعَتْهُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- فَاسْتَنْ<sup>(٥)</sup> بِهِ ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- اسْتَنْ اسْتِنَانًا قَطَّ أَحْسَنَ مِنْهُ ، فَمَا عَدَا أَنْ فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ : «فِي الرِّفِيقِ الْأَعْلَى» : ثَلَاثًا ، ثُمَّ قَضَى<sup>(٦)</sup> . وَكَانَتْ تَقُولُ : مَاتَ وَرَأْسُهُ بَيْنَ حَاقَتَيْ<sup>(٧)</sup> وَذَاقَتَيْ<sup>(٧)</sup> .

**العبرة الثامنة :** وجاء في المصدر نفسه : « . . . عن هلال الوزان عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضي الله عنها !- قالت : قال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- في مرضه الذي لم يقم منه : «لعن الله اليهود ! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . قالت عائشة : لولا ذلك لأُبْرِزَ قبرُهُ ، خَشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا » .

**العبرة التاسعة :** وجاء في المصدر نفسه « . . . عن ابن شهاب : أخبرني عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- قَالَتْ : لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ ، اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرِّضَ فِي بَيْتِي ، فَأَذِنَ لَهُ ، فَخَرَجَ وَهُوَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ تَخَطَّ رَجُلَاهُ فِي الْأَرْضِ ؛ بَيْنَ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ<sup>(٨)</sup> وَبَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ . قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ : فَأَخْبَرْتُ عَبْدَ اللَّهِ بِالَّذِي قَالَتْ عَائِشَةُ ، فَقَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ : هَلْ تَدْرِي مَنْ الرَّجُلُ الْآخَرُ الَّذِي لَمْ تُسَمِّ عَائِشَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : لَا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ . وَكَانَتْ عَائِشَةُ زَوْجَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- تُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !- لَمَّا دَخَلَ بَيْتِي وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ ، قَالَ : «هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قَرَبٍ<sup>(٩)</sup> لَمْ تُحَلَّلْ أَوْ كَيْتِهِنَّ<sup>(١٠)</sup>» ، لَعَلِّي

(١) «سَتَنْ» : يَسْتَاكَ .

(٢) «فَأَبَدَهُ» : مَدَّ نَظْرَهُ إِلَيْهِ .

(٣) «فَقَضَمَتْهُ» : مَضَغَتْهُ .

(٤) «طَيَّبَتْهُ» : لَبَّنَتْهُ .

(٥) «فَاسْتَنْ» : فَاسْتَاكَ .

(٦) «قَضَى» : فَارَقَ الْحَيَاةَ .

(٧) «حَاقَتَيْ» : تَرْقُوتِي ، وَحَبْلَ عَاتِقِي .

(٨) «بَيْنَ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فِي رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ : بَيْنَ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ .

(٩) «سَبْعِ قَرَبٍ» : الْحِكْمَةُ فِي هَذَا الْعَدَدِ لَهُ خَاصِيَةٌ فِي دَفْعِ ضَرِّ السَّمِّ وَالسَّحَرِ .

(١٠) «أَوْ كَيْتِهِنَّ» : جَمْعُ وَكَاءٍ ؛ وَهُوَ رِبَاطُ الْقَرَبَةِ .



أَعَهْدُ إِلَى النَّاسِ». فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مَخْضَبٍ<sup>(1)</sup> لِحَفْصَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - ثُمَّ طَفَقْنَا نَصَبَ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقَرَبِ حَتَّى طَفِقَ يَشِيرُ إِلَيْنَا بِيَدِهِ أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ». قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى بِهِمْ وَخَطَبَهُمْ. وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْبَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ! - قَالَا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً<sup>(2)</sup> لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ -: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى! اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فِي ذَلِكَ<sup>(3)</sup>، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى كَثْرَةِ مَرَاجَعَتِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْدَهُ رَجُلًا قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا، وَلَا كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مَقَامَهُ إِلَّا تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ! فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْدَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - عَنْ أَبِي بَكْرٍ».

**العبرة العاشرة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَعْبٍ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ - وَكَانَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَحَدَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَبِعَ عَلَيْهِمْ - أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! - خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فِي وَجْعِهِ الَّذِي تَوَقَّيَ فِيهِ، فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَبَا حَسَنِ! كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -؟ فَقَالَ: أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِتًا، فَأَخَذَ بِيَدِهِ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ بَعْدَ ثَلَاثِ عَدُ الْعَصَا<sup>(4)</sup>! وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأُرَى رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - سَوْفَ يُتَوَقَّى مِنْ وَجْعِهِ هَذَا؛ إِنِّي لَا أَعْرِفُ وَجْهَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَذْهَبَ بَنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فَلَنَسْأَلُهُ فَيَمْنُ هَذَا الْأَمْرُ؟ إِنْ كَانَ فِينَا عِلْمُنَا ذَلِكَ، فَأَوْصِي بَنَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: إِنَّا وَاللَّهِ لَنْ سَأَلْنَاهَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فَمَنْعَتَاهَا لَا تُعْطِيْنَاهَا النَّاسُ بَعْدَهُ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَسْأَلُهَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -».

**العبرة الحادية عشرة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن ابنِ شَهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! - أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَاهُمْ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي لَهُمْ، لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حِجْرَةِ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ

(1) «مخضب»: إجانة يُغسل فيها الثياب.

(2) «خميصة»: ثوب من خرّ أو صوف.

(3) «في ذلك» أي: في أمره - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - أبا بكرٍ بالصلاة بالناس وإمامته لهم.

(4) «بعد ثلاث عبد العصا» أي: بعد ثلاث ليالٍ تصير مأموراً بموته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وولاية غيره!

إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تَسَمُّ يضحك، فنكص أبو بكر على عَقْبَيْهِ ليصل الصَّف، وظن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهم المسلمون أن يفتتنوا<sup>(1)</sup> في صلاتهم، فرحاً برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأشار إليهم بيده رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر».

**العبرة الثانية عشرة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن سعيد قال: أخبرني ابن أبي مُلَيْكَةَ أن أبا عمرو ذكوان مولى عائشة أخبره أن عائشة كانت تقول: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توفي في بيتي وفي يومي وبين سَحْرِي<sup>(2)</sup> ونَحْرِي<sup>(3)</sup>، وأن الله جمع بين ريقِي وريقه عند موته. ودخل عليَّ عبد الرحمن (أخوها) وبِيدِهِ السَّوَاكُ وأنا مُسْنَدَةٌ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرأيتُه ينظر إليهِ وعرفتُ أَنَّهُ يَحِبُّ السَّوَاكُ، فقلت: آخِذْهُ لَكَ؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتدَّ عليه، وقلت: أَلَيْتَهُ لَكَ؟ فأشار برأسه أن نعم، فليْتُهُ فَأَمْرَةً<sup>(4)</sup> وبين يديه رَكُوعٌ<sup>(5)</sup> أو عُلبَةٌ<sup>(6)</sup> - يشك عمرو بن سعيد الراوي - فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: «لا إله إلا الله إنَّ للموت سكرات» ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبِضَ ومالت يده».

**العبرة الثالثة عشرة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن عُقَيْل، عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سَلَمَةَ أنَّ عائشة أخبرته أن أبا بكر - رضي الله عنه - أقبل على فرسه من مَسْكَنِهِ بِـ «السُّنْح» حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم النَّاسَ حتى دخل على عائشة فتيَّم<sup>(7)</sup> رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مَغْشَى بثوب حَبْرَةٍ<sup>(8)</sup>، فكشف عن وجهه ثم أكبَّ عليه فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأُمِّي والله لا يجمع الله عليك موتتين؛ أمَّا الموتة التي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فقد مُتَّهَا... عن ابن عباس أنَّ أبا بكر خرج، وعمر بن الخطاب يكلم النَّاسَ، فقال (أبو بكر):

(1) «أن يفتتنوا»: أن يخرجوا من صلاتهم بسبب تأخّر أبي بكر إلى الورا.

(2) «سحري»: رثي.

(3) «نحري»: موضع قلاذتي في رقبتي وصدري.

(4) «فأمره»: على أسنانه.

(5) «ركوع»: من آدم.

(6) «علبة»: قدح ضخم من خشب.

(7) «فتيَّم»: فاتّجه نحوه وقصده.

(8) «ثوب حبرة»: ثوب من ثياب اليمَن.

اجلس يا عمر! فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: **أما بعد**: من كان منكم يعبد محمداً - صلى الله عليه وسلم! - فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾<sup>(1)</sup> إلى قوله: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ وقال (ابن عباس): والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها، فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت<sup>(2)</sup> حتى ما تُقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعت تلاها: أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - قد مات».

**العبرة الرابعة عشرة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن الأسود قال: ذكر عند عائشة: أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - أوصى إلى علي، فقالت: من قاله؟! لقد رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم! - وإني لُسندته إلى صدري، فدعا بالطست فانخثت<sup>(3)</sup> فمات، فما شعرت! فكيف أوصى إلى علي؟! ... عن طلحة قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنهما! - أوصى النبي - صلى الله عليه وسلم! - فقال: لا! فقلت: كيف كُتب على الناس الوصية أو أمروا بها؟ قال: أوصى بكتاب الله».

**العبرة الخامسة عشرة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن أبي إسحاق، عن عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة؛ إلا بخلته البيضاء، التي كان يركبها وسلاحه، أو أرضاً جعلها لابن السبيل صدقة».

**العبرة السادسة عشرة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن ثابت، عن أنس - رضي الله عنه! - قال: لما ثقل النبي - صلى الله عليه وسلم! - جعل يتغشاه، فقالت فاطمة - عليها السلام! - واكرب أباه! فقال: ليس على أهلك كرب بعد هذا اليوم. فلما مات قالت: يا أبتاه! أجاب رباً دعاه! يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه! يا أبتاه إلى جبريل نعاه! فلما دُفن قالت فاطمة - عليها السلام! - يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - التراب؟!».

(1) سورة آل عمران. الآية 144.

(2) «فقرت»: دهشت وتحيّرت.

(3) «فانخثت»: فاسترخى ومال إلى أحد شقيه.

**العبرة السابعة عشرة:** وجاء في المصدر نفسه: «... عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة - رضي الله عنها! - قالت: تُوفي النبي - صلى الله عليه وسلم! - ودُرِعَ مرهونة عند يهودي بثلاثين - يعني: - صاعاً من شعير!».

**العبرة الثامنة عشرة:** منزلة أبي بكر عند الله ورسوله. قال محمد بن إسحاق: «وقال الزهري: حدثني أيوب بن بشير: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خيرَ الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله». ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: «على رسلك يا أبا بكر!» ثم قال: «انظروا هذه الأبواب اللافة<sup>(1)</sup> في المسجد، فسدوها إلا بيت أبي بكر؛ فإنني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه... فإنني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً؛ ولكن صحبة إخوان وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده». قال الزهري: فحدثني حمزة بن عبد الله بن عمر: أن عائشة قالت: لما استعز برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال: «مروا أبا بكر فليُصل بالناس». قالت: قلت: يا نبي الله! إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء؛ إذا قرأ القرآن، قال: «مروه فليُصل بالناس». قالت: فعدت بمثل قلبي، فقال: «إتكن صواحب يوسف! فمروه فليُصل بالناس». قالت: فوالله ما أقول ذلك إلا أنني كنت أحب أن يُصرف ذلك عن أبي بكر، وعرفت أن الناس لا يحبون رجلاً قام مقامه أبداً، وأن الناس سيشاءون به في كلِّ حدث كان، فكنت أحب أن يُصرف ذلك عن أبي بكر... عن عبد الله بن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب بن أسد قال: لما استعز برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأنا عنده في نفر من المسلمين، قال: دعاه بلال إلى الصلاة، فقال: مروا من يُصلي بالناس. قال فخرجت فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً؛ فقلت: قم يا عمر! فصل بالناس. قال: فقام، فلماً كبر، سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - صوته، وكان عمر رجلاً مجهراً، قال: فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «فأين أبو بكر؟» يا أباي الله ذلك والمسلمون! يا أباي الله ذلك والمسلمون! قال: فبُعِثَ إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلّى بالناس. قال: قال عبد الله بن زَمْعَةَ: قال لي عمر: ويحك! ماذا صنعتَ

(1) «اللافة»: النافذة.

بي يا بن زمعة؟! والله ما ظننتُ حين أمرتني إلا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أمرك بذلك ، ولولا ذلك ما صليتُ بالناس . قال : قلت : والله ما أمرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بذلك ؛ ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتُك أحقَّ من حضر بالصلاة بالناس»<sup>(1)</sup> .

**العبرة التاسعة عشرة :** وصية رسول الله بالأنصار . قال محمد بن إسحاق : «قال

الزهريّ : وحدثني عبدالله بن كعب بن مالك : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال يوم صلى واستغفر لأصحاب أُحُد ، وذكر من أمرهم ما ذكر مع مقالته يومئذ : «يا معشر المهاجرين ! استوصوا بالأنصار خيراً ؛ فإنَّ الناس يزيدون ، وإنَّ الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنَّهم كانوا عييتي»<sup>(2)</sup> التي أويتُ إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم» . ثم نزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فدخل بيته ، وتأمَّ به وجَّعه ، حتى غُمِرَ»<sup>(3)</sup> .

**العبرة العشرون :** شأن اللدود<sup>(4)</sup> . قال محمد بن إسحاق : «قال عبدالله (بن كعب) :

فاجتمع إليه نساء من نسائه : أم سَلَمَة وميمونة ، ونساء من نساء المسلمين ؛ منهنَّ أسماء بنت عُمَيْس ، وعنده العباس عمّه ، فأجمعوا على أن يُلْدُوهُ ، وقال العباس : لألْدَنَّهُ . فلْدَوْه ، فلمَّا أفاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال : «من صنع هذا بي» ؟ قالوا : يا رسول الله ! عمّك . قال : «هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض - وأشار نحو أرض الحبشة - ولم فعلمت ذلك» ؟ فقال العباس : خشينا - يا رسول الله! - أن يكون بك «ذات الجنُب»<sup>(5)</sup> . فقال : «إنَّ ذلك لداء ما كان الله ليقدفني به . لا يبق<sup>(6)</sup> في البيت أحد إلا لُدَّ ؛ إلا عمي» . فلقد لُدَّت ميمونة وإنها لصائمة ، لقسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عقوبة لهم بما صنعوا به» . قال عبد الرحمن السَّهيليّ - معلقاً على قول محمد بن إسحاق : «ففي هذا الحديث<sup>(7)</sup> أنَّ العباس حضره ولده مع من لدَّ . وفي الصحيحين : أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال : «لا يبقين أحد

(1) السيرة النبوية . ج 7 ص 541 - 546 .

(2) «عييتي» : خواصّي ومودع سرّي .

(3) «غُمِر» : أصابته غمرة من شدة وجع مرضه .

(4) «اللدود» : ما يُسقاه المريض في أحد شقي فمه بالمسعط من الأدوية .

(5) «ذات الجنُب» : مرض يصيب الإنسان في جنبه .

(6) «لا يبق» : مضمون النهي أمر .

(7) «ففي هذا الحديث» : أي : في حديث البخاريّ عن عائشة .

بالبیت إلّا لُدْ؛ إلّا عمّي العباس، فإنّه لم يشهدكم»<sup>(1)</sup>. وهذه الرواية أصحّ من رواية ابن إسحاق. ولعلّه فعل بهم ذلك عقوبة لهم، لأنّهم لدّوه بغير إذنه.

**العبرة الحادية والعشرون:** آخر كلمة نطق بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عند وفاته قوله: «لا إله إلّا الله»، وأول كلمة نطق بها وهو مسترضع عند حليلة السعدية قوله: «الله أكبر».

## استخراج الأحكام

**الحكم الأوّل:** استحباب تطيب الميّت وتنظيفه، لأنّه قادم على لقاء الله. ومن أحسن أدوات الطيب والنظافة السّواك الذي أحبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - طوال حياته حتى عند احتضاره. قال عبد الرحمن السّهيلي: «عن عائشة - رضي الله عنها! - أنّها ناولته السّواك حين رآته ينظر إليه، فاستاك به. وفيه من الفقه: التّنظف والتّطهر للموت، ولذلك يُستحبّ الاستحداد»<sup>(2)</sup> لمن استشعر القتل أو الموت؛ كما فعل خُبّيب، لأنّ الميّت قادم على ربّه؛ كما أنّ المصلّي مُناجٍ لربه، فالنّظافة من شأنهما. وفي الحديث: «إنّ الله نظيف يُحبّ النّظافة». خرّجه الترمذي؛ وإن كان معلول السّنَد، فإنّ معناه صحيح. وليس النّظيف من أسماء الربّ؛ ولكنّه حسن في هذا الحديث، لازدواج الكلام، ولقرب معنى النّظافة من معنى القدس، ومن أسمائه سبحانه «القُدُّوس». وكان السواك المذكور في هذا الحديث<sup>(3)</sup> عَسِيبَ نخل - فيما روى بعضهم - والعرب تستاك بالعسيب. وكان أحبّ السواك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - صُرْعَ الأراك؛ واحدها صريع؛ وهي قضيب ينطوي من الأَرَكة حتى يبلغ التراب، فيبقى في ظلّها، فهو ألين من فرعها»<sup>(4)</sup>. وقد غاب عن السّهيلي ما ورد في الحث على السّواك والاستياك به؛ من غير الحديث الذي خرّجه الترمذي معول السّنَد. وقد أورد الحافظ عبد الرحمن السيوطي في كتابه «الجامع الصغير» تسعة أحاديث:

**أولها:** «السّواك مطهرةٌ للفم، مرضاةٌ للربّ»<sup>(5)</sup>.

(1) الروض الأنف. ج 7 ص 573.

(2) «الاستحداد»: إزالة شعر العانة.

(3) «في هذا الحديث»: يعني الحديث المتقدم ذكره عن عائشة - رضي الله عنها! -

(4) الرّوض الأنف. ج 7 ص 580.

(5) رواه الإمام أحمد، عن أبي بكر الصّدّيق، والإمام الشافعيّ في مسنده، والنسائي وابن جرّان والحاكم والبيهقي، عن عائشة، عن أبي أمامة.

ثانيها : «السَّوَّاءُ مُطَهَّرٌ لِلْفَمِ وَمَجْلَاءٌ لِلْبَصَرِ»<sup>(1)</sup> .

ثالثها : «السَّوَّاءُ يُطَيَّبُ الْفَمَ وَيُرْضَى الرَّبُّ»<sup>(2)</sup> .

رابعها : «السَّوَّاءُ نَصَفُ الْإِيمَانِ ، وَالْوُضُوءُ نَصَفُ الْإِيمَانِ»<sup>(3)</sup> .

خامسها : «السَّوَّاءُ وَاجِبٌ ، وَغُسْلُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»<sup>(4)</sup> .

سادسها : «السَّوَّاءُ مِنَ الْفِطْرَةِ»<sup>(5)</sup> .

سابعها : «السَّوَّاءُ يَزِيدُ الرَّجُلَ فَصَاحَةً»<sup>(6)</sup> .

ثامنها : «السَّوَّاءُ سُنَّةٌ ، فَاسْتَاكُوا أَيَّ وَقْتٍ شِئْتُمْ»<sup>(7)</sup> .

تاسعها : «السَّوَّاءُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ ؛ إِلَّا السَّامَ ؛ وَالسَّامُ الْمَوْتُ» .

**الحكم الثاني :** في لَذْمِ الصَّدْرِ وَلَطْمِ الْوَجْهِ عَلَى الْمَوْتَى . قال محمد بن إسحاق :

«وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عباد قال : سمعتُ عائشة تقول : مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بين سَخْرِي وَنَحْرِي ، وفي دولتي<sup>(8)</sup> ، لم أظلم فيه أحداً ، فمن سَقَّهِي وَحَدَّاثَةِ سَنِّي أَنْ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم !- قُبِضَ وَهُوَ فِي حَجْرِي ، ثُمَّ وَضَعْتُ رَأْسَهُ عَلَى وَسَادَةٍ ، وَقَمَتِ التَّدَمُّعُ مَعَ النَّسَاءِ ، وَأَضْرَبَ وَجْهِي»<sup>(9)</sup> ! قال عبد الرحمن السَّهْلِيُّ : «... . الْإِلْتِدَامُ ضَرْبُ الْحَدِّ بِالْيَدِ ، وَلَمْ يَدْخُلْ هَذَا فِي التَّحْرِيمِ ، لِأَنَّ التَّحْرِيمَ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى الصَّرَاخِ وَالنَّوْحِ ، وَلُغَتِ الْخَارِقَةُ وَالْحَالِقَةُ وَالصَّالِقَةُ ؛ وَهِيَ الرَّافِعَةُ لَصَوْتِهَا ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّذْمُ ؛ لَكِنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْهُ ، فَإِنَّهُ مَكْرُوهٌ فِي حَالِ الْمَصِيبَةِ ، وَتَرَكَهُ أَحْمَدُ ؛ إِلَّا عَلَى أَحْمَدَ - صلى الله عليه وسلم !- :

فَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمَصَائِبِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ

(1) رواه الطبراني عن ابن عباس .

(2) رواه الطبراني عن ابن عباس .

(3) رواه حسان بن عطية في كتاب الإيمان مرسلًا .

(4) رواه أبو نعيم ، عن عبد الله بن عمر .

(5) رواه ابن عدي وغيره ، عن أبي هريرة .

(6) رواه الديلمي ، عن أبي هريرة .

(7) رواه الديلمي ، عن عائشة .

(8) «دولتي» : نوبتي بين نسائه .

(9) السيرة النبوية بشرح الرؤوس الأنف . ج 7 ص 549 - 577 - 578 .

وَقَدْ كَانَ يُدْعَى لِأَبْسِ الصَّبْرِ حَازِماً فَأَصْبَحَ يُدْعَى حَازِماً حِينَ يَجْزَعُ

وقد ردّ عبد الرحمن الوكيل - محقق كتاب «الروض الأنف» - على قول السهيلي ، فقال : «ما نظنّ أنّ سيّدة في مثل دين عائشة - رضي الله عنها !- وتقواها وأخذها الكتاب بقوة تلدم المصائب عقلها ، فيدفعها إلى اقرار فعل الجاهليّة . هذا وقد روى ابن مسعود : أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : «ليس منّا من ضرب الخدود ، وشقّ الجيوب ، ودعا بدعوة الجاهليّة» . رواه البخاريّ ومسلم والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجه . وهل اللّدم إلّا اللّطم ؟ قد تبكي ، وتطيل البكاء ؛ أمّا أن تلطم ، ومع النساء ، وفي بيت قدّسته روح النبوّة ؛ أمّا هذا فلا يجوز تصوّره ولا قوله . فالصبر محمود في كلّ مصيبة . ترى أكان صبر أبي بكر على وفاة خليه - صلى الله عليه وسلم !- كان غير حميد ؟ ! والجازع لا يُمكن أن يُسمّى حامداً ؛ إنّما هو زُخرف من القول . وأجمل من هذا قول القائل :

أَصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدْ	وَأَعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُحَلَّدٍ
وَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ الْكِرَامُ فَإِنَّهَا	نُوبٌ تُتُوبُ الْيَوْمَ تُكْشَفُ فِي غَدٍ
وَإِذَا أَتَتْكَ مُصِيبَةٌ تَشْجَى بِهَا	فَاذْكُرْ مُصَابِكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

ونحن نميل كلّ الميل إلى ما ذهب إليه السهيليّ في قوله الوجيه وذلك لثلاثة أسباب

أساسية في الموضوع :

**السبب الأوّل :** أنّ عائشة - رضي الله عنها !- هي من الإناث اللواتي جُبِلن على شدة العطف ورقة القلب ، ورسوخ الحنان والتأثر ، ولذلك هنّ أسرع بكاء من الرجال ، فراضاهن في مجاملتهنّ ، وغضبهنّ في مسّ عواطفهنّ ! وهذا ما أشار إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «إنّكن صواحب يوسف» . وهذا ما فهمناه من قوله تعالى : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾<sup>(1)</sup> . خلقه وغريزة .

**السبب الثاني :** أنّ عائشة - رضي الله عنها !- ليست معصومة من ارتكاب أخطاء بشر ؛

إن نحن سلمنا بما فعلته من لدم ولطم هو ارتكاب خطأ عن غير عمد ؛ بل قد كان بدافع ألم الفراق الأبديّ لشريكها في السراء والضراء طوال حياتها ! .

(1) سورة «آل عمران» . الآية 36 .



**السَّبَبُ الثالث :** أنّ الحديث الذي استدلّ به عبد الرحمن الوكيل واحتجّ به ليس له من احتجاجة ذلك شيء ؛ بل أكثر ما يقال في احتجاجة أن صاحب اللّدم واللّطم ليس هو سائراً على طريقة المسلمين الكاملة ؛ ونظائر الحديث المستدلّ به عبد الرحمن الوكيل كثير في مبناها ومعناها ؛ منها : قوله - عليه الصلاة والسلام - : « ليسَ منّا من لم يتغنّ بالقرآن »<sup>(1)</sup> . وقوله : « ليسَ منّا من وسّع الله عليه ثمّ قترَ على عياله »<sup>(2)</sup> إلى غير ذلك من نظائر الأحاديث في الموضوع .

**الحكم الثالث :** جواز صلاة المأموم قائماً والإمام قاعداً . قال إسماعيل بن كثير : « فائدة : استدلّ مالك والشافعي وجماعة من العلماء ، ومنهم البخاري ، بصلاته - عليه الصلاة والسلام - ! . قاعداً وأبو بكر مقتدياً به قائماً ، والناس بأبي بكر ؛ على نسخ قوله - عليه الصلاة والسلام - ! . في الحديث المتفق عليه ، حين صلّى ببعض أصحابه قاعداً ، وقد وقع عن فرس ، فحشش شقّه ، فصلّوا وراءه قياماً ، فأشار إليهم : اجلسوا ، فلمّا انصرف ، قال : « كذلك والذي نفسي بيده تفعلون كفعل فارس والروم يقومون على عظمائهم وهم جلوس . إنّما جعل الإمام ليؤتمّ به ، فإذا كبر فكبروا وإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا وإذا سجد فاسجدوا ، وإذا صلى جالساً فصلّوا جلوساً أجمعون » . قالوا : ثمّ إنّ عليه الصلاة والسلام - ! . أمّهم قاعداً وهم قيام في مرض الموت ، فدلّ على نسخ ما تقدم »<sup>(3)</sup> . ممّا جاء في الحديث المذكور والمتفق عليه . والله أعلم ، وهو وليّ التوفيق وعليه التكلان .

### عدد غزواته عليه الصلاة والسلام

قال أبو الحسن عليّ بن الأثير : « غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! . ستّاً وعشرين غزوة ؛ وقيل سبعاً وعشرين ؛ فمن قال : ستّاً وعشرين جعل غزوة خيبر ووادي القرى واحدة ؛ لأنّه لم يرجع من خيبر إلى منزله ، ومن فرق بينهما جعل غزواته سبعاً وعشرين : جعل خيبر غزوة ، ووادي القرى غزوة . وأوّل غزوة غزاها : ودّان ؛ وهي الأبواء ، ثمّ بواط بناحية رَضَوَى ، ثمّ العشيرة ، ثمّ بدر الأولى ، لطلب كُرْز بن جابر ، ثمّ بدر التي قتل فيها قريشاً ، ثمّ غزوة بني سلّيم ، ثمّ غزوة السّويق ، ثمّ غزوة غطفان ؛ وهي غزوة ذي أمرّ ، ثمّ غزوة بحران بالحجاز ، ثمّ

(1) رواه الإمام أحمد والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة .

(2) رواه الديلمي في مسند الفردوس ، عن جُبَيْر بن مطعم .

(3) البداية والنهاية . ج 5 ص 236 .

غزوة أُحُد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بين النصير، ثم غزوة ذات الرقاع، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني لحيان من هذيل، ثم غزوة ذي قرد، ثم غزوة بني المصطلق، ثم غزوة الحديبية، ثم غزوة خيبر، ثم غزوة بدر، ثم غزوة فتح مكة، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك؛ وقاتل منها في تسع غزوات: بدر، وأُحُد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف. واختلف في عدد سراياه؛ فقليل: كانت خمساً وثلاثين ما بين سرية وبعث، وقيل: ثمانين وأربعين<sup>(1)</sup>.

### مكاتبته - عليه الصلاة والسلام - إلى الملوك وغيرهم

جاء في صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب إلى هرقل ملك الروم: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام الله على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم؛ يؤتك الله أجرك مرتين؛ فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»<sup>(2)</sup>. ﴿قُلْ يَتَاهَلْ أَلْكِتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(3)</sup>. وكان حامل هذا الكتاب إلى هرقل دحية ابن خليفة الكلبي. فلما قرئ عليه الكتاب رحّب به وبصاحبه ترحيباً يدل على الرضى والاطمئنان لمضمون نص الكتاب.

وكتب إلى كسرى ملك فارس:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾»<sup>(4)</sup>. أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم الجوس». فلما قرئ عليه

(1) الكامل في التاريخ. ج 2 ص 304.

(2) «الأريسيين»: هم الفلاحون، وخصّهم بالذكر لأنهم أسرع انقياداً وطاعةً.

(3) سورة «آل عمران». الآية 64.

(4) سورة «يس». الآية 70.

الكتاب مزّقه، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال: «مزّق الله ملكه»؛ وكان كذلك. وكان حامل هذا الكتاب إلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمي.  
وكتب إلى أصحمة بن أبجر النجاشي:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم تسلم، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه؛ كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى». وكان حامل هذا الكتاب إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري. وبعدما قرئ الكتاب على النجاشي، قال له عمرو: يا أصحمة! إن عليّ القول عليك الاستماع؛ إنك كأنك في الرقة علينا، وكأنّا في الثقة بك منك، لأنّا لم نظنّ خيراً قطّ إلاّ تلناه، ولم نخفك على شيء قطّ إلاّ أمّناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يردّ، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك موقع الحز وإصابة المفصل؛ وإلاّ فأنت في هذا النبيّ الأميّ كاليهود في عيسى بن مريم. وقد فرق النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر يُنتظر. فقال النجاشي: أشهد بالله أنّه النبيّ الأميّ الذي ينتظره أهل الكتاب، وأنّ بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأنّ العيان ليس بأشقى من الخبر. ثم كتب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بكتاب؛ هذا نصّه: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبيّ الله! من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلاّ هو. أمّا بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله! فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض، إنّ عيسى لا يزيد على ما ذكرت نفروفاً<sup>(1)</sup>؛ إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بُعث به إلينا، وقد قرّنا ابن عمك<sup>(2)</sup> وأصحابه، فأشهد أنّك رسول الله صادقاً مصداقاً وقد بايعتُك، وبايعتُ ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين». وكانت وفاة

(1) «نفروفاً»: علامة ما بين النواة والقشر.

(2) «ابن عمك»: هو جعفر بن عبد المطلب.

النجاشي سنة تسع من الهجرة النبوية وأخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بوفاته في ذلك اليوم ، فخرج بالناس إلى المصلى فصلى عليه وكبر أربعاً . هذه رواية محمد بن إسحاق . وقد شك في صحتها محمد بن قيس الجوزية الدمشقي فقال : «قلت : وهذا وهم - والله أعلم - وقد خلط راويه ، ولم يميز بين النجاشي الذي صلى عليه ، وهو الذي آمن به وأكرم أصحابه ، وبين النجاشي الذي كتب إليه يدعوه ، فهما اثنان ، وقد جاء ذلك مبيناً في صحيح مسلم : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كتب إلى النجاشي ، وليس الذي صلى عليه»<sup>(1)</sup> .

وكتب إلى المقوقس ملك القبط بمصر والإسكندرية : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ؛ فإنني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط . » ﴿ قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾<sup>(2)</sup> . وحامل هذا الكتاب إلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة . وبعدما قرئ الكتاب على المقوقس ، أخذه فجعله في حق من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى إحدى جواريه ، ثم أمر كاتباً له بالعربية أن يكتب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - : «بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد بن عبد الله ، من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك . أما بعد ؛ فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها . والسلام عليك . » ولم يزد على هذا ، ولم يسلم . والجاريتان هما أختان : مارية ، وشيرين . والبغلة هي : دُلْدُل . وقد بقيت بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إلى زمان معاوية بن أبي سفيان .

وكتب إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني ملك تخوم الشام : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك» . وكان حامل هذا

(1) زاد المعاد ، في هدي خير العباد . تحقيق محمد عبد القادر عطا . القاهرة . مطبعة دار التقوى للتراث . ج 1 ص 386 .

(2) سورة «آل عمران» . الآية 64 .

الكتاب إلى الحارث شجاع بن وهب الأسديّ. وكان الحارث بغوطة دمشق مشغولاً بشأن الاحتفالات لقيصر عظيم الروم، الذي جاء من حمص إلى القدس وفاءً بنذر. قال شجاع بن وهب: قلت لحاجبه - وهو روميّ اسمه مري: إني رسول رسول الله، فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا، فجعل يسألني عن رسول الله وما يدعو إليه، وأخبره، فirqّ حتى يغلبه البكاء ويقول: إني قرأت صفته في الإنجيل، وأسلم. وخرج الحارث وجلس وعلى رأسه التاج، فدفعت إليه الكتاب، فقرأه ثم رمى به وقال: من ينزع ملكي أنا سائر إليه، عليّ بالناس. فلم يزل جالساً يعرض عليه العسكر حتى الليل، وأمر بالخیل أن تنعل، ثم قال لي: أخبر صاحبك بما ترى، وكتب إلى قيصر بالخبر، فكتب إليه: أن لا تسر إليه وأله عنه، فأمر لي بمائة مثقال ذهب. وقال رسول الله لما بلغه ذلك: «بادءُ ملكه». وكان كذلك.

وكتب إلى هوزة بن عليّ الحنفيّ صاحب اليمامة: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوزة بن عليّ، سلام على من اتبع الهدى. واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخفّ والحافر، فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك».

وكان حامل هذا الكتاب إلى هوزة سليط بن عمرو العامريّ، فلما قدم عليه بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مختوماً أنزله وحيّاه واقرأ عليه الكتاب، فردّ ردّاً دون ردّ، وكتب إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم! -: «ما أحسن ما يدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني وأنا شاعر قومي وخاطبهم، فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك». وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأخبره، وقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كتابه فقال: «لو سألتني سيابة من الأرض ما فعلتُ، باد وباد ما في يديه». فلما انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من فتح مكة جاءه جبريل - عليه السلام! -: بأن هوزة قد مات. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «أما اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ يقتل بعدي». فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «أنت وأصحابك». فكان كذلك.

وكتب إلى المنذر بن ساوى بن الأخنس العبديّ بالبحرين: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام الله عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله

غيره وأشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله . أمّا بعد : فإنّي أذكرك الله عزّ وجلّ ، فإنّه من ينصح فإنّما ينصح لنفسه ، وإنّه من يطع رُسُلِي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن فصّح لهم فقد فصّح لي ، وأنّ رُسُلِي قد أثنوا عليك خيراً ، وإنّي قد شفّعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوتُ عن أهل الذّنوب فأقبل منهم ، وإنّك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية . فكان من نتيجة هذا الكتاب أن أسلم أهل البحرين وهم سبعون ألفاً .

وكتب المنذر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- «أمّا بعد : يا رسول الله ! فإنّي قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحبّ الإسلام وأعجبه ، فدخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود ، فأحدث إليّ في ذلك أمرٌ . فكتب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بكتابه المذكور أعلاه .

وكتب إلى جَيْفَر وعبد ابني الجلندي في عمان باليمن : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى جَيْفَر وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتّبع الهدى . أمّا بعد : فإنّي أدعوكم بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنّي رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(1)</sup> . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإنّ ملككما زائل عنكما وخيلي تحلّ بساحتكما وتظهر نبوّتي على ملككما . وكان حامل الكتاب إلى جيفر وعبد ابني الجلندي عمرو بن العاص السهمي الذي قال :

فخرجت حتى انتهيت إلى عمان فلمّا قدمتها عمدتُ إلى عبد . وكان أحلم الرجلين وأسهلها خلقاً . فقلت : إنّني رسولُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي المقدم عليّ بالسّن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : ما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عُبد من دونه ، وتشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، قال : يا عمرو ! إنّك ابن سيّد قومك ، فكيف صنع أبوك ، فإنّ لنا فيه قدوة ؟ قلت : مات ولم يؤمن بمحمّد - صلى الله عليه وسلم !- ووددتُ أنّ كان أسلم وصدّق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريباً ، فسألني : أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي ، وأخبرته أنّ النجاشي قد أسلم ، قال : فكيف صنع قومه

(1) سورة «يس» . الآية 70 .

بملكه؟ قلتُ: أقرّوه واتّبعوه، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول؛ إنّه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب، قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت: بلى، قال: بأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يُخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدّق بمحمد - صلى الله عليه وسلم! - قال: لا والله لو سألتني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله فقال له يناق أخوه: أتدع عبدك لا يُخرج لك خرجاً ويدين ديناً محدثاً؟! قال هرقل: رجل رغب في دين فاختره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضنّ بملكي لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول يا عمرو! قلت: والله صدقتك. قال عبدٌ: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ وينهى عن معصيته، ويأمر بالبرّ وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنى وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به؛ ولكن أخي أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً. قلت: إنّه إن أسلم ملكه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم، فردّها على فقيرهم. قال: إنّ هذا خلّقت حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - من الصدقات في الأموال حتى انتهت إلى الإبل. قال: يا عمرو! وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم. فقال: والله ما أرى قومي في بُعد دارهم وكثرة عددهم يُطيعون بهذا، قال عمرو: فمكثت ببابه أياماً، وهو يصل إلى أخيه، فيخبره كلّ خبري، ثم إنّه دعاني يوماً، فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي، فقال: دعوه، فأرسلتُ، فذهبتُ لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففصّ خاتمة وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثمّ دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته؛ إلا أنّي رأيت أخاه أرقّ منه، قال: ألا تخبرني عن قریش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه؛ إمّا راغب في الدين، وإمّا مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدي الله إليّهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضرأك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل، والرجال. قال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غداً. فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو! إنّي لأرجو أن يسلم إن لم يضنّ بملكه، حتى إذا كان

الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لي ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أنني لم أصل إليه ، فأوصلني إليه ، فقال : إني فكرت فيما دعوتني إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي ، وهو لا تبلغ خيله هاهنا ، وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لقي ، قلت : وأنا خارج غداً ، فلماً أيقن بمخرجي خلا به أخوه ، فقال : ما نحن فيما قد ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إليّ : فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقاً النبيّ - صلى الله عليه وسلم ! - وخلياً بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً على من خالفني»<sup>(1)</sup> .

## زوجاته

قال الله تعالى : ﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ ﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ۚ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۚ ﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا<sup>(2)</sup> . قال أبو الحسن علي بن الأثير - نقلاً عن الكلبي - : «إن النبيّ - صلى الله عليه وسلم ! - تزوج خمس عشرة امرأة ، ودخل بثلاث عشرة ، وجمع بين إحدى عشرة ، وتوفي عن تسع»<sup>(3)</sup> . فأما المرأتان اللتان لم يدخل بهما فهما : عمرة بنت يزيد الغفاريّة وأسماء بنت النعمان الكنديّة . فأما عمرة فإنه خلا بها ، فلم تكن يسيرة ، فتركها ينتظر بها اليسر ، فلما مات ابنه إبراهيم بن مارية القبطيّة ، قالت : لو كان نبياً لم يمت ابنه ؛ وهي التي استعازت منه ، فطلقها وأوجب لها الصداق ، وحرمت على غيره . وأما أسماء فخلا بها وجردّها فرأى بها وضحاً فردّها وأوجب لها الصداق ، وحرمت على غيره . وأما اللواتي دخل بهن فهن إحدى عشرة : خديجة بنت خويلد ، وسودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطّاب ، وزينب بنت خزيمة ، وأمّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، وزينب بنت جحش ، وجويريّة بنت الحارث ، وصفية بنت حييّ بن أخطب ، وأمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وميمونة بنت الحارث .

(1) ابن قيم الجوزيّة ، محمّد . زاد المعاد ، في هدي خير العباد . ج 1 ص 388 .

(2) سورة «الأحزاب» . الآية 32 - 34 .

(3) الكامل في التاريخ . ج 2 ص 307 .



### زواجه بخديجة

هي : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، زوجه إياها أبوها خويلد قبل البعثة وكان عمرها يومئذ أربعين سنة ، وكان عمر رسول الله - عليه الصلاة والسلام -! خمساً وعشرين سنة . وهي أول زوجاته ، ولم يتزوج غيرها في حياتها . فولدت له من الذكور ثلاثة ، وهم : الطيب والطاهر<sup>(1)</sup> ، والقاسم ؛ وبه كان يُكنى . ومن الإناث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة الزهراء . فأما الذكور فتوفوا صغاراً ، وأما الإناث فزينب تزوجت لقيط بن العاص بن الربيع ابن أخت خديجة ، ورقية تزوجها عثمان بن عفان ، فماتت عنده ، فتزوج أختها أم كلثوم ، فتوفيت عنده أيضاً في حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! وزواج عثمان ببنتي رسول الله أكسبه شرفاً ورفعة عند الناس فكانوا ينعنون به «ذي النورين» . وأما فاطمة فتزوجها علي بن أبي طالب ، فدخل بها بعد وقعة بدر ، فولدت حسناً وبه كان يُكنى ، وحسيناً فقتل شهيداً بأرض العراق . وكانت خديجة بنت خويلد قد تزوجت - قبل أن يتزوجها رسول الله - برجلين : أولهما : عتيق بن عائد بن عبد الله المخزومي ، فولدت له عبد مناف وجارية تزوجها صفى بن أبي رفاع . ثانيهما : أبوهاالة بن مالك ، حليف بن عبد الدار ، فولدت له هند بن أبي هالة ، وزينب بنت أبي هالة . وكانت خديجة في الجاهلية تدعى الطاهرة ، وهي أول من آمن برسول الله من النساء .

### زواجه بسودة

هي : سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس كانت - قبل زواجها برسول الله - تحت السكران بن عمرو العامري ، فمات مسلماً بعد رجوعه ، وإياها من الحبشة إلى مكة ؛ حيث دخل بها رسول الله ، وكان الذي خطبها عليه خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون ، وزوجها منه أبوها زمعة بن قيس ، وأصدقها أربعمائة درهم . وأثر رسول الله الزواج بها ليرفع من مكانتها ؛ رغم أنها لم تكن ذات جمال ولا مال ولا منزلة في قومها مثلما كانت عليه خديجة . وكانت سودة تقول : «والله ما بي على الأزواج من حرص ؛ ولكنني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً للرسول» .

---

(1) «هو عبد الله» .

### زواجه بعائشة

هي : عائشة بنت أبي بكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر الكتاني . ولم يتزوج رسول الله بكرًا غيرها ، ولم يولد له منها ولد ، وكانت تُكنى بعبدالله ابن أختها أسماء من الزبير بن العوام . وعقد عليها بمكة قبل الهجرة وعمرها ست سنوات ، ودخل بها في المدينة بعد الهجرة وعمرها تسع سنوات وزوجه إياها أبوها أبو بكر الصديق ، وأصدقها النبي - صلى الله عليه وسلم -! أربع مائة درهم . وقد قيل لرسول الله : من أحب إليك من النساء؟ قال : «عائشة» . قيل : ومن الرجال؟ قال : «أبوها» .

### زواجه بحفصة

هي : حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت قبل زواجها برسول الله - صلى الله عليه وسلم -! تحت خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي ، فمات عنها مسلماً ، فعرضها أبوها عمر على أبي بكر فأبى ، فعرضها على عثمان بن عفان فأبى ، فذهب عمر يشكو إلى رسول الله أبا بكر وعثمان امتناعهما ، فقال له رسول الله : «اصبر ، فلعل الله يرزق عثمان خيراً من ابنتك ، ويرزق ابنتك خيراً من عثمان» ، فزوج الرسول ابنته أم كلثوم بعثمان بعد موت أختها رقية ، وتزوج هو حفصة بنت عمر ، وأصدقها أربع مائة درهم ، وكان ذلك سنة ثلاث من الهجرة النبوية . وقد علم عمر أن ابنته حفصة تراجع رسول الله حتى تغضبه ، فدخل عليها وقال لها : «يا بُنَيَّة! إنك تراجعين رسول الله حتى يظلل يومه غضبان» فقالت : «إنا لنراجعه» ، فقال لها : «أحذرك غضب الله ورسوله ، والله لقد علمت أن رسول الله لا يُحبك ، ولولا أنا لطلقك» . . وكانت حفصة قوامة صوامة ، وهي التي أودع عندها أبو بكر صحائف القرآن الكريم بعد جمعه وبقيت عندها حتى أخذها عثمان بن عفان منها ، ونسخ من القرآن نسخاً ووزعها في الأمصار .

### زواجه بأم سلمة

هي : أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية ، زوجها ابنها سلمة بن أبي سلمة وأصدقها رسول الله فراشاً حشوه ليف ، وقدحاً وصحفة ، ومجشة<sup>(1)</sup> . وكانت قبله متزوجة بأبي

(1) «مجشة» : رحى .

سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزوميّ، فشهد بدرّاً، وأصابته جراحة يوم أحد فمات منها شهيداً وولدت له : سَلَمَة ، وعُمَر ، وزينب ، ورقية .

- 6 -

### زواجه بزینب بنت خُزَیمة

هي : زينب بنت خُزَیمة بن الحارث من بني عامر . وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمّها . وكانت تحت جهم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمّها ، ثم تحت عُبَیدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فزوّجها قميصه بن عمرو الهلاليّ من رسول الله ، فأصدقها الرسول أربعمئة درهم . وكانت تسمّى أم المساكين لرحمتها بهم ورقتها عليهم ، وكانت تعمل بيدها وتتصدّق بما تعمل .

- 7 -

### زواجه بزینب بنت جحش

هي : زينب بنت جحش بن رباب من بني أسد بن خُزَیمة ، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة الذي تبنّاه . فلما طلقها زيد زوّجه الله تعالى إياها لتتأسّى أمّته به في جواز نكاح أزواج من تبنّوه . وأمّ زينب هذه أُمَيمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله - صلى الله عليه وسلم !..

- 8 -

### زواجه بجويرية بنت الحارث

هي : جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية من سبايا بني المصطلق . فجاءت رسول الله تستعين به على كتابتها ، فأدى عنها كتابتها وتزوّجها .

قال عبد الملك بن هشام : «ويقال : لما انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من غزوة بني المصطلق ، ومعه جويرية بنت الحارث ، فكان بذات الجيش ، فدفع جويرية إلى رجل من الأنصار ودیعة ، وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- المدينة ، فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بـ «العقيق» نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء ، فرغب في بيعين منها ، فغيبهما في شعب من شعاب «العقيق» ، ثم أتى النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- فقال : يا محمد ! أصبتم ابنتي ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عليه

وسلم !- : «فأين البعيران اللذان غيبتَ بـ» العقيق» في شعب كذا وكذا؟ فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنتَ رسول الله ، صلى الله عليك ! فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله تعالى ، فأسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له ، وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين ، فجاء بهما فدفعا الإبل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم !- . ودُفعت إليه ابنته جُوَيْرِيَة ، فأسلمت ، وحسن إسلامها ، وخطبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- إلى أبيها ، فزوجه إيّاها ، وأصدقها أربعمئة درهم ، وكانت قبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عند ابن عمّ لها يقال له : عبدالله . ويقال : اشتراها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من ثابت بن قيس ، فأعتقها وتزوّجها ، وأصدقها أربعمئة درهم»<sup>(1)</sup> .

- 9 -

### زواجه بصفيّة

هي : صفيّة بنت حييّ بن أخطب سيّد بني النضير من ولد هارون بن عمران أخي موسى ، عليهما السلام ، وكانت من أجمل نساء العالمين ، سباهها رسول الله من خيبر ، واصطفاه لنفسه ، وأولم لزواجه بها وليمة ما فيها شحم ولا لحم ؛ بل كانت سويقاً وتمراً وجعل عتقها صداقها ، وكانت قبله تحت سلام بن مشكم ، فتوفي عنها ، وخلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، فقتله محمد بن مسلمة صبراً .

- 10 -

### زواجه بأمّ حبيبة

هي : أم حبيبة ، رَمْلَة بنت أبي سفيان صخر بن حرب القرشية الأموية ، تزوّجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وهي مهاجرة بالحبشة ، زوجه إيّاها خالد بن سعيد بن العاص ، وأصدقها النجاشي عن رسول الله أربعمئة دينار ، وهو الذي خطبها عليه ، وكانت قبله عند عبّيد الله بن جحش الأسدي مهاجراً معها بالحبشة ، فتنصّر وارتدّ هناك ، وبقيت هي على إسلامها ، وولدت لعبيد الله بن جحش بالمهجر بنتاً اسمها حبيبة ؛ وهي التي تكنى بها .

(1) السيرة النبوية بشرح الروض الأنف ج 7 ص 537 .

## زواجه بميمونة

هي : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهي خالة عبدالله بن عباس وخالد بن الوليد ، وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله ، وكان زواجه إيّاها بمكة بسرف في عمرة القضاء بعد أن حلّ منها . زوجه إيّاها عمّه العباس بن عبد المطلب ، وأصدقها عنه أربعمئة درهم . وكانت قبله عند عُمَيْر ابن عمرو الثقفيّ ، ثمّ خلف عليها أبو زهير بن عبد العزّي بعد عُمَيْر . وفقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في حياته زوجتين اثنتين ، وهما : خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة بعدما بقيت في بيت النبوة شهرين أو ثلاثة أشهر . رحمهما الله !

ولا خلاف أنّه - عليه الصلاة والسلام !- توفي عن تسع ، وهنّ : عائشة بنت أبي بكر الصديقّ التيميّة ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب العدويّة ، وأمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أميّة الأمويّة ، وزينب بنت جحش الأسديّة ، وأمّ سلّمة بنت أبي أميّة المخزوميّة ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وسودة بنت زمعة العامريّة ، وجُوَيْريّة بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية ، وصفية بنت حييّ بن أخطب النضريّة الإسرائيليّة الهارونيّة ؛ رضي الله عنهنّ وأرضاهنّ .

## نساء خطبهنّ ولم ينكحهنّ

منهنّ : أمّ هانئ بنت أبي طالب ، خطبها ولم يتزوجها . وضبّاعة بنت عامر من بين قُشَيْر . وصفية بنت بشامة أخت الأعور العنبري . وأمّ حبيبة ابنة عمّه العباس ، فتركها لوجوده العباس أخاه من الرضاعة . وجمرة بنت الحارث بن أبي حارثة ؛ خطبها ، فقال أبوها : إنّها بها سوء ، ولم يكن بها في الحال ، فرجع إليها فوجدها قد برصت .

## سراريه

كانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سريتان :

إحداهما : مارية بنت شمعون القبطيّة ، أهداها له جُريج ملك الإسكندريّة بمصر مع أختها شيرين ، فاحتفظ بمارية لنفسه وأهدى شيرين لشاعر الإسلام حسّان بن ثابت ، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسّان . وحملت مارية من رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بولد سمّاه إبراهيم . وكانت مارية آية في الجمال ، فأعجب بها رسول الله وأحبّها حبّاً جمّاً ، ونالت عنده حظّاً وافراً ؛ ولا سيّما عندما ولدت له ابنه إبراهيم . قال إسماعيل بن كثير : « وقال الواقديّ :

حدثنا يعقوب بن محمد بن أبي صعصعة ، عن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال :  
كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يُعجب بمارية القبطية ، وكانت بيضاء جعدة جميلة ،  
فأنزلها وأختها (شيرين) على أمّ سليم بنت ملحان ، فدخل عليهما ، فعرض عليهما الإسلام ،  
فأسلمتا هناك ، فوطئ مارية بالملك ، وحوّلها إلى مال له بالعالية كان من أموال بني النضير ،  
فكانت فيه في الصيف وفي خرافة النخل فكان يأتيها هناك ، وكانت حسنة الدين ، ووهب أختها  
شيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن ، وولدت مارية لرسول الله - صلى الله عليه  
وسلم !- غلاماً سمّاه إبراهيم ، وعق عنه بشاة يوم سابعه ، وحلق رأسه ، وتصدّق بزنة شعره فضة  
على المساكين ، وأمر بشعره فدُفن في الأرض . وكانت قابله سلمى مولاة رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم !- فخرجت إلى زوجها أبي رافع فأخبرته بأن مارية ولدت غلاماً ، فجاء أبو رافع إلى  
رسول الله فبشره ، فوهب له عقداً . وغار نساء رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- واشتد  
عليهن حين رُزق منها الولد»<sup>(1)</sup> .

**ثانيتها :** ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة من بني النضير ، سبأها في غزوة بني  
النضير ، فكانت صفيّاً له ، وكانت أمته ، يطؤها بملك اليمين حتى توفي عنها . قال محمد بن عمر  
الواقدي : «كانت ريحانة بنت زيد من بني النضير ، وكانت مزوجة فيهم ، وكان رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم !- أخذها لنفسه صفيّاً ، وكانت جميلة ، فعرض عليها أن تسلم ، فأبت إلاّ  
اليهودية ، فعزلها ووجد في نفسه ، فأرسل إلى ابن شعبة (ثعلبة) فذكر له ذلك . فقال ابن شعبة :  
فداك أبي وأمّي وهي تسلم ، فخرج حتى جاءها فجعل يقول لها : لا تتبعي قومك فقد رأيت ما  
أدخل عليهم حييُّ بن أخطب ، فأسلمي يصطفك رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لنفسه ،  
فبينما رسول الله في أصحابه إذ سمع وقع نعلين فقال : «إن هاتين لنعلا ابن شعبة يُبشرني بإسلام  
ريحانة» . فجاء يقول : يا رسول الله ! قد أسلمت ريحانة ، فسرّ بذلك»<sup>(2)</sup> .

### أولاده وبناته

**أ - الذكور هم :** القاسم ، والطاهر ، والطيب ، من زوجته خديجة بنت خويلد ، وإبراهيم ، من  
أمته مارية القبطية فمات القاسم ، ثم مات الطاهر ، فقال العاص بن وائل السهمي : قد انقطع

(1) البداية والنهاية . ج 5 ص 303 .

(2) البداية والنهاية . ج 5 ص 305 .

نسله فهو أبتر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾<sup>(1)</sup>. أي: مُبْغَضُكَ - يامحمد! - هو المقطوع من كل خير. وأولاد خديجة الثلاثة قد ماتوا كلهم صغاراً بمكة. وأمّا إبراهيم فتوفي بالمدينة، وهو ابن ستة عشر شهراً، فقال رسول الله: «ادفنيه في البقيع، فإنّ له مرضعاً يتمّ رضاعه في الجنة». عن أنس بن مالك قال: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله؛ كان إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة، وكان ينطلق ونحن معه، فيدخل إلى البيت وإنّه ليدخلن، وكان ضئره فينا، فيأخذه فيقبله، ثم يرجع. فلمّا توفي إبراهيم قال رسول الله: «إنّ إبراهيم ابني، وإنه مات في الندي، وإنّ له لضئرين تكملان رضاعه في الجنة». وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: لمّا توفي إبراهيم بكى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقال أبو بكر وعمر: أنت أحقّ من علم لله حقّه، فقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يُسخط الربّ؛ لولا أنّه وعد صادق، وموعد جامع، وأنّ الآخر ممّا يتبع الأوّل، لوجد ناعيك يا إبراهيم وجداً أشدّ ممّا وجدنا، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون»!!

ب - الإناث هن: زينب، وأمّ كلثوم، ورقية، وفاطمة. فأما زينب فهي أكبر بنات رسول الله، وتزوجها أبو العاص لقيط بن الرّبيع، فولدت له عليّاً، وأمّامة؛ وهي التي كان رسول الله يحملها في صلاته، فإذا سجّد وضعها، وإذا قام حملها. وقد تزوّجها عليّ بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة. وكانت وفاة زينب سنة ثمان من الهجرة النبوية. وأمّا رقية فقد تزوّجها أولاً ابن عمّها عتبة بن أبي لهب، ثم طلقها قبل أن يدخل بها. وأمّا أمّ كلثوم فقد تزوّجها عتبة أخو عتبة بن أبي لهب، ثم طلقها قبل أن يدخل بها أيضاً، وذلك بغضة في رسول الله حين أنزل الله: ﴿تَبَّتْ يُدَا أُمِّي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾<sup>(2)</sup>. ثم تزوّج عثمان بن عفّان رقية، فهاجرت معه إلى الحبشة ثم عاد إلى المدينة، فولدت له ابناً سمّاه عبدالله ولمّا بلغ سنّه ستّ سنوات، نقره ديك في عينيه، فمات، وتوفيت أمّه رقية يوم التقى الجمعان ببدر، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مشغول هناك بجهاد النصّر، فلمّا عاد

(1) سورة «الكوثر». الآية 1 - 3.

(2) سورة «المسد». الآية 1 - 5.

ضرب لزوجها بسهم من الغنيمة، لأنه قد قام عليها يُمرّضها بأمر من رسول الله. ثم زوجته بأختها أم كلثوم، فماتت عنده أيضاً في شعبان سنة تسع من الهجرة النبوية، ولم تلد له شيئاً. وقد قال رسول الله: «لو كانت عندي ثلاثة لزوجتها عثمان». وفي رواية أخرى قال: «لو كنّ عشراً لزوجتهنّ عثمان». وأمّا فاطمة فتزوجها ابن عمّها عليّ بن أبي طالب في صفر سنة اثنتين من الهجرة النبوية، فولدت له الحسن، والحسين، وأمّ كلثوم، وزينب. وتوفيت أمهم فاطمة بعد وفاة أبيها - عليه الصلاة والسلام -! - بستة أشهر في أشهر الأقوال وأصحابها.

### عبيده ومواليه

**منهم:** أبو أسامة زيد بن حارثة، حبّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! - أعتقه وزوجه مولاته أم أيمن، فولدت له أسامة، قالت عائشة أم المؤمنين: ما بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! - زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليهم؛ ولو بقي بعده لاستخلفه. وكان معروفاً بـ «زيد ابن محمد» إلى أن نزل فيه قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾<sup>(1)</sup>. **ومنهم:** أسامة بن زيد بن حارثة، أمّه أم أيمن بركة، حاضنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! - في صغره، وقد أمره في آخر حياته، وعمره لا يتجاوز ثمانية عشر عاماً، فسار بجيشه حتى بلغ تخوم البلقاء من أرض الشام؛ حيث استشهد أبوه زيد وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة. وكان عمر بن الخطاب كلما لقي أسامة قال له: السلام عليك أيّها الأمير! وقد كان أسود اللون كالليل، أفتس، حلواً، حسناً، فصيحاً، عالماً. وكان أبوه زيد كذلك؛ إلا أنّه أبيض شديد البياض. **ومنهم:** أبو رافع أسلم القبطي، أسلم قبل بدر، ولم يشهد لها أنّه كان بمكة مع سادته آل العباس، وكان ينحت القداح، وكان كاتباً، وقد كتب بين يدي عليّ بن أبي طالب بالكوفة، وشهد فتح مصر في عهد عمر. وكان مولياً للعبّاس بن عبد المطلب، فوهبه للنبي - صلى الله عليه وسلم -! - فأعتقه وزوجه سلمى مولاته، فولدت له أولاداً. **ومنهم:** أنيسة بن زيادة أبو مسروح، شهد بدرًا، كان ممن يأذن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! - **ومنهم:** أيمن ابن عبيد الحبشي، وهو ابن أم أيمن بركة أخو أسامة لأمه. وكان ممن ثبت مع رسول الله يوم حنين، وفيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا

(1) سورة «الأحزاب». الآية 5.



وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا<sup>(١)</sup>. **ومنهم** : أبو عبدالله ثوبان بن بجدد، من أهل السّراة<sup>(٢)</sup>، فاشتراه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأعتقه وخيّره : إن شاء أن يرجع إلى قومه، وإن شاء بقي عنده؛ فإنه من أهل البيت. فأقام على ولاء رسول الله، ولم يفارقه حضراً ولا سفيراً حتى توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - **ومنهم** : حُثَيْن مولى النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وهبه رسول الله لعمّه العباس بن عبد المطلب، فأعتقه. **ومنهم** : أبو البهيّ رافع، ويقال له : أبو رافع. كان يقول - مفتخراً -: أنا مولى رسول الله! وكذلك كان بنوه يقولون من بعده. **ومنهم** : رياح الأسود، كان يأذن على النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - وهو الذي أخذ الإذن لعمر بن الخطّاب؛ حتى دخل على رسول الله في تلك المشربة يوم آلى من نسائه واعتزلهنّ في تلك المشربة وحده عليه الصلاة والسلام. **ومنهم** : أبو يسار زيد، سكن المدينة وهو الراوي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قوله : «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحي القيّوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان فرّاً من الرّحف». **ومنهم** : أبو عبد الرحمن سفينة، كان اسمه مهرا، وكان مولى لأمّ سلّمة زوجة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فأعتقه واشترطت عليه أن يخدم رسول الله طوال حياته، فقبل ذلك، وقال : لو لم تشترطي عليّ ما فارقت. وهو عربيّ المولد فارسيّ الأصل. **ومنهم** : أبو عبدالله سلمان الفارسيّ، تنقلت به الأقدار والأحوال، فصار عبداً لرجل من اليهود بالمدينة، فأسلم هناك فكتب سيّده، وأعانه رسول الله على أداء ما عليه فنسب إليه، وقال : «سلمان منّا أهل البيت». **ومنهم** : صالح بن عديّ شقران الحبشيّ، كان لعبد الرحمن بن عوف، فوهبه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - **ومنهم** : ضميرة بن أبي ضميرة الحميريّ، أصابه سبّي في الجاهليّة، فاشتراه رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وأعتقه. **ومنهم** : طهمان، وهو الذي روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - : «إنّ الصدقة لا تحلّ لي ولا لأهل بيتي، وإنّ مولى القوم من أنفسهم». **ومنهم** : عبّيد مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - روى أبو داود الطيالسيّ عنه قال : قلت : هل كان النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! - يأمر بصلاة سوى المكتوبة؟ قال : «صلاة بين المغرب والعشاء». **ومنهم** : قفّيز مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - **ومنهم** : كزكرة، كان على ثقل رسول الله في بعض غزواته، فغلّ

(١) سورة «الكهف». الآية ١١٠.

(٢) «السراة» : مكان بين مكة واليمن.

فمات، فهو في النَّار. **ومنهم** : كيسان . روى البغويّ عن عطاء بن السائب قال : أتيتُ أم كلثوم بنت عليّ، فقالت : حدّثني مولى للنبيّ - صلى الله عليه وسلم !- يقال له كيسان قال له النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- في شيء من أمر الصدقة : «إنا أهل بيت نُهينا أن نأكل الصدقة، وإنّ مولانا من أنفسنا، فلا تأكل الصدقة». **ومنهم** : مابور القبطيّ الخصيّ، أهداه لرسول الله المقوقس صاحب الإسكندرية مع مارية وشيرين وبغلة، وقد تقدّم الحديث مفصلاً عنهم . **ومنهم** : فضالة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- اليماني . **ومنهم** : نافع، روى الحافظ ابن عساكر، عن نافع هذا قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يقول : «لا يدخل الجنة شيخ زان، ولا مسكين متكبر، ولا منان بعمله على الله عزّ وجلّ». ونافع هذا هو المعروف بنافع مولى رسول الله . **ومنهم** : أبو بكرة نافع بن الحارث الثقفيّ . كان رجلاً صالحاً . آخى رسول الله بينه وبين أبي برزة الأسلميّ الذي صلّى عليه بوصيته إليه . **ومنهم** : واقد مولى رسول الله . روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : «مَن أطاع الله فقد ذكر الله؛ وإن قلّت صلّاته وصيامه، وتلاوته القرآن، ومن عصى الله فلم يذكره وإن كثرت صلّاته وصيامه، وتلاوته القرآن». **ومنهم** : أبوكيسان هرمز . روى أبو القاسم البغويّ، عن ابن أبي زياد، عن معاوية بن أبي سفيان قال : شهد بدرًا عشرون مملوكاً؛ منهم مملوك للنبيّ - صلى الله عليه وسلم !- يقال له : هرمز، فأعتقه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وقال : «إنّ الله قد أعتقك، وإنّ مولى القوم من أنفسهم؛ وإنّا أهل بيت لا نأكل الصدقة فلا تأكلها». **ومنهم** : هشام مولى رسول الله ، روى محمد بن سعد بسنده، عن أبي الزبير، عن هشام مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ! إنّ امرأتي لا تدفع يد لامس . قال : «طلّقها» . قال : إنّها تعجّبنني . قال : «فتمتع بها». **ومنهم** : يسار . وهو الذي أخذه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يوم قرقرة الكدر مع نَعَم لبني غطفان وسليم، فوهبه له النَّاس، فقبله منهم . ولمّا رآه يُحسن الصّلاة أعتقه . **ومنهم** : أبو الحمراء هلال بن الحارث، مولى رسول الله وخادمه، أصابه سبيٌّ في الجاهليّة، وهو من الموالي . قال : رابطت المدينة سبعة أشهر كيوم، فكان النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- يأتي باب عليّ وفاطمة كل غداة فيقول : «الصّلاة الصّلاة»؛ **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** <sup>(1)</sup> .

(1) سورة «الأحزاب» . الآية 33 .

ومنهم : أبو سلمى حرّث راعي رسول الله روى أبو القاسم البغويّ بسنده عنه أنّه قال : سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «مَنْ لقي الله يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، وآمن بالبعث والحساب دخل الجنة» . قيل له : أنت سمعتَ هذا من رسول الله ؟ فأدخل إصبعه في أُذنيه ، ثمّ قال : أنا سمعتُ هذا منه غير مرّة ، ولا مرّتين ، ولا ثلاث ، ولا أربع . ومنهم : أبو صفية مولى رسول الله كان يوضع له نطح ويُجاء بزبيل<sup>(1)</sup> فيه حصى ، فيسبّح به إلى نصف النهار ، ثمّ يُرفع فإذا صلى الأولى سبّح حتى يُمسي . ومنهم : أبو ضميرة مولى رسول الله ، والدضميرة المتقدم ذكره ، زوج أمّ ضميرة . ومنهم : أبو عُشيب ، وهو الذي شهد الصلاة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحضر دفنه . وهو الذي روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله : «أتاني جبريل بالحُمى والطاعون ، فأمسكت الحمى بالمدينة ، وأرسلتُ الطاعون إلى الشام ؛ فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجس على الكافر» . ومنهم : أبو كبشة سليم ، أصله من ولد أرض دوس ، وقد شهد بدرًا وأحداً وما بعدهما من المشاهد . ومنهم : أبو مويهبة مولى الرسول من مواليد مزينة ؛ اشتراه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأعتقه ، وهو الذي كان يقود لعائشة - رضي الله عنها - بعيرها .

## إماؤه

منهنّ : أمة الله زينة . ومنهنّ : أميمة مولاة رسول الله روى حديثها أهل الشام ؛ روى عنها جبير بن نفير أنّها كان توضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتاه رجل يوماً فقال له : أوصني يا رسول الله ! فقال : «لا تشرك بالله شيئاً ؛ وإن قُطعت أو حُرقت بالنار ، ولا تدع صلاة متعمداً ، فمن تركها متعمداً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ، ولا تشربن مُسكرًا ؛ فإنّه رأس كلّ خطيئة ، ولا تعصين والديك ؛ وإن أمراك أن تختلي من أهلِكَ ودياك» . ومنهنّ : أمّ أيمن بركة بنت ثعلبة بن عمر ، أمّ أسامة بن زيد ، وهي حاضنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . زوجها الأوّل عبّيد بن زيد الحبشيّ ، والثاني زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة بن زيد ، وكانت تُعرف بـ «أمّ الصبا» . ومنهنّ : خضرة . قال محمد بن سعد - نقلاً عن محمد بن عمر الواقدي - : حدّثنا عبد الله بن عبّيد الله بن عليّ بن أبي رافع عن جدّته سلمى قالت : كان خدام رسول الله : أنا ، وخضرة ، ورَضوى ، وميمونة بنت سعد ، أعتقهنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

(1) «الزبيل» : القفّة أو الجراب .

كلّهنّ. ومنهنّ: خليصة مولاة حفصة بنت عمر بن الخطاب. ومنهنّ: خولة خادمة النبيّ - صلى الله عليه وسلم!.. ومنهنّ: رزينة. مولاة صفية بنت حييّ بن أخطب، كانت تخدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. ومنهنّ: سانية مولاة رسول الله، روت عنه حديثاً في اللقطة. ومنهنّ: رَضَوَى بنت كعب، سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. عن الحائض تخضب، فقال: «ما بذلك بأس». ومنهنّ: سُدَيْسَة الأنصارية، روت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. «إنّ الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلّا خرّ لوجهه». ومنهنّ: سلامة حاضنة إبراهيم ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. ومنهنّ: سلمى أمّ رافع زوجة أبي رافع، روي عنها أنّها قالت: ما سمعتُ قطّ أحداً يشكو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. وجعاً في رأسه إلّا قال له: «احتجم» وفي رجله إلّا قال له: «اخضبهما بالحناء». وقد كانت تطبخ لرسول الله الحريرة<sup>(1)</sup> فتعجه. ومنهنّ: عنقودة، أمّ مليح الحبشية، جارية عائشة أمّ المؤمنين كانت تسمّى عنبة، فسمّاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. عنقودة. ومنهنّ: فروة ضئر رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. أي: مُرضعه، روي عنها أنّها قالت: قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم!..: «إذا أويت إلى فراشك فاقرئي ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْوُجُوهَ﴾؛ فإنّها براءة من الشرك». ومنهنّ: مارية أمّ الرّباب جارية رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. روى عبد الله بن حبيب، عن أمّ سلمى، عن أمّها، عن جدّتها مارية قالت: تَطَأُطَأُ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم!.. حتى صعد حائطاً ليلة فرّ من المشركين. وقالت: ما مسستُ بيدي شيئاً قطّ ألين من كفّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. ليلي مولاة عائشة أمّ المؤمنين. ومنهنّ: ميمونة بنت سعد مولاة رسول الله روى زياد بن أبي سودة، عن أخيه أنّ ميمونة مولاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. قالت: يا رسول الله! أفتنا في بيت المقدس! قال: «أرض المنشر والمحشر، اتنوه فصلّوا فيه؛ فإنّ الصلّة فيه كآلف صلاة». قالت: أرايت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: «فليهد إليه زيتاً يسرّج فيه؛ فإنّه من أهدى له كان كمن صلى فيه». ومنهنّ: ميمونة بنت أبي عُسَيْب. ومنهنّ: أمّ ضميرة زوجة أبي ضميرة. ومنهنّ: أمّ عياش، خادمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم!.. فبعثها مع ابنته تخدمها؛ حين زوجها بعثمان بن عفّان. قالت: كنتُ أمغث<sup>(2)</sup>

(1) «الحريرة»: الحساء؛ وهي المعروفة في عصرنا بالشربة.

(2) يقال: مغث الشيء؛ إذا دلّكه ومرسه.

لعثمان التمر غُدوة فيشربه عشية ، وأنبذه عشية فيشربه غُدوة ، فسألني ذات يوم فقال : تخلطين فيه شيئاً؟ قلتُ : أجل . قال : فلا تعودِي . **ومنهم** : رِيحانة بنت شمعون القُرْضِيَّة .

### خْدَامُهُ

لا خلاف في أن جميع الصحابة رضي الله عنهم ! قد كانوا في خدمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! بالقلب والقالب على وجه العموم والإطلاق ؛ بيد أنهم كانوا متفاوتين فيما خدموه تطوعاً وحظوة لديه وأعظم أجراً عند الله . **منهم** : أنس بن مالك الأنصاري أبو حمزة ، خدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مدة إقامته بالمدينة عشر سنين ، فما عاتبه يوماً على أية خدمة خدمه بها أبداً ، ولا قال لأي شيء فعله : لَمْ فعلته قط ، ولا لأي شيء لم يفعله : ألا فعلته ! فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فقال : «اللهم أكثر ماله وولده ، وأطل عمره ، وأدخله الجنة» ! . **ومنهم** : الأسلع بن شريك بن عوف الأعرجي ؛ اسمه ميمون . كان يخدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- في الحضر والسفر . **ومنهم** : أسماء بن حارثة الأسلمي ، من أهل الصُّفَّة ، كان هو وأخوه هند بن حارثة يخدمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ولا ييرحان بابه . **ومنهم** : بكير بن الشداخ الليثي ، كان يخدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فاحتلم فأعلم بذلك رسول الله وقال : إني كنت أدخل على أهلك وقد احتلمتُ الآن يا رسول الله ! فقال : «اللهم صدق قوله ولقَه الظُّفر» . **ومنهم** : بلال بن رباح الحبشي ، مولى أمية بن خلف اشتراه أبو بكر وأعتقه ابتغاء وجه الله ، شهد بدرًا وأُحدًا وما بعدهما من المشاهد ، مولده بمكة ، وكان أفصح جيله . **ومنهم** : أبو فراس ، ربيعة بن كعب الأسلمي . قال : كنت أبيتُ مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فأتيه بوضوئه وحاجته ، فكان يقوم من الليل فيقول : «سبحان ربِّي وبحمده الهوي ، سبحان رب العالمين الهوي» . فقال رسول الله : «هل لك حاجة» ؟ قلتُ : يا رسول الله مرافقتك في الجنة ، قال : «فأعني على نفسك بكثرة السجود» . **ومنهم** : حبة وسواء ابنا خالد قالا : دخلنا على النبي - صلى الله عليه وسلم !- وهو يُصلح شيئاً فأعناه ، فقال : «لا ينسأ من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحيماً ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل» . **ومنهم** : ذو مخمر ، ابن أخي النجاشي ملك الحبشة ، بعثه عمه النجاشي إلى المدينة ليخدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- نيابة عنه . **ومنهم** : سعد مولى أبي بكر الصديق ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- لأبي بكر : «أعتق سعداً» . فقال أبو

بكر: يا رسول الله! ما لنا خادم هاهنا غيره، فقال: «أعتق سعداً أئتتك الرجال، أئتتك الرجال». قال سعد: قَرَّبْتُ بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قمرأً، فجعلوا يقرنون، فنهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - عن القرآن. ومنهم: عبدالله بن رواحة، دخل مكة يوم عمرة القضاء، وهو يقود بناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ      الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ  
كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ      ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ  
وَيُشْغِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

ومنهم: عبدالله بن مسعود. هاجر الهجرتين، وشهد بدرأً وما بعدها من المشاهد، كان يلي حَمْلَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم! - كما يلي طهوره، وكان يرحل دابته متى أراد الركوب عليها، وكان عارفاً بتفسير القرآن الكريم، وكان ذا علم وفضل وحلم. ولما جعل الصحابة يُعجبون من دَقَّةِ سَأْئِهِ، قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد!». ومنهم: عقبة بن عامر الجهني. روى الإمام أحمد بسنده، عنه أنه قال: بينما أنا أقود برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - في نَقَبٍ من تلك النَّقَابِ، إذ قال لي: «يا عقبة! ألا تركب؟» فأشفقتُ أن تكون معصية، فنزل رسول الله وركبتُ هُنَيْهَةً، ثم ركب، ثم قال: «يا عقبة! ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما النَّاسُ؟ قلت: بلى يا رسول الله! فأقرأني: «قل أعوذ بربِّ الفلق» و«قل أعوذ بربِّ النَّاسِ». ثم أُقيمت الصلاة، فتقدَّم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقرأ بهما. ثم مرَّ بي فقال: «اقرأ بهما كلَّما نمتَ وكلَّما قمْتَ». ومنهم: قَيْسُ بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي كان لدى رسول الله بمنزلة الشرط من الأمير، وكان أطول الرِّجَالِ، وكان كريماً مُمَدِّحاً، ذا رأي سليم، ودعاء عديم التَّظْئِيرِ. وكان كثير الرفع لأُصْبَعِهِ الْمَسْبُوحَةِ وهو يدعو الله، رضي الله عنه وأرضاه! . ومنهم: الْمُغِيرَةُ بن شُعْبَةَ الثَّقَفِيِّ؛ كَانَ السُّلَحْدَارَ<sup>(1)</sup> بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وكان يوم الحديبية واقفاً على رأس رسول الله، رافعاً سيفه في يده، وكلَّما أهوى عمَّه عُرْوَةُ بن مسعود بيده إلى الحية رسول الله ليلمسها - على عادة العرب في مخاطبتهم - قرع المغير يد عمَّه بقائمة السَّيْفِ، وهو يقول: أخريدك عن حية رسول الله قبل أن لا تصل إليك. ومنهم: المقداد بن الأسود، أبو سعيد

(1) «السُّلَحْدَارُ»: كلمة دخيلة على العربية؛ ومعناها الذي يحمل السَّلاح في المواقب السُّلْطَانِيَّةِ.

الكنديّ، حليف بني زُهرة. روى الإمام أحمد بسنده، عن أبي ليلى، عن المقداد بن الأسود قال: قدمت المدينة أنا وصاحبان، فتعرّضنا للنّاس فلم يضيفنا أحد، فأتينا إلى النّبيّ - صلى الله عليه وسلم! فذكرنا له، فذهب بنا إلى منزله وعنده أربعة أعنز، فقال: «احلبهنّ يا مقداد! وجزّهنّ أربعة أجزاء، وأعط كلّ إنسان جزءاً». فكنت أفعل ذلك... ومنهم: مهاجر مولى أمّ سَكَمَة. روى الطبرانيّ بسنده عن مهاجر مولى أمّ سَكَمَة قال: خدمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - سنين، فلم يقل لي شيء صنعته؛ لمَ صنعت؟ ولا شيء تركته؛ لمَ تركته؟. ومنهم: أبو السّمح روى أبو العباس محمد بن إسحاق الثّقفيّ بسنده، عن أبي السّمح قال: كنت أخدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فكان إذا أراد أن يغتسل؛ قال لي: «ناولني أدواتي»، فأناوله وأستره فأُتي بحسّن أو حُسَيْن، فبال على صدره، فجئتُ لأغسله، فقال: «يُغسل من بول الجارية، ويُرشُّ من بول الغلام».

## كُتَابُهُ

منهم: الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، رضي الله عنهم وأرضاهم. ومنهم: أبان بن سعيد بن العاص الأمويّ، كان إسلامه بعد الحديبية وبعد إسلام أخويه: خالد وعَمْرُو. ومنهم: أبو المنذر أبيّ بن كعب بن قيس الأنصاريّ الخزرجيّ، سيّد القراء، شهد العقبة الثانية وبدرًا وما بعدها من المشاهد. وفي الصّحّاحين: عن أنس بن مالك: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قال لأبيّ: «إنّ الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن». قال: وسَمّاني لك يا رسول الله؟! قال: «نعم». قال: «فذكرت عيناه». قال إسماعيل بن كثير: «ومعنى أن أقرأ عليك قراءة إبلاغ وإسماع، لا قراءة تعلّم منه، هذا لا يفهمه أحد من أهل العلم، وإنّما نَبّهنا على هذا لئلا يُعتَقَد خلافه»<sup>(1)</sup>. ومنهم: أرقم بن الأرقم؛ اسمه عبد مناف بن أسد المخزوميّ وهو الذي اختفى في داره عند الصّفا رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - وبعد ذلك عُرِفَت تلك الدّار بـ «الخيزران». كتب بأمر رسول الله أقطاع عظيم بن الحارث المحاربيّ بـ «فخّ» وغيره. ومنهم: أبو عبد الرحمن، ثابت بن قيس بن شماس الأنصاريّ الخزرجيّ. وفي صحيح مسلم أن رسول الله بشره بالجنة، وهو من مدحهم رسول الله وأثنى عليهم من الصحابة. روى الترمذيّ في جامعه بإسناده على شرط مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل

(1) البداية والنهاية. ج 5 ص 340.

عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح، نعم الرجل أسيد بن حضير، نعم الرجل ثابت بن قيس، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجوخ. **ومنهم** : حنظلة بن الربيع التميمي، روى من أحاديث رسول الله ثلاثة، أحدها : قوله - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ : بَرَكَوَعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَوُضُوءِهِنَّ وَمَوَاقِيَتِهِنَّ، وَعَلِمَ أَتَهَنَّ حَقَّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ». **ومنهم** : أبو سعيد، خالد بن سعيد بن العاص الأموي، كان من الذين هاجروا إلى الحبشة، وهو الذي ولي عقد تزويج رسول الله بأُم حبيبة بنت أبي سفيان هناك، ثم رجع من أرض الحبشة صحبة جعفر، فقدمَا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم افتتاح خيبر، فأَسَهم لهما عن مشورة المسلمين. روى محمد بن سعد بسنده، عن عثمان بن عفان قال : أقام خالد بن سعد بعد أن قدم من أرض الحبشة بالمدينة، وكان يكتب لرسول الله ؛ وهو الذي كتب كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف، وسعى في الصلح بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. **ومنهم** : أبو سليمان، خالد بن الوليد المخزومي أمير الجيوش الإسلامية والعساكر الحمديّة روى عن رسول الله أحاديث كثيرة، وكتب له كتباً عديدة. جاء في أحدها : «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المؤمنين : أن صيدوح لا يُعْضد صيده ولا يُقْتل. فَمَنْ وَجَدَ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَإِنَّهُ يُجْلَدُ وَيُنَزَعُ ثِيَابُهُ، وَإِنْ تَعَدَّى ذَلِكَ أَحَدٌ فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ فَيُلْغَى بِهِ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -. وَأَنَّ هَذَا مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، فَلَا يَتَعَدَّاهُ أَحَدٌ فَيُظْلَمُ نَفْسُهُ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ مُحَمَّدٌ». **ومنهم** : أبو عبد الله، الزبير بن العوام الأسدي بن صفية عمّة رسول الله، وهو الذي كتب لبني معاوية بن جبرول الكتاب الذي أمره به رسول الله أن يكتبه لهم. هاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلّها، وهو أوّل من سلّ سيفه في سبيل الله. **ومنهم** : أبو سعيد، زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاريّ النجاريّ، شهد الخندق وما بعدها من المشاهد. جاء في صحيح البخاريّ : أن رسول الله أمره أن يتعلّم كتاب يهود، ليقراء عليه إذا كتبوا إليه، فتعلّمه في خمسة عشر يوماً. وقد كان يكتب الوحي لرسول الله، وتتبع القرآن فجمعه في عهد أبي بكر - رضي الله عنهما وأرضاهما -. **ومنهم** : عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق. استكتبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. **ومنهم** : عبد الله بن أرقم بن أبي الأرقم المخزومي. أسلم عام الفتح، وكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -. وكان يُجيب عنه الملوك، وكان أميناً في كتابته، حتى إنّه يختم على ما يقرؤه لأمانته عند رسول الله. وكتب لأبي بكر بعد رسول الله،



وجعل إليه بيت المال ، وأقرّه على ذلك عمر بن الخطاب . ولما جاء عثمان عزله . **ومنهم** : عبدالله ابن زيد بن عبد ربّه الأنصاريّ الخزرجيّ ، صاحب رؤيا الأذان والإقامة ، شهد عقبة السبعين نفراً ، وحضر بدرأ وما بعدها من المشاهد كلّها كتب كتاباً لمن أسلم من قبيلة جرش ، يتضمّن الأمر بإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة وإعطاء خمس المغنم . **ومنهم** : عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، القرشيّ العامريّ ، فاتح إفريقية الشمالية ، أخو عثمان بن عفّان لأُمّه من الرضاعة ، كتب الوحي ، ثم ارتدّ عن الإسلام ، والتجأ إلى المشركين بمكة ، فأهدر رسول الله دمه . فلمّا كان عام الفتح ، جاء إلى عثمان بن عفّان نادماً تائباً مستأمنأ به ، فأمنّه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- فعاد إلى الإسلام وحسن إسلامه . **ومنهم** : العلاء بن عقبة ، كتب للنبيّ - صلى الله عليه وسلم !- حسبما ذكره الحافظ بن عساكر بإسناده والواقديّ ، وابن الأثير في كتابه الغابة . **ومنهم** : أبو عبدالله ، محمّد بن سلمة الأنصاريّ الحارثيّ . شهد بدرأ وما بعدها من المشاهد ، استخلفه رسول الله على المدينة في غزوة تبوك ، كتب لوفد مرّة كتاباً بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وكان على رأس من اعتزل الفتنة واتّخذ سيفاً من خشب . **ومنهم** : معاوية بن أبي سفيان الأمويّ ، كان كاتباً بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- باتّفاق بين النّاس قاطبة . **ومنهم** : المغيرة بن شعبة الثقفيّ ، كتب إقطاع حصين بن نضلة الأسديّ ، الذي أقطعه إيّاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- وأمر المغيرة أن يكتبه . فهؤلاء - مع الخلفاء الأربعة الراشدين - هم كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- بأمره وبين يديه ؛ رضي الله عنهم وأرضاهم .

### خاتمه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خاتم من فضّةٍ يَخْتَمُ به كتبه منقوش بثلاثة أسطر ، هكذا : « الله رسول محمد » . يقرأ من الأسفل إلى الأعلى .

### أُمرأوه

**منهم** : باذان بن ساسان من ولد براهيم جور ، وهو أوّل أمير في الإسلام أمّره رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- على اليمن كلّها بعد موت كسرى ، وهو أوّل من أسلم من ملوك العجم . **ومنهم** : شهر بن باذان ، أمّره على صنعاء وأعمالها بعد موت أبيه . **ومنهم** : خالد بن سعيد بن العاص ، أمّره على صنعاء بعدما قُتل شهر . **ومنهم** : زياد بن أميّة الأنصاريّ ، أمّره على حضرموت . **ومنهم** : أبو موسى الأشعريّ ، أمّره على زبيد ، وعدن ، والسّاحل . **ومنهم** : معاذ

ابن جبل، أمره على الجند. **ومنهم**: أبو سفيان، صخر بن حرب، أمره على نجران. **ومنهم**: عتاب بن أسيد، أمره على مكة وإقامة مواسم الحج بالمسلمين، وكان سنه دون العشرين!. **ومنهم**: علي بن أبي طالب، أمره على أخماس اليمن وعلى القضاء بها. **ومنهم**: عمرو بن العاص، أمره على عمان وأعمالها. **ومنهم**: أبو بكر الصديق، أمره على إقامة شعائر الحج بالناس سنة تسع من الهجرة النبوية، وبعث في أثره علي بن أبي طالب مساعداً له، وليقرأ على الناس سورة «براءة». وعندما لحق علي بأبي بكر، قال له أبو بكر: أأمير أنت أم مأمور؟ فقال علي: أنا مأمور. **ومنهم**: جماعة كثيرة من قبائل العرب، أمرهم رسول الله على جمع الصدقات وقبضها من أصحابها، وهم المعروفون بعمال الصدقات، أي: الزكوات.

### حراسه

**منهم**: سعد بن معاذ، حرسه يوم بدر حين نام بالعريش. **ومنهم**: محمد بن مسلمة، حرسه يوم أحد. **ومنهم**: الزبير بن العوام، حرسه يوم الخندق. **ومنهم**: عباد بن بشر كان ملازماً حراسته. وحرسه جماعة آخرون من غير هؤلاء. فلما نزل قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾<sup>(1)</sup>، خرج على الناس وأنبأهم بما أخبره الله به، وصرفهم عن حراسته.

### مؤذنه

مؤذنو رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - أربعة: اثنان بالمدينة، وهما: بلال بن رباح الحبشي، وهو أول من أذن لرسول الله بالمدينة. وعمرو بن أم مكتوم القرشي العامري وكان أعمى البصر. وواحد بقباء، وهو: سعد القرظ مولى عمار بن ياسر. وواحد بمكة، وهو: أبو محذورة أوس بن مغيرة الجمحي. وكان أبو محذورة يرجع الأذان ويثني الإقامة. وكان بلال لا يرجع الأذان ويفرد الإقامة، فأخذ الإمام الشافعي وأهل مكة بأذان أبي محذورة وإقامة بلال، وأخذ الإمام أبو حنيفة وأهل العراق بأذان بلال وإقامة أبي محذورة وأخذ الإمام أحمد وأهل الحديث وأهل المدينة بأذان بلال وإقامته، وخالفهم الإمام مالك في الموضعين فأخذ بترجيع التكبير وإفراد الإقامة.

(1) سورة «المائدة». الآية 67.

## شعراؤه

شعراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثلاثة ، هم : أبو محمد ، عبدالله بن رواحة الأنصاري ، أحد النقباء الاثني عشر ، وأحد المستخلفين على المدينة في إحدى الغزوات ، آخى رسول الله بينه وبين المقداد ، فكان من كتاب رسول الله وأمرائه ورواة أحاديثه . شهد بدرًا ؛ وهو الذي جاء يبشرى نصر المسلمين في وقعة بدر إلى المدينة . وكعب بن مالك الأنصاري الخزرجي ، لم يشهد بدرًا ، بيد أنه شهد غيرها من مشاهد المعارك بجد وإخلاص ، وكان يُعبر بشعره أعداء الإسلام بالكفر والإشراك . وحسان بن ثابت الأنصاري التجاري ، اشتهر بـ «شاعر الرسول» و«شاعر الإسلام» ، مدح رسول الله وصحابته ، وهجا كفار قريش وأعداء الله ورسوله . وشهد كل الغزوات ووصفها وصفًا دقيقًا ، وبكى شهداء المسلمين ورثاهم ، وعلق المشركين بلسانه الحاد ، وأقام له رسول الله منبراً في المسجد ينافح من فوقه عن الإسلام والمسلمين بشعره الجهادي لإعلاء كلمة الله ونصر من لا رسول بعده .

## حُداته

كان لرسول الله حُدّة يحدون بين يديه في السّفر . منهم : عبدالله بن رواحة . ومنهم : عامر بن الأكوع . ومنهم : سَكَمَة بن الأكوع . ومنهم : أنجشة . أخرج البخاري ومسلم والإمام أحمد : أنه كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حاد حسن الصوت ، اسمه أنجشة ، فقال له رسول الله : «رويدًا يا أنجشة ! لا تكسر القوارير» . المراد بالقوارير ضعفة النساء .

## راياته وألويته

الألوية أصغر من الرايات ، وشكل اللّواء مستطيل ، وشكل الراية مربع . وكان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- رايات وألوية .

منها : راية السّلاح اسمها العقاب ، تفاؤلاً بشجاعة الطائر المعروف وشدة بأسه واعتزازه بنفسه ، وهو سيّد الطيور ورمز من رموز المجد ، وكان شكل هذه الراية ضخماً ، وهي من الصّوّف ، لونها أسود . وكان اللّواء النبوي أبيض اللون ، مكتوب عليه كلمتي الشهادة : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» وكان الرّمز العامّ ، أما الرايات فكانت بتعددات الألوان ؛ حسبما تقتضيه وحدات القبائل .

وظلّت الأعلام البيضاء شعار الأمويّين والفاطميّين بعدهم . أما الأعلام السوداء فكانت شعار العبّاسيّين . ومّا يجدر الانتباه إليه أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- هو الذي كان يعقد الألوية والرّايات لأصحابه فقد عقد لعمره حمزة بن عبد المطلب لواء أبيض وعقد لعبيدة بن الحارث لواء أبيض أيضاً ، وعقد لعمره العبّاس بن عبد المطلب يوم حنين راية سوداء .

### حملة الألوية والرّايات

كان للنبيّ - صلى الله عليه وسلم !- أبطالاً لحمل ألويته وراياته . منهم : عبدالله بن رواحة . ومنهم : الزبير بن العوام . ومنهم : سعد بن عبّادة . ومنهم : خالد بن الوليد . ومنهم : عليّ بن أبي طالب . ومنهم : جعفر بن أبي طالب ؛ رضي الله عنهم وأرضاهم ! وأول من نشر ألوية الإسلام وراياته على سُنن البحر هو الصحابيّ الجليل والقائد العظيم : عقبة بن عامر الجُهنيّ ، وقد أطلق عليه المصريّون اسم «القائد العام» .

### أسيافه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- تسعة أسياف ؛ كلّ سيف منها له اسم خاصّ به ، وهي : المأثور ؛ وهو أوّل سيف ملكه عن طريق الوراثة من أبيه . وذو الفقار<sup>(1)</sup> ؛ غنمه يوم بدر من رجل مشرك اسمه منبه بن الحجاج ، وقد سمّي بـ «ذو الفقار» لحفر فيه . وقد نال هذا السيف شهرة في الحجاز ؛ وقد ذكر أصحاب السنن أنّه سُمعَ قائل يقول : لا سيف إلّا ذو الفقار ، ولا فتى إلّا عليّ . وانتقل هذا السيف من رسول الله إلى ابن عمّه عليّ ابن أبي طالب . والعُضْب ؛ وقد شهد به رسول الله غزوة بدر ، وكان هذا السيف مربوطاً على ناقة رسول الله يوم دخوله المدينة . والقلعيّ . والبتر . والخيف ؛ هذه السيّوف الثلاثة غنمها رسول الله من سلاح بني قينقاع . والحتف . والمخزم ؛ أي : القاطع . والرسوبه ؛ أي : الذي يمضي في الضربة ويثبت فيها . والصمصمة ؛ وهو سيف عمرو بن معدّي كَرَب . وكان رسول الله لا يفارق سيفه ذا الفقار ، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله كلّها من فضّة .

(1) «ذو الفقار» : بكسر الفاء ، وفتح القاف المخففة .

## أدرعه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- سبعة أدرع : ذات الفضول ؛ وهي التي رهنها رسول الله عند أبي الشحم اليهودي في ثلاثين صاعاً من الشعير لعياله ، لمدة سنة واحدة . وكانت هذه الأدرع من حديد ، وهي التي كانت عليه يوم أُحُد . وذات الوشاح . وذات الخواشي . والسعدية . وفضة . والبتراء . والخرنق .

## قسيّة (أقواسه)

وكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ست قسيّ : الزوّاء . والروحاء . وكانت من شجرة النّبع - والصفراء - كانت من شجرة النّبع أيضاً . قال الشّماخ الشاعر :  
شرائحُ النّبع براها القوّاسُ .....

والبيضاء من شوحط . والمكتومة ؛ سمّيت بذلك لانخفاض صوتها عند انطلاق السهم منها ؛ كسرت يوم أحد فأخذها قتادة بن النّعمان . والسّداد .

## أتراسه

كانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثلاثة أتراس : الزّلوق . والعُتق . والموجز . ويقال : كان له ترس أهدي إليه فيه صورة رأس كبش ، فوضع يده المباركة عليها فأذهب الله تلك الصّورة .

## أرماحه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- خمسة أرماح : المُثوي . والمُثني . والنّبعة ؛ والبيضاء ؛ وهي أكبرهنّ . والعنزة ؛ وهي أصغرهنّ ، كانت يمشى بها بين يديه في الأعياد ، وكانت تركّز أمامه فيتخذها سترة له في صلاته ، وتارة يمشي بها أحياناً .

## جبابه

كانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثلاث جباب يلبسها عند الحرب ، إحداها من سندس أخضر .

## مغضراه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مغفران أحدهما يسمّى : الموسع .

والثاني يسمّى: السَّوْع . وكان له محجن<sup>(1)</sup> طوله ذراع، يسمّى: الرِّق . وكان له سرج يسمّى السراح . وكانت له مخصرة تسمّى العرجون . وكان له قضيب من الشوحط يسمّى: الممشوق ؛ وهو الذي كان يتداوله الخلفاء . وكان له فسطاط، يسمّى الكن ؛ وهو بيت من شعر . وكانت له جُعبة تسمّى: الجمع ؛ أو الكافور ؛ وهي كنانة للنشاب والسهم .

### أفراسه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أفراس عتاق وهي: السَّكْب ؛ قيل: أوّل فرس اشتراه من الأعرابيّ وملكه بعشر أواق . والضَّرْس ؛ وكان أغرّ، محجّلاً، كميّثاً، أدهم، طلق اليمين . والمرتجز ؛ أشهب اللون ؛ وهذا الذي شهد فيه خزيمه بن ثابت . واللَّحِيف . واللَزَّاز . والظَّرَب . وسبيحة . والورد . فهذه سبعة أفراس متفق عليها، وجمعها أحدهم من العلماء الشافعية في بيت فقال :

وَالْخَيْلُ: سَكْبٌ، لُحَيْفٌ سَبِيحَةٌ ضَرَسٌ      لَزَّازٌ مُرْتَجَزٌ وَرَدُّكُهَا أَسْرَارُ

### بغاله

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أربعة من البغال: دُلْدُلٌ ؛ وكانت شهباء في لونها، أهداها له المقوقس ملك الإسكندرية . وفَضَّة . أهداها له فروة الجذاميّ . وبغلة أخرى شهباء أهداها له صاحب أيلة . وبغلة رابعة أهداها له صاحب دومة الجندل ، فأهداها لأبي بكر .

### حماراه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- حماران اثنان أحدهما : عَفْرٌ أهداه له المقوقس مع البغلة دُلْدُل ؛ وقد نفق بعد منصرفه من حجة الوداع . ثانيهما : يعفور أهداه له النجاشي ملك الحبشة .

### إبله

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- من الإبل: القِصَواء ؛ وهي التي هاجر عليها . والعضباء . والجدعاء ؛ سمّيتا بذلك ولم يكن بهما غضب ولا جدع ! وكانت العضباء لا يسبقها سابق، ثم جاء أعرابيّ على قعود فسبقها ؛ فشقّ ذلك على المسلمين ، فقال رسول الله - صلى الله

(1) «محجن»: عصا معقّمة الرأس، يمشي بها ويركب بها، ويعلقها على بعيره .

عليه وسلم !: «إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا وَضَعَهُ»<sup>(1)</sup>. وكان رسول الله قد غنم يوم بدرَ جملاً مُهْرِيًّا لأبي جهل ، وكان في أنفه برة من فضة ، فأهداه يوم الحُدَيْبِيَّة ليغيظ بذلك المشركين . وكانت له خمس وأربعون لَفْحَةً وكانت له مُهْرِيَّة بعث بها إليه سعد بن عبادَة ، وهي من نَعَم بني عَقِيل .

### شياهه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مائة شاة ، لا يريدُها أن تزيد على عددها ؛ بل كان كلِّما وُلِد له الراعي بهمة ، ذبح مكانها شاة . وكانت له سبع أعنز منائح ، ترعاهنّ مولاته أمّ أيمن .

### ملابسه

كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- عمامة وقلنسوة ، وكانت عمامته سوداء ، تسمّى : السَّحَاب ، وكان يلبسها ويلبس تحتها القلنسوة وتارة يلبس القلنسوة بغير عمامة ، وتارة يلبس العمامة بغير قلنسوة ويُرخي طرفيها بين كتفيه . وكان يلبس القميص وهو أحبّ الثياب إليه ، وكان كمّاه يصلان إلى الرّسغ . وكان يلبس القباء ، والفروج ؛ وهو شبيه بالقباء ، وكان يلبس الفرجية ، وكان في سفره يلبس جبّة ضيّقة الكمّين ، وكان الرداء والإزار من ألبسته وكان طول ردائه ستة أذرع وثلاثة وشبر . وكان طول إزاره أربعة أذرع وشبر في عرض ذراعين وشبر . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يلبس الحُلّة ؛ وهي اسم لثوب مكوّن من إزار ورداء معاً . وقد لبس رسول الله السّراويل ؛ كما لبسها أصحابه بإذنه . وكان قد نهى عن لباس الثياب الحمراء البحت ؛ كما في صحيح البخاريّ ومسلم وغيرهما . وكانت قمصانه من قطن قصيرة الكمّين . وكان أحبّ الألوان إليه البياض ، وأكرهها إليه الحمرة .

### بردته

البردة : جمع برد ؛ وهي كساء مخطّط يُلتحف به ، وهي من ثياب رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- المعتبرة . وقد توارثها عنه خلفاء المسلمين من بعده ، وتبرّكوا بالتحافها في أفراسهم . قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن الحافظ البيهقيّ - : «وأما البرد الذي عند الخلفاء ، فقد رويناه عن

(1) أخرجه البخاريّ ، والتّسائيّ ، وأبو داود ، والإمام أحمد .

محمد بن إسحاق بن يسار في قصة تبوك : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- أعطى أهل أيلة بردة مع كتابه الذي كتب لهم أماناً لهم ، فاشتراها أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاثمائة دينار - يعني بذلك أول خلفاء بني العباس ، وهو السفاح رحمه الله - وقد توارث بنو العباس هذه البردة خلفاً عن سلف ؛ كان الخليفة يلبسها يوم العيد على كتفيه ويأخذ القضيبي المنسوب إليه - عليه الصلاة والسلام !- في إحدى يديه ، فيخرج وعليه من السكينة والوقار ما يصدع به القلوب ويبهز به الأبصار ، وكان أولئك الخلفاء يلبسون السواد في أيام الجمع والأعياد ، وذلك اقتداءً منهم بسيد أهل البدو والحضر ، ممن يسكن الوير والمدر ، لما أخرجه البخاري ومسلم إماما أهل الأثر»<sup>(1)</sup> .

### خاتمه

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يتختم في يمينه بخاتم من فضة . وثبت في الصحيحين ، عن مالك بن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- يلبس خاتماً من ذهب ، فنبذه وقال : «لا ألبسه أبداً» . فنبذ الناس خواتيمهم ، وقد كان خاتم الفضة يلبسه كثيراً ؛ ولم يزل في يده حتى توفي ؛ صلوات الله وسلامه عليه ، وكان فضة منه ؛ يعني : ليس له فصّ يفصل عنه .

### نعله

كان لرسول الله نعال سبتية ، وهي التي لا شعر عليها . روى الترمذي في الشمائل عن عبد الله بن عباس قال : كان لنعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- قبالة<sup>(2)</sup> منى شراكهما .

### مكحلته

كانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مكحلة يكتحل منها عند النوم ثلاث اكتحالات في كل عين . وكان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم !- مخضب ، ومقراض ، ومرآة ، ومشط ، وسواك يستخدمه قبل الوضوء . وكان يحب الطيب ، فيتطيب بطيب يُسمى «الفاعلية» ؛ وهو نوع من الطيب مركب من مسك وعود وعنبر ، وكان يتبخّر بالعود ويطرح معه الكافور ، وكان يُعرف في الليلة المظلمة بطيب ريحه ، وكان لديه سلّة صغيرة يضع فيها مشطه ومرآته وطيبه ومكحلته

(1) البداية والنهاية . ج 6 ص 8 .

(2) «قبالة» : قبال التعل - بكسر القاف - الزّمام الذي يكون بين الإصبع الوسطى والتي تليها .



ومقراضه . وكان له أشياء كثيرة خاصة به في حياته المباركة ، وقد حصر جلّها أصحاب السنن والسير والشمائل الحمديّة ورواة الأحاديث النبويّة ؛ فلتُنظر في مظانها هناك .

### نبذة من شرف أخلاقه وكمال فضائله - عليه الصلاة والسلام-

قال شمس الدّين أبو عبد الله ، محمّد بن قِيَم الجوزيّة : «إنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- هو المهيأ لأشرف الأخلاق وأجمل الأفعال ؛ المؤهّل لأعلى المنازل ! وأفضل الأعمال ! لأنّها أصول تقود إلى ما ناسبها ووافقها ، وتنفرد ممّا باينها وخالفها ، ولا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده ، تُبعثُ على مصالح الخلق وطاعة الخالق ، فكان أفضل الخلق بها أخصّ وأكملهم بشروطها أحقّ بها وأمسّ ، ولم يكن في عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم !- وما داني طرفيه من قاربه في فضله ، ولا دانه في كماله خُلُقاً وخُلُقاً وقولاً وفعلًا ، وبذلك وصفه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(1)</sup> . فإن قيل : فليست فضائله دليلاً على نبوّته ، ولم يُسمع بنبيّ احتجّ بها على أمته ، ولا عوّل عليها في قبول رسالته ؛ لأنّه قد يُشارك فيها حتى يأتي بمعجز يخرق العادة ، فيعلم بالمعجز أنّه نبيّ ؛ لا بالفضل . قيل : الفضل من أماراتها ؛ وإن لم يكن من معجزاتها ، ولأنّ تكامل الفضل معوز ، فصار كالمعجز ، ولأن من كمال الفضل اجتناب الكذب ، وليس من كذب في ادعاء النبوة بكامل الفضل ، فصار كمال الفضل موجباً للصدّق ، والصدق موجب لقبول القول ، فجاز أن يكون من دلائل الرُّسل . وقد ردّ على استشعار هذا «القبيل» محمّد عبد القادر عطا محقّق كتاب «زاد المعاد» فقال : «هذا القبيل والقال من الأسلوب الجدليّ العقيم ، وإنّ الثابت قطعاً أنّ فضائل رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- التي خصّه الله تبارك وتعالى بها معجزة دالة على صدق نبوّته - عليه الصلاة والسلام !- وبرهان هذا حسيّ لا محيد عنه ؛ وهو أنّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- أتى إلى قوم لقاح لم يدينوا للملوك ، ولم يُمتلكوا للجبابرة ، ولا يطيعون لأحد ، ولا ينقادون لرئيس ، قد نشأ أبائهم وأجدادهم وأسلافهم على هذا منذ ألوف من الأعوام . وقد سرى الفخر والعزة والنخوة والكبر والأنفة في طباعهم ، وهم أعداد عظيمة ، ملؤوا جزيرة العرب ثم كيف استطاع النبيّ - صلى الله عليه وسلم !- التغلّب على قساوة طباعهم وجفاء أخلاقهم ، فعاملهم خير المعاملة ، وساسهم خير السّياسة ؛ بما حباه الله تعالى من الخُلُق العظيم والهدي القويم ،

(1) سورة «القلم» . الآية 4 .

ولولا ذلك فما كان في مقدوره الوقوف أمام جحافلهم بما لهم من الطباع الموصوفة والعادات المألوفة، ثم تحويلهم إلى أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس، لم تعهد البشرية خيراً منهم!! ومّا لا شك فيه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - كان قدوتهم وأسوتهم الحسنة، فتخلقوا بأخلاقه، وأنصفوا بصفاته، وتحلّوا بكرائمه أخلاقه ومحاسن شمائله، فتبدّلت طبائعهم بفضل الله تعالى من الظلم إلى العدل، ومن الجهل إلى العلم، ومن القسوة إلى اللين، ومن السفه إلى الحلم، ومن الكبر إلى التواضع، فكان لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بأخلاقه المنقذ والمعلم والمربي والهادي - صلى الله عليه وسلم! - وفي هذا يقول الحق سبحانه ممتناً على رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - بفضلته عليه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾<sup>(1)</sup>. فلو لم تكن أخلاقه الشريفة معجزة من معجزات نبوته لما كان هذا الامتان عليه من الله سبحانه وتعالى وارداً في تأثيره فيهم وتغييره لهم - صلى الله عليه وسلم! -<sup>(2)</sup>. ثم يتابع ابن القيم الجوزية حديثه فيقول: «فإذا وضح هذا، فالكمال المعتبر في البشري يكون من أربعة أوجه: أحدها: كمال الخلق. والثاني: كمال الخلق. والثالث: فضائل الأقوال. والرابع: فضائل الأعمال. فأما الوجه الأول: فكمال خلقه بعد اعتدال صورته، فيكون بأربعة أوصاف: أحدها: السكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم الداعية إلى التقدير والتسليم، وكان أعظم مهيب في النفوس؛ حتى ارتعدت رسل كسرى من هيئته؛ حين أتوه؛ مع ارتياضهم بصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة، فكان في نفوسهم أهيب، وفي أعينهم أعظم؛ وإن لم يتعاضم بأهبة، ولم يتناول بسطوة؛ بل كان بالتواضع موصوفاً، وبالوظء معروفاً. والثاني: الطلاقة الموجبة للإخلاص، والمحبة الباعثة على المصافاة والمودة. وقد كان محبوباً، ولقد استحكمت محبة طلاقته في النفوس؛ حتى لم يقله<sup>(3)</sup> مصاحب، ولم يتباعد عنه مقارب. وكان أحب إلى أصحابه من الآباء والأبناء وشرب البارد على الظما!! والثالث حسن القبول الجالب لمائلة القلوب؛ حتى تسرع إلى طاعته وتذعن بموافقه. وقد كان قبول منظره مستوياً على القلوب، ولذلك استحكمت مصاحبته في النفوس؛ حتى لم ينفر عنه معاند، ولا استوحش منه مباعد؛ إلا من ساقه الحسد إلى شقوته، وقاده الحرمان إلى

(1) سورة «آل عمران». الآية 159.

(2) تعليق محمد عبد القادر عطا. زاد المعاد. ج 3 ص 309، 310.

(3) «لم يقله»: لم يفضحه ولم يتركه.

مخالفته. والرابع: ميل النفوس إلى متابعتها، وانقيادها لموافقتها وثباته على شدائده ومصابرته، فما شدَّ عنه معها من أخلص، ولا ندَّ عنه فيها من تخصَّص. فهذه الرابعة من دواعي السَّعادة، وقوانين الرسالة. وقد تكاملت فيه، فأكمل لما يوازئها، واستحقَّ ما يقتضيها. وأمَّا الوجه الثاني: في كمال أخلاقه، فيكون بستَّ خصال: إحداهن: راحة عقله، وصحَّة وهمه، وصدق فراسته، وقد دلَّ على وفور ذلك فيه، صحَّة رأيه وصواب تدبيره، وحسن تألَّفه، وأنَّه ما استغفل في مكيدة، ولا استعجز في شديدة؛ بل كان يلحظ الإعجاز في المبادئ، فيكشف عيوبها، ويحلَّ خطوبها. وهذا لا ينتظم إلا بأصدق وهم وأوضح خزم. والخصلة الثانية: ثباته في الشدائد وهو مطلوب، وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة، لا يجوز في شديدة ولا يشكِّن لعظيمة أو كبيرة، ويقدر على الخلاص، أو بالشرِّ، وهو لا يزداد إلا اشتداداً وصبراً. وقد لقي بمكَّة من قریش ما يشيب التواصي، ويهدد الصياصي وهو مع الضيف يصابر صبر المستعلي، وثبت ثبات المستولي. وروى حمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لقد أخفتُ في الله، وما يخاف أحد، ولقد أوديتُ في الله، وما يؤذى أحد، ولقد أتتُ عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد؛ إلا شيء يواريه إبط بلال»<sup>(1)</sup>. وروى عبد الرحمن ابن يزيد، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما شبع آل محمد من الشعر يومين، حتى قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن صبر على هذه الشدائد في الدَّعاء إلى الله تعالى، امتنع أن يريد به الدنيا، وقد زُويت عنه، وما ذاك إلا لطلب الآخرة، ومستحيل ممَّن كذب في ادعائه إليها أن يستوحشها، أو كذب على الله تعالى أن يثاب إليها. والخصلة الثالثة: زهده في الدُّنيا وإعراضه عنها، وقناعته بالبلاغ منها، فلم يمل إلى نصارتها، ولم يُلْهَ لحلاوتها. وروى سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن خيثمة بن عبد الرحمن قال: قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إن شئت أعطيت خزائن الأرض ما لم يُعط أحد قبلك، ولا يُعطاه أحد بعدك، ولا ينقصك في الآخرة شيء، قال: «اجمعوها لي في الآخرة»<sup>(2)</sup>، فنزلت: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن

(1) رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والإمام أحمد، وابن أبي شيبة وأبو يعلى؛ وإسناده صحيح على شرط الإمام مسلم.

(2) أخرجه البخاري، وابن حبان، وهو صحيح على شرط البخاري ومسلم.

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا<sup>(1)</sup> . وروى هلال بن خباب عن عكرمة ، عن ابن عباس أنَّ عمر بن الخطاب - رضوان الله تعالى عليه ! - دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - وهو على حصير قد أثر في جسمه ، فقال له : يا رسول الله ! لو اتخذت فراشاً أو طأ من هذا ، فقال : « مالي وللدنيا ، مالي وللدنيا ؟ والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ثم راح وتركها »<sup>(2)</sup> ! وروى حمد بن بلال بن أبي بُردة قال : أخرجت إلينا عائشة - رضي الله عنها ! - كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً ، وقالت : قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - في هذين ! هذا وقد ملك من أقصى الحجاز إلى غدار العراق ، ومن أقصى اليمن إلى شجر عُمان ، وهو أزهّد الناس فيما يُقْتَنَى ويُدَّخَر ، وأعرضهم عما يُستفاد ويُحتكر ، لم يخلف عيناً ولا ديناً ، ولا حفر نهراً ، ولا شيد قصراً ، ولم يورث ولده وأهله متاعاً ولا مالاً ، ليصرفهم عن الرّغبة في الدنيا ، لما صرف نفسه عنها ، فيكونوا على مثل حاله في الزّهد فيها . وروى أبو سَلَمَةَ عن أبي هريرة قال : جاءت فاطمة - رضي الله عنها ! - إلى أبي بكر - رضي الله عنه ! - تريد الميراث ، فمنعها ، فقالت : من يرثك ؟ قال : ولدي وأهلي ، فقالت : أفلا ترث رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - ابنته ؟ فقال أبو بكر - رضي الله عنه ! - : سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - يقول : « إِنَّا لَا نُورِثُ ، ما تركنا فهو صدقة »<sup>(3)</sup> . فمن كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - يعوله فأنا أعوله ، ومن كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - يُنفق عليه فأنا أنفق عليه . وحث رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - على الزّهد في الدنيا والإعراض عن التلبّس بها ، ليكون عوناً على السلامة من تباعتها وصرف النفوس عن شهواتها . وروى عبد المطلب بن حاطب ، عن أبي موسى الأشعريّ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - قال : « من أحبّ دنياه أضرّ بآخِرته ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى »<sup>(4)</sup> . ورُوِيَ عن الحسن قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - : « احذروا الدينا فإنها أسحر من هاروت وماروت »<sup>(5)</sup> ! وروى عمرو بن مرّة ، عن أبي جعفر قال : قال رسول الله

(1) سورة «الفرقان» . الآية 10 .

(2) أخرجه الحاكم والطبراني والإمام أحمد .

(3) أخرجه الترمذي والإمام أحمد وغيرهما .

(4) أخرجه الحاكم والبيهقي والإمام أحمد وغيرهم .

(5) هذا الحديث معدود من الأحاديث الضعيفة لدى الرواة .

- صلى الله عليه وسلم! -: «يا عجباً! كلَّ العجب للمصدّق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور»<sup>(1)</sup>!! وروى عوف عن الحسن قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إنّما مثل الدنيا كمثل الماشي على الماء، هل يستطيع الذي يمشي على الماء أن لا يتلّ قدماه»<sup>(2)</sup>؟ وهذه الدواعي والوصايا ما اقتدى بها خلفاؤه في زهده، وانتقلوا بالأمور من بعده، وكان أبو بكر يتخلّل عبادة له، وهو خليفة، فسُمّي ذا الخلالين، وكان عمر يلبس مرقعة من صوف، فيها رقاع من آدم، ويطوف في الأسواق على عاتقه دُرّة، يؤدّب بها الناس، ويمرّ بالنوى فيلتقطه ويلقيه في منازل النَّاس؛ حتى يتنفعوا به، ويطوف وحده في اللَّيل عسّاً، ويتطلّع غوامض الأمور تحسّساً، ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر!! وكان عثمان يقوم الليل كلّهُ، يختم القرآن في ركعة، وجاد بما له وفدى الخلق<sup>(3)</sup> بنفسه؛ وقال: إنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد!! واشترى عليّ بن أبي طالب - وهو خليفة - قميصاً بثلاثة دراهم، قطع كُمّه من موضع الرّسغين وقال: «الحمد لله الذي هذا من ريشه» ولم يزل يأكل الخشب ويلبس الخشن، وفرّق الأموال حتى رش بيت المال، ونام فيه، وقال: يا صفراء، يا بيضاء، غرّي غيري!! وحقيق بمن كان في الدنيا بهذه الزّهادة حتى اجتذب أصحابه إليها أن لا يُتهم بطلبها، ويكذب على الله تعالى في ادعاء الآخرة بها، ويقنع في العاجل، وقد سُلِب الآجل، بالميسور النّزر، ورضي بالعيش الكدر. وقد روى الزُّهريّ، عن عروة، عن عائشة - رضي الله عنها -: قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يقول في شهر رمضان: «قدّمي غداك المبارك». وقالت: ربّما لم يكن إلّا تمرّتين! وروى عبد الله بن مسلمة، عن مالك بن أنس: أنّه بلغه أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - دخل المسجد، فوجد أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما! - فسألهما فقال: «ما أخرجكما؟» فقالا: الجوع، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «وأنا أخرجني الجوع»، فذهبوا إلى أبي الهيثم بن التّيهان، فأمر لهم بحنطة أو شعير عنده يُعمل، وقام فذبح لهم شاة، فقال له: «نكّب عن

(1) ذكره ابن عساكر، والسيوطي في «الدر المنثور».

(2) ذكره ابن عساكر؛ ولا يصحّ إسناده.

(3) «وفدى الخلق»: لم يسمح لأحد أن يقاتل الخارجين على طاعته من أهل مصر حتى قتلوه بغياً وعدواناً وهو

يتلو القرآن في المصحف الشريف!!

ذات الدَّرَّ»<sup>(1)</sup>، واستعذبَ لهم ماءً علَّقَ على نخلة، ثمَّ أوتوا بذلك الطعام، فأكلوا منه وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لَسْتُ أَلْنَّ عَنْ نَعِيمِ هَذَا الْيَوْمِ»<sup>(2)</sup>. ثمَّ ملكوا الدنيا فرفضوها، واقتنعوا بالبلاغة فيها. **والخصلة الرابعة:** تواضعه للنَّاس، وهم أتباع! وخفض جناحه لهم، وهو مطاع! يمشي في الأسواق، ويجلس على التراب! ويمتزج بأصحابه وجلسائه، فلا يتميِّز عنهم! إلَّا بإطراقه وحيائه، فصار بالتواضع متميِّزاً!! وبالتذلُّل متعزِّزاً!! ولقد دخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيئته، فقال له: «خَفُضْ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ»<sup>(3)</sup>. وهذا من شرف أخلاقه وكريم شيمه، فهي غريزة فُطِرَ عليها، وجبلة طُبِعَ بها، لم تندفعد، ولم تحصر فتحدَّ. **والخصلة الخامسة:** حلمه ووقاره عن طيش يهزه، وخرق يستفزه؛ فقد كان أحلم في النفار من كلِّ حلِيم، وأسلم في الخصام من كلِّ سليم!! وقد مُني بجفوة الأعراب فلم توجد منه نادرة، ولم يحفر عليه بادرة، ولا حلِيم غيره إلَّا ذو عثرة، ولا وقور سواه إلَّا ذو هفوة، فإنَّ الله تعالى عصمه من نزع الهوى وطيش القدرة، بهفوة وعثرة، ليكون بأتمه رؤوفاً، وعلى الخلق عطوفاً، وقد تناولته قريش بكلِّ كبيرة، وقصدته بكلِّ جريرة، وهو صبور عليهم، ومعرض عنهم، وما تفرَّد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراد لهم دون عظمائهم؛ بل تمالأ عليه الجلَّة والدُّون، فكَلَّمَا كانوا عليه من الأمر وألحَّ، كان عنهم أعرض وأفصح!! حتى قهر فعفا!! وقدر فغفر!! وقال لهم حين ظَفَر بهم عام الفتح، وقد اجتمعوا إليه: «ما ظَنُّكُمْ بِي؟» قالوا: ابن عمِّ كريم!! فإنَّ تفق فذاك الظنُّ بك، وإنَّ تنتقم فقد أسأنا، فقال: «بَلْ أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِأَخَوْتِهِ: ﴿لَا تَرْتِيبَ عَلَيَّكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»<sup>(4)</sup>. قال صلى الله عليه وسلم -: «اللَّهُمَّ قَدْ أَذَقْتُ أَوَّلَ قَرِيشٍ نِكَالاً، فَأَذِقْ آخِرَهُمْ نَوَالاً»!! وأتته هند بنت عتبة، وقد بقرت بطن عمِّه حمزة، ولاكت كَبَدَه، فصفح عنها وأعطاهها يده لبيعته<sup>(5)</sup>. فإن قيل: فقد ضرب رقاب بني قُرَيْظَةَ صبراً في يوم واحد، وهم نحو

(1) أي: لا تذيب الحلوب.

(2) أخرجه مطولاً ابن حبان في صحيحه.

(3) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»، وابن ماجه، والهيثمي في «مجمع الزوائد» والحاكم في المستدرک، وصححه.

(4) سورة «يوسف». الآية 92.

(5) هذا مخالف لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ». أخرجه النسائي، وابن ماجه، والإمام

أحمد وغيرهم.

سبعمائة، فأين موضع العفو والصفح؟ وقد انتقم انتقام من لم تعطفه عليهم رحمة، ولا داخلته لهم رقة! قيل: إنما فعل ذلك في حقوق الله تعالى: وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد ابن مُعَاذَ عَلَيْهِمْ، فحكم: أن من جرت عليه الموسى<sup>(1)</sup>، قُتِلَ، ومن لم تجر عليه استُرقَّ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «وهذا حكم الله من فوق سبعة أرقعة». فلم يجز أن يعفو عن حقّ وجب لله تعالى عليهم؛ وإنما يختصّ عفوه بحقّ نفسه. والخصلة السادسة: حفظه للعهد، ووفاءه بالوعد، فإنه ما نقض لمحافظ عهده، ولا أخلف لمراقب وعداً يرى الغدر من كبائر الذنوب، والإخلاف من مساوئ الشيم، فيلتزم فيهما الأغلظ، ويرتكب فيهما الأصعب، حفظاً لعهد، ووفاءً بوعد! حتى يتدبّر معاهدوه بنقضه، فيجعل الله تعالى له مخرجاً، كفعل اليهود من بني قُريظة، وبني النضير، وكفعل قريش بصلح الحُدَيْبِيَّة، فجعل الله تعالى له في نكثهم الخيرة، فهذه ستّ خصال تكاملت في خلقه، فضله الله تعالى بها على جميع خلقه<sup>(2)</sup>!!

### استخراج العبر

**العبرة الأولى:** أن انتصار قبيلة على أخرى في الجاهلية، كان مشروطاً بجمع الصفّ وعدم الظلم. سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبيلة بني حارث بن كعب - حينما أسلمت على يد خالد بن الوليد -: «م كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنّا نغلب من قاتلنا - يا رسول الله -! إنّنا كنّا نجمع ولا نتفرّق، ولا نبداً أحداً بظلم. قال: «صدقتم».

**العبرة الثانية:** رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتبّاً بقرب أجله، وأولى الناس به المتّقون من أمته، ومعاذيكي على فراقه. روى الإمام أحمد، عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّهُ قَالَ: لما بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن، خرج معه يوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ! إنّك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلّك أن تمرّ بمسجدي هذا وقبري» فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم التفت بوجهه نحو المدينة فقال: «إنّ أولى الناس بي المتّقون من كانوا وحيث كانوا».

**العبرة الثالثة:** قال إسماعيل بن كثير - نقلاً عن محمد بن عمر الواقدي -: «كان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -! - شديد الاعتناء بموالي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -! - يحبّ أن يعرفهم

(1) «من جرت عليه الموسى»: من بلغ سنّ الرشد بنبت شعر عاتته.

(2) زاد المعاد، في هدي خير العباد، ج 3 ص 309 - 319.

ويُحسن إليهم . وقد كتب في أيام خلافته إلى أبي بكر بن حزم ، عالم أهل المدينة في زمانه ، أن يفحص له عن موالي رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- : الرجال ، والنساء ، وخدامه»<sup>(1)</sup> .

**العبرة الرابعة :** أن الولاء لا يُقَدَح في صاحبه ؛ ما دام مسلماً ، ولا يمنعه من الارتقاء إلى المناصب العالية والراتب السامية . فعلى هذا الأساس أحب رسول الله مواليه ، وأمر منهم على المقربين من أحبابه والشرفاء من أصحابه . وفي مقدمة هؤلاء الموالى : زيد بن حارثة وابنه أسامة ابن زيد . عن عائشة - رضي الله عنها !- قالت : « ما بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- زيد ابن حارثة في سرية إلا أمره عليهم ؛ ولو بقي بعده لاستخلفه»<sup>(2)</sup> . ولما عقد رسول الله راية الإمارة لأسامة بن زيد ، طعن بعض الناس في إمارته ، فقام رسول الله خطيباً فيهم فقال : « إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل ، وأيم الله إن كان خليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحب الخلق إليّ بعده» ؛ أي بعد أبيه زيد بن حارثة . ولذلك جعل عمر بن الخطاب لسهم أسامة خمسة آلاف ، وجعل لسهم ابنه عبدالله بن عمر أربعة آلاف ، فاحتج عبدالله على تفضيل أسامة ابن زيد عليه ، فقال عمر : «إنه كان أحب إلى رسول الله منك ، وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك» !! وفضائل زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد أكثر من كثير ! وبها قد سادا ، واستحقا ما هما جديران به :

نَفْسُ عَصَامٍ سَوَدَتْ عَصَامًا      وَعَلَّمَتْهُ الْكُرَّ وَالْإِقْدَامَا  
وَصَيَّرَتْهُ مُلْكًا هُمَامًا

**العبرة الخامسة :** أن أبا كبشة الأنماري مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- كان أحد رواة الأحاديث النبوية والحكم الحمديّة ؛ منها قوله : «ثلاث أقسم عليهنّ وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : « ما نقص مال من صدقة ، وما ظلم عبد بمظلمة فصبر عليها إلاّ زاده الله بها عزّاً ، ولا يفتح عبد باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر . . . »<sup>(3)</sup> . وقال أبو كبشة أيضاً : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- جالساً في أصحابه ، فدخل ثمّ خرج وقد اغتسل ، فقلنا : يا رسول الله !

(1) البداية والنهاية . ج 5 ص 315 .

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(3) رواه الترمذي وغيره .



قد كان شيء؟ قال: «أجل، مرّت بي فلانة فوق في نفسي شهوة النساء فأتيت بعض أزواجي فأصبتها، فكَذلك فافعلوا فإنّه من أمثال أعمالكم إتيان الحلال»<sup>(1)</sup>.

**العبرة السادسة:** أبو بكر وعمر يتعظان ببكاء أم أيمن مولاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ويكيان معها؛ وذلك حينما زارها إتيان وفاة رسول الله، فوجداها تبكي رسول الله، فقالا لها: أما تعلمين أنّ ما عند الله خير لرسول الله؟ فقالت: بلى؛ ولكن أبكي لأنّ الوحي قد انقطع من السّماء، فجعلا يكيان معها.

**العبرة السابعة:** رافق رسول الله ذات ليلة من الليالي أبو مؤيّهة مولاة إلى مقبرة البقيع بالمدينة المنورة، فوقف عليه الصلاة والسلام هناك، فدعا لأهل المقبرة واستغفر لهم. ثمّ قال: «لِهُنَّكُمْ ما أنتم فيه ممّا فيه بعض النَّاس، أتت الفتن كقطع اللَّيْلِ المظلم، يركب بعضها بعضاً: الآخرة أشد من الأولى، فليهنكم ما أنتم فيه». ثمّ رجع فقال: «يا أبو مؤيّهة! إني خيّرْتُ مفاتيح ما يفتح على أمّتي من بعدي والجنة أو لقاء ربّي، فاخترت لقاء ربّي». قال أبو مؤيّهة: فما لبث بعد ذلك إلّا سبعاً - أو ثمانياً - حتى قُبِضَ.

**العبرة الثامنة:** شرب بول رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - مناعة من داء البطون! روى الحافظ أبو يعلى، عن أمّ أيمن مولاة رسول الله قال: كان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فخارة يبول فيها، فكان إذا أصبح يقول: «يا أمّ أيمن! صبي ما في الفخارة»، فقامت ليلة وأنا عطشى، فشربت ما فيها، فقال رسول الله: «يا أمّ أيمن! صبي ما في الفخارة». فقلت: يا رسول الله! قمت وأنا عطشى فشربت ما فيها! فقال: «إنّك لن تشتهي بطنك بعد يومك هذا أبداً».

**العبرة التاسعة:** عن ميمونة بنت أبي عُسَيْب مولاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - قالت: إنّ امرأة من حريش أتت النبيّ - صلى الله عليه وسلم! - فنادت: يا عائشة! أغثيني بدعوة من رسول الله، تُسكّنيني بها وتُطمّئنيني بها. فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -: «ضَعِي يدك اليمنى على فؤادك فامسّحيه، وقولي: بسم الله، اللهمّ داوني بدوائك، واشفني بشفائك، وأغنني بفضلك عمّن سواك». قالت ربيعة: فدعوتُ به فوجدته جيّداً.

**العبرة العاشرة:** الرسول يدعو لأنس بن مالك والله يُجيب. سألت أمّ سليم بنت ملحان رسول الله أن يدعو لابنها أنس، فدعا بقوله: «اللهمّ أكثر ماله وولده، وأطل عمره،

(1) رواه الإمام أحمد.

وأدخله الجنة». قال أنس: فقد رأيت اثنتين، وأنا انتظر الثالثة، والله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتمادون على نحو مائة. وفي رواية: وإن كرمني ليحمل في السنة مرتين، وإن ولدي لصُلبي مائة وستة أولاد. ومات وعمره يزيد على مائة سنة.

### العبرة الواحدة بعد العاشرة: جاء في صحيح البخاري: عن هشام بن عروة، عن

أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها! - أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - قال لها: «أُرَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ؛ أَرَى أَنَّكَ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، ويقول (جبريل): هذه امرأتك، فأكشف فإذا هي أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضِ». »

## استخراج الأحكام

### الحكم الأول: أن الله قد برأ عائشة - رضي الله عنها! - من سبع سموات، ونزل عذرها

من هناك. وقد اتفقت أمة الإسلام على كفر قاذفها وتخليده في جهنم وبئس القرار.

### الحكم الثاني: نكاح رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لا يفتقر إلى وليٍّ من ينكحها.

روى الإمام أحمد - بسنده - عن أم سلمة: أنها لما انقضت عدتها من أبي سلمة، بعث إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - فقالت: «مرحباً برسول الله - صلى الله عليه وسلم! - إنني امرأة غَيْرِي، وإنني مصيبة، وليس أحد من أوليائي حاضراً...». الحديث. قال ابن عقيل مبيناً ما أشار إليه الإمام أحمد: «ظاهر كلام الإمام أحمد أن النبي - صلى الله عليه وسلم! - لا يُشترط في نكاحه الولي، وأن ذلك من خصائصه»<sup>(1)</sup>.

### الحكم الثالث: أن صداق الأمة هو عتقها، فتصير بذلك زوجة لمن أعتقها؛ دون أن

يحتاج إلى تجديد عقد ولا إلى إحضار وليٍّ؛ بدليل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - جعل صداق صفية بنت حيي بن أخطب هو عتقها، فتزوجها فصار ذلك سنة متبعة في أمة الإسلام إلى يوم الدين.

### الحكم الرابع: أن الله أباح أن يتزوج الرجل امرأة من تبناه متى أكملت عدتها. وهذا ما جاء

صريحاً فيما نزل في شأن زينب بنت جحش؛ حينما تزوجها رسول الله بعد أن فارقها زيد بن حارثة؛ وهو الذي تبناه. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾. وبذلك كانت زينب تفتخر على ضرائها، وتقول لهن: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات.

(1) ابن قيم الجوزية، محمد. زاد المعاد، في هدي خير العباد. ج 1 ص 43.

**الحكم الخامس :** أن نساء رسول الله - صلى الله عليه وسلم !- ثلاثة أصناف ؛ كل صنف منهن له حكم خاص به . صنف دخل بهن ومات وهن في عصمته ، وهن التسع المتقدم ذكرهن ، وهن حرام على الناس بعد موته عليه الصلاة والسلام بإجماع أمة الإسلام ، وعدتهن بانقضاء أجلهن . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ <sup>(1)</sup> . وصنف دخل بهن وطلقهن في حياته ؛ ففي هذا الصنف قولان :

**أحدهما :** يجري عليهن حكم ما جرى على الصنف المتقدم الذكر ، أي : يحرم زواج غير رسول الله بهن بعد انقضاء عدتهن ، وذلك لدخولهن في عموم الآية المذكورة أعلاه .

**ثانيهما :** نعم ، يجوز زواجهن بغير رسول الله بعد انقضاء عدتهن ، بدليل آية التخيير ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ <sup>(2)</sup> وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ <sup>(2)</sup> . قال علماء التفسير : فلولا أنهن يحللن لغير النبي - صلى الله عليه وسلم !- أن يتزوجوهن بعد فراقه إياهن لم يكن في تخييرهن بين الدنيا والآخرة فائدة ؛ إذ لو كان فراقه لهن لا يبيحهن لغيره ، لم يكن فيه فائدة لهن . والصنف الثالث : عقد عليهن وطلقهن قبل أن يدخل بهن ، فهؤلاء يحللن لغيره أن يتزوجهن . وأما من خطبهن ولم يعقد عليهن فمن باب أولى أن يتزوجن بغيره .

**الحكم السادس :** نزول فريضة التيمم وصفتها . روى محمد بن سعد بسنده ، عن الأسلع بن شريك بن عوف الأعرجي قال : كنت أخدم النبي - صلى الله عليه وسلم !- وأرحل معه ، فقال ذات ليلة : « يا أسلع ! قم فارحل » . قال : أصابتي جنابة ، يا رسول الله ! قال : فسكت ساعة ، وأتاه جبريل بآية الصعيد <sup>(3)</sup> . فقال : « قم - يا أسلع ! - تيمم » . قال : فتيممت وصلّيت ، فلما انتهيت إلى الماء قال : « يا أسلع ! قم فاغتسل » قال : فأراني التيمم : فضرب رسول الله يديه إلى الأرض ، ثم نفضهما ، ثم مسح بهما وجهه ، ثم ضرب يديه الأرض ، ثم نفضهما فمسح بهما ذراعيه ؛ باليمنى على اليسرى وباليسرى على اليمنى ؛ ظاهرهما وباطنهما .

(1) سورة «الأحزاب» . الآية 53 .

(2) سورة «الأحزاب» . الآية 28 ، 29 .

(3) الآية 43 من سورة «النساء» . الآية 6 من سورة «المائدة» .

**الحكم السابع :** كل شيء يستعين به الذاكر على ذكر الله مستحباً ومرغوب فيه شرعاً ،  
ومن ذلك الحصى التي كانت يُجاء بها في قفّة إلى أبي صفية مولى رسول الله ، فيسبّح بها من  
الصباح إلى منتصف النهار وقد تقدّم ذكر ذلك عند سرد موالي رسول الله ، ومنهم أبو صفية .  
فعلى هذا الأساس المتين والخبر المبين تُقاس الاستعانة على ذكر الله بالسّبحه مثل الاستعانة  
بالْحَصَى «والأعمال بالنيّات ؛ وإنّما لكلّ امرئ ما نوى» .  
**والله وليّ التوفيق**



# فهرس

الصفحة

الموضوع

5	الإهداء
7	مقدمة الكتاب
15	استهلال

## الفصل الأول: حياة رسول الله . صلى الله عليه وسلم!

### من ولادته إلى بدء نبوته

25	شخصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -
25	نسبه الطاهر من جهة أبيه
25	من هو أبوه؟
26	قصة نذر عبد المطلب ونجاة ابنه
27	زواج عبد الله من آمنه
28	وفاة عبد الله
29	من هو عبد المطلب؟
29	من هو هاشم؟
29	من هو عبد مناف؟
30	من هو قصي؟
30	من هو كلاب؟
31	من هو مرة؟
31	من هو كعب؟
31	من هو لؤي؟
32	من هو غالب؟
32	من هو فهر؟
32	من هو مالك؟
32	من هو النصر؟
32	من هو كنانة؟
32	من هو خزيمه؟
33	من هو مدركة؟

- 33..... مَنْ هُوَ الْيَاسُ؟
- 33..... مَنْ هُوَ مُضَرٌّ؟
- 34..... مَنْ هُوَ نَزَارٌ؟
- 34..... مَنْ هُوَ عَدْنَانٌ؟
- 34..... نَسَبُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! - مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ
- 35..... مَنْ هِيَ أُمُّهُ؟
- 35..... مَنْ هُنَّ أُمَّهَاتُهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ؟
- 35..... مَنْ هُمُ إِخْوَتُهُ وَأَخَوَاتُهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ؟
- 35..... مَنْ هُنَّ عَمَّاتُهُ؟
- 35..... أَبْنَاءُ عَمَّاتِهِ وَبَنَاتُهُنَّ؟
- 36..... مَنْ هُمُ أَخْوَالُهُ؟
- 37..... مَنْ هُمُ أَعْمَامُهُ؟
- 37..... مَنْ هُمُ أَبْنَاءُ أَعْمَامِهِ؟
- 39..... أَسْمَاؤُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- 42..... وَلَادَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- 43..... قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ
- 47..... مَا بَعْدَ وَضْعِ أَمْنَةٍ حَمْلُهَا
- 48..... مَنْ هِيَ حَاضِنَتُهُ؟
- 48..... مَنْ هُنَّ مَرَاضِعُهُ؟
- 49..... مَفْاجَأَةُ سَابِرَةِ الْحَلِيمَةِ وَأُسْرَتِهَا
- 50..... مَا جَاءَ فِي شَقِّ بَطْنِهِ
- 51..... وَفَاةُ أُمِّهِ أَمْنَةٍ
- 53..... ظُهُورُ بَعْضِ التَّبَاشِيرِ بِرَسُولِ اللَّهِ قَبْلَ وَلَادَتِهِ
- 54..... اسْتِخْرَاجُ بَعْضِ الْإِرْهَاصَاتِ
- 56..... رَسُولُ اللَّهِ فِي كِفَالَةِ جَدِّهِ
- 57..... مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فِي سَوْقِ مَجَنَّةٍ
- 58..... الْبَشَارَةُ بِنَبِيِّهِ
- 60..... وَفَاةُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ
- 64..... مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فِي كِفَالَةِ أَبِي طَالِبٍ
- 65..... قِصَّةُ اللَّهْبِيِّ الْعَائِفِ

66.....	قصة الرَّاهِبِ بَحِيرَةَ
70.....	حَفِظَ اللهُ لِرَسُولِهِ فِي صِغَرِهِ
74.....	شَهِدَ رَسُولُ اللهِ لِحَرْبِ الْفِجَارِ
76.....	رَسُولُ اللهِ يَشْهَدُ حَلْفَ الْفُضُولِ
78.....	سَفَرُ رَسُولِ اللهِ إِلَى الشَّامِ تَاجِرًا
80.....	مَنْ هِيَ خَدِيجَةُ؟
82.....	مَنْ هُوَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ؟
84.....	مِشَارَكَةُ رَسُولِ اللهِ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ
88.....	بِشَائِرُ مَبْعَثِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
88.....	التَّوْرَةُ
89.....	الْإِنْجِيلُ
90.....	الزَّبُورُ
91.....	كِتَابُ شُعْيَاءَ
91.....	كِتَابُ شَمْعُونِ
91.....	كِتَابُ حَزْقِيلَ
92.....	بَعْضُ مَا تَحَدَّثَ بِهِ رُهْبَانُ النَّصَارَى وَأَحْبَارُ الْيَهُودِ
93.....	اعْتِزَالُهُ عَنِ النَّاسِ وَاخْتِلَاؤُهُ فِي غَارِ حِرَاءَ

### الفصل الثاني: حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم

#### من بدء نبوته إلى بدء هجرته

99.....	بدء الوحي
100.....	حالُ رسول الله إبان فترة الوحي
101.....	مدة فترة الوحي
101.....	كيف كان ينزل الوحي على رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم ؟
102.....	كيف كانت حالاته عند نزول الوحي عليه ؟
104.....	زمانُ ابتداء نزول الوحي على رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم !
105.....	الآيات الأولى التي نزل بها الوحي
108.....	مَنْ هُم السَّابِقُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ؟
108.....	1 - خَدِيجَةُ
109.....	2 - عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
110.....	3 - زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ



110	4- أبو بكر الصديق .....
113	إسلام أبي ذر الغفاري .....
114	إسلام خالد بن سعيد بن العاص .....
115	إسلام ضماد الراقي .....
116	الأمر بتبليغ الرسالة والصدع بها .....
121	مساومة المشركين لرسول الله في دينه وحذب أبي طالب عليه .....
123	آخر محاولة قريش لإقناع أبي طالب كي يتخلّى عن ابن أخيه .....
124	اعتراف المشركين بنبوّة محمد في قرارة نفوسهم وإنكارهم لها في ظواهرهم .....
128	ما لقي رسول الله وأصحابه من أذى قريش .....
136	أسماء بعض المعذبين من المستضعفين .....
136	1- بلال بن رباح .....
137	2- عمّار بن ياسر .....
137	3- خباب بن الارت .....
138	4- صهيب الرومي .....
138	5- عامر بن فهيرة .....
138	6- أبو فكيهة ، أفلح .....
139	7- لبيبة جارية بني مؤمل .....
139	8- زنيرة .....
139	9- النهدية .....
139	10- أم عيسى .....
140	أسماء بعض المستهزئين برسول الله ومن كان أشدهم عذاباً له .....
140	1- أبو لهب .....
140	2- أبو جهل .....
140	3- الأسود بن عبد يغوث .....
141	4- الحارث بن قيس .....
141	5- الوليد بن المغيرة .....
141	6- 7- أمية وأخوه أبي .....
142	8- أبو قيس بن الفاكهة .....
142	9- العاص بن وائل .....
143	10- النضر بن الحارث .....

143	11 - 12 - مُنَبِّهٌ وَأَخُوهُ نُبَيْهٌ .....
143	13 - زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةٍ .....
144	14 - عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ .....
144	15 - الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلَبِ .....
144	16 - طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ .....
145	17 - مَالِكُ بْنُ الطَّلَاطِلَةِ .....
145	18 - رُكَّانَةُ بْنُ عَبْدِ يَزِيدٍ .....
145	اعتراض المشركين على رسول الله وتعتبهم في أسئلتهم إِيَّاهُ .....
150	الهجرة الأولى إلى الحبشة .....
151	عودة المهاجرين إلى مكة .....
152	الهجرة الثانية إلى الحبشة .....
156	إسلام النَّجَاشِيِّ ووفاته وصلاة الغائب عليه .....
161	قصة الغرائق الكاذبة مدسوسة! .....
172	إسلام حمزة بن عبد المطلب .....
173	إسلام عمر بن الخطاب .....
174	كيف كان إسلام عمر؟ .....
179	قرار المشركين لحصار بني هاشم وبني المطلب .....
183	نزول الآيات المُرْهَبَةِ لِمَنْ آذَى رَسُولَ اللَّهِ .....
188	ما نزل من الآيات القرآنية في الأمر بملازمة المستضعفين والنهي عن الإعراض عنهم .....
190	قدوم وفد الحبشة على رسول الله وإسلامهم .....
191	قصة أبي هريرة وإسلامه .....
192	قصة إسلام أمّ شريك الدوسية .....
193	قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي وعائلته .....
200	وفاة أبي طالب .....
201	هل أسلم أبو طالب أم مات على شركه وكفره؟ .....
203	وفاة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .....
207	لفتة من أبي لهب لم تدم .....
208	خروج رسول الله من مكة إلى الطائف .....
211	الجن يستمع لقراءة رسول الله ودخوله مكة مستجيراً .....
214	معجزة الإسراء والمعراج .....

230	.....	مُعْجَزَةُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ
235	.....	عَرْضُ رَسُولِ اللَّهِ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ فِي الْمَوَاسِمِ
236	.....	لِقَاءُ رَسُولِ اللَّهِ رَهْطاً مِنْ قَبِيلَةِ الْخَزْرَجِ عِنْدَ الْعُقْبَةِ
237	.....	بَيْعَةُ الْعُقْبَةِ الْأُولَى
238	.....	إِسْلَامُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ
239	.....	الْإِذْنُ بِإِبَاحَةِ الْجِهَادِ
241	.....	بَيْعَةُ الْعُقْبَةِ الثَّانِيَةِ

### الفصل الثالث: حياة رسول الله

#### من بدء هجرته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام

249	.....	مَا هِيَ الْهَجْرَةُ؟
250	.....	الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فِي الْهَجْرَةِ
252	.....	هَجْرَةُ الْأَنْبِيَاءِ
253	.....	هَجْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ وَأَصْحَابِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ
260	.....	فَرَحَةُ الْأَنْصَارِ بِقُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ
262	.....	مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي بَادِرُ بِإِنْجَازِهَا رَسُولُ اللَّهِ؟
270	.....	أَهَمُّ وَقَائِعِ السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ
272	.....	مَا مَعْنَى الْأَذَانِ؟
274	.....	السَّرَايَا الثَّلَاثُ الْأُولَى فِي الْإِسْلَامِ، إِحْدَى الْغَزَوَاتِ
280	.....	أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ بِالْمَدِينَةِ
281	.....	السَّنَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْهَجْرَةِ
281	.....	غَزْوَةُ بُوَاطٍ
282	.....	غَزْوَةُ بَدْرِ الْأُولَى
282	.....	غَزْوَةُ الْعَشِيرَةِ
282	.....	سَرِيَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ
288	.....	غَزْوَةُ بَدْرِ الْكُبْرَى
289	.....	نَجَاةُ أَبِي سُفْيَانَ بِالْعِيرِ وَاسْتِغْفَارُهُ لِقُرَيْشٍ !!
291	.....	اتِّخَاذُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْمَكَانَ الْمُنَاسِبَ
292	.....	دَيْبِ الْخِلَافِ بَيْنَ قُرَيْشٍ
293	.....	بَدْءُ الْقِتَالِ الْجَدِّيِّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ لِلْسَّنَةِ الثَّانِيَةِ الْهَجْرِيَّةِ
296	.....	انْهْزَامُ الْمُشْرِكِينَ وَانْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ

297	أسماءُ شهداء المسلمين بيدر.....
298	النجاشي يفرح بانتصار المسلمين.....
299	الحديث عن تقسيم الغنائم.....
300	الحديث عن أسرى المشركين.....
301	الحديث عن العباس بن عبد المطلب.....
303	الحديث عن أبي العاص لقيط بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس.....
303	ما هو السبب في زواج أبي العاص من زينب؟.....
305	مقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط؛.....
306	غزوة بني قينقاع.....
308	غزوة بني سليم بالكُدر أو غزوة قرقرة الكُدر.....
309	غزوة السويق.....
310	أهم الحوادث بُعيد غزوة بدر الكبرى.....
323	السنة الثالثة من الهجرة النبوية.....
323	غزوة ذي أمر.....
325	غزوة بني سليم ببحران.....
325	سرية زيد بن حارثة.....
326	غزوة أحد.....
327	السبب في هذه الغزوة.....
338	غزوة حمراء الأسد.....
338	مقتل كعب بن الأشرف اليهودي.....
340	مقتل أبي رافع سلام اليهودي.....
352	السنة الرابعة من الهجرة النبوية.....
352	سرية قطن.....
353	سرية عبد الله بن أنيس.....
354	سرية الرجيع.....
358	قصة شهداء بئر معونة.....
362	غزوة بني النضير.....
368	غزوة ذات الرقاع.....
373	غزوة بدر الثالثة.....
374	السنة الخامسة من الهجرة.....

374	غزوة دُومة الجندل .....
375	غزوة الخندق .....
376	اتخاذ حصن المدينة بالخندق .....
383	شهداء المسلمين يوم الخندق .....
383	قَتلى المشركين يوم الخندق .....
383	ما أنزل الله من القرآن في غزوة الخندق .....
391	بعض المعجزات ظهرت عياناً إبان حَفْرِ الخندق .....
393	غزوة بني قُرَيْظَةَ .....
403	أهمّ حوادث هذه السنة من غير حوادث الجهاد .....
405	السَّنة السَّادسة من الهجرة .....
405	غزوة بني لَحْيَان .....
406	غزوة ذي قَرْد .....
410	غزوة بني المصطلق .....
412	حديث الإفك عن عائشة .....
423	أَمْرُ الحُدَيْبِيَّة .....
428	بَيْعَةُ الرِّضْوَان .....
428	أَمْرُ الهُدنة ، أَوْ صَلْحُ الحُدَيْبِيَّة .....
443	السَّرَايا .....
457	السَّنة السابعة من الهجرة .....
457	غزوة خَيْبَر: .....
459	مدّة الحصار لأهل خيبر ومقتل مَرْحَب اليهودي وأخيه يسار .....
461	رجل يُحِبُّه اللهُ ورسوله .....
462	صلحُ المسلمين مع أهل خيبر .....
463	أسماء شهداء خيبر .....
463	الهدية المسمومة .....
465	الحديث عن صفية أم المؤمنين .....
479	غزوة وادي القُرى .....
481	السَّرَايا .....
481	سرية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه !- إلى ثُرَيْبَة في شعبان سنة سَبْع .....
481	سرية أبي بكر - رضي الله عنه !- إلى نَجْد في شعبان سنة سبع .....

481	سرية بشير بن سعد إلى فدك في شعبان سنة سبع
483	سرية بني عبد بن ثعلبة ، عليها غالب بن عبد الله إلى الميقات في رمضان سنة سبع
491	السنة الثامنة من الهجرة
491	غزوة مؤتة
498	ذكر إسلام عمرو بن العاص و خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة
498	سبب إسلام عمرو بن العاص
500	سبب إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة
507	غزوة فتح مكة
508	سبب هذا الفتح
510	خروج أبي سفيان من مكة إلى المدينة يريد المصالحة
511	الرسول - صلى الله عليه وسلم ! - يستعد لفتح مكة
512	حاطب يكتب إلى أهل مكة ويحذّرهم ممّا عزم عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! -
522	الرسول - صلى الله عليه وسلم ! - يدخل الكعبة ويوصي المسلمين بعد خروجه منها
523	هذم العزرى على يد خالد بن الوليد
525	سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة
526	مدة إقامة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بمكة بعدما فتحها
532	غزوة حنين
534	خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - للقاء هوازن
537	غزوة أوطاس
538	غزوة الطائف
542	اقتسام غنائم حنين بعد النصر المبين
544	عمرة الجعرانة
557	السنة التاسعة للهجرة
557	غزوة تبوك
563	ما أنزل الله من القرآن في غزوة تبوك
567	قدوم وفد ثقيف
568	حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه !
571	نزول سورة «الفتح»
572	ذكر وفود الوافدين إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ! - بالمدينة سنة تسع
573	قدوم وفد بني تميم

575	..... نزول سورة «الحجرات»
576	..... قدوم وفد بني عامر ومصير عامر بن الطفيل وأريد بن قيس
579	..... إسلام ضمام بن ثعلبة بعد اقتناعه بأجوبة رسول الله عن أسئلته له
580	..... وفد عبد القيس للمرة الثانية
581	..... وفد بني حنيفة بصحبة مسيلمة الكذاب
583	..... وفد أهل نجران
583	..... وفد طيء برئاسة زيد الحيل وقصة عدي بن حاتم
584	..... الحديث عن عدي بن حاتم
587	..... وفد قروة بن مسيك المرادي
588	..... قدوم عمرو بن معد يكرب في أناس من بني زبيد
589	..... قدوم وفد كندة فيهم الأشعث بن قيس
590	..... قدوم صرد بن عبد الله الأزدي
591	..... قدوم رسول ملوك حمير بكتابهم
593	..... قدوم وفد بني أسد
593	..... قدوم وفد بني فزارة
594	..... قدوم وفد بني مرة
594	..... قدوم وفد بني كلاب
594	..... قدوم وفد بني البكاء
595	..... وفد نجيب وقدوم أهل اليمن
603	..... أهم حوادث السنة التاسعة من غير حوادث الجهاد مسجد الضرار
604	..... التوجيه الأول في الأوصاف
608	..... التوجيه الثاني في المصائر
609	..... النهي عن تكثير بناء المساجد
613	..... السنة العاشرة للهجرة
613	..... إرسال خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب وإسلامهم على يديه
616	..... إرسال أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن
618	..... إرسال خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب إلى اليمن
621	..... خروج الأمراء والعمال لجمع الصدقات
621	..... كتاب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجوابه عنه
622	..... حجة الوداع

623	خطبة حجة الوداع
625	عيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - لسعد بن أبي وقاص
625	قدوم وفود السنة العاشرة
632	السنة الحادية عشرة للهجرة بعث أسامة بن زيد إلى الشام
632	ومرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ووفاته
636	عمر بن الخطاب لا يُصدق بوفاة رسول الله
636	أبو بكر الصديق يُسلم بقضاء الله ويُعلن وفاة رسول الله
637	حوار مثمر بين المهاجرين والأنصار في شأن الإمارة بسقيفة بني ساعدة
639	تجهيز رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - ودفنه
639	صفة غسله
640	صفة كفنه
640	صفة الصلاة عليه ومكان دفنه
641	افتتان بعض المسلمين بعد موت رسول الله - عليه الصلاة والسلام! -
642	ملحوظة هامة
643	ما حلّ بالمسلمين بعد وفاة رسول الله - عليه الصلاة والسلام! -
643	قصة أبي ذؤيب الهذلي
645	رثاء فاطمة - رضي الله عنها! - لأبيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -
645	رثاء أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يكي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -
646	رثاء خسان بن ثابت يكي رسول الله - صلى الله عليه وسلم! -
662	عدد غزواته عليه الصلاة والسلام
663	مكاتبته - عليه الصلاة والسلام! - إلى الملوك وغيرهم
669	زوجاته
670	1 - زواجه بخديجة
670	2 - زواجه بسودة
671	3 - زواجه بعائشة
671	4 - زواجه بحفصة
671	5 - زواجه بأم سلمة
672	6 - زواجه بزینب بنت خزيمة
672	7 - زواجه بزینب بنت جحش
672	8 - زواجه بجويرية بنت الحارث



673	9 - زواجه بصفية
673	10 - زواجه بأم حبيبة
674	11 - زواجه بميمونة
674	نساء خطبهنّ ولم ينكحهنّ
674	سراريه
675	أولاده وبناته
677	عبيده ومواليه
680	إماؤه
682	خدّامه
684	كتّابه
686	خاتمه
686	أُمرأؤه
681	حرّاسه
681	مؤدّنوه
688	شعراؤه
688	حُدّاته
688	راياته وألويته
689	حملة الألوية والرايات
689	أسيّافه
690	أدرعه
690	قسيّة (أقواسه)
690	أترّاسه
690	أرمّاحه
690	جبابه
690	مغفّراه
691	أفّراسه
691	بغاله
691	حماراه
691	إبله
692	شياهه

692	.....ملايسه
692	.....بر دته
693	.....خاتمہ
693	.....نعلہ
693	.....مُکھلتہ
694	.....نبذة من شرف أخلاقه وكمال فضائله - عليه الصلاة والسلام! -

